الفصل السادس:

جهاد اللغة العربية والإسلام ضد الصليبيين والمغول

دور اللغة العربية في جهاد الصليبيين والمغول

إن مدة الاجتياح الصليبيّ – المغولي لديار الإسلام، قرنين ونصف قرن من الزمان، من منتصف القرن الخامس إلى مطلع القرن الثامن الهجري (أي منتصف القرن الحادي عشر حتى مطلع القرن الرابع عشر الميلادي)، وتحديداً من موقعة ملاذكرد عام ٤٦٣هـ–١٠٧١م حتى موقعة شقحب ٧٠٢هـ–١٣٠١م (ويمكن مدّها حتى فتح جزيرة قبرص عام ٨٢٩هـ–١٤٢٦م)، هي مدة جديرة بالدراسة والبحث وجديرة بالاعتبار والتعليم؛ لأنها تمثل أطول مدة في التاريخ الإسلامي على الإطلاق؛ ولأنها حقبة عصيبة هددت وجود الإسلام بالاستئصال والزوال، وهددت لغة الإسلام، اللغة العربية، بالموت والانقراض (كما حصل ذلك في سقوط الأندلس عام ١٤٩٢م؛ إذ حُرّم بعدها التدين بدين الإسلام، وحُرّم التواصل باستعمال اللغة العربية، فزال الإسلام وزالت العربية معاً بعد قرن واحد من زوال دولة الإسلام بالأندلس).

هناك سببان آخران يستدعيان هذه الدراسة ويستحقان عناء البحث: أولاً، إن هذه المدة تمثل عصر احتكاك واتصال وتأثير لحضارة المشرق الإسلامي العربي في همجية الغرب الأوروبي النصراني، وفي وحشية الشرق المغولي التتاري. وهذا الاحتكاك والاتصال والتأثير عميق الأثر وبالغ الخطر وبعيد النظر، وترتب عليه خيرٌ وفير لأوروبا: كالتفكير العلمي الحر، وعصر النهضة الأوروبية، والإصلاح الديني البروتستانتي الأوروبي. وترتب عليه أيضاً هداية الدخول وتحولهم من أمة متوحشة إلى أمة متحضرة تدين بدين الإسلام، الدين الذي حاربوه ابتداء، وتحالفوا والصليبيين لقهره، فقهرهم الله وهداهم، بدل ذلك، إلى الإسلام.

والسبب الآخر للدراسة والبحث: هو أنّ هذه المدة تمثل جذور الماضي لصورة الإسلام في أوروبا، ولنظرة الغرب الحديث للعالم الإسلامي اليوم، بل تمثل الخلفية التاريخية التي مهدت لأحداث الحاضر والمستقبل. فمن لا يفهم مدة الحروب الصليبية على المشرق الإسلامي، لايستطيع ولن يستطيع فهم الحملات الدعائية المستمرة لتشويه صورة الإسلام وسمعته، والاستعداء دونما سبب على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم، ولا فهمَ أسباب الحملات الغربية المتأخرة والمتعاقبة على بلاد الإسلام، وتصدي العثمانيين لها في جهادهم البطولي ضد تحالفات الغرب النصراني التي أدت من ثم إلى فتح القسطنطينية وما تبعها من مدّ التأثير الإسلامي العثماني في أسماق أوروبا، ولا فهمَ أسباب سقوط دولة الإسلام بالأندلس، ولا فهم محاولات الغرب الحديثة والحثيثة لاستعمار (استخراب) العالم الإسلامي والسيطرة عليه وعلى ثرواته، مثل دخول الفرنسيين (الفرنجة) إلى الشمال الإفريقي والشرق العربي في سياق محموم مع الإيطاليين والإسبان (الرومان الكاثوليك) ومع الإنجليز البروتستانت (والأمريكان المتحدرين من نسلهم الأنجلوساكسوني)، ومثل محاولتهم اقتسام القارة السوداء كالكعكة بين الأوروبيين (وهكذا تسمى بالإنجليزية Scramble of Africa)، حتى إن الغزو الأمريكي على العراق بقيادة الرئيس بوش الابن عام ٢٠٠٣م قد سُمي بالحملة الصليبية العاشرة على ديار الإسلام!!!

وإذا كانت مدة الإسلام تمتد ١٤ قرناً من الزمان من تاريخ البعثة النبوية (وإن كانت جذور الإسلام تمتد إلى آدم)، فإنّ هذه المدة الحرجة، قرنين ونصف قرن، تمثل ١٧,٨٪ من تاريخ الإسلام الكليّ. فهي إذن بالفعل مدة جديرة بالدراسة والتعليم، وبالبحث والتقصي.

عندما ضعفت الخلافة العباسية الإسلامية (في أواخر عصرها) وتقطعت أوصالها إلى دويلات متنحرة في زمن ضعف الأمة الإسلامية إيماناً وجهاداً واجتهاداً، سهل انتصار الحملات الصليبية القادمة من الغرب وسهل تتابعها، وسهل اجتياح المغول العالم الإسلامي من الشرق وواكبت اللغة العربية الأحداث الكبرى التي زلزلت العالم الإسلامي وهددت وجود المسلمين، وضيّقت عليهم دار الإسلام، إذ قامت بتسجيل هذه الأحداث الخطرة، ووثقت معاركها ووقائعها وحروبها الجهادية، إلى أن خرج الإسلام من عنق الزجاجة منصوراً، بل خرج من هذا القمقم المظلم كالمارد الجبار ليكيل الصاع صاعين لكلّ الغزاة المتوحشين من الفرنج الصليبيين الغاصبين، ومن جحافل التتار الكافرين.

ولم يكتف عمل اللغة العربية بمواكبة الأحداث وتوثيقها فحسب، بل كان للعربية عمل آخر، عمل ريادي جهاديّ قياديّ لصنع النصر عبر تأجيج حماسة الجهاد قبل المعارك، والتواصل والمراسلات والحرب الإعلامية والحرب النفسية مع أعداء الإسلام قبل المعارك وبعدها، وفي تخليد هذه الانتصارات، وفي فتاوى العلماء بترشيد الأمة بضرورة قتال المغول الذين ادعوا الإسلام زوراً وهم يقتلون المسلمين ويحالفون الصليبيين؛ ثم بروز أهمية العربية في رفع الهمم لمعاودة القتال عند الانكسارات.

إنّ عمل العربية الجهادي باللسان وبالقلم لا يقلّ عن جهاد المسلمين بالمال والنفس، كما جاء في الأثر:

(مداد العلماء أفضل عند الله من دماء الشهداء)، و(يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء، فيرجح مداد العلماء على دم الشهداء)، وقد قيل:

يا طالبي علم النبيّ محمد ... ما أنتمُ وسواكمُ بسواء

فمداد ما تجري به أقلامكم ... أزكى وأرجح من دم الشهداء

ويشير المتنبي إلى أن قوة الكلمة (الممثلة بالقلم) التي لا تخاف المنيّات؛ أي: الموت، هي أقوى على الأعادي من قوة المشرفيات؛ أي: السيوف:

قومٌ إذا أحدّوا الأقلام من غضب ... ثم استمدوا بها ماة المنيّات

نالوا بها من أعاديهم وإن بعدوا ... ما لا يُنال بحدّ المشرفيّات

ويقول أبو الطيب المتنبي أيضاً:

إذا رأيت نيوب الليث بارزة ... فلا تظنن أن الليث يبتسم

الخيل والليل والبيداء تعرفني ... والسيف والرمح والقرطاس والقلم

وقد قيل:

أن النار بالعيدان تذكى ... وأن الحربَ مبدؤها كلام

ويزيد ذلك ما قاله معروف الرصافي من المتأخرين:

وقتلته بالقول لا بمهنّدي ... والحربُ أحرى أن تكون مقالا

لتستجد في مسيرة الجهاد أمور وتحدث قضايا تستوجب الاجتهاد. ومن هنا كانت مهمة العلماء العاملين المؤمنين المجاهدين في الاطلاع على أمور الاجتهاد لتقرير الحكم الشرعي بطريق البحث واستقراء الأدلة ووزنها. وكان التوجيه المعنوي والخطاب الإسلامي قبيل المعارك وفي أثنائها دوما باستخدام اللغة العربية، لغة الإسلام، سواء كان الجند عربا أم عجما، تركا أم كردا، سودانا أم بربرا.

والعالم إن أصاب في اجتهاده فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد، وبهذا جاء الحديث الشريف عن النبي ﷺ: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد». وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران ١٨٧]. إن مهمة العلماء، ولاسيما أهل الاجتهاد، كبيرة في ظل احتلال العالم الإسلامي عبر تزويدها بالفتاوى لتصحيح مسيرتها وترشيدها.

ولقد قام العلماء العاملون المجاهدون (بالقول والفعل) حملات التصدي للصليبيين والمغول، أمثال: سلطان العلماء العزّ بن عبد السلام، الذي خرج مُجاهداً مع جيش مصر بقيادة الملك الصالح نجم الدين أيوب؛ لردّ الحملة الصليبية السابعة على دمياط. وبتوفيق الله ثم جهاد المسلمين ودعوات هذا الشيخ المجاهد استُجيب له، فسخر الله الريح على سفن العدو، وانهزم الجيش الفرنسي، وأُسر ملك فرنسا لويس التاسع نفسه، وسُجن وذاق طعم الذلّ والهوان في سجن المنصورة.

وخرج الشيخ العز بن عبد السلام أيضاً مجاهداً مع جيش المماليك وأمة الإسلام بقيادة الملك المظفر قطز لردّ جحافل المغول. وبتوفيق الله ودعوات السلطان المجاهد قطز ودعوات الشيخ المُستجابة في ميدان المعركة في عين جالوت، قهر الله جحافل المغول وأبادهم عن بكرة أبيهم، وتحطمت أسطورة الجيش الذي لا يُقهر، ليبدأ بذلك العد التنازلي لانهيار إمبراطورية المغول.

ثم خرجت جيوش الإسلام من الشام ومصر لإنهاء الوجود الصليبي المتبقي في عكا، وتطهير ديار الإسلام منهم نهائياً. وخرج شيخ الإسلام ابن تيمية مجاهداً مع جيش الشام إذ ذاك، وأدهش المقاتلين بصنائعه في فتح عكا، آخر معقل وعاصمة لمملكة الصليبيين في ديار الإسلام. ثم خرج هذا الشيخ المجاهد ابن تيمية في جيوش الشام ومصر بقيادة الملك الناصر محمد بن قلاوون ضد جحافل المغول في معركة شقحب، التي نصر الله بها المسلمين النصر النهائي الساحق المؤزّر على جيوش المغول.

وكان للغة العربية، لغة الإسلام، عمل ريادي في اجتهاد العلماء بضرورة قتال المغول الذين ادّعوا الإسلام زوراً، وهم يقتلون المسلمين ويحالفون الصليبيين، كما ورد ذلك في رسالة ابن تيمية الرائعة والخطيرة قبيل موقعة شقحب المباركة.

وكانت المراسلات بين السلطان الناصر محمد بن قلاوون البطل وبين إيلخان المغول محمود قازان المحرم باللغة العربية، ثم كان الانتصار في موقعة شقحب انتصاراً هيجلياً للإسلام. وكان أيضاً انتصاراً عظيماً للغة العربية، لغة الإسلام الخالدة.

لقد كان لهذه اللغة المباركة، لغة القرآن والإسلام، أبلغ الأثر في بعث هذه الأمة الإسلامية من رقادها وسباتها، وفي تجديد إيمانها ودينها لتنتفض وتصحو من جديد، ولتقف ثانية؛ كي تدافع عن بيضة الإسلام، ثم لتوجّه الضربات القاضية وتدحر أعتى قوتين في العالم آنذاك: اتحاد أوروبا الصليبي، وجموع المغول العاتية، بالضبط كما قام أسلاف هذه الأمة المباركة بتقويض إمبراطوريتي الفرس والروم من قبل. وقد أثرت اللغة العربية في استنهاض هذه الأمة الإسلامية، وتمكينها من جديد، عبْر تأثيرها في مجالين اثنين بالتحديد: في مجال التوحيد، وفي مجال الجهاد (أي في مجال التوعية والمعنويات الروحية، وفي مجال العمل الميداني).

١. بعثت العربية مفهوم التوحيد بالله رباً ومعبوداً، ومجّدت أسماء الله الحسنى بمفرداتها اللغوية الواسعة:

فالله هو المُقدّر لما يحدث، وهو مقلب الأمور، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۝٣٠ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ الشورى: ٣٠-٣١، وهذه الآية أرجى آية في كتاب الله عز وجل؛ إذ روي هذا المعنى مرفوعاً عن علي بن أبي طالب ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله حدّث بها النبي ﷺ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾» الآية.

«يا علي، ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا فبما كسبت ايديكم. والله اكرم من ان يُثني عليكم العقوبة في الآخرة، وما عفا عنه في الدنيا فالله أحلم من ان يعاقب به بعد عفوه» (تفسير القرطبي). قال الواحدي: وهذه أرجى آية في كتاب الله: لأنه جعل ذنوب المؤمنين صنفين: صنف كفره عنهم بالمصائب، وصنف عفا عنه في الدنيا، وهو كريم لا يرجع في عفوه، فهذه سُنة الله مع المؤمنين؛ وأما الكافر فإنه لا يعجل له عقوبة ذنبه حتى يوافي به يوم القيامة (فتح القدير للشوكاني). بل إنّ الله قد يفتح على الكافرين المشركين بالأموال والانتصارات المؤقتة في الدنيا، مكراً منه واستدراجاً لهم قبيل استئصالهم فجأة وبغتة على حين غرة ودون مقدمات: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ۝٤٢ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٤٣ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ۝٤٤ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الأنعام: ٤٢-٤٥.

والله هو الناصر، وهو القاهر فوق عباده، وإن نصر الله مضمونٌ لمن ينصر دين الله ويأخذ بالأسباب، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ محمد: ٧؛ فنعم المولى ونعم النصير، ثم إنّ الإيمان بالله الواحد يقتضي الإيمان بقدر الله، وإنّ كلّ نفس لا تموت إلا بإذنه بعد ان تستوفي أجلها كتاباً محتوماً مؤجلاً، والأعمال كلها بيد الله وحده، كما قال الله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٥١ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ۝٥٢﴾ التوبة: ٥١-٥٢.

ثم إن الله هو وحده الرزاق الوهاب الكريم، وهو وحده مالك الملك، القابض الباسط، الخافض الرافع، المُعزّ المُذلّ، المعطي المانع، والضار النافع، كما ورد في الدعاء «اللهم لا مانع لما أعطيت ولا مُعطي لما منعت». وتقتضي عقيدة التوحيد إذن أن من يعبد الله وحده (لا يشرك به شيئاً)، لا يخاف أحداً من عباد الله أبداً؛ لأن الله هو وحده ربّ الأرباب، ومسبّب الأسباب، وهازم الأحزاب.

فإنّ دفع الصائل وإخراجه من ديار الإسلام، في المنظور الشرعي، هو الجهاد في سبيل الله أي: أن يقاتل المجاهد لتكون كلمة الله هي العليا، يقاتل وهو يحمل عقيدة التوحيد: عقيدة لا إله إلا الله، يقاتل وهو يسعى إلى إحدى الحسنيين: إما النصر وإما الشهادة في سبيل الله، والله ضامن نصر المؤمنين وضامن إلقاء الرعب في قلوب أعدائهم.

قال تعالى: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ آل عمران: ١٥١، فقد ذكر الله سبحانه السبب الموجب لإلقاء الرعب في قلوب الكافرين، فقال: ﴿بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾. آل عمران: ١٥١.

وشوب عقيدة المسلمين بعدم الإخلاص لله، وخلوها من تمام التوكل على الله، وامتزاجها بالبدع والأباطيل، له عاقبة أنّ لله لن ينصره برغب أعدائه المشركين.

ثم إن ضعف الإيمان يُضعف الثبات في المعارك، ويؤدي إلى الفرار والهزيمة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٥٥]. يخبر الله تعالى عن حال الذين انهزموا يوم (أحد) وما الذي أوجب لهم الفرار، وأنه من تسويل الشيطان، وأنه تسلط عليهم ببعض ذنوبهم فهم الذين أدخلوه على أنفسهم، فلم يعتصموا بطاعة ربهم.

ثم إن اليقين بنصر الله تعالى، وأن النصر من عند الله لا من غيره، هو أساس الاعتقاد الصحيح في ميدان المعارك والجهاد في سبيل الله، قال تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠]: أي: إن يمددكم الله بنصره ومعونته ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾، ولو اجتمع عليكم من في أقطارها وساعدهم من العدد والعُدد؛ لأن الله لا مُغالب له، وقد قهر العباد وأخذ بنواصيهم، فلا تتحرك دابة إلا بإذنه، ولا تسكن إلا بإذنه. ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ ويكلكم إلى أنفسكم. ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ فلابد أن تتخذلوا ولو أعانكم جميع الخلق؛ وفي ضمن ذلك الأمر بالاستنصار بالله والاعتماد عليه، والبراءة من الحول والقوة: ولهذا قال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فتقديم المعمول يؤذن بالحصر: أي: على الله توكلوا لا على غيره؛ لأنه قد علم أنه هو الناصر وحده، فالاعتماد عليه توحيد محصل للمقصود، والاعتماد على غيره شرك غير نافع لصاحبه، بل ضار، وفي هذه الآية الأمر بالتوكل على الله وحده وأنه بحسب إيمان العبد يكون توكله. انظر "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان" للعلامة الشيخ عبد الرحمن السعدي.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٧]. ذلك أن النبي ﷺ وقت القتال دخل العريش وظل يدعو الله، ويناشده في نصرته، ثم خرج منه فأخذ حفنة من تراب، فرماها في وجوه المشركين فأوصلها الله إلى وجوههم، فما بقي منهم واحد إلا وقد أصاب وجهه وفمه وعينيه منها، فحينئذ انكسر حدهم، وفتر زندهم، وبان فيهم الفشل والضعف، فانهزموا، يقول تعالى لنبيه: لستَ بقوتك، حين رميت التراب، أوصلته إلى أعينهم، وإنما أوصلناه إليهم بقوتنا واقتدارنا.

وقوله تعالى: ﴿وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ أي: إن الله تعالى قادر على انتصار المؤمنين من الكافرين، من دون مباشرة قتال، ولكن الله أراد أن يمتحن المؤمنين، ويوصلهم بالجهاد إلى أعلى الدرجات، وأرفع المقامات، ويعطيهم أجراً حسناً وثواباً جزيلاً.

إن في التوحيد كمال الإيمان، وهو جماع الأسباب كلها، فهو إذا تحقق فلابد أن تأتي أسباب النصر الأخرى له تبعاً؛ ولذا وعد الله المؤمنين في أكثر من موضع في كتابه العزيز بالنصر والتمكين والاستخلاف، قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]. ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١]. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩].

وترجمت اللغة العربية معاني التوحيد عملياً في ضرورة توحيد البلاد والعباد، فكل بني الإنسان خلق الله بلا تفضيل عرقي أو طبقي، ولا فرق بين عربيّ وأعجمي إلا بالتقوى، ولن يصلح آخرُ هذه الأمة إلا بما صلح به أوّلها: كما قال عمر بن الخطاب ﷺ: (نحن العرب أذلة، أعزّنا الله بالإسلام، فمهما حاولنا العزة بغير الإسلام أذلنا الله). فمهما

كانت الألقاب والشعارات – دون العودة المخلصة إلى دين الإسلام الحق – مستطل الأنانيات الشخصية ودويلات الطوائف الضعيفة تنخر في جسد الإسلام. وصدق محمد بن عمار المهري الأندلسي القائل:

مما يزهدني في أرض أندلس	ألقابُ معتصم فيها ومعتضد
ألقابُ مملكة في غير موضعها	كالهرّ يحكي انتفاخا صولة الأسد

إن تفرق الكلمة سبب للفشل وذهاب القوة والهيبة من نفوس الأعداء، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]. بل قد يتحول النصر إلى هزيمة، لكن اجتماع الكلمة لايكون كيفما اتفق، وإنما باجتماع المسلمين على المنهج الحق في الكتاب والسنة، والتحاكم إليهما، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

إن الإسلام هو دين العالمين جميعاً، ولأن العرب آنذاك قد ضعفت شوكتهم وعملهم القيادي، فإن الله قيّض لأمة الإسلام من يقوم بأمر الإسلام وقيادته، فاستبدل بالعرب إخوانهم الأتراك السلاجقة، وآل زنكي التركمان، وبني أيوب الأكراد، والمماليك الشراكسة التركمان، ثم آل عثمان الأتراك، وأذابهم جميعاً مع العرب في بوتقة الإسلام الكبيرة وفي حاضنته الجامعة، ليحملوا راية الجهاد.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]؛ أي: إخوة تربط بين جميع المؤمنين الأولين والآخرين، عرباً وعجماً، أغنياء وفقراء، رؤساء ومرؤوسين. قال ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضا» وشبّك بين أصابعه. رواه البخاري ومسلم. وقال ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى» رواه البخاري ومسلم وأحمد. وعن عليّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم، ويرد عليهم أقصاهم، وهم يد على من سواهم، ألا لا يقتل مسلمٌ بكافر، ولا ذو عهد في عهده» رواه أبو داود والنسائي، ورواه ابن ماجه عن ابن عباس؛ أي: تتماثل دماؤهم فلا فضل لبعضهم على بعض، فيقتل مثلاً القرشي بغير القرشي، ويقتل الحسيب النسيب بغيره، عدا ما خصّ به الحديث «ألا لا يقتل مسلم بكافر»، فإذا قتل مسلمٌ كافراً فإنه لا يقتل به، وإن كان المسلم ظالماً مستوجباً للعقاب؛ لأن الكافر لا يتكافأ دمه بالمسلم الذي هو أكرم على الله من الكافر.

ومن ثم كان للغة العربية أبلغ التأثير في استعراب المسلمين من غير العرب، عبر تعايشهم مع العرب لغةً وتواصلاً وحياةً (ولا يضرّ إن كان استعراب بعض العثمانيين لم يصل حدّ الكمال)، ثم صار هؤلاء قادة الفتوح الإسلامية الجديدة، يتبعهم في ذلك جموع المسلمين من العرب والأتراك والأكراد والبربر والسودان وغيرهم، حتى صاروا يُسمون بـ "سلاطين العرب والمسلمين". وتصاهروا بوشيجة الإيمان، بل استزجت دماؤهم جميعاً في ميادين الجهاد في سبيل الله. وكان أول ما فعله هؤلاء القادة المسلمون (غير العرب) هو توحيد لحمة العالم الإسلامي بتوحيد مصر والشام، وأسيا الصغرى وضمّها إلى العراق والحجاز واليمن. إنّ توحيد مصر والشام تحديداً سرعان ما كوّن فكي كمّاشة أطبقت تدريجاً على دويلات الصليبيين في القدس وساحل البحر المتوسط، قبل حتفها والإجهاز عليها وطردها من ديار المسلمين إلى الأبد.

وينبثق من التوحيد بالله ومن توحيد البلاد والعباد ضرورةُ العدل بين العباد، والعدل أساس الملك بل هو أصل من أصول التمكين في الأرض، وخاصةً العدل المالي بين الرعية، إذ يشتري الحاكم العادل به قلوب الرجال،

فيقاتلون معه بأرواحهم قتال رجل واحد، وسنرى أن العدل المالي قبيل المعارك مع الجهاد الخالص في سبيل الله طلباً لشهادة كانا الخلطة السرية للانتصارات الإسلامية الساحقة في استعادة الرها أيام عماد الدين زنكي، وفي تل حارم الفاصلة أيام العادل نور الدين محمود، وفي حطين وفتح القدس أيام صلاح الدين الأيوبي، وفي عين جالوت أيام المظفر قطز، وفي حمص الأولى، وفي واقعة الفرات، وفي أبلستين أيام الظاهر بيبرس، وفي حمص الثانية أيام الناصر قلاوون، وفي فتح عكا أيام الأشرف خليل ابن قلاوون، وفي معركة شقحب أيام المنصور محمد بن قلاوون، وفي الفتح الثاني لجزيرة قبرص أيام السلطان الأشرف برسباي.

بل إن للغة العربية أبلغ الأثر في التخطيط السليم ووضع الرؤى الإسلامية موضع التطبيق والتنفيذ. ولتبيان ذلك فإن مرسوم الخليفة العباسي المستضيء بالله لتقليد صلاح الدين السلطان الناصر في مصر والشام يمثل خريطة طريق دقيقة لسيرة صلاح الدين المستقبلية. وهذا المرسوم المكتوب بأجمل كلمات اللغة العربية الرصينة، والمطعم بآيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الحكيمة، سرعان ما استجاب لها صلاح الدين بنحو حرفي بروحه وقلبه وعقله، فكانت هذه الرسالة الفريدة (انظر هذه الرسالة تحت صلاح الدين) عميقة الأثر، بعيدة النظر، عظيمة الخطر في المسيرة الظافرة للسلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي.

٢. بعثت اللغة العربية روح الجهاد والتعبئة العسكرية، وغدت مُفرداتها أدبَ العسكرية، وعسكرة العالم الإسلامي؛ لينهض ويتصدى للأخطار المحدقة به.

والحقيقة أن للعربية جهاداً لا يقلّ عن جهاد أبنائها. فالعربية هي لغة كلام الله تعالى، القرآن، والجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمته "فريضةٌ" فرضها الله في القرآن بعد ذكره فريضة الصلاة، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٧٧ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ الحج: ٧٧-٧٨؛ وقال تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ التوبة: ٤١.

والجهاد هو عنصر النصر والتمكين الأكبر للمسلمين على أعدائهم الكافرين، بل لقد أنذر الله تعالى هذه الأمة بالذلّ إن هي فرّطت بالجهاد، فقال: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ التوبة: ٣٩.

ثم إنّ الله عز وجل جمع وأجمل تدابير الحرب كلها في آيتين جميلتين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٤٥ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ الأنفال: ٤٥-٤٦. وقال رسول الله ﷺ: **«لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاثبتوا واكثروا من ذكر الله، وإذ جلبوا وضجّوا فعليكم بالصمت»**.

قال أبو بكر الصديق ﷺ لخالد بن الوليد: "احرص على الموت، توهب لك الحياة". ومن كلام علي بن أبي طالب ﷺ: "ربّ حياة سببها التعرض للموت، وربّ منية سببها طلب الحياة". وقال ﷺ أيضاً: "من أكثر النظر في العواقب، لم يشجع".

ومن أدبيات العسكرية الإسلامية ومستلزماتها: التوكل على الله مع الأخذ بالأسباب، وعدم موالاة الكفار، وطاعة الأمير، وحسن الظن بالله:

التوكل على الله مع الأخذ بالأسباب: ربط القرآن **الإيمان بالعمل**، وعدّ العمل الصالح شرطاً للإيمان (في أكثر من سبعين موضعاً)، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ

الصَّٰلِحَٰتِ﴾ [العصر: ١-٣]. وقوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾: أي: مصيرهم إلى النار، واستثنى الله منهم ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [التين: ٦]. وقال عز وجل: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥]. وقال ايضاً ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]. **فالعمل والمشي في مناكب الأرض ينافي التواكل والتقاعس والقعود، ولا يتعارض مع التوكل على الله؛ لأن التوكل على الله من صميم الإيمان بالله؛ إذن لا بد من إيمان ومن عمل.**

والتوكل على الله سبحانه وتعالى لا يمنع من الأخذ بالأسباب. عن أنس بن مالك قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ على ناقة له، فقال: يا رسول الله، أدعها وأتوكل؟ فقال: «**اعقلها وتوكل**». وهذا الحديث أصل في التوكل، وفيه الأمر باتخاذ الأسباب والاحتراز مع الأمر بالتوكل. وعن عمر بن الخطاب ﷺ، عن رسول الله ﷺ قال: «**لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً، وتعود بطاناً**». وفي هذا حث على التوكل على الله مع أهمية الأخذ بالأسباب، إذ أثبت الغدو والرواح للطير مع ضمان الله تعالى الرزق لها. إن الأخذ بالأسباب من صميم تحقيق العبودية لله تعالى. وقد جمع النبي رسول الله ﷺ بين هذين الأصلين في الحديث الصحيح، إذ يقول ﷺ: «**احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز**».

إنّ المُسبِّبات، لا بد لها من أسباب، والله وحده هو مُسبِّب الأسباب كلها. والأخذ بالأسباب من شيم المرسلين والصالحين، وتركه من شيم البطالين الدراويش الذين يريدون أن يعيشوا على الصدقات والهبات. فها هو نوح — عليه السلام — أمره ربه تبارك وتعالى بإعداد سفينة عملاقة لحمل الأحياء من كل زوجين اثنين ومن آمن من البشر، ولو شاء الله أن ينجيه لنجاه، ولكنه أرشده إلى الأخذ بالأسباب.

وها هو موسى عليه السلام أمره ربه تبارك وتعالى أن يضرب البحر بعصاه: وهل تشق العصا البحر؟! ولكنها الأسباب، فإذا بالبحر فرقتين، كل فرق كالطود العظيم. ولو شاء الله أن يجعله كذلك من غير ضرب بالعصا لفعل، ولكنه ليُعلّم أنبياءه وعباده الصالحين الأخذ بالأسباب، وكذا ضربه الحجر بالعصا لينفجر منه اثنتا عشرة عيناً، كل هذا لتأخذ الأسباب نصيبها من حياة الإنسان.

وها هي مريم — عليها السلام — أمرها ربها تبارك وتعالى، وهي في المخاض، أن تهز النخلة لتسقط عليها رطباً جنياً، ومن المعلوم أن المرأة أضعف ما تكون قوة في هذه الحال، ومع هذا أيضاً لو هز النخلة عشرة رجال من جذعها لما تساقطت ثمرة واحدة ولكنها الأسباب:

ألم تـــرَ أن الله أوحـــى لمـــريم ... وهـــزّي إليـك الجـذع تسّـاقط الرطـبُ

ولـو شـاء أن تجنيـه مـن غـير هزهـا ... جنتـه ولكـن كـل شـيء لـه سـببُ

وأكدّت السنة النبوية الشريفة العمل والأخذ بالأسباب، فقال رسول الله ﷺ: «**ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة والنار**»، فقيل: يا رسول الله، أفلا ندع العمل، ونتكل على الكتاب؟، فقال: «**لا اعملوا، فكل ميسر لما خُلق له**» رواه البخاري. وقال في حديث آخر: «**اعقلها وتوكل**». وقال ﷺ أيضاً: «**أطيب الكسب عمل الرجل بيده، وكل بيع مبرور**». وقال ﷺ: «**تداووا عباد الله، فإن الله تعالى لم يضع داء إلا وضع له دواء**» رواه أحمد.

فالأخذ بالأسباب واجبٌ شرعي، فمن أراد الكسب الشريف سعى إليه، ومن أراد الذرية تزوج، ومن أراد النجاح درس، ومن أراد الشفاء أخذ الدواء، وها هو ذا نبينا محمد ﷺ جاهد الكفار والمشركين، وحفر الخندق حول المدينة، وكان يمشي في الأسواق لتحصيل الرزق، وكان يقول ﷺ: «**جُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي**». وروي عنه

ﷺ أنه قال: «لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول: اللهم ارزقني وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة، وإن له يقول: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ (الجمعة: ١٠)».

وكان رسول الله ﷺ، وهو أفضل المتوكلين، أوعى الناس لهذه السنة الربانية، فكان وهو يؤسس لبناء الدولة الإسلامية يأخذ بكل ما في وسعه من أسباب، ولا يترك شيئاً يسير جزافاً، والمتتبع للسيرة النبوية يلمس ذلك تماماً. ففي الهجرة لم يترك رسول الله ﷺ أمراً من الأمور إلا أعد له عدته أفضل إعداد، فقد أعدّ النبي ﷺ الرواحل والدليل، واختار الرفيق، وساعي الطعام، والأغنام ليعمي على آثارهم، والمكان الذي سيتوارى فيه هو وصاحبه حتى يهدأ الطلب، ويفتر الحماس، وأحاط ذلك كله بما يمكن للبشر من أخذ الحذر، والكتمان، وأسباب الاحتياط، وترك للإرادة الإلهية، بعد ذلك، مالا حيلة له فيه. وجميع غزوات رسول الله ﷺ وكل أموره فيها إلى الله تعالى، بل حتى في ليلة الإسراء، ركب الرسول ﷺ (دابته) البُراق حتى أتى المسجد الأقصى، وربط الدابة في الحلقة التي كان يربط فيها الأنبياء من قبل، ثم دخل المسجد وصلى بالأنبياء، ثم عُرج به إلى السموات العُلا (حائط البراق تبع للمسجد الأقصى، ويسميه اليهود بحائط المبكى)؛ وركوب النبي ﷺ البراق في رحلة الإسراء، وربطها بالحلقة هو من باب الأخذ بالأسباب.

وكان رسول الله ﷺ يوجه أصحابه دائماً إلى مراعاة هذه السنة الربانية، في أمورهم الدنيوية والأخروية على السواء، ففي أمورهم كان النبي رسول الله ﷺ يرشدهم دائماً إلى الأخذ بما يمكن من أسباب للوصول إلى حياة كريمة بعيداً عن ذل السؤال ومهانة العوز والحاجة. روى أبو داود والترمذي: أن رجلاً من الأنصار أتى النبي ﷺ فسأله عطاء، فقال الرسول ﷺ: «أما في بيتك شيء؟» قال: بلى؛ حلس نلبس بعضه، ونبسط بعضه، وقعب نشرب فيه. قال ﷺ: «ائتني بهما»، فأتاه بهما، فأخذهما رسول الله ﷺ بيده وقال: «من يشتري مني هذين؟» قال رجل: أنا آخذهما بدرهم. قال رسول الله ﷺ: «من يزيد على درهم؟» مرتين أو ثلاثاً، فقال رجل: أنا آخذهما بدرهمين، فأعطاهما إياه فأخذ الدرهمين، وأعطاهما الأنصاري، وقال له: «اشتر بأحدهما طعاماً فانبذه إلى أهلك، واشتر بالآخر قدوماً فائتني به»، فأتاه به، فشدّ فيه رسول الله ﷺ عوداً بيده، ثم قال: «اذهب فاحتطب وبع، ولا أرينك خمسة عشر يوماً»، فجاء وقد أصاب عشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوباً، وببعضها طعاماً، فقال له رسول الله ﷺ: «هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة سوداء في وجهك يوم القيامة».

ومن أهم عناصر الجهاد في سبيل الله الإعداد والاستعداد، فهو من الأخذ بالأسباب ومن مستلزمات العقيدة الإسلامية، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (الأنفال: ٦٠). وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ (محمد: ٤). وقال عز وجل: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (محمد: ٧). وقوله في سورة الأنفال: ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُم﴾ يشير إلى أقصى حدود الطاقة، إذ لا تقعد العصبة المسلمة عن سبب من أسباب القوة التي في طاقتها. والمراد بالقوة هنا ما يكون سبباً لحصول القوة. وذكر الفخر الرازي فيه وجوهاً:

١. المراد من القوة أنواع الأسلحة.

٢. ورد أن النبي رسول الله ﷺ قرأ الآية الكريمة على المنبر وقال: «ألا إن القوة الرمي»، قالها ثلاثاً.

٣. قال بعضهم: القوة هي الحصون.

١. قال أصحاب المعاني: هذا عام في كل ما يُتقوّى به على حرب العدو، وكل ما هو آلة للغزو والجهاد، فهو من جملة القوة. وقوله ﷺ: «القوة الرمي»: والرمي هو القتل عن بعد بسهام الضمس والنشاب، والرمح، والقذائف اليدوية، والمدفع، والمنجنيق، والعرادات بالحصى والبندقة والحجارة والنار والبارود — ويشمل حديثاً المسدس، والبندقية، والرشاش، والصواريخ وغيرها. والحديث لا ينفي شمول القوة لغير الرمي (مثل قوله ﷺ: «الحج عرفة»، علماً أن عرفة ركن واحد من الحج). ويفهم من مجيء كلمة "قوة" نكرة لا معرفة، جاءت بعد أقصى الجهد (ما استطعتم من قوة)، أنها تشمل كل سلاح معروف أو سيعرف مع الزمن المتجدد، فهي تتسع لإعداد الطائرات والصواريخ والدبابات. وكل الأسلحة التي لها التأثير الحاسم في المعركة، بما فيها الحرب النفسية، وحرب الإعلام، وقوة الاستخبارات.

ولذلك حثّ النبي ﷺ المؤمنين على أن يكونوا أقوياء، وعلى أن يحصّلوا كل أسباب القوة، فقال ﷺ في حديثه الجامع: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف».

عدم موالاة الكفار: قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ۝١٤٩ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٩-١٥٠]. هاتان الآيتان الخطيرتان جاءتا في أثر الحديث عن غزوة أحد: لتحذر المسلمين من مجرد التفكير في موالاة الكفار، سواء كانوا كفاراً مصرّحين بكفرهم أم كانوا منافقين. فمهما اشتد الكرب فلا يجوز للمسلمين أن يضعوا أيديهم في أيدي الكفار راكنين إليهم، فإن العاقبة وخيمة جداً كما يقول الله خالق البشر، وهو قول الحق: ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١]. ومعنى ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ تخبرونهم﴾ سرائر المسلمين وتنصحون لهم؛ قاله الزجاج؛ نزلت في حاطب بن أبي بلتعة الصحابي البدري الذي فعلها مرة واحدة، وقبل النبي ﷺ عذر حاطب لجهاده في معركة بدر، ولما ذكر أنه إنما فعل ذلك مصانعة لقريش: ليتخذ فيهم يداً يحمون به قرابته من الأولاد والأموال وموالي الكفار يجتهد فيه الإمام.

وقال عبدالملك: إذا كانت عادته تلك، قُتل؛ لأنه جاسوس؛ وقد قال مالك بقتل الجاسوس — وهو صحيح؛ لإضراره بالمسلمين وسعيه إلى الفساد في الأرض. ولعل ابن الماجشون إنما اتخذ التكرار في هذا؛ لأن حاطباً أخذ في أول فعله. وذكر أن حاطباً لما سمع ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ غشي عليه من الفرح بخطاب الإيمان: انظر: تفسير القرطبي وتفسير ابن كثير.

وسورة الممتحنة هذه أصل في النهي عن موالاة الكفار. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٢٨]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ [آل عمران: ١١٨]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٥١]. إنّ ضعاف النفوس عند الهزيمة يستظلون بقوة الكفار، ويتطلعون إليهم يلتمسون العزة عندهم، لكن الله تعالى ينذر: ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾، ويبشر: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ۝١٥٠﴾، والتاريخ خير شاهد (كما سنرى) على ما حدث من تحالف العبيدين (الفاطميين) بمصر مع الصليبيين والنصارى، فانقلبوا وبالاً عليهم، وحين دخلوا بلادهم بدعوة الوزير العبيدي الخائن (شاور) لم يرقبوا في مؤمن ولا قبطي إلاً ولا ذمة في مذبحة بلبيس بمصر.

وكما حدث في اجتياح المغول ودخولهم إلى بغداد، بتحالف الوزير الرافضي الخائن (ابن العلقمي)، فقتل المغول وحشية لم يعهدها التاريخ الآلاف المؤلفة، وذبحوا أهل السنة والشيعة بلا تمييز؛ كذلك ما حدث لمسلمي الأندلس في محاكم التفتيش بعد أن أطاعوا النصارى ووالوهم وركنوا إليهم، فكانت النتيجة أن استأصلوهم كلهم على الرغم من تحولهم إلى دين النصارى قسراً.

طاعة الأمير بالسمع له وبعدم مخالفته: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (النساء: ٥٩). قال العلماء: نزلت الآية في الرعية من الجيوش وغيرهم؛ أي: عليهم أن يطيعوا أولي الأمر الفاعلين لذلك في قسمهم وحكمهم ومغازيهم وغير ذلك، إلا أن يؤمروا بمعصية الله، فإن أمروا بمعصية الله فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. وإن تنازعوا في شيء ردوه إلى كتاب الله وسنة رسوله. ففي معركة أحد، حدد الله تعالى أسباب الهزيمة، ولم يدعها لاجتهاد مجتهد ليقول: إن سبب الهزيمة هو التفاوت و الفارق في العدة والعدد بين الجيشين (كان عدد المشركين ثلاثة آلاف مقاتل، بصحبتهم سبع مئة درع، وثلاثة آلاف بعير، ومئتا فرس، في حين كان عدد المسلمين سبع مئة مجاهد، ومئة درع، وفرسين فقط).

إنما سبب الهزيمة كما يقول الله هو سبب داخلي لا خارجي، مجيباً بذلك على تساؤل الصحابة، حينما قالوا: (أنى هذا؟) ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران: ١٦٥)، وفي هذه إشارة إلى مخالفة الرماة أوامر الرسول ﷺ حينما نزلوا من الجبل، وكانوا سبباً في الهزيمة، وفصل سبحانه ذلك بقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٥٢).

حسن الظن بالله نصراً كان ذلك أم هزيمة: المد والجزر الذي ينتاب الأمة الإسلامية على امتداد تاريخها، إنما هو في مدى قربها أو بعدها عن الله تعالى، فمتى كانت الأمة قوية في دينها مطيعة لربها مستمسكة بسنة نبيها عزت وسادت، ومتى اختل شيء من ذلك ضعفت واستكانت. ولابد من أن يكون للمعارك مد وجزر: لأسباب قدرية أو شرعية، أو كليهما، ولكن الأصل هو نصر المسلمين. فإن كان للباطل ساعة، فالحق قائم إلى قيام الساعة. قال الله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٦-١٤٨) والوهن هو ضعف العزيمة والقدرة على العمل، بل إن الهزيمة النفسية تفعل في الأمة أشد من فعل أعدائها بها. إن المؤمن لاينبغي له أن يهن ولايحزن ولا يضعف ولا يستكين، وهو الأعلى بإيمانه وعزته وعون ربه له، ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٩). وكيف يهن ويحزن لما أصابه وقد أصاب الكفار في وقائع أخرى مثل ما أصابه أو أكثر؟! ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ (آل عمران: ١٤٠). لكن الفرق بين المؤمنين والكافرين فيما أصابهم يكمن في قوله تعالى: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ (النساء: ١٠٤).

وكيف يهن المسلم ويحزن وهو يعلم أن انتصار الكفار على المؤمنين سُنة ماضية، لله عز وجل فيها حكمة بالغة والعاقبة للمتقين؟! ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٠-١٤٢). ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ (آل عمران: ١٧٩).

بل إن للغة العربية، في الجاهلية والإسلام، أجمل المفردات اللغوية وأصدق الأمثال والأشعار في أدب العسكرية والفروسية والمنازلات الميدانية، وفي المكر والخديعة في الحرب، وفي الصبر والمصابرة، وفي النفس الطويل في الجهاد والمجاهدة في سبيل الله. فمثلاً مما قالته العرب: أجمعُ كلمةٍ قيلت في الصبر: (الصبر مطية النصر). وقالت العرب: (إن من يُقتل مُدبراً، أكثر ممن يُقتل مُقبلاً). وقالت ايضاً: (الشجاعة وقاية، والجبن مقتلة). وعندما جاء الإسلام، ارتفعت مكانة اللغة العربية إلى ذرا العلياء والمجد، وبارك الله في مُفرداتها وزكّاها وجعلها هادفة، إذ جعل الجهاد كله في سبيل الله؛ من أجل الفوز بالجنة أو النصر.

قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ (التوبة: ٥٢).

كتب خالد بن الوليد إلى مرازبة فارس مع ابن نفيلة الغساني: (الحمد لله الذي فضّ حُرمتكم، وفرّق جمعكم، وأوهن بأسكم، وسلب مُلككم، وأذلّ عزّكم. فإذا أتاكم كتابي هذا فابعثوا إليّ بالرهن، واعتقدوا منا الذمة، وأجيبوا إلى الجزية. وإلا والله الذي لا إله إلا هو، لأسيرن إليكم بقوم يحبّون الموت كما تحبّون الحياة، ويرغبون في الآخرة كما ترغبون في الدنيا). ويكرر خالد بن الوليد مقولته هذه في رسالته إلى قائد جيوش الفرس (هرمز): (لقد جئتك بقوم يحبّون الموتَ في سبيل الله تعالى كما تحبّون أنتم الحياة لمتاعها الزائل!).

وعلى الرغم من كثرة غزوات خالد بن الوليد ومنازلاته ومبارزاته، فإنه عندما كان على فراش الموت في مدينة حمص قال: (ما في جسدي شبر إلا وفيه ضربة أو رمية سهم. وها أنا أموت على فراشي حتف أنفي، كما يموت البعير... فلا نامت أعين الجبناء). ويموت البطل خالد بن الوليد (عام ٦٤٢م)، ولم يترك وراءه ثروة، مع أنه فتح بلاد الشام وفيها الثروات الهائلة.

قال النعمان بن مقرن لأصحابه عند لقاء العدو قبيل معركة نهاوند (المسماة "فتح الفتوح") مع الفرس: (إني هازٌّ لكم الراية، فليُصلح كل رجل منكم من شأنه، وليشدّ على نفسه وفرسه؛ ثم إني هازّها لكم الثانية، فلينظر كل رجل منكم موقع سهمه، وموضع عدوه، ومكان فرصته؛ ثم إني هازّها لكم الثالثة وحاملٌ، فاحملوا على اسم الله). وللنعمان بن مقرن هذا يقول عمر بن الخطاب ﷺ: إذ تكاملت عنده الحشود وتطلع الصحابة إلى التقدم عليها: (لأفلدن أعنتهم رجلاً يكون عداءً لأول استةٍ يلقاها). فقلدها النعمان بن مقرن ﷺ.

قيل للمهلب بن أبي صفرة: إنك لتلقي نفسك في المهالك، فقال: (إن لم آتِ الموت مُسترسلاً، أتاني مُستعجلاً. إني لست آتي الموت من حُبّه، وإنما آتيه من بُغضه)، وتمثل بقول الحصين بن الحمام:

تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد ... لنفسي حياةً مثل أن أتقدّما

وهي قصيدة مشهورة منها:

فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ... ولكن على أقدامنا تقطر الدما

نفلق هاماً من كرام أعزةٍ ... علينا وهم كانوا أعقّ وأظلما

ولما رأينا الصبر قد حيل دونه ... وإن كان يوماً ذا كواكب مظلما

صبرنا وكان الصبر منا سجيةً ... بأسيافنا يقطعن كفاً ومعصما

ولما رأيت الودّ ليس بنافعي ... عمدت إلى الأمر الذي كان أحزما

فلست بمبتاع الحياة بسُبّةٍ ... ولا مُرتقٍ من خشية الموت سُلّما

وما زالت العرب يتمادحون بالموت قعصاً (أي أصابته ضربة أو رمية فمات مكانه)، ويتسابّون بالموت على الفراش. ويقولون فيه: مات فلانٌ حتف أنفه، وأول من قال ذلك رسول الله ﷺ. قال عبد الله بن الزبير لما بلغه قتل أخيه مصعب: (إنْ يقتل، فقد قتل أخوه وأبوه وعمه. إنا والله لا نموت حتفاً ولكن قعصاً بأطراف الرماح. وموتاً تحت ظلال السيوف).

قال عنترة الفوارس (عنترة بن شدّاد):

بكرتْ تخوّفني الحتوف كأنني ... أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل

فأجبتها إن المنيّة منهلٌ ... لا بد أن أسقى بكأس المنهل

فاقني حياءك، لا أبالك، واعلمي ... أني امرؤ سأموتُ إن لم أقتل

وقول عنترة أيضاً:

أروم من المعالي منتهاها ... ولا أرضى بمنزلة دنيه

فما أن أشال على العوالي ... وإما أن توسدني المنيه

ومن طلب العلا سهر الليالي وتجشم الصعاب، وما أحسن قول عبد المطلب جد نبينا محمد ﷺ:

لنا نفوس لنيل المجد عاشقة ... وإن تسلت اسلناها على الأسل

لا ينزل المجد إلا في منازلنا ... كالنوم ليس له مأوى سوى المقل

يقول العلامة شرف الدين عبد المؤمن بن هبة الله الأصفهاني: (رتبة الشرف لا تنال بالترف، والسعادة أمر لا يدرك إلا بعيش يفرك، وطيب يترك، ونوم يطرد، وصوم يسرد، وسرور عازب، وهمّ لازب، ومن عشق المعالي ألف الغمّ، ومن طلب اللآلىء ركب اليمّ، ومن قنص الحيتان ورد النهر، ومن خطب الحصان نقد المهر).

وهذا كما قال الشاعر:

مرّ لم يمت بالسيف مات بغيره ... تعدّدت الأسبابُ والموت واحد

ومثله قول جرير من قصيدة أولها:

قل للجبان إذا تأخر سرجه ... ما أنت من شرك المنيّة ناجي

وقال آخر:

وإنا لتستحلي المنايا نفوسنا ... ونترك أخرى مرةً ما تذوقها

وقال المتنبي:

فطعم الموت في أمر حقير ... كطعم الموت في أمر عظيم

وقال حبيب بن أوس الطائي:

قومٌ إذا لبسوا الحديدَ حسبتهم ... لم يحسبوا أن المنية تخلق

انظر بحيث ترى السيوف لوامعاً ... أبداً وفوق رؤوسهم تتألق

قيل لعلي بن أبي طالب ﷺ يوم صفين: أتقاتل أهل الشام بالغداة، وتظهر بالعشي في إزار ورداء؟ فقال: (أبالموت تخوفونني؟ فوالله ما أبالي: أسقطتُ على الموت، أم سقط الموتُ عليّ).

وكان معاوية بن أبي سفيان يتمثل بهذه الأبيات:

أبت لي شيمتي وأبى بلائي ... وأخذي الحمد بالثمن الربيح
وإقدامي على المكروه نفسي ... وضربي هامة البطل المشيح
وقولي كلما جشأت لنفسي ... مكانك تحمدي أو تستريحي
لأدفع عن مآثر صالحاتي ... وأحمي بعدُ عن عرضٍ صحيح

وقال السموءل بن عادياء:

وما مات منا سيّد في فراشه ... ولا طلّ منا حيث كان قتيل
تسيل على حد الظبات نفوسنا ... وليست على غير السيوف تسيل
وما قلّ من كانت بقاياه مثلنا ... شبابٌ تسامى للعلا وكهول
إذا سيّد منا خلا قام سيّدٌ ... قؤول لما قال الكرام فعول
وما أخمدت نارٌ لنا دون طارق ... ولا ذمّنا في النازلين نزيل
وأيامنا مشهورة في عدوّنا ... لها غررٌ معلومةٌ وحجول
وأسيافنا في كل شرق ومغرب ... بها من قراع الدارعينّ فلول

وهذا هارون الرشيد أمير الخلفاء وأجلّ ملوك الدنيا، يحجّ سنة، ويغزو سنة، حتى إنه عندما سار لغزو الروم (وقد لبس على رأسه قلنسوة) قال فيه أبو المعالي الكلابي:

فمن يطلب لقاءك أو يُرده ... فبالحرمين أو أقصى الثغور
ففي أرض العدو على ظمرٍ ... وفي أرض الترفة فوق كور

وهذا عبد الله بن المبارك العالم الفقيه الحافظ (١١٨-١٨١هـ) يجاهد في سبيل الله بسيفه، حتى إن كثيراً ممن أتوا ليستمعوا إلى علمه، كانوا يذهبون إليه فيجدونه على الثغور يغزو الروم؛ لأنه يرى الجهاد فريضة يجب تأديتها كما أداها الرسول ﷺ. ويُروى عنه أنه أرسل إلى صاحبه العالم الزاهد (الفضيل بن عياض) يدعوه إلى ترك البكاء عند البيت الحرام، ويحثّه على قتال الأعداء، بقوله:

يا عابدَ الحرمين لو أبصرتنا ... لعلمتَ أنّك في العبادة تلعبُ
مَنْ كانَ يخضبُ خدّه بدموعه ... فنحورُنا بدمائنا تتخضبُ
أو كان يتعبُ خيله في باطل ... فخيولنا يوم الصبيحة تتعبُ
ريحُ العبير لكم ونحنُ عبيرُنا ... رَهَجُ السنابك والغبارُ الأطيبُ
ولقد أتانا من مقال نبيّنا ... قولٌ صحيحٌ صادقٌ لا يكذبُ
لا يستوي غبارُ أهل الله في ... أنف امرئٍ ودخانُ نارٍ تلهب
هذا كتابُ الله ينطقُ بيننا ... ليس الشهيدُ بميتٍ لا يكذبُ

و يتوفى هذا العالم المجاهد في شهر رمضان سنة ١٨١هـ وهو راجع من الغزو، وعمره ٦٣ عاماً. وحين يصل خبر موته إلى هارون الرشيد يقول فيه: (مات اليوم سيّد العلماء).

يقول أبو تمام في فتح عمّورية على يد المعتصم الخليفة العباسي:

السيف أصدق أنباءً من الكتب ... في حدّه الحدّ بين الجدّ واللعب

بيضُ الصفائح لا سودُ الصحائف في ... متونهن جلاءُ الشكّ والريب

أين الرواية؟ بل أين النجوم وما ... صاغوه من زخرف فيها ومن كذب؟

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به ... نظمٌ من الشعر أو نثرٌ من الخطب

ثم ما جدوى السلاح والآلات بدون أبطال يحملونها، ومهندسين ينصبونها... وما جدوى خيل بغير خيّال، أو فرس بغير فارس، أو سيف صارم بغير بطل؟!

وما أجمل ما قاله الطغرائي (الأديب السلجوقي المسلم)، في أنّ قيمة السلاح تتمثل في قوة الإرادة والإيمان لحامله:

وعدّة السيف أن يزهى بجوهره ... وليس يعمل إلا في يدَيْ بطل

إن السلاح لا يقاتل بنفسه، إنما يقاتل بيد حامله، ويدُ حامله إنما يحرّكها إيمانٌ برسالة وهدف في سبيل الله، وهذا هو ما يُعنى به الجنود.

يقول أبو الطيب المتنبي:

وما تنفع الخيل الكرامُ ولا القنا ... إذا لم يكن فوق الكرام كرامُ

ومن أجمل ما قيل في بركة الله للمجاهدين في الأهل والولد قول عليّ بن أبي طالب ﷺ: "بقية السيف أنمى عدداً، وأطيبُ ولداً". يُريد أن السيف إذا أسرع في أهل بيت كثر عددُهم، ونما ولدُهم. ومما يستدل به على صدق قوله: ما عمله لسيف في آل الزبير، وآل أبي طالب، وما كثر من عددهم.

ثم إنّ للمكر في الحرب ضرورة لا تقلّ أهميةً عن المنازلة القتالية نفسها، فيقول النبي ﷺ: «الحرب خدعة».

قال المهلب لبنيه: "عليكم بالمكيدة في الحرب، فإنها خير من الشجاعة".

وكان المهلب يقول: "أناة في عواقبها قوتٌ، خيرٌ من عجلة في عواقبها درَكٌ".

وكتب احجاج إلى المهلب يستعجله في حرب الأزارقة فكتب إليه: "إن من البلية أن يكون الرأي بيد من يملكه دون أن يبصره".

يقول أبو الطيب المتنبي:

لا يخدعنك من عدو دمعه ... وارحم شبابك من عدوٍ ترحمُ

لا يعلم الشرف الرفيع من الأذى ... حتى يُراق على جوانبه الدمُ

وسئل بعض أهل التمرس بالحرب: أي المكايد فيها أحزم؟ قال: "إذكاء العيون، وإفشاء الغلبة، واستطلاع الأسرار، وإظهارُ السرور، وإماتة الفرق لأي الخوف، والاحتراس من البطانة، من غير إقصاء لمن يستصلح، ولا استصلاح لمن يُستغش، واشتغال الناس عمّا هم فيه من الحرب بغيره".

وصارت الفروسية من أهم فنون عسكرة العالم الإسلامي، وانعكس ذلك في انتصارات الإسلام المتواصلة في معركة ملاذكرد، ومعركة عين جالوت. وقد مدح الله الفروسية في قوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ ثم إنّ الرسول ﷺ امتدحها بقوله: «**الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة**» أخرجه مسلم. ومنها قول الشاعر صفي الدين الحلّي (في عصر السلطان محمد بن قلاوون):

إذا افتخر الأقوام يوماً بمجدهم ... فإنّك من قوم بهم يفخرُ المجدُ

تعوّدَ من تلقاء الصافنات صغيرُهم ... حتى تساوى عنده السَّرجُ والمهدُ

ومن قدر الله أن يظهر فحل من فحول الشعراء، في مدة الضعف بعد سقوط بغداد، ومن بغداد نفسها، وهو الشاعر العربي العراقي المولد: عبد العزيز بن سرايا بن علي السنبسي الطائي، شاعر عصره، المسمى (صفيّ الدين الحلي – ولد ونشأ في الحلة، قرب بغداد عام ٦٧٥–٧٥٠هـ/١٢٧٦–١٣٤٩م). الذي عاش في المدة التي تلت مباشرة دخول المغول إلى بغداد وتدميرهم الخلافة الإسلامية العباسية. فأثر هذا في شعره، وتناهضت القبائل بمصرة العراق لصدّ هذا المدّ الإلحادي، فقامت قبائل طيّئ (و شمّر أصلاً من شمال الجزيرة العربية، وهي مدينة حائل الآن) لقتال التتار، وهم معروفون بنخوتهم ومقاومتهم الأعداءَ من المغول والصليبيين. واستقر الحلي زمناً بالموصل ثم رحل لأداء فريضة الحج، وتوجه بعدها إلى مصر وقضى حياته هناك يمدح الملك الناصر محمد بن قلاوون. والتقى في القاهرة بكبار علمائها، ثم توفي في بغداد. حرّض صفي الدين الحلي ملوك الإسلام وسلاطينه على مقارعة المغول والاحتراز منهم، فقال:

لا يمتطي المجد من لم يركب الخطرا ... ولا ينال العلا من قدّم الحذرا

ومن أراد العلا عفواً بلا تعب ... قضى ولم يقض من إدراكها وطرا

لابد للشهد من نحل يمنّعه ... لا يجتني النفع من لم يحمل الضررا

لا يُبلغ السولُ إلا بعد مهلة ... ولا يتمّ المنى إلا لمن صبرا

وقصائده تقارن بشعر المتنبي؛ ومن أجمل قصائده قصيدة: (سلي الرماح العوالي) التي يفاخر فيها أمام حبيبته بأمجاد قومه وبطولاتهم، فيطلب منها أن تسأل الرماح العوالي لتخبرها عن طول قامة الشاعر وقبيلته في ساحات القتال، ولتنظر إلى لون الغروب في السيوف عندما ترد من المعارك مكللة بالظفر ومشحوذة برقاب كل من تسول له نفسه النيل من عزة قبائل العرب المسلمين وهيبتها.

ثم يستطرد الشاعر في تعداد المناقب الجمة واصفاً الفرسان في وقعة زوراء العراق ومعدداً خصالهم، فهم المجيبون إذا ما دعاهم الحمى للدفاع عنها، وهم الفراعنة إذا ما استخصموا، وموازين العدل إذا ما حكموا في أمر جلل. وبالإضافة إلى كل هذه الخصال فهم لا يستعملون جبروتهم في السطو والاعتداء على الآخرين إنما يتحلون بالأخلاق التي تخولهم استعمال القوة للدفاع عن قومهم وتحصين قبيلتهم من كل غاز. ولعل أجمل ما في القصيدة وأشهرها البيت الذي غدا مضرباً للمثل في الفخر والعزة عندما يصف قومه بأنهم أصحاب الأيادي البيضاء في الصنائع، والسوداء في الوقائع، وأن مرابعهم الخضراء الخصبة تحميها سيوف ماضية حمراء ارتوت من دماء الخصوم. وكان هذا أشهر بيت في قصيدته؛ وكل أعلام الدول العربية اليوم مبنية على هذه الألوان. يقول صفي الدين الحلي في رائعة القصائد العربية:

مَنْ لي الرِّماحَ العَوالي عن معالينا ... واستشهدي البيضَ هل خابَ الرَّجا فينا
وسائلي العُرْبَ والأتراكَ ما فعلَتْ ... في أرضِ قَبرِ عُبَيدِ اللّهِ أيدينا
لَمّا سعَينا، فما رقَّتْ عزائمُنا ... عَمّا نَرومُ، ولا خابَتْ مَساعينا
يا يومَ وقعةِ زوراءِ العِراقِ، وقد ... دنّا الأعادي كما كانوا يدينُونا
بضَرْبةٍ ما رَبَطناها مُسَوَّمَةً ... إلاّ لنَغزُوَ بها مَن باتَ يَغزُونا
وفتيةٍ إنْ نَقُلْ أصغَوا مَسامعَهمْ ... لقولِنا، أو دعوناهمْ أجابُونا
قومٌ إذا استخصموا كانوا فراعنةً ... يوماً وإن حُكِّموا كانوا موازينا
تَدرّعوا العقلَ جلباباً، فإنْ حميتْ ... نارُ الوَغى خلتَهُمْ فيها مَجانينا
إذا ادّعَوا جاءتِ الدُّنيا مُصَدِّقَةً ... وإن دَعوا قالتِ الأيّامُ: آمينا
إنّ الرّوازِرَ لَمّا قامَ قائمُها ... تَوَهمتُ أنّها صارتْ شَواهينا
طلّتْ تَأبّى البُراةُ الشُّهبُ عن جزَعٍ ... وما دَرَتْ أنّه قد كانَ تَهوينا
بيارِقٌ ظفرتْ أيدي الرِّياحِ بها ... ولو تَرَكناهُمُ صادوا فرازينا
دَلّوا بأسيافِنا طولَ الزّمانِ، فمُذْ ... تحكّموا أظهروا أحقادَهم فينا
لم يفهَمِ مالُنا عن نَهبِ أنفُسِنا ... كأنّهمْ في أمانٍ من تقاضينا
أخلَوا المَساجدَ من آسِياخِنا ونَعَوا ... حتى حَمَلْنا، فأخلَينا الدّواوينا
ثمّ انثَنينا، وقد ظلّتْ صوارمُنا ... تَميسُ مُجبياً، ويَهتَزُّ القَنا لينا
وللدّماءِ على أثوابِنا عَلَقٌ ... بنَشرِهِ عن عَبيرِ المِسكِ يُغنينا
فيا لها دعوةً في الأرضِ سائرةً ... قد أصبحتْ في فمِ الأيّامِ تلقينا
إنّا لقَومٌ أبَتْ أخلاقُنا شَرَفاً ... أن نَبتَدي بالأذى مَن ليسَ يؤذينا
بيضٌ صَنائعُنا، سودٌ وقائعُنا ... خُضرٌ مَرابعُنا، حُمرٌ مَواضينا
لا يظهرُ العَجزُ عنّا دونَ نَيلِ مُنًى ... ولو رأينا المَنايا في أمانينا
ما أعزتنا فرامينٌ تصولُ بها ... إلاّ جعلنا مواضينا فرامينا
إذا جرينا إلى سَبقِ العُلا طلقاً ... إنْ لم نكُنْ سُبّقاً كُنّا مُصَلّينا
تدافعُ القَدرَ المحتومَ همّتُنا ... عنّا وتخصِمُ صرفَ الدّهرِ لو شينا
تُفشي الخُطوبَ بأيدينا فنَدفَعُها ... وإنْ دهتنا دفعناها بأيدينا
مُلكٌ، إذا فُوّقتْ نَبلُ العِدا لَنا ... رَمَتْ عزائمُهُ مَن باتَ يَرمينا
عَزائمٌ كالنّجومِ الشُّهبِ ثاقبةٌ ... ما زالَ يَحرِقُ منهنّ الشّياطينا
أعطى فلا جودُهُ قد كانَ عن غلَطٍ ... منه، ولا أجرُهُ قد كانَ ممنونا

كم من عدوٍّ لنا أمسى بسطوته ... يُبدي الخُضوعَ لنا خَتلاً وتسكينا
كالصِّلّ يظهرُ ليناً عند ملمسه ... حتى يُصادفَ في الأعضاء تمكينا
يطوي لنا الغدرَ في نصحٍ يشيرُ به ... ويمزجُ السمَّ في شهدٍ ويسقينا
وقد نُغضّ ونُغضي عن فَبائحه ... ولم يكُنْ عَجزاً عنه تغاضينا
لكنْ تركناه، إذ بتنا على ثقةٍ ... إنّ الأميرَ يُكافيه فيكفينا

ولعل أبا القاسم الشابي استوحى قوله الشهير:

ومن يتهيّبْ صعودَ الجبال ... يعشْ أبدَ الدهر بين الحُفَر

من مقولة الحلي:

لا يعتطي المجد من لم يركب الخطرا ... ولا ينال العلا من قدّم الحذرا

وقصيدة الشابي هذه المسماة "قصيدة الأمل" هي من روائع القصائد العربية في استحثاث الشعوب (ولاسيما شعوب شمال إفريقيا) للتحرر من ربقة الاستعمار الأوروبي، الامتداد الحديث لحملات الصليب القديمة، فيقول فيها:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة ... فلا بد أن يستجيب القدر
ولابد لليل أن ينجلي ... ولا بد للقيد أن ينكسر
ومن لم يعانقه شوق الحياة ... تبخر في جوّها واندثر
كذلك قالت لي الكائنات ... وحدثني روحها المستتر
ودمدمت الريح بين الفجاج ... وفوق الجبال وتحت الشجر
إذا ما طمحتُ إلى غايةٍ ... ركبتُ المنى ونسيتُ الحذر
ولم أتجنب وعورَ الشعاب ... ولا هبة اللهب المُستعر
ومن يتهيّبْ صعودَ الجبال ... يعشْ أبد الدهر بين الحُفَر
فعجّت بقلبي دماءُ الشباب ... وضجت بصدري رياح أخر
وأطرقتُ أصغي لقصف الرعود ... وعزف الرياح ووقع المطر
وقالت لي الأرضُ لمّا سألت: ... أيا أمّ هل تكرهين البشر؟
أبارك في الناس أهل الطموح ... ومن يستلذّ ركوبَ الخطر
والعنْ من لا يماشي الزمان ... ويقنع بالعيش عيش الحجر
هو الكون حيّ يحبّ الحياة ... ويحتقر الميّت مهما كبر
فلا الأفقُ يحضن ميت الطيور ... ولا النحلُ يلثم ميت الزهر

ولعل أروع ما كتبه شاعر ساخر عن أهداف الاستعمار هو الشاعر العراقي معروف الرصافي، الذي تكلم بلسان الاستعمار الأوروبي للعالم الإسلامي (قديماً كان ذلك، أو حديثاً، إذ يتكرر ذلك في العراق وفي أفغانستان وفي فلسطين باسم التحرير مرة؛ أي: الاستعباد والاحتلال، وباسم الديمقراطية مرة أخرى؛ أي: الفوضى والحرب الأهلية. وكل عمل حقيقي لتحرير البلاد فهو في نظرهم إرهاب، وكل إصلاح عندهم إفساد، وهكذا كل شيء مقلوب)، فيقول الرصافي بلسان الأجنبي الغربيّ:

يا قومُ لا تتكلموا ... إن الكلامَ محرّمْ
ناموا ولا تستيقظوا ... ما فاز إلا النوّم
وتأخروا عن كل ما ... يقضي بأن تتقدموا
ودعوا التفهّم جانباً ... فالخيرُ أن لا تفهموا
وتثبتوا في جهلكم ... فالشرّ أن تتعلموا
أما السياسة فاتركوا ... أبداً وإلا تندموا
إن السياسة سرّها ... لو تعلمون مُطلسم
وإذا أفضتم في المُباح ... من الحديث فجمّجموا
والعدلَ لا تتوسّموا ... والظلمَ لا تتجهموا
من شاءَ منكم أن ... يعيش اليوم وهو مُكرّم
فليُمْسِ لا سمعٌ ولا ... بصرٌ لديه ولا فمُ
لا يستحقّ كرامةً ... إلا الأصمُّ الأبكمُ
ودعوا السعادة إنما ... هي في الحياة توهم
فالعيش وهو متنعّمٌ ... كالعيش وهو مذمّم
فارضوا بحكم الدهر ... مهما كان فيه تحكّم
وإذا ظُلمتم فاضحكوا ... طرباً ولا تتظلموا
وإذا أُهنتم فاشكروا ... وإذا لُطمتم فابسموا
إنْ قيلَ: هذا شهدكم ... مُرٌّ فقولوا: علقمُ
أو قيلَ: إن نهاركم ... ليلٌ فقولوا: مُظلمُ
أو قيلَ: إن ثماركم ... سيلٌ فقولوا: مُفعَمُ
أو قيلَ: إن بلادكم ... يا قوم سوف تُقسمُ
فتحمّدوا وتشكّروا ... وترتحوا وترنموا

وكان المسلمون في العصور الوسطى مُشردمين مُفرّقين (بصورة أسوأ مما هي عليه حالنا اليوم)، وكانوا مُستعبدين ومُستعمرين من قبل الصليبيين والمغول (بصورة أقوى من واقعنا اليوم)، إلاّ أنهم رجعوا إلى دينهم وجاهدوا واجتهدوا، وأخذوا بالأسباب، فوفق الله عز وجل لهم وحدة البلاد والعباد؛ بل نصرهم من حيث لا يحتسبون.

وسنرى كيف خرج المسلمون آنذاك من عنق الزجاجة الضيق، ومن القمقم المغلق المظلم، وكيف استطاعوا إنهاء الوجود لأوروبي الصليبي الغربي، ودحر الاجتياح المغولي الكافر الشرقي، بل قهروهم وهم مجتمعون متكالبون جميعاً على العالم الإسلامي.

وهذه المفارقة تحتاج إلى دراسة مستفيضة وعميقة للتاريخ؛ لأن فيها درساً عظيماً، علينا التعلم منه وترجمته في واقعنا المعاصر. وهكذا تداخلت اللغة العربية والجهاد الإسلامي جنباً إلى جنب في صنع هذا النصر المزدوج، بتوفيق الله تعالى. ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أوّلها.

التحالف العبيديّ – الصليبيّ وآثاره في العالم الإسلامي

العالم الإسلامي في أثناء الحملات الصليبية: بدأت الحركة الصليبية بتحريض من البابا أوربان الثاني عام ٤٨٨هـ (١٠٩٥م) إثر خطابه التحريضي لتشجيع الأوروبيين النصارى على مهاجمة البلاد الإسلامية، وفلسطين خاصة. تعد حقبة الحروب الصليبية من أصعب الحقب التي مرت على العالم الإسلامي، فمنذ أواخر القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) بدأت تتقاطر على العالم الإسلامي، ولاسيما بلاد الشام وما جاورها الحملات تلو الحملات التي قتلت المسلمين، وخرّبت ديارهم، ونهبت خيراتهم، ونشرت في بلادهم الذعر والقلق.

ودرج المؤرخون على تقسيمها إلى ٨ حملات صليبية، وقد اتجهت ٤ منها نحو فلسطين، وهي الأولى والثانية والثالثة والسادسة، واثنتان نحو مصر وهما الخامسة والسابعة، وواحدة إلى القسطنطينية (تركيا اليوم) وهي الرابعة، أما الثامنة فنزلت في شمال إفريقيا (تونس).

وكانت القوى الإسلامية آنذاك موزّعة بين الخلافة الإسلامية العباسية التي تناصرها دولة السلاجقة الأتراك السُنة، لكن الخلاف بدأ يدب في دولة السلاجقة في أعقاب مقتل وزيرهم الفذ نظام الملك، ثم سلطانهم القوي ملكشاه، في سنة ٤٨٥هـ (١٠٩٢م).

الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٦–١٠٩٩)

أما القوة الأخرى فكانت ممثلة بالدولة العبيدية (وليست بفاطمية)، صاحبة المذهب الشيعي الإسماعيلي، التي كانت تسيطر حينها على مصر، وأجزاء من شمال إفريقيا وبعض بلاد الشام، فكانت في عداء مع الخلافة العباسية والسلاجقة، بل في تحالف عبيدي – صليبي، إذ كانت لها سفاراتها وهداياها مع الصليبيين. وتعدّ الدولة العبيدية في مصر أول دولة إسماعيلية في التاريخ الإسلامي، مبنية على المذهب الإسماعيلي (المقتصر على الأئمة الستة الأوائل: علي بن أبي طالب، وابنه الحسين بن علي، وعلي زين العابدين بن الحسين، ومحمد بن علي الباقر، وجعفر الصادق، وإسماعيل المبارك)، ثم إن الدولة العبيدية هذه تمثل امتداداً تاريخياً لحركة (إخوان الصفا وخلان الوفا) التي نشأت في الخلافة العباسية وكانت حركة مناوئة سرية، واتخذت من فلسفة الإغريق وعلومهم

ميتافيزيقية (أمثال أفلاطون وأرسطو) ستاراً لها. من هنا يظهر امتزاج التأثير الإغريقي بالتفكير الإسلامي في هذه الدولة العبيدية الإسماعيلية.

كشف القاضي أبو بكر الباقلاني في كتابه "كشف أسرار الباطنية" عن بطلان نسب هؤلاء المدعين بالفاطميين إلى علي ﷺ، وقد استقصى أصولهم القاضي عبد الجبار بن أحمد . وقال الشيخ شهاب الدين أبو شامة: (وهم أربعة عشر خليفة...)، إلى أن قال: (ويدعون الشرف، ونسبتهم إلى مجوسي أو يهودي، حتى اشتهر لهم ذلك بين العامّة فصاروا يقولون: الدولة الفاطمية والدولة العلوية، وإنما هي الدولة اليهودية والمجوسية الملحدة الباطنية). قال: (وقد ذكر ذلك جماعة من العلماء الأكابر، وأنهم لم يكونوا لذلك أهلاً، ولا نسبهم صحيحاً، بل المعروف أنهم بنو عبيد، وكان والد عبيد هذا من نسل القداح الملحد المجوسي).

وذكره أبو منصور الثعالبي في يتيمة الدهر : سمعت الشيخ أبا الطيب يحكي أن الأموي (الحكم بن عبد الرحمن المستنصر بالله) صاحب الأندلس كتب إليه نزارٌ هذا يعني العزيز صاحب مصر كتاباً يسبّه فيه ويهجوه، فكتب إليه الأموي: (أما بعد، قد عرفنا فهجوتنا، ولو عرفناك لأجبناك، والسلام).

وفي رواية أنه كتب له قصيدة :

ألستَ بني مروان كيف تقلبت ... بنا الحال أو دارت علينا الدوائر

إذا وُلد المولود منا تهللت ... له الأرض واهتزت إليه المنابر

ثم قال: (أما بعد، قد عرفنا فهجوتنا، ولو عرفناك لأجبناك، والسلام). قال: فاشتد ذلك على نزار المذكور وأحمه عن الجواب، يعني أنه غير شريف وأنه لا يعرف له قبيلة حتى كان يهجوه.

وقال الحافظ أبو الفرج بن الجوزي: كان العزيز قد ولى عيسى بن نسطورس النصراني ومنشا اليهودي فكتبت إليه امرأة: بالذي أعزّ اليهود بمنشا والنصارى بابن نسطورس وأذلّ المسلمين بك، إلا نظرت في أمري. فقبض العزيز على اليهودي والنصراني وأخذ من ابن نسطورس ثلاث مئة ألف دينار.

وقال ابن خلكان: وأكثر أهل العلم لا يصححون نسب المهدي عبيد الله والد خلفاء مصر، حتى إن العزيز في أول ولايته صعد المنبر يوم الجمعة فوجد ورقة فيها:

إنا سمعنا نسباً مُنكراً ... يُتلى على المنبر في الجامع

إن كنت فيما تدّعي صادقاً ... فاذكر أباً بعد الأب الرابع

وإن ترد تحقيق ما قلته ... فانسب لنا نفسك كالطائع

أو فدع الأنساب مستورة ... وادخل بنا في النسب الواسع

فإن أنساب بني هاشم ... يقصر عنها طمع الطامع

فقرأها العزيز ولم يتكلم.

ثم صعد العزيز المنبر يوماً آخر، فرأى ورقة فيها مكتوب:

بالظلم والجور قد رضينا ... وليس بالكفر والحماقه

إن كنت أعطيت علم غيب ... فقل لنا كاتب البطاقه

قال: وذلك: لأنهم ادعوا علم المغيبات والنجوم. وأخبارهم في ذلك مشهورة.

وفي بداية دولتهم استولى جوهر الصقلي، ودخل المعز العبيدي إلى الديار المصرية، فامتدحه شاعره محمد بن هانئ الأندلسي، وكان قوي النظم، بقصيدة أولها:

يقول بنو العباس: هل فُتحت مصرُ؟ فقل لبني العباس: قد قضي الأمرُ

ثم توجه المعز من المغرب فوصل إلى الإسكندرية في شعبان سنة ٣٦٢هـ، وتلقاه أعيان مصر لديها، فخطب هناك خطبة بليغة، وجلس قاضي مصر أبو الطاهر الذهلي إلى جنبه، فسأله: هل رأيت خليفةً أفضل مني؟ فقال: لم أر أحداً من الخلائف سوى أمير المؤمنين: فقال له: أحججت؟ قال: نعم، قال: وزرت قبر رسول الله ﷺ؟ قال: نعم قال: وقبر أبي بكر وعمر؟ قال: فتحيرت ماذا أقول! ثم نظرت فإذا ابنه قائم مع كبار الأمراء، فقلت شغلني عنهما رسول الله ﷺ، كما شغلني أمير المؤمنين عن السلام على ولي العهد، وتهمت إليه فسلمت عليه، فانفسح المجلس إلى غيره لوهذا من التورية البارعة. وشاعره ابن هانئ الأندلسي قد كفره غيرُ واحد من العلماء، منهم القاضي عياض في الشفا: لمبالغته في مدح الخلق، فمن ذلك قوله في المعز:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

وكأنما أنت النبيّ محمدٌ وكأنما أنصارك الأنصارُ

أنتَ الذي كانت تبشّرنا به في كُتبها الأحبارُ والأحبار

وهذا من أكبر الكفر. وقال أيضاً، قبحه الله وأخزاه:

هذا أميرُ المؤمنينَ بمجلسٍ أبصرتُ فيه العقلَ والتنزيلا

وإذا تمثل راكباً في مجلسٍ عاينتُ تحت ركابه جبريلا

وقد اعتذر عنه بعض المتعصبين له. قال ابن كثير في كتاب البداية والنهاية: "ذا الكلام إن صح عنه فليس عنه اعتذار، لا في الدار الآخرة ولا في هذه الدار. وقد وُجد ابن هانئ هذا مقتولاً على حافة البحر سنة ٣٦٢هـ؛ بسبب مجاهرته بالكفر.

ومن غرائبه أنه استوزر رجلاً نصرانياً يقال له: عيسى بن نسطورس، وآخر يهودياً اسمه ميشا. فعزّ بسببهما اليهود والنصارى على المسلمين في ذلك الزمان، حتى كتبت إليه امرأة: بالذي أعزّ النصارى بعيسى بن نسطورس واليهود بميشا، وأذل المسلمين بك: إلا كشفت عن ظلامتي! فعند ذلك أمر بالقبض على هذين، وأخذ من النصراني ثلاث مئة ألف دينار. وولي بعده ابنه الحاكم بأمر الله (بل الحاكم بأمر إبليس عام ٩٩٦م–٣٨٦هـ) وعمره ١١ سنة حسب نظام الوراثة في عقيدتهم الإسماعيلية الذي يحصر الإمامة في الأعقاب. وكان تحت وصاية أستاذه ومعلمه (برجوان) مدة ٤ سنوات انتهت بانقلاب التلميذ على أستاذه وقتله غيلة: لكي ينفرد بالحكم دون وصاية وعمره ١٥ سنة فقط في عام ١٠٠٠م؛ أي: مطلع الألفية الثانية/ ٣٩٠هـ. فكان شرّ الخليقة (حكم مصر ٢٥ سنة)، لم يلِ مصر بعد فرعون شرٌ منه؛ رام أن يدعي الألوهية كما ادعاها فرعون، فأمر الرعية إذا ذكره الخطيب على المنبر أن يقوموا على أقدامهم صفوفاً إعظاماً لذكره، واحتراماً لاسمه: فكان يفعل ذلك في سائر ممالكه حتى في الحرمين الشريفين. وكان أهل مصر خاصة إذا قاموا خروا سجداً: حتى إنه يسجد بسجودهم في الأسواق الرعاع وغيرهم. وكان جباراً عنيداً، وشيطاناً مريداً، كثير التلون في أقواله وأفعاله، هدم كنائس مصر ثم أعادها،

وخرب قمامة (أي كنيسة القيامة) ثم أعادها، ولم يُعهد في ملة الإسلام بناء كنيسة في بلد الإسلام قبله ولا بعده، وقد نقل السبكي الإجماع على أن الكنيسة إذا هدمت، ولو بغير وجه، لا تجوز إعادتها.

ومن قبائح الحاكم أنه ابتنى المدارس، وجعل فيها الفقهاء والمشايخ، ثم قتلهم وخربها، وألزم الناس إغلاق الأسواق نهاراً وفتحها ليلاً؛ فامتثلوا ذلك دهراً طويلاً. وكان يعمل الحسبة بنفسه يدور في الأسواق على حمار له، وكان لا يركب إلا حماراً، فمن وجده قد غش في معيشته أمر عبداً أسود معه يقال له مسعود أن يفعل به الفاحشة العظمى، وكان منع النساء من الخروج من منازلهن، ومنعهن من دخول الحمامات، وقتل خلقاً من النساء على مخالفته في ذلك، وهدم بعض الحمامات عليهن، ومنع من طبخ الملوخيا.

وله رعونات كثيرة لا تنضبط، فأبغضه الخلق، وكتبوا له الأوراق بالشتم له ولأسلافه في صورة قصص، حتى عملوا صورة امرأة من ورق بخفها وإزارها، وفي يدها قصة فيها من الشتم شيء كثير، فلما رآها ظنها امرأة، فذهب من ناحيتها وأخذ القصة من يدها، فلما رأى ما فيها غضب، وأمر بقتلها؛ فلما تحقق أنها من ورق، ازداد غضباً إلى غضبه، وأمر العبيد من السود أن يحرقوا مصر وينهبوا ما فيها من الأموال والحريم، ففعلوا، وقاتلهم أهل مصر قتالاً عظيماً ثلاثة أيام، والنار تعمل في الدور والحريم، واجتمع الناس في الجوامع، ورفعوا المصاحف، وجأروا إلى الله واستغاثوا به، وما انجلى الحال حتى احترق من مصر نحو ثلثها، ونهب نحو نصفها، وسبي حريم كثير وقعل بهن الفواحش، واشترى الرجال من سبي لهم من النساء والحريم من أيدي العبيد.

يروي الجغرافي الأندلسي أبو عبيد البكري المتوفى ٤٨٧هـ (السنة التي مات فيها المستنصر حفيد الحاكم — أي هو شاهد على عصر الحاكم): أن الحاكم بأمر الله شيّد في المنطقة الواقعة بين الفسطاط والقاهرة ٣ مشاهد لتنقل إليها رفات الرسول ﷺ ورفات الشيخين أبي بكر وعمر؛ لينقل الحجّ إلى مصر (نفذ هذا المشروع الخاسر عام ٣٩٥هـ بإشرة أحد الزنادقة على الحاكم ينبش قبر النبي ﷺ وصاحبيه وحملهم إلى مصر، وكانت الحجاز آنذاك تحت الهيمنة الفاطمية)، فبذل الحاكم أموالاً لرجال من شيعته نجحوا في حفر سرداب أسفل الدور المجاورة لمنزل الرسول ﷺ مقابل القبر، غير أن أهل المدينة لم يلبثوا أن علموا بما فعلوه وبنواياهم، فقتلوهم ومثلوا بهم، ثم رصفوا تلك الحفرة بالحجارة وأفرغوا عليها الرصاص حتى لا يطمع في الوصول إليها طامع أبداً.

وحاول ابن الحاكم تصحيح ما أفسده أبوه فلم يستطع؛ قال ابن تغري بردي في (النجوم الزاهرة، ج٣): وكان الظاهر لإعزاز دين الله، ابن الحاكم، كثير الصدقات منصفاً من نفسه لا يدعي دعاوى والده وجده في معرفة النجوم وغيرها من الأشياء المنكرة، ولا سيما لما وقع من بعض حجاج المصريين كسر الحجر الأسود بالبيت الحرام في سنة ٤١٣هـ.

وكان أمر الحجر أنه لما وصل الحاج المصري إلى مكة المشرفة وثب شخص من الحجاج إلى الحجر الأسود وهو مكانه من البيت الحرام وضربه بدبوس كان في يده حتى شعثه وكسر قطعاً منه وعاجله الناس فقتلوه، وثار أكثر المصريين فقتلوا منهم جماعة ونهبوهم، حتى ركب أبو الفتوح الحسن بن جعفر فأطفأ الفتنة ودفع عن المصريين، وقيل: إن الرجل الذي فعل ذلك كان من الجهال الذين استغواهم الحاكم وأفسد عقائدهم. فلما بلغ الظاهر ذلك شق عليه وكتب كتاباً في هذا المعنى.

قال هلال بن الصابئ: وجدت كتاباً كتب من مصر في سنة ٤١٤هـ على لسان المصريين وهو كتاب طويل فمنه:

(وذهبت طائفة من النصيرية إلى الغلو في أبينا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضوان الله عليه، وادعت فيه ما ادعت النصارى في المسيح، ونحن عن هؤلاء الكفرة فرقة سخيفة العقول ضالة بجهلها عن سواء السبيل فغلوا فينا

غلواً كبيراً وقالوا في آبائنا وأجدادنا منكراً من القول وزوراً ونسبونا بغلوهم الأشنع وجهلهم المستفظع الى ما لا يليق بنا ذكره. وإنا لنبرأ إلى الله تعالى من هؤلاء الجهلة الكفرة الضلال. ونسأل الله أن يحسن معونتنا على إعزاز دينه وتوطيد قواعده وتمكينه، والعمل بما أمرنا به جدنا المصطفى وأبونا علي المرتضى وأسلافنا البررة أعلام الهدى.

وقد علمتم يا معشر أولياتنا ودعاتنا ما حكمنا به من قطع دابر هؤلاء الكفرة الفساق والفجرة المراق وتفريقنا لهم في البلاد كل مفرق، فظعنوا في الأفاق هاربين، وشردوا مطرودين خائفين. وكان من حملة من دعاه الخوف منهم إلى الانتزاح رجل من أهل البصرة أهوج أثول ضال مضل سار مع الحجيج إلى مكة، حرسها الله، فرقاً من وقع الحسام، وتستر بالحج إلى بيت الله الحرام. فلما حصل في البيت المفضل المعظم والمحل المقدس المكرم أعلن بالكفر وما كان يخفيه من المكر، وحمله لم في عقله على قصد الحجر الأسود حتى قصده وضربه بدبوس ضربات متواليات أطارت منه شظايا وصلت بعد ذلك. ثم إن هذا الكافر عوجل بالقتل على أسوأ حاله وأضل أعماله وألحق بأمثاله من الكفرة الواردين موارد ضلاله، ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم. ولعمري إن هذه لصيبة في الإسلام قادحة، ونكاية فادحة، فإنا لله وإنا إليه راجعون. لقد ارتقى هذا الملعون مرتقى عظيماً ومقاماً جسيماً، أذكر به ما كان أقدم عليه غلام ثقيف المعروف بالحجاج، لعنه الله، من إحراق الكعبة وهدمها وإزالة بنيانه وردمه. ثم ذكر كلاماً طويلاً في هذا المعنى يطول الشرح في ذكره). انتهى كلام ابن الصابئ.

وكان ظهور النار العظيمة بالمدينة الشريفة في سنة ٦٥٤هـ، وعُدَّ ما وقع من تلك النار الخارجة وحريق المسجد من جملة الآيات، واتهم الناس الرافضة بذلك الفعل.

فيها احترق مسجد رسول الله ﷺ في شهر رمضان، وهذا غير النار التي ظهرت بنواحي المدينة، فإن هذا الحريق له سبب ابتدأ من زاوية الحرم النبوي الغربية من الشمال، فعلقت في آلات الحرم ثم دبت في السقوف. فما كان إلا ساعة حتى احترقت سقوف المسجد أجمع ووقع بعض أساطينه، وكان ذلك قبل أن ينام الناس، واحترق أيضاً سقف الحجرة. وأصبح الناس في يوم الجمعة فعزلوا موضعاً للصلاة، ونظم في حريق المسجد غير واحد من الشعراء.

فقال معين الدين بن تولو المغربي:

قل للروافض بالمدينة ما لكم	يقتادكم للذم كل سفيه
ما أصبح الحرم الشريف محرقاً	إلا لسبكم الصحابة فيه

وقال غيره:

لم يحترق حرم النبي لحادث	يُخشى عليه ولا دهاه العسر
لكنها أيدي الروافض لامست	ذاك الجناب فطهرته النار

ووهنت دولة العبيديين في أيام المستعلي بن المستنصر (٤٨٧هـ-٤٩٦هـ). وكانت أول حركة الفرنج لأخذ السواحل وخروجهم إليها في سنة ٤٩٠هـ، فساروا إليها، وكان أول ما أخذوا نيقية وهو أول بلد فتحوه وأخذوه من المسلمين ثم فتحوا حصون الدروب شيئاً بعد شيء، ووصلوا إلى البارة وجبل السماق وقامية وكفر طاب ونواحيها. وانقطعت دعوتهم من أكثر مدن الشام، واستولى عليها السلاجقة المسلمون في جهاد ضد الفرنج الصليبيين. ولم يكن للمستعلي مع الأفضل "ابن أمير الجيوش" حكم.

وزحف الفرنج في ٤٩١هـ إلى سور المعرة لمعرة النعمان من الناحية الشرقية والشمالية، فنصبوا عليها السلالم وأسندوا البرج إلى سورها فكان أعلى منه. ولم تزل الحرب عليها إلى وقت المغرب من اليوم ١٤ المحرم. وصعدو

السور وانكشف أهل البلد بعد أن ترددت إليهم رسل الفرنج، وأعطوهم الأمان على نفوسهم وأموالهم وألا يدخلوا إليهم بل يبعثوا إليهم شحنة لأي حامية صليبية)، فملكت الفرنج البلد بعد المغرب بعد أن قتل من الفريقين خلق كثير ثم، أعطوهم الأمان. فلما ملكوها غدروا بهم فقتلوا من أهلها ١٠٠ ألف إنسان (قاله أبو المظفر سبط ابن الجوزي، قال: وسبوا مثلها).

وأقاموا عليها إلى أن رحلوا عنها في آخر شهر رجب إلى القدس ثم دخلوا كفر طاب وفعلوا مثل ذلك وعادوا إلى أنطاكيا وحصروها ٨ أشهر وأخذوها في ١٦ رجب سنة ٤٩١هـ بمساعدة قوم من أهل أنطاكيا واطلعوا الفرنج على تسليمها إليهم: لإساءة حاكم البلد في حقهم وحجزه لهم، ووجدوا الفرصة في برج من الأبراج، وقُتل من أنطاكيا وسبي من الرجال والنساء والأطفال مالا يدركه.

ولما وقع ذلك اجتمع ملوك الإسلام السلاجقة بالشام وهم: رضوان صاحب حلب، وأخوه دقماق، وطغتكين، وصاحب الموصل، وسكمان بن ارتق صاحب ماردين، وأرسلان شاه صاحب سنجار، **ولم ينهض الأفضل بإخراج عساكر مصر**، يقول عنه ابن تغري بردي: (وما أدري ما كان السبب في عدم إخراجه مع قدرته على المال والرجال)، فجتمع الجميع ونزلوا أنطاكيا وضيقوا على الفرنج حتى أكلوا ورق الشجر.

جعلت الكنيسة الكاثوليكية من فرسان الصليب المقاتلين الصورة المثلى للبطولة النصرانية في أوروبا القرون المظلمة!
الصورة اليسرى أعلاه تمثل الفارس الصليبي وهو يصلي للربّ.
قارن هذه الصور بالوحشية اللادينية المستخدمة ضد المسلمين.

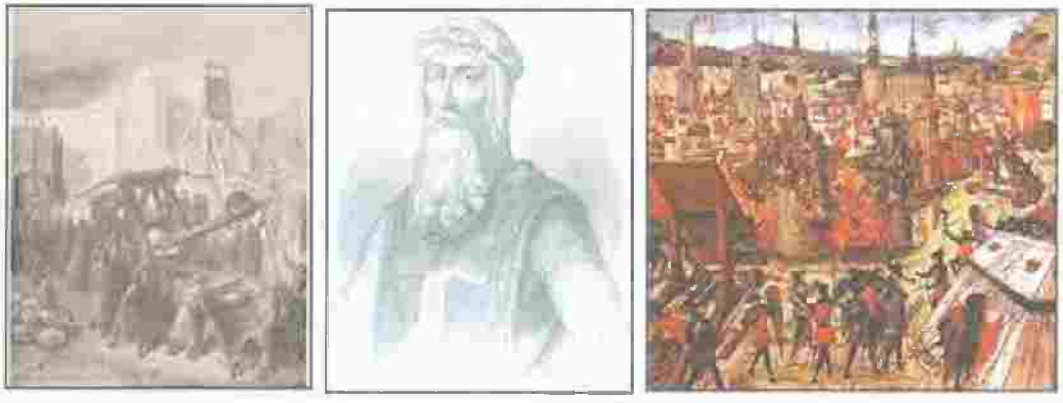

حصار الصليبيين بقيادة جودفري دي بويلون مدينة القدس (تحت الحكم الفاطمي آنذاك)، ثم دخول المدينة بعهود الأمان لسكانها عام ٤٩٢هـ/١٠٩٩م

الحملة الصليبية الأولى بقيادة جودفري دي بويلون، استولت على القدس بالأمان، ثم دخلها الصليبيون وقتلوا قرابة ٧٠ ألفاً إلى ١٠٠ ألف من سكانها المسلمين واليهود، على الرغم من كل عهود الأمان على حياتهم وعدم التعرض لهم (عام ٤٩٢هـ/١٠٩٩م).

الصليبيون يرشقون رؤوس المسلمين المقطوعة كالقذائف من فوق متاريس الحصون في أثناء حصارها، وتظهر الصورة الثانية حصار الحملة الصليبية الأولى لمدينة انطاكيا (التي استولوا عليها وحولوها إلى إمارة انطاكيا الصليبية)

استخدم الصليبيون سياسة الإرهاب والترويع ضد المسلمين وشملت: المجازر والإعدامات الجماعية، رمي الرؤوس المقطوعة من فوق جدران المدن المحاصرة. ويظهر في الصورة السابقة عرض الجثث العارية والتمثيل بها علناً ليشاهدها المسلمون، حتى أكل لحوم البشر المسلمين سُجلت حالاته ووثقت. وكان حصار معرة النعمان قبيل دخولهم القدس؛ أي: عام ٤٩١هـ/١٠٩٨م. (أخذوها بالأمان ثم فتكوا بأهلها)

وكان صنجيل مقدم الفرنج عنده دهاء ومكر، فرتب مع راهب حيلة وقال: اذهب فادهن هذه الحربة في مكان كذا ثم قل للفرنج بعد ذلك: رأيت المسيح في منامي وهو يقول: في المكان الفلاني حربة مدفونة فاطلبوها، فإن وجدتموها فالظفر لكم وهي حربتي، فصوموا ثلاثة أيام وصلوا وتصدقوا، ثم قام وهم معه إلى المكان فنبش

ظهرت الحوبة، فصاحوا وصاموا وتصدقوا وخرجوا إلى المسلمين وقاتلوهم حتى دفعوهم عن البلد، فثبت جماعة من المسلمين فقتلوا عن آخرهم رحمهم الله تعالى. والعجب أن الفرنج لما خرجوا إلى المسلمين كانوا غاية في الضعف من الجوع وعدم القوت حتى إنهم أكلوا الميتة، وكانت عساكر الإسلام غاية في القوة والكثرة، فكسروا المسلمين وفرّقوا جموعهم وانكسر أصحاب الجرد السوابق، ووقع السيف في المجاهدين والمطوعين.

وأما أخذ بيت المقدس فكان في يوم الجمعة ٢٣ شعبان سنة ٤٩٢هـ، وهو أن الفرنج ساروا من أنطاكيا ومقدم الفرنج في ألف ألف، منهم خمس مئة ألف مقاتل فارس، والباقون رجالة وفعلة وارباب آلات من مجانيق وغيرها، وجعلوا طريقهم على الساحل.

مدينة القدس بأسوارها إبان الحملة الصليبية الأولى

وكان بيت المقدس الذي افتتحه عمر بن الخطاب ﷺ في سنة ١٦هـ لم يزل بأيدي المسلمين إلى هذه السنة، ثم كان في يد السلاجقة. واستغلت الدولة العبيدية بمصر جهاد السلاجقة لدحر الفرنج الصليبيين (بدل أن يكونوا معهم على الفرنج)، وسار الأفضل بن بدر أمير الجيوش، فحاصر الأمير سقمان وأخاه إيلغازي، ونصبوا على القدس نيفاً وأربعين منجنيقاً، فهدموا في سوره.

ودام الحصار نيفاً وأربعين يوماً، وأخذوه بالأمان في شعبان سنة ٤٨٩هـ. وأنعم الأفضل على سقمان وأخيه، وأجزل لهم الصلات. فسار سقمان واستولى على الرها، وذهب أخوه إلى العراق. وولي على القدس افتخار الدولة، فدام فيه إلى هذا الوقت (أي: سنة ٤٩٢هـ). وسارت الجيوش المصرانية من حمص، ونازلت عكا أياماً، ثم ترحلوا وأتوا القدس، فحاصروها شهراً ونصفاً، ودخلوا من الجانب الشمالي ضحوة نهار الجمعة لسبع بقين من شعبان، واستباحوه، فإنا لله وإنا إليه راجعون. واحتمى جماعة ببرج داود، ونزلوا بعد ثلاث بالأمان، وذهبوا إلى عسقلان. **رواية ابن الأثير عن دخول الإفرنج بيت المقدس:** قال ابن الأثير: (قتلت الإفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً، منهم جماعة من العلماء والعباد والزهاد، ومما أخذوا أربعين قنديلاً من الفضة، وزن القنديل ثلاثة آلاف وست مئة درهم. وأخذوا تنوراً من فضة، وزنه أربعون رطلاً بالشامي، وغنموا ما لا يحصى. وورد المستغيثون من الشام إلى بغداد بصحبة القاضي أبي سعد الهروي، فأوردوا في الديوان كلاماً أبكى العيون وجرح القلوب. وبعث الخليفة رسلاً، فساروا إلى حلوان، فبلغهم قتل مجد الملك البرسلاني، فردوا من غير بلوغ أربهم، ولا قضاء حاجة، واختلف السلاطين، وتمكنت الإفرنج من الشام).

وكان بالقدس افتخار الدولة من قبل المستعلي خليفة مصر، فأقاموا يقاتلون أربعين يوماً، وعملوا برجين من خشب مطلين على السور: أحدهما بباب صهيون، والآخر بباب العمود وباب الأسباط وهو برج الزاوية، ومنه فتحها السلطان صلاح الدين بن أيوب، فأحرق المسلمون البرج الذي كان بباب صهيون وقتلوا من فيه. وأما الآخر: فزحفوا به حتى ألصقوه بالسور، وحكموا به على البلد وكشفوا من كان عليه من المسلمين، ثم رموا بالمجانيق والسهام رمية رجل واحد؛ فانهزم المسلمون فنزلوا إلى البلد وهرب الناس إلى الصخرة والأقصى واجتمعوا بها، فهجموا عليهم وقتلوا في الحرم مئة ألف وسبوا مثلهم، وقتلوا الشيوخ والعجائز وسبوا النساء وأخذوا من الأموال ما لا يحصى. ويقال: إنه لما بلغهم، يعني الفرنج، خروج الأفضل من مصر جدوا في القتال ونزلوا من السور وقتلوا خلقاً كثيراً

وجمعوا اليهود في الكنيسة وأحرقوها عليهم وهدموا المشاهد وقبر الخليل – عليه السلام – وتسلموا محراب داود بالأمان.

والحقيقية أن اتفاقاً سرياً قد انعقد بين الصليبيين والحامية العبيدية الفاطمية لمدينة القدس، على أن يخرجوا بالأمان وتسلم لهم مدينة القدس. وبالفعل لم يخرج من القدس أحياء سوى هذه الحامية وقائدها افتخار الدولة، إذ سمح لهم الصليبيون بالخروج إلى عسقلان. أما الصليبيون فدخلوا القدس وقتلوا كل مسلم فيها رجالاً ونساء واطفالاً ثم قتلوا اليهود، ولم ينكر المؤرخون الصليبيون أنفسهم هذه المذبحة، فذكر وليم الصوري أن بيت المقدس "تحولت إلى مخاضة واسعة من دماء المسلمين أثارت خوف الغزاة واشمئزازهم".

هذا كله وعسكر مصر لم يحضر، غير أن الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالي صاحب أمر مصر، لما بلغه أن الفرنج ضايقوا بيت المقدس خرج في عشرين ألفاً من عساكر مصر وجد في السير فوصل إلى عسقلان يوم ثاني فتحه، ولم يعلم بذلك، وراسل الإفرنج.

قال ابن الأثير: فأعادوا الرسول بالجواب، ولم يعلم المصريون شيئاً فبادلوا السلاح بالخيل، وأعجلتهم الإفرنج فهزموهم، وقتلوا منهم من قتل، وغنموا خيامهم بما فيها. ودخل الأفضل عسقلان، وتمزق أصحابه. فحاصرته الإفرنج بعسقلان، فبذل لهم ذهباً كثيراً، فردوا إلى القدس.

ومما يرويه ابن الجوزي في مرآة الزمان أنه بعد وصول الأفضل إلى عسقلان ليوم ١٤ رمضان أضاع وقتاً ثمينا "ينتظر الأسطول في البحر والعرب"، وعندئذ اكتشف الصليبيون أمره، فاطبقوا عليه بغتة، وحلت الهزيمة بالفاطميين، وتشتت شملهم بعد قليل، حتى إن بعضهم لم يجد مفراً سوى إلقاء أنفسهم في اليم حيث غرقوا، في حين احتمى بعضهم الآخر بشجر الجميز، فأحرق الصليبيون الشجر حتى هلك من فيه، وأما الوزير الأفضل فقد هرب من عسقلان ومعه بعض رجاله على ظهر سفينة فارين في البحر إلى مصر، فأتى القتل على الراجل والمطوعة وأهل البلد، وكانوا زهاء عشرة آلاف نفس، ونُهب العسكر (كما يروي ابن القلانسي في ذيل تاريخ دمشق). ثم عاد الأفضل إلى مصر ولم يتصدّ بعد ذلك للصليبيين.

وحكي أنه قتل من أهل عسقلان من شهودها وتجارها وأحداثها سوى أجنادها ألفان وسبع مئة نفس. وقرر الفرنج على أهل البلد عشرين ألف دينار تحمل إليهم. وشرعوا في جبايتها من أهل البلد، فاختلف المقسمون فرحلوا ولم يقبضوا من المال شيئاً.

وأرقام الضحايا تختلف، لكن حتى ابن كثير المعتدل في أرقامه يقول في البداية والنهاية: "لما كان ضحى يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان سنة ٤٩٢هـ، أخذت الفرنج – لعنهم الله – بيت المقدس شرّفه الله، وكانوا في نحو الف ألف مقاتل، وقتلوا في وسطه أزيد من ستين ألف قتيل من المسلمين، وجاسوا خلال الديار، ونبّروا ما علوا تتبيراً" (ج١٢، ص١٩٢).

قال ابن الجوزي: وأخذوا من حول الصخرة اثنين وأربعين قنديلاً من فضة، زنة كل واحد منها ثلاثة آلاف وست مئة درهم، وأخذوا تنوراً من فضة زنته أربعون رطلاً بالشامي، وثلاثة وعشرين قنديلاً من ذهب، وذهب الناس على وجوههم هارعين من الشام إلى العراق مستغيثين على الفرنج بالخليفة والسلطان، منهم القاضي بدمشق أبو سعد الهروي، فلما سمع الناس ببغداد هذا الأمر الفظيع هالهم ذلك وتباكوا، وقد نظم أبو سعد الهروي كلاما قرئ في الديوان وعلى المنابر، فجهش الناس بالبكاء، وندب الخليفة الفقهاء إلى الخروج إلى البلاد ليعرضوا الملوك على الجهاد، فخرج أعيان الفقهاء، وساروا في الناس، فلم يفد ذلك شيئاً، فإنا لله وانا إليه راجعون.

وقال في ذلك أبو المظفر الأبيوردي:

مزجنا دماء بالدموع السواجم ... فلم يبق منا عرضة للمراجم
وشرّ سلاح المرء دمعٌ يفيضها ... إذا الحرب شبّت نارُها بالصوارم
فيا بني الإسلام إنّ وراءكم ... وقائع يلحقن الذرا بالمناسم
وكيف تنام العين ملء جفونها ... على هفوات أيقظت كلّ نائم
وإخوانكم بالشام يضحى مقيلهم ... ظهور المذاكي أو بطون القشاعم
تسومهم الروم الهوان وأنتم ... تجرّون ذيل الخفض فعل المُسالم
وبين اختلاس الطعن والضرب وقفة ... تظلّ لها الولدان شيب القوادم
وتلك حروب من يغبّ عن غمرها ... ليسلم يقرع بعدها سنّ نادم
سألن بأيدي المشركين قواضباً ... ستغمد منهم في الطُلى والجماجم
يكاد لهن المستجنّ بطيبة ... ينادي بأعلى الصوت يا آل هاشم
أرى أمتي لا يشرعون إلى العدا ... رماحهم، والدينُ واهي الدعائم
ويجتبون النار خوفاً من الردى ... ولا يحسبون العار ضربة لازم
أيرضى صناديد الأعاريب بالأذى ... وتغضي على ذلّ كُماة الأعاجم؟
فليتهم إذ لم يذودوا حمية ... عن الدين ضنوا غيرةً بالمحارم
وإن زهدوا في الأجر إذ حمي الوغى ... فهلا أتوه رغبة في المغانم

التحالف العبيديّ الصليبيّ:

في الوقت الذي تصدى فيه السلاجقة للحملات الصليبية منذ بداياتها على الرغم من الخلافات التي أصابت دولتهم ومظاهر الضعف، جاء موقف الدولة الفاطمية مغايراً لذلك، إذ غابت فيه نجدتهم للمسلمين، أو الدفاع عن الإمارات الإسلامية على الرغم من القوة التي كانت تمتلكها، والاستقرار الذي كانت تنعم به، مقارنة بغيرها. ويكاد المؤرخون يجمعون على أن العبيديين الفاطميين، ووزيرهم القوي آنذاك الأفضل ابن بدر الجمالي، وجدوا في الحروب الصليبية على بلاد المسلمين فرصة سانحة للقضاء، على دولة السلاجقة السُنّة، وتوسيع نفوذ العبيديين على حسابها، ولم يكن في بال العبيديين محاربة الصليبيين أو نجدة المسلمين. (راجع ايضاً: "أثر الحركات الباطنية في عرقلة الجهاد ضد الصليبيين" للأستاذ يوسف إبراهيم؛ و"تاريخ الفاطميين في شمال إفريقيا ومصر وبلاد الشام" للدكتور محمد سهيل طقوش؛ و"الفاطمية دولة التقاريخ والتباريخ" للأستاذ جمال بدوي).

يقول الأستاذ جمال بدوي: (جاءت الحملة الصليبية الأولى في ختام القرن الحادي عشر (الميلادي)، فدقّت آخر مسمار في نعش الدولة الفاطمية، وتسببت في ضياع هيبتها، وأسقطت القناع عن وجهها الحقيقي، فظهرت نواياها المعادية الإسلام والمسلمين في العالم السني، وفقد الفاطميون اعتبارهم الأدبي والمعنوي، لا لأنهم فقط عجزوا عن التصدي للصليبيين؛ ولكن لأنهم تواطؤوا معهم، وشجّعوهم على التوغل في بلاد الشام للقضاء على عدوهم المشترك، وهم الأتراك السلاجقة، وعقد الفاطميون اتفاقاً مع الصليبيين لاقتسام الشام بينهما، ولكن الفرنجة خدعوهم وشقوا طريقهم نحو الأماكن المقدسة في فلسطين وهي الهدف الرئيس للحملة).

وفي سنة ٤٩٢هـ (١٠٩٨م) استطاع الصليبيون تأسيس أول إمارة لهم في الشرق الأدنى الإسلامي، وهي إمارة الرّها

(بين الموصل والشام)، وفي العام نفسه، أسسوا ثاني إماراتهم، وهي إمارة أنطاكيا (شماليّ بلاد الشام، تتبع الآن لتركيا)، وبدأ الصليبيون يلتهمون المدن الإسلامية واحدة تلو الأخرى، ولا يتصدى لهم إلا السلاجقة المسلمون بإماراتها.

وليت الفاطميين ووزيرهم الأفضل اقتصر موقفهم على الصمت وعدم المساندة، بل إنه اتسم بالتآمر الصريح، إذ إن الوزير الأفضل عندما رأى اشتباك الصليبيين والسلاجقة، فكر في عقد تحالف مع الصليبيين وبعث بسفارة دبلوماسية محملة بالهدايا والنفائس إلى قادة الحملة الصليبية تعبيراً عن مشاعر الود.

أما فقرات التحالف الذي عرضه الأفضل على الصليبيين فتضمنت ما يأتي:

١. ينفرد الصليبيون بحكم أنطاكيا وشمال بلاد الشام.
٢. تحتفظ مصر (الدولة الفاطمية) ببيت المقدس وجنوب بلاد الشام.
٣. يُسمح للصليبيين بزيارة الأماكن المقدسة في فلسطين، وتكون لهم الحرية الكاملة في أداء شعائرهم الدينية، على ألاّ تزيد مدة إقامتهم فيها على شهر واحد، وألا يدخلوها بسيوفهم.
٤. يتعاون الطرفان في القضاء على السلاجقة.

ويظهر من الفقرات السابقة "أن الأفضل قرّر أن يعمل ضد السلاجقة، لا ضد الصليبيين". أما الصليبيون فقد تلقوا سفارة الفاطميين بالمودة والترحيب "ومكث الوفد الفاطمي في المعسكر الصليبي عدة أسابيع عادوا بعدها إلى بلادهم تتقدمهم سفارة صليبية تحمل الهدايا الوفيرة للتباحث مع الأفضل في الأمور التي اتفقوا عليها". والجدير بالذكر أن السفارة الفاطمية قبل إبحارها إلى مصر، أرسل إليها الصليبيون حمولة أربعة جياد من "رؤوس القتلى السلاجقة السنيّين هدية لخليفة مصر (الفاطمي)، فأبدى أفراد السفارة سرورهم البالغ لذلك المشهد".

أما عن العرض الفاطمي باقتسام الشام، فإن الصليبيين لم يرفضوه، ولم يقبلوه، وتركوا البتّ فيه للأمر الواقع عندما تقرره أحداث المستقبل ولم يكن هذا هو الاتصال الأول بين الفاطميين العبيديين والصليبيين، إذ إن عدداً من الأمراء النبلاء الأوروبيين الراغبين في زيارة القدس كانوا يتوجهون من أوروبا إلى الإسكندرية، ومنها يصحبهم الفاطميون إلى ميناء يافا ثم إلى القدس، وكان الهدف من ذلك حماية هؤلاء الأمراء من خطر السلاجقة إبان رحلة الذهاب والعودة من الإسكندرية إلى بيت المقدس.

واستغل الوزير الأفضل الجمالي اشتغال السلاجقة بمقاتلة الفرنج الصليبيين، وأضاف إلى حيادته خيانة جديدة تمثلت بقيامه بأخذ صُور وبيت المقدس من أيدي السلاجقة بعد حصارهما أسابيع عديدة، وهذا الأمر يدل على مقدار القوة التي كانت تمتلكها الدولة العبيدية الفاطمية، التي اختارت أن تستعمل هذه القوة ضد السلاجقة السنة، لا ضد الصليبيين المعتدين.

يقول د. طقوش: "والواقع أنه تحقق ظن الوزير الفاطمي، فالسلاجقة كانوا منهمكين بالغزو الصليبي لصدّ الهجوم الفاطمي، ثم إن تهديده لفلسطين وبيت المقدس خدم القضية الصليبية؛ لأنه سبّب ارتباكاً للسلاجقة في أشد الأوقات حرجاً". ولو أن بيت المقدس بقي في أيدي السلاجقة لكان أصلح للإسلام وللمسلمين من أن يُحتل من قبل الفاطميين، إذ سرعان ما قام الصليبيون باحتلال القدس، ليضيفوها إلى ممالكهم، وبعد أن ارتكبوا فيها مذبحة مروّعة سقط فيها سبعون ألفاً من المسلمين ومن اليهود، ولم ينج من هذه المذبحة المروّعة سوى حاكم المدينة الفاطمي الخائن (افتخار الدولة) الذي احتمى مع حامية جنده بمحراب داود مدة ثلاثة أيام ثم سمحوا لهم بالخروج إلى عسقلان، فلا هو وحاميته دافعوا عن القدس، ولا هم حثوا سكان القدس على الدفاع. بل إنّ هذه الحامية العبيدية كانت تكره سكان القدس السُنيين والمدينة السنة. وكأن الدولة العبيدية الفاطمية أخذت مدينة القدس من المسلمين السلاجقة لتسلمها من بعد إلى الصليبيين النصارى.

وعندما كان الصليبيون يتجهون نحو القدس، اختار الأفضل الجمالي طريق الود والمحبة معهم "وأرسل عندئذ سفارة فاطمية قابلت قادتهم قرب طرابلس.. تحمل الهدايا النفيسة والأموال الضخمة، وعرضاً بالسماح لحجاج الصليبيين بالحج وزيارة كنيسة القيامة في بيت المقدس على نحو مجموعات من مئتي حاج أو ثلاث مئة بشرط ألاّ يكونوا مسلحين"..."رفض الصليبيون الاقتراح وردّوا على السفارة الفاطمية بأنهم سيتمكنون من الحج فعلاً بوصفهم جيشاً واحداً، لا بوصفهم جماعة بإذن الله، ولا بإذن الخليفة الفاطمي".

وبعد احتلالهم القدس، احتل الصليبيون عسقلان، آخر مدينة كانت بأيدي الفاطميين في بلاد الشام، ولم يأبه الصليبيون باقتراحات الأفضل وسفاراته، ولم تنجح كل محاولاته فيما بعد لإعادة أملاك الدولة الفاطمية في بلاد الشام، فالخيانة ومعاونة الصليبيين على المسلمين أدت إلى نتيجة معكوسة منكوسة على رؤوس الدولة العبيدية، و غتيل الأفضل في رمضان من سنة ٥١٥هـ، ومات بالعار، لكن الخيانات العبيدية لم تنته بموت الوزير الأفضل: ذلك أن خيانة المسلمين ومعاونة الصليبيين نهج ثابت لدى العبيديين الفاطميين، الذين كانوا في داخل بلادهم يعلون من شأن اليهود والنصارى، ويفضلونهم على المسلمين من أهل السنة، وقد جاءت سياستهم الخارجية متسقة مع الداخلية. يقول ابن تغري بردي: وكان الآمر بن المستعلي يتناهى في العظمة ويتقاعد عن الجهاد.

وما قاله الذهبي في ترجمته فيحق: فإنه مع تلك المساوئ التي ذكرت عنه كان فيه تهاون في أمر الغزو والجهاد، حتى استولت الفرنج على السواحل غالبها وحصونها في أيامه، وإن كان وقع لأبيه المستعلي أيضاً ذلك وأخذ القدس في أيامه، فإنه اهتم بقتال الفرنج، وأرسل الأفضل بن بدر الجمالي أمير الجيوش بالعساكر فوصلوا بعد فوات الصخرة بيوم. فكان له في الجملة مندوحة بخلاف الآمر هذا، فإنه لم ينهض لقتال الفرنج ألبتة، وإن كان أرسل مع الأسطول عسكراً فهو لا شيء.

وأول ما وقع في أيامه من طمع الفرنج في البلاد خروجهم في أول سنة ٤٩٧هـ من الرها وانقسموا قسمين: قسم قصد حران وقسم قصد الرقة. فمن توجه إلى الرقة تصدى له السلاجقة المسلمون والتقوا مع الفرنج واقتتلوا قتالاً شديداً، ثم كانت الدائرة على الفرنج فانهزموا وقتل منهم خلق كثير.

والقسم الآخر من الفرنج الذي قصد حران والبلاد الشامية لم ينهض أحد لقتالهم، بل صالحهم ابن عمار قاضي طرابلس وصاحبها وهادنهم على أن يكون لصنجيل ملك الفرنج ظاهر البلد، وألا يقطع الميرة عنها، وأن يكون داخل البلد لابن عمار. وهلك في أثناء ذلك صنجيل المذكور ملك الروم. ولم ينهض أحد من المصريين لقتال المذكورين. فعمت الفرنج ضعف من بمصر.

ثم بعد ذلك قصد الفرنج طرابلس في سنة ٥٠٢هـ، وأخذوها بعد أن اجتمع عليها ملوك الفرنج في ستين مركباً في لبحر مشحونة بالمقاتلة مع صاحب أنطاكيا وصاحب القدس بمن معهم الذين جاؤوا من البرّ وشرعوا في قتالها وضايقوها من أول شعبان إلى ذي الحجة وأسندوا أبراجهم إلى سور البلد. فلما رأى أهل طرابلس ذلك أيقنوا بالهلاك مع تأخر أسطول مصر عنهم. ثم حضر أسطول مصر من البحر. وصار كلما سار نحو البلد ردّه الفرنج إلى نحو مصر. قال ابن تغري بردي: ومن هذا يظهر عدم اكتراث أهل مصر بالفرنج من كلّ وجه:

الأول: من تقاعدهم عن المسير في هذه المدة الطويلة.

والثاني: لضعف العسكر الذي أرسلوه مع أسطول مصر، ولو كان لعسكر الأسطول قوة لدفع الفرنج من البحر عن البلد على حسب الحال.

والثالث: لم يخرج الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بالعساكر المصرية كما كان فعل والده بدر الجمالي في أوائل الأمر.

هذا مع قوتهم من العساكر والأموال والأسلحة. ولله در السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فيما فعله في أمر الجهاد وفتح البلاد.

ثم إن الفرنج لما علموا بحال أهل طرابلس وتحققوا أمرهم حملوا حملة رجل واحد في يوم الإثنين الحادي عشر من ذي الحجة وهجموا على طرابلس. فأخذوها ونهبوها، وأسروا رجالها، وسبوا نساءهم، وأخذوا أموالها وذخائرها، وكان فيها ما لا يحصى ولا يحصر واقتسموها بينهم. وطمعوا في الغنائم فساروا إلى جبلة، وبها فخر الملك بن عمار الذي كان صاحب طرابلس وقاضيها، وتسلموها منه بالأمان في الثاني عشر من ذي الحجة في يوم واحد، وخرج منها ابن عمار سالماً. ثم وصل بعد ذلك الأسطول المصري بالعساكر فوجدوا البلاد قد أُخذت فعادوا كما هم إلى مصر.

ثم انقضى ذلك في سنة ٥٠٥هـ. وقصد الفرنجة صور، فكتب واليها وأهلها إلى طغتكين، القائد السلجوقي المسلم، يسألونه أن يسلموها إليه قبل مجيء الفرنج: لأنهم يئسوا من نصرة مصر، فأبى وبعث إليهم الفرسان والرجالة وجاءهم هو من جبل عاملة ثم عاد. ثم رحلت الفرنج عنها ونزلوا على الحبيس، وهو حصن عظيم. وحاصروه حتى فتحوه عنوة وقتلوا كل من كان فيه، ثم عادوا إلى صور وشرعوا في عمل الأبراج واحذوا في قتالها والزحف في كل يوم.

فلما بلغ ذلك طغتكين القائد السلجوقي، زحف عليهم ليشغلهم، فخندق عليهم، وهجم الشتاء فلم يبال الفرنج به؛ لأنهم كانوا في أرض رملة، والميرة تصل إليهم من صيدا في المراكب. ثم ركب طغتكين البحر وسار إلى نحو صيدا وقتل جماعة من الفرنج وأغرق مراكبهم، وأوصل مكاتبته إلى أهل صور فقوى قلوبهم.

ثم عمل الفرنج برجين عظيمين طول الكبير منهما زيادة على خمسين ذراعاً، وطول الصغير زيدة على أربعين ذراعاً، وزحفوا بهما أول شهر رمضان. وخرج أهل صور بالنفط والقطران ورموا النار فهبت الريح فاحترق البرج الصغير بعد المحاربة العظيمة، ونُهب منه زرديات وطوارق وغير ذلك، ولعبت النار في البرج الكبير أيضاً فأطفأها الفرنج.

ثم إن الفرنج طموا الخندق وواتروا الزحف طول شهر رمضان وأشرف أهل البلد على الهلاك. فتحيل واحد من المسلمين له خبرة بالحرب فعمل كباشاً من أخشاب تدفع البرج الذي يلصقونه بالسور. ثم تحيل في حريق البرج الكبير حتى أحرقه وخرج المسلمون فأخذوا منه آلات وسلاحاً. فحينئذ يئس الفرنج من أخذها، ورحلوا عنها بعد ما أحرقوا جميع ما كان لهم من المراكب على الساحل والأخشاب والعمائر والعلوفات وغيرها. وجاءهم طغتكين فما سلموا إليه البلدة، فقال لهم: (أنا ما فعلت الذي فعلته إلا لله تعالى، لا لرغبة في حصن ولا مال، ومتى دهمكم عدوكم جئتكم بنفسي وبرجالي) ثم رحل عنهم - فلله عزه من ملك - كلُّ ذلك ولم تأت نجدة المصريين.

ودام الأمر بين أهل صور والفرنج تارة بالقتال وتارة بالمهادنة، إلى أن طال على أهل صور الأمر ويئسوا من نصرة مصر، فسلموها إلى الفرنج بالأمان في سنة ٥١٨هـ. وما أبقى أهل صور - رحمهم الله تعالى - ممكناً في قتالهم مع الفرنج وثباتهم في هذه السنين الطويلة مع عدم المتجد لهم من مصر. ودخل الفرنج صور وملكوها سنين إلى حين فتحت ثانياً.

وهكذا، فبالإضافة إلى مشروع التحالف الذي عرضه الأفضل على الصليبيين، فقد استغل فرصة انهماك السلاجقة في التصدي للزحف الصليبي في شمال بلاد الشام، فنهض لاستعادة نفوذ الصليبيين في جنوب بلاد الشام، ظناً منه أنه بات من اليسير تحقيق مكاسب سريعة على حساب السلاجقة. فاستولى الأفضل بن بدر الجمالي وزير المستعلي العبيدي على صور في ٤٩٠هـ-١٠٩٧م، وعلى القدس عام ٤٩١هـ-آب ١٠٩٨م، واستتاب عليها افتخار الدولة.

ثم استولى الصليبيون على القدس من الفاطميين عام ٤٩٢هـ ودحروا الفاطميين في معركة عسقلان، ثم استولوا على أرسوف وقيسارية، ثم هزموا الفاطميين في معركة الرملة الأولى ٤٩٤هـ-١١٠١م. وفي معركة الرملة الثانية ٤٩٥هـ على الرغم من انتصار الفاطميين المؤقت الذي أعقبه انكسارهم. وفي أيام الآمر العبيدي (٤٩٦-٥٢٤هـ، استُخلف وعمره ٥ سنين)، أخذ الفرنج عكا سنة ٤٩٧هـ-١١٠٤م، وهذا قلص النفوذ الفاطمي في الساحل ثم أخذوا طرابلس في سنة ٥٠٢هـ فقتلوا وسبوا، وجاءتها نجدة المصريين بعد فوات المصلحة، وأخذوا عرقة وبانياس وأخذوا بيروت بالسيف في سنة ٥٠٣هـ، ثم صيدا سنة ٥٠٤هـ بأيدي الصليبيين، واستعصت عليهم صور؛ لأنهم استعانوا بالسلاجقة على الرغم من السيادة الفاطمية اسماً. ثم قام الوزير الفاطمي بقرض السيادة كاملة على صور عام ٥١٦هـ/ ١١٢٣م؛ ليسلم صور إلى الصليبيين عام ٥١٨هـ بأيدي الصليبيين بعد حصار. وتسلموا في سنة ٥١١هـ تبنين. وبذلك تبيّن التواطؤ العبيدي على الإسلام، **يأخذون مدن جنوبي الشام والساحل من السلاجقة، ليسلموها من بعد ذلك إلى الصليبيين!!!** وارتفعت الأصوات في مصر تطالب الآمر الخليفة العبيدي بانتهاج سياسة إيجابية في الجهاد الحقيقي لا سياسة التحريك الظاهري للجيش.

وأظهر المؤرخون المسلمون أسفهم لعجز الفاطميين عن حماية موانئ بلاد الشام التي أخذت تتساقط الواحدة تلو الأخرى بأيدي الصليبيين، واتهموا الآمر الفاطمي بالتهاون في الجهاد، "فكان يتناهى في العظمة ويتقاعس عن الجهاد... وكان فيه تهاون في أمر الغزو والجهاد، ولم ينهض لقتال الفرنج البتة، وإن كان قد أرسل مع الأسطول عسكراً فهو لا شيء..."

انظر: "تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقيا ومصر وبلاد الشام" للدكتور محمد سهيل طقوش.

آثار العبيديين في نكبات العالم الإسلامي:

أفرزت الدولة العبيدية الفاطمية خمس ظواهر خطرة في تاريخ الإسلام:

١. ظاهرة موالاة الفرنجة الأجانب الصليبيين.
٢. ومولد طائفة الدروز.
٣. وظهور فرقة الحشاشين الإسماعيلية.
٤. وظهور ظاهرة الوزير خواجة نصير الدين الطوسي.
٥. ومولد طائفة البُهرة أو المكرمية الإسماعيلية.

(١) أما بالنسبة إلى الموالاة مع الفرنجة الأجانب الصليبيين: فراجع التحالف العبيدي – الصليبي (فيما سلف).

(٢) أما بالنسبة إلى الدروز: فتدور عقيدتهم حول الوهبة الحاكم بأمر الله الفاطمي، ومؤسسوها: الزوزني والأخرم والدرزي:

كان الحاكم قد أنشأ (دار الحكمة) على مقربة من مسجده الملاصق لباب الفتوح انظر اسم دار الحكمة المناهض لدار الحكمة الأصل في بغداد؛ لتكون هذه الدار أشبه بالأكاديمية يجتمع فيها فلاسفة المذهب الإسماعيلي للعكوف على تطوير المذهب ومده بروافد فلسفية جديدة، وكان دعاة المذهب يقبلون من الأنحاء كافة لهذه المجالس التأويلية التي ينظمها شيوخ المذهب للدارسين في حلقات سرية. ووفد إلى مصر رجل من دعاة الإسماعيلية الفرس اسمه حمزة بن علي الزوزني الذي نبغ في فلسفة المذهب في عام ٤٠٥هـ، وهو الذي دعا إلى تأليه الحاكم. وكان أحد زملائه محمد بن إسماعيل الدرزي تسرّع فكشف عن أسرار الدعوة الجديدة؛ وهذا أثار حفيظة حمزة فطرده من حلقته. وبعد اختفاء الدرزي خلا المسرح لخصمه حمزة الزوزني الذي اتخذ من مسجد (تبر)

بالمطرية مقراً سرياً للاجتماع بأعوانه وبثّ دعواه الإلحادية. وسرعان ما عرف أهالي القاهرة كرهم ودعواهم فطاردوهم وهاجموهم وأحرقوا باب المسجد. ويقول ابن تغري بردي في (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة):

ثم عنّ له أي للحاكم أن يدعي الربوبية، وقرّب رجلاً يعرف بالأخرم ساعده على ذلك وضمّ إليه طائفة يسطهم للأفعال الخارجة عن الديانة. فلما كان في بعض الأيام خرج الأخرم من القاهرة راكباً في خمسين رجلاً من أصحابه وقصد مصر، ودخل الجامع راكباً دابته ومعه أصحابه على دوابهم، وقاضي القضاة ابن أبي العوام جالس فيه ينظر في الحكم، فنهبوا الناس وسلبوهم ثيابهم وسلموا إلى القاضي رقعة فيها فتوى وقد صدرت باسم الحاكم الرحمن الرحيم.

فلما قرأها القاضي رفع صوته منكراً واسترجع أي قال: إنا لله وإنا إليه راجعون)، وثار الناس بالأخرم، وقتلوا أصحابه وهرب هو. وشاع الحديث في دعواه الربوبية، وتقرب إليه جماعة من الجهال، فكانوا إذا لقوه قالوا: السلام عليك يا واحد! يا أحد! يا محيي! يا مميت! وصارت له دعاة يدعون أوباش الناس ومن سخف عقله إلى اعتقاد ذلك، فمال إليه خلق كثير طمعاً في الدنيا والتقرب إليه.

وكان اليهودي والنصراني إذا لقيه يقول: إلهي قد رغبت في شريعتي الأولى، فيقول الحاكم: افعل ما بدا لك فيرتد عن الإسلام. وزاد هذا الأمر بالناس.

وقال الشيخ شمس الدين في تاريخه مرآة الزمان: رأيت في بعض التواريخ بمصر أن رجلاً يعرف بـ **الدرزي** (اسمه محمد بن إسماعيل الدرزي) قدم مصر وكان من الباطنية القائلين بالتناسخ، فاجتمع بالحاكم وساعده على ادعاء الربوبية، وصنف له كتاباً ذكر فيه أن روح آدم عليه السلام انتقلت إلى علي ابن أبي طالب وأن روح علي انتقلت إلى أبي الحاكم ثم انتقلت إلى الحاكم.

فنافق عند الحاكم وقربه وفوض الأمور إليه، وبلغ منه أعلى المراتب، حتى إن الوزراء والقواد والعلماء كانوا يقفون على بابه، ولا ينقضي لهم شغل إلا على يده. وكان قصد الحاكم الانقياد للدرزي المذكور فيحتويه.

فأظهر الدرزي الكتاب الذي فعله، وقراه بجامع القاهرة، فثار الناس عليه وقصدوا قتله. فهرب منهم وأنكر الحاكم أمره خوفاً من الرعية، وبعث إليه في السر مالاً وقال: **اخرج إلى الشام، وانشر الدعوة في الجبال، فإن أهلها سريعو الانقياد.** فخرج إلى الشام ونزل بوادي تيم الله بن ثعلبة، غربي دمشق من أعمال بانياس، فنشر الكتاب على أهله، واستمالهم إلى الحاكم، وأعطاهم المال، وقرر في نفوسهم التناسخ، وأباح لهم شرب الخمر، والزنى، وأخذ مال من خالفهم في عقائدهم، وأباح دمه، وأقام عندهم يبيح لهم المحظورات إلى أن انتهى.

والدروز يحبون أن يُسمّوا الموحدين: فهذا هو الاسم الذي يحبونه ويطلقونه على أنفسهم في كتبهم التي يقدسونها. ويجب لحظ أن هذه التسمية لا تعني توحيد الله عز وجل الذي يعبده المؤمنون، ولكن معناها الإخلاص في توحيد الحاكم بأمره، إذ يذكر حمزة بن علي الزوزني ذلك بقوله: (التوحيد لمولانا عوض الشهادتين).

وعقيدة الدروز، في مجملها، تتألف من أفكار شتى ونظريات مختلفة فلسفية وهندية ويونانية وفارسية وفرعونية، ثم أحاطوها بالسرية الكاملة، لا يبيحون لأحد أن يطّلع عليها غيرهم، كما لا يبيحون لأحد منهم أن يفشي سراً من أسرارها. وقد جاء في كلام لحمزة بن علي قوله في الترهيب من إفشاء أسرارهم: (إن أكبر الآثام وأعظمها إظهار سر الديانة، وإظهار كتب الحكمة - يعني كتبهم - والذي يظهر شيئاً من ذلك يقتل حالاً تجده الموحدين ولا أحد يرحمه). وفي عقيدتهم الإيمان بـ **الوصايا السبعة**: صدق اللسان، حفظ الإخوان، ترك عبادة العدم والبهتان، البراءة من الأبالسة والطغيان، التوحيد لمولانا في كل عصر وزمان، الرضى بفعل مولانا كيف ما كان، التسليم لأمر مولانا في السر والحدثان.

قال ابن الجوزي: ثم زاد ظلم الحاكم، وعنّ له أن يدّعي الربوبية، فصار قوم من الجهال إذا رأوه يقولون: يا واحد، يا أحد، يا محيي، يا مميت!! ثم كان من أمر الحاكم أن تعدى شرّه إلى أخته بتهمها بالفاحشة، ويسمعها أغلظ الكلام، فعملت على قتله لوانقاذ الدولة الفاطمية من الزوال بسببه!. فركب ليلة إلى جبل المقطم ينظر في النجوم، فأتاه عبدان فقتلاه، وحملاه إلى أخته ليلاً فدفنته في دارها، وذلك سنة ٤١٢هـ.

وحديثاً دخل كثير من الدروز في خدمة الجيش الإسرائيلي. إذ أكد سكرتير هيئة رافضي الخدمة العسكرية في الكيان الصهيوني بسام القنطار أن مشاعر الرفض متصاعدة لدى الدروز في هذا الكيان تجاه أداء الخدمة العسكرية الإلزامية، وقال القنطار: (إن الدروز عندما يخدمون في (الجيش الإسرائيلي) فإنهم ملزمون بالخدمة بموجب قرار استثنائي صدر عام ١٩٥٦ ميّزهم عن بقية الأقلية العربية). وأضاف: (إنه بناءً على ذلك، ولو كانت هناك مشاعر عداء متصاعدة ضد هذه الخدمة، فإن القانون (الإسرائيلي) يلزم هؤلاء بالخدمة، أو إنهم سيدخلون السجن)، مؤكداً أن الدروز لديهم مشاعر متصاعدة ضد الخدمة العسكرية في الكيان على خلفية مجموعة قضايا.

الدروز يشيعون جنازة جنود إسرائيل

والدروز ينحو عام يتبعون التورية ومبدأ التقية؛ لستر معتقداتهم الباطنية الإسماعيلية، وقد ذهب محمد كامل حسين يقول: (وللدروز قضاة منهم يحكمون دائماً حسب الشريعة والتقاليد الإسلامية، إلا أنهم في بعض المسائل الخاصة يحكمون حسب التقاليد الدرزية). وقد أفتى الأزهر بانتماء الدروز إلى الإسلام!

(٣) أما بالنسبة إلى ظهور الحشاشين (النزارية الإسماعيلية أو الدعوة الجديدة):

الخلفية التاريخية: لم يلِ أحدٌ من الخلفاء الأمويين ولا العباسيين ولا المصريين مثل مدة ولاية الخليفة العبيدي المستنصر (٤٢٧-٤٨٧هـ) في مصر، حيث استقر في دست الخلافة ٦٠ سنة، وقد عاش المستنصر ٦٧ سنة و٥ أشهر في الشدائد و لوباء والغلاء والفتن. وعلى الرغم من طول ولايته، إلا أنها كانت بداية النهاية للدولة العبيدية، إذ تحكم الوزراء بالخلفاء، فما عاد للخلفاء عمل فعليّ إلا صناعة المكايد والمؤامرات. والمستنصر هذا على الرغم من الشدائد التي ألمت به إلا أنه هو الذي دبر أول محاولة لإسقاط الخلافة العباسية في بغداد عام ٤٥٠هـ عن طريق مؤامرة البساسيري الباطنية التي نجحت مدة سنة واحدة، ثم باءت بالخسران (انظر سقوط بغداد). وصار القحط في أيامه ٧ سنين مثل سني يوسف الصديق (صلوات الله وسلامه عليه) من سنة ٤٥٧-٤٦٤هـ. وثارت في أيامه الفتن في بني حمدان وأكابر القواد، وغلت الأسعار، واضطربت الأحوال، واختلت الأعمال، وحُصر في قصره وطمع فيه.

ويصفه الإمام الذهبي في تاريخ الإسلام: (وهو الذي خُطب له بإمرة المؤمنين على منابر العراق، في نوبة الأمير أبي الحارث أرسلان البساسيري، في سنة ٤٥١هـ. ولا أعلم أحداً في الإسلام لا خليفةً ولا سلطاناً طالت مدّته مثل المستنصر هذا. ولي الأمر وهو ابن سبع سنين ولمّا كان في سنة ٤٤٣هـ قطع الخطبة له من المغرب الأمير المعزّ بن

باديس، وقيل: بل قطعها في سنة ٤٣٥هـ، وخطب لبني العبّاس. وخرج عن طاعة بني عبيد الباطنيّة. وحدث في أيام هذا المتغلّب بمصر الغلاء الذي ما عهد مثله منذ زمان يوسف ﷺ، ودام سبع سنين، حتّى أكل النّاس بعضهم بعضاً، حتّى قيل: إنّه بيع رغيفٌ واحدٌ بخمسين ديناراً؛ فإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

حتى إن المستنصر هذا بقي يركب وحده وخواصّه ليس لهم دواب يركبونها، وإذا مشوا سقطوا من الجوع. وآل الأمر إلى استعارة المستنصر بغلة يركبها حامل الخبز من ابن هبة صاحب ديوان الإنشاء. وآخر شيء توجّهت أمّ المستنصر وبناته إلى بغداد خوفاً من أن يموتن جوعاً؛ وكان ذلك في سنة ٤٦٠هـ. ولم يزل هذا الغلاء حتّى تحرّك الأمير بدر الجماليّ والد الأفضل أمير الجيوش من عكا، وركب في البحر... وجاء إلى مصر وتولى تدبير الأمور، وشرع الأمر في الصلاح.

وتوفّي المستنصر في ذي الحجّة، إذ كان في دولته الرفض والسّب فاشياً مجهوراً، والسّنة والإسلام غريباً مستوراً، فسبحان الحليم الخبير الذي يفعل في ملكه ما يشاء) ويقول في ترجمته: (ركب البحر في الشّتاء من صور إلى الدّيار المصريّة في سنة ٤٦٠هـ، والمستنصر في غاية الضعف واختلال الدّولة للغلاء والوباء الذي حصل من قريب، ولاختلاف الكلمة، فولاه الأمور كلّها، من وزارة السيف، والقلم، وقضاء القضاة، والتقدم على الدّعاة، فضبط الأمور، وزال قطوع المستنصر واستفاق. ولمّا دخل قرا القارئ: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ ووقف، فقال المستنصر: لو أتمّها لضربت عنقه (أصل الآية: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾). ولم يزل إلى أن مات في ذي القعدة سنة ٤٨٨هـ انتهى.

ولم يزل على ذلك حتى استدعى أمير الجيوش بدر الجمالي من عكا إلى مصر فاستولى على التدبير وقدم بمذبحة جماعية غيلة لزعماء الشغب، لم يكررها في التاريخ إلا محمد علي، بعد ٧٠٠ سنة في مذبحة القعة (حين قتل المماليك غدراً). ثم استطاع الجمالي الاستيلاء على مدن الشام: صور وبعلبك وعسقلان من السلاجقة، وبذلك أنقذ الدولة الفاطمية من الفناء المبكر ومدّ في عمرها قرناً كاملاً من الزمان (حتى أزالها البطل صلاح الدين يوسف).

وتمهدت الأمور لهذا الوزير الجبار الجمالي ولم يبق نصب عينه إلا حكم مصر وراثياً في صلبه من بعده، لكن تعاليم المذهب الإسماعيلي للفاطميين يحصر الإمامة في أسرتهم، وكان الجمالي يعرف أن الوريث الشرعي للمستنصر هو ابنه نزار (كان في سن الثلاثين عندما جاء الجمالي إلى مصر)، ولكن ما الذي يمنع ظهور ابن آخر للخليفة يسابق أخاه ويستلب منه الإمامة؟ وما الذي يمنع أن يكون الوريث الجديد من بيت الجمالي كي تؤول إليه الإمامة؟ كان للجمالي ابنة رائعة الحسن والجمال اسمها (ست الملك) انتقلت مع أبيها في رحلته إلى مصر. وتحدث الناس بجمالها حتى وصلت أخبارها إلى مسامع الخليفة، فأبدى رغبته في رؤيتها، وتلقف الجمالي الطلب وهو يرقص فرحاً، وعرف أن الخليفة قد ابتلع الطعم، ولم يبق إلا اصطياده في الشبكة التي نسج خيوطها باقتدار. فأعدّ وليمة فاخرة تليق بمقام أمير المؤمنين الفاطمي، ودخلت الفتاة وهي ترفل في ثيابها الفخمة الزاهية وهي تمشي باستحياء، وبعد أن أدت فروض التحية وهي راكعة على الأرض رفعت وجهها ونزعت الغلالة الرقيقة عن وجهها الذي تبدّى في عين الخليفة كالبدر في ليلة التمام. وانبهر الرجل بجمالها وتزوجها، وانتقلت ست الملك إلى القصر الكبير وصارت زوجة أمير المؤمنين، وبقي على الأقدار أن تساند الجمالي في خطته لتهب ابنته ولداً، وكانت الأقدار سخية على بدر الجمالي (منذ كان مملوكاً أرمنياً في بلاد والي دمشق).

وحملت ست الملك وأنجبت ولداً أسماه أبوه أحمد، وبذلك تهيأت كل الظروف أمام الجمالي لينقل الإمامة إلى حفيده. فتمهدت الأمور ولم يبق للمستنصر معه أمر ولا نهي إلا الركوب في العيدين. (راجع كتاب: "الفاطمية دولة التفاريح والتباريح" للدكتور جمال بدوي).

وكانت عيون نزار، الابن الأكبر للمستنصر ووريثه الشرعي، ترصد تحركات الجمالي، ويملق آماله على زعزعة

مركز هذا الوزير الجبار مثلما حدث لكل الوزراء السابقين. من جهة أخرى، كان الجمالي يراقب تحركات نزار وأعوانه. ويطلق الجواسيس لمراقبة أتباع الإسماعيلية الذين يتلقون العلم في مصر. ومنهم شاب فارسي شديد الطموح كثير الشغب اسمه (الحسن الصباح) جاء إلى مصر حاجّاً الإمام المستنصر، وقابله عام ٤٧١هـ -١٠٧٨م.

وهذه المقابلة أحد أركان العقيدة الإسماعيلية، بل هي التأويل الباطني للحجّ عندهم. أما الحج الظاهر فهو زيارة بيت الله الحرام. جاء الحسن الصباح كداعية إسماعيلي ناشط ضد الخلافة العباسية في بغداد. ودخل ابن الصباح على المستنصر، فأكرمه وأعطاه مالاً، وأمره أن يدعو الناس إلى إمامته. فقال له الحسن بن الصباح: فمن الإمام بعدك؟ فأشار إلى ابنه نزار. ولذا لم يكن الحسن الصباح راضياً عن تصرفات الوزير المستبد بدر الجمالي، والخيوط التي ينسجها من أجل إقصاء نزار وتولية المستعلي، وأخذ يجهر بهذه المعارضة في محيط الإسماعيليين بالقاهرة، فلما وصلت أنباؤه إلى مسامع الجمالي قبض عليه وسجنه، ثم نفاه إلى المغرب، ولكن السفينة التي حملته من الإسكندرية، طوحت بها الرياح إلى الشام، ومنها ذهب إلى إيران حيث أقام "دولة الحشاشين" لمناوأة نظام الحكم الذي أقامه الجمالي في مصر.

بدأ الصباح يفكر في تكوين فرقة دموية فدائية بعد أن غادر مصر فراراً من نقمة الوزير بدر الجمالي. وعاد إلى مسقط رأسه في إيران بعد أن اجتاز سوريا والعراق وخوزستان. وكان طوال رحلته يدعو الناس إلى الالتفاف حوله لتخليص الإمام المستنصر من سطوة الجمالي الساعي إلى تنصيب حفيده المستعلي، بدلاً من نزار الوريث الشرعي للإمامة. فآمن بدعوته خلق كثير يمنّيهم بإقامة العدل ومقاومة الظلم الذي حاق بهم من سلاطين الأتراك السلاجقة. في أقاصي الأصقاع الإيرانية عند بحر قزوين، استقر الصباح ووجد في المناطق النائية مكاناً مناسباً لإقامة دولة للإسماعيلية ينتقل إليها الإمام المستنصر ويتخذها مركزاً له وللدعوة الاسماعيلية بدلاً من مصر، وشرع في تنفيذ مشروعه الخطر.

فأطلق الدعاة لجذب الجماهير العطشة إلى العدل، ونجح هؤلاء الدعاة في التسلل إلى داخل القلاع والحصون، وتمكنوا من استمالة عدد كبير من الجند فاعتنقوا الدعوة الإسماعيلية. كان أقوى هذه القلاع قلعة "الموت" وتعني عش النسر، ولها من اسمها نصيب كبير؛ إذ تقع فوق قمة جبال عالية يصعب الوصول إليها إلا بشق الأنفس. ثم أوعز الصباح إلى دعاته المُكرّسين للمذهب الإسماعيلي في القلعة بدعوته إليها، فدخل القلعة متنكراً منتحلاً اسماً غير اسمه، ومكث في القلعة بضعة أيام يتنقل بين حصونها ومسالكها ويختلط بالناس حتى عرف كل شيء عنهم، وعندئذ كشف عن شخصيته، وطلب من حاكم القلعة تسليمها إليه، فانصاع عندما علم أن الجنود صاروا طوع إرادة حسن الصباح، وكانت هذه بداية الدولة الإسماعيلية في إيران عام ٤٨٣هـ. ولم يلبث الصباح أن وسع مملكته فاستولى على القلاع المجاورة (وصار يُدعى "شيخ الجبل"): وأصبح الجو مهيأ لدعوة الإمام المستنصر إلى دولته.

يقول الذهبي في تاريخ الإسلام: (ودخل ابن الصباح خراسان وكاشغر، والنواحي، يطوف على قوم يضلهم، فلما رأى قلعة ألموت بقزوين أقام هناك، وطمع في إغوائهم، ودعاهم في السر، وأظهر الزهد، وليس الصوف، فتبعه أكثرهم، وكان نائب ألموت رجلاً أعجمياً علوياً، فيه بلة وسلامة صدر، وكان حسن الظن بالحسن، يجلس إليه، ويتبرك فيه. فلما أحكم الحسن أمره دخل يوماً على العلوي فقال: اخرج من هذه القلعة، فتبسم، وظنه يمزح، فأمر الحسن بعض صحابه فأخرجوه، وأعطاه ماله. فبعث نظام الملك لما بلغه الخبر عسكراً فنازلوه وضايقوه. فبعث من قتل نظام الملك، وترحل العسكر عن ألموت. ثم بعث السلطان محمد بن ملكشاه العسكر وحاصروه. ومن جملة ما استولوا عليه من القلاع: قلعة طبس، وزوزن، وقاين، وسيمكوه. وتأذى بهم أهل البلد، واستغاثوا بالسلطان، فبعث عسكراً حاصروه ثمانية أشهر، وفتحت، وقتل كل من فيها. ولهم عدة قلاع سوى ما ذكرنا).

وأما في مصر فقد كان الجمالي على جبروته لا يتردد في تحطيم أي رأس يقف في طريقه، ولو كان رأس ابنه "الأوحد" الذي جعله والياً على الإسكندرية (للجمالي ابنان: الأوحد والأفضل. وهذه أسماؤهما وليست صفتهما). فاتفق جماعة بمصر وولد أمير الجيوش بدر الجمالي (الأوحد) على قتل والده، وينفرد الولد بالملك. فبطن له أبوه، فقتل الجماعة وعفا أثر ولده: يقال: إنه دفنه حياً، وقيل: غرّقه، وقيل: جوّعه حتى مات: تعددت التفاسير لكن النهاية واحدة.

وبعد موت الأوحد، اتخذ بدرٌ ابنه الثاني الأفضل معيناً له وأفضى إليه كل سلطانه، واستصدر من الخليفة سجلاً رسمياً يعترف بالأفضل ولياً له في عهد السلطنة وعمارة الجيوش، وأمر المستنصر أن يدعى له على المنابر بعد الدعاء للخليفة ولأمير الجيوش بدر. كان بدر الجمالي أرمنياً فاتكاً جباراً قتل خلقاً كثيراً من العلماء وغيرهم، وأقام الأذان بـ (حي على خير العمل)، وكبر على الجنائز خمساً، وكتب سبّ الصحابة على الحيطان ولم يزل كذلك حتى مات بدر الجمالي وقام بعده ولده الأفضل بعمل والده نفسه.

وصار الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي هو القائم بأمر المستنصر. فإن المستنصر كان قد أجلس بعده ابنه أبا منصور نزاراً أكبر أولاده وجعل إليه ولاية العهد بالخلافة. فلما مرض المستنصر أراد أخذ البيعة له، فتقاعد الأفضل شاهنشاه ودافع المستنصر، من يوم إلى يوم، حتى مات المستنصر. وكان ذلك سعياً من الأفضل في تنحية ابن أخته (ست الملك)، وكراهة من الأفضل في نزار ولد المستنصر: وسببه أن نزاراً خرج ذات يوم في حياة أبيه المستنصر فإذا الأفضل راكب وقد دخل من أحد أبواب القصر. فصاح به نزار المذكور: (انزل يا أرمني يا نجس!) فحمل عليه الأفضل وصار كل منهما يكره الآخر.

فاجتمع الأفضل بعد موت المستنصر والأمراء والخواص وخوفهم من نزار، وأشار عليهم بولاية أخيه الصغير أحمد فرضوا بذلك، ما خلا محمود بن مصال اللكي: فإن نزاراً كان وعده بالوزارة والتقدمة على الجيوش مكان الأفضل. فلما علم ابن مصال الحال أعلم نزاراً بذلك، وبادر الأفضل بإخراج أبي القاسم أحمد هذا وبايعه ونعته بـ (المستعلي بالله)، وذلك بكرة يوم الخميس لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ذي الحجة ٤٨٧هـ، وأجلسه على سرير الخلافة، وجلس الأفضل شاهنشاه على كرسي الوزارة، وحضر قاضي القضاة المؤيد بنصر الأنام علي بن نافع بن الكحال والشهود معه وأخذوا البيعة على مقدمي الدولة ورؤسائها وأعيانها.

ثم مضى الأفضل إلى إسماعيل وعبد الله ابني المستنصر وهما بالمسجد بالقصر والموكلون عليهما فقال لهما: إن البيعة تمت لمولانا المستعلي بالله، وهو يقرئكما السلام ويقول لكما: تبايعان أم لا؟ فقالا: السمع والطاعة، إن الله اختاره علينا وقاما وبايعاه. فكتب الأفضل بذلك سجلاً قرأه الشريف سناء الملك محمد بن محمد الحسيني الكاتب بديوان الإنشاء على الأمراء.

وأما أمر نزار، فإنه بادر وخرج من وقته وأخذ معه أخاه عبد الله الذي بايع وابن مصال اللكي، وتوجهوا إلى الإسكندرية، وساعده قاضي الثغر ابن عمار، وأقاموا على ذلك سنة. وكان الوالي بها ناصر الدولة أفتكين التركي أحد مماليك أمير الجيوش بدر الجمالي والد الأفضل، فعرّفوه الحال ووعده نزار بالوزارة، فطمع أفتكين في ذلك وبايع نزاراً وبايع أيضاً جميع أهل الإسكندرية، ولقب المصطفى لدين الله. ولما استهلت سنة ٤٨٨هـ خرج الأفضل بعساكر مصر إلى الإسكندرية وهناك نزار وأفتكين، فكانت بينهم حرب شديدة انكسر فيها الأفضل ورجع إلى القاهرة منهزماً، فخرج نزار ونهب أكثر البلاد بالوجه البحري.

وأخذ الأفضل في التجهز لقتال نزار، فأرسل إلى جماعة ممن كان مع نزار من العربان واستمالهم عنه، ثم خرج بالعساكر ثانية إلى نحو الإسكندرية فكانت بينهم أيضاً وقعة انكسر فيها نزار بمن معه إلى داخل الإسكندرية، فحاصرهم الأفضل حصاراً شديداً إلى ذي القعدة. فلما رأى ذلك ابن مصال جمع ماله وفر إلى الغرب

وتا فر ابن مصال ضعفت قوى نزار وافتكين وخافا وطلبا من الأفضل الأمان فأمنهما، ودخل البلدة ثم قبض على نزار وأفتكين وكان ذلك آخر العهد بنزار. وقتل أعيان اهلها وابن عمار قاضي الإسكندرية، الذي كتب إلى الأفضل ورقة حين كان في الحبس يقول فيها:

هل أنت منقذ شلوي من يدي زمن ... أضحى يقدّ أديمي قدّ منتهس

دعوتك الدعوة الأولى وبي رمق ... وهذه دعوة والدهر مفترسي

فلم تصل إليه الورقة حتى قتل. فلما وقف عليها قال: والله لو وقفت عليها قبل ذلك ما قتلته.

وقدم الأفضل بأفتكين ونزار إلى القاهرة (وكان افتكين يلعن المستعلي والأفضل بن أمير الجيوش على المنابر)، فقتله المستعلي بيده وذبحه صبراً، وبنى على أخيه نزار حائطاً فهو تحته إلى الآن. ولم يزل الأفضل يؤمّن ابن مصال حتى حضر إليه بالقاهرة ولزم داره حتى رضي عنه الأفضل.

جاءت الأخبار بوفاة المستنصر وتولية ابنه المستعلي، فثار الصباح وخطب باسم نزار وأرسل أعوانه إلى مصر لإحضار نزار، فوجدوا أن الوزير الأفضل قد قتله، ولكنهم استطاعوا أن يصحبوا معهم ابناً لنزار إلى الموت، فخفاه الحسن حتى تأتي الفرصة المناسبة لإظهاره. وبقتل نزار أصبح الحسن الصباح صاحب الأمر فيما يسمى الدعوة الإسماعيلية الجديدة، وصار العقل المدبر واليد الفاعلة للاغتيالات في العالم الإسلامي آنذاك.

وقتل أمير الجيوش الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي الأرمني وزير مصر ومدبر ممالكها في آخر رمضان ٥١٥هـ (السنة العشرين من خلافة الآمر). وقد ولي مملكة مصر بعد موت أبيه بدر الجمالي في أيام المستعلي إلى أن مات المستعلي، فأقام الأفضل ولد المستعلي مكانه في الخلافة، ولقبه بالآمر. ودبّر لدولته، وحجر عليه. وكان الخليفة المستنصر (جدّ الآمر)، وابنه المستعلي (والد الآمر) كلاهما أيضاً تحت حجر بدر الجمالي والد الأفضل هذا.

فلما ملك الأفضل سار على سيرة أبيه مع الخلفاء من الحجر والتضييق عليهم. وضيّق الأفضل هذا في حق الآمر حتى إنه منعه من شهواته وأراد قتله بالسم. فحمله ذلك على قتله، واتفق الآمر وجماعة الحشاشين، الذين قتلوه أيضاً من بعد، لله. وكان الأفضل يسكن في مصر، فلما ركب في غير موكب وثبوا عليه وقتلوه في سلخ شهر رمضان بعد أمور وقعت.

قال الحافظ الذهبي في تاريخ الإسلام: كان الآمر العبيدي رافضياً كآبائه فاسقاً ظالماً جباراً متظاهراً بالمنكر واللهو ذا كبر وجبروت، وكان مدبر سلطانه الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش. ولي الآمر وهو صبي، فلما كبر قتل الأفضل وأقام في الوزارة المأمون بن فاتك البطائحي، فظلم وأساء السيرة إلى أن قبض عليه الآمر سنة ٥١٩هـ وصادره، ثم قتله في سنة ٥٢٢هـ وصلبه وقتل ٥ من إخوته.

وفي أيام الآمر أخذ الفرنج عكا سنة ٤٩٧هـ، وأخذوا طرابلس سنة ٥٠٢هـ، فقتلوا وسبوا وعاثوا فساداً، وجاءتها نجدة المصريين بعد فوات المصلحة وأخذوا عرقة وبانياس وتسلموا تبنين سنة ٥١١هـ، وتسلموا صور سنة ٥١٨هـ، وأخذوا بيروت بالسيف سنة ٥٠٣هـ، وأخذوا صيداء سنة ٥٠٤هـ.

ثم قصد الملك بردويل الإفرنجي مصر ليأخذها، ودخل الفرما وأحرق جامعها ومساجدها، فأهلكه الله قبل أن يصل إلى العريش. فشق أصحابه بطنه وصبروه (أي ملحوه) ورموا حشوته هناك، فهي ترجم إلى اليوم بالسيخة، ودفنوه بقمامة.

وهو الذي أخذ بيت المقدس وعكا وعدة حصون من السواحل؛ وهذا كله بتخلف الآمر المشؤوم الطلعة. ولد الآمر هذا في أول سنة ٤٩٠هـ، واستُخلف عام ٤٩٦هـ (وله ٥ سنين)، وبقي في الملك ٢٩ سنة و٩ أشهر، إلى أن خرج

من القاهرة يوماً في ذي القعدة ٥٢٤هـ وعدا على الجسر إلى الجزيرة فكمن له قوم بالسلاح وقد ابتُهج بقتله لفسقه وسفكه للدماء وكثرة مصادرته واستحسانه الفواحش.

كان الآمر بن المستعلي مطلوباً من جماعة (الحشاشين الباطنية) من أعوان عمه نزار المقتول بيد أبيه بعد واقعة الإسكندرية؛ لأن الآمر وأباه المستعلي غصبا الخلافة. وأن النص كان على نزار. فاتصل بالآمر أن جماعة من النزارية حصلوا بالقاهرة ومصر يريدون قتله. فاحترز الآمر على نفسه وتحيل في قبضهم، فلم يقدر له ذلك لما أراده الله.

وفشا أمر النزارية، وكانوا عشرة، فخافوا أن يقع عليهم الآمر فيقتلهم قبل قتله، فاجتمعوا في بيت، وقال بعضهم لبعض: قد فشا أمرنا ولا نأمن أن يظفر بنا فيقتلنا، ومن المصلحة والرأي أن نقتل واحداً منا ونلقي رأسه بين القصرين وجلانا عندهم. فإن عرفوه فلا مقام لنا عندهم. وإن لم يعرفوه فلنا ما نريد؛ لأن القوم في غفلة.

فقالوا للذي أشار عليهم: ما يتسع لنا قتل واحد منا ينقص عددنا وما يتم بذلك أمرنا، فقال الرجل: أليس هذا من مصلحتنا ومصلحة من تلزمنا طاعته؟ فقالوا: نعم. فقال: وما دللتكم إلا على نفسي. وشرع في قتل نفسه بينهم بسكين في جوفه قمات من وقته. فأخذوا رأسه فرموه في الليل بين القصرين وأصبحوا متفرقين ينظرون ما يجري في البلد بسبب الرأس. فلما وُجد الرأس اجتمع عليه الناس وأبصروه فلم يقل أحد منهم أنا أعرفه. فحُمل إلى الوالي فأحضر الوالي عرفاء الأسواق وأرباب المعايش فلم يُعرف، فأحضر أيضاً أصحاب الأرباع والحارات فلم يُعرف. ففرح التسعة بذلك ووثقوا بالمقام بالقاهرة لقضاء مرادهم. واتفق للخليفة الآمر أن يمضي إلى الروضة ويجوز على الجسر الذي من مصر إلى جزيرة الروضة للمقام بها أياماً للفرجة.

وكان من شأن الخلفاء أنهم يشيعون الركوب في أرباب خدمتهم حيثما قصدوا، حتى لا يتفرقوا عنه وأيضاً لا يتخلف أحد عن الركوب، فعلم النزارية التسعة ركوبه، فجاؤوا إلى الجزيرة ووجدوا قبالة الطالع من الجسر فرناً فدخلوا فيه قبل مجيء الخليفة الآمر ودفعوا إلى الفران دراهم وافرة ليعمل لهم بها فطيراً بسمن وعسل، ففرح الفران بها وعمل لهم الفطير، فما هو بأكثر مما أكلوه، ولم يتموا أكلهم إذ طلع الخليفة الآمر من آخر الجسر وقد تفلت عنه الركابية ومن يصونه لحرج الجواز على الجسر لضيقه، فلما قابلوه وثبوا عليه وثبة رجل واحد وضربوه بالسكاكين، حتى إن واحداً منهم ركب وراءه وضربه عدة ضربات وأدركهم الناس فقُتل التسعة. وحُمل الآمر في عشاري إلى قصر اللؤلؤة وكان ذلك في أيام النيل، فقاضت نفس الآمر ٥٢٤هـ قبل وصوله إلى اللؤلؤة.

طرائق الحشاشين:

وقد تميزت هذه الطائفة باحتراف القتل والاغتيال لأهداف سياسية ودينية متعصبة. وكلمة **الحشاشين Assassin**: دخلت الاستخدام الأوروبي بمعنى الاغتيال، أو القتل غدراً، أو بمعنى القاتل المحترف المأجور. وعزوا اسم الحشاشين إلى كثرة زراعة الحشيش والأفيون على سفوح جبال قلاعهم بأمر "الحسن بن الصباح"؛ ليتناولوا الحشيش المخدر، فيصيروا تحت سيطرته. ومن نبتة "الحشيش والأفيون" أخذت المنظمة اسمها؛ ويكوّنوا تلك العملة بعامل يعوّد الدماغ على نشوة معينة تصبح جزءاً مهماً في حياته، بل لا يستطيع العيش دونها بسبب الإدمان الذي يحرّك مشاعره وانصياعه طمعاً في تناولها ثانية. ادعى الإسماعيلية أو الدعوة النزارية الجديدة أن أعدائهم هم الذين أطلقوا عليهم اسم الحشاشين ليشوهوا صورتهم.

لكن الحقيقة تجلي هذا الادعاء، ثم إن الحشيشة كانت منتشرة آنذاك، إذ يقول العالم ابن الصلحب أحمد بن شكر (ت ٦٨٨هـ) يمدح الحشيشة الخمسية (وكان مدمناً على أكل الحشيش):

يـــا نفـــس ميلـــي إلى التصـــابي ... فاللـــهو منـــه الفتـــى يعـــيش

ولا تملـــي مـــن ســـكر يـــوم ... إن أعـــوز الخمـــرُ فالحشـــيش

فيردّ عليه الشمس محمد بن العفيف سليمان بن علي التلمساني (ت ٦٨٨هـ)، الشاعر المُطبق، يذمّ الحشيشة:

ما للحشيشة فضلٌ عند آكلها ... لكنه غير مصروف إلى رشده

صفراءُ في وجهه، خضراءُ في فمه ... حمراءُ في عينه سوداء في كبده

كان الحسن بن الصباح يختار الأطفال حتى يتدربوا تدريباً شاقاً للقيام بعمليات الاغتيالات، وقد كان يراعى فيهم ألا يكونوا قد ذاقوا الخمر أو النساء أو أي من ملذات الحياة، وقد كانت بعض الأسر ترسل أبناءها إلى (الحسن)؛ حتى يجاهدوا في سبيل توسيع الدعوة الصباحية المقدسة!!

وقد وكل (الصباح) أمر هؤلاء الفتية إلى بعض المعلمين يعلمونهم أصول مذهبهم واللغة والشعر، وتعلموا العلوم العسكرية على يد قادة بارعين جداً، وكانت تدريباتهم العسكرية رفيعة المستوى بدرجة كبيرة؛ حتى إن الفدائي نفسه كان يتأذى في أثناء التدريب.

وكان مما يقوله هؤلاء المُعلمون إلى فتيانهم: "إنه لا بد من أن يكون لعقل الإنسان وفكره وتطلعاته تحليق أكبر إذا لم يعترضه عائق كبير، هذا العائق هو جسدنا بكل مواطن ضعفه، فجسدنا الميال إلى الكسل – كما يرضح القائد – يخشى الصعاب التي بها تتحقق الأهداف السامية، وقهر هذه الأهواء وتحرير العقل من قيودها هو الهدف من تدريباتنا، إلى أن يصبح المرء قادراً على إنجاز المآثر العالية التي تقتضي التضحية بالنفس بنحو أعمى عندما يأمر سيدنا الأعلى ابن الصباح. وعندما يموت الفدائي وهو يقوم بواجبه يسمى شهيداً، وعندما ينجح ويبقى حياً يُرقى إلى داعية أو أكثر".

وقد غرس (الصباح) في نفوسهم أنه هو السيد والإمام والمولى، وأن الله تعالى قد أعطاه مفتاح الفردوس يفتحه لمن يشاء من أتباعه الإسماعيليين.

وكان (الصباح) قد اهتم بالجانب الآخر من القلعة وبما خلّفه ملوك الديلم من حدائق تخترقها الأنهار وتملؤها الطيور والأزهار، واشترى العديد من الفتيات الشديدات الجمال والفتيان، وأسكنهم القلعة وجلب لهم من يعلمهم الغناء والشعر والرقص ويجعل حياتهم ناعمة مثل الأميرات الناعمات. وقبل كل شيء كان يقوم بتعليمهم طاعته وولاء التام له والطاعة العمياء لأوامره.

عندما كان (الصباح) يفكر في خطة لاغتيال أي شخص أو زعيم فإنه ينتدب لها أي شخص من الفدائيين فيدخله (فردوسه) هذا، ثم يستدعيهم في المساء ويجعلهم يتناولون الحشيش، ومن ثم يغيبون عن وعيهم ولا يفيقون إلا في الفردوس على أصوات الفتيات الجميلة التي تمثل لهم الحور العين، فيأخذن بالغناء والرقص له وهو الفتى الذي لم يواجه في حياته أي فتنة أو إغراء. ويقوم بعمل كل شيء حُرّم عليه في الجانب الآخر من القلعة، وكان الفتى بعد كل ما تعرض له يؤمن بأنه كان في الجنة وأن سيده (الصباح) فتح له باب الفردوس الحقيقي.. ثم تقوم الفتيات بتخديره وحمله إلى (الصباح)، فيفيق وقد آمن تماماً بأن هذا (الصباح) معه مفتاح الفردوس الأعلى!! ثم يكون من الطبيعي وقتها أن يستجيب الفدائيّ لكل ما يطلبه منه سيده ولو كان فيه مصرعه.

وفرقة الحشاشين مدربون على التخفي، وعلى استعمال الخناجر بجرأة في الاغتيالات؛ للإمعان في إرهاب ضحاياهم بقتلهم عن قرب، ويرفض الحشاشون استخدام السمّ أو السهام؛ لأنها أدوات تتيح للمغتالين الهرب. جاء في كتاب (المنتظم) لابن الجوزي حكاية فحواها:

أن ابن الصباح عندما استقبل مبعوثين من خصومه السلاجقة يطلبون منه التنازل عن آلموت والرجوع عن دعوته، عمد إلى الردّ عليهم بواقع حال فدائييه الذين أذاقهم فردوسه، فاستدعى اثنين منهم، وقال لأحدهم: هل تريد العودة إلى الفردوس والخلود فيها؟ فأجاب الفتى: نعم، فقال له: اذهب إلى أعلى ذلك البرج وألقِ نفسك إلى الأرض، فانطلق الغلام برغبة طافحة وجذل ظاهر وارتقى البرج وقذف بنفسه إلى الأرض فتقطع جسده ميتاً، ثم التفت إلى الفدائي الآخر ملوحاً بالفردوس وسأله: أليديك خنجر؟ فأجاب: نعم، فقال له: اقتل نفسك، فانتزع الفتى خنجره وغرسه في عنقه وفار دمه ثم خر صريعاً... عندها قال ابن الصباح للرسل بين يديه: أبلغوا من أرسلكم أن عندي من هؤلاء عشرين ألفاً هذا مبلغ طاعتهم لي!!

وحسن الصباح هو المُنظر الفعلي لمفهوم الإرهاب، بمفهومه التنظيمي ومصطلحاته وعقيدته... فهو أول من أسس مفهوم الانتحاري المكرس لهدف الاغتيال وسماه الفدائي. ومنها ظاهرة الساموراي بوصفه محارباً ياباني انتحاري ينهي حياته باختياره بشرف، وهذا ما ألهم الطيارين اليابانيين في عملياتهم الانتحارية على البواخر الامريكية kamikaze mission في الحرب العالمية الثانية.

ضحايا الحشاشين:

امتدت عمليات الاغتيال على مدة قرنين هما الخامس والسادس الهجريين (الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين). ومن ضحايا الحشاشين الوزير نظام الملك السلجوقي (عام ١٠٩٢م)، والوزير الفاطمي الأفضل شاهنشاه الجمالي (عام ١١٢٢م)؛ لأنه المسؤول عن سجن نزار وموته (انظر فيما سبق)، والخليفة العبيدي الآمر بن المستعلي الذي اغتصب الخلافة من نزار (انظر فيما سبق)، وابن الخشاب (عام ١١٢٥م) الذي كان يُصرّ من حلب على جهاد الصليبيين، فاستلهم ذلك منه المجاهد عماد الدين زنكي. وتعرّض صلاح الدين لمحاولات الحشاشين الخائبة، ثم حاصر حصن الباطنية الحشاشين في سوريا في (مصياف) عام ١١٧٦م في أثناء جهاده لاسترجاع أراضي القدس. ثم أنهى حصاره لهم بعد اتفاقهم على معاهدة لاستسلامهم وتطويعهم، ومن ثم تركهم صلاح الدين.

وكان من عادات (الفدائيين أو الانتحاريين) في تنفيذ العمليات: الاختباء في ملابس الصوفية أو ارتداء ثياب النساء والدراويش، أوانتظار المطلوب بين صفوف المصلين، أو تقديم أنفسهم بوصفهم طالبي حاجات وعابري سبيل، أو العمل داخل القصور تحت أسماء مستعارة حتى تحين فرصة الانقضاض على الضحية. يفترضون ضحيتهم وهو بين حرسه وشرطته، وربما داخل ثكنة الجيش برسالة استرحام، أو برسالة من صديق يتوسط بقضاء حاجة حاملها. وعندما يقترب من المطلوب قتله تغرز الخناجر جسده (رقبته أو صدره). وأحياناً يذبحون الضحية في أثناء النوم. ولا يترددون في التضحية بواحد من السرية المبعوثة لتنفيذ المهمة إن اقتضى الأمر.

وفرقة الحشاشين هم من أوائل من استخدم المرايا لعكس الإشارات في أثناء النهار: من أجل التواصل مع القلاع المجاورة، ولاسيما المحيطة بقلعة ألموت. ويستخدم الحشاشون إشارات شعلة النار في الليل.

كانت أول عملياتهم التي قاموا بها بعد عامين من دخول (الصباح) القلعة، إذ قاموا بقتل وزير السلاجقة نظام المُلك عام ٤٨٥هـ. يصوّر ابن الأثير في (الكامل في التاريخ) عملية اغتياله، فقال: (لما بلغ الخبر "أي استيلاء على القلعة" نظامَ المُلك، بعث عسكراً إلى قلعة ألموت فحصروه فيها، وأخذوا عليه الطرق، فضاق ذرعه بالحصر فأرسل مَنْ قتل نظام المُلك، فلما قُتل رجع العسكر عنها). وقد تمنى نظام الملك الشهادة في نهاوند حيث موقعة نهاوند، فاستجاب الله له.

قال ابن تغري بردي: (ولما خرج من أصبهان بعد مخدومه ملكشاه قاصداً بغداد نزل قرية من قرى نهاوند مكان الوقعة التي كانت في زمان عمر بن الخطاب ﷺ فقال: هذا موضع مبارك قتل فيه جماعة من الصحابة، فحيي لمن كان منهم. وكان جالساً والأمراء بين يديه وكان صائماً؛ فإنه كان يوم الخميس فقدم الأكل فأكل الناس، ثم ركب محفته إلى خيمة النساء، وكان به مرض النقرس، فاعترضه صبيٌ ديلمي في زي الصوفية وبيده قصة فدعا له وسأله أن يناوله إياها من يده إلى يده، فقال: هات، فمد يده لياخذها، فضربه بسكين في فؤاده، فحُمل إلى مضربه ومات، وهرب الديلمي، ثم عثر عليه بطنب في خيمة فقطع قطعاً. وكانت وزارة نظام الملك لبني سلجوق ٣٤ سنة – وقيل ٤٠ سنة – وكان عمره ٧٦ سنة). (النجوم الزاهرة).

أحد أعضاء تنظيم فرقة الحشاشين (صاحب العمامة البيضاء في يسار الصورة) يطعن الوزير السلجوقي العظيم "نظام الملك" طعنة قاتلة بالخنجر، عام ١٠٩٢م، وهي واحدة من العديد من جرائم الاغتيالات السياسية التي قامت بها فرقة الحشاشين. والوجود في هذا التصوير الإيضاحي من مخطوطة القرن الرابع عشر، وقد حكت حديثاً لإخفائها (عن مخطوطة في متحف قصر طوب كابي)

باغت انتحاري الوزير **فخر المُلْك بن نظام الملك** في ٥٠٠هـ، بهيئة متظلم رفع صوته شاكياً، "ذهب المسلمون، ما بقيَ مَنْ يكشف ظلامة، ولا مَنْ يأخذ لضعيف حقاً، ولا مَنْ يفرج عن ملهوف". سمعه الوزير، وهو يهم بالخروج من دور بعض نسائه، فلما أدناه منه "دفع إليه رقعة، فبينما هو يتأملها ضربه بسكين في مقتله فقضى نحبه" وهو بين حراسه، أما الانتحاري فكان مصيره أن "فصّل على قبر فخر المُلْك عضواً عضواً" (النجوم الزاهرة). كان تعرض نظام المُلْك لحتف الموت وابلاً عليه وعلى أولاده الوزراء، فبعد مقتله ومقتل ولده تعرض ولده الآخر نظام المُلْك أحمد لضربة سكين بعنقه نجا منها بأعجوبة، فلما قبض على الانتحاري أسقي خمراً، فأقرّ على "جماعة من الباطنية بمسجد في محلة المأمونية، فقتلوا وقتل معهم".

وقتل الأمير آق سنقر البرسقي السلجوقي صاحب الموصل في ٥١٩هـ. كان أميراً شجاعاً جواداً عادلاً في الرعية، وكان الخاص والعام يحترمونه، وكان قد احترز من الباطنية بالرجال والسلاح والجاندارية. فدخل يوم الجمعة إلى جمع الموصل فجاء إلى المقصورة وفيها جماعة من الصوفية لهم عادة يصفون فيها، فاستراب بهم ودخل في الصلاة وتأخر عنه أصحابه، فوثب عليه ثلاثة في زي الصوفية فضربوه بالسكاكين فلم تعمل في جسده للدرع الذي كان عليه، فصاحوا: رأسه، وجهه فضربوه حتى قتلوه وقتل الثلاثة.

وحزن الناس عليه وأقاموا ابنه مسعوداً مقامه (النجوم الزاهرة). وقتل الباطنية وزير السلطان سنجر شاه السلجوقي في عام ٥٢١هـ. وكان قد أفنى منهم اثني عشر ألفاً، فبعثوا إليه سائساً يخدم في إصطبله، إلى أن وجد الفرصة حين دخل الوزير يوماً يفتقد خيله فوثب عليه المذكور فقتله وقتل بعده نفسه.

واعترض انتحاري عام ٥٣٤هـ، في صورة امرأة، طريق جوهر خادم السلطان سنجر شاه بن ملكشاه السلجوقي، ووكيله في الدولة، مستغيثاً من ظلم لحقه، وعندما اقترب من جوهر رمى ثياب المرأة ووثب عليه وقتله، فقتله خدم جوهر في الوقت.

وصارت فرقة الحشاشين مرتزقة للصليبيين الأجانب، الذين أشاعوا اسمهم في أوروبا. فاستصاع الصليبيون شراء ذممهم لاغتيال القائد المجاهد عماد الدين زنكي. واستخدمهم ريتشارد قلب الأسد ملك إنكلترا لاغتيال كونراد دي مونتفيرات (عام ١١٩٢م).

وقتلت فرقة الحشاشين أيضاً ريموند الثاني ملك دويلة طرابلس (عام ١١٥٢م). وقامت فرقة الحشاشين بمحاولة اغتيال الأمير إدوارد (الذي صار الملك إدوارد الأول لإنكلترا)، فجرحوه بخنجر مسموم عام ١٢٧١م (بتدبير من البطل الملك الظاهر بيبرس)، وعلى الرغم من إخفاق المحاولة، نجدها أقنعت الأمير إدوارد بتوقيع هدنة مدة ١٠ سنة مع المماليك، وسرّعت برحيله مباشرة إلى إنكلترا، وبخروجه أخفقت الحملة الصليبية التاسعة والأخيرة على العالم الإسلامي.

قائمة حكام الحشاشين:

١. الحسن بن الصباح: حكم الصباح ٣٩ عاماً، ومات وعمره قد بلغ نحو ٩٠ عاماً (١٠٣٧-١١٢٤ م). وفي عهده مات الإمام المستنصر بالله ٤٨٧هـ-١٠٩٤م، وقام الوزير بدر الجمالي بقتل ولي العهد والابن الأكبر "نزار" لنقل الإمامة إلى الابن الأصغر "المستعلي" الذي كان في الوقت نفسه ابن أخت الوزير؛ وبذلك انشقت الفاطمية إلى نزارية مشرقية، ومستعلية مغربية. أخذ الحسن بن الصباح يدعو إلى إمامة نزار، مدّعياً أن الإمامة قد انتقلت إلى حفيد لنزار أحضر سراً إلى ألموت، وأنه طفل جرى تهريبه من مصر إلى فارس، أو أن محظية لنزار كانت حاملاً منه أُخذت إلى ألموت حيث وضعت حملها. وبقي أمر هذا الإمام الجديد مكتوماً. توفي الحسن الصباح عام ٥١٨هـ-١١٢٤م من غير سليل؛ لأنه كان قد أقدم على قتل ولديه في أثناء حياته. فبعد ٣٤ سنة من سيطرته على منظمة الحشاشين، ومن حجرة داخل قلعة ألموت لم يغادرها إلا مرات قليلة، كان لزاماً عليه أن يخطط لاستمراره حتى بعد موته، فلم يكن له وريث بعد مقتل ولده الأكبر ووفاة الأصغر بسبب إدمانه على الخمر، فاستدعى مساعديه وأسند إلى أحدهما يدعى (كيا) الأمور الروحية، وأسند إلى مساعده (أبي علي القزويني) الشؤون العسكرية، بعدها خرج من غرفته عبر ممر سري، حتى يوهم أتباعه أنه رُفع إلى السماء، وسيعود عند نهاية العالم ويعني في العقيدة الإثنا عشرية وجوده الروحي مع أتباعه!!

لم تؤثر وفاة زعيم الانتحاريين الحسن بن الصبّاح سنة ٥١٨هـ، وسقوط قلعة ألموت بيد السلطان مسعود السلجوقي سنة ٥٢٤هـ، في استمرار العمليات الانتحارية، فقلعة "عش النسر" واحدة من مئات القلاع التي لم تسقط كاملة إلا بأيدي عساكر المغول أسقطتها واحدة بعد واحدة، خاصة حين ذهب إليهم مستجيراً قاضي قضاة قزوين شمس الدين، وهو يلبس الزرد تحت ثيابه وقاية من خناجر الحشاشين، وحذر خان المغول من الاحتراز منهم.

٢. كيا بزرك أميد: حكم من ٥١٨هـ-١١٢٤م إلى سنة ٥٣٢هـ-١١٣٨م: كان أول أمره قائداً لقلعة الاماسي مدة عشرين سنة، وفي مدة حكمه دخل في عدة معارك مع جيرانه السلاجقة، ثم إنه كان أكثر تسامحاً وسياسة من الحسن الصباح.

٣. محمد كيا بزرك أميد: حكم من سنة ٥٣٢هـ-١١٣٨م إلى سنة ٥٥٧هـ-١١٦٢م.

٤. الحسن بن محمد: حكم من ٥٥٧هـ-١١٦٢م إلى ٥٦١هـ-١١٦٦م: أعلن في شهر رمضان ٥٥٩هـ قيام

القيامة، وألغى الشريعة، وأسقط التكاليف، وأباح الإفطار. ثم أقدم بعد ذلك على خطوة أخطر، وذلك بأن ادعى أنه من الناحية الظاهرية حفيد لكيا بزرك، ولكنه في الحقيقة إمام العصر وابن الإمام السابق من نسل نزار.

٥. **محمد بن الحسن**: من ٥٦١هـ–١١٦٦م إلى ٦٠٧هـ–١٢١٠م: طور نظرية القيامة ورسخها، وقد ساعده على ذلك انحلال هيمنة السلاجقة في عهده وضعفهم، وظهور التركمان، وبداية التوسع التركي.

٦. **جلال الدين الحسن بن محمد**: من ٦٠٧هـ–١٢١٠م إلى ٦١٨هـ–١٢٢١م: رفض عقائد آبائه في القيامة، ولعنهم وكفّرهم، وأحرق كتبهم وجاهر بإسلامه، وقام بوصل حباله مع العالم الإسلامي، إذ أرسل إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله وإلى السلطان السلجوقي خوارزم شاه والملوك والأمراء يؤكد لهم صدق دعوته إلى التعاليم الإسلامية، ففرحت البلاد الإسلامية بذلك وصار أتباعه يعرفون بالمسلمين الجدد.

٧. **محمد بن الحسن (وبعض الكتب تسميه علاء الدين محمود)**: كان حكمه من سنة ١٢٢١م إلى سنة ١٢٦٥م: خلف أباه وعمره ٩ سنوات، وظل وزير أبيه حاكماً لألموت. وقد عاد الناس في عهده إلى المحرمات، وارتكاب الخطايا، والإلحاد، وانتشرت السرقة وقطع الطرق والاعتداءات.

٨. **ركن الدين خورشاه (شمس الشموس)**: ١٢٥٥م–١٢٥٨م: قاد هولاكو حملة سنة ١٢٥٦م، وكان هدفه قلاع الإسماعيلية، وما زال يتقدم حتى استسلم له ركن الدين وسلمه قلعة ألموت وأربعين قلعة وحصناً، كلها سوّيت بالأرض، ويقال: إنّ هولاكو استقبله بترحاب وزوّجه فتاة مغولية، وانتهى منه بقتله غيلة في عام ١٢٥٨م (الجزاء من جنس العمل)، وبذلك انتهت دولة الحشاشين سياسياً في فارس. لكن رواية الذهبي تقول بقتل هولاكو له مباشرة (انتظر فيما سيأتي لاحقاً).

تقول روايات الإسماعيليين: إن ركن الدين قد أخفى ابنه شمس الدين محمد الذي هرب من بطش هولاكو متكراً إلى جهة ما بجنوب القوقاز، ثم استقر في قرية أنجودا على الطريق بين أصفهان وهمدان. وبقي فيها إلى أن مات في النصف الأول من القرن الثامن للهجرة. وكان من عقبه سلسلة من الأئمة في القرن التاسع عشر، ومنهم ظهرت أسرة آغا خان.

الحشاشون في بلاد الشام: (كان لهم وجود في قلاع الشام: قلعة بانياس، حصن قدموس، حصن مصياف، الكهف، الخوابي، المنيقة، القليعة). ظهر لهم في الشام قادة مثل بهرام الأسترابادي، والداعي إسماعيل الفارسي، وقد أفادوا من استمالة رضوان بن تتش والي حلب إلى مذهبهم، فوفد إليها عدد كبير من إسماعيلية فارس. وهذا قوّى شوكتهم في بلاد الشام. يقول عنهم المؤرخ كمال الدين بن العديم: **(في عام ٥٧٢هـ–١١٧٦م انخرط سكان جبل السماق في الآثام والفسوق وأسموا أنفسهم المتطهرين، واختلط الرجال والنساء في حفلات الشراب ولم يمتنع رجل عن أخته أو ابنته، وارتدت النساء ملابس الرجال، وأعلن احدهم ان سنانا هو ربه)**. ومن أبرز شخصياتهم في الشام هو شيخ الجبل سنان بن سليمان بن محمود المعروف برشيد الدين الذي نشأ في البصرة، وتلقى علومه في قلعة ألموت وكان زميلاً لولي العهد الحسن بن محمد الذي أمره بالرحيل إلى بلاد الشام عندما صار الأمر إليه. انتقل إلى بلاد الشام وجمع الإسماعيلية حوله وصار لهم نفوذ وسلطان، واعترف الناس بإمامته، غير أنهم عادوا بعد موته إلى طاعة الأئمة بألموت. وقد كان شخصاً مخيفاً، وهم يذكرونه على أنه أعظم شخصياتهم على الإطلاق. خلفه أمراء ضعاف وهذا سهّل إنهاءهم والقضاء عليهم على يد الظاهر بيبرس.

سقوط الحشاشين وتراثهم: استاصل المغول الحشاشين ربما؛ لأنهم حاولوا قتل مونغي خان، فاصدر قراراً سُلّم إلى القائد المغولي كتبغانوين الذي بدأ بالانقضاض على العديد من قلاع الحشاشين عام ١٢٥٣م قبل أن يتقدّم هولاكو إليهم عام ١٢٥٦م. فحاصر المغول قلعة ألموت المنيعة والمركز القيادي لقلاع الحشاشين في ١٥ كانون

أول/ديسمبر ١٢٥٦م. ولم يستطع هولاكو دخول قلعة ألموت واستئصال الحشاشين منها إلا بمساعدة وزير الحشاشين الخائن خواجة نصير الدين الطوسي (انظر فيما سيأتي لاحقاً). استطاع الحشاشون فيما يُقال استرداد قلعة ألموت بضعة أشهر عام ١٢٧٥م، لكنهم هزموا هزيمة ساحقة أنهت قوتهم السياسية هناك، وإلى الأبد.

لكن فرع الحشاشين الشاميّ السوريّ استولى عليه السلطان البطل الملك الظاهر بيبرس عام ١٢٧٣م واستطاع المماليك بحنكة بيبرس السياسية والعسكرية توظيف خدمات الحشاشين المتبقين لمصلحة الإسلام: فقد سجل ابن بطوطة في القرن الرابع عشر استئجارهم للقيام بالاغتيالات السياسية لمصلحة الإسلام ضد الصليبيين مقابل أجر ثابت لكل عملية فدائية. وبذلك استمر الحشاشون بالعمل وبقوا أحياء. ولا بد أن يكون لمماليك ضلع في استحثاث الحشاشين لاستعادة السيطرة على قلعة ألموت في قلب الإمبراطورية المغولية عام ١٢٧٥م. وعلى كل حال، فإن الحشاشين استطاعوا اللجوء إلى مبدأ التقية (الكذب والتورية): لستر هويتهم الحقيقية ولإبقاء أحيائهم حتى يخرج إمامهم كما يدّعون.

رئيسة وزراء بريطانيا مع الآغاخان، وهي تفتتح "مركز الإسماعيلية" في لندن في ٢٤ نيسان/ أبريل ١٩٨٥م

واستمر الحشاشون بوصفهم شيعة إسماعيلية في العالم المعاصر، بقيادة آغا خان الرابع (إمامهم رقم ٤٩). ومنذ ذلك الحين والإسماعيلية النزارية الآغاخانية لها مكان متميز في الغرب الأوروبي، فقد أسس "معهد الدراسات الإسماعيلية" في ١٩٧٧؛ لنشر أعمال البحوث بقيادة الأكاديميين النزاريين. وأغلب هذه الأعمال تدور حول مادة الحشاشين بما يشمل تاريخهم، وعلومهم، وفلسفتهم. وافتتحت رئيسة وزراء بريطانيا العظمى بنفسها "مركز الإسماعيلية" في قلب العاصمة البريطانية، في ساوث كينزنغتون – لندن، يوم الأربعاء ٢٤ نيسان/أبريل ١٩٨٥، وبحضور آغا خان الطائفة الإسماعيلية: الأمير شاه كريم الحسيني آغا خان الرابع.

(٤) أما بالنسبة إلى ظهور شخصية الخواجة نصير الدين الطوسي الإسماعيلي:

فقد حوصرت قلعة ألموت وهوجمت من قبل قوات هولاكو (حفيد جنكيز خان) في عام ٦٥٤هـ–١٢٥٦م. وكان حاكم الحشاشين الإسماعيلية في قلعة ألموت آنذاك هو ركن الدولة خورشاه شمس الشموس. وكان وزيره آنذاك خواجة نصير الدين الطوسي، الذي يُقال: إنه أراد الخروج إلى بلاط الخلافة في بغداد (ولعله حجة للخروج من القلعة المنيعة؛ لأجل التعاون مع هولاكو)، فحبسه حاكم القلعة.

وفي أثناء حصار القلعة المستعصي على هولاكو، استطاع الطوسي الهرب من معتقله بالقلعة إلى خارجها، وقام مباشرة بخيانة حاكم القلعة وتحالف مع هولاكو. وقد دله على دفاعات القلعة وكيفية الدخول من مواطن ضعفها، فكافأه هولاكو لذلك، بعد تدميره قلعة ألموت، وعينه وزيراً ومستشاراً له بوصفه عالماً بالنجيم، ثم جعله مسؤولاً عن الأوقاف والكتب الإسلامية في بغداد بعد تدمير هولاكو إياها عام ١٢٥٨م. ومن ثم بنى له مرصداً فلكياً في مرغانة افتتحه للعمل عام ١٢٦٢م.

كان كثير من العلماء، في العالم الإسلامي الذي اكتسحه هولاكو، هم أعظم مكانة من الطوسي علماً وعبقرية، لكن هولاكو قتلهم جميعاً (أهلكه الله) دون تأنيب ضمير، فلماذا أبقى على حياة الطوسي الإسماعيلي في الوقت الذي قتل فيه الحكام الإسماعيليين ودمّر قلعتهم في ألموت؟!!

بل السؤال الأهم: لماذا استوزر هولاكو الطوسي هذا من بعد ذلك، وجعله يده اليمنى؟! الجواب يكمن في المعلومات الدقيقة والخطيرة التي أفشى بها الخواجة الطوسي الخائن (وزير دولة الحشاشين) إلى هولاكو، التي مكنته من قتل حاكمها ومن فتح أمنع حصن آنذاك، الذي لم يستطع أحدٌ اقتحامه غيره عام ٦٥٤هـ-١٢٥٦م.

وينفي الإمام الذهبي أن يكون خواجة نصير الطوسي قد تعرّض للحبس من حاكم القلعة، وهذا يدل على خيانة سابقة وتواطؤ مع هولاكو قبيل مجيئه إلى قلعة الألموت، وأن مقتل حاكم الألموت وكبار القادة في دولة الإسماعيلية حدث بخروجهم لملاقاة هولاكو بالأمان بتأثير وزيرهم خواجة نصير الطوسي! ذكر ذلك الإمام الذهبي مرتين.

يقول الإمام الذهبي في تاريخ الإسلام تحت أحداث ٦٥٤هـ: (**ملك هولاكو حصون الإسماعيلية**) وفيها كان خروج الطاغية هولاكو ابن تولي بن جنكيزخان، فسار في المغول من الأردو فملك الألموت وقلاع الإسماعيلية التي بنواحي الري. قال ابن الساعي: بعث هولاكو إلى مقدمة الباطنية ركن الدين، فبعث أخاه في ثلاث مئة فقتلهم هولاكو، وتهدّد ركن الدين، فنزل إليه بأمان، ثم قتله وخرب قلعته، ثم خرب الألموت وسائر قلاع الباطنية، ثم رحل قاصداً العراق).

دخول المغول حصن الحشاشين في ألموت

ويقول الذهبي في موضع آخر في تاريخ الإسلام تحت أحداث ٦٥٦هـ: (فكان هولاكو قد قصد الألموت، وهو معقل الباطنية الأعظم وبها المقدم علاء الدين محمد بن جلال الدين حسن المنتسب إلى نزار بن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم العبيدي الباطني، فتوفي علاء الدين وقام بعده ابنه شمس الشموس، فنزل إلى هولاكو بإشارة النصير الطوسي عليه، وكان النصير عنده وعند أبيه (أي وزيراً)، فقتل هولاكو شمس الشموس وأخذ بلاده) انتهى. وتكررت القصة نفسها هذه بعد سنتين فقط، وبالتحديد عام ٦٥٦هـ-١٢٥٨م، لكن بنحو آخر مع وزير آخر اتصل بهولاكو وتعاون معه سراً للدخول إلى أعظم عاصمة في الدنيا: بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية العباسية: لأن هذا الوزير مؤيد الدين بن العلقمي الرافضي، كان وزير المستعصم، آخر خليفة عباسي في بغداد.

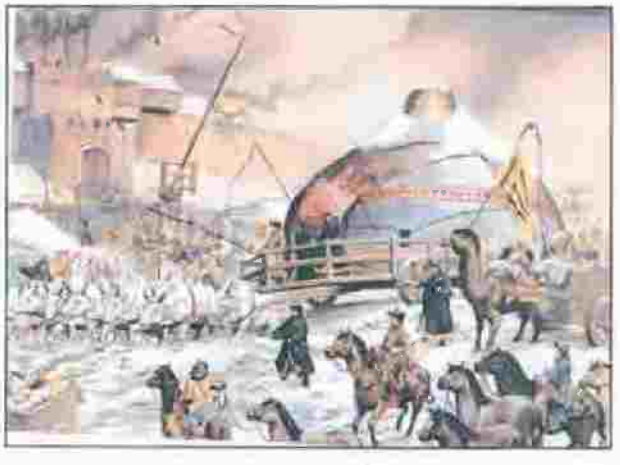

حصار المغول قلعة الموت: مركز الحشاشين المحصّن

نصير الدين الطوسي (٥٩٧–٦٧٢هـ / ١٢٠١–١٢٧٤ م): فيلسوف وفلكي فارسي. ولد بمدينة طوس الإيرانية، ثم انضم إلى فرقة الحشاشين الإسماعيلية الموجودة في قلعة ألموت في شمال إيران، وهناك أتم معظم إنجازاته في الفلك والعلوم. يقول عنه الذهبي في سير أعلام النبلاء: (النصير الفلاّم الفيلسوف خواجة نصير الدين محمد بن محمد بن حسن الطوسي الحكيم. كان رأساً في حكم الأوائل، ومعرفة الرياضي والأرصاد والحساب. قرأ على المعين سالم الواعظ وغيره. وخدم ابن الصباح صاحب الألموت، واجتمع بهولاكو فلفق عليه وأحبه، وتمكن حتى صار مشير دولته، وأنشأ له الرصد بمراغة، وحمل فيه عظيمة وخزانة للكتب ما سمع قط بمثلها، فأوقرها من كتب البلاد المنهوبة حتى زاد فهرس أسماء الكتب نحواً من ستين كراسة، وجعل في الرصد المنجمين والفلاسفة والأدباء والفقهاء).

واشتغل الطوسي في شبيبته بعلم الأوائل جيداً، وصنف في علم الكلام، وشرح (الإشارات) لابن سينا؛ ووزر لأصحاب قلاع الألموت من الإسماعيلية، ثم وزر لهولاكو، وكان معه في واقعة بغداد، ودفن في مشهد موسى بن جعفر في سرداب كان قد أعد للخليفة الناصر لدين الله، وهو الذي كان قد بنى الرصد بمراغة، ورتب فيه الحكماء من الفلاسفة والمتكلمين والفقهاء والمحدثين والأطباء وغيرهم من أنواع الفضلاء. وبنى له فيه قبة عظيمة، وجعل فيه كتباً كثيرة جداً. توفي في بغداد في ١٢ ذي الحجة سنة ٦٧٢هـ، وله ٧٥ سنة.

كان نصير الدين الطوسي ووزير الخليفة المستعصم ابن العلقمي ممن أسهموا في إسقاط بغداد، وقتل فيها عشرات الآلاف على أيدي المغول.

يقول ابن كثير في البداية والنهاية عن هولاكو بعد تدميره بغداد واحتجاز الخليفة عنده ليقرر مآلاً يبتّ في أمره: (ويقال إن الذي أشار بقتله أي قتل الخليفة الوزير ابن العلقمي، والمولى نصير الدين الطوسي، وكان النصير عند هولاكو قد استصحبه في خدمته لما فتح قلاع الألموت، وانتزعها من أيدي الإسماعيلية، وكان النصير وزير لشمس الشموس ولأبيه من قبله علاء الدين بن جلال الدين، وكانوا ينسبون إلى نزار بن المستنصر العبيدي وانتخب هولاكو النصير ليكون في خدمته كالوزير المشير. فلما قدم هولاكو ونهيب من قتل الخليفة هون عليه الوزير ذلك فقتلوه رفساً، وهو في جوالق: لئلا يقع على الأرض شيء من دمه فيؤخذ بثأره فيما قيل لهم، وقيل: بل خنق، ويقال: بل أُغرق، فالله أعلم، فباؤوا بإثمه وإثم من كان معه من سادات العلماء والقضاة والأكابر والرؤساء والأمراء وأولي الحل والعقد ببلاده، ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان، ودخل كثير من الناس في الآبار وأماكن الحشوش، وقنيّ الوسخ، وكمنوا كذلك أياماً لا يظهرون). (ج١٣، ص٢٣٥)

قال ابن تيمية عند تفسير سورة البقرة (في مجموع الفتاوى): "وهو الذي أشار عليهم بقتل الخليفة ببغداد لما استولى عليها وأخذ كتب الناس، ملكها ووقفها، وأخذ منها ما يتعلق بغرضه، وأفسد الباقي، وبنى الرصد ووضعها فيه، وكان يُعطي من وقف المسلمين لعلماء المشركين البخشية والطوينية، ويعطي في رصده لفيلسوف والمنجم والطبيب أضعاف ما يعطي الفقيه، ويشرب هو وأصحابه الخمر في شهر رمضان، ولا يصلون".

وقال في موضع آخر: "وصنف القاضي أبو بكر بن الطيب فيهم كتاباً في كشف أسرارهم وسماه اكشف الأسرار وهتك الأستار في مذهب القرامطة الباطنية، والذين يعيشون في بلاد الإسلام من الإسماعيلية والنصيرية والدرزية وأمثالهم من أتباعهم، وهم الذين أعانوا التتار على قتال المسلمين، وكان وزير لهولاكو النصير الطوسي من أئمتهم. وهؤلاء أعظم الناس عداوة للمسلمين وملوكهم ثم الرافضة بعدهم، فالرافضة يوالون من حارب أهل السنة والجماعة ويوالون التتار ويوالون النصارى. وقد كان بالساحل بين الرافضة وبين الفرنج مهادنة حتى صارت

الرافضة تحمل إلى قبرص خيل المسلمين وسلاحهم وغلمان السلطان وغيرهم من الجند والصبيان. وإذا انتصر المسلمون على التتار أقاموا المآتم والحزن. وإذا انتصر التتار على المسلمين أقاموا الفرح والسرور. وهم الذين أشاروا على التتار بقتل الخليفة وقتل أهل بغداد. ووزير بغداد ابن العلقمي الرافضي هو الذي خامر على المسلمين وكاتب التتار حتى أدخلهم أرض العراق بالمكر والخديعة، ونهى الناس عن قتالهم". وقال في منهاج السنة (ج٧، ص٤١٤): "و لهذا كان الرافضة من أعظم الأسباب في دخول الترك الكفار إلى بلاد الإسلام. وأما قصة الوزير ابن العلقمي وغيره كالنصير الطوسي مع الكفار، ومعاونتهم على المسلمين فقد عرفها الخاصة والعامة".

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى:

(ولما انتهت النوبة إلى نصير الشرك والكفر الملحد، وزير الملاحدة النصير الطوسي وزير هولاكو، شفى نفسه من أتباع الرسول الكريم – وأهل دينه، فعرضهم على السيف، حتى شفى إخوانه من الملاحدة، واشتفى هو فقتل الخليفة والقضاة والفقهاء والمحدثين، واستبقى الفلاسفة والمنجمين والطبائعيين والسحرة، ونقل أوقاف المدارس والمساجد والربط إليهم، وجعلهم خاصته وأولياءه، ونصر في كتبه: قدم العالم، وبطلان المعاد، وإنكار صفات الرب جل جلاله من علمه وقدرته وحياته وسمعه وبصره، وأنه لا داخل العالم ولا خارجه، وليس فوق العرش إله يعبد البتة. واتخذ لملاحدة مدارس، ورام جعل إشارات إمام الملحدين ابن سينا مكان القرآن، فلم يقدر على ذلك، فقال هي قرآن الخواص. وذاك قرآن العوام، ورام تغيير الصلاة وجعلها صلاتين فلم يتم له الأمر، وتعلم السحر في آخر الأمر، فكان ساحراً يعبد الأصنام، وصارع محمد الشهرستاني ابن سينا في كتاب سماه "المصارعة" أبطل فيه قوله بقدم العالم، وإنكار المعاد، ونفي علم الرب تعالى وقدرته وخلقه للعالم: فقام له نصير الإلحاد وقعد، ونقضه بكتاب سماه "مصارعة المصارعة"... وبالجملة: كان هذا الملحد هو وأتباعه من الملحدين الكافرين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر). (إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، لابن القيم، ج٢، ص٢٦٣).

لكن في الجانب الآخر يصف أحد علماء الإثناعشرية (روضات الجنات للخونساري) عند ترجمته لنصير الدين الطوسي ما نصّه: (ومن جملة أمر نصير الدين الطوسي المشهور المعروف المنقول حكاية استيزاره للسلطان المحتشم هلاكو خان (انظر تعظيم هولاكو أهلكه الله)، ومجيئه في موكب السلطان المؤيد مع كمال الاستعداد إلى دار السلام بغداد لإرشاد العباد وإصلاح البلاد، بإبادة ملك بني العباس، وإيقاع القتل العام من أتباع أولئك الطغام، إلى أن أسال من دمائهم الأقذار كأمثال الأنهار، فانهار بها في ماء دجلة، ومنها إلى نار جهنم دار البوار)!!!

الطوسي على الطوابع الإيرانية

ويقول الخميني أيضاً في كتابه "الحكومة الإسلامية" ما نصه: (ويشعر الناس بالخسارة بفقدان الخواجه نصير الدين الطوسي وأضرابه ممن قدم خدمات جليلة للإسلام)... (وإذا كانت ظروف التقية تلزم أحداً منا بالدخول في ركب السلاطين، فهنا يجب الامتناع عن ذلك، ولو أدى الامتناع إلى قتله، إلا أن يكون في دخوله الشكلي نصر حقيقي للإسلام والمسلمين، مثل دخول علي بن يقطين ونصير الدين الطوسي رحمهما الله). (علي بن يقطين – توفي ١٨٢هـ – هو أحد وزراء الخليفة هارون الرشيد، كانت علاقته وثيقة بالإمام موسى الكاظم (عليه السلام) الذي استحثه للبقاء في البلاط العباسي لحماية الشيعة، بقوله: (كفارة عملك السلطان الإحسان إلى الإخوان). (ص١٤٣، ط٤). وقد قامت جمهورية إيران الإسلامية بتخليد الطوسي(١) على طوابعها.

ولعل كثيراً من العلوم التي بولغ بنسبتها إلى الطوسي لم تكن في حقيقتها إلا سرقات علمية للكتب المنهوبة

من دار الحكمة بعد نكبة سقوط بغداد وتدمير الخلافة العباسية على يد المغول عام ٦٥٦هـ؛ ولا يُستغرب على الطوسي صاحب التقية والنفاق نزع غلاف أي كتاب يعجبه، ووضع اسمه عليه على أنه من تأليفه، في حين إن المؤلف الحقيقي قد مات وما له من شهود، بعد مذبحة القضاة والعلماء والكتاب في بغداد؛ وهو ما يسمى علمياً بالانتحال. فالطوسي كان وزيراً مرافقاً لهولاكو وجيوشه الدائمة التنقل من مكان إلى آخر، وهو الذي كان يصوغ وينشئ رسائل هولاكو المرعبة للملوك الإسلام وأمرائها، فيستحيل، والحالة هذه، أن يكون للطوسي وقت فراغ لكتابة المؤلفات المنسوبة إليه.

ثم إن الطوسي كان له من يكتب في العلوم كلها، يقول شمس الدين الشهرزوري في "تاريخ الحكماء" (تحقيق د. عبد الكريم أبو شويرب، طبعة جمعية الدعوة الإسلامية العالمية) عن الطوسي ص٣٩٨: (بنى الرصد بمراغة بمعاونة جماعة من الفضلاء منهم: مؤيد الدين العرضي وهو رجل عالم بالرياضي، وفخر الدين الأخلاطي وكان الغالب عليه الطب، ونجم الدين القزويني والغالب عليه المنطق، وفخر الدين المراغي، ومحيي الدين المغربي والغالب عليهما الرياضي).

ولم يكن الطوسي هذا في حقيقته إلا منجماً ينجم تنجيم الكهان؛ ولهذا السبب أيضاً أحبه هولاكو الشاماني المعتقد. يحكي ابن تغري بردي في "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة"، في سلطنة الملك العادل زين الدين كتبغا بن عبد الله المنصوري التركي المغولي الأصل، سلطان الديار المصرية الذي جلس على تخت الملك بعد أن خلع ابن أستاذه الملك الناصر محمد بن قلاوون، أنه: (لما فتح هولاكو حلب بالسيف، ودمشق بالأمان، طلبه نصير الدين الطوسي، وكان في صحبته، وقال له: اكتب أسماء مقدمي عسكري وأبصر أيهم يملك مصر ويقعد على تخت الملك بها حتى أقدمه، قال: فحسب نصير الدين أسماء المقدمين، فما ظهر له من الأسماء اسم من يملك الديار المصرية غير اسم كتبغا... وكان كتبغا صهر هولاكو فقدمه على العساكر، فتوجه بهم كتبغا وانكسر على عين جالوت، فتعجب هولاكو من هذه الواقعة وظن أن نصير الدين قد غلط في حسابه.

وكان كتبغا هذا أي الملك العادل كتبغا من جملة من كان في عسكر هولاكو من التتار ممن لا يُؤبه له من الأصاغر، وكسبه قلاوون في الواقعة، فكان بين المدة نحو ٣٥ سنة حتى قدر الله تعالى بما قدر من سلطنة كتبغا هذا أي الملك العادل كتبغا). انتهى.

(٥) طائفة البُهرة الإسماعيلية (أو المكرمية أو الطيبية):

وبعد وفاة الخليفة الفاطمي المستنصر عام ٤٨٧هـ، تفرّقت الحركة الإسماعيلية إلى فرقتين أساسيتين: فرقة الحشاشين (الإسماعيلية النزارية التي تؤمن بإمامة نزار بن المستنصر، الذي أطاح به انقلاب القصر إذ حل محله أخوه "المستعلي" بتدبير من جدّه بدر الجمالي وخاله الوزير الأفضل)، واستدادها الحاضر في "الآغاخانية" التي بدأت من إيران ثم الهند، ويتزعمها آغاخان. وفرقة أخرى تؤمن بإمامة المستعلي بن المستنصر، لكن أتباع المستعلي قد انقرضوا من مصر مع زوال الدولة الفاطمية عام ٥٦٧هـ على يد البطل صلاح الدين الأيوبي، إلا أن بقاياهم لا تزال ماثلة في طائفة (البُهرة) الذين عادوا إلى مصر منذ ربع قرن وقاموا بتجديد مسجد الحاكم بأمر الله "مسجد الأقمر" وصنعوا مقصورة من الذهب لضريح الإمام الحسين وأخرى من الفضة للسيدة زينب وتراهم منتشرين في شارع المعز لدين الله في سراويلهم البيضاء يمارسون تجارة المعدات الكهربائية وأدوات البناء؛ وهي أحبّ أنواع التجارة إليهم. وكلمة (البُهرة) بضم الباء هندية قديمة تعني التاجر، ويشتهرون بالثراء العريض. وقد أخذ الهنود مذهب المستعلية من اليمن لا من مصر، وظلت المستعلية تحكم اليمن قروناً طويلة بعد زوالها من مصر، ثم تسربت إلى الهند عن طريق خطوط التجارة.

الصليحيون: والقصة تبدأ من اليمن، فالأسرة الصليحية بزعامة (علي الصليحي) تعتنق المذهب الإسماعيلي، ثم قدم إلى مصر واعلن ولاءه للخليفة المستنصر العبيدي، فاعطاه تفويضاً بحكم اليمن، وخلع عليه القاب الشرف، منها "الأمير الأجل مشرق المعالي تاج الدولة سيف الإمام المظفر في الدين نظام المؤمنين"، ومنها "منتخب الدولة وصفوتها ذو المجدين، منجب الدولة وغرسها ذو السيفين، نجيب الدولة وصنيعتها ذو الفضلين".

وعاش علي الصليحي يعمل على تدعيم الدولة الفاطمية في اليمن، حتى اغتيل، وخلفه ابنه أحمد الصليحي فسار سيرة أبيه في الولاء للإسماعيلية، وأغدق عليه المستنصر الألقاب نفسها التي منحها لأبيه، وخلع عليه لقب "المكرم"، ولكن الصعاب أحاطت به بسبب تمرد بعض القبائل اليمنية التي لم تألف الخضوع لسلطة حكومة مركزية، وكان الخليفة المستنصر يتابع باهتمام ما يجري في اليمن ويساند "المكرم" في حروبه ضد المتمردين، حتى انتصر عليهم وأعاد الأمن إلى البلاد. فلما مات تولت الحكم زوجته الملكة الحرة "أروى".

وهي: **أروى بنت احمد الصليحي الإسماعيلية**، وتلقب بالسيدة الحرة (وأمها الملكة رداح بنت الفارع، زوجة "المكرّم بن علي الصليحي ملك اليمن)، وهي من الأسرة الصليحية التي حكمت اليمن ووحدت معظم إماراته (٤٣٩–٥٣٢هـ) ونشرت الدعوة الإسماعيلية. ولدت في حصن مسار من جبال حراز باليمن، ونشأت في بيت مؤسس الدولة الصليحية، بعد وفاة والدها أحمد الصليحي وزواج والدتها من عامر بن سليمان الزواحي تزوجها المكرّم أحمد بن علي سنة ٤٥٨هـ في حياة أبيه علي الصليحي، وتولى الحكم من بعده (٤٥٩–٤٨١هـ) وانجبت منه. فوّض المكرم الأمور إلى زوجته أروى، فكان اول ما قامت به، بعد أن غادرت صنعاء، أن اتخذت مقرها في قصر شيده زوجها في حصن بجيلة (اليمن) نقل إليه ذخائره. وقامت بتدبير المملكة خير قيام، فبسطت سلطانها على القبائل اليمانية، وخضع الناس لها، وكانت الرسائل التي يبعث بها المستنصر بالله الخليفة العبيدي إلى اليمن تصدر باسمها. وبعد وفاة زوجها المكرّم سنة ٤٨١هـ اختلف الصليحيون والزواحيون فيمن يتولى الحكم، وكان زوجها قد أوصى أن تسند أمور الدعوة إلى الأمير سبأ بن أحمد الصليحي الذي طمح إلى الزواج منها، فلم ترض أروى بهذا الاختيار، واحتكم سبأ إلى المستنصر بالله الفاطمي الذي أمر أروى أن تقبل بسبأ زوجاً حقناً للدماء؛ كتب الخليفة إلى السيدة أروى رسالة يقول فيها:

"وقد زوجك مولانا أمير المؤمنين من الراعي الأوحد المنصور المظفر عمدة الخلافة أمير الأمراء ابي حمير "سبأ بن أحمد" على ما حضر من المال، وهو مئة ألف دينار عيناً، وخمسون ألفاً أصنافاً من تحف وألطاف". فلم يسع السيدة الحرة إلا أن تمتثل لأمر الخليفة الفاطمي وتتزوج بمن تكره.

وقد ظل هذا الزواج صورياً، وظلت أروى تمسك بمقاليد الحكم الفعلية، وترفع إليها الرقاع، ويجتمع عندها الوزراء، ويدعى لها على منابر اليمن، فيخطب أولاً للخليفة الفاطمي ثم لسبأ بن أحمد ثم للسيدة الحرّة أروى، وظلت الملكة الحرة "أروى" على ولائها للمستنصر حتى وثق بها كل الثقة وعهد إليها الخليفة ومن بعده المستعلي ثم الآمر بأحكام الله بالإشراف على الدعوة الإسماعيلية الفاطمية في عُمان والهند، وأن تعيّن من قبلها دعاة ينشرون الدعوة في هذه البلاد؛ وهذا هو سبب انتشار الدعوة الإسماعيلية في الهند، فلما مات المستنصر وعلمت بنبأ إمامة المستعلي بادرت إلى الاعتراف به، ورفضت التمرد عليه مثلما فعل الحسن الصباح.

ولم تلبث أن استقلت بأمر الحكم بعد وفاة زوجها الثاني سبأ سنة ٤٩٢هـ، واعتمدت في تدبير أمور الملك على عدد من الثقات، وامتدت أيام حكمها بعد ذلك ٤٠ سنة، استطاعت في أثنائها أن تمارس سيادتها على الإمارات اليمنية الصغيرة من دون إخضاعها. وهي التي بنت جامع صنعاء الكبير، ويمدحها الإسماعيلية بتسميتها بلقيس الصغرى، ويستعيرون شعر المتنبي لمدحها:

ولـو كـان النسـاءُ كمَـن فقـدنا ... لَفُضِّـلت النسـاءُ علـى الرجـال

ومـا التأنيـثُ لاسـم الشـمس عيـبٌ ... ولا التـذكيرُ فخـرٌ للـهلال

عمّرت أروى طويلاً، فلمّا ماتت دفنت في مسجد كانت بنته بذي جبلة، وقبرها لا يزال حتى اليوم مزاراً. وأسلمت الحرّة أمر الدعوة إلى سبأ من آل زريع. وعلى إثر وفاتها دبّ الضعف في جسد الدولة الصليحية. وتفككت أوصالها وصار الأمر فيها إلى الأمراء من آل زريع، وانتهى القائد توران شاه بن أيوب أخو البطل صلاح الدين الأيوبي حكم الصليحيين تماماً بعد أن غزا اليمن سنة ٥٦٩هـ، وألحق اليمن والحجاز بسلطنة الدولة الأيوبية.

الانشقاق الإسماعيلي الفاطمي الثاني: وفي حياة الملكة "أروى" بقيت الملكة على ولائها للمستعلي، ومن بعده ابنه "الآمر"، ثم حدثت أمور خطيرة وضعت الدعوة الفاطمية في مهب الريح، حتى ضعف شأنها وانفرط عقدها. وكان الخليفة "الآمر" هذا من أفسد عباد الله. وكان يهيم غراماً بفتاة بدوية أقام لها عشاً خاصاً في جزيرة الروضة، وكان يتسلل إليها تحت جنح الليل. وفي إحدى هذه الجولات هجم عليه رسل الحشاشين فقتلوه دون أن يخلف وريثاً. فقفز إلى الخلافة عمّه عبد المجيد ولقب نفسه "الحافظ"، ولكن الملكة الحرة "أروى" لم تعترف بإمامته تمسكاً بالأحكام الشيعية التي تقصر الإمامة على الأعقاب، ولا تسمح بانتقالها إلى الأشقاء و الأعمام.

وهنا حدث الانشقاق الثاني في الدعوة الإسماعيلية، عندئذ لجأ دعاة الإسماعيلية إلى طريقتهم في صنع القصص التي تخدم أغراضهم، فزعموا أن إحدى زوجات الخليفة المقتول "الآمر" كانت حاملاً، ثم وضعت ولداً ذكراً اسمه "الطيب"، وأن أحد الدعاة خاف عليه من أعدائه فاحتفظ به وأخفاه ثم أرسله في "مقطف" آتي سلة لقطف الثمار إلى الملكة "أروى" في اليمن، فتولت تربيته، وظلت تحكم اليمن باسمه وتنوب عنه في إدارة شؤون الدعوة الإسماعيلية، واتخذت لنفسها لقباً (كفيلة الإمام المستور الطيب بن الآمر)! وبذلك انشقت الفرقة "الطيبية" عن الفرقة "المستعلية" التي استمرت في مصر تحت إمامة "الحافظ".

ودخلت الدعوة في اليمن طور الغموض حتى لم يعرف المؤرخون أسماء الأئمة من بعد هذا الطيب، وإن كان دعاة المذهب يصطنعون سلسلة من الأئمة ليس لهم وجود حقيقي: وهذا ما يراه الدكتور محمد كامل حسين الذي يقول: (وفي اعتقادي أن قصة "الطيب" هذه أقرب إلى الأساطير الخيالية، فإنّ أحداً من المؤرخين لم يذكر وجود "الطيب" بن الآمر إلا ما نراه في كتب الدعاة، أما ما يقال عن وجود سجل وجّهه الآمر إلى الملكة الحرة قبل مقتله، فهو، في رأيي، سجل موضوع قصد به إلباس القصة ثوب الحقيقة؛ حتى يتسنى للصليحيين ومن تبعهم الاعتقاد بحقيقة إمامة "الطيب". والصليحيون في اليمن هم وحدهم الذين تحدثوا عن الطيب، في حين سكت المؤرخون عنه فلم يذكروا حتى مجرد اسمه في كتبهم، بل ذهب المؤرخون إلى أن زوجة "الآمر" التي كانت حملاً عند موته وضعت أنثى، ولكن الصليحيين قالوا: بل وضعت ذكراً هو "الطيب"). ويتساءل الدكتور محمد كامل حسين: ومعه الحق، عن سبب ستره مع أن الدولة كانت دولة الصليحيين، والسلطان في أيديهم، فلماذا فضلوا أن يدخلوا إمامهم الستر وأن يخفوه ما داموا يدعون إليه ويدينون بطاعته وإمامته!!! وإنما يخيل إليّ أن الصليحيين وضعوا قصة "الآمر" هذه: حتى يتخذونه ذريعة للانفصال عن سلطان الفاطميين الديني، وأن يستقلوا بالنفوذ الديني والسياسي معاً، وأوحى دهاء الملكة "أروى" وذكاؤها الشديد، وحرصها على أن تجمع في يدها السلطتين السياسية والدينية إلى أنها كافل الإمام المستور وحجته الكبرى، وسار على نهجه كل داع مطلق في الدعوة إلى الآن!!!

البُهرة أو المكرمية أو الطيبية: وبعد انقراض الدولة الصليحية عام ٥١١هـ، خمد أتباع الدعوة الطيبية ولم يقوموا بأي نشاط سياسي، بل ركنوا إلى التجارة وعاشوا في محيطهم الخاص، واتخذوا التقية ستاراً فلا يظهرون

إسماعيليتهم. وقد هيأت التجارة التقليدية بين اليمن والهند فرصة نشر الدعوة الإسماعيلية الطيبية في الهند، وأقبل جماعة من الهندوس على اعتناق هذه الدعوة حتى كثر عددهم هناك، وعرفت الدعوة بينهم باسم "البُهْرة". وفي القرن العاشر الهجري؛ أي: منذ ٤٠٠ سنة، حدث انشقاق جديد في صفوف الطيبية، وانقسمت إلى فرقتين:

زعيم البُهرة الداوديين برهان الدين مع الرئيس اليمني

البُهرة الداودية، والبُهرة السليمانية؛ بسبب الخلاف على من يتولى مرتبة الداعي المطلق للطائفة: فالتفت الداودية حول الداعي قطب شاه داود، واجتمعت الثانية حول الداعي سليمان ابن حسن، وانتقل مركز الداودية من اليمن إلى الهند ومقره بومباي، ويتمتع داعيها بالصفات نفسها التي كان يتمتع بها الأئمة، وله سلطات روحية مطلقة على أتباعه: وهي سلطة الأئمة نفسها في العصور الوسطى.

ويتوافد عشرات الآلاف من أتباع البهرة "الداوديين"، في كل عام، إلى منطقة حراز التي تبعد عن صنعاء نحو ٩٠ كم؛ لزيارة ضريح حاتم محيي الدين، ويحملون سلطانهم الدكتور محمد برهان الدين فوق حمالة خشبية، فعمره ٩٩ سنة.

وكان الرئيس علي عبد الله صالح قد قال في حوار صحفي أجري معه في وقت سابق: حينما سُئل عن زيارة السلطان برهان الدين لليمن وطائفة البهرة: إن أبناء هذه الطائفة يأتون إلى اليمن من وقت إلى آخر، وهم لا يمثلون أي خطر لا على المجتمع ولا على النظام ولا على الدولة.. وهم يأتون للزيارة والسياحة وزيارة أحد القبور في حراز، فإذا كنا نستقبل السياح من فرنسا وأمريكا واليابان ودول أخرى غير مسلمة، ونوفر لهم الرعاية والحماية، فهم طائفة مسلمة لا تمثل أي خطر، ومن نسمح لأحد بأن يمسهم بأي أذى.

تقديس سلطان البُهرة

ويتوافد عشرات الآلاف من أتباع البُهرة الدواديين في كل عام إلى منطقة حراز باليمن؛ لزيارة ضريح حاتم محيي الدين، ويحملون سلطانهم الدكتور محمد برهان الدين فوق حمالة خشبية؛ تقديساً له لا لكبر سنه.

عيدهم في غدير خم

السجود لسلطان البُهرة

رجوع البُهرة إلى مصر: ينتشر البُهرة في الهند ودول الخليج العربي، وكانوا قد رجعوا إلى مصر أواخر السبعينيات في عهد الرئيس السادات، وبدأ عددهم يزداد في مدة الثمانينيات. واتجه البُهرة فور وصولهم إلى مصر إلى مسجد الحاكم بأمر الله المسمّى بالأنور المجاور بابَ الفتوح، واهتموا بالمراقد والآثار الفاطمية وعملوا على ترميمها وتجديدها، ولم تقتصر هذه الترميمات على الآثار الفاطمية فقط، بل امتدت إلى كل مراقد آل البيت، مثل مرقد السيدة زينب، ومقصورة رأس الإمام الحسين، وقبر مالك الأشتر الذي دفن الى جواره حديثاً شقيق شيخ البُهرة. وهناك الكثير من المحلات والبيوت التي اشتراها طائفة البهرة البطنية الإسماعيلية في شارع المعز لدين الله الفاطمي بمنطقة الجمالية والمناطق المجاورة له، وليس في هذه المنطقة فحسب، لكن بمناطق الحسين والدراسة والدرب الأحمر والموسكي، إذ يعتقدون أن إمامهم الغائب سيعود ويعيد الدولة من مصر؛ ولذا، بلاشك، ستقابلهم أو تراهم وهم يسيرون جماعات بشوارع القاهرة ويمسكون بالمصاحف في أيديهم بانضباط ومعهم نسوتهم محجبات، حيث اعتاد رؤيتهم رجل الشارع العادي بالقاهرة.

والبهرة أغنياء، وأغلبهم رجال أعمال وتجار كبار، وإمامهم البرهاني يفرض عليهم الضرائب بدقة، وهو الآن يقيم في دبي قبل أن يذهب للحرم. وعدّ مقابلته الخاصة مع الرئيس حسني مبارك منذ عدة أعوام نصراً وفتحاً مبيناً للبهرة: فمصر لها مكانة خاصة عندهم بما تحمله من مساجد لآل البيت، وتحمل جثة إمامهم وجدهم الحاكم بأمر الله، تحت البئر المقدسة!!

سيطر البهرة على مسجد الحاكم بأمر الله، في شارع المعز لدين الله الفاطمي، إذ إن جموعهم تتوافد طوال اليوم يصعدون إلى مكان علوي بالمسجد رجالاً ونساءً... وبعد أن يفرغ الناس من الصلاة تتوافد أفواجهم جموعاً للناحية الشرقية من المسجد يصلون فرادى بطريقة لم يعهدها أهل مصر من قبل، ثم يهرول أتباع الطائفة ناحية بئر مقدس في وسط المسجد ويطوفون حوله ثم يجلسون على جانبي المسجد بعد ذلك. ويدعون أن إمام البُهرة الداوديين برهان الدين قد ورد اسمه في القرآن حين قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ النساء: ١٧٤.

سلطان البُهرة "محمد برهان الدين" يُحمل بكل تقديس إلى جامع خانة

وقد وصف الشيخ محمود عاشور من علماء الأزهر الشريف في "المصريون"، هؤلاء البهرة بأنهم "خارجون عن الدين، ولا يجوز الصلاة خلفهم. ولكن يمكن التعامل التجاري معهم، ولا يجوز الزواج منهم. وأما ما يجري في مسجد الحاكم بأمر الله فاسألوا وزارة الداخلية المصرية عنه".

أما الدكتور محمد الشحات الجندي الأمين العام للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، فقال لـ "المصريون": أنا أيضاً أتعجب عما يحدث وأتساءل أين الدولة؟ وفي الفتوى الخاصة رقم ٦١٠٥٩٤ من دار الإفتاء المصرية حول البهرة، أجابت لجنة الفتوى قائلة: (هم إسماعيلية مستعلية، يعرفون بالإمام المستعلي، ومن بعده الآمر، ثم ابنه الطيب؛ ولذا هم يسمّون بالطيبية. وهم إسماعيلية الهند واليمن، تركوا السياسة وعملوا بالتجارة، فوصلوا إلى الهند واختلط بهم الهندوس الذين أسلموا وعرفوا بالبهرة؛ والبهرة لفظ قديم بمعنى التاجر. وهم يقولون: إن الإمام الطيب دخل الستر عام ٥٢٥ هجرية، والأئمة المستورون من نسله إلى الآن لا يُعرف عنهم شيئاً، حتى إن أسماءهم غير معروفة، وعلماء البهرة أنفسهم لا يعرفونهم.

وقد انقسمت البهرة إلى فرقتين:

١. البهرة الداودية، نسبة إلى قطب شاد داود، وينتشرون في الهند وباكستان منذ القرن العاشر الهجري، وداعيتهم يقيم في بومباي بالهند.

٢. البهرة السليمانية، نسبة إلى سليمان بن حسن، وهؤلاء مركزهم في اليمن إلى الآن، وعقائدهم مثل عقائد الإسماعيلية، مثل: وجوب إمام معصوم منصوص عليه من ولد محمد بن إسماعيل، والقول بالإمام الغائب المستور، ورفع أئمتهم لمنزلة أشبه بالألوهية، ومنها القول بالتناسخ، وأن الإمام وارث الأنبياء جميعاً، وغير ذلك من العقائد الباطلة. فهي فرقة غير مسلمة، وغير كتابية، وتعامل معاملة المشركين، أو المرتدين في الأحكام؛ فلا يجوز الزواج منهم، ولا أكل ذبيحتهم من الأحكام الخاصة بمن ذكروا).

صفات البُهرة: يقدس البُهرة زعيمهم ويُدعى السلطان محمد برهان الدين. وسلاطين البُهرة هم النواب، و تبتهم الدينية هي رتبة الداعي المطلق، وهم دون الأئمة رتبة، والعُصمة للإمام ومن ينوب عنه من الدعاة. وهم يدينون بالمذهب الإسماعيلي، ولا يختلفون في عباداتهم عن الإمامية في شيء، إلا أنهم يختلفون مع الشيعة الإمامية في قضية الإمامة. وهم يعترفون بستة من الأئمة الاثني عشر فقط من الإمام علي حتى جعفر الصادق، ويأخذون بقية أئمتهم من سلالة إسماعيل بن الإمام جعفر الصادق الذي توفي في حياته؛ ولذلك سُمّيت الطائفة بالشيعة الإسماعيلية تمييزاً لها من الشيعة الإمامية التي تعتقد بوصية الإمام جعفر لابنه موسى الكاظم الإمام السابع الذي لا تعترف به الإسماعيلية، ويعتقدون أيضاً أن الإمام الذي اختفى هو الطيب، وابنه هو المنتظر المهدي.

ويبلغ الدخل السنوي لزعيم البُهرة الداوديين محمد برهان الدين نحو ١٢٠ مليون روبية هندية، واشترى من ضرائب الطائفة عدة فنادق منها "سندز هاوس" في بومباي، واشترى شركة كولا للمشروبات الغازية، ويتاجر بالذهب والمجوهرات والأحجار الكريمة، ويأتي مدخوله من ضرائب الطائفة: فأي امرأة حامل تدفع ضريبة، وإذا وسعت تدفع ضريبة، ولزم عليها أن تأتي بالجنين إلى الداعي: كي يمسح عليه وهذا فيه ضريبة، ويقال: إنه هو الذي يختار له الاسم ولا دخل لوالديه في اسم المولود وهذا فيه ضريبة أيضاً. ويلزمها أن تدفع ضريبة ٥٠٠ إلى ٥٠٠٠ روبية: كي يقرأ عليه بسم الله الرحمن الرحيم. وفي العيد تباع تذاكر الصلاة، فالصف الأول يكلف ١٠٠٠ روبية، والثاني ٨٠٠، وهكذا... ومن مات يدفع عنه أولياؤه ضريبة، ويكفن بضريبة، ويدفعون ضريبة أخرى لشراء صك غفران! ومن دفع أكثر يُكتب له الصك ومعه موضع أفضل في الجنة!

يشتهر البُهرة بأنهم لا يقيمون الصلاة في مساجد عامة المسلمين، بل لهم مساجدهم الخاصة تسمّى جامع خانة)، وتراهم في سراويل بيضاء. أما أركان الإسلام عندهم فهي سبعة: الشهادة، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والولاية، والطهارة وتتضمن تحريم الدخان والموسيقى والأفلام. وهم في صلواتهم يجمعون بين الظهر والعصر والمغرب والعشاء، ولا يصلون الجمعة بل يصلونها ظهراً، ويصلون العيد أربع ركعات ودون خطبة، ويقدّسون ماساة كربلاء مدة عشرة أيام، ويحتفلون بيوم غدير خم في يوم ١٨ ذي الحجة، فهم يعتقدون أنه تمّت فيه الوصاية إلى الإمام علي، فيصومون فيه ويجددون العهد للداعي المطلق والدعاة المبايعين وهم نوابه في الأقاليم، و تباع الداعي يطيعونه طاعة عمياء، وهناك عهد قديم بالولاء للإمام الطيب والإمام المنتظر. والداعي المطلق عندهم معصوم في كل تصرفاته كما سلف. ويقال عنهم بين الناس: إن ظاهرهم في العقيدة يشبه عقائد سائر الفرق الإسلامية المعتدلة، أما باطنهم فشيء آخر، فهم يصلون ولكن صلاتهم للإمام الإسماعيلي المستور من نسل الطيب بن الآمر ويقال أيضاً: إنهم يذهبون إلى مكة للحج لكنهم يقولون: إن الكعبة هي رمز للإمام. يقول الإمام الغزالي عنهم (المنقول عنهم الإباحية المطلقة، ورفع الحجاب، واستباحة المحظورات واستحلالها، وإنكار الشرائع، لكنهم جميعهم ينكرون ذلك إذا نُسب إليهم).

ظهور آل زنكي وآل أيوب

كانت دول العالم الإسلامي تمزقها الخلافات والصراعات الدموية عشية بدء الحملة الصليبية على العالم الإسلامي عام ٤٩١ للهجرة الموافق ١٠٩٨ للميلاد. ودعا البابا أوربان الثاني إلى «استرداد» الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين. وأعلن أن كل من يشترك في هذه الحروب المقدسة تغفر له ذنوبه، وقرر أن ممتلكات المقاتلين توضع تحت رعاية الكنيسة مدة غيابهم، وطلب أن يُخيط كل محارب صليباً من القماش على ردائه الخارجي! ومن هنا جاءت تسميتهم (الصليبيون)، وسُميت الحملات والحروب التي أعقبتها بالحملات والحروب الصليبية.

عمل الصليبيون على تجنيد أمراء الولايات والمناطق التي احتلوها أو القريبة منها، وظهرت الخيانات وانكشف التخاذل من إمارات المدن التي حرصت كل منها على نفوذها و«كسب ود» الصليبيين، الذين استطاعوا، بمساعدة الخونة والعملاء، حصار بيت المقدس وإسقاطها ثم احتلالها!

الإمارات التي احتلها الصليبيون بعد حملتهم الأولى

وتتابع سقوط مدن فلسطين الأخرى واحدة بعد الأخرى، وهكذا أسست مملكة بيت المقدس الصليبية، واستطاع الصليبيون – بعد حملتهم الأولى – أن يستولوا على جزء كبير من بلاد الشام والجزيرة في المدة الواقعة من ٤٨٩هـ–١٠٩٦م إلى ٤٩٨هـ–١١٠٥م، وأنشؤوا فيها إماراتهم الأربع: الرها، وأنطاكيا، وطرابلس، وبيت المقدس.

١. **إمارة الرّها ٤٩٢هـ–١٠٩٨م:** وتشمل أعالي نهري دجلة والفرات، وتقرب حدودها الجنوبية الغربية من حلب، وكانت عاصمتها الرها التي توجد في بعض الخرائط باسم إديسّا.

٢. **إمارة انطاكيا:** وتقع في الإقليم الشمالي جنوب غرب إمارة الرها.

٣. **إمارة طرابلس:** وهي تقع في شريط ضيق على الساحل، وهي أصغر هذه الإمارات.

- **مملكة القدس (فلسطين):** وتمتد حدودها الشرقية من قرب بيروت الحالية، ثم تتبع نهر الأردن حيث تتسع قليلاً، وتتجه جنوباً إلى خليج العقبة. وكانت عاصمتها القدس نفسها. وكان لكل إمارة من الإمارات أمير صليبي يحكمها، وكانت هناك خلافات بينهم بين الحين والحين.

وظهر نجم الإسلام البطل المجاهد الزاهد عماد الدين زنكي في خضم هذا الواقع المرير (التركماني الأصل، العربي المنشأ والتربية والتعليم واللغة والحياة).

والزنكيون (أو بنو زنكي) هم سلالة تركمانية من قبيلة (الساب يو) استوطنت شمال سوريا والعراق، وحكمت مابين ١١٢٧–١١٧٤م. مؤسس السلالة آق سنقر بن عبد الله آل ترغان، أصبح اتابكاً (قائداً عسكرياً) على حلب من قبل القائد السلجوقي.

عماد الدين زنكي موحّد العراق والشام وفاتح الرّها (حكم ١١٢٧–١١٤٦م):

ولد عماد الدين زنكي بن آق سنقر بن عبد الله آل ترغان نحو سنة ٤٧٧هـ–١٠٨٤م في أسرة تنتمي إلى قبائل "لساب يو" التركمانية الشديدة المراس. كان والده "آق سنقر" مملوك السلطان محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي (بطل معركة ملاذكرد)، وذا حظوة ومكانة عنده، واعتمد عليه السلطان في كثير من الأمور فلم يخذله آق سنقر قط، وهذا زاد في ثقته ومنزلته. تولى آق سنقر ولاية الموصل سنة ٥١٦ للهجرة بأمر الخليفة العباسي المسترشد (وبتزكية السلطان محمود بن السلطان محمد بن ملكشاه).

القائد المجاهد الزاهد عماد الدين زنكي

وعند وفاة آق سنقر، لم ينس السلطان محمود بن ملكشاه تضحية "آق سنقر" في سبيل الإسلام، فوجّه اهتمامه نحو ابن آق سنقر الوحيد عماد الدين زنكي الذي لم يتجاوز العاشرة من عمره. وهكذا نشأ عماد الدين في "حلب" في رعاية السلطان محمود السلجوقي، ثم ما لبث أن انتقل عام ٤٨٩هـ–١٠٩٦م إلى "الموصل" ليحظى برعاية القواد السلاجقة هناك الذين قربوا عماد الدين لما لمسوا فيه من مهارة قتالية متميزة، وأحبّوه. وحين خرج والي الموصل على السلطان، انفصل عماد الدين عنه، وانضم إلى الوالي الجديد "مودود بك التونتكين" الذي عيّنه السلطان محمود على الموصل، وكان ذلك مدعاة إلى إكبار السلطان له، وثقته به. خاض القائد التركماني عماد الدين زنكي إلى جانب القائد "مودود" معارك كثيرة ضد الصليبيين المحتلين في "الشام" و"الجزيرة"، وقد لفت إليه الأنظار بشجاعته الفائقة ومهارته القتالية العالية.

ومع مطلع عام ٥١٧هـ–١١٢٣م استطاع السلاجقة – بفضل الخطة البارعة التي اتبعها عماد الدين – إلحاق هزيمة ساحقة بجيوش "دبيس" الخارج على الخليفة العباسي، وخلّصوا الخلافة من خطر محقق. فانضم "دبيس" هذا إلى الصليبيين بعد هزيمته أمام عماد الدين، وأسهم معهم في حصار "حلب" طمعاً في الاستيلاء عليها. وعندما تدهورت العلاقات بين الخليفة العباسي المسترشد والسلطان السلجوقي "محمود" في عام ٥١٩هـ–١١٢٥م كان لعماد الدين عمل كبير في إصلاح ذات البين. وبعد حلّ الخلافات الداخلية تفرّغ عماد الدين لعملية توحيد البلاد والعباد قبل دخوله في حروب مع الصليبيين المحتلين.

تولى عماد الدين زنكي الإمارة على البصرة وواسط في العراق، وبعد ظهور كفاءته في الحكم، تولى ولاية الموصل وأعمالها عام (٥٢١هـ ١١٢٧م)، واستطاع أن يُحكم قبضته على كامل شماليّ العراق وأجراء مهمة من الشام. قرر زنكي توطيد دعائم إمارته الجديدة، وتدعيم جيشه، وتعزيز قدراته العسكرية والاقتصادية قبل خوض غمار المعارك ضد الصليبيين. فعكف هذا القائد المحنك على وضع إستراتيجية محكمة لتوحيد الإمارات والولايات الإسلامية الصغيرة المتناثرة والمتناحرة فيما بينها وجعلها تحت قيادة قوية. ومن ثم العمل على تهيئة الأمة الإسلامية وتوحيدها قبل خوض المعركة المرتقبة. ونجح في أن يمد سلطانه إلى نصيبين وحران، وهيأ نفسه لكي يقود بحركة الجهاد ضد الصليبيين، وأدرك أن ذلك لن يتحقق ما لم تتحد القوى الإسلامية في العراق والشام، فتطلع إلى حلب وكانت غارقة في الفوضى بعد وفاة أتابكها "عز الدين مسعود البرسقي".

ولتنفيذ هذه الإستراتيجية، استولى عماد الدين على إمارة "حلب" بعد حصارها عدة أشهر وذلك في ١ محرم سنة ٥٢٢هـ-١١٢٨م: أي: بعد شهور قليلة من ولايته على الموصل. وهذا يوضح أن عماد الدين كان يملك رؤية واضحة وخطة مُعدة سلفاً لتحركاته بالشام، ثم قام بعدها بضم مدينة "حماة" في السنة اللاحقة ٥٢٣ هجرية، ثم ضم مدينة سرجي ودارا ثم حصن الأثارب (كان بيد الصليبيين)، ثم عاد فضمّ عدة قلاع للأكراد الحميدية والهكارية وقلعة الصور، وواصل سعيه حتى استقامت له ديار بكر وإقليم الجبال سنة ٥٢٨ هجرية. وحكم عماد الدين زنكي سيطرته على بلاد الشام عدا دمشق حاضرة الشام؛ بسبب أميرها الخائن الموالي للصليبيين (معين الدين أنر).

وأخذ عماد الدين يخوض المعارك تلو المعارك ويحقق الانتصارات على الصليبيين وهاجم عدداً من المواقع المحتلة المحيطة بها، وتمكن من الاستيلاء على خمسة منها، وتمكن من الاستيلاء على "بعرين" التي وجد الصليبيون في استيلائه عليها خطراً يهدد إماراتهم في المشرق. وقد حاول الصليبيون إنقاذ "بعرين"، ولكن حملتهم أخفقت.

ولما ازدادت قوة عماد الدين زنكي في حلب والشام خاف الصليبيون فاستعانوا بإمبراطور القسطنطينية "عمانوئيل" فوافق لنصرة أبناء دينه. وجاء الإمبراطور البيزنطيّ بجيوش جرارة سنة ٥٣٢ هجرية، اخترق آسيا الصغرى، ولم يستطع السلاجقة إيقاف زحفه فدخل سوريا واستولى على مدينة "بزاعة" قرب حلب، وغدر بأهلها بعد أن أعطاهم الأمان، فقتلهم وسبى نساءهم. ووقعت الشام بين مطرقة الإمبراطور البيزنطي وبين سندان الصليبيين الفرنجة بالشام.

وهنا برزت مهمة عماد الدين الذكي، فقام بإيقاع الخلاف بين البيزنطيين والفرنجة، فقد كان عماد الدين زنكي من دواهي عصره في خدعة الحرب، إذ استغل الخلاف المذهبي بين الأرثوذكس والكاثوليك للتفريق بينهما، فأرسل يخوّف الإمبراطور البيزنطي مفيّة نكصان الفرنجة العهود، وأنهم يتربصون به، فإن فارق مكانه الذي هو فيه فسيتخلفون عن نصرته، ثم أرسل إلى الصليبيين الفرنجة يخوّفهم من إمبراطور بيزنطة ويقول لهم: إن هو ملك بالشام حصناً واحداً ملك بلادكم جميعاً. وهكذا استطاع بحنكته السياسية أن يزرع بذور الشك بين الطرفين ليقضي على التعاون بينهما، وسعى في الوقت نفسه إلى طلب النجدة والإمدادات العسكرية من مختلف أنحاء العالم الإسلامي لحرب العصابات ضد الجيش البيزنطيّ.

ونجحت خطة عماد الدين زنكي ووقع الخلاف بين الطرفين وانسحب الإمبراطور من الشام وترك كثيراً من أسلحته الثقيلة كالمجانيق على حالها، فغنمها جيش الشام وحرروا أسرى المسلمين، وارتفعت مكانة عماد الدين بين المسلمين وعظمت هيبته عند الصليبيين وأثبت أنه رجل المهام الصعبة.

ثم إنه استطاع أن يدعم موقفه بالاستيلاء على بعض المواقع وعدد من الحصون الخاضعة لإمارة "الرها" الصليبية، وتمكن بذلك من قطع الاتصال بين أمير "الرها" وبين حلفائه. كانت إمارة "الرها" واحدة من أهم الإمارات الصليبية في المشرق؛ وذلك لقوة تحصينها، وقربها من "العراق" التي تمثل مركز الخلافة الإسلامية، ونظراً إلى ما تسببه من تهديدات وأخطار للمناطق الإسلامية المجاورة لها. إذ تقع إمارة الرها في منطقة الجزيرة السورية، وهي المنطقة الواسعة الواقعة بين نهر الفرات ونهر دجلة، وقد فتحها المسلمون سنة ١٧ هجرية، و"الرها" من البلاد التي كان لها خصوصية عند البيزنطيين؛ لأنها إحدى المدن الدينية عندهم، وكانت تنتشر فيها الكنائس والصوامع، وأيضاً لها خصوصية عند المسلمين لكونها على حدود الدولة الإسلامية المشتركة مع الدولة البيزنطية، وعندما انطلقت شرارة الحملات الصليبية احتل الصليبيون "الرها" وأقاموا فيها أول إمارة صليبية في منطقة الجزيرة السورية وذلك سنة ٤٩٢ هجرية. كان أميرها الصليبي "جوسلين" قد فهم من تحركات عماد الدين زنكي أنه يخطط لفتح الرها، فعمد إلى تقوية دفاعاتها والمبالغة في تحصينها وظل مقيماً في الرها لا يفارقها أبداً، على الرغم من أن زوجته وأولاده بفرنسا، ولكنه صبر على فراقهم من أجل الدفاع عن الرها.

وعزم "عماد الدين" على فتحها سنة ٥٣٩هـ، وأدرك أنه لن يتمكن من فتح "الرها" إلا إذا استدرج "جوسلين" أمير "الرها" الصليبي وقواته خارجها، فوضع خطة بارعة أتاحت له الوصول إلى مأربه: إذ تظاهر بالخروج إلى "آمد" لحصارها، وفي الوقت نفسه كان بعض أعوانه يرصدون تحركات أمير "الرها"، الذي سرعان ما خرج بجنوده إلى "تل باشر" (على الضفة الغربية للفرات) بعد أن اطمأن إلى اشتغال "عماد الدين" عنه بحصار "آمد" ليستجم ويتفرغ لذاته. وقد كان هذا ما توقعه "عماد الدين"، فأسرع بالمسير إلى "الرها" في جيش كبير تعداده ٢٠ ألفاً من مقاتلي التركمان الأشداء مع حشد هائل من المتطوعين العرب والأكراد، فحاصر "الرها" من جميع الجهات، وحاول التفاهم مع أهل "الرها" بالطرق السلمية، وبذل جهداً كبيراً لإقناعهم بالاستسلام، متعهداً لهم بالأمان، ولكنهم أبوا، فما كان منه إلا أن شدّد الحصار عليهم، واستخدم الآلات التي جلبها معه لتدمير أسوار المدينة قبل أن يتمكن الصليبيون من تجميع جيوشهم لإنقاذ المدينة.

كان عماد الدين من أشجع الناس وأقواهم وأجرأهم في القتال لايجاريه أحد من جنده في ذلك، وقبل القتال وضع عماد الدين مائدته للطعام وقال: لا يأكل معي على المائدة إلا من يطعن معي غداً باب الرها؛ وهي كناية عن شدة القتال والشجاعة؛ لأن طاعن الباب يكون أول فارس في الجيش يصل إلى باب المدينة ولا يفعل ذلك إلا أشجع الناس، فلم يجلس معه على المائدة إلا صبي صغير، فقيل له: ارجع، ما أنت في هذا المقام. فقال له عماد الدين زنكي القائد المربي: دعوه، فوالله إني أرى وجهاً لا يتخلف عني. وبالفعل أثمرت هذه الكلمات عن طاقة جبارة عند الصبي فكان أول طاعن وأول بطل في هذه المعركة، وبعد (٢٨) يوماً من الحصار انهارت بعض أجزاء الحصن، ثم ما لبثت القلعة أن استسلمت لقوات القائد المنصور، وفُتحت المدينة في ٦ من جمادى الآخرة ٥٣٩هـ-٢٧ من تشرين الثاني ١١٤٤م، فأصدر "عماد الدين" أوامره إلى الجند بالتوقف عن القتال أو الأسر أو السلب، وأمر بإعادة جميع ما استولوا عليه من غنائم وأسلاب، فأعادوا كل ما أخذوه إلى أصحابه.

وضرب بذلك أروع مثال على الشهامة والفروسية والأخلاق الإسلامية الرفيعة. وبدأ من فوره بإعادة إعمار المدينة، فأعاد بناء ما تهدم من أسوارها، وما تهدم من بيوتها في أثناء اقتحام المدينة، وسار في أهلها بالعدل وحسن السيرة، حتى عمّ الأمان وهدأت النفوس وكسب القلوب والعقول. ثم أمر بأن يحتفظ النصارى بكنائسهم وصوامعهم، وسمح لهم بأداء عبادتهم وطقوسهم الدينية بكل حرية وأمان.

كان لفتح الرها زلزال شديد في العالمين الإسلامي والصليبي، فلقد كان أعظم انتصار حققه المسلمون على

الصليبيين منذ دخولهم إلى الشام منذ ٥٠ سنة، وعادت روح الجهاد عند المسلمين وتغلبوا على الهزيمة النفسية أمام الصليبيين التي أقعدتهم عشرات السنين. وطارت شهرة عماد الدين زنكي في فتح الرها في جميع آفاق العالم الإسلامي من بغداد إلى شمال إفريقيا؛ وكتب بعضهم أنّ زنكي حاكم الموصل متى توفي، فإن جنة الفردوس هي مثواه بإذن الله: مقابل هذا الجهاد الذي باركه الله بفتح الرها.

إنّ فتح الرها عنوةً وإسقاط هذه المملكة الصليبية الأولى التي أسست في الشرق إبان الحملة الصليبية الأولى، وفتح ملحقات المملكة في منطقة الجزيرة، وشرقي الفرات، كان أجلّ أعمال "عماد الدين وأعظمها"، ولم يمض عامان على ذلك النصر العظيم حتى اغتيل هذا القائد المجاهد.

فكر الصليبيون في كيفية التخلص من عماد الدين زنكي، فقرروا إسناد مهمة الاغتيال إلى جماعة الحشاشين الباطنية المعروفة بذلك. عندما كان عماد الدين زنكي يحاصر إحدى القلاع المطلة على نهر الفرات واسمها "قلعة جعبر" قامت مجموعة من الباطنية بالاتفاق مع الصليبيين (بعد أن قبضوا الثمن) بالتسلل إلى معسكر عماد الدين زنكي واندسّوا بين حراسه، ودخلوا عليه خيمته في الليل وهو نائم فقتلوه في ٦ ربيع الثاني ٥٤١هـ-١٤ أيلول ١١٤٧م وهو غازٍ مجاهد في أثناء حصاره قلعة "جعبر". قتله "يرنقش"(كبير الحرس) الذي تسلل إلى مخدع عماد الدين فذبحه وهو نائم، وكان عمره يزيد على الـ ٦٠ سنة (رحمه الله).

ويرى كثير من المؤرخين أن اغتيال "عماد الدين زنكي" جاء لأسباب سياسية، فقد كان في أوج انتصاره على الصليبيين المحتلين، وحقق انتصاراً آخر على المستوى الإسلامي بعد أن نجح في توحيد الصفوف وتكوين جبهة إسلامية قوية، وتأسيس جيش قوي عماده ٥٠ ألف مقاتل من التركمان والمتطوعين العرب والأكراد. ومن ناحية أخرى، فقد كانت قلعة "جعبر" على وشك السقوط بعد أن بلغ حصاره لها مداه، فضلاً على أن قاتله "يرنقش" كان من الباطنية، وقد استطاع التستر واستبطان الشر والانتظار طويلاً (على عادة الباطنية)، حتى حانت الساعة المناسبة لتنفيذ جريمة الاغتيال. وقد حاول جوسلين استغلال الفرصة واستعادة الرها بعد اغتيال زنكي، ولكن ابن عماد الدين زنكي (نور الدين محمود) هزمه في تشرين الثاني ١١٤٦م، وبذلك أمن نور الدين محمود زنكي فتح الرها وصان فتح والده لها بكل صلابة، وظلت الرها تحت السيطرة الإسلامية.

قال ابن الأثير في وصفه: (كان شديد الهيبة في عسكره ورعيته، عظيم السياسة لا يقدر القوي على ظلم الضعيف، وكانت البلاد قبل أن يملكها خراباً من الظلم وتنقل الولاة ومجاورة الفرنجة، فعمرها واستلأت أهلاً وسكاناً، وكان أشجع خلق الله). وقال عنه ابن كثير الدمشقي: (وقد كان زنكي من خيار الملوك وأحسنهم سيرة وشكلاً، وكان شجاعاً مقداماً حازماً خضعت له ملوك الأطراف، وكان من أشد الناس غيرة على نسائه الرعية وأجود الملوك معاملة وأرفقهم بالعامة).

واشتُهر عماد الدين بعد مقتله بلقب "الشهيد"، ودُفن بصفين. وخلفه ابنه سيف الدين غازي في الموصل. وخلفه ابنه نور الدين محمود في حلب. وأولاد عماد الدين ثلاثة: سيف الدين غازي، ونور الدين محمود المعروف بالشهيد، وقطب الدين مودود. فملك بعده ابنه نور الدين محمود الشهيد، وسار غازي إلى الموصل.

ونزلت بالصليبيين أعظم المصائب بفقدهم أهم إمارة صليبية بالمنطقة (إمارة الرها أو أديسا، وكانت أول إمارة صليبية قامت، وأول إمارة صليبية سقطت)، فقامت الحملة الصليبية الثانية على الشام سنة ٥٤٣هـ-١١٤٥م لاسترجاع هذه الإمارة. وكانت أولّ حملة يقودها ملوك أوروبا، وهم لويس السابع ملك فرنسا، وكونراد الثالث ملك ألمانيا.

تحركت جيوش الملكين كلّ على حدة في أوروبا، وبعد عبور الجيوش المناطق البيزنطية من الأناضول، هُزم كلا الجيشين على يد المسلمين السلاجقة، كل على حدة. ووصل كل من جيوش لويس وكونراد وشرارذم إلى القدس عام ١١٤٨م، ومن ثم تجمعوا وهاجموا دمشق، ولكنهم أخفقوا إخفاقاً ذريعاً. مثلت الحملة الصليبية الثانية هزيمة كبيرة للصليبيين، ونصراً للإسلام باسترجاع القدس، وأدت إلى قيام الحملة الصليبية الثالثة في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي.

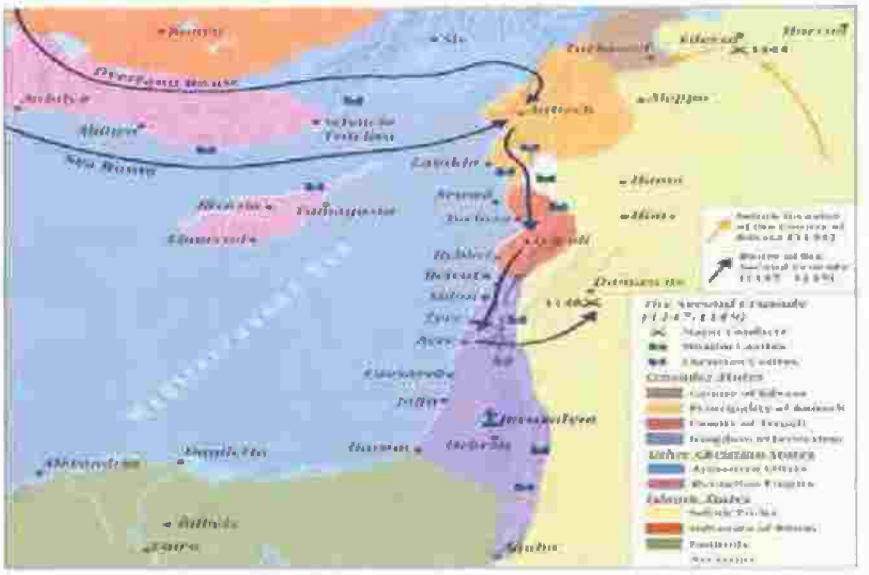

الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧–١١٤٩م) والدويلات الصليبية عام ١١٣٥م

نور الدين محمود زنكي صاحب مشروع توحيد العراق والشام ومصر (٥١١–٥٦٩هـ/١١١٨–١١٧٤م):

إن أفضل تركة خلفها عماد الدين زنكي هو ابنه نور الدين محمود زنكي. ولد نور الدين محمود (بعد نحو ٣٠ عاماً من سقوط القدس في أيدي الصليبيين) في ١٧ شوال ٥١١هـ / شباط ١١١٨م.

وطوال ٢٨ عاماً من حكمه (بين ١١٤٦–١١٧٤م)، وضع نور الدين زنكي هدفه الأساسي في تحرير بلاد المسلمين واستردادها وتوحيدها تحت راية الإسلام، واستكمال ما بدأ به والده الشهيد، آخذاً بالأسباب من إعداد العدة والعتاد ومن توحيد المسلمين، مرتقياً بهم في جوانب الحياة المختلفة، وفق منظومة تصور إسلامي متكامل: لإعادة أمجاد المسلمين وطرد المحتلين من بلادهم.

ونور الدين محمود زنكي (١١١٨–١١٧٤م) هو الابن الثاني لعماد الدين زنكي الذي أسس دولة الموصل وسمعت جزيرة الفرات وحلب، وحارب الصليبيين وحرر الرها من الصليبيين وخربها سنة ١١٤٦، وهزم جيوش الحملة الصليبية الثانية لدى محاولتها الاستيلاء على دمشق سنة ١١٤٨، واستولى على العديد من معاقل الصليبيين، وأهمها: قلعة جارم بين حلب وانطاكيا. كان مثالاً للحاكم الفاضل، بنيت في عهده المدارس والمساجد والبيمارستانات، وازدهرت في أيامه دمشق عمرانياً واقتصادياً. من آثاره فيها: دار الحديث، والبيمارستان النوري، وحمام نور الدين.

بعد وفاة عماد الدين زنكي اقتسم ولداه: سيف الدين غازي ونور الدين محمود دولته، فكانوا جميعاً من رجال الجهاد وفرسانه (على تفاوت في ذلك بينهم). فاستقر الأول بالموصل وثبّت أقدامه فيها، وانفرد الآخر بحكم حلب، وكان الحد الفاصل بين أملاك الأخوين هو نهر الخابور. وكان كلا الأخوين مؤهلاً لما وجهته له الأقدار،

فكان سيف الدين غازي صاحب سياسة وأناة، على حين كان نور الدين مجاهداً مخلصاً، جياش العطفة، صادق الإيمان، ميالاً إلى جمع كلمة المسلمين وإخراج الأعداء من ديار المسلمين، مفطوراً على الرقة ورهافة الشعور: وهو ما جذب الناس إليه، وحبب القلوب فيه.

وكان على نور الدين أن يواصل سياسة أبيه في جهاد الصليبيين، يدفعه إلى ذلك طبيعته المفطورة على حب الجهاد، وملازمته أباه في حروبه معهم، وقربُ إمارته في حلب من الصليبيين، جعله أكثر الناس إحساساً بالخطر الصليبي. كان نور الدين محمود يقول: "نحن شحن (شرطة) الشريعة تمضي أوامرها". وقال أيضاً: **نحن نحفظ الطريق من لص وقاطع طريق، والأذى الحاصل منهما قريب، أفلا نحفظ الدين، ونمنع عنه ما يناقضه؟! وهو الأصل**".

تمكّن نور الدين من الاستيلاء على دمشق عام (١١٥٤م). وبعد وفاة أخيه سيف الدين (١١٤٦–١١٤٩م) ضمّ نور الدين شمال العراق إلى دولته ثم اتخذ الموصل عاصمة له. تميّز عهده بتطوّر حركة العمران وازدهار الاقتصاد وتوسع رقعة إمارته. وتمكن من أن يمد حدوده حتى مصر، فقد قضى قائد جيشه صلاح الدين على الخلافة الفاطمية فيها سنة ١١٧١م. ثم استولى صلاح الدين والأيوبيون على الحكم من إسماعيل بن نور الدين زنكي (في حلب)، معلنة ظهور نجم الأيوبيين بعد أن كانوا في خدمة الزنكيين سنوات طويلة.

أمر بإلغاء كل الضرائب والمكوس التي كانت تؤخذ من الشعب، وذلك عندما قصّ عليه وزيره موفق الدين خالد بن محمد القيسراني الشاعر أنه رأى في منامه كأنه يغسل ثياب الملك نور الدين، فأمره أن يكتب مناشير بوضع المكوس والضرائب عن البلاد، وقال له: هذا تأويل رؤياك. وكتب إلى الناس ليكون منهم في حل مما كان قد أخذ منهم، ويقول لهم: إنما صرف ذلك في قتال أعدائكم من الكفرة والذبّ عن بلادكم ونسائكم وأولادكم. وكتب بذلك إلى سائر ممالكه وبلدان سلطانه، وأمر الوعاظ أن يستحلوا له من التجار، وكان يقول في سجوده: (اللهم ارحم المكاس العشار الظالم محمود الكلب).

وصف ابن الأثير نور الدين بأنه: "كان يتحرى العدل، وينصف المظلوم من الظالم كائناً من كان، القوي والضعيف عنده في الحق سواء، فكان يسمع شكوى المظلوم، ويتولى كشف ذلك بنفسه، ولا يكل ذلك إلى حاجب ولا أمير، فلا جرم أن سار ذكره في شرق الأرض وغربها".

قال ابن الأثير: "وهو أول من ابتنى داراً للعدل، وكان يجلس فيها في الأسبوع مرتين، وقيل: أربع مرات، وقيل: خمساً، ويحضر القاضي والفقهاء من سائر المذاهب، ولا يحجبه يومئذ حاجب ولا غيره، بل يصل إليه القوي والضعيف، فكان يكلم الناس ويستفهمهم ويخاطبهم بنفسه، فيكشف المظالم، وينصف المظلوم من الظالم. وكان سبب ذلك أن أسد الدين شيركوه بن شاذي قد عظُم شأنُه عند نور الدين، حتى صار كأنه شريكه في المملكة، واقتنى الأملاك والأموال والمزارع والقرى، وربما كان قد ظلم نوابه جيرانه في الأراضي والأملاك، وكان القاضي كمال الدين ينصف كل من استعداه على جميع الأمراء إلا أسد الدين هذا فما كان يهجم عليه. فلما ابتنى نور الدين دار العدل تقدم أسد إلى نوابه أن لا يدعوا لأحد عنده ظلامة، وإن كانت عظيمة، فإن زوال ماله عنده أحب إليه من أن يراه نور الدين بعين ظالم، أو يوقفه مع خصم من العامة، ففعلوا ذلك. فلما جلس نور الدين بدار العدل مدة متطاولة، ولم ير أحداً يستعدي على أسد الدين، سأل القاضي عن ذلك فأعلمه بصورة الحال، فسجد نور الدين شكراً لله، وقال: الحمد لله أن أصحابنا ينصفون من أنفسهم".

كان نور الدين يصلي كثيراً بالليل، وحكي عنه أنه يصلي فيطيل الصلاة، وله أوراد في النهار. فإذا جـ

الليل وصلى العشاء نام، ثم يستيقظ نصف الليل، ويقوم إلى الوضوء والصلاة والدعاء باكراً، ثم يظهر للركوب ويشتغل بمهام الدولة. قال عنه ابن كثير في البداية والنهاية: "وقد كان – رحمه الله – حسن الخط كثير المطالعة لكتب الدينية، متبعاً الآثار النبوية، محافظاً على الصلوات في الجماعات، كثير التلاوة، محباً فعل الخيرات، كثيف البطن والفرج، مقتصداً في الإنفاق على نفسه وعياله في المطعم والملبس، حتى قيل: إنّ أدنى الفقراء في زمانه أعلى نفقة منه من غير اكتناز ولا استئثار بالدنيا، ولم يسمع منه كلمة فحش قط، لا في غضب ولا في رضى، وكان صموتاً وقوراً".

وكان لا يلبس الحرير، ويأكل من كسب يده بسيفه ورمحه. وكان نور الدين يستقرض من الشيخ عمر الملا من الموصل – وكان من الصالحين الزاهدين – في كل رمضان ما يفطر عليه، ويرسل إليه بفتيت ورقاق فيفطر عليه جميع رمضان. وكان يدعو قائلاً: (اللهم انصر دينك ولا تنصر محموداً من الكلب محمود حتى يُنصر)، وكان يدعو أيضاً: (إنك يا رب إن نصرت، فدينك نصرت، فلا تمنعهم النصر بسبب محمود إن كان غير مستحق النصر).

قال ابن الأثير: "لم يكن بعد عمر بن عبد العزيز مثل الملك نور الدين، ولا أكثر تحرياً للعدل والإنصاف منه، وكانت له دكاكين بحمص قد اشتراها مما يخصه من المغانم، فكان يقتات منها، وزاد امرأته من كراها على نفقتها عليها، واستفتى العلماء في مقدار ما يحل له من بيت المال فكان يتناوله ولا يزيد عليه شيئاً، ولو مات جوعاً، وكان يكثر اللعب بالكرة، فعاتبه رجل من كبار الصالحين في ذلك فقال: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما أريد بذلك تمرين الخيل على الكر والفر، وتعليمها ذلك، ونحن لا نترك الجهاد)".

جهاده ضد الصليبيين: استهل نور الدين حكمه في سوريا بالقيام ببعض الهجمات على إمارة أنطاكيا الصليبية، واستولى على قلاع عدة في شمال الشام والساحل السوري، ثم قضى على محاولة "جوسلين الثاني" لاستعادة الرها التي فتحها عماد الدين زنكي، وكانت هزيمة الصليبيين في الرها أشد من هزيمتهم الأولى وأنكى، وعاقب نور الدين من خان المسلمين من أرمن الرها، وخاف بقية أهل البلد من المسيحيين على أنفسهم فغادروها.

كان نور الدين دائم السعي إلى استمالة القوى الإسلامية المتعددة في الشام وشمال العراق وكسب ودها وصداقتها؛ لتستطيع مواجهة العدو الصليبي، فعقد معاهدة مع معين الدين أنر حاكم دمشق سنة (٥٤١هـ–١١٤٧م) وتزوج ابنته، فلما تعرض أنر لخطر الصليبيين وكانت تربطه بهم معاهدة وحلف، لم يجد غير نور الدين يستجير به فخرج اليه، وسارا معاً واستوليا على بصرى وصرخند في جنوبي سوريا قبل أن يقعا في يد الصليبيين، ثم غادر نور الدين دمشق؛ حتى يبعث في قلب حاكمها الأمان، وأنه لا يفكر إلا في القضاء على الصليبيين؛ فتوجه إلى حصون إمارة أنطاكيا، وفي عام ٥٤٢هـ افتتح نور الدين محمود حصن أرتاح وغيرها (كفر لاثا وبصرفوت) من يد الفرنجة.

وعلى أثر ذلك ملك الرعبُ قلوبَ الصليبيين من نور الدين، وأدركوا أنهم أمام رجل لا يقل كفاءة وقدرة عن أبيه عماد الدين، وكانوا قد ظنوا أنهم قد استراحوا بموته، لكن أملهم تبدد أمام حماسة ابنه وشجاعته، وكانت سنه إذ ذاك ٢٩ سنة، لكنه أوتي من الحكمة والتدبير خيراً كثيراً.

وصلت الحملة الصليبية الثانية على الشام في سنة (٥٤٢هـ–١١٤٧م) بزعامة لويس السابع وكونراد الثالث، لكنها أخفقت في تحقيق أهدافها، وعجزت عن احتلال دمشق أهم مدن الشام؛ ويرجع الفضل في ذلك إلى صبر

المجاهدين واجتماع كلمة جيش المسلمين ووحدة صفهم، وكان للقوات التي جاءت مع سيف الدين غدوي وأخيه نور الدين أكبر الأثر في إخفاق تلك الحملة.

واستغل نور الدين هذه النكبة التي حلت بالصليبيين وضياع هيبتهم للهجوم على أنطاكيا بعد ان ازداد نفوذه في الشام، فهاجم في سنة (٥٤٤هـ-١١٤٩م) الإقليم المحيط بقلعة حارم الواقعة على الضفة الشرقية لنهر العاصي، ثم حاصر قلعة إنب، فنهض "ريموند دي بواتيه" صاحب أنطاكيا لنجدتها، والتقى الفريقان في (٢١ صفر ٥٤٤هـ-آخر حزيران ١١٤٩م) في معركة "إنب" وكسرهم الكسرة المشهورة، وقتل منهم ألفاً وخمس مئة وأسر مثلهم، وعاد إلى حلب بالغنائم العظيمة والأسارى، وبعث بعضها إلى أخيه مودود...

وكان من جملة القتلى صاحب أنطاكيا وغيره من قادة الفرنج، وأرسلت خوذة الأمير الصليبي ريموند المرصعة بالفضة إلى الخليفة العباسي في بغداد. وكان فرح المسلمين بهذا النصر عظيماً.

وفيها يقول ابن القيسراني الشاعر:

وكم له من وقعة يومها	عند ملوك الشرك مشهود
حتى إذا عادوا إلى مثلها	قالت لهم هيبته عودوا
مناقب لم تك موجودة	إلا ونور الدين موجود
وكيف لا نثني على عيشنا ال	محمود والسلطان محمود

وفيها افتتح نور الدين محمود أيضاً حصن فامية، وكان على حماة وحمص منه ضرر عظيم.

ضمّ دمشق: آمن نور الدين بضرورة وحدة الصف، وانتظام القوى الإسلامية المبعثرة بين الفرات و لبحر ووقوفها كالبنيان المرصوص أمام أطماع الصليبيين. وكانت دمشق أهم المدن وتقف حجر عثرة في طريق تلك الوحدة، فعزم نور الدين على ضمها، وكان "معين الدين أنر" صاحب السلطة الفعلية في دمشق يرتبط بعلاقات ومعاهدات مع الصليبيين، وبعد وفاته قام "مجير الدين أبق" باستلام الحكم بدمشق، وجرى على سياسة أنر في التعامل مع الصليبيين، بل أظهر ضعفاً ومذلة في التعامل معهم، وأعرض عن وحدة الصف وجمع الكلمة، وبلغ الهوان به أن وافق على أن يدفع أهل دمشق ضريبة سنوية للصليبيين مقابل حمايتهم، وصار رسل الفرنجة يدخلون دمشق لجمع الجزية المفروضة دون أن يستشعر حاكمها خجلاً أو هواناً.

عاد الملك العادل نور الدين محمود إلى حمص دمشق في عام ٥٤٦هـ ووقع له مع مجير الدين صاحب دمشق أمور حتى استنجد مجير الدين بالفرنج، فرحل عنها نور الدين، ثم نازلها وتراسلا على يد الفقيه برهان الدين البلخي وأسد الدين شيركوه الكردي وأخيه نجم الدين أيوب، ثم تحالف نور الدين ومجير الدين على أمر ورحل عنه.

ولم يسكت نور الدين على هذا الوضع المهين، واستغل شعور الغضب الذي أبداه الدمشقيون، فملك دمشق في ٥٤٩هـ من الأمير مجير الدين وساعده في ذلك بعض أهل دمشق على مجير الدين أبق؛ لزيادة ظلمه ومصادراته، فلما تحرك نور الدين لطلب دمشق، وافقه أهلها لما في نفوسهم من مجير الدين. وبالفعل نجح بمساعدتهم في الإطاحة بمجير الدين أبق وضمّ دمشق إلى دولته في سنة ٥٤٩هـ -١١٥٤م. كانت هذه الخطوة حاسمة في تاريخ الحروب الصليبية؛ فلقد توحدت بلاد الشام تحت زعامة نور الدين؛ من الرها شمالاً حتى حوران جنوباً، واتزنت الجبهة الإسلامية والجبهة الصليبية التي كانت تستغل حالة التشتت والتشرذم لمصلحتها وتوجه ضرباتها إلى دولة الإسلام حتى إن نور الدين لم يستطع نجدة عسقلان عندما هاجمها الصليبيون سنة (٥٤٨هـ-١١٥٣م)؛ لأن دمشق كانت

تسبب حائلاً دون تحقيق ذلك. بعد ضم نور الدين دمشق، صارت عاصمة الدولة وموحِّدة بلاد الشام من الشمال إلى الجنوب والشرق، واستقر نور الدين زنكي فيها، وانطلق منها لفتح مزيد من البلاد في الجنوب وتوسيع ملكه.

ضمّ مصر: كان الوزير طلائع بن رزيك وزير الخليفة العبيدي، وبعد نجاح نور الدين في ضم دمشق وإحكام سيطرته على بلاد الشام، لم يعد أمام الصليبيين للغزو والتوسع سوى طريق الجنوب؛ ولذا تطلع الصليبيون إلى مصر يسقيها الميدان الجديد لتوسعهم، وشجعهم على ذلك ضعف الدولة العبيدية الفاطمية في مصر، فاستولوا على عسقلان، وكان ذلك إيذاناً بمحاولتهم غزو مصر، مستغلين الفوضى في البلاد. وتحولت نياتهم إلى عزم، فقد قام "مدوين الثالث" ملك بيت المقدس بغزو مصر سنة (٥٥٨هـ-١١٦٣م) محتجاً بعدم التزام الفاطميين دفع الجزية له، غير أن حملته خسرت وأُجبر على الانسحاب.

أثارت هذه الخطوة الجريئة مخاوف نور الدين، فأسرع بشن حملات على الصليبيين في الشام حتى يشغلهم عن "استعداد لغزو مصر، ودخل في سباق مع الزمن للفوز بمصر وضمها إلى ملكه في الشام. فأرسل عدة حملات من دمشق تحت قيادة "أسد الدين شيركوه" وبصحبته ابن أخيه الشاب اليافع صلاح الدين الأيوبي، ابتدأت من سنة (٥٥٥هـ-١١٦٤م) واستمرت نحو ٥ سنوات، وخسرت عدة مرات؛ بسبب خيانة شاور الوزير الأول للخليفة الفاطمي وتعاونه مع الصليبيين والفساد المتفشي. ولكن أسد الدين لم يتراجع، ففي كل مرة كان يعيد تجهيز جيشه وينطلق من جديد بأوامر نور الدين في دمشق حتى نجحت بعد سباق محموم مع الصليبيين في الظفر بمصر سنة (٥٦٤هـ-١١٦٩م)، وتولى شيركوه الوزارة للخليفة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين. على أنه لم يلبث أن توفي بعد شهرين فخلفه في الوزارة صلاح الدين الأيوبي، فانضمّت مصر إلى ملك نور الدين محمود في الشام.

فارس مسلم يرمي فارسا صليبيا ويصرعه

معركة تل حارم التاريخية: هاجم الصليبيون في سنة ٥٥٨هـ جزءاً من جيش نور الدين زنكي حاكم حلب - وهو رر الرها - على حين غفلة، فأكثروا فيهم القتل، ونجا نور الدين في اللحظة الحاسمة وهرب، وقد عرفت هذه المعركة بـ "يوم البقيعة"، ولحق به من سلم من الجند حتى اجتمعوا به. وكان مما قاله له بعضهم: "ليس من الرأي أن نقيم هاهنا، فإن الفرنج ربما حملهم الطمع على المجيء إلينا فنُؤخذ ونحن على هذه الحال، فقال لهم: "إذا كان معي ألف فارس لقيتهم ولا أبالي بهم. ووالله، لا أستظل بسقف حتى آخذ بثأري وثأر الإسلام". وكان الفرنج قد عجموا ملاحقته إلى حمص بعد انتصارهم؛ لأنها كانت أقرب البلاد إليهم، ولما بلغهم نزول نور الدين بينها وبينهم قالوا: لم يفعل هذا إلا وعنده قوة يمنعنا بها، فراسلوه يطلبون منه الصلح فلم يجبهم.

وبعدها بدأ نور الدين - رحمه الله - بتجهيز قواته؛ استعداداً لمواجهة الفرنج والأخذ بالثأر، وكان قد خصص أموالاً من بيت المال ينفقها على العلماء والعباد والفقراء، فقال له بعض أصحابه لما رأى كثرة إنفاقه: "لو استعنت بهذه

الأموال في هذا الوقت لكان أصلح". فغضب عليهم وقال: "والله إني لا أرجو النصر إلا بأولئك، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم. كيف أقطع صلاة قوم يقاتلون عني وأنا نائم على فراشي بسهام لا تخطئ، وأصرفها على من لا يقاتل عني إلا إذا رأني بسهام قد تصيب وقد تخطئ؟! وهؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال، كيف يحل لي أن أعطيه غيرهم".

وخرج الفرنج من عسقلان في العام الثاني سنة ٥٥٩ هجرية "لقتال أسد الدين شيركوه" بمصر، فاستغل نور الدين فرصة خروجهم وأرسل إلى الأمراء المسلمين يطلب العون والنصرة فجاؤوا من كل فجّ، وكتب إلى الزهّاد والعباد يستمدّ منهم الدعاء، ويطلب أن يحثوا المسلمين على الغزو والجهاد في سبيل الله.

وأخذ في الاستعداد بقوة لفتح تل حارم وقلعتها الحصينة التي تتحكم في الطريق بين أنطاكيا وحلب وحمص (تقع الآن في محافظة إدلب بسوريا). وكاتب نور الدين أمراء الشام ليأتوا بجنودهم، فأرسل إلى أمير الموصل والجزيرة، وإلى أمير ماردين وأمير كيفا، فاجتمعت الجيوش الإسلامية وتوجهت لحصار تل حارم. فحاصرته ونصب المجانيق عليها. وجاءت جموع الصليبيين، خاصة أمراء الساحل، وبالغوا في تقوية جيوشهم وحشد أبطالهم وشجعانهم ورهبانهم وقساوسهم، والجميع تحت قيادة أمير أنطاكيا «دي كورتناي» ومعه شيطان الفرنج «ريمون الثالث» أمير طرابلس أشد الناس شكيمة على المسلمين، وأمير الأرمن، واستعدوا للدفاع عن تل حارم. وقبيل المعركة انفرد نور الدين بنفسه تحت تل حارم وسجد لربه عز وجل، ومرّغ وجهه وتضرع، وقال:

(يا رب! هؤلاء عبيدك وهم أولياؤك، وهؤلاء عبيدك وهم أعداؤك: فانصر أولياءك على أعدائك. أين فضول محمود في الوسط؟): يشير إلى أنك يا رب إن نصرت المسلمين فدينك نصرت، فلا تمنعهم النصر بسبب محمود إن كان غير مستحق للنصر. وقال: **(اللهم انصر دينك ولا تنصر محموداً، من هو محمود الكلب حتى يُنصر)**

والتقى الجيشان الإسلامي والصليبي عند تل حارم في يوم ليلة القدر المباركة؛ أي: يوم ٢٦ رمضان سنة ٥٥٩هـ—٢٣ آب ١١٦٤م، وقد وضع نور الدين خطة ذكية في القتال: تقوم على استدراج فرسان الصليبيين لمطاردة وهمية مع ميمنة المسلمين التي ستنهزم من أمامهم، فينفرد بقية الجيش الإسلامي بمشاة الجيش الصليبي، فإذا فرغوا منهم، استدارت ميمنة المسلمين المنهزمة وعادت إلى القتال، فيقع فرسان الجيش الصليبي في الكماشة وهو ما نجح بالفعل. وكان انتقام نور الدين من الصليبيين رهيباً، إذ قتل منهم عشرة آلاف صليبيّ، وأسر عشرة آلاف آخرين أو يزيد، واستعاد المدينة من قبضتهم. ووقع في الأسر عظماء الأعداء وقادتهم، مثل أمير أنطاكيا «دي كورتناي»، وأمير طرابلس «ريمون الثالث»، و«رينالد دي شاتيون» المعروف بأرناط، ومقدم الداوية، وفرسان المعبد وحاكم قيليقيا البيزنطي (عدا أمير الأرمن الذي لم يؤسر). وفي اليوم الثاني، استولى نور الدين على حارم" بعد أن أجلى الفرنج عنها، وكان ذلك فتحاً كبيراً ونصراً مبيناً أعاد إلى المسلمين الهيبة في قلوب أعدائهم، وأعز الله جنده وأولياءه في هذا الشهر المبارك. وكان يوماً عظيماً انكسر به الصليبيون مدة طويلة.

وفتح الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي الشهيد بانياس عنوة في سنة ٥٦٠هـ، وكان معه أخوه نصير الدين فأصابه سهم فأذهب إحدى عينيه، فقال له أخوه نور الدين: (لو كشف عمّا أُعدّ لك من الأجر، لتمنيت ذهاب الأخرى)، فحمد الله على ذلك.

ونجح صلاح الدين في مصر في إقامة الأمن واستتباب الأمور وتثبيت أقدامه في البلاد، وجاءت الفرصة المناسبة لإسقاط الدولة العبيدية؛ فقطع الدعاء للخليفة الفاطمي ودعا للخليفة العباسي في أول جمعة من سنة ٥٦٧هـ—أيلول ١١٧١م). كان لدخول مصر تحت حكم دولة نور الدين محمود دوي هائل، لا في مملكة بيت المقدس وحدها بل في الغرب الأوروبي كله، وارتفعت الأصوات لبعث حملة جديدة تعيد إلى الصليبيين في الشام هيبتهم وسلطانهم، وتوجه

لمصر ضربات قوية، غير أن حملتهم على مصر لم تحقق أهدافها؛ بسبب يقظة صلاح الدين في مصر. وبنجاح نور الدين في ضم مصر إلى لحمة العالم الإسلامي، يكون قد حقق الحلقة الأخيرة من حلقات جبهة الجهاد الإسلامي الموحد تمهيداً للضربة القاضية.

وفاته: بينما كان نور الدين محمود يستعد للسير إلى مصر، فاجأته الحُمّى، واشتد به المرض حتى لقي الله في ٣١ شوال ٥٦٩هـ-١٥ أيار ١١٧٤م، وهو في التاسعة والخمسين من عمره، وتوفي ودفن في دمشق. قال ابن تغري في "النجوم الزاهرة":

(قال ابن عساكر: "ولد سنة ٥١١هـ وكان معتدل القامة، أسمر اللون، واسع الجبهة، حسن الصورة، لحيته شعرات خفيفة في حنكه، ونشأ على الخير والصلاح. وكان زنكي يقدمه على أولاده، ويرى فيه مخايل النجابة. وحج في أيام سلطنته نيفاً وخمسين حجة".

قلت: ومصر أيضاً من جملة فتوحاته، وأيضاً ما فتحه صلاح الدين من البلاد والحصون هو شريكه في الأجر والثواب، ولولاه أيش كان صلاح الدين! حتى ملك مصر من أيدي تلك الرافضة من بني عبيد خلفاء مصر وقوة بأسهم!

وكان ابتداء مرضه أنه ختن ولده الملك الصالح إسماعيل يوم عيد الفطر فهنّئ بالعيد والطهور، فقال العماد الكاتب - رحمه الله -:

عيدان فطر وطهر ... فتح قريب ونصر
كلاهما لك فيه ... حقاً هناء وأجر

فمرض بعد عوده من صلاة العيد بالخوانيق، وما كان يرى الطب على قاعدة الأتراك فأشير عليه بالفصد في أي مرضه فامتنع، وكان مهيباً فما روجع، فمات يوم الأربعاء الحادي عشر من شوال، ودفن بالقلعة ثم نقل إلى مدرسته التي أنشأها مجاورة الخواصين بدمشق، وعاش ثمانياً وخمسين سنة.. وكانت سلطنته ٢٨ سنة و٦ أشهر. ورثاه العماد الكاتب عدة مراثٍ، ومن ذلك قوله:

يا ملكاً أيامه لم تزل ... لفضله فاضلةً فاخره
ملكت دُنياك وخلفتها ... وسرت حتى تملك الآخره

قال أبو اليسر شاكر بن عبد الله التتوخي المعري: "تعدى بعض أمراء صلاح الدين بن أيوب على رجل وأخذ منه، فجاء إلى صلاح الدين فلم يأخذ له بيد، فجاء إلى قبر نور الدين وشق ثيابه وحثا التراب على رأسه وجعل يستغيث: يا نور الدين أين أيامك! ويبكي.

فبلغ صلاح الدين فاستدعاه وأعطاه ماله فازداد بكاءه، فقال له صلاح الدين: ما يبكيك وقد أنصفناك. فقال: إنما أبكي على ملك أنصفتُ ببركاته وبعد موته، كيف يأكله التراب ويفقده المسلمون!) انتهى.

كان لموت نور الدين محمود رجّة عنيفة في العالم الإسلامي، وشعر الناس بحجم الخسارة وعظم المصيبة التي حلت بهم.

آثار نور الدين في التاريخ: كان نور الدين مؤمناً بالإسلام وعظمته: وهو ما جعله يحقق ما عجز عنه غيره ممن كانوا أوسع منه بلاداً وأعظم مالاً ونفقة، ولم يكن يحارب الصليبيين على أنهم نصارى بل على أنهم أجانب عن

بلاد العرب والمسلمين جاؤوا لاحتلال الأرض وتدنيس المقدسات؛ ولذا لم يمسّ نصارى بلاده بسوء، بل كانوا عنده مواطنين لهم حق الرعاية الكاملة، فلم يهدم كنيسة ولا آذى قسّاً أو راهباً.

ولم يشغله الجهاد وتوحيد البلاد عن إقامة المدارس والمساجد، حتى يلفت مدارسه ومساجده المئات، لا يخلو منها بلد دخل تحت سلطانه. وكان إذا أنشأ مدرسة أوسع النفقة في بنائها، واجتهد في اختيار شيوخها، وأوقف عليها الأوقاف الكثيرة، وكانت مدارسه تُعنى بالقرآن والحديث، وكان له شغف بالحديث وسماعه من أجلة المحدثين، وأجازه بعضهم بالرواية.

وتوسع في إقامة البيمارستانات في كل بلدة تحت حكمه إلى جانب إنشاء المدارس، وجعلها للفقراء الذين لا تمكنهم دخولهم من الاستعانة بالأطباء والحصول على الدواء. وحرص على إقامة الخانات على الطرق؛ لينزل بها المسافرون للراحة أو المبيت، وجعل عليها من يحرص عليها ويحافظ على زائريها. وكان نور الدين مؤمناً صادق الإيمان، ومجاهداً عظيماً، وزاهداً متصوفاً لا ينام إلا منتصف الليل ثم ينهض فيتوضأ، ويقبل على الصلاة والدعاء، حتى يقبل الصباح فيصليه ثم يأخذ في شؤون دولته. ولم يكن له راتب يتقاضاه؛ لزهده في أبهة الحكم والسلطان، وإنما كان يأكل ويلبس من مُلكٍ له كان قد اشتراه من ماله، ولم يكن له بيت يسكنه، وإنما كان مقامه في غرفة في قلعة البلد الذي يحل فيه.

تثبيته مذهب السنة والجماعة: قال عنه ابن كثير: "كان يقوم في أحكامه بالمعاملة الحسنة واتباع الشرع المطهر... وأظهر ببلاده السُّنة وأماتَ البدعة".

في حلب: إن كان لبني حمدان فضل في مقارعة الروم، فالفضل يذكر لأهل الفضل. ولكن بني حمدان قد ضعفوا وكانوا يعتنقون المذهب الإماميّ. وقد أضاف سعد الدولة أبو المعالي (٣٥٦-٣٨١هـ/ ٩٤٤-٩٧٦م) للأذان عام ٣٦٧هـ-٩٧٧م عبارة (حي على خير العمل، محمد وعلي خير البشر)، واستمر الأذان على ذلك في عهود حكم آل مرداس وآل عقيل في حلب. وازداد نفوذ الشيعة الإسماعيلية زمن رضوان بن تتش؛ لذا كان المذهب الشيعي متغلغلاً في حلب؛ لذلك قام نور الدين بالخطوات الآتية:

١. أزال السلطان نور الدين محمود بن زنكي في سنة ٥٤٣هـ من حلب الأذان بـ (حي على خير العمل)، سبباً الصحابة بها، وقال: (من عاد إليه قتلته)، فلم يعد أحد. كان ذلك في رجب عام ٥٤٣هـ-١١٤٨م؛ أي: بعد عشرين من دخوله حلب واستقراره فيها. فهاج الإسماعيلية وماجوا ولكن سرعان ما سكنوا خوفاً من ردة فعل السلطان.

٢. قام بعد ذلك بإبعاد بعض زعماء الشيعة (الذين يثيرون الفرقة بين المسلمين) عن حلب، منهم والد المؤرخ ابن أبي طي.

٣. أنشأ المدارس؛ لتدريس العلوم الإسلامية إحداهما حنفية وهي المدرسة الحلاوية (٥٤٣هـ-١١٤٨م)، وأسند التدريس فيها إلى برهان الدين أبي الحسن علي بن الحسن البلخي الذي استدعاه من دمشق. والمدرسة النورية الكبرى، والمدرسة النورية الصغرى (٥٤٤هـ-١١٤٩م) لتدريس المذهب الشافعي، وتولى التدريس فيها قطب الدين النيسابوري. والمدرسة العصرونية والمدرسة الشعيبية وكلاهما مدارس شافعية أيضاً.
   - أوقف زاويتين بالمسجد الجامع في حلب وخصص إحداهما لفقهاء الحنابلة والأخرى للمالكية.
   - أنشأ خوانيق للصوفية، وكانت في ذلك العصر مكاناً للعبادة.
   - كان أول من أنشأ داراً للحديث.

دمشق – الشام: كانت دمشق العاصمة وأهم المدن في عهد نورالدين زنكي، وقد عني بإنشاء كثير من المباني التي تحمل اسمه مثال:

- أنشأ في دمشق مدارس التعليم الشرعي وركز اهتمامه على المذهبين الحنفي والشافعي. فأنشأ للحنفية المدرسة النورية الكبرى والمدرسة النورية الصغرى. وأنشأ المدارس للمذهبين المالكي والحنبلي.
- بنى أول دار للحديث وأكبرها، ووكل أمرها إلى الحافظ الكبير ابن عساكر.
- بنى ديراً للأيتام لتخريج العلماء وخصص لها الأوقاف الكثيرة.

في مصر: لم يفرض السلطان نور الدين محمود مذهب السنة في مصر بالقوة على حساب الشيعة الإسماعيلية على الرغم من قدرته على ذلك عن طريق وزيره صلاح الدين الأيوبي، وإنما جرى الرفق بالشيعة وتوحيد الأحكام الإسلامية في مصر مع باقي الدولة بهدوء وروية.

الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، موحّد العراق والشام ومصر ومحرر بيت المقدس (٥٣٢–٥٨٩هـ/١١٣٨–١١٩٣م)

لا يمكن التطرق إلى سيرة البطل صلاح الدين دون معرفة عمّه أسد الدين شيركوه بن شاذي الدوينيّ، المولود في بلدة "دوين" أطراف أذربيجان عام ٥٠٠هـ تقريباً، وهو كردي الأصل. وشيركوه بالعربية: أسد الجبل، فشير باكردية: أسد، وكوه: جبل. نشأ، هو وأخوه نجم الدين أيوب (والد صلاح الدين) بتكريت. لما كان أبوهما شاذي "ومعناها فرحان" نقيب قلعتها، وكان نجم الدين أسنّ من أسد الدين. ويغلب عليه العقل والحكمة والتؤدة، في حين كان أسد الدين كالشهاب الحارق لا يصبر على عدوان حرمات اوانتهاكها. ولم يكن الأيوبيون مماليك، قال صاحب مرآة الزمان: "وهذا من غلطات ابن القادسي ما كان شادي مملوكاً قط، ولا جرى على أحد من بني أيوب رقّ، وإنما خدم شادي بهروز الخادم فاستنابه بقلعة تكريت"... ونجم الدين أيوب (والد صلاح الدين) هو الأخ الأكبر لأسد الدين شيركوه، وهما من الأكراد الروادية وهو الأصح.

قدم نجم الدين أيوب وأخوه أسد الدين شيركوه إلى العراق وخدما الأمير مجاهد الدين بهروز بتكريت (وكانت تكريت لبهروز أعطاها له السلطان مسعود ابن غياث الدين محمد بن ملكشاه السلجوقي وولاه شحنة العراق). فأقام نجم الدين بتكريت ومعه أخوه أسد الدين إلى أن انهزم الأتابك زنكي بن آق سنقر (والد عماد الدين زنكي) من الخليفة المسترشد في سنة ٥٢٦هـ ووصل إلى تكريت وبها نجم الدين أيوب فأقام له المعابر بالسفن، فعبر زنكي "دجلة" من هناك وبالغ نجم الدين في إكرامه فرأى له زنكي ذلك. وأقام نجم الدين بعد ذلك بتكريت إلى أن خرج منها بغير إذن بهروز. وسببه أن نجم الدين كان يرمي يوماً بالنشاب فوقعت نشابة في مملوك بهروز فقتلته من غير قصد. فاستحى نجم الدين من بهروز، فخرج هو وأخوه إلى الموصل (ويقال: إن بهروز هو الذي أخرجهما؛ لأنه كان يكره زنكي).

ورحلوا عن قلعة تكريت سنة ٥٣٢هـ في الليلة التي ولد فيها صلاح الدين يوسف بن أيوب. قرر الأخوان التوجه إلى أمير الموصل "عماد الدين زنكي" والالتحاق بخدمته، فسارا إليه فأحسن استقبالهما وشكر صنيعهما معه ومع والده، وضمهما إلى أمرائه وقادته وبالغ في إكرامهما وأقطعهما اقطاعاً حسنة، وجعل نجم الدين والياً على بعلبك، وأسد الدين من مقدمي جيوشه، إذ كان عماد الدين زنكي خبيراً بمعادن الرجال.

ظل أسد الدين شيركوه في خدمة عماد الدين زنكي، وخاض الحروب معه ضد الصليبيين، وكان معه يوم فتح الرها. وكان عماد الدين يحبّه ويقدره؛ لأنه كان مثله بطلاً شجاعاً لا يهاب الموت، وظل هكذا حتى كان معه في معسكره ليلة أن قُتل عماد الدين عام ٥٤١هـ وعندها قام اسد الدين شيركوه بعمل في غاية الأهمية، ذلك أنه حفظ معسكر المسلمين من الفوضى التي تحدث عادة عند مقتل القائد، ثم قام بإعطاء خاتم الملك الخاص بعماد الدين لولده نور الدين محمود زنكي كناية عن خلافته لأبيه الشهيد، ثم قام بحراسة نور الدين محمود حتى وصل سالماً آمناً إلى مدينة "حلب"، فعرف نور الدين هذا الجميل لأسد الدين، وصار من أقرب الناس إليه.

ومن ذلك اليوم أصبح أسد الدين شيركوه قائد جيوش نور الدين محمود الأمير الجديد على مشق والشام وأصبح أخلص أمراء الجيوش الشامية وأقواهم، ورجل المهام الصعبة الذي يعتمد عليه نور الدين محمود في النوازل وصعاب الأمور، وكانت له المواقف المشهورة والبطولات المشهورة.

الأسد المعلم: كان أسد الدين شيركوه الأستاذ الأول والمعلم الحقيقي والمكتشف البارع لقدرات ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب ومواهبه أيضاً، وذلك منذ كان صلاح الدين فتى يافعاً. فقد رأى فيه شيركوه، بعين الخبير الفاحص، أن الفتى الصغير يجمع بين حكمة أبيه نجم الدين أيوب، وشجاعة عمه أسد الدين شيركوه، وزهد أميره نور الدين، وهي خصال ثلاث كفيلة أن ترشح هذا الفتى للقيادة. وتعهد الأسد المعلم شيركوه رعاية ابن أخيه وتدريبه على فنون القتال وقيادة الجيوش وأساليب إدارة المعارك دفاعاً وهجوماً، وتولى تعليمه فنون السياسة والمناورة والمفاوضة، حتى نضج الفتى اليافع وصار شاباً قوياً يصحب عمّه في كل مكان وفي مدن الشام، وصار بمنزلة الذراع اليمنى لأسد الدين شيركوه. ومن لا يعرفهما يظن أن صلاح الدين هو ابن أسد الدين شيركوه، ولعل تربية صلاح الدين وتدريبه هو أفضل أعمال أسد الدين شيركوه وخير تركة للأمة الإسلامية.

الأسد فاتح مصر: كان لأسد الدين شيركوه رؤية ثاقبة في ضرورة توحيد العالم الإسلامي للانتصار ضد الوجود الصليبي، وفي ضرورة ضم الديار المصرية إلى الشام وضرورة فتحها وإزالة الدولة العبيدية الإسماعيلية الخبيثة (التي تسمى زوراً بالفاطمية) التي تسببت في ضياع بيت المقدس سنة ٤٩٢ هجرية؛ لذلك كان شيركوه دائم الإلحاح على نور الدين ملك دمشق وحلب والشام لكي يفتح مصر؛ ولذلك كان نور الدين يترقب الفرصة المناسبة.

كانت الأوضاع في مصر شديدة الاضطراب؛ فالخلاف على أشده بين شاور وضرغام على منصب الوزارة، والخليفة العاضد الفاطمي ليس له من الأمر شيء، ولقد انتصر ضرغام على شاور وأخرجه من مصر فذهب مستنجداً بالملك العادل نور الدين محمود، وضمن له ثلث إيراد مصر، وأن يكون نائبه في مصر إن هو أعانه على استعادة وزارته المفقودة. فوجد نور الدين الفرصة مناسبة لفتح مصر وضمّها إلى الشام، فكلف قائد جيوشه أسد الدين شيركوه بالتوجه إلى مصر لذلك الغرض. ففرح الأسد بهذه المهمة، وخرج من دمشق عام ٥٥٩هـ، وفي صحبته تلميذه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبي، ومعه ألف رجل فقط.

الأسد المرعب: وصل أسد الدين شيركوه على رأس جيش دمشق إلى مدينة بلبيس، واشتبك مع جيش ضرغام وانتصر عليه، ثم واصل تقدمه إلى القاهرة حتى قضى على ضرغام وأعاد شاور إلى منصب الوزارة، وأقام هو بظاهر القاهرة انتظاراً للوفاء بالعهود والمواثيق مع شاور، ولكن شاور غدر وخان به وأمره بالرجوع إلى دمشق، بل هدده، فما كان من الأسد شيركوه إلا أنه دخل مدينة "بلبيس" المحصنة وامتنع بها وأرسل إلى شاور أنه لن يتحرك من مكانه إلا بأمر قائده الملك العادل نور الدين محمود. ولما كان شاور رجلاً لا تهمه إلا مصالحه الشخصية ومنصبه، أرسل إلى الصليبيين في الشام يستنجد بهم على أسد الدين، وكان الصليبيون منذ أن توجه أسد الدين إلى مصر قد أيقنوا الهلاك إذا فتح الشاميون مصر، فلما جاءتهم استغاثة شاور فرحوا بها وأرسلوا جيوشهم، وقد بذل لهم شاور أموالاً طائلة من أجل الانتصار على بني دينه. اجتمعت الجيوش الصليبية وعساكر شاور الخائن وحاصروا الجيش الشامي وأسد الدين شيركوه في بلبيس ٣ أشهر وهو ممتنع بها مع أن سورها ليس بالعالي، وليس له خندق ولا أي تحصينات، ومع ذلك لم يجسروا على اقتحام المدينة خوفاً من أسد الدين شيركوه الذي ظل يقاتلهم ليل نهار بأنف رجل ليس غير، وهم عشرات الألوف. ثم حدث الصلح على جلاء الطرفين من مصر.

قديماً قالوا: "الفضل ما شهد به الأعداء"، فاسمع الشهادة من أحد الصليبيين الذين شاهدوا أسد الدين شيركوه يوم حصار بلبيس ثم يوم الصلح، قال: (أخرج أصحابه بين يديه وبقي في آخرهم وبيده عود من حديد يحمي

ساقتهم، والمصريون والفرنج ينظرون إليه، فتقدمت منه وقلت له: "أما تخاف أن يغدر بك هؤلاء المصريون والفرنج، وقد أحاطوا بك وبأصحابك ولا يبقى لكم بقية؟". فقال شيركوه: يا ليتهم فعلوه حتى كنت ترى ما أفعله، كنت، ولله، أضع السيف فلا يقتل منا رجل حتى يقتل منهم رجال، والله، لو أطاعني هؤلاء - يعني جنوده - لخرجت إليكم من أول يوم - يعني الحصار - ولكنهم امتنعوا. فقام هذا الصليبي بالتصليب على صدره وقال: كنا نعجب من فرنج هذه البلاد ومبالغتهم في صفتك وخوفهم منك، والآن فقد عذرناهم).

العزيمة الفولاذية: رجع أسد الدين شيركوه إلى الشام وهو معلوءٌ غيظاً من "شاور" وزير مصر الخائن. ثم وافق نور الدين سنة ٥٦٢هـ على إرساله ثانيةً، وانطلق أسد الدين في جيش يقدر بالفين من المقاتلين. أسرع "شاور" كعادته وأرسل إلى الصليبيين بالشام يستنجد بهم، فجاؤوه بألوف مؤلفة من أجل إدراك ثأرهم مع أسد الدين وتحقيق مبتغاهم باحتلال مصر، وكان أسد الدين يتحرك بسرعة لخفة جيشه، فوصل إلى الصعيد وفتحه ثم عسكر في منطقة البابين "قريباً من محافظة المنيا الآن". وقد رفعت إليه الجواسيس الأخبار عن ضخامة الجيش الصليبي ومن معه من عساكر شاور، فعقد اجتماعاً مع قادة جيشه فأشاروا جميعاً بالرجوع إلى الشام لقلة عددهم وتسليحهم وبعدهم عن أوطانهم، فوقف أسد الدين كالطود العظيم وأصرّ على القتال واستعان بالله ووافقه ابن أخيه صلاح الدين.

ثم قام أسد الدين شيركوه بوضع خطة عسكرية غاية في الذكاء؛ إذ إنه استدرج معظم الجيش الصليبي لسلب الجيش المسلم ثم هجم هو في كتيبة منتقاة من خلاصة الأبطال على مؤخرة الجيش الصليبي، فوضعه في شبه دائرة، وانتصر انتصاراً عظيماً لم يسمع بمثله في التاريخ كما يقول المؤرخ ابن الأثير. بعد معركة البابين توجه أسد الدين وعسكره الشامي إلى الإسكندرية بعد أن استدعاه أهلها الذين أرادوا نصرة إخوانهم المجاهدين الشاميين، ثم ترك بها حامية يقودها البطل الشاب صلاح الدين (وعمره حينئذ ٣٠ سنة)، ثم توجه إلى الصعيد لمواصلة الفتح، فانتهز الصليبيون الفرصة وحاصروا الإسكندرية حصاراً عنيفاً طوال تسعة أشهر، فعاد الأسد لنصرة أهل الإسكندرية والجيش الشامي بقيادة ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي، فخاف الصليبيون منه خوفاً شديداً جعلهم يطلبون منه الصلح، فاشترط عليهم مغادرة مصر ولا يتملكوا منها قرية واحدة فوافقوا. فرجع إلى الشام منصوراً وهو عازم بإذن الله على فتح مصر في الغزوة القادمة.

وأقام أسد الدين في "حمص" عندما جاءته رسالة نور الدين محمود بالقدوم إلى حلب استعداداً لإنقاذ مصر، فركب على العجوز الذي جاوز الستين فرسه بعد صلاة الفجر وانطلق بأقصى سرعة حتى وصل "حلب" قبيل الغروب، وهذا الأمر لم يتسن لأحد من الناس سوى الصحابة رضوان الله عليهم أن يقطعوا هذه المسافة الطويلة في هذا الوقت الوجيز، فسُرّ نور الدين بذلك وجهزه بجيش مكون من ألفي فارس. وقام أسد الدين بجمع ستة آلاف فارس آخر من متطوعة الشام لفتح مصر، وانطلق الأسد يزأر ويتوعد الصليبيين والخونة المنافقين في مصر.

وكان الصليبيون يفزعون من ذكر اسم أسد الدين شيركوه، فلقد كان جاثومهم المفزع الذي يقضّ مضاجعهم، فلما جاءتهم الأخبار بقدوم الأسد وعسكره الشامي على جناح السرعة أجمعوا أمرهم على الرحيل من مصر بعد أن هزموا بها مرتين من قبل على يد أسد الدين، وبالفعل رحلوا مدحورين هاربين، ودخل الأسد المظفر القاهرة فاتحاً منتصراً من غير أن يشهر سيفاً واحداً هذه المرة، فلقد نصره الله عز وجل بالرعب.

لقي شاور جزاء خيانته وعمالته للصليبيين، فقد أمر العاضد الفاطمي بإعدامه، وتولى أسد الدين شيركوه الوزارة في مصر، وبدأ بالتوحيد الفعلي بين مصر والشام تحت حكم نور الدين محمود. ولكن الأجل جاء إلى الأسد بتبحة صدرية قتلته في ٢٢ جمادي الآخر ٥٦٤هـ، بعد أن كلل جهاده بفتح مصر. ويقال: إنه خاض أكثر من ١٥٠ موقعة وتعرض للشهادة في كل موطن وسعى لها سعياً حثيثاً، ولكنه مات على فراشه؛ وصدق أبو بكر الصديق رضي الله عنه حين قال: "**احرص على الموت توهب لك الحياة**".

الحملات الصليبية لغزو مصر

يخطئ من يظن أن غزو مصر ابتدأ من الحملة الصليبية الأوروبية الخامسة على دمياط، والحملة الصليبية الأوروبية السابعة على دمياط أيضاً. إن محاولات الاستيلاء الصليبي على مصر الفاطمية كادت تنجح: بسبب خيانة الوزراء العبيديين (الفاطميين) وتخاذلهم. لكن جميع هذه المحاولات باءت بالخسران بفضل الله تعالى، ثم جهود الأبطال الثلاثة: المجاهد المسلم نور الدين محمود، ونائبه أسد الدين شيركوه، وابن أخيه صلاح الدين يوسف. لذلك كانت هذه الحملات الأولى لا تذكر استحياءً، أو إن ذكرت تذكر هامشياً.

الحقيقة أن هناك ٦ حملات صليبية لغزو مصر في المدة ما بين ١١٥٤–١١٦٩م قامت بها مملكة القدس الصليبية، بُعيد الحملة الصليبية الأوروبية الثانية:

(١) الحملة الصليبية الأولى على مصر بقيادة بلدوين الثالث، وسقوط عسقلان عام ٥٤٨هـ–١١٥٣م:

شرع ملك مملكة القدس بلدوين الثالث (٥٣٨–٥٥٨هـ/١١٤٣–١١٦٣م) في تعمير استحكامات غزّة عام ٥٤٥هـ تمهيداً للانقضاض على عسقلان، القاعدة الأخيرة للفاطميين في فلسطين المتاخمة حدودَ مصر، إذ إن غزو مصر لا بد له من الاستيلاء على عسقلان أولاً؛ لذا فهي أمنع الحصون بامتدادها من البحر على هيئة نصف دائرة كبيرة وباستحكاماتها القوية، وحرصت الدولة الفاطمية على شحنها بالذخائر والمؤن لكونها حصن مصر الأخير.

شعر الفاطميون بهذه الاستعدادات؛ وهذا ما دفعهم إلى الاستغاثة بنور الدين محمود، الذي كان يسعى إلى ضمّ دمشق إلى الاتحاد الإسلامي ضد الصليبيين، لكنه كان في موقف حرج مع حاكم دمشق. ظهر جيش بلدوين الثالث أمام أسوار عسقلان في ذي الحجة ٥٤٧هـ واستمر الحصار بضعة أشهر. كانت الدولة الفاطمية تمدّ أهل المدينة بالمعونة بحراً دون أن تتجرأ على شنّ هجوم برّي أو بحري. وأمام القذائف شبه المتواصلة اليومية طوال مدة الحصار، استسلمت الحامية (والتزم هذا الملك تأمين السكان)، ودخل منتصراً وضُمّت عسقلان إلى أملاك عموري الأول أو مليك الأول ولي العهد، كونت يافا وعسقلان آنذاك. وقويت بذلك شوكة الفرنج بتأمين حدود مملكة القدس الجنوبية. كان المفروض أن تكون مملكة القدس مُحاطة بعدوّين: السلجوقي الزنكي من الشمال والشرق، والعبيدي الفاطمي من الجنوب والغرب. لكن تخاذل الوزراء العبيديين جعل مصر عرضة لمطامع الصليبيين.

(٢) الحملة الصليبية الثانية على مصر بقيادة الملك أملريك الأول (أو عموري الأول) عام ٥٥٨هـ–١١٦٣م:

شرع عموري الأول أو أملريك الأول ملك مملكة القدس (١١٦٣–١١٧٤م) في حملته الأولى لغزو مصر عام ٥٥٨هـ بحجة عدم دفع الفاطميين الجزية المفروضة عليهم من قبل الملك بلدوين الثالث.

وكانت الدولة العبيدية في ضعف وصراع داخلي آنذاك. فلمّا مات الفائز، الخليفة العبيدي، كان وزيره الملك الصالح طلائع بن رُزّيك في وزارة مصر سبع سنين (كان الفائز معه كالمحجور عليه). كان الوزير طلائع آخر الوزراء الفاطميين الذين حركوا الأسطول والجيش لمحاربة الفرنج في صور وأسر كثيراً منهم، لكنه أدرك أنه لا يستطيع مواجهة المملكة اللاتينية في بيت المقدس، فأرسل إلى نور الدين صاحب دمشق يطلب إليه توحيد جهودهما، وكان رسول طلائع في هذه المهمة الأمير الشاعر "أسامة بن منقذ" الذي تبادل معه مجموعة من القصائد لتسهيل مهمته لدى نور الدين، وأوجد نوعاً من التعاون بين مصر الشيعية والشام السنية ضد الفرنج في الشام. وكان الوزير طلائع يطمح إلى تحويل الخلافة الفاطمية إلى نسله – كما فعل الجمالي – فاختار أصغر الأمراء الفاطميين وأجلسه على عرش الخلافة

وسماه (العاضد)، وزوجه من ابنته، عسى أن ترزق منه ولداً فيجتمع لبني رُزّيك الخلافة والملك. ولم تقبل نساء الدولة الفاطمية هذا الإجراء، فدبرت "ستّ القصور" عمة العاضد مؤامرة اغتيال طلائع. وقد تولى العاضد العبيدي الخلافة الفاطمية، فولى شاور بن مُجير السعدي الصعيد، ثم ثقل عليه وزيره الملك الصالح طلائع، فدبّر قتله.

فلما كان ١٠ رجب سنة ٥٥٦هـ (وقيل ١٩ رمضان ٥٥٦هـ) حضر "الصالح طلائع" إلى قصر الخلافة، فوثب عليه باطني فضربه بسكين وقتله، وكانت آخر كلمات طلائع وهو يلفظ آخر أنفاسه أسفه على أنه لم يعمل على غزو بيت المقدس واستئصال شأفة الفرنج... وتحذيره ابنه "العادل رزيك" من شاور حاكم الصعيد الذي لا يؤمن شره. حزن الناس عليه لحسن سيرته وأقيم المأتم عليه بالقصر وبالقاهرة ومصر. وقام بعده في الوزارة ابنه رزيك بن طلائع بن رزيك ولقب بمجد الإسلام. وفرح العاضد بقتل طلائع؛ ليستبد بالأمور من غير وزير، فدسّ إلى شاور بن مجير السعدي الذي تحرك من بلاد الصعيد وجمع أوباش الصعيد من العبيد والأوغاد وقدم إلى القاهرة لحرب رزيك. فخرج إليه رزيك بن طلائع وقاتله، والعاضد في الباطن مع شاور. فانهزم رزيك.

ودخل شاور إلى القاهرة وملكها وأخرب دور الوزارة ودور بني رزيك. واختفى الوزير رزيك حتى ظفر به شاور وقتله. وتولى شاور الوزارة، فعامل العاضد بأفعال قبيحة وأساء السيرة في الرعية، وأخذ أمرُ مصر في وزارته في إدبار. ولما كثر ظلمه خرج عليه أبو الأشبال ضرغام بن عامر من الصعيد، فخرج إليه شاور بدسته فهزمه ضرغام وقتل ولده الأكبر طيء، وخذل أهل القاهرة شاورَ لبغضهم إياه.

استغثّ عموري الأول ذلك، وأعلن أن هدف حملته إرغام مصر العبيدية على دفع الجزية، وأسهمت الأسبتارية إسهاماً فاعلاً في تجهيز هذه الحملة. وصل الجيش الصليبي إلى العريش دون مقاومة، ثم التقى والجيش الفاطمي بقيادة ضرغام، الذي هزم عند بيلوسيوم (أطراف مديرية الشرقية) ثم تابع الصليبيون تقدمهم نحو بلبيس حيث تحصّن ضرغام. استغل ضرغام والمصريون فيضان النيل فعمد إلى تحطيم السدود فساح الماء وأغرق الأرض وأرغمَ الملك الصليبي على الانسحاب والعودة إلى مملكة القدس.

كان نور الدين يراقب تطور الأوضاع السياسية بمصر وتحركات عموري الأول العسكرية بدقة متناهية. هرب شاور إلى الشام ودخل إلى السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي الشهيد، فالتقاه نور الدين وكرمه، فطلب شاور منه النجدة (أي إعادة وزارته) والعساكر وأطمعه في الديار المصرية، وقال له: (أكون نائبك بها وتقنع بما تعيّن لي من الضّياع، والباقي لك). وتعهد بسيادة نور الدين وبدفع ثلث خراج مصر بعد إقطاع الجند، وإبقاء عدد من أمراء الشام في مصر. وبعد تفكير طويل بين إحجام وإقدام (خوفاً من غدر الصليبيين بالعساكر الإسلامية، وحسباً لاحتمال غدر شاور إن هو سيطر على مصر)، ومشورة أسد الدين شيركوه أن المصريين يفضلون حاكماً مسلماً حتى بلادهم، على السيطرة الصليبية، أجابه نور الدين لذلك، وجهز له العساكر مع الأمير أسد الدين شيركوه بن شادي الكردي أحد أمراء نور الدين. وخرجوا من دمشق في ٢٠ جمادى سنة ٥٥٧هـ وكان مع أسد الدين شيركوه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادي في خدمته. وقام نور الدين بمرافقة الحملة بجيشه إلى ما يلي دمشق لحمايته من أي هجوم. وقام أيضاً بمشاغلة الصليبيين بالشام؛ ليُعمّي على جيشه الشامي المتجه إلى مصر.

(٢) الحملة النورية الأولى لمصر والحملة الصليبية الثالثة على مصر بقيادة عموري (وحصار بلبيس) عام ٥٦٩هـ-١١٦٤م:

لما علم ضرغام برجوع شاور بصحبة جيش نور الدين، استغاث بالملك عموري الأول أو أملريك الأول، وتعهد بمقابل بدفع جزية يقررها الملك الصليبي، وأن تدخل مصر في تبعية الصليبيين، وأجبر العاضد على توقيع الاتفاق.

لكنه بوغت بوصول شيركوه وشاور قبل أن يستطيع أملريك التحرّك. فلما وصلوا إلى القاهرة خرج إليهم أبو الأشبال ضرغام بن عامر فحاربهم أياماً إلى أن التقوا على باب القاهرة، وقتل ضرغام بعد أن تخلى عنه الجيش والناس والعاضد، واستقام أمر شاور. فكانت وزارة ضرغام تسعة أشهر.

واستولى شاور ثانياً على القاهرة؛ وكان خبيثاً سفاكاً للدماء. ولما ثبت أمره، ظهرت منه أمارات الغدر بأسد الدين شيركوه. فأشار صلاح الدين يوسف بن أيوب على عمه أسد الدين شيركوه بالتأخر إلى بلبيس. وكان أسد الدين لا يقطع أمراً دون صلاح الدين ففعل ذلك وخرج إلى بلبيس، وبعث أسد الدين يطلب من شاور رزق الجند أعني النفقة، فاعتذر وتعلل عليه. فكتب أسد الدين إلى نور الدين يخبره بما جرى، ودسّ شاور إلى الفرنج رُسُلاً يدعوهم إلى مصر، ويبذل لهم الأموال، فأسرع ملك القدس بالزحف إلى مصر مرة ثانية واجتمع الفرنج من الساحل وساروا من الداروم متفقين مع شاور على أسد الدين شيركوه.

فتهيأ أسد الدين لحربهم وحاربهم، فقوي الفرنج عليه وحاصروه بمدينة بلبيس نحو ٣ أشهر (من أول شهر رمضان إلى ذي القعدة) ووقع بينهم حروب وأمور.

وفجأة قرر عموري الأول مصالحة أسد الدين شيركوه على مالٍ للجلاء المزدوج للطرفين من مصر. الحقيقة أن أملريك الأول لم يستطع متابعة وجوده بمصر؛ بسبب الأخبار المزعجة لتعرّض ممتلكاته في الشام لضغوط جيوش نور الدين الفاعلة في الشام الذي استطاع أسرَ كلٍ من أمير أنطاكيا (بوهيمند الثالث) وأمير طرابلس (ريموند الثالث) في معركة تل حارم التاريخية في أثناء غياب ملك أورشليم بمصر. وبلغهم أن نور الدين قصد بلادهم من الشام فعند ذلك رجعت الفرنج، وأسرع أملريك الأول؛ ليتولى نيابة الحكم على أنطاكيا وطرابلس، وقد قام بدفع فدية كبيرة لتحرير أسر بوهيمند عام ١١٦٥م (في حين بقي ريموند بالسجن حتى ١١٧٣م). وعاد أسد الدين شيركوه إلى الشام وقد أصابه القهر بسبب الخائن شاور. كان شاور هو الفائز الحقيقي في هذا الصراع، فتخلص من ضرغام ومن الجيوش الشامية والصليبية على السواء، وأضحى طوال العامين اللاحقين الحاكم الفعلي المتفرد بمقاليد مصر.

ثم كان عام ١١٦٦م هادئاً نسبياً، وأرسل أملريك الأول مبعوثيه إلى الإمبراطورية البيزنطية طالباً زوجة بيزنطية من أجل التحالف الصليبي – البيزنطي. وفي أثناء هذا العام كان عليه التعامل مع غزوات نور الدين وتحركاته الذي دوّخهم واستولى على مدينة "بانياس".

قدوم أسد الدين شيركوه وإعادة شاور إلى وزارته بمصر (أخضر رقم ١)، ثم خيانة شاور واستقدامه الحملة الصليبية الثالثة على مصر لإخراج أسد الدين شيركوه (أحمر رقم ٢)، وبعد حصار بلبيس، جرى الجلاء للطرفين – عام ٥٥٩هـ–١١٦٤م

٤) الحملة النورية الثانية لمصر، والحملة الصليبية الرابعة على مصر بقيادة عموري (معركة البابين وحصار الإسكندرية) عام ٥٦٢هـ-١١٦٧م:

أقام شاور بالقاهرة على عادته يظلم ويقتل ويعتقل الناس، ولم يبق للعاضد معه أمر ولا نهي. وأقام أسد الدين شيركوه بدمشق في خدمة نور الدين إلى سنة ٥٦٢هـ، ثم عاد بعساكر الشام إلى مصر ثانياً. وسببه أن العاضد لما غلب عليه شاور كتب إلى نور الدين يستنجده على شاور، وأنه قد استبد بالأمر وظلم وسفك الدم. وكان في قلب نور الدين من شاور حزازة؛ لأنه غدر بأسد الدين شيركوه واستنجد عليه بالفرنج. وكان نور الدين يطمع إلى ضمّ مصر إلى الشام لتكوين فكيّ كماشة (نزّاعة) تطبق على الصليبيين وتخرجهم من دار الإسلام.

فخرج أسد الدين بعساكر الشام من دمشق في منتصف شهر ربيع الأول من سنة ٥٦٢هـ وسار أسد الدين شيركوه، ومعه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب حتى نزل برّ الجيزة غربي مصر على بحر النيل. وكان شاور قد أعطى الفرنج الأموال وأقطعهم الإقطاعات وأنزلهم دور القاهرة وبنى لهم أسواقاً تخصهم.

قدوم شيركوه (أخضر) استجابة للعاضد عام ٥٦٢هـ-١١٦٧م، واستقدام شاور الخائن الحملة الصليبية الرابعة على مصر (أحمر) ثم انتصار جيش المسلمين على الصليبيين في معركة البابين، ثم فتح الإسكندرية بمساعدة أهاليها، ثم جلاء الطرفين

وكان مقدم الفرنج الملك مري وابن نيرزان. فأقام أسد الدين على الجيزة شهرين، وعمّى مسيره إلى الصعيد ثم إلى برّ مصر والقاهرة في ٢٥ جمادى الآخرة في منطقة البابين القريبة من الأشمونين. وخرج إليه شاور والفرنج. الواضح أن الحامية في القاهرة لم تشترك في القتال.

ورتب شاور عساكره: فجعل الفرنج على الميمنة مع ابن نيرزان وعسكر مصر في الميسرة، وأقام الملك مري الفرنجي في القلب في عسكره من الفرنج.

ورتب أسد الدين عساكره، فجعل الأثقال في القلب وعليه صلاح الدين، وأمره ان لا يصدق العدو في القتال، ل يتظاهر بالانهزام حتى يفترّ عموري فيتبعه، في حين تسلّم أسد الدين الميمنة، وفي الميسرة الأكراد. فحمل الملك مري على القلب فتعتعه وكانت أثقال المسلمين خلفه فاشتغل الفرنج بالنهب، وحمل صلاح الدين على شاور فكسره وفرّق جمعه. وعاد أسد الدين إلى ابن أخيه صلاح الدين وحملا على الفرنج، فانهزموا، فقتلا منهم ألوفاً أسرا مئة وسبعين فارساً.

وهرب شاور والفرنج إلى القاهرة، لكن أسد الدين شيركوه لم يتعقبهم، بل سار نحو الفيوم شمال غرب النيل واستولى على الإسكندرية، فأقام صلاح الدين فيها، وسار أسد الدين إلى الصعيد فاستولى عليه وأقام فيها

يجمع أمواله. وخرج شاور والفرنج من القاهرة، فحصروا الإسكندرية أربعة أشهر وأهلها يقاتلون مع صلاح الدين، ويقوُّونه بالمال. وبلغ أسد الدين فجمع عرب البلاد وسار إلى الإسكندرية، فعاد شاور إلى القاهرة وراسى أسد الدين حتى تحقق الصلح بينهم، وأعطى شاور أسد الدين إقطاعاً بمصر وعجل له مالاً خمسين ألف دينار. فأجاب إلى ذلك، وشرط على الفرنج أن لا يقيموا بالبلاد ولا يتملكوا منه قرية واحدة، فأجابوا إلى ذلك واصطلحوا وعادوا إلى الشام (كما يقول ابن الأثير في الكامل في التاريخ).

فعاد أسد الدين إلى الشام ومعه صلاح الدين. واعتذر أسد الدين إلى الملك العادل نور الدين محمود بكثرة الفرنج والمال.

ورأى صلاح الدين لأهل الإسكندرية ما فعلوا فلما ملك مصر بعد ذلك أحسن إليهم. ثم إن الفرنج طلبوا سراً من شاور أن يكون لهم شحنة بالقاهرة ويكون أبوابها بأيدي فرسانهم وتحمل إليهم في كل سنة مئة ألف دينار، ومن سكن منهم بالقاهرة يبقى على حاله ويعود بعض ملوكهم إلى الساحل. فأجابهم شاور إلى ما طلبوا منه. كل ذلك تقرر بين شاور والفرنج، والعاضد لا يعلم بشيء منه.

(٥) الحملة الصليبية الخامسة على مصر بقيادة عموري (مذبحة بلبيس وحريق مصر)، والحملة النورية الثالثة لنجدة مصر عام ٥٦٣هـ–١١٦٨م:

بعد رجوعه في ١١٦٧م، تزوج الملك أملريك الأول من ماريه كومنينا، حفيدة بنت أخت الإمبراطور البيزنطيّ مانويل الأول كومنينوس. وفي عام ١١٦٨م تناقش أملريك ومانويل في التحالف الصليبي – البيزنطيّ ضدّ مصر. وكان وليم الصوري أحد سفرائه المبعوثين إلى القسطنطينية لتوقيع المعاهدة النهائية، بالرغم من أنّ أملريك الأول كان في صلح سلام مع شاور، لكنه اتهم شاور بمحاولته التحالف مع نور الدين، وبهذه الذريعة غزا أملريك مصر. وكان فرسان الأسبتارية من أكثر المؤيدين لهذا الغزو، بل كانوا هم المسؤولين عن إقناع الملك في غزو مصر، في حين امتنع فرسان المعبد أن يسهموا بأي شكل فيه.

الحملة الصليبية الخامسة على مصر بقيادة عموري عام ٥٦٣هـ–١١٦٨م ومذبحة بلبيس (أحمر رقم ١)

ثم انسحابها مع مقدم نجدة شيركوه (أخضر رقم ١)

تلتها الحملة الصليبية السادسة (أحمر رقم ٢)

على دمياط بمساندة الأسطول البيزنطي عام ٥٦٤هـ–١١٦٩م (بنفسجي)

وفي تشرين الأول/أكتوبر، من دون انتظار أي مساعدة بيزنطية (وفي الواقع من دون الانتظار لرجوع سفرائه)، غزا الملك أملريك الأول مصر، واستولى على بلبيس. وتعرّض سكانها من مسلمين وأقباط لمذبحة دموية وحشية، ومَن لم يُقتل منهم تعرّض لمهانة الاسترقاق. من ثم توجّه الملك المجرم أملريك الأول نحو القاهرة، إذ قام شاور بحرق مدينة الفسطاط، ثم عرض شاور (كما يقال) عليه مليوني قطعة ذهبية.

وأسرع نور الدين بإرسال شيركوه إلى مصر بعد استغاثة الخليفة العبيدي به، وبمجرد وصول أنباء مقدم جيش نور الدين إلى مصر، تقهقر أملريك الأول وانسحب إلى مملكة القدس، يجرّ معه خيبة الإخفاق وعار الفضيحة بمذبحة المصريين الأبرياء. يقول ابن تغري بردي في "النجوم الزاهرة":

(ثم جاءته كتب شاور والعاضد، فقال نور الدين لأسد الدين شيركوه: خذ العساكر وتوجه إليها. وقال لصلاح الدين: اخرج مع عمك أسد الدين. فامتنع، وقال: يا مولاي، يكفي ما لقينا من الشدائد في تلك المرة.

فقال نور الدين: لا بد من خروجك. فما أمكنه مخالفة مخدومه نور الدين المذكور، فخرج مع عمه وساروا إلى مصر. وبلغ الفرنج ذلك فرجعوا عن مصر إلى الساحل. وقيل: إن شاور أعطاهم مئة ألف دينار).

يقول ابن شداد: لقد قال لي السلطان صلاح الدين – قدس الله روحه – كنت أكرهُ الناسَ للخروج في هذه الدفعة وما خرجت من دمشق مع عمي باختياري. وهذا معنى قول القرآن: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ (البقرة: ٢١٦). وقام شيركوه بقتل شاور في يناير/كانون الثاني ١١٦٩م، بطلب من الخليفة العاضد (انظر فيما سيأتي). وصار شيركوه الوزير الجديد مكانه، لكنه توفي بعد شهرين، في آذار، وخلفه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي وزيراً للعاضد الخليفة الفاطمي بمصر. عدّ الملك أملريك الأول تعيين صلاح الدين نذير شؤم وخطر على الصليبيين، فأرسل رئيس قساوسة صور، طالباً النجدة من ملوك أوروبا ونبلائها، ولكن دون جدوى.

ويصف الإمام جلال الدين السيوطي هذه الحملات الصليبية في "حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة" بقوله: (لما قتل صاحب مصر الظافر، وصلت الأخبار إلى بغداد أن مصر قتل صاحبها، ولم يبق فيهم إلا صبي صغير، ابن خمس سنين، قد ولوه عليهم، ولقبوه الفائز. فكتب الخليفة المقتفي عهداً للملك نور الدين محمود زنكي على البلاد الشامية والمصرية، وأرسله إليه. فسار حتى أتى دمشق، فحاصرها وانتزعها من يد ملكها مجير الدين بن طغتكين، وشرع في فتح بلاد الشام بلداً بلداً، وأخذها من أيدي من استولى عليها من الفرنج.

فلما كانت سنة ٦٢ (أي ٥٦٢هـ) أقبلت الفرنج في محافل كثيرة إلى الديار المصرية، فأرسل نور الدين محمود أسد الدين شيركوه بن شادي، ومعه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادي، فسار إليها في ربيع الآخر، وقد وقع في النفوس أن صلاح الدين سيملك الديار المصرية. وفي ذلك يقول عرقلة الشاعر:

ربِّ كما ملّكتها يوسفَ الصديق من أولاد يعقوب

يملكها في عصرنا يوسف الصادق من أولاد أيوب

وسار إلى الفرنج، فاقتتلوا قتالاً عظيماً، فهزم الفرنج ولله الحمد، وسار أسد الدين بعد كسر الفرنج إلى الإسكندرية، فملكها، واستناب عليها ابن أخيه صلاح الدين، وعاد إلى الصعيد، فملكه.

ثم إن الفرنج والمصريين اجتمعوا على حصار الإسكندرية، فصالح شاور وزير العاضد أسد الدين على الإسكندرية بخمسين ألف دينار، فأجاب إلى ذلك، وخرج صلاح الدين منها، وسلمها إلى المصريين، وعاد إلى الشام في ذي القعدة، وقرر شاور للفرنج على مصر في كل عام مئة ألف دينار، وأن يكون لهم شحنة بالقاهرة.

وسكن القاهرة أكثر شجعان الفرنج، وتحكموا فيه: إذ كادوا يستحوذون عليها، ويخرجون المسلمين منها. فلما كانت سنة ٥٦٤، قدم إمداد الفرنج في محافل هائلة، فأخذوا مدينة بلبيس، فقتلوا وأسروا ونزلوا بها، وتركوا فيها أثقالهم، وجعلوها موئلاً ومعقلاً. ثم جاؤوا فنزلوا في القاهرة من ناحية باب الشرقية، فأمر الوزير شور الناس أن يحرقوا مصر، وأن ينتقلوا إلى القاهرة. فنهب البلد، وذهب للناس أموال كثيرة، وبقيت النار في مصر أربعة وخمسين يوماً؛ فعند ذلك أرسل الخليفة العاضد يستغيث بالملك نور الدين، وبعث إليه بشعور نسائه يقول: أدركني واستنقذ نساءك من أيدي الفرنج، والتزم له ثلث خراج مصر على أن يكون أسد الدين مقيماً عندهم، ولهم قطاعات زائدة على الثلث.

... (وبعد موت شيركوه) فأقام العاضد مكانه في الوزارة صلاح الدين يوسف، ولقبه الملك الناصر، وأهداه خلعة من النفائس في يوم الإثنين الخامس والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٥٦٤. فلما كان سنة ٥٦٥ حاصرت الفرنج دمياط ٥٠ يوماً، فقاتلهم صلاح الدين حتى أجلاهم، وأرسل نور الدين إلى صلاح الدين يأمره أن يخطب للخليفة المستنجد العباسي بمصر؛ لأن الخليفة بعث يعاتبه في ذلك؛ فلما كان سنة ٥٦٦هـ، توفي المستنجد، ووفاء المستضيء، وشرع صلاح الدين في تمهيد الخطبة لبني العباس، وقطع الأذان بحيّ على خير العمل من ديار مصر كلها، وعزل قضاة مصر؛ لأنهم كلهم كانوا روافض، وولى أقضى القضاة بها صدر الدين بن درباس الشافعي، واستناب في سائر الأعمال شافعية).

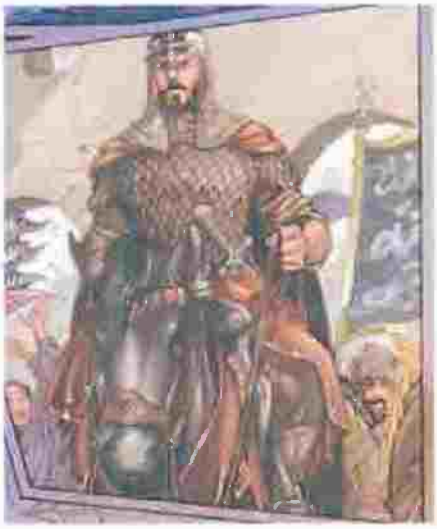

دخول صلاح الدين إلى الديار المصرية، ليكون وزيراً ثم سلطاناً

ويفصل ابن تغري بردي الأحداث في (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة): (وبينما هم في ذلك عاد الفرنج من الساحل إلى نحو مصر في سنة ٥٦٤هـ وطمعوا في أخذها. وكان خروجهم من عسقلان والساحل إلى نحو مصر في أوائل ٥٦٤هـ. وساروا حتى نزلوا بلبيس وأغاروا على الريف وأسروا وقتلوا. هذا وقد تلاشى أمر الديار المصرية من الظلم ولم يبق للعاضد من الخلافة سوى الاسم والخطبة لا غير. فلما بلغ شاور فعلُ الفرنج بالأرياف أخرج من كان بمصر من الفرنج بعد أن أساء في حقهم قبل ذلك، وقتل منهم جماعة كبيرة وهرب الباقون.

ثم أمرَ شاور أهل مصر (الفسطاط) أن ينتقلوا إلى القاهرة ففعلوا، وأحرق شاور مصر. وسار الفرنج من بلبيس حتى نزلوا على القاهرة في سابع صفر وضايقوها وضربوها بالمجانيق. فلم يجد شاور بداً أن كاتب الملك العادل نور الدين محموداً بأمر العاضد. وكان الفرنج لما وصلوا إلى مصر في المرتين الأوليين اطلعوا على عوراتها وطمعوا فيها، وعلم نور الدين بذلك فأسرع بتجهيز العساكر خوفاً على مصر. ثم جاءته كتب شاور والعاضد، فقال نور الدين لأسد الدين شيركوه: خذ العساكر وتوجه إليها. وبلغ الفرنج ذلك فرجعوا عن مصر إلى الساحل. وقيل: إن شاور أعطاهم مئة ألف دينار.

وجاء أسد الدين بمن معه من العساكر ونزل على باب القاهرة، فاستدعاه العاضد إلى القصر وخلع عليه في الإيوان خلعة الوزارة ولقبه بالملك المنصور، وسُرّ أهل مصر بذلك. وقيل: إنه لم يستدعه وإنما بعث إليه بالخلع والأموال والإقامات وكذلك إلى الأمراء الذين كانوا معه. وأقام أسد الدين مكانه وأرباب الدولة يترددون إلى خدمته في كل يوم، ولم يقدر شاور على منعهم؛ لكثرة العساكر ولكون العاضد مائلاً إلى أسد الدين شيركوه.

فكاتب شاور أيضاً الفرنج واستدعاهم وقال لهم: يكون مجيئكم إلى دمياط في البحر والبر

فبلغ ذلك أعيان الدولة بمصر فاجتمعوا عند الملك المنصور أسد الدين شيركوه، وقالوا له: (شاور فساد العباد والبلاد، وقد كاتب الفرنج وهو يكون سبب هلاك الإسلام). ثم إن شاور خاف لما تأخر وصول الفرنج فعمل في حيلة: دعوة لأسد الدين المذكور ولأمرائه ويقبض عليهم.

فنهاه ابنه الكامل وقال له: (والله لئن لم تنته عن هذا الأمر لأعرفن أسد الدين). فقال له أبوه شاور: (والله لئن لم نفعل هذا، لنُقتلن كلنا). فقال له ابنه الكامل: (لأن نُقتل والبلاد بيد المسلمين، خير من أن نقتل والبلادُ بيد الفرنج)... وعزم شاور على قتل أسد الدين وقتل أصحابه أكابر أمراء نور الدين معه، فقطن أسد الدين لذلك واحترز على نفسه.

وعلم ذلك صلاح الدين يوسف بن أيوب أيضاً، فاتفق صلاح الدين يوسف والأمير جرديك النوري على مسك شاور وقتله. و تفق ركوب أسد الدين إلى زيارة قبر الإمام الشافعي ﷺ وكان شاور يركب في كل يوم إلى أسد الدين، فلما توجه إليه في هذا اليوم المذكور قيل له: إنه توجه إلى الزيارة. فطلب العود فلم يمكّنه صلاح الدين، وقال: انزل الساعة يحضر عمي. فامتنع فجذبه هو وجرديك فأنزلوه عن فرسه، وقبضوا عليه وقتلوه بعد حضور أسد الدين...

وحين اتفق صلاح الدين وجرديك على قتله وأخبرا أسد الدين نهاهما وقال: (لا تفعلا، فنحن في بلاده ومعه عسكر عظيم)، فأمسكا عن ذلك، إلى أن ركب أسد الدين إلى زيارة الإمام الشافعي ﷺ وأقام عنده، فجاء شاور على عادته إلى أسد الدين فالتقاه صلاح الدين وجرديك وقالا: هو في الزيارة انزل، فامتنع فجذباه فوقع على الأرض، ولم يمكنهما قتله بغير أمر أسد الدين، فسحبه الغلمان إلى الخيمة، وانهزم أصحابه عنه إلى القاهرة وجيشوا عليهم.

وعلم أسد الدين فعاد مسرعاً، وجاء رسولٌ من العاضد برقعة يطلب من أسد الدين رأس شاور وتتابعت الرسل. فلما تكاثرت الرسل من العاضد، دخل جرديك إلى الخيمة وجزر رأسه وبعث أسد الدين برأسه إلى العاضد فسُرّ به. ثم طلب العاضد ولد شاور الملك الكامل وقتله في الدهليز وقتل أخاه، واستوزر أسد الدين شيركوه، وذلك في شهر ربيع الأول. إن ولاية أسد الدين للوزارة كانت بعد قتل شاور.

قال أبو شامة: وقتل العاضد في هذه السنة أولاد شاور، وهم: شجاع الملقب بالكامل، والطاري الملقب بالعظم، وأخوهما الآخر الملقب بفارس المسلمين، وطُوف برؤوسهم ببلاد مصر".

ولما قتل شاور وابنه الكامل بعث العاضد منشوراً بالوزارة إلى أسد الدين بخط القاضي الفاضل وعليه خط العاضد بما صورته: (هذا عهد لم يعهد إلى وزير بمثله، فتقلد ما أراك الله أهلاً بحمله، وخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة، واسحب ذيل الافتخار بخدمتك بيت النبوة، والزم حق الإمامة تجد إلى الفوز سبيلاً، ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ [النحل: ٩١].

ثم أرسل العاضد نسخة الأيمان إلى أسد الدين وحلف كل واحد منهما لصاحبه على الوفاء والطاعة والصفاء. فتصرّف أسد الدين شهرين ومات. ولما احتضر أوصى إلى ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب ولاية الوزارة.

وكان دخول يوسف بن أيوب (صلاح الدين) إلى مصر وتوزيره يشبه إلى حد كبير مقدم يوسف الصديق إلى مصر؛ حيث قام يوسف بن أيوب باستقدام إخوته وأبيه معه إلى مصر، كما فعل يوسف الصديق باستقدام إخوته وأبيه.

وبلغ الملك العادل نور الدين اتفاق الأمراء عليه بمصر، فقال له توران شاه بن أيوب، وكان أسنّ من صلاح الدين: يا مولانا، أريد أن أسير إلى أخي، يعني إلى صلاح الدين، فقال له نور الدين: إن كنت تسير إلى مصر وترى يوسف أخاك بعين أنه كان يقف في خدمتك وأنت قاعد فلا تسر؛ فإنك تفسد العباد والبلاد فتحوجني إلى عقوبتك بما تستحقه، وإن كنت تسير إليه وترى أنه قائم مقامي وتخدمه كما تخدمني فسرْ إليه واشدد أزره وساعده على ما هو بصدده، وإلا فلا تذهب إليه.

فقال: يا مولانا سوف يبلغك ما أفعل من الخدمة والطاعة. وسار إلى مصر فتلقاه صلاح الدين من لبيس وخدمه وقدم له المال والخيل والتحف وأقام عنده على أحسن حال. وفعل ما ضمن لنور الدين من خدمة أخيه صلاح الدين وقوي أمر صلاح الدين به واستقام أمره.

واستمر صلاح الدين بمصر وأرسل يطلب أباه نجم الدين أيوب من الملك العادل نور الدين محمود. فأرسله إليه مُعظماً مبجلاً. وكان وصوله، أعني نجم الدين، إلى القاهرة في شهر رجب سنة ٥٦٥هـ. فلما قرب نجم الدين إلى الديار المصرية خرج ابنه السلطان صلاح الدين بجميع أمراء مصر إلى ملاقاته. وترجل صلاح الدين وجميع الأمراء ومشوا في ركابه. ثم قال له ابنه صلاح الدين: (هذا الأمر لك؛ يعني الوزارة، وهي السلطنة الآن وتدبير ملك مصر ونحن بين يديك). فقال له نجم الدين: (يا بني، ما اختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت أهل له) وأبى نجم الدين قبول السلطنة، غير أنه حكم ابنه صلاح الدين في الخزائن، فكان يطلق منها ما يختار من غير مراجعة صلاح الدين كل ذلك والخطبة باسم العاضد في هذه السنين إلى سنة ٥٦٧هـ).

١. **التحالف الصليبي البيزنطي لغزو مصر، وحملة عموري الصليبية الخامسة (حصار دمياط) عام ٥٦٤هـ-١١٦٩م:**

صعود نجم صلاح الدين، البطل المنقذ لمصر: وفي السنة العاشرة من خلافة العاضد وزر له الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، ولم يكن له مع صلاح الدين إلا مجرد الاسم فقط. وهي سنة ٥٦٥هـ التي نزل فيها الفرنج على دمياط يوم الجمعة في ثالث صفر، وجدّوا في القتال وأقاموا عليها ٥٣ يوماً يحاصرونها ليل نهار. وبذل صلاح الدين الأموال وأحسن لجميع العسكر الشامي والمصري فأحبوه وأطاعوه، وأقام نائباً عن نور الدين، ودعا لنور الدين على منابر مصر بعد الخليفة العاضد ولصلاح الدين بعدهما.

ولما بلغ صلاح الدين قصد الإفرنج دمياط استعد لهم بتجهيز الرجال وجمع الآلات إليها ووعدهم بالإمداد بالرجال إن نزلوا عليهم، وبالغ في العطايا والهبات، وكان وزيراً متحكماً لا يُردّ أمره في شيء. ثم نزل الإفرنج عليها واشتد زحفهم وقتالهم عليها وهو يشن عليهم الغارات من الخارج والعسكر يقاتلهم من الداخل فينتصر عليهم، فرحلوا عنها خائبين، فأحرقت مناجيقهم ونُهبت آلاتهم وقتل من رجالهم عدد كبير.

وكانت الفرنج نولت على دمياط في ثالث صفر وجدُّوا في قتالها وأقاموا عليها نحو الشهرين يحاصرونها بالمجانيق ويزحفون عليها ليل نهار، وصلاح الدين يوجه إليها العساكر مع خاله شهاب الدين وابن أخيه تقي الدين وطلب من العاضد مالاً فبعث إليه شيئاً كثيراً حتى قال صلاح الدين: **(ما رأيت أكرم من العاضد! جهّز إلي في حصار الفرنج لدمياط ألف ألف دينار سوى الثياب وغيرها).**

ولما سمع نور الدين بما وقع لدمياط أخذ في غزو الفرنج بالغارات عليهم. ثم وقع فيهم الوباء والفناء فرحلوا عن دمياط بعد أن مات منهم خلق كثير. كل ذلك في حياة العاضد في أوائل أمر صلاح الدين.

ووصل الأسطول البيزنطي في أواخر عام ١١٦٩، وشنّ الملك أملريك الأول، في تشرين الأول/أكتوبر، حملة غزو جديدة وحاصر دمياط براً وبحراً. واستمر الحصار طويلاً، لكن بعد ٣ أشهر ترك الصليبيون الحصار؛ بسبب

انتشار المجاعات والأوبئة في المعسكر النصراني؛ فرمى البيزنطيون بلائمة الإخفاق على الصليبيين، والعكس بالعكس، وبذلك قرروا توقيع الصلح مع صلاح الدين. ورجع أملريك الأول صفر اليدين إلى مملكة القدس.

ثم أعلن أن صلاح الدين وزير مصر قد صار سلطاناً في عام ١١٧١م بموت العاضد آخر السلالة العبيدية، فتوجس الملك أملريك الأول خيفة وأرسل مبعوثيه من القدس طالباً النجدة من ملوك أوروبا، ولكن دون جدوى. ثم قام الملك أملريك الأول بزيارة القسطنطينية بنفسه، وأرسل مبعوثيه مرة ثانية من القسطنطينية طالباً النجدة من ملوك أوروبا، ولكن أيضاً دون اهتمام أحد منهم. وبتوحد مصر والشام بدأ العدّ التنازلي لمملكة القدس المحاطة بأعدائها من كل الجوانب، وصمدت مملكة القدس ١٦ سنة أخرى. ثم مات الملك أملريك الأول بالزُحار (إسهال اندیزنتري) في ١١ يوليو/ تموز ١١٧٤، مباشرة بعد وفاة نور الدين في ٥٦٩هـ-١١٧٤م.

مؤامرات الانقلاب على الدولة الأيوبية الوليدة: تعرضت دولة صلاح الدين لما لا يقل عن ٥ مؤامرات هي: مؤامرة مؤتمن الخلافة العبيدي (في حياة العاضد)، والتواطؤ العبيدي – الصليبي، ومحاولتا الحشاشين الباطنية لاغتيال شخص صلاح الدين، وتمرد السودان (انظر فيما سيأتي).

مؤامرة مؤتمن الخلافة العبيدي: بذل صلاح الدين الأموال وأحسن لجميع العسكر الشامي والمصري، فأحبوه وأطاعوه وأقاموه نائباً عن نور الدين يُدعا لنور الدين على منابر مصر بعد الخليفة العاضد ولصلاح الدين بعدهما.

ولما تم أمر صلاح الدين بمصر خاف العاضد عاقبة أمره. وكان للعاضد خادم يقال له مؤتمن الخلافة، وكان مقدم السودان والخدم والمشار إليه بالقصر. فأمره العاضد بقتال الترك والغز. واتفق العسكر المصري والخادم وثاروا على الترك فقتلوا منهم جماعة. فركب صلاح الدين وشمس الدولة ودخلا إلى باب القصر وتقاتلا مع مؤتمن الخلافة، وأبلى شمس الدولة بلاء حسناً وقتل الخادم مؤتمن الخلافة وجماعة كبيرة من السودان بعد حروب وقتال عظيم. فأرسل العاضد إلى صلاح الدين يعتب عليه ويقول له: فأين أيماناتكم! هذا الخادم جاهل، فعل ما فعل بغير أمرنا. فقال صلاح الدين: (**نحن على الأيمان والعهود ما نتغير، وما قتلنا إلا من قصد قتلنا**).

إنهاء الخلافة العبيدية في مصر: واستمر صلاح الدين على ذلك والخطبة للعاضد، وقد ضعف أمره وقوي أمر صلاح الدين. ثم أخذ السلطان صلاح الدين في إصلاح أحوال مصر وعمارة البلاد، حتى كانت أول سنة ٥٦٧هـ فكتب إليه الملك العادل نور الدين محمود يأمره بقطع الخطبة لبني عبيد وأن يخطب بمصر لبني العباس. فخاف صلاح الدين من أهل مصر الا يجيبوه ولم يسعه مخالفة أمر نور الدين، وقال: ربما وقعت فتنة لا تتدارك. فكتب الجواب إلى نور الدين يخبره بذلك، فلم يسمع منه نور الدين وخشّن عليه في القول، وألزمه إلزاماً لا محيد عنه. فوقع ذلك وقطعت خطبة العاضد في أول المحرم سنة ٥٦٧هـ.

فأشبه أمرُ الفاطميين أمرَ العباسيين لما انتقلت الدعوة منهم إلى الفاطميين بني عبيد، فإنه أول من خطب للمعز (بعد أول خلفاء مصر) من بني الخطيب عمر بن عبد السميع العباسي الخطيب بجامع عمرو وجامع أحمد بن طولون، وهذا من باب المكافأة والمجازاة؛ أي: إن الذي خطب لبني عبيد كان عباسياً والذي خطب لبني العباس كان علوياً يقال له: محمد بن المحسن بن أبي المضاء البعلبكي. وأقيمت الخطبة لبني العباس في أول المحرم ٥٦٧هـ، والعاضد مريض، فأخفى عنه أهله ذلك، وقيل: بلغه فأرسل إلى صلاح الدين يستدعيه ليوصيه، فخاف أن يكون خديعة فلم يتوجه إليه. ومات العاضد في يوم عاشوراء سنة ٥٦٧هـ، وانقضت دولة الفاطميين من مصر بموته. وندم صلاح الدين على قطع خطبته وقال: ليتني صبرت حتى يموت.

ثم كتب صلاح الدين يخبر الملك العادل نور الدين بإقامة الدعوة العباسية بمصر. فكتب نور الدين كتاباً إلى الخليفة العباسي في بغداد من إنشاء العماد الكاتب الأصبهاني، وفيه:

قد خطبنا للمستضيء بمصر ... نائب المصطفى إمام العصر
ولدينا تضاعفت نعم الل ... ه وجلت عن كل عد وحصر
واستنارت عزائم الملك العا ... دل نور الدين الهمام الأغر
هو فتح بكر ودون البرايا ... خصّنا الله باقتراع البكر

وصفا الوقت لصلاح الدين وسُمّي السلطان، وصار يُخطب باسمه على منابر مصر، بعد الخليفة العباسي والملك العادل نور الدين محمود. ومن يوم مات العاضد عظم أمر صلاح الدين واستولى على خزائن مصر واستبد بأمورها من غير منازع. غير أنه كان تحت أوامر الملك العادل نور الدين محمود زنكي.

وكان ابتداء مرض العاضد من أواخر ذي الحجة سنة ٥٦٦هـ. وبنى الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب مدرسة للشافعية في ٥٦٦هـ، وكان موضعها حبس المعونة، وبنى بها أيضاً مدرسة للمالكية تعرف بدار الغزل، وولى صدر الدين عبد الملك بن درباس الكردي القضاء بالقاهرة.

فلما كان ٤ محرم سنة ٥٦٧هـ جلس العاضد في قصره بعد الإرجاف بأنه ألثغ في مرضه فشوهد وهو على ما حقق الإرجاف من ضعف القوى وتخاذل الأعضاء وظهور الحُمّى. وقيل: إن الحُمّى فشت في أعضائه، وأمسك طبيبه المعروف بابن السديد عن الحضور إليه، وامتنع من مداواته وخذله مساعدة عليه للزمان وميلاً مع الأيام. ثم خُطب في ٧ محرم باسم الخليفة المستضيء بالله العباسي وصُرح باسمه ولقبه وكنيته بمصر.

ومات العاضد بعد ذلك بثلاثة أيام: في يوم الإثنين يوم عاشوراء. وكان لموته بمصر يوم عظيم، وعظُم مصابه على المصريين كثيراً، ووجدوا عليه وجداً عظيماً، ولاسيما الرافضة فإن نفوسهم كادت تزهق حزناً لانقضاء دولة الرافضة من ديار مصر وأعمالها. وجلس صلاح الدين في عزائه ومشى في جنازته، وتولى غسله وتكفينه ودفنه عند أهله.

واستولى السلطان صلاح الدين على ما في القصر من الأموال والذخائر والتحف والجواهر والعبيد والخدم والخيل والمتاع وغيره. وكان في القصر من الجواهر النفيسة ما لم يكن عند خليفة ولا ملك مما كان قد جمع في طول السنين. فمنه: القضيب الزمرد وطوله قبضة ونصف، والجبل الياقوت الأحمر، والمرة اليتيمية مثل بيض الحمام، والياقوتة الحمراء وتسمى الحافر وزنتها أربعة عشر مثقالاً. ومن الكتب المنتخبة بالخطوط النفيسة مئة ألف مجلد. ووجد عمامة القائم وطيلسانه كان البساسيري بعث بهما إلى المستنصر: يعني لما استولى ابساسيري على بغداد وأسر الخليفة القائم العباسي وخُطب ببغداد للمستنصر من بني عبيد، ثم بعث بعمامة القائم وطيلسانه فأخذوهما خلفاء مصر فاحتفظوا بهما نوعاً من النكاية في بني العباس: فهذا شرح قول أبي المظفر عن عمامة القائم والطيلسان. قال: ووجدوا أموالاً لا تعد ولا تحصى.

وأفرد صلاح الدين أهل العاضد ناحية من القصر، وأجرى عليهم جميع ما يحتاجون إليه، وسلمهم إلى الخادم قراقوش فعزل الرجال عن النساء واحتاط عليهم.

ومما وُجد في خزانة العاضد طيل القولنج الذي صنع للظافر وكان من ضربه خرج منه ريح واستراح من القولنج – قال: فوقع الطيل إلى بعض الأكراد فلم يدر ما هو فكسره: لأنه ضرب عليه فخرج منه ريح فحنق فضربه وكسره.

قال: وفرّق صلاح الدين الأموال التي أخذها من القصر على العساكر وباع بعض الجواري والعبيد، وأعطى القاضي الفاضل من الكتب ما أراد، وبعث إلى نور الدين بعمامة القائم وطيلسانه وهدايا وتحف وطيب ومئة ألف دينار.

وكان نور الدين بحلب، فلما حضرت بين يديه قال: (والله ما كان لي حاجة إلى هذا، ما وصل إلينا عشر معشار ما أنفقناه على العساكر التي جهزناها إلى مصر، وما قصدنا بفتحها إلا فتح الساحل وقلع الكفار منه).

وانقضت أيام الخلفاء المصريين بوفاة العاضد، وعدتهم أربعة عشر على عدد بني أمية، لكن أيامهم طالت فملكوا مئتين وثماني سنين، وملك بنو أمية نيفاً وتسعين سنة.

مرسوم الخلافة العباسية بتقليد صلاح الدين سلطاناً لمصر (خريطة طريق لسيرة صلاح الدين الظافرة):

يصف الإمام جلال الدين السيوطي مجرى الأحداث في "حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة": (فأقام العاضد مكانه في الوزارة صلاح الدين يوسف، ولقبه الملك الناصر. وأهداه خلعة من النفائس في يوم الإثنين الخامس والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٦٤. فلما كان سنة ٦٥ حاصرت الفرنج دمياط ٥٠ يوماً، فقاتلهم صلاح الدين حتى أجلاهم، وأرسل نور الدين إلى صلاح الدين يأمره أن يخطب للخليفة المستنجد العباسي بمصر؛ لأن الخليفة بعث يعاتبه في ذلك؛ فلما كان سنة ٦٦، مات المستنجد، وقام المستضيء، وشرع صلاح الدين في تمهيد الخطبة لبني العباس، وقطع الأذان بحيّ على خير العمل من ديار مصر كلها، وعزل قضاة مصر؛ لأنهم كلهم كانوا شيعة، وولى أقضى القضاة بها صدر الدين بن درباس الشافعي، واستناب في سائر الأعمال شافعية.

فلما دخل سنة ٥٦٧هـ أمر الملك صلاح الدين بإقامة الخطبة لبني العباس بمصر في أول جمعة من المحرم وبالقاهرة في الجمعة الثانية، وكان ذلك يوماً مشهوداً؛ والعجب أن أول من خطب للمعز، حين أخذت مصر، عمر بن عبد السميع العباسي الخطيب بجامع عمرو وبجامع ابن طولون: وكان أول من خطب لبني العباس هذه النوبة شريف علوي، يقال له: محمد بن الحسن بن أبي الضياء البعلبكي. ولما بلغ الخبر نور الدين أرسل إلى الخليفة المستضيء يعلمه بذلك، فزينت بغداد، وعلقت الأسواق، وعملت القباب، وفرح المسلمون فرحاً شديداً).

وأرسل أمير المؤمنين الخليفة العباسيّ في بغداد، المستضيء بأمر الله، إلى الملك صلاح الدين خلعة سنية، ومعها أعلام سود، ولواء معقود، ففرقت على الجوامع بالشام وبلاد مصر، وكتب له تقليداً؛ أي: رسالة رسمية طويلة فيها التهنئة والنصيحة البليغة بلغة عربية رائعة، رصينة وفيها رؤية إسلامية ثاقبة وخريطة الطريق، كان لها أبلغ الأثر في مسيرة صلاح الدين الأيوبي من بعد؛ وهو الذي لقبه بـ "الملك الناصر". ولخطورة هذه الوثيقة، نقتطف منها مقتطفات كما يأتي: (ونصّها الكامل في "كتاب الروضتين في أخبار الدولتين: الصلاحية والنورية" لمؤلفه أبو شامة المقدسي، وفي "حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة" لجلال الدين السيوطي):

(أما بعد، فإن أمير المؤمنين يبدأ بحمد الله الذي يكون لكل خطبة قياداً، ولكل أمر مهاداً، ويستزيده من نعمه التي جعلت التقوى لها زاداً، وحملته أعباء الخلافة فلم يضعف عنه طوقاً ولم يألُ فيه اجتهاداً، وصغرت لديه أمر الدنيا فما تسورت له محراباً ولا عرضت عليه جياداً، وحققت فيه قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ (القصص: ٨٣).

ثم يصلّي على من أنزلت الملائكة لنصره إمداداً، وأسري به إلى السماء حتى ارتقى سبعاً شداداً، وتجلى له ربه فلم يزغ منه بصر ولا كذب فؤاداً. ثم من بعده على أسرته الطاهرة التي زكت أوراقاً وأعواداً، وورثت النور أمين بلاداً، ووصفت بأنها أحد الثقلين هداية وإرشاداً؛ وخصوصاً عمه العباس المدعو له بأن يحفظ نفساً وأولاداً، و ن تبقى كلمة الخلافة فيهم خالدة لا تخاف دركاً ولا تخشى نفاداً.

وإذا استوفى العلم مراده من هذه الحمدلة، واسند القول فيها عن فصاحته المرسلة، فإنه ياخذ في إنشاء هذا التقليد الذي جعله حليفاً لقرطاسيه، واستدام سجوده على صفحته حتى لم يكد يرفع من رأسه: باليمن ذلك الا قاضية في وصف المناقب التي كثرت فحسن لها مقام الإكثار، واشتبه التطويل فيها بالاختصار، وهي التي لا يفتقر واضعها إلى القول المعاد، ولم يستوعر سلوك أطوادها؛ ومن العجب وجود السهل في سلوك الأطواد. وتلك هي مناقبك أيها الملك الناصر السيد الأجل الكبير، العالم العادل المجاهد المرابط صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب... وقد كفاك من المساعي أنك كفيت الخلافة امر منازعيها، وطمست على الدعوة الكاذبة التي كانت تدعيها. ولقد مضى عليها زمن ومحراب حقها محفوف من الباطل بمحرابين، ورأت ما رآه رسول الله ﷺ من السوارين اللذين أولهما كذابين: فبمصر منهما واحد تجري أنهارها من تحته؛ ودعا الناس إلى عبادة طاغوته وجبته، ولعب بالدين حتى لم يدر يوم جمعته من يوم احده ولا سبته. وأعانه على ذلك قوم رمى الله بصائرهم بالعمى والصمم، واتخذوه صنماً ولم تكن الضلالة هناك إلا بعجل أو صنم: فقمت أنت في وجه باطله حتى قمد، وجعلت في جيده حبلاً من مسد؛ وقلت ليده: تبّت، فأصبح ولا يسعى بقدم ولا يبطش بيد.

وكذلك فعلت بالآخر الذي نجمت باليمن ناجمته، وسامت فيه سائمته: فوضع بيته موضع الكعبة اليمانية، وقال هذا هو الخلصة الثانية. فأي مقامك يعترف الإسلام بسبقه، أم أيهما يقوم بأداء حقه. وها هنا فليصبح القلم للسيف من الحساد، وليقصر مكانته عن مكانته وقد كان له من الأنداد، ولم يحط بهذه المزية إلا انه أصبح لك صاحباً، وفخر بك حتى طال فخراً كما عز جانباً، وقضى بولايتك فكان بها قاضياً، لما كان حده ماضياً.

وقد قلدك امير المؤمنين البلاد المصرية واليمنية غوراً ونجداً، وما اشتملت عليه رعية وجنداً، وما انتهت إليه أطرافها براً وبحراً، وما يستقذ من مجاوريها مسالمة وقهراً، وأضاف إليها بلاد الشام وما تحتوي عليه من المدن المدنة، والمراكز المحصنة، مستثنياً منها ما هو بيد نور الدين إسماعيل بن نور الدين محمود رحمه الله وهو حلب وأعمالها: فقد مضى أبوه عن آثار في الإسلام ترفع ذكره في الذاكرين، وتخلفه في عقبه في الغابرين، وولده هذا قد هذبته الفطرة في القول والعمل، وليست هذه الربوة إلا من ذلك الجبل: فليكن له منك جار يدنو مته وداداً كما دنا أرضاً، وتصبح وهو له كالبنيان يشد بعضه بعضاً.

والذي قدمناه من الثناء عليك ربما تجاوزتك درجة الاقتصاد والقنك عن فضيلة الازدياد. فإياك أن تنظر إلى سعيك نظر الإعجاب، فتقول: هذه بلادنا افتتحتها بعد أن أضرب عنها كثير من الإضراب. ولكن اعلم أن الأرض لله ولرسوله، ثم لخليفته من بعده، ولا منة للعبد بإسلامه. بل المنة لله بهداية عبده. وكم سلف قبلك ممن لو رام ما رمته لدنا شاسعه وأجاب مانعه: لكن ذخره الله لك لتحظى في الآخرة بمفازة، وفي الدنيا برقم طراز. فالق بيدك عند هذا القول إلقاء التسليم، وقل: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (البقرة: ٣٢).

وقد قرن تقليدك هذا بخلعة تكون لك في الإسلام شعاراً، وفي الرسم فخاراً، وتناسب محل قبلك وبصرك: وخير ملابس الأولياء ما ناسب قلوباً وأبصاراً، ومن جملتها طوق يوضع في عنقه موضع العهد والميثاق. ويشير إليك بأن الإنعام قد أطاق بك إطاقة الأطواق بالأعناق. ثم إنك خوطبت بالملك وذلك خطاب يقضي لصدرك بالانشراح، ولأملك بالانفساح، وتؤمر معه بمدّ يدك العليا لا تضمها إلى الجناح. وهذه الثلاثة المشار إليها هي التي تكمل بها أقسام السيادة، وهي التي لا مزيد عليها في الإحسان فيقال: إنها الحسنى وزيادة: فإذا صارت إليك فانصب لها يوماً يكون في الأيام كريم الأنساب، واجعله لها عيداً وقل: هذا عيد الخلعة والتقليد والخطاب. هذا ولك عند امير المؤمنين مكانة يجعلك إليه حاضراً وأنت ناء عن الحضور، وتضن أن تكون مشتركة بينك وبين غيرك والضنة من

شيم الغيوب؛ بهذه المكانة قد عرفتك نفسها وما كنت تعرفها؛ وما نقول إلا إنها لك صاحبة وأنت يوسفها، فاحرسها عليك حراسة تقضي بتقديمها، واعمل بها فإن الأعمال بخواتيمها.

واعلم أنك تقلدت أمراً يفتن به تقي الحلوم، ولا ينفك صاحبه عن عهدة الملوم، وكثيراً ما ترى حسناته يوم القيامة وهي مقسومة بأيدي الخصوم؛ ولا ينجو من ذلك إلا من أخذ أهبة الحذار، وأشفق من شهادة الأسماع والأبصار. واعلم أن الولاية ميزان إحدى كفتيه في الجنة والأخرى في النار، قال النبي ﷺ: (**يا أبا ذر إني أحبُّ لك ما أحبُّ لنفسي، لا تأمرن على اثنين، ولا تولين مال يتيم**). فانظر إلى هذا القول النبوي تظفر من لم يخدع بحديث الحرص والأمل، ومثل الدنيا وقد سيقت إليك بحذافيرها، أليس مصيرها إلى زوال؟!...

فخذ هذ الأمر الذي تقلدته أخذ من لم يتعقبه بالنسيان، وكن في رعايته ممن إذا نامت عيناه كان قلبه يقظان؛ وملاك ذلك كله في إسباغ العدل الذي جعله الله ثالث الحديث والكتاب... ومن آكد فروضه أن تمحي السير السيئة التي طالت مدد أيامها، وتنس الرعايا من رفع ظلاماتها فلم يجعلوا أمداً لانحسار ظلامها؛ تلك السير هي المكوس التي أنشأتها الهمم الحقيرة، ولا غنى للأيدي الغنية إذا كانت ذا نفوس فقيرة؛ وكلما زيدت الأموال الحاصلة منها قدراً، زادها الله محقاً؛ وقد استمرت عليها العوائد حتى ألحقها الظالمون بالحقوق الموجبة فسموها حقاً، ولو أن صاحبها أعظم الناس جرماً لما أغلظ في عقابه، ومثلت توبة المرأة الغامدية بمتابه؛ وهي أشقى ممن يكون السواد الأعظم له خصماً، ويصبح وهو مطالب بما يعلم وبما لم يحط به علماً؛ وأنت مأمور بأن تأبى هذه الظلامات فتنهى عن إجرائها، وتلحق أسماءها في المحو بإهمالها؛ حتى لا يبقى لها في العيان صورة منظورة، ولا في الألسنة أحاديث مذكورة.

وإذا فعلت ذلك كنت أزلت عن الماضي سنة سوء سنتها يداه، وعن الآتي متابعة ظلم وجده طريقاً مسلوكاً فجرى على بدء، فبادر إلى ما أمرت به مبادرة من يضيق به ذرعاً، ونظر إلى الحياة الدنيا بعينها فرآها في الآخرة متاعاً، وأحمد الله على أن قيض لك إمام هدى يقف بك على هداك، ويأخذ بحجزتك عن خطوات الشيطان الذي هو أعدى عداك؛ بهذه البلاد المنوطة بنظرك تشتمل على أطراف متباعدة، وتفتقر في سياستها إلى أيد متساعدة؛ ولهذا يكثر بها قضاة الأحكام، وأولو تدابير السيوف والأقلام؛ وكل من هؤلاء ينبغي أن يفتن على نار الاختبار، ويسلط عليه شاهد عدل من أمانة الدرهم والدينار، فما أضل الناس شيء كحب المال الذي فورقت من أجله الأديان، وهجرت بسببه الأولاد والإخوان؛ وكثيراً ما يرى الرجل الصائم القائم وهو عابد له عبادة الأوثان؛ فإذا استعنت بأحد منهم على شيء من أمرك، فاضرب عليه بالأرصاد، ولا ترض بما عرفته من مبدأ حاله فإن الأحوال تنقل بنقل الأجساد. وإياك أن تخدع بصلاح الظاهر كما خدع عمر بن الخطاب بالربيع بن زياد (الربيع بن زياد الحارثي هو تابعي صاحب فتوح، وفد إلى عمر فأعجبته هيئته ونحوه فشكا عمر طعاماً غليظاً يأكله. فقال الربيع: يا أمير المؤمنين إن أحق الناس بمطعم طيب وملبس لين ومركب وطيء لأنت. فضرب رأسه بجريدة وقال: والله ما أردت بهذا إلا مقاربتي وإن كنتُ لأحسب أن فيك خيراً. ألا أخبرك بمثلي ومثل هؤلاء، إنما مثلنا كمثل قوم سافروا فدفعوا نفقاتهم إلى رجل منهم وقالوا: انفقهم علينا، فهل له أن يستأثر عليهم بشيء؟ قال الربيع: لا).

وألزم التقوى أعمال يده ولسانه وقلبه: فإذا صلحت الولاة صلحت الرعية بصلاحهم؛ وهو لهم بمنزلة المصابيح ولا يستضيء كل قوم إلا بمصباحهم. ومما يؤمرون به أن يكونوا لمن تحت أيديهم إخواناً في الأصحاب، وجيراناً في الاقتراب، وأعواناً في توزع الحمل الذي يثقل على الرقاب؛ فالمسلم أخو المسلم وإن كان عليه أميراً، وأولى الناس باستعمال الرفق من كان فضل الله عليه كثيراً؛ وليست الولاية لمن يستجد بها كثرة اللفيف، ويتولاها بالوطء العنيف؛ ولكنها لمن يمال عن جوانبه، ويؤكل من أطايبه، ولمن إذا غضب لم ير للغضب عنده أثر، وإذا ألحف في

سوالفه تخلق بخلق الضجر، وإذا حضر الخصوم بين يديه عدل بينهم في قسمة القول والنظر: فذلك الذي يكون لصاحبه في أصحاب اليمين، والذي يدعى بالحفيظ العليم والقوي الأمين، ومن سعادة المرء أن يكون ولاته متأدبين بآدابه، وجارين على نهج صوابه: وإذا تطايرت الكتب يوم القيامة كانوا حسنات مثبتة في كتابه.

وبعد هذه الوصية، فإن هاهنا حسنة هي للحسنات كالأم الولود: ولطالما أغنت عن صاحبها إغناء الجود وتيقظت لنصره والعيون رقود: وهي التي تسبغ لها الآلاء، ولا يتخطاها البلاء، ولأمير المؤمنين عناية تبعثها الرحمة الموضوعة في قلبه، والرغبة في المغفرة والرحمة لما تقدم وتأخر من ذنبه. وتلك هي الصدقة التي فضل الله بعض عباده بمزية إفضالها، وجعلها سبباً إلى التعويض عنها بعشر أمثالها: وهو يأمرك أن تفقد أحوال الفقراء الذين قدرت عليهم مادة الأرزاق، واليسهم التعفف ثوب الغنى وهم في ضيق من الإملاق: فأولئك أولياء الله الذين مستهم الضراء فصبروا، وكثرت الدنيا في يد غيرهم فما نظروا إليها إذا نظروا. وينبغي لك أن تهيئ لهم من أمرهم مرفقاً، وتضرب بينهم وبين الفقر موبقاً. وما أطلنا لك القول في هذه الوصية إلا إعلاماً بأنها من المهم الذي يستقبل ولا يستدبر، ويستكثر منه ولا يستكبر: وهذا يعد من جهاد النفس في بذل المال، ويتوله جهاد الكافر في مواقف القتال: وأمير المؤمنين يعرفك من ثوابه ما يجعل السيف في ملازمته أخاً، وتسخو له بنفسك إن كان أحد بنفسه سخا. ومن صفاته أن للعمل المحبوب بفضل الكرامة، الذي ينمو أجره بعد صاحبه إلى يوم القيامة، وبه يمتحن طاعة الخالق على المخلوق. كل الأعمال عاطلة لا خلوق لها وهي المختص دونها بزينة الخلوق، ولولا فضله لما كان محسوباً بشطر الإيمان.

ولما جعل الله الجنة له ثمناً وليست لغيره من الأثمان، وقد علمت أن العدو هو جارك الأدنى: الذي يبلغك وتبلغه عيناً وأذناً، ولا تكون للإسلام نعم الجار: حتى تكون له بئس الجار. ولا عذر لك في ترك جهاده بنفسك ومالك إذا قامت لغيرك الأعذار. وأمير المؤمنين لا يرضى منك بأن تلقاه مصافحاً، أو تطرق أرضه مماسياً أو مصعداً، بل يريد أن تقصد البلاد التي في يد قصد المستغير لا قصد المغير، وأن تحكم فيها بحكم الله الذي قضاه على لسان سعد في بني قريظة والنضير، وعلى الخصوص البيت المقدس: فإنه بلاد الإسلام القديم، وأخو البيت الحرام في رفد التعظيم، الذي توجهت إليه الوجوه من قبل بالسجود والتسليم. وقد أصبح وهو يشكو طول المدة في أسر ربقته وأصبحت كلمة التوحيد وهي تشكو طول الوحشة في غربتها عنه وغربته. فانهض إليه نهضة...). انتهى

ولما استقل السلطان صلاح الدين بأرض مصر، أسقط عن أهلها المكوس والضرائب، وقرأ المنشور بذلك على رؤوس الأشهاد يوم الجمعة بعد الصلاة ثالث صفر سنة ٥٦٧هـ. واستولى على القصر وخزائنه وفيها من الأموال ما لا يحصى؛ ووجد خزانة كتب ليس في الإسلام لها نظير، تشتمل على نحو ألفي مجلد، منها بالخطوط المنسوبة مئة ألف مجلد، فأعطاها القاضي الفاضل.

وأخذ السلطان صلاح الدين في نصر السُّنَّة وإشاعة الحق، وإهانة المبتدعة والانتقام من الروافض، وكانوا بمصر كثيرين.

ثم تجردت همته إلى الفرنج وغزوهم: فكان من أمره معهم ما ضاقت به التواريخ، واستردّ منهم ما كانوا استولوا عليه من بلاد الإسلام بالشام، من ذلك فتح القدس الشريف، بعد أن كان في يد الفرنج... أجلى ما بقي الشام ومصر من الفرنج. ثم افتتح الحجاز واليمن من يد متغلبيها وتسلم دمشق بعد موت نور الدين، فصار سلطان مصر والشام واليمن والحجاز.

وتوفي الخليفة أمير المؤمنين المستضيء بأمر الله أبو محمد الحسن بن يوسف المستنجد بن المقتفي محمد العباسي الهاشمي البغدادي في سنة ٥٧٥هـ، وهي السنة التاسعة من سلطنة صلاح الدين على مصر. كان أحسن الخلفاء سيرة، وكان إماماً عادلاً شريف النفس حسن السيرة ليس للمال عنده قدر، حليماً شفيقاً على الرعية

أسقط المكوس والضرائب في أيام خلافته. وكانت وفاته ببغداد في ثاني ذي القعدة عن 36 سنة، وكانت خلافته 9 سنين. وهو الذي عادت الخطبة باسمه في الديار المصرية والبلاد الشامية والثغور، واجتمعت الأمة على خليفة واحد وانقطعت في أيامه دولة بني عبيد الفاطميين الرافضة من مصر وأعمالها: ولله الحمد. وأمه أم ولد مولدة.

تثبيت سلطنة صلاح الدين، مقتطفات من "النجوم الزاهرة":

السنة الثالثة من سلطنة صلاح الدين يوسف بن أيوب على مصر (٥٦٩هـ): فيها كتب صلاح الدين لنور الدين يستأذنه في إنفاذ جيش إلى اليمن فأذن له، فبعث صلاح الدين أخاه شمس الدولة توران شاه بن أيوب، فسار إليها وكان فيها عبد النبي بن مهدي من أصحاب المصريين، وكان ظالماً فاتكاً فحصره شمس الدولة توران شاه في قصره بزبيد مدة حتى طلب الأمان فأذنه، فلما نزل إليه قيده ووكل به، وفتح صنعاء وحصون اليمن والمدائن. يقال: إنه فتح ثمانين حصناً ومدينة واستولى على أموالها وذخائرها وقتل عبد النبي المذكور.

وفي هذه السنة ٥٦٩هـ توفي البطل نور الدين محمود في الشام، وملك صلاح الدين البلاد وكان هذا من أصوب الآراء وأحسنها: لتكون مصر والشام فكي كماشة(نزّاعة) على الصليبيين. وفي السنة نفسها ٥٦٩هـ اكتُشفت مؤامرة التواطؤ العبيدي – الصليبيّ الخطرة:

التواطؤ العبيدي الفرنجيّ: وفيها قبض صلاح الدين على جماعة من أعيان الدولة العبيدية: مثل داعي الدعاة وعمارة اليمني وغيرهما، بلغه أنهم يجتمعون على إثارة الفتن، واتفقوا مع السودان، وكاتبوا الفرنج، فقتل داعي الدعاة، وصُلب عمارة اليمني. وعمارة اليمني هذا هو أكبر شاعر عرفته مصر في الحقبة الأخيرة من العصر العبيدي الفاطمي، وكان دائم التزلف والنفاق. وكان ذا حظوة عند الوزير الفاطمي طلائع بن زريك، وكتب فيه أجمل قصائده، حين مثل أمام الخليفة العبيدي الفائز ووزيره طلائع، فقال في مطلعها:

الحمد للعيس بعد العزم والهمم ... حمداً يقوم بما أولت من النعم

ثم قال:

أقسمت بالفائز المعصوم معتقداً ... فوز النجاة وأجر البر في القسم
لقد حمى الدين والدنيا وأهلهما ... وزيره الصالح الفراج للغمم
اللابس الفخر لم تنسج غلائله ... إلا يداً لصنيع السيف والقلم

وبمقتل الوزير طلائع وابنه، صُدم عمارة اليمني، لكنه سرعان ما نقض ودّ ووفاء لهما، فصار يمجد شاور بقوله:

صحت بدولتك الأيام من سقم ... وزال ما يشتكيه الدهر من ألم
زالت ليالي بني رزيك وانصرمت ... والحمد والذم فيها غير منصرم
كأن (صالحهم) يوماً و(عادلهم) ... في صدر ذاك الدست لم يقعد ولم يقم
كنا نظن وبعض الظن مأثمة ... بأن ذلك جمع غير منهزم
فمذ وقعت وقوع النسر خانهم ... من كان مجتمعاً من ذلك الرخم
ولم يكونوا عدو أزل جانبه ... وإنما غرقوا في سيلك العرم
وما قصدت بتعظيمي سواك سوى ... تعظيم شأنك فاعذرني ولا تلم

ولما عاد شاور إلى السلطة بعد ٩ أشهر، شبهها بأشهر الحمل والولادة في رحم الأحداث، فقال:

حملت به الأيام تسعة أشهر ... حتى جعلن له جمادى مولداً

وقال في مدح الوزير شاور شعراً يتحدى الزمان أن يأتي بمثله (أي مثل هذا الخائن شاور!):

ضجر الحديد من الحديد وشاورٌ ... من نصر دين محمد لم يضجر

حلف الزمان ليأتين بمثله ... حنثت يمينك يا زمان فكفر

ثم قضى صلاح الدين على عبثه، ولم يجد عنده حظوة، فكتب يسبّ الدهر ويرثي زوال العبيد بن، ويتحسر على أعطياتهم:

رميت يا دهر كفّ المجد بالشلل ... وجيده بعد حسن الحلي بالعطل

قدمت مصر فأولتني خلائفها ... من المكارم ما أربى على الأمل

قوم عرفت بهم كسب الألوف ومن ... كمالها أنها جاءت ولم أسل

وكنت من وزراء الدست حين سما ... رأس الحصان بهاديه على الكفل

ونلت من عظماء الجيش مكرمة ... وخلة خرست من عارض الخلل

مررت بالقصر والأركان خالية ... من الوفود وكانت قبلة القبل

فملت عنها بوجهي خوف منتقد ... من الأعادي ووجه الود لم يمل

أسلت من أسفي دمعي غداة خلت ... ربابكم وغدت مهجورة السبل

وله هذه الأبيات:

إذا لم يسالمك الزمان فحارب ... وباعد إذا لم تنتفع بالأقارب

ولا تحتقر كيداً ضعيفاً فربما ... تموت الأفاعي من سموم العقارب

فقد هدّ قدماً عرش بلقيس هُدهُد ... وخرب فأر قيل ذا سد مأرب

ومن ثم ألقى قصيدة أشاد بها بمناقب صلاح الدين، ولكنها كانت مدحاً مطوياً على الذمّ مغلفاً بالهجاء، ممتلئة بالغمز واللمز، كمن يدسّ السمّ بالعسل، راجياً صلاح الدين أن يرفق بالفاطميين!! وقيل: إن سبب قتله أنه مدح توران شاه وحرّضه على أخذ اليمن بقصيدة أولها:

لعلم متى كان محتاج إلى العلم ... وشفرة السيف تستغني عن القلم

هذا ابن تومرت قد كانت بدايته ... كما يقول الورى لحماً على وضم

وكان أول هذا الدين من رجل ... سعى إلى أن دعوه سيّد الأمم

قال العماد الكاتب: اتفقت لعمارة اتفاقات: منها أنه نسب إليه قول هذا البيت فكان أحد أسباب قتله، وأفتى قضاة مصر بقتله. وقيل: إنه لما أمر صلاح الدين بصلبه مروا به على دار القاضي الفاضل فرمى بنفسه على بابه، وطلب الدخول إليه ليستجير به، فلم يؤذن له، فقال:

عبد الرحيم قد احتجب ... إن الخلاص من العجب

والحقيقة أن عمارة اليمني قد اشترك في مؤامرة مع ذيول الفاطمية، فكاتبوا الفرنجة وحرضوهم على غزو مصر وقتل صلاح الدين، ولكن أحد المشتركين وشى بهم، وقد مال القاضي الفاضل يتشفع في عمارة إلى صلاح الدين، ولكن عمارة ظن أنه يغريه بقتله، فقال للسلطان: مولانا، لا تسمع منه... فإنه عدوّي!!! فغضب القاضي الفاضل وغادر المجلس. وعندئذ قال صلاح الدين لعمارة: إنه كان يشفع فيك... وقد قيلنا سؤالك فيه. ثم ساقوه ليشنق على باب بيته، فطلب أن يمروا على بيت القاضي الفاضل واسمه عبد الرحيم. وكان جالساً على باب بيته، فلما رأى عمارة مخفوراً، دخل بيته وأغلق بابه. فصاح عمارة بآخر أشعاره:

عبد الرحيم قد احتجب ... إن الخلاص من العجب

وكان علي بن نجا، الواعظ الدمشقي الحنبلي، صاحب حظوة عند نور الدين ثم عند صلاح الدين، هو الذي نمّ على عمارة اليمني فصُلب، وكانت لابن نجا مكانة بمصر من قبل مجيء صلاح الدين، (فهو يعرف عمارة جيداً)، وهو الذي أنشد من على منبره للوزير طلائع بن رزيك الذي قاتل الفرنجة في صور:

مشيبك قد قضى شرخ الشباب ... وحل البازُ في وكر الغراب

تنام ومقلة الحدثان يقظى ... وما نابت النوائب عنك ناب

فكيف بقاء عمرك وهو كنز ... وقد أنفقت منه بلا حساب؟

وأنشد تاج الدين الكندي في قتل عمارة اليمني، الذي مالأ الكفرة والملحدين على قتل الملك صلاح الدين، وأراد عودة دولة الفاطميين، فظهر على أمره فصُلب مع من صلب في سنة ٥٦٩هـ:

عمارة في الإسلام أبدى خيانةً ... وحالف فيها بيعةً وصليبا

فأمسى شريك الشرك في بغض أحمد ... وأصبح في حبّ الصليب صليبا

وكان خبيث الملتقى إن عجمته ... تجد منه عوداً في النفاق صليبا

وملك السلطان صلاح الدين دمشق من الملك الصالح، ابن الملك العادل نور الدين محمود، في السنة الرابعة من سلطنة صلاح الدين يوسف بن أيوب على مصر (٥٧٠هـ)؛ وذلك لأنه صبي لا يستقل بالملك. وكان أخذه إلى دمشق بمكاتبة القاضي كمال الدين الشهرزوري وابن الجاولي والأعيان. وكان بالقلعة ريحان الخادم فعزم على قتاله، فجهز إليه عسكر دمشق وركب صلاح الدين من الجسور فالتقاه أهل دمشق بأسرهم وحدّقوا به، فنثر عليهم الدراهم والدنانير ودخل دمشق فلم يغلق في وجهه باب ولا منعه مانع فملكها عنوة لا عنوة.

وتوفي الملك الصالح إسماعيل بن الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بن آق سنقر صاحب حلب في السنة الحادية عشرة من سلطنة صلاح الدين، وهي سنة ٥٧٧هـ، بمرض القولنج. وكان لما اشتد به مرض القولنج وصف له الحكماء قليل خمر، فقال: لا أفعل حتى أسأل الفقهاء. فسأل الشافعية فأفتوه بالجواز فلم يقبل، وقال: إن الله تعالى قرب أجلي، أيؤخره شرب الخمر؟! قالوا: لا. قال: فوالله لا لقيت الله وقد فعلت ما حرم علي قمت ولم يشربه.

وزراء صلاح الدين وكتاب سره ودواوينه:

القاضي الفاضل والعماد الكاتب (وأيضاً بهاء الدين بن شداد الأسدي قاضي القدس بعد فتحها): وفيها استخدم صلاح الدين العماد الكاتب الأصبهاني؛ وسببه أنه التقى بالقاضي الفاضل ومدحه بأبيات منها:

عاينت طود سكينة ورأيت شم ... س فضيلة ووردت بحر فضائل

ورأيت سحبان البلاغة ساحباً ... ببيانه ذيل الفخار لوائل

حلف الحصافة والفصاحة والسما ... حة والحماسة والتُقى والناثل

بحر من الفضل الغزير خضمّه ... طامي العباب وما له من ساحل

في كفه قلمٌ يعجل جريه ... ما كان من أجلٍ ورزقٍ آجل

أبصرت قسّاً في الفصاحة معجزاً ... فعرفت أني في فهاهة باقل

فدخل القاضي الفاضل على السلطان صلاح الدين وقال: غداً تأتيك تراجم الأعاجم وما يحلها مثل العماد الكاتب. فقال: (ما لي عنك مندوحة، أنت كاتبي ووزيري وقد رأيت على وجهك البركة، فإذا استكتبت غيرك تحدّث الناس). فقال الفاضل: (هذا يحل التراجم وربما أغيب أنا ولا أقدر على ملازمتك، فإذا غبت قام العماد مقامي، وقد عرفت فضل العماد وخدمته للدولة النورية فاستكتبه).

وبرع القاضي الفاضل (واسمه عبد الرحيم البيساني) في منصبه كاتباً لديوان الجيش، فتولى رئاسة ديوان المكاتبات الفاطمي سنة (٥٦٦هـ-١١٧٢م)، وتمكن من إقامة علاقات وثيقة بكبار رجال الدولة في مصر، وخاصة الأيوبيين الذين بدأ نفوذهم يتوسع على حساب الفاطميين. وقد أسهم القاضي الفاضل مع الأيوبيين في (إزالة الدولة الفاطمية)، ولعل سبب ميوله إلى الأيوبيين يكمن في إدراكه رغبة المصريين في مناصرة الأيوبيين لتخاذل الفاطميين في الدفاع عن مصر أمام العدوان الصليبي، وأن الدولة الفاطمية أمست في أيامها الأخيرة ضعيفة، إذ إن إزالتها لم تكن من الصعوبة، ولم ينتطح فيها عنزان (كما يقول ابن الأثير).

إن إسهام القاضي الفاضل في تغيير الأوضاع السياسية في مصر كانت من القضايا الخطرة في حياته السياسية والعلمية؛ لأنها فتحت له آفاقاً جديدة بل أصبحت منزلته عالية ومكانته رفيعة، فلقد توسّم فيه صلاح الدين بفراسته تميّزه الواضح. فقد ذكر العماد الكاتب أنه كان (صاحب القرآن، العديم الأقران، و وحيد الزمان العظيم الشان)، وقد وصفه البغدادي بأنه (كان ضعيف البنية رقيق الصورة، له حدبة يستر بها الطيلسان... نزيه عفيفاً قليل اللذات، كثير الحسنات، دائم التهجد). وأصبح القاضي الفاضل الرجل الثاني في دولة صلاح الدين إذ (تمكن منه غاية التمكن)، وكان صلاح الدين (لا يصدر أمراً إلاّ عن مشورته). لذلك أشاد ياقوت الحموي بحنكته السياسية حينما قال: (إن الدنيا تدبر برأيه). وعلى الرغم من المبالغة في هذا القول، نرى أنه دليل يرجع عقلية القاضي الفاضل ونجاحه في الإسهام في قيادة الدولة الأيوبية.

وبناءً على ذلك اعترف صلاح الدين صراحة أمام الناس بالجهود الكبيرة التي بذلها القاضي الفاضل في تثبيت أركان دولته، فقد قال مثمناً تلك الجهود: (لا تظنوا ملكتُ البلاد بسيوفكم بل بقلم الفاضل). أما نشاطه العلمي وإبداعاته في فنون صناعة الإنشاء والكتابة، فمن المفيد أن نذكر النصوص التي ذكرها المؤرخون والأدباء في ترجماتهم له، فقد أطلق عليه عمارة اليمني أنه "شجرة مباركة متزايدة النماء أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها" (وعمارة هو الذي تواطأ مع الفرنجة وأفتى العلماء بصلبه فصُلب).

وجعل العماد الكاتب نزعته الأدبية نموذجاً جديداً في صناعة الكتابة لعصره فوصفها بالشريعة (المحمدية التي نسخت الشرائع ورسخت بها الصنائع)، وأكد العماد أن القاضي الفاضل هو (ربُّ القلم واليمين واللسن واللسان)، شأنه شأن كبار رجال عصره في تشييد المدارس ودور الحديث والمكاتب والربط والزوايا: فقام بتشييد

مدرسة في القاهرة وافتتح التدريس فيها سنة (٥٨٠هـ-١١٨٤م)، وقد وصفت هذه المدرسة بأنها من أجلّ مدارس مصر التي تُدرس فيها العلوم الشافعية والمالكية، وألحق بها مكتباً لتعليم الأيتام، واحتوت هذه المدرسة على مكتبة تضم مجاميع كبيرة من الكتب. ويظهر أن أكثر هذه الكتب اشتراها القاضي الفاضل من خزانة القصر الفاطمي عند انقراض الدولة الفاطمية، وذكرت المراجع أنها كانت تحتوي على مئة ألف كتاب مجلد إضافة إلى مكتبته الخاصة التي قدّر عدد كتبها بمئة وعشرين ألف كتاب مختلفة الأنواع. وقد خصص القاضي الفاضل لها نُسّاخاً لا يفترون، ومجلدين لا ينامون؛ لغرض إدامتها وتوزيعها على طلبتها. وهذا يعكس الجوّ الثقافي العلمي المتقدم الذي عاصره طلبة القاضي الفاضل.

ولم يفقد القاضي الفاضل مركزه السياسي والإداري إلا بعد وفاة صلاح الدين سنة (٥٨٩هـ-١١٩٣م). فقد اشتدّ الصراع السياسي بين أبناء أسرته فلم يرُق للقاضي الفاضل مقامه في دمشق، فذهب إلى مصر تاركاً وراءه السياسة والحكم، ولعل هذا من أسباب وفاته في يوم الأربعاء السابع من ربيع الأول سنة (٥٩٦هـ-١١٩٩م) (وهو اليوم الذي دخلت فيه جيوش الملك العادل مصر)، ودُفن في سفح المقطم. وكان لوفاته وقع شديد عند العماد الكاتب الذي عبر عنه بقوله: (في هذه السنة تمّت الرزيّة الكبرى والبليّة العظمى وفجيعة أهل الفضل بالدين والدنيا، وذلك بانتقال القاضي الفاضل من دار الفناء إلى دار البقاء). ووصفه النويري بأنه (كاتب الشرق والغرب).

محاولة الحشاشين الباطنية اغتيال صلاح الدين: وبينما كان يحاصر حلب يوم ٢٢ أيار/مايو ١١٧٦م حاول الحشاشون اغتياله، فأجروا محاولتين كانت ثانيهما وشيكة إلى حد أنه أصيب. وبعد إخفاق محاولة الاغتيال، فرض صلاح الدين نفوذه على الجزيرة وشمال العراق والموصل وسنجار وماردين وديار بكر، وبسط نفوذه على الحجاز.

يقول أبو شامة المقدسي في كتابه "الروضتين في أخبار الدولتين": (لما فتح السلطان حصن بزاعة ومنبج، أيقن من هم تحت سلطتهم بخروج ما في أيديهم من المعاقل والقلاع، ونصبوا الحبائل للسلطان. فكاتبوا سناناً صاحب الحشيشية مرة ثانية، ورغبوه بالأموال والمواعيد، وحملوه على البتاع، فأرسل، لعنه الله، جماعة من أصحابه فجاؤوا بزي الأجناد، ودخلوا بين المقاتلة وباشروا الحرب وأبلوا فيها أحسن البلاء، وامتزجوا بأصحاب السلطان علهم يجدون فرصة ينتهزونها. فبينما السلطان يوماً جالس في خيمة جاولي، والحرب قائمة والسلطان مشغول بالنظر إلى القتال، إذ وثب عليه أحد الحشيشية وضربه بسكينة على رأسه، وكان محترزاً خائفاً من الحشيشية، لا يترك الزردية عن بدنه ولا صفائح الحديد عن رأسه؛ فلم تصنع ضربة الحشيشيّ شيئاً لمكان صفائح الحديد، فأحس الحشيشي بها على رأس السلطان، فسبح يده بالسكينة إلى خد السلطان فجرحه وجرى الدم على وجهه؛ فتتعتع السلطان بذلك.

ولما رأى الحشيشي ذلك هجم على السلطان وجذب رأسه، ووضعه على الأرض وركبه لينحره؛ وأدرك من كان حول السلطان دهشة أخذت عقولهم، وحضر في ذلك الوقت سيف الدين بازكوج. وقيل: إنه كان حاضراً، فاخترط سيفاً وضرب الحشيشي فقتله. وجاء آخر من الحشيشية أيضاً يقصد السلطان، فاعترضه الأمير داود بن منكلان الكردي وضربه بالسيف، وسبق الحشيشي إلى ابن منكلان فجرحه في جبهته، وقتله ابن منكلان، ومات ابن منكلان من ضربة الحشيشي بعد أيام. وجاء آخر من الباطنية فحصل في سهم الأمير علي بن أبي الفوارس فهجم على الباطني، ودخل الباطني فيه ليضربه فأخذه علي تحت إبطه، وبقيت يد الباطني من وراته لا يتمكن من ضربه، فصاح علي: (اقتلوه واقتلوني معه)، فجاء ناصر الدين محمد بن شيركوه فطعن بطن الباطني بسيفه، وما زال يخضخضه فيه حتى سقط ميتاً، ونجا ابن أبي الفوارس. وخرج آخر من الحشيشية منهزماً، فلقيه الأثير شهاب الدين محمود، خال السلطان، فتنكب الباطني عن طريق شهاب الدين فقصده أصحابه وقطعوه بالسيوف.

وأما السلطان فإنه ركب من وقته إلى سرادقه ودمه على خده سائل، وأخذ من ذلك الوقت في الاحتراس والاحتراز، وضرب حول سرادقه مثال الخركاه، ونصب له في وسط سرادقه برجاً من الخشب كان يجلس فيه وينام، ولايدخل عليه إلا من يعرفه. وبطلت الحرب في ذلك اليوم، وخاف الناس على السلطان، واضطرب العسكر وخاف الناس بعضهم من بعض، فالجأت إلى ركوب السلطان ليشاهده الناس، فركب حتى سكن العسكر).

يقول ابن تغري بردي في (النجوم الزاهرة) تحت السنة الخامسة من سلطنة صلاح الدين يوسف بن أيوب على مصر (٥٧١هـ): (وفيها وثبت الإسماعيلية على السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وهو على أعزاز، إذ جاءه ثلاثة في زي الأجناد فضربه واحد بسكين في رأسه فلم يجرحه وخدشت السكين خده، وقتل الثلاثة. فرحل صلاح الدين إلى حلب فلما نزل بها بعث إليه الملك الصالح إسماعيل بن الملك العادل نور الدين محمود (الصبي) أخته خاتون بنت نور الدين في الليل، فدخلت عليه فقام قائماً وقبل الأرض لها وبكى على نور الدين، فسألته أن يرد عليهم أعزاز فأعطاها إياها، وقدّم لها من الجواهر والتحف شيئاً كثيراً، واتفق مع الملك الصالح أن من حماه وما فتحه إلى مصر له وباقي البلاد الحلبية للصالح. وفيها قدم شمس الدولة توران شاه بن أيوب أخو صلاح الدين من اليمن إلى دمشق في سلخ ذي الحجة).

زواج صلاح الدين من ارملة نور الدين: في السنة السادسة من سلطنة صلاح الدين يوسف بن أيوب على مصر، وهي سنة ٥٧٢هـ، تزوج السلطان صلاح الدين يوسف بالخاتون عصمة الدين بنت الأمير معين الدين أنر زوجة الملك العادل نور الدين محمود؛ وكانت بقلعة دمشق.

وهكذا عضّد السلطان صلاح الدين مُلكه بالزواج من أرملة نورالدين، ثم بسط نفوذه على حلب والموصل عامي ١١٧٦، و١١٧٧م على التوالي.

تمرّد السودان: وبلغ صلاح الدين أن إنساناً يقال له: "الكنز" جمع بأسوان خلقاً كثيراً من السودان وزعم أنه يعيد الدولة العبيدية المصرية، وكان بعض أهل مصر يؤثرون عودهم وانضافوا إليه، فسيّر صلاح الدين إليه جيشاً كثيفاً وجعل مقدمه أخاه الملك العادل، فساروا والتقوا به وكسروه في السابع من صفر سنة ٥٧٠هـ.

وكانت في ٥٧٢هـ فتنة مقدم السودان من صعيد مصر سار من الصعيد إلى مصر في مئة ألف أسود ليعيد الدولة المصرية الفاطمية فخرج إليه أخو صلاح الدين الملك العادل أبو بكر وأبو الهيجاء الهكاري وعز الدين موصك بمن معهم من عساكر مصر والتقوا مع السودان، فكانت بينهم وقعة هائلة قتل كبير السودان المذكور ومن معه. قال الشيخ شمس الدين يوسف في مرآة الزمان: "يقال: إنهم قتلوا منهم ثمانين ألفاً وعادوا إلى القاهرة. ثم بعد ذلك استقرت لصلاح الدين قواعد الملك.

وأبطل صلاح الدين في ٥٧٢هـ المكوس التي كانت تؤخذ من الحاج بجدة مما يحمل في البحرة وعشر صاحب مكة عنها في كل سنة ثمانية آلاف إردب قمحاً تحمل إليه في البحر فتفرق في أهل الحرمين. وفيها عمر صلاح الدين مدرسة الشافعي بالقرافة وتولى الشيخ نجم الدين الخبوشاني عمارتها. وعمر البيمارستان في القصر ووقف عليه الأوقاف. وبنيت قلعة الجبل بالقاهرة في عام ٥٧٧هـ (قلعة صلاح الدين في السنة الحادية عشرة من سلطنة صلاح الدين).

حماية الحرمين الشريفين: خرج صلاح الدين الأيوبي بعساكر العاضد إلى الشام (حيث مملكة القدس) في جمادى الآخرة عام ٥٦٦هـ (١١٧٠-١١٧١م)، فأغار على غزة وعسقلان والرملة وعلى مقاطعتي شرق الأردن، وقلاع الشوبك والكرك التي كان الصليبيون يسيطرون عليها. ثم مضى إلى مدينة أيلة (إيلات) وكان بها قلعة فيها جماعة من الفرنج، والتقاه الأسطول في البحر، فافتتحها وقتل من فيها وشحنها بالرجال والعدد، وكان على درب

الحجاز منهم خطر عظيم. وقطع صلاح الدين بذلك خطوط التواصل بين مملكة القدس وبين البحر الأحمر، فقد جعل إيلات مقرّ قيادة جنده وأسطوله البحري؛ لحماية الحجاز (مكة والمدينة) من غارات الصليبيين، ولتأمين سلامة الحجيج إلى بيت الله الحرام. ثم عاد صلاح الدين إلى مصر في جمادى الآخرة (انظر فيما سيأتي).

الحرب مع الصليبيين: بينما كان صلاح الدين يعمل على بسط نفوذه على عمق سوريا فقد كان غالباً يترك الصليبيين لحالهم مرجئاً المواجهة معهم، وإن كانت غالباً لم تغب عنه حتميتها، لكنه كان عادة ما ينتصر عندما تقع مواجهة معهم. وكان الاستثناء هو معركة مونتجيسارت في ٢٥ تشرين الثاني/نوفمبر ١١٧٧م، إذ لم يُبدِ الصليبيون مقاومة، فلم يوقف صلاح الدين قوات جنوده من السعي وراء الغنائم فتشتت، فهاجمته قوات بولدوين السادس ملك أورشليم القدس وأرناط وفرسان المعبد وهزمته. لكن صلاح الدين عاد وهاجم الإمارات الفرنجية من الغرب، وانتصر على بولدوين في معركة مرج عيون في ١١٧٩م، وانتصر أيضاً في ١١٨٠م في موقعة خليج يعقوب. ثم كانت الهدنة بين الصليبيين وصلاح الدين في ١١٨٠م.

لكن غارات الصليبيين عادت فحفزت صلاح الدين على الرد. فقد كان أرناط يتحرش بالتجارة وبالحجّاج المسلمين بواسطة أسطول له في البحر الأحمر، فبنى صلاح الدين أسطولاً من ٣٠ سفينة لمهاجمة بيروت في ١١٨٢م، عندها هدد أرناط بمهاجمة مكة والمدينة، حاصر صلاح الدين حصن الكرك معقل أرناط مرتين في عامي ١١٨٣ و١١٨٤م، فردّ أرناط بكل خبث بمهاجمته لقوافل حجاج المسلمين الآمنين العزّل من السلاح لإحرامهم عام ١١٨٥م.

صورتان تفصيليتان للامع المجاهد الزاهد البطل السلطان الناصر "صلاح الدين الأيوبي"
حسب رؤية من شاهده من صليبيّ أوروبا في العصور الوسطى
(لاحظ الشبه بين الصورتين على الرغم من اختلاف العمر بينهما
وانظر سماحة وجهه، وطول لحيته، وعمامته التي شبهها الرسّام بتاج ملوك أوروبا)

قال ابن السبكي في الطبقات الكبرى: (له من الفتوحات التي خلصها من أيدي الفرنج قلعة أيلة، وطبريا، وعكا، والقدس، والخليل، والكرك، والشوبك، ونابلس، وعسقلان، وبيروت، وصيدا، وبيسان، وغزة، ولد، وحيفا، وصفوريا، ومعليا، والفولة، والطور، وإسكندرونة، وهفوس، ويافا، وأرسوف، وقيسارية، وجبل، ونبل، وصهيكه، وعفر بلا، واللجون، ولستمة، وباقون، ومجدل يابا، وتل الصافية، وبيت نوبا، والطرون، والجيب، وبيرا، وبيت لحم، وريحاء، وقرا، واحصر الدير، ودمرا، وقلقيليا، وصرير الزيت، والوعر، والهرمس، وتفليسا، والعازريا، وتقوع، والكرك، ومجدل، والحار غير في جبل عاملة، والشقيف، وسيسطليا ويقال: بها قبر زكريا، وجبيل، وكوكب، وأنطرطوس واللاذقية، وبكسرائيل، وصهيون، وجبلة، وقلعة العبد، وقلعة الجماهرية، وبلاطنس، والشغر، وبكاس، وسمر سامية، وبزرية، ودربساك، وبغراس، وصفد. وله مصافات يطول شرحها.

فتوحات صلاح الدين (١١٧٤-١١٨٩م).

وافتتح كثيراً من بلاد النوبا من يد النصارى، وكانت مملكته من المغرب إلى تخوم العراق ومعها اليمن والحجاز، فملك ديار مصر بأسرها مع ما انضم إليها من بلاد المغرب والشام بأسرها مع حلب وما والاها، وأكثرها ديار ربيعة وبكر والحجاز بأسره واليمن بأسره، ونشر العدل في الرعية، وحكم بالقسط بين البرية، وبنى المدارس والخوانق، وأجرى الأرزاق على العلماء والصلحاء، مع الدين المتين والروع والزهد والعلم. وكان يحفظ القرآن والتنبيه والحماسة. وهو الذي ابتنى قلعة القاهرة على جبل المقطم التي هي الآن دار السلاطين (تسمى اليوم قلعة صلاح الدين)، ولم يكن للسلاطين قبلها إلا دار الوزارة بالقاهرة. وفتح بلاد المسلمين حران، وسروج، والرها، والرقة، والبيرا، وسنجار، ونصيبين، وآمد. وملك حلب، والمواريخ، وشهرز. وحاصر الموصل إلى أن دخل صاحبها تحت طاعته. وفتح عسكره طرابلس الغرب وبرقة من بلاد المغرب، وكسر عسكر تونس، وخطب بها لبني العباس. ولو لم يقع الخلف بين عسكره الذين جهزهم إلى المغرب لملك الغرب بأسره، ولم يختلف عليه مع طول مدته أحد من عسكره على كثرتهم. وكان الناس يأمنون ظلمه لعدله، ويرجون رفده لكثرته، ولم يكن لمبطل ولا لصاحب هزل عنده نصيب. وكان إذا قال صدق، وإذا وعد وفى، وإذا عاهد لم يخن. وكان رقيق القلب جداً.

ورحل إلى الإسكندرية بولديه الأفضل والعزيز لسماع الحديث من السلفي، ولم يعهد ذلك لملك بعد هارون الرشيد، فإنه رحل بولديه الأمين والمأمون إلى الإمام مالك لسماع الموطأ. ومن صنائع السلطان صلاح الدين أنه أسقط المكوس والضرائب عن الحجاج بمكة، وقد كان يؤخذ منهم شيء كثير. ومن عجز عن أدائه حُبس. وقد كان الخليفة المستضيء أرسل إليه في سنة أربع وسبعين خلعاً سنية، وزاد في ألقابه "معز أمير المؤمنين". ثم لما ولي الخليفة الناصر في سنة ست وسبعين أرسل إليه خلعة الاستمرار، ثم أرسل إليه في سنة اثنتين وثمانين يعتبه في تلقيبه بالملك الناصر، مع أنه لقب أمير المؤمنين، فأرسل يعتذر إليه بأن ذلك كان من أيام الخليفة المستضيء، وأنه إن لقبه أمير المؤمنين بلقب، فهو لا يعدل عنه، وتأدب مع الخليفة كل الأدب). انتهى

موقعة حطين على ارض فلسطين (الجمعة ١٤ ربيع الآخر ٥٨٣هـ - ٤ تموز ١١٨٧م:

دخل الصليبيون القدس في ٢٣ شعبان سنة ٤٩٢هـ الموافق ١٥ تموز/ يوليو ١٠٩٩م وقاموا بذبح أهلها من المسلمين واليهود رجالاً ونساءً واطفالاً، وقتلوا ما بين ٦٠ ومئة ألف. وقد هزت هذه الهزيمة المسلمين في شتى بقاع الأرض. وبعد نحو قرن من الزمان وضع صلاح الدين خطة حربية محكمة، وأحسن اختيار الزمان والمكان المناسبين للمعركة المنتظرة، فتقدمت الجيوش تحت قيادته من الشرق نحو فلسطين. وبدأ بمحاصرة مدينة طبريا، وهي مهمة لدى الصليبيين، ثم أسرع واستولى عليها، وأحاط بها من كل جانب، وأحكم قبضته على مصادر المياه في المنطقة كلها. عندئذ تجمعت جيوش الصليبيين وحاولت مهاجمته والتقدم لاسترجاع طبريا. وهذا ما أراده صلاح

الدين، فقام على الفور بمحاصرة القوات الصليبية في وادي ضيق بين جبلين ومنعهم من الوصول إلى خزانات المياه، إذ دارت المعركة في ٣ تموز ١١٨٧م في فصل الصيف الشديد الحرارة في هذه البقعة من فلسطين، والصليبيون في الحديد، وهذا يزيد الطين بلة، وتحركت قوات صلاح الدين في جنح الظلام، وأشعلت النيران حولهم في صبيحة اليوم الثاني للمعركة ٤ تموز.

ثم حاصرهم حصاراً محكماً، وأمطرهم رماة صلاح الدين من خلال الدخان الذي أعمى أبصارهم بوابل من السهام (٤٠٠ سهم في كل دفعة)، وهذا زاد في جهدهم وعنائهم. ثم فتح لهم ثغرة ضيقة للاندفاع منها إلى الماء وهم غاية في العطش، فاستطاعت قواته أن تهجم عليهم من كل جانب وتحصدهم حصداً، ودارت معركة حامية بين الطرفين وانتصر صلاح الدين نصراً مبيناً على جيوش الصليبيين. وكانت هزيمتهم في حطين بداية النهاية لاحتلالهم الشرق الإسلامي.

ولنترك ابن تغري بردي يصف وقعة حطين في كتابه "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة": (وقعة حطين المباركة على المسلمين: وكانت في يوم السبت رابع عشر شهر ربيع الآخر سنة ٥٨٢هـ في وسط نهار الجمعة. وكان صلاح الدين كثيراً ما يقصد لقاء العدو في يوم الجمعة عند الصلاة تبركاً بدعاء المسلمين والخطباء على المنابر، فسار في ذلك الوقت واجتمع له من العساكر الإسلامية عدد يفوت الحصر، وكان قد بلغه أن العدو اجتمع في عدة كثيرة بمرج صفوريا بأرض عكا عندما بلغهم اجتماع العساكر الإسلامية، فسار صلاح الدين ونزل طبريا على سطح الجبل ينتظر قصد الفرنج. فلما بلغهم نزوله في الموضع المذكور لم يتحركوا ولا خرجوا من منزلتهم، وكان نزولهم في الموضع المذكور يوم الأربعاء الحادي والعشرين من شهر ربيع الآخر. فلما رآهم لا يتحركون نزل جريدة على طبريا وترك الأطلاب على حالها قبالة العدو، ونزل طبريا وهاجمها وأخذها في ساعة واحدة، وانتهب الناس ما فيها وأخذوا في القتل والسبي والحريق، وبقيت القلعة ممتنعة بمن فيها.

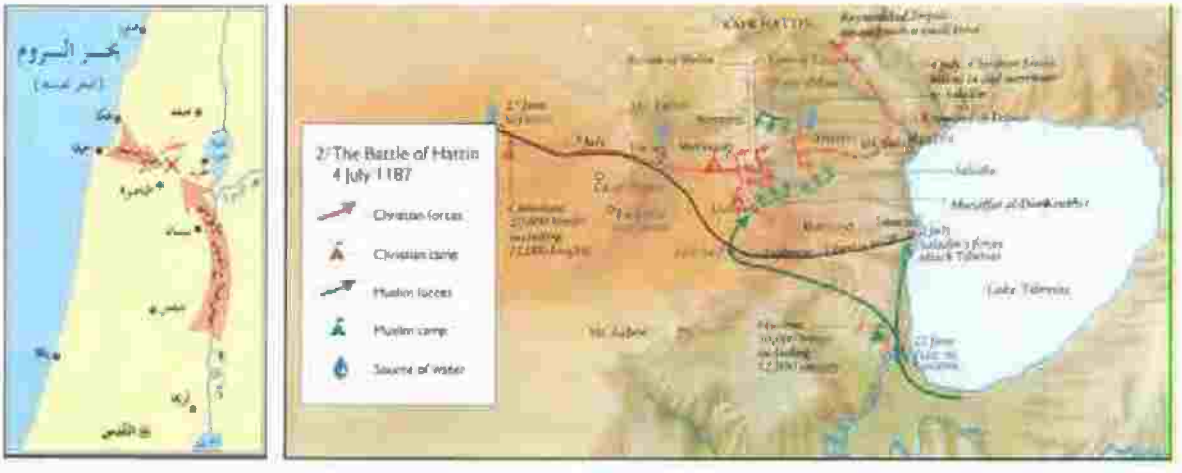

من موقعة "حطين" الفاصلة إلى تحرير القدس يقع موقع "حطين" قرب مواقع المعارك الفاصلة في التاريخ: اليرموك (على نهر اليرموك)، وعين جالوت (قرب بيسان)

ولما بلغ العدو ما جرى في طبريا قلقوا لذلك، ورحلوا نحوها فبلغ السلطان صلاح الدين ذلك فترك على طبريا من يحاصرها ولحق بالعسكر والتقى بالعدو على سطح جبل طبريا الغربي منها، وذلك في يوم الخميس الثاني والعشرين من شهر ربيع الآخر. ثم حال الليل بين العسكرين فناما على المصاف إلى بكرة يوم الجمعة الثالث والعشرين منه، فركب العسكران وتصادما والتحم القتال واشتد الأمر ودام القتال حتى لم يبق إلا الظفر. ثم حال الليل بينهم وناما على المصاف وتحقق المسلمون أن من ورائهم الأردن ومن بين أيديهم بلاد العدو وأنهم لا ينجيهم إلا القتال والجهاد.

وأصبحوا من الغد، فحملت أطلاب المسلمين من جميع الجوانب وحمل القلب وصاحوا صيحة رجل واحد: الله أكبر، وألقى الله الرعب في قلوب الكافرين، وكان حقاً عليه نصر المؤمنين.

معركة حطين أو قرنا حطين (أي وادي حطين بين الجبلين) عام ١١٨٧، التي قلبت موازين القوى لمصلحة المسلمين ضدّ الصليبيين. فحظر سيطرة المسلمين (أصحاب الدروع السوداء) على المياه، ومنع الصليبيين (ذوي الدروع الصفراء والرايات) من الوصول إلى المياه، وتطويقهم، وإبادة حضرائهم.

ولما أحس الملك القومص (الكونت ريموند الثالث أمير طرابلس) بالخذلان هرب في أوائل الأمر وقصد جهة صور، فتبعه جماعة من المسلمين فنجا منهم وأحاط المسلمون بالكافرين من كل جانب وأطلقوا عليهم السهام وحملوا عليهم بالسيوف وسقوهم كأس الحمام وانهزمت طائفة منهم، فتبعهم المسلمون يقتلونهم واعتصمت طائفة منهم بتل يقال له تل حطين، وهي قرية عندها قبر النبي شعيب عليه السلام، فضايقهم المسلمون وأشعلوا حولهم النيران واشتد بهم العطش فاستسلموا للأسر خوفاً من القتل فأسر مقدموهم وقتل الباقون، وكان ممن أسر من مقدميهم الملك جفري (يقصد غي لوزنيان) وأخوه الملك والبرنس أرناط صاحب الكرك والشوبك وابن الهنفري وابن صاحب طبريا ومقدم الديوية (أي فرسان الهيكل). قال ابن شداد: لقد حكى لي من أثق به أنه رأى بحوران شخصاً واحداً ومعه نيف وثلاثون أسيراً ربطهم بطنب خيمة لما وقع عليهم من الخذلان. ثم إن الملك القومص الذي هرب في أول الوقعة وصل إلى طرابلس وأصابه ذات الجنب فهلك.

وأما مقدم الأسبتار والديوية فقد قتلهما السلطان صلاح الدين، وقتل من بقي من أصحابهما حياً. وأما البرنس أرناط فإن السلطان كان نذر أنه إن ظفر به قتله، وذلك أنه كان عبر إليه بالشوبك قوم من الديار المصرية في حال الصلح فغدر بهم وقتلهم فناشدوه الصلح الذي بينه وبين السلطان، فقال ما يتضمن الاستخفاف بالنبي ﷺ، وبلغ ذلك السلطان فحملته حمية دينه على أن أهدر دمه.

ولما فتح الله عليه بالنصر جلس بالدهليز: يعني الخيمة، فإنها لم تكن نصبت بعد لشغل السلطان بالجهاد، وعُرض عليه الأسرى وصار الناس يتقربون إليه بما في أيديهم منهم. وهو فرح بما فتح الله عليه، و شخص الملك جفري وأخاه والبرنس أرناط، وناول السلطان الملك جفري (يقصد غي لوزنيان) شربة من جلاب وثلج فشرب منها وكان على أشد حال من العطش، ثم ناولها البرنس، ثم قال السلطان للترجمان: قل للملك أنت الذي سقيته، وأما أنا فما سقيته، فإنه كان من جميل عادة العرب وكريم أخلاقهم أن الأسير إذا أكل أو شرب من مال من أسره أمن؛ فلذا قال السلطان للترجمان: أنت الذي سقيته.

ثم أمر السلطان بمسيرهم إلى موضع عينه لهم فأكلوا شيئاً ثم عادوا بهم ولم يبق عند السلطان سوى بعض الخدم فاستحضرهم وأقعد الملك في دهليز الخيمة، فطلب البرنس أرناط (أي رينو دو شاتيون) وأوقفه بين يديه وقال له: (ها أنا أنتصر لمحمد منك). ثم عرض عليه الإسلام فلم يفعل، فسلّ النيمجاة فضربه بها فحلّ كتفه، وتمّم قتله من حضر، وأُخرجت جثته فرميت على باب الخيمة.

السلطان الناصر صلاح الدين بعد انتصاره في معركة حطين،
وهو في خيمته يبتّ في أسراء الصليبيين، وفيهم ملكهم غي لوزنيان

قتل أرناط (أي رينو دو شاتيون) الذي قتل الحجيج
وسبّ النبيّ ﷺ

قلما رآها الملك جفري (يقصد غي لوزنيان) لم يشك أنه سيُلحقه به، فاستحضره السلطان وطيّب قلبه وقال له: (لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك، إلا أن هذا تجاوز الحد بجرأته على الأنبياء صلوات الله عليهم)، ثم أمره بالانصراف. بيّات الناس تلك الليلة على أتم سرور.

يقول العماد الكاتب في هذه الواقعة قصيدة طنانة منها:

حططت على حطين قدر ملوكهم ... ولم تبق من أجناس كفرهم جنسا

كسرتهم إذ صحّ عزمك فيهم ... ونكستهم إذ صار سهمهم نكسا

بواقعة رجّت بها الأرضُ جيشهم ... دماراً كما بسّت جبالهم بسّا

بطون ذئاب الأرض صارت قبورهم ... ولم ترضَ أرضٌ أن تكون لهم رمسا)

حطين فاتحة الفتوح:

لقت معظم حاميات الصليبيين حتفها بعد اشتراكها في حطين. ثم رحل السلطان بعد أن تسلم طبريا ونزل على عكا في يوم الأربعاء سلخ شهر ربيع الآخر، وقاتلها بكرة يوم الخميس مستهل جمادى الأولى سنة ٨٣هـ، وأخذها واستنقذ من كان فيها من أسارى المسلمين: وكانوا أكثر من أربعة آلاف أسير، واستولى على ما كان فيها من الأموال والذخائر والبضائع: لأنها كانت مظنة التجار، وتفرقت العساكر في بلاد الساحل يأخذون الحصون والقلاع.

ثم سار السلطان من عكا ونزل على تبنين يوم الأحد حادي عشر جمادى الأولى، وهي قلعة منيعة، فحاصرها حتى أخذها في يوم الأحد ثامن عشر جمادى الأولى المذكور عنوة. ثم رحل عنها إلى صيدا فنزل عليها وتسلمها في غد يوم نزوله عليها. ثم رحل عنها وأتى بيروت فنازلها يوم الخميس الثاني والعشرين من جمادى الأولى حتى أخذها في يوم الخميس تاسع عشرين جمادى الأولى.

ولما فرغ باله من هذا رأى قصد عسقلان، ولم ير الاشتغال بصور بعد أن نزل بها... فأتى عسقلان ونزل بها يوم الأحد سادس عشر جمادى الآخرة. وأقام بها إلى أن تسلم أصحابه مدينة غزة وبيت جبريل والنطرون من غير قتال وكان بين فتح عسقلان وأخذ الفرنج لها ثانياً من المسلمين ٣٥ عاماً.

ولما تسلم السلطان عسقلان والبلاد المحيطة بالقدس شمّر عن ساق الجد والاجتهاد في قصد القدس المبارك واجتمع إليه العساكر التي كانت متفرقة في الساحل، فسار بهم نحو القدس معتمداً على الله تعالى ومفوضاً أمره إليه، منتهزاً الفرصة في فتح باب الخير الذي حث على انتهازه ﷺ بقوله: «من فتح له باب خير فلينتهزه فإنه لا يعلم متى يغلق دونه».

ولما استولى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب على مصر كتب إلى الوزير ببغداد على يد شمس الدين محمد بن المحسن بن الحسين بن أبي المضاء البعلبكي، الذي خطب أول شيء بمصر لبني العباس بإشارة السلطان صلاح الدين وكان الكتاب من إنشاء القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني. وكان مما فيه: (وقد توالت الفتوح غرباً ويمناً وشاماً، وصارت البلاد بل الدنيا، والشهر بل الدهر، حرماً حراماً، وأضحى الدين واحداً بعد ما كان أديانا، والخلافة إذا ذكر بها أهل الخلاف لم يخروا عليها صماً وعمياناً، والبدعة خاشعة، والجمعة جامعة، والمذلة في شيع الضلال شائعة: وذلك بأنهم اتخذوا عباد الله من دونه أولياء، وسموا أعداء الله أصفياء، وتقطعوا أمرهم بينهم شيعاً، وفرقوا أمر الأمة وكان مجتمعاً، وكذبوا بالنار فعجلت لهم نار الحتوف، ونثرت أقلام الظبا حروف رؤوسهم نثر الأقلام للحروف، ومرقوا كل ممزق، وأخذ منهم كل مخنق، وقطع دابرهم، ووعظ بهم غابرهم، ورغمت أنوفهم ومنابرهم، وحقت عليهم الكلمة تشريداً وقتلاً، وتمت كلمات ربك صدقاً وعدلاً. وليس السيف عمن سواهم من كفار الفرنج بصائم، ولا النيل عن السير إليهم بنائم). (النجوم الزاهرة لابن تغري بردي جزء ٢)

تابع صلاح الدين تحرير البلاد من الفرنجة، حتى لم يبق معهم من المدن المنيعة سوى صور التي صارت مكان تجمعهم وانطاكيا وطرابلس. ولقد حدث ذلك في عام ونصف، وهي مدة قياسية. وقبيل فتح القدس، كان صلاح الدين قد استعاد كل المدن تقريباً من الصليبيين، ما عدا صور التي كانت المدينة الوحيدة الباقية في يد الصليبيين ومن الناحية الإستراتيجية ربما كان من الأفضل لصلاح الدين فتح صور قبل القدس: لكون الأولى موقعها على البحر تشكل مدخلاً لإمدادات الصليبيين من أوروبا، لكنه اختار البدء بالقدس؛ بسبب أهميتها الروحية لدى المسلمين.

وبمجيء عام ٥٨٦هـ-١١٨٩م، لم يبقَ في أيدي الصليبيين من كل أرض سوريا وفلسطين سوى صور وأنطاكيا وطرابلس وبعض مدن وقلاع صغيرة مبعثرة هنا وهناك. والحق أن هذه الأماكن الساحلية التي استهان المسلمون بها وتركوها في أيدي الصليبيين كانت سبباً في كثير من المتاعب للدولة الإسلامية بعد ذلك، فقد تجمع فيها الصليبيون الفارّون من الأماكن الأخرى، وقاموا بمهاجمة البلاد الإسلامية المجاورة، واستولوا على بعضها، وساعدوا الحملات الصليبية الثالثة التي جاءت من الغرب وكبدت المسلمين خسائر فادحة.

كانت صور في ذلك الوقت تحت إمرة كونراد أمير مونتفرات الذي حصنها فصمدت أمام حصارين لصلاح الدين. ثم أطلق صلاح الدين سراح غي دي لوزنيان وأعاده إلى زوجته سيبلا ملكة أورشليم السابقة، فلجأ أولاً إلى طرابلس ثم إلى أنطاكيا. وحاولا عام ١١٨٩م استعادة صور، لكن كونراد حاكمها رفض دخولهما؛ لأنه لم يكن يعترف بهما بعد فتح المسلمين للقدس، فذهب لوزنيان لحصار عكا ومن ثم جاءته إمدادات الحملة الصليبية الثالثة، فاستولوا عليها.

فتح القدس يوم الجمعة ٢٧ رجب (ليلة المعراج) ٥٨٣هـ:

وكان نزول السلطان على القدس في يوم الأحد ١٥ من شهر رجب سنة ٥٨٣هـ، ونزل بالجانب الغربي (فاتخذ صلاح الدين جبل الزيتون مركزاً لجيوشه) وكان مشحوناً بالمقاتلة من الخيالة والرجالة، فكانوا يزيدون على ستين ألفاً خارجاً عن النساء والصبيان.

ثم انتقل السلطان إلى مصلحة رآها إلى الجانب الشمالي في يوم الجمعة ٢٠ من رجب ونصب عليها المجانيق وضايق البلد بالزحف والقتال، حتى أخذ النقب في السور مما يلي وادي جهم، ولما رأى العدو ما نزل بهم من الأمر الذي لا مدفع لهم عنه، وظهرت لهم أمارات فتح المدينة وظهور المسلمين عليهم، وكان قد اشتد روعهم لما جرى على أبطالهم، فاستكانوا لطلب الأمان، وسلموا المدينة في يوم الجمعة ٢٧ من رجب ليلة المعراج المنصوص عليها في القرآن الكريم. فيسّر الله تعالى عوده إلى المسلمين في مثل زمان الإسراء بنبيهم ﷺ.

وكان فتحاً عظيماً شهده من العلماء خلق ومن أرباب الحرب والزهد عالم كثير، وارتفعت الأصوات بالضجيج بالدعاء والتهليل والتكبير، وصُليت فيه الجمعة يوم فتحه، ونُكس الصليب الذي كان على قبة الصخرة، وكان الصليب شكلاً عظيماً، ونصر الله الإسلام.

وكان الفرنج قد استولوا على القدس - بعد فتحه الأول في زمن عمر - في يوم الجمعة ٢٣ من شعبان سنة ٤٩٢هـ في خلافة المستعلي أبي القاسم أحد خلفاء مصر من بني عبيد، وكان من وزارة بدر الجمالي بديار مصر؛ فتكون القدس أقامت بيد الفرنج نيفاً وتسعين سنة من يوم احتلاله في خلافة المستعلي إلى أن فتحه السلطان صلاح الدين في هذه المرة ثانياً. ولله الحمد.

قال ابن شداد: وكانت قاعدة الصلح أنهم قطعوا على أنفسهم عن كل رجل ٢٠ ديناراً وعن كل امرأة ٥ دنانير صورية وعن كل صغير ذكر أو أنثى ديناراً واحداً، فمن أحضر قطيعته نجا بنفسه وإلا اخذ أسيراً. وأفرج عمن كان بالقدس من أسارى المسلمين وكانوا خلقاً عظيماً.

وأقام السلطان بالقدس يجمع الأموال ويفرقها على الأمراء والرجال، ثم رسم بإيصال من قام بقطيعته من الفرنج إلى مأمنه وهي مدينة صور، فلم يرحل السلطان من القدس ومعه من المال الذي جبي شيء؛ وكان يقارب مئتي ألف دينار أو عشرين ألفاً.

وعلى عكس ما فعل الصليبيون عند احتلالهم القدس وقيامهم بارتكاب مذابح ضد السكان دون تمييز بين المسلمين أو النصارى، الذين كانوا يعيشون جنباً الى جنب قروناً عديدة تحت راية الحضارة الإسلامية والدين

الإسلامي الحنيف. فقد عفا صلاح الدين عن الأسرى من النساء والأطفال والشيوخ والعجزة. وقدّم لهم العون والمساعدة التي تبلغهم بلادهم لمن أراد العودة منهم، وأمّن من رغب في البقاء.

فتح مدينة القدس يوم الجمعة ٢٧ رجب (ليلة المعراج) ٥٨٣هـ
وتسليم الصليبيين سلاحهم وخروجهم من القدس صاغرين بالفدية.

رحمة صلاح الدين:

- ووفى المسلمون لهم بوعد الأمان، وكان ضمن من خرجوا البطريرك الأكبر يحمل أموال البيع (الكنائس) وذخائر المساجد التي كان الصليبيون قد غنموها في فتوحاتهم. وفي هذه الأثناء، قال بعض المسلمين لصلاح الدين: إن هذا البطريرك يقوى بهذا المال على حرب المسلمين! فأجاب صلاح الدين: الإسلام لا يعرف الغدر، وقد أمّنا وعلينا الوفاء. وخرج الرجل بهذه الأموال.

- قال العماد: وقد كان للمسلمين لصوص يدخلون إلى خيام الفرنج فيسرقون. فاتفق أن بعضهم أخذ صبياً رضيعاً من مهده، ابن ثلاثة أشهر، فوجدت عليه أمه وجداً شديداً، واشتكت إلى ملوكهم: فقالوا لها: إن سلطان المسلمين رحيم القلب، فاذهبي إليه، فجاءت إلى السلطان صلاح الدين فبكت، وشكت أمر ولدها. فرق لها رقة شديدة، ودمعت عيناه، فأمر بإحضار ولدها، فإذا هو بيع في السوق، فرسم بدفع ثمنه إلى المشتري، ولم يزل واقفاً حتى جيء بالغلام، فدفعه إلى أمه، وحملها على فرس إلى قومها مكرمة.

- ويروى أن مجموعة من النبيلات والأميرات قلن لصلاح الدين وهن يغادرن بيت المقدس: "أيها السلطان! لقد منّنت علينا بالحياة، ولكن كيف نعيش وأزواجنا وأولادنا في أسرك؟! وإذا كنا ندع هذه البلاد إلى الأبد فمن سيكون معنا من الرجال للحماية والسعي والمعاش؟! أيها السلطان! هبْ لنا أزواجنا وأولادنا، فإنك إن لم تفعل أسلمتنا إلى العار والجوع". فتأثر صلاح الدين بذلك، فوهب لهن رجالهن. هذا؛ لأن صلاح الدين كان مثالاً للرحمة والعفو وحسن الخلق. وكان مثالاً حسناً لمبادئ الحضارة الإسلامية وعظمة الإسلام.

وفي صلاح الدين وجيوشه بعهد الأمان للصليبيين المغادرين، فلم يغدروا بأحد منهم، خلافاً لفعل الصليبيون من قبل عند دخولهم القدس، ليتبين الفرق الكبير بين تسامح الإسلام والسلوك الحضاري للمسلمين، وبين وحشية الصليبيين وتعصّبهم الديني الأعمى الذي لا يمتّ بصلة إلى الربّ الرحيم. ويصف ذلك جيداً الشاعر أبو الفوارس سعد بن محمد فيقول:

ملكنا فكان العفو منا سجية	فلما ملكتم سال بالدم أبطح
وحللتم قتل الأسارى وطالما	غدونا على الأسرى نمنّ ونصفح
وحسبكم هذا التفاوتُ بيننا	وكلّ إناء بالذي فيه ينضح

وهكذا حرر الناصر صلاح الدين المسجد الأقصى المبارك، وأعاد الأذان والصلاة في ربوع الحرم الإسلامي الثالث في بيت المقدس (المسجد الأقصى المبارك) بعد ٣ أشهر من معركة حطين فاتحة النصر المبين بفلسطين. وقد ارتبط اسم السلطان الناصر لدين الله صلاح الدين الأيوبي باسم حطين وطبريا بفلسطين، والانتصار التاريخي على الأعداء الصليبيين الذين كانوا يدنسون المسجد الأقصى المبارك، وحولوه إلى أجزاء متناثرة: كنيسة وملاهٍ وحانات، وإصطبلات ومخازن أعلاف وحبوب، فجاء صلاح الدين الأيوبي بجيشه المسلم، ورشه بماء الورد في ٢٧ رجب ٥٨٣هـ / تشرين الأول ١١٨٧، وأعاد الحق إلى نصابه، وأجبر الصليبيين المحتلين المعتدين على الخروج تحت ظل السيف الإسلامي، ودفع الجزية عن يد وهم صاغرون. وأزال السلطان ما أحدثه الفرنج من الآثار، وهدم ما أحدثوا من الكنائس، وبنى موضع الكنيسة منها مدرسة للشافعية؛ فجزاه الله عن الإسلام خيراً. ولم يهدم القمامة اقتداء بعمر ﷺ الذي لم يهدمها لما فتح بيت المقدس. وقال في ذلك محمد بن أبي أسعد النسابة:

أترى منامًا ما بعيني أبصرْ	القدسُ يُفتح والنصارى تكسرْ
وقماءة قمّت من الرجس الذي	بزواله وزواله يتطهرْ
وملوكهم في القيد مصفودٌ ولم	يُرَ قبل ذاك لهم مليك يؤسرْ
قد جاء نصر الله والفتح الذي	وعد الرسول فسبحوا واستغفروا
يا يوسف الصدّيق أنت لفتحها	فاروقها عمر الإمام الأطهرْ

ومن الغرائب أن ابن برجان ذكر في تفسير ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ الروم: ١-٢] أن بيت المقدس يبقى في يد الروم إلى سنة ٥٨٣هـ ثم يغلبون، ويُفتح ويصير دار إسلام إلى آخر الأبد؛ أخذاً من حساب الآية، فكان كذلك. قال أبو شامة: (وهذا الذي ذكره ابن برجان من عجائب ما اتفق، وقد مات ابن برجان قبل ذلك بدهر، فإن وفاته سنة ٥٣٦هـ. حرر صلاح الدين بيت المقدس ودخلها في ٢٦ رجب سنة ٥٨٣هـ / تشرين الأول أكتوبر ١١٨٧م؛ أي: بعد ثلاثة أشهر فقط من نصر حطين. ولما كان هذا النصر يبدو بعيداً في ظل ما كان يعانيه المسلمون في ذلك الزمان من ضعف، فقد وصفه نائب صلاح الدين، عماد الدين الأصفهاني، بقوله: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ الطور: ١٥].

وقال المؤرخ الإنجليزي "لين بول" عن فتح بيت المقدس: (لو لم يكن لصلاح الدين من الأعمال الثابتة إلا أخذه بيت المقدس لكان ذلك كافياً لجعله أعظم الفاتحين في عصره، وأكبرهم قلباً، بل لعله كان كذلك في أي عصر من العصور).

وسرعان ما غادر صلاح الدين القدس إلى "صور" يريد تحريرها، فحاصرها، لكن انتصار الأسطول الفرنجي على أسطوله ودخول الشتاء، وتعب الجند وتذمر الأمراء جعله يرجئ ذلك إلى الربيع، وفيه بدأ بحصار حصن كوكب القريب من صور عام ٥٨٤ هـ، وهنا دخل ابن شداد في خدمته، ولقد صرّح ابن شداد أن جميع ما رواه من قبل إنما هو روايته عمن يثق به ممن شاهده، وأن ما سيرويه بعد ذلك مما رآه بعينه عامة.

ملوك أوروبا يقودون الحملة الصليبية الثالثة: ارتجت أوروبا لاسترداد المسلمين للقدس، وأججت انتصارات حطين وسقوط المدن الساحلية نار الحقد في أوروبا، وتصاعدت صيحات إنقاذ الأراضي المقدسة في أرجاء أوروبا. واتجهت

الكنيسة إلى جمع الضرائب للحروب الصليبية، وشجعت الناس على الخروج لقتال المسلمين. وأعلن البابا آن من لم يستطع أن يخرج بنفسه فليتبرع بالمال لكي تغفر له ذنوبه، ثم تطور هذا الأمر إلى إصدار صكوك الغفران لكل من يتبرع لهذه الحرب، أو يخرج فيها. فأرسلت أوروبا الحملة الصليبية الثالثة من أقوى الحملات الصليبية وأكثرها عدداً وعدّة، وأعظمها سلاحاً، وتكونت هذه الحملة من ثلاثة جيوش: ألمانيّة وفرنسيّة وإنجليزية. وموّلت في إنكلترا وأجزاء من فرنسا بضريبة خاصة عُرفت بضريبة صلاح الدين (بالإنجليزية: Saladin tithe).

قاد الحملة ثلاثة من أكبر ملوك أوروبا في ذلك الزمان: ريتشارد (قلب الأسد) ملك إنكلترا، وفيليب أوغسطس ملك فرنسا، وفريدريك بربروسا ملك ألمانيا الإمبراطور الروماني المقدس، لكن هذا الأخير غرق هو وجيشه في أثناء عبوره نهر أرمينيا بآسيا الصغرى (بفضل الله على صلاح الدين).

الحملة الصليبية الثالثة (١١٨٩-١١٩٢م).

فعاد معظم جيشه من حيث أتى، ولم يصل منه إلى الأراضي المقدسة سوى عدد قليل. ووقع عبء الحرب على ريتشارد وفيليب، وتضامُّ الجيشان (الإنجليزي والفرنسي) متحالفين على حصار عكا. وقبل وصول هذين الأخيرين، أخذ الصليبيون يجمعون قواتهم، ويحاولون القيام بعمل مضاد لحركات صلاح الدين. فوجهوا قوتهم لتحاصر عكا من البر، وأساطيلهم لتحاصرها من البحر، وكان في استطاعة صلاح الدين أن يقضي على الجيش الصليبي لولا وصول ريتشارد وجيوشه في ذلك الوقت. وقد طال الحصار البحري – البري مدة عامين كاملين من سنة ٥٨٦هـ-١١٨٩م إلى سنة ٥٨٨هـ-١١٩١م ضرب فيها الفريقان أسمى أمثلة الشجاعة، وأخيراً **سقطت عكا في أيدي الصليبيين بعهد الأمان عام ١١٩١م، ودخلها الملك ريتشار قلب الأسد وخان العهود**، فأُعدم فيها ثلاثة آلاف أسير مسلم فيهم نساء وأطفال (بعد إعطائهم الأمان)، وبوحشية لم تعرفها ديار الإسلام إلا من هؤلاء الوحوش الصليبيين.

واشتبكت جيوش صلاح الدين وجيوش الصليبيين بقيادة ريتشارد في ٧ أيلول/ سبتمبر ١٩١ م في معركة "أرسوف" التي انكسر فيها صلاح الدين، لكن الصليبيين لم يتمكنوا من اجتياح الداخل وبقوا على الساحل، وخابت كل محاولاتهم لغزو القدس، وتصدى صلاح الدين لهؤلاء، وسمد صموداً عظيماً أمام جيوش الصليبيين التي كانت تهدف أساساً إلى احتلال بيت المقدس؛ وهذا اضطر ريتشارد قلب الأسد أخيراً إلى طلب الصلح مع صلاح الدين والرجوع إلى بلاده، ثم لحق به ملك فرنسا. ووقّع ريتشارد في ١١٩٢م معاهدة الرملة مع صلاح الدين؛ بموجبها يكون الشريط الساحلي ما بين يافا وصور تابعاً لمملكة أورشليم الصليبية وتفتح القدس للحجاج المسيحيين المسالمين من دون سلاح.

يوثق ابن تغري بردي في "النجوم الزاهرة" حصار عكا: (ثم بلغه أن الفرنج قصدوا عكا ونزلوا عليها في ثالث عشر شهر رجب من سنة ٥٨٥هـ. ثم سار السلطان وأتى عكا ودخلها بغتة؛ ليقوي قلوب من بها. واستدعى العساكر من كل ناحية. وكان العدو مقدار ألفي فارس وثلاثين ألف راجل.

وتكاثر الفرنج واستفحل أمرهم وأحاطوا بعكا ومنعوا من يدخل إليها ويخرج. وذلك في يوم الخميس سلخ رجب، فضاق صدر لسلطان لذلك، ثم اجتهد في فتح الطريق إليها لتستمر السابلة بالميرة والنجدة، وشاور الأمراء فاتفقوا على مضايقة العدو لفتح الطريق ففعلوا ذلك وانفتح الطريق وسلكه المسلمون، ودخل السلطان عكا فأشرف على أمورها ثم جرى بين الفريقين مناوشات في عدة أيام، وتأخر الناس إلى تل العياضية، وهو مشرف على عكا.

قال ابن خلكان: قال شيخنا ابن شداد: وسمعت السلطان ينشد – وقد قيل له إن الوخم قد عظم بعكا وإن الموت قد فشا بين الطائفتين: "اقتلاني ومالكاً واقتلا مالكاً معي" وهذا الشعر لعبد الله بن الزبير في الأشتر النخعي، اسمه مالك، وكان الأشتر من أصحاب علي بن أبي طالب ﷺ.

قال ابن شداد: ثم إن الفرنج جاءهم الإمداد من البحر واستظهروا على الجماعة الإسلامية بعكا، وكان فيهم الأمير سيف الدين علي بن أحمد الهكاري المعروف بالمشطوب، والأمير بهاء الدين قراقوش الخادم الصلاحي، فضايقوهم أشد مضايقة إلى أن غلبوا عن حفظ البلد.

فلما كان يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة سنة ٥٨٧هـ، خرج من عكا رجل عوّام في البحر ومعه كتب إلى السلطان من المسلمين يذكرون حالهم وما هم فيه، وأنهم تيقنوا الهلاك، ومتى أخذوا البلد عنوة، ضُربت رقابهم، وأنهم صالحوا على أن يسلموا البلد وجميع ما فيه من الآلات والأسلحة والمراكب ومئتي ألف دينار وخمس مئة أسير مجهولين ومئة أسير معينين من جماعتهم وصليب الصلبوت، على أن يخرجوا بأنفسهم سالمين وما معهم من الأموال والأقمشة المختصة بهم وذراريهم ونسائهم، وضمنوا للمركيس – لأنه كان الواسطة في هذا الأمر – أربعة آلاف دينار.

ريتشارد قلب الأسد، ملك إنكلترا، في أثناء الحملة الصليبية الثالثة، وحصار عكا والاستيلاء عليها

فلما وقف السلطان على الكتب المشار إليها، أنكر ذلك تكاراً عظيماً، وعظم عليه هذا الأمر، وجمع أهل الرأي من كبار دولته وشاورهم فيما يصنع، فاضطربت آراؤه وتقسم فكره وتشوّش حاله، وعزم أن تُكتب في تلك الليلة كتباً مع الرجل العوّام الذي قدم عليه بهذا الخبر، ينكر المصالحة على هذا الوجه. وبينما هو يتردد في هذا فلم يشعر إلا وقد ارتفعت أعلام العدو وصلباته وناره على سور البلد، وذلك في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة، وصاح الفرنج صيحة واحدة، وعظمت المصيبة على المسلمين واشتد حزنهم، ووقع من الصياح والعويل والبكاء ما لا يذكر.

ثم خرجت الفرنج بعد أن ملكوا عكا قاصدين عسقلان فأخذوها أيضاً من المسلمين، وساروا على الساحل، والسلطان وعساكره في إثرهم إلى أن وصلوا إلى أرسوف، فكان بينهما قتال عظيم، ونال المسلمين وهنٌ شديد. ثم ساروا على تلك الهيئة نحو عشرة منازل من سيرهم من عكا، وأتى السلطان الرملة، فجاءه من أخبر أن القوم على عزم عمارة يافا وتقويتها بالرجال والعدد والآلات، فأحضر السلطان أرباب مشورته وشاورهم في أمر عسقلان، وهل الصواب

خرابها أم بقاؤها، فاتفقت آراؤهم أن يبقى الملك العادل في قبالة العدو ويتوجه السلطان بنفسه ويخربها خوفاً من أن يصل العدو إليها ويستولي عليها وهي عامرة ويأخذ بها القدس ويقطع بها طريق مصر. وامتنع العسكر من الدخول وخافوا مما جرى على المسلمين بعكا. ورأوا أن حفظ القدس أولى، فتعين خرابها من عدة جهات، وكان هذا الاجتماع يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان من سنة ٥٨٧هـ، فسار إليها السلطان في سحر يوم الأربعاء ثامن عشر شعبان المذكور).

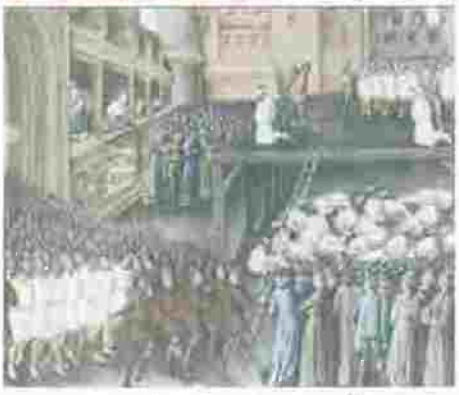

من الأرشيف: وحشية الملك ريتشارد (المسمى زوراً قلب الأسد!) وهو في عكا يُشرف على مجزرة ٣٠٠٠ أسير مسلم من الرجال والنساء والأطفال، بعد إعطائهم الأمان

العلاقة بين صلاح الدين وريتشارد ملك إنكلترا:

كانت العلاقة بين صلاح الدين الأيوبي وريتشارد مثالاً على الفروسية والاحترام المتبادلين، على الرغم من الخصومة العسكرية، بل كانت أفضل من علاقة ريتشارد بملك فرنسا. وعندما مرض ريتشارد بالحمى أرسل إليه صلاح الدين طبيبه الخاص (عبد اللطيف البغدادي)، وأرسل إليه فاكهة طازجة وثلجاً لتبريد الشراب، وهو إلى جانب كونه فعلاً كريماً يعد استعراضاً للقدرة. وعندما فقد ريتشارد جواده في أرسوف أرسل إليه صلاح الدين اثنين.

وقد أرغم البطل صلاح الدين الصليبيين على البقاء في جزء من الشريط الساحلي، فقد أحيط بصلابة إيمانه جهود الحملة الصليبية الثالثة في استرجاع بيت المقدس. **وألقى القائد صلاح الدين كلمة على جنوده حين اقترب الصليبيون من القدس:**

(الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، اعلموا أنكم جند الإسلام اليوم ومنعته، وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم في ذممكم معلقة، والله عز وجل سائلكم يوم القيامة عنهم. وإن هذا العدو ليس له من المسلمين، من يلقاه عن العباد والبلاد غيركم، فإن وليتم والعياذ بالله، طوى البلاد وأهل العباد، وأخذ الأموال والأطفال والنساء، وعُبد الصليب في المساجد، وعزل القرآن عنها والصلاة. وكان ذلك كله في ذممكم، فإنكم أنتم الذين تصدّيتم لهذا كله، وأكلتم بيت مال المسلمين لتدفعوا عنهم عدوهم وتنصروا ضعيفهم، فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم، والسلام).

ثم عرض الملك ريتشارد على السلطان صلاح الدين مشروع فلسطين موحدة للمسيحيين الأوروبيين وللمسلمين العرب، عن طريق تزويج أخت ريتشارد بالعادل أخي صلاح الدين، وأن تكون القدس هدية زفافهما. ولم ينجح مشروع الزواج هذا، ثم إن الرجلين لم يلتقيا قطّ وجهاً لوجه، وكان التواصل بينهما بالكتابة أو بالرسل.

ورسائل صلاح الدين تمتاز برصانة اللغة العربية وقول الحقّ الذي يقوله بمنتهى الأدب والدبلوماسية: فعندما أرسل ملك الإنجليز رسالة إلى صلاح الدين (عن طريق أخيه الملك العادل) متضمنة مطالبته بـ ٣ مصالب: بتنازل

المسلمين عن القدس، وبالتنازل عن بعض البلاد الشامية، ثم المطالبة باسترجاع صليب الصليوت المُعظم عندهم، الذي غنمه المسلمون منهم في معركة حطين. فقال فيها:

(إن المسلمين والفرنج قد هلكوا، وخربت البلاد وخرجت من يد الفريقين بالكلية، وقد تلفت الأموال والأرواح من الطائفتين. وقد أخذ هذا الأمر حقه، وليس هناك حديث سوى القدس والصليب والبلاد، والقدس مستعيدنا ما نتزل عنه ولو لم يبق منا واحد، وأما البلاد فيعاد إلينا منها ما هو قاطع الأردن، وأما الصليب فهو خشبة لا مقدار له عندكم وهو عندنا عظيم، فيمنّ به السلطان علينا ونصطلح ونستريح من هذا العناء الدائم).

فكان جواب صلاح الدين له: (.. **هو عندنا أي بيت المقدس أعظم مما هو عندكم، فإنه مسرى نبينا ومجتمع الملائكة. فلا يتصور أن نتنزل عنه ولا نقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين. وأما البلاد فهي أيضاً لنا في الأصل، وستيلاؤكم كان طارئاً عليها لضعف من كان بها من المسلمين في ذلك الوقت. وأما الصليب فهلاكه عندنا قربة عظيمة، ولا يجوز أن تفرّط فيها إلاّ لمصلحة راجحة إلى الإسلام هي أوفى منها**).

صلح الرملة بفلسطين في ٢٢ شعبان ٥٨٨هـ—١٢ أيلول ١١٩٢م: أُبرم صلح الرملة بين السلطان الناصر صلاح الدين والملك ريتشارد قلب الأسد ملك إنكلترا، وحددت مدة الصلح بثلاث سنوات وثلاثة أشهر. وبذلك انتهت الحروب بين الجانبين الإسلامي والصليبي. ومهدت للصلح مفاوضات استمرت خمسة عشر شهراً. قام بها اثنان و ربعون وفداً، كان البادئ في طلبها دوماً ريتشارد. وقد اتفق الطرفان على أن تبقى في يد الفرنجة يافا وقيساريا و رسوف وحيفا وعكا، وتكون عسقلان خراباً، واللد والرملة مناصفة. وان تكون بلاد الإسماعيلية في هدنة صلاح الدين: أي معه، وأنطاكيا وطرابلس في هدنة الفرنج أي معهم. وحرص صلاح الدين في هذا الصلح على ما يأتي:

١. أن تكون مدته محدودة بثلاث سنوات وثلاثة أشهر.

٢. أن يحصر الفرنج في أضيق بقعة ممكنة.

٣. أن تبقى الجبال بيده؛ ليبقى الفرنجة بالأماكن المنخفضة فيكونوا تحت رحمته.

٤. أن ينقذ أكثر ما يمكن إنقاذه من مكاسب حطين.

٥. أن يمنح القدس للحجاج الفرنجة دائماً، بعدما رفض طلب ريتشارد أن يأخذوا موافقته على ذلك؛ ليريهم السماحة والحرية والحضارة الحقة.

٦. أن يستمر في تقوية حصون القدس وغيرها استعداداً لتحرير كامل الأرض المحتلة بعد انتهاء الهدنة.

سعد الجميع بهذا الصلح ما عدا صلاح الدين؛ لأنه لم يره محققاً ما يصبو إليه من تحرير الأرض كاملة من الاحتلال الفرنجي، ولم يوقع صلاح الدين صلح الرملة مع الفرنجة إلا مضطراً؛ بسبب إلحاح أمرائه وقادته وجنوده الذين ما كانوا يملكون همته وقوته وقدرته على المتابعة وصبره وعزيمته. وأما رأيه في استمرار الجهاد، فقد صرح به بقوله: **والمصلحة ألا نزال على الجهاد حتى نخرجهم من الساحل أو يأتينا الموت**)! لذلك بعد أن اطمأن إلى عودة ريتشارد إلى بلاده أمر بتقوية حصون القدس وغيرها من القلاع، ثم دخل دمشق بعد غياب ٤ سنوات، فاستقبله أهلها استقبالاً فريداً، لم يستقبلوا به أحداً من قبل، ولكن بقاءه فيها لم يطل، إذ مرض مرضاً اشتد به يوماً بعد يوم، وكان ابن شداد القاضي الفاضل يلازمانه، وازداد ضعفاً في الليلة الثانية عشرة من مرضه، وهي ليلة الأربعاء ٢٧ من صفر عام ٥٨٩ هـ، أسلم في فجرها روحه إلى بارئها، وكان يوماً لم يصب المسلمون بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدين.

وفاة صلاح الدين، وسيرته، وأسرار نجاحه، وتراثه:

توفي رمز البطولة والفروسية الإسلامية في عصره السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي بمرض الحمى، بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء ٢٧ صفر عام ٥٨٩هـ – ٤ آذار ١١٩٣م، وعمره (٥٧) سنة، وضريحه – رحمه الله – قرب الجامع الأموي في دمشق (إلى جوار الملك العادل نور الدين زنكي). وقبره ما زال موجوداً حتى الآن في دمشق. وكان عند السلطان أبو جعفر إمام الكلاسة يقرأ القرآن، فلما انتهى إلى قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ (الحشر: ٢٢)، كان قد غاب ثم فتح عينيه وقال: صحيح. وقال العماد الكاتب: دخلنا عليه ليلة الأحد للعيادة، ومرضه في زيادة، وفي كل يوم تضعف القلوب وتتضاعف الكروب، ثم انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء سحر يوم الأربعاء، ومات بموته رجاء الرجال، وأظلم بغروب شمسه فضاء الإفضال. ومما قاله الشعراء في رثائه:

شمل الهدى والملك عم شتاته ... والدهر ساء وأقلعت حسناته

بالله أين الناصر الملك الذي ... لله خالصة صفت نياته

أين الذي كانت له طاعاتنا ... مبذولة ولربه طاعاته

أين الذي ما زال سلطاناً لنا ... يُرجى نداه وتتقى سطواته

أين الذي شرف الزمان بفضله ... وسمت على الفضلاء تشريفاته

لا تحسبوه مات شخصاً واحداً ... قد عم كل العالمين مماته

ملكٌ عن الإسلام كان مُحامياً ... أبداً لماذا أسلمته حُماته

قد أظلمت مُذ غاب عنا دوره ... لما خلت من بدره داراته

دفن السماح فليس تنشر بعدما ... أقوت قواه وأقفرت ساحاته

الدينُ بعد أبي المظفر يوسف ... محفوفةً بوروده حافاته

بحرٌ خلا من وارديه ولم تزل ... متعطشاً مفضوضةً صدفاته

من لليتامى والأرامل راحمٌ ... في ذكره من ذكره آياته

لو كان في عصر النبيّ لأنزلت ... من سلها وركوبها عزماته

بكت الصوارم والصواهل إذ خلت ... من كل قلب مؤمنٍ روعاته

فارقتَ مُلكاً غير باقٍ متعباً ... ووصلتَ مُلكاً باقياً راحاته

فعلى صلاح الدين يوسف دائماً ... رضوان رب العرش بل صلواته

كان أولاد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ١٦ ذكراً وابنة واحدة، أكبرهم الأفضل علي ولد بمصر سنة ٥٦٥هـ يوم عيد الفطر.

وتوفي والده الأمير نجم الدين أيوب بن شادي بن مروان في مصر. وخلف من الذكور ستة: السلطان صلاح الدين يوسف، وأبا بكر العادل الذي ملك مصر، وشمس الدولة توران شاه وهو أكبر الجميع، وشاهنشاه، وسيف الإسلام طغتكين، وتاج الملوك بوري.

كانت المواجهة مع ريتشارد ومعاهدة الرملة آخر أعمال صلاح الدين، إذ إنه بعد وقت قصير من رحيل ريتشارد، مات صلاح الدين من الحُمّى في دمشق. وعندما فُتحت خزائنه الشخصية وجدوا أنه لم يكن فيها ما

يكفي من المال لجنازته، فلم يكن فيها سوى ٤٧ درهماً ناصرية وجرماً واحداً ذهباً صورياً، ولم يخلف ملكاً ولا داراً، إذ كان قد أنفق معظم ماله في الصدقات. ثم ذكر ابن شداد شدة اهتمام صلاح الدين بالجهاد، ويدلنا على ذلك ما أخبر به صلاحُ الدين ابنَ شداد، وهو: "أنه متى ما يسر الله فتح بقية الساحل، قسمتُ البلاد، وأوصيت، وبدعت، وركبت هذا البحر إلى جزائرهم، أتتبعهم فيها، حتى لا أبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت". فقال له ابن شداد: "إنك سور الإسلام ومنعته، فلا ينبغي أن تخاطر بنفسك". فقال له: "ما أشرف الميتات؟". فقال ابن شداد: "الموت في سبيل الله". فقال له: "غايتي أن أموت أشرف الميتات". وقيل: إن صلاح الدين الأيوبي كان يختار أيام الجمع لمقاتلة الأعداء. ومن كلماته المشهورة: (نحن لسنا بحاجة إلى كلامكم... نحن بحاجة إلى سلاحكم)... (حافظوا على تلاوة القرآن الكريم لتحقيق النصر على الأعداء الصليبيين).

وكان متديناً في مأكله ومشربه ومركبه وملبسه، فلا يلبس إلا القطن والكتان والصوف، وكان يواظب على الصلاة في الجماعة، ويواظب على سماع الحديث، حتى إنه سمع في بعض المصافات جزءاً وهو بين الصفين ويحتج بذلك، وقال: هذا موقف لم يسمع فيه أحد حديثاً، وبالجملة، فإن مناقبه الحميدة كثيرة لا تُستقصى إلا في مجلدات.

وكان يوم موته يوماً لم يصب الإسلام والمسلمون بمثله بعد فقد الخلفاء الراشدين ﷺ وغشي الظلمة والملك والدنيا وحشة لا يعلمها إلا الله تعالى.

ثم جلس ولده الملك الأفضل للعزاء، وغسله أبو القاسم ضياء الدين عبد الملك ابن زيد الدولعي خطيب دمشق، وأخرج تابوت السلطان – رحمه الله تعالى – بعد صلاة الظهر مسجى بثوب فوط، فارتفعت الأصوات عند مشاهدته، وعظم الضجيج، وأخذ الناس في البكاء والعويل، وصلوا عليه أرسالاً، ثم أعيد إلى داره التي في البستان وهي التي كان متمرضاً بها، ودفن في الصفة الغربية منها. وكان نزوله في حفرته قريباً من صلاة العصر.

لقد كان – رحمه الله تعالى – من محاسن الدنيا وغرائبها. ثم ذكر ابن شداد أنه مات ولم يخلف في خزائنه من الذهب والفضة إلا ٤٧ درهماً ناصرية وجرماً واحداً ذهباً صورياً، ولم يخلف ملكاً ولا داراً ولا عقاراً ولا بستاناً ولا قرية ولا مزرعة.

كتب القاضي الفاضل قاضي دمشق في ساعة موته إلى ولده الملك الظاهر صاحب حلب بطاقة مضمونها:

(﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب: ٢١) ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ (الحج: ١). كتبت إلى مولانا السلطان الملك الظاهر أحسن الله عزاءه وجبر مصابه وجعل فيه الخلف في الساعة المذكورة، وقد زلزل المسلمون زلزالاً شديداً، وقد حضرت الدموع المحاجر، وبلغت القلوب الحناجر، وقد ودعت آباءك ومخدومي وداعاً لا تلاقي بعده، وقد قبلت وجهه عني وعنك، وأسلمته إلى الله مغلوب الحيلة، ضعيف القوة، راضياً عن الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله. وبالباب من الجنود المجندة، والأسلحة المعدة، ما لم يدفع البلاء، ولا ملك يرد القضاء، وتدمع العين ويخشع القلب ولا نقول إلا ما يرضي الرب، وإنا عليك لمحزونون يا يوسف. وأما الوصايا فما تحتاج إليها والآراء فقد شغلني المصاب عنها، وأما لائح الأمر، فإنه إن وقع اتفاق فما عدمتم إلا شخصه الكريم، وإن كان غير فالمصائب المستقبلة أهونها موته. وهو الهول العظيم والسلام).

سيرة صلاح الدين: كان صلاح الدين يجمع بين حكمة أبيه نجم الدين أيوب، وشجاعة عمه أسد الدين شيركوه، وزهد أميره نور الدين، وهي خصال ثلاث كفيلة بأن ترشحه للقيادة، وعبر استقراء مسيرة صلاح الدين الجهادية يتضح أن صلاح الدين كان صاحب مشروع حضاري إسلامي.

عرف أعداؤه وأصحابه عدل صلاح الدين ورحمته وأحبوه لها، وكما يقال بمصطلحات القيادة المعاصرة: حازم عادل، ورحيم بلا خوف أو تزلف (بالإنجليزية: Fair and Firm with mercy but without fear or favour).

كتب بهاء الدين بن شداد الأسدي عام ٥٣٩–٥٨٩هـ (١١٤٥–١٢٨٥م) كتابه "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، أو سيرة صلاح الدين الأيوبي" وهو مصاحب لصلاح الدين في غزواته بعد فتح القدس في ٢٧ رجب عام ٥٨٣ هـ. جعل صلاحُ الدين ابنَ شداد قاضي عسكره، وأول قاض للقدس وناظراً لأوقافها بعد تحريرها، وواحداً من أقرب أصفيائه ويرافقه في أكثر معاركه. وغدا كذلك شيخاً له يتلو عليه الآيات القرانية والأحاديث النبوية التي تحث على الجهاد، ويبتهل معه إلى الله عند الشدائد، ويواسيه في النكبات، ويحمد الله معه في الانتصارات.

لم يضن ابن شداد بعلمه الغزير على غيره، بل أوصله إلى أعلام عصره الذين أتوا إليه وإلى مدرسته في حلب، ومنهم ابن خلكان، وابن واصل الحموي مؤرخ الأيوبيين الذي افتخر بتلمذته عليه، وأبو شامة صاحب "كتاب الروضتين في أخبار الدولتين" الذي جعل كتاب سيرة صلاح الدين لابن شداد مصدراً مهماً من مصادره. تحدث ابن شداد عن عقيدة صلاح الدين السليمة التي أخذها من العلماء بالدليل، وأنه كان محافظاً على الصلاة بوقتها جماعة. وأما الزكاة فإنها لم تجب عليه؛ لأن عطاياه لم تمكنه من أن يملك نصابها، حتى إنه عندما توفي لم يخلف لورثته شيئاً قط ما عدا ٤٧ درهماً ودينارا واحداً. وكان حريصاً على صيام رمضان وقضاء ما فاته منه بسبب الجهاد ومقتضياته. وأما بالنسبة إلى الحج، فقد شغله عنه الجهاد المستمر.

وكان يحب قراءة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وسماعهما، وكثيراً ما كانت تدمع عيناه في أثناء القراءة والسماع. وكان أيضاً كثير التعظيم لشعائر الدين حسن الظن بالله، كثير الاعتماد عليه، عادلاً رؤوفاً رحيماً ناصراً الضعيفَ على القوي، يجلس للعدل كل إثنين وخميس مجلساً عاماً. وأما كرمه، فقد كان عظيماً يدل عليه أنه لم تجب عليه زكاة قط، وأنه لم يترك لورثته شيئاً. وضرب المثل الأعلى بشجاعته وبسالته وشدة بأسه وعظيم ثباته، وكان لا بد من أن يطوف حول العدو يومياً مرة أو مرتين إذا كان قريباً منه

ويبين ابن تغري بردي مواصفات صلاح الدين في ترجمته في "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة"

(قال العلامة أبو المظفر شمس الدين يوسف بن قزاوغلي في تاريخه "مرآة الزمان": كان السلطان صلاح الدين شجاعاً شهماً مجاهداً في سبيل الله، وكان مغرماً بالإنفاق في سبيل الله، وحسب ما أطلقه ووهبه مد مقامه على عكا مرابطاً للفرنج من شهر رجب سنة ٥٨٥هـ إلى يوم انفصاله عنها في شعبان سنة ٥٨٨هـ فكان اثني عشر ألف رأس من الخيل العراب والأكاديش الجياد للحاضرين معه للجهاد، غير ما أطلقه من الأموال.

قال العماد الكاتب: لم يكن له فرس يركب إلا وهو موهوب، ولا جاءه قود إلا وهو مطلوب، وما كان يلبس إلا ما يحل لبسه كالكتان والقطن والصوف. وكانت مجالسه منزهة عن الهزء والهزل، ومحافله حافلة بأهل العلم والفضل، ويؤثر سماع الحديث. وكان من جالسه لا يعلم أنه جالس سلطاناً لتواضعه.

قال: ورأى معي يوماً دواة محلاة بفضة فأنكر عليّ، وقال: ما هذا! فلم أكتب بها عنده بعدها. وكان محافظاً على الصلوات في أوقاتها لا يصلي إلا في جماعة. وذكره القاضي ابن شداد في السيرة فقال: كان حسن العقيدة، كثير الذكر لله تعالى، وإذا جاء وقت صلاة وهو راكب نزل فصلى، وما قطعها إلا في مرضه الذي مات فيه ثلاثة أيام).

وكان قد قرأ عقيدة القطب النيسابوري وعلمها أولاده الصغار؛ لترسخ في أذهانهم وكان يأخذها عليهم. (والقطب النيسابوري هو عالم فاضل تأدب على أبيه، وتفقه على محمد بن يحيى صاحب الغزالي، ودرس بالزاوية الغزالية، ودُفن

بمقابر الصوفية، كما يحكي ابن العماد في "شذرات الذهب" ج٣، ص٢٦٣). كان جلاب خير على تلميذه صلاح الدين، فغمره بروحانيته وانتشله من مجونه إلى عالم الرجولة، فكان الرجل الذي نقرأ عنه ونسمع يقول شهاب الدين المقدسي في "كتاب الروضتين" (ج٢، ص٦٩) عن بطلنا صلاح الدين: (وهو... متمسك مذهب السنة، غارس في البلاد أهل العلم والفقه والتصوف والدين... وهو - رحمه الله - لا يحيب قاصداً ولا يعدم وافداً). كانت خطوة في تربية الأمة وعدادها وتأهيلها لواجب النصرة والجهاد خطاها الناصر صلاح الدين، فكان لمن بعده نموذجاً لمن أراد سلوك منهاج النصر والفتح. ويزيد الدكتور البوطي في "الجهاد" (ص٢٠٤)، توضيحاً للمسألة، فيقول استناداً إلى أحد مراجع التاريخ:

"فقد عمد إلى سفوح قاسيون هذه من أقصاها إلى أقصاها وإلى جنبات القاهرة كلها، فغرسها جميعاً بمعاهد والمدارس الشرعية، وحشد فيها حشداً كبيراً من طلاب العلوم الشرعية، وأخذ يشرف بنفسه على مناهج التربية والتعليم فيها، بل كان كما قالوا يشترك مع أساتذة بعض منها موجهاً ومعلماً، ويشترك أناً آخر مع طلابها متعلماً. ثم إنه عمد فألف معظم جيشه الذي غزا به الصليبيين من خريجي هذه المعاهد في دمشق والقاهرة). ويزيدنا المؤرخ حسين مؤنس فائدة توضيحية فيلفت نظرنا في "الطرق الصوفية وأثرها في نشر الإسلام" (ص١١) إلى أن المشاركين في معركة حطين مع صلاح الدين كانوا من الصوفية، وإليهم يرجع الفضل في إنقاذ الأمة من الصليبيات. و"المسمّون في المراجع بالمطوّعة إنما هم: زهاد ومتصوّفة ومُريدون يخرجون للقتال حسبةً لله تعالى، ويبلون أعظم مما يبلي الجنود المحترفون.

وأما الزكاة فإنه مات ولم تجب عليه قط. وأما صدقة النوافل فاستُنفدت أمواله كلها فيها. وكان يحب سماع القرآن، واجتاز يوماً على صبي صغير بين يدي أبيه وهو يقرأ القرآن فاستحسن قراءته فوقف عليه وعلى أبيه مزرعة.

وكان شديد الحياء، خاشع الطرف، رقيق القلب، سريع الدمعة، شديد الرغبة في سماع الحديث. وإذا بلغه عن شيخ رواية عالية، وكان ممن يحضر عنده، استحضره وسمع عليه وأسمع أولاده ومماليكه، ويأمرهم بالقعود عند سماع الحديث إجلالاً له. وإن لم يكن ممن يحضر عنده ولا يطرق أبواب الملوك سعى إليه.

وكان مبغضاً كتب الفلاسفة وأرباب المنطق ومن يعاند الشريعة. ولما بلغه عن السهروردي ما بلغه أمر ولده الملك الظاهر بقتله.

وكان محباً العدل يجلس في كل يوم إثنين وخميس في مجلس عام يحضره القضاة والفقهاء، ويصل إليه الكبير والصغير والشيخ والعجوز. وما استغاث إليه أحد إلا أجابه وكشف ظلامته. واستغاث إليه ابن زهير الدمشقي على تقي الدين عمر ابن أخيه، وقال: ما يحضر معي مجلس الشرع. فأمر تقي الدين بالحضور معه. فاجتمع عنده وفود بالقدس، ولم يكن عنده مال، فباع ضيعة وفرق ثمنها فيهم.

قال ابن شداد: وسألت باليان بن بارزان يوم انعقاد الصلح (بعد فتح القدس) عن عدة الفرنج الذين كانوا على عكا فتحت فيها القدس ثم حاصرها الصليبيون بالحملة الثالثة واستولوا عليها ثانية)، وهو جالس بين يدي السلطان، فقال ترجمان: قل له: كانوا من خمس مئة ألف إلى ست مئة ألف، قتل منهم أكثر من مئة ألف وغرق معظمهم.

قال: وكان يوم المصاف يدور على الأطلاب ويقول: وهل أنا إلا واحد منكم. وكان في الشتاء يعطي العساكر ستوراً وهو نازل على برج عكا، ويقيم طول الشتاء في نفر يسير. وكان على الرملة فجاءه كتاب بوفاة تقي الدين عن أخيه. فقال وقد خنقته العَبرة: مات تقي الدين، اكتموا خبره مخافة العدو.

قال: وكان للمسلمين لصوص يدخلون خيام الفرنج بالليل ويسرقونهم، فسرقوا ليلة صبياً رضيعاً، فباتت أمه تبكي طول الليل، فقال لها الفرنج: إن سلطانهم رحيم القلب فاذهبي إليه. فجاءته وهو على تل الخروبة راكباً،

فعفرت وجهها وبكت، فسأل عنها فأخبر بقصتها، فرقّ لها ودمعت عيناه، وتقدم إلى مقدم اللصوص بإحضار الطفل. ولم يزل واقفاً حتى أحضروه، فلما رأته بكت وشهقت وأخذته وارضعته ساعة وضمته إليها. وأشارت إلى ناحية الفرنج، فأمر أن تحمل على فرس وتلحق بالفرنج، ففعلوا.

قال ابن شداد: وكان حسن العشرة، طيب الخلق، حافظاً أنساب العرب، عارفاً بخيولهم، ظاهر اللسان والقلم، فما شتم أحداً قط ولا كتب بيده ما فيه أذى مسلم وما حضر بين يديه يتيم إلا وترحم على من خلفه، وجبر قلبه، وأعطاه ما يكفيه. فإن كان له كافل سلّمه إليه وإلا كفله. انتهى. (النجوم الزاهرة).

كان صلاح الدين من دعاة الحضارة والإصلاح، فاهتم بالمؤسسات الاجتماعية التي تساعد الناس وتخفف عنهم عناء الحياة، وتعهد بالإنفاق على الفقراء والغرباء الذين يلجؤون إلى المساجد للعيش فيها. وجعل من مسجد "أحمد بن طولون" في القاهرة مأوى للغرباء الذين يأتون إلى مصر من بلاد المغرب.

ومن أشهر أعماله التي أقامها في القاهرة: قلعة الجبل لتكون مقرًا لحكومته، وحصناً منيعاً يمكنه من الدفاع عن القاهرة. وأحاط "الفسطاط" و"العسكر" و"القاهرة" بسور طوله (١٥ كم) وعرضه ثلاثة أمتار، وتتخلله الأبراج: ولا تزال أجزاء منه قائمة حتى اليوم في جهات متفرقة.

ومدح ابن جبير الأندلسي (٥٤٠هـ-٦١٤هـ)، في رحلته الشهيرة، الناصر صلاح الدين بأن عرشه هو سرجه لكثرة جهاده، وذمّ كثيراً من الملوك المعاصرين بأنهم مجرد ألقاب رنانة وأسماء بلا مسمى. ومدح صلاح الدين لإبطاله المكس (الضريبة) المترتبة على الحجاج.

ومما قاله في قصيدته التي مدح بها السلطان صلاح الدين، يهنئه بفتح بيت المقدس:

ثأرت لدين الهدى في العدا ... فآثرك الله من ثائر

وقمت بنصر إله الورى ... فسماك بالملك الناصر

فتحت المقدس من أرضه ... فعادت إلى وصفها الطاهر

وأعليت فيه منار الهدى ... وأحييت من رسمه الدائر

أسرار نجاح صلاح الدين:

إنّ عظمة صلاح الدين الحقيقية من وراء انتصاراته وفتوحاته وتحرير بيت المقدس لا ترتبط مباشرة بشخصه ولا تكمن في بسالة القتال العسكري المجرّد، بقدر ما ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالعمل الجماعي لفريق جماعة متكامل متواصل مع الله، ويمتلك رؤية واضحة، وخطة عمل مستقبلية تأخذ بأسباب النصر، وبضرورة تبادل المشورة وتطبّق ذلك في أرض الواقع (بالمفهوم المعاصر: روح الفريق والعمل المؤسّساتي). فصلاح الدين نفسه كان ثمرة العمل الجماعي المؤسساتي الدؤوب للسلطان نور الدين محمود زنكي التركماني، وعمّه أسد الدين شيركوه الكردي، بالتعاون مع الخليفة العباسي العربي الهاشمي المستضيء بالله، الذي خطّ في مرسومه لصلاح الدين معالمَ الطريق مع أولويات المسيرة لتوحيد بيضة الإسلام وتحريرها من الصليبيين.

كان فريق صلاح الدين فريقاً جماعياً من القادة العسكريين، ومن العلماء القضاة يصلون جماعة جنباً إلى جنب، ويوزعون المال والغنائم على الرجال (فلا يبقى منها شيء لصلاح الدين)، ويهتمون بأمر الرعية المالي برفع المكوس والضرائب، فلا نصر دون عدل مالي، ثم التركيز الكبير على الصحوة الإسلامية والثقافية.

فالقضاة والعلماء كانوا دعاة الإسلام والثقافة الدينية الرشيدة عن طريق دروسهم المتواصلة وحلقاتهم اليومية وفتواهم بين الحين والحين. وكان لهم أكبر الأثر في تثبيت دولة صلاح الدين. وعلى وجه الخصوص، فإن القاضي الفاضل كان مع باقي القضاة في أمسّ الحاجة إلى قائد يحفظ مصر وبيضة الإسلام من أطماع الفرنجة (فوجدوها في صلاح الدين). وبحكم وظيفة القاضي الفاضل (واسمه عبد الرحيم البيساني) بوصفه رئيساً للديوان التي تطلع بمسؤولية وزارات الداخلية والخارجية والإدارة المحلية في عصرنا كتب كتاب تولية صلاح الدين ولخص فيه لصلاح الدين المسؤوليات المطلوبة منه والمهام المتوقعة منه، فكان منها: التنبيه على أحوال مصر الاقتصادية وضرورة التخفيف من أعباء الناس المالية، والحث على الجهاد وحماية الدولة من أطماع الفرنجة. فكانت هذه أول مبادرة من قلم القاضي الفاضل لتنفيذ مشروع صلاح الدين، وتوالت بعد ذلك إسهامات قلم القاضي الفاضل من التوجيهات الإدارية للولاة والموظفين في شؤون الدولة كافة؛ لإنجاح مشروع صلاح الدين بإلغاء الضرائب الظالمة، وهذا قرب صلاح الدين إلى الرعية، والقيام بالدعاية لحكم صلاح الدين ومشروعه في البلاد عبر إشاعة العدل وفرض هيبة القانون، وكشف المؤامرات ضد صلاح الدين، وإرسال الرسائل لجلب التأييد لصلاح الدين من الخليفة العباسي ولقائد نور الدين، ومتابعة شؤون الإمدادات للوحدات المقاتلة، ورعاية إقامة التحصينات في الخطوط الخلفية لجيش صلاح الدين، والإشراف على المفاوضات التي يجريها صلاح الدين مع جيوش الصليبيين، ووضع نصوص المعاهدات والهدنة التي يعقدها صلاح الدين، مع تزويد صلاح الدين بتقارير وافية عن أحوال الدولة.

ويمكن تلخيص إنجازات صلاح الدين التاريخية فيما يأتي:

١. **تأمين الديار المصرية داخلياً وخارجياً**: إذ أمّن مصر وخلصها من الفرنجة ومن حلفائهم العبيديين المتواطئين معهم، الذين انشقوا عن العالم الإسلامي. وأخسر صلاح الدين الحملة الصليبية على دمياط (قام المسلمون بإمرة صلاح الدين بشن الحملات، وأنزلوا سلاسل لمنع السفن، واستخدموا النيران المشتعلة، وساعدهم الله بالرياح وبمجاعة الفرنجة واستشراء الأوبئة بينهم، فأخفقت الحملة الصليبية).

٢. **إنهاء الدولة العبيدية الإسماعيلية المتواطئة مع الصليبيين**: وكان شر العبيديين يفوق خيرهم، بل هم الذين انشقوا من الخلافة العباسية، ودقوا إسفين الفرقة في العالم الإسلامي، وحاربوا السلاجقة، وتحالفوا مع النصارى البيزنطيين والفرنجة الصليبيين، وسلموا ديار الإسلام واحدة بعد الأخرى إلى البيزنطيين والنورمانديين والصليبيين ابتداء من صقلية، وحصون ساحل المتوسط، ثم القدس، وانتهاء بدعوتهم إلى دخول مصر نفسها. فصار تحالفهم وبالاً وعاراً عليهم.

٣. **إقامة العدل الإسلامي**: ولاسيما العدل الاقتصادي المالي، ومحو المظالم العبيدية عن أهالي مصر. فهو الذي أسقط المكوس والضرائب، ووزع المال والصدقات، وأحيا الزكاة التي أسقطها العبيديون. وأسقط المكوس والضرائب عن حجاج بيت الله الحرام في مكة.

٤. **الإعداد الروحي للجهاد والتعبئة العسكرية مع الثقافة الإسلامية الصحيحة من أجل تنفيذ مشروع الوحدة الإسلامية**: فقام بصناعة السفن وإنشاء أسطول بحري قوامه ٢٠ سفينة، وقام بإعداد جيش إسلامي يبلغ مئة ألف لجهاد الصليبيين، نواته فرسان الفرقة الأسدية مع فرسان الفرقة الأيوبية مع جيش العاضد من المصريين من السودان والمغاربة وقبائل العرب، بعد تأهيلهم وتوجيههم الصحيح. وأدخل المطوعة من الصوفيين والمريدين في جيشه.

٥. **توحيد العالم الإسلامي:** اتبع صلاح الدين إستراتيجية إرجاع مصر إلى حاضرة العالم الإسلامي والخلافة العباسية، وتوحيد مصر مع الشام كفكيّ كماشة (نزّاعة) ضد الصليبيين.

٦. **حماية الحرمين الشريفين، وتحرير الحرم الثالث (فتح القدس):** حمى صلاح الدين مكة والمدينة براً وبحراً، وأرسل جيشه من تبوك للحماية، ودخل أسطوله في البحر الأحمر لحمايته من المجرم الصليبي أرناط باحتلاله جدة ورابغ وينبع، إذ أمر أخاه العادل لهذا الأمر. وسماه ابن شداد خادم الحرمين الشريفين. وظل صلاح الدين يجاهد على فرسه، ولم يستطع تأدية مناسك الحجّ في زمنه لاشتغاله بالجهاد.

٧. **الجهاد وحرب التحرير من احتلال الصليبيين:** ابتداءً من مدن الشام وقلاعه، وانتهاءً بتحرير القدس وتأمينها عسكرياً. ومدّ سلطانه على الشام ومصر والحجاز واليمن وليبيا والسودان؛ لتوحيد لحمة العالم الإسلامي. كانت دولة نور الدين تضم الشام والحجاز واليمن، وضمت أجزاء من شمال إفريقيا. فأصبحت دولة صلاح الدين تضم شمال العراق والشام، ثم الحجاز واليمن ومصر والسودان وبعض شمال إفريقيا. لقد كان هذا أكبر اتحاد للقوى الإسلامية في ذلك الوقت الذي كانت فيه الدولة العباسية مفككة ضعيفة لا سلطان لها.

تراث صلاح الدين:

بالرغم من كون صلاح الدين خصماً عنيداً للأوربيين، لكنه ظلّ في الوعي الأوروبي نموذجاً للفارس الشهم الذي تبدو فيه أخلاق الفروسية بالمفهوم الأوروبي. حتى إن هناك ملحمة شعبية شعرية من القرن الرابع عشر تصف أعماله البطولية. وقد يكون اسم الشهرة الإنجليزي سليدن Sladen، Sladin هو تحوير لاسم صلاح الدين الذي يلفظ بالإنجليزية سلادن Saladin.

ثم إن الشاعر دانتي مؤلف "الكوميديا الإلهية" قد وضعه في الأعراف (المطهر) مع عدد من الشخصيات التي عدّها كافرة – وفق معتقده النصراني الكاثوليكي – لكنها في نظره شخصيات صالحة وسامية أخلاقياً.

ثم إن صلاح الدين يُصور بنحو مقبول في رواية والتر سكوت "التعويذة" (The Talisman) المكتوبة سنة ١٨٢٥م. وجُسّدت شخصيةُ صلاح الدين في عام ٢٠٠٦ في فيلم "مملكة الجنة" (Kingdom of Heaven) بأسلوب فيه فروسية وأخلاق وكرم نفس، وقد جسّد الشخصية الفنان السوري غسان مسعود.

ويدرك الأوروبيون أنه بالرغم من المذابح التي أوقعها الصليبيون عندما غزوا القدس في ١٠٩٩ إلا أن صلاح الدين قد عفا عن كل المسيحيين الكاثوليك (الأوروبيين)، حتى عن الجنود المنهزمين إذا كانوا قادرين على دفع الفدية. وعومل نصارى العرب ولاسيما الأرثوذكس دوماً بالحسنى؛ إذ إنهم كانوا أصلاً يُعارضون الغزو الأوروبي الصليبي للشرق الإسلامي. ومدحه الأمراء الصليبيون، وحاول الملك ريتشارد تزويج أخته لأخي صلاح الدين أبي بكر العادل.

نسر العقاب أو نسر صلاح الدين، يرمز إلى الدولة الأيوبية

ونسر العقاب الذي يرمز إلى الدولة الأيوبية (اكتُشف في قلعة صلاح الدين بالقاهرة) قد اتخذته العديد من الدول العربية في العصر الحديث شعاراً رسمياً لها، إذ يظهر النسر في العلم المصري، وفي شعارات سوريا والعراق وفلسطين.

خلدت سوريا ذكرى صلاح الدين بإقامة نصب صلاح الدين في دمشق، ويظهر تحت قدميه الأسير ارناط، الأمير الصليبي الذي غدر بحجيج مكة وسبّ النبي محمد ﷺ، وحلف صلاح الدين إن ظفر به أن يقتله، فكان أسيره بعد معركة حطين، إذ عرض عليه الإسلام فرفض، فوفى بنذره وقتله.

نصب السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي في دمشق ليلا

نصب السلطان صلاح الدين الأيوبي في دمشق نهارا (الصورة في اليمين)

والأمير الصليبي أرناط (أي رينو دو شاتيون) أسيراً (هو الذي قتل حجاج مكة وسبّ النبي ﷺ)

فعرض صلاح الدين عليه الإسلام فرفض، فوفى صلاح الدين بنذره وقتله. (الصورة في اليسار)

موقف أبناء صلاح الدين من الصليبيين: ولما مات صلاح الدين – رحمه الله – سنة ٥٨٩هـ – ١١٩٣م، وصل إلى بغداد الرسول (إلى الخليفة العباسيّ الناصر لدين الله) وفي صحبته لامّة الحرب التي لصلاح الدين، وفرسه، وبينار واحد، وستة وثلاثون درهماً. لم يخلف من المال سواها. وحكمت أسرته من بعده. فاستقرت مصر لابنه عماد الدين عثمان الملك العزيز. ودمشق لابنه الملك الأفضل نور الدين علي، وحلب لابنه الملك الظاهر غياث الدين غازي.

ومات السلطان طغرلبك شاه بن أرسلان بن طغرلبك آخر ملوك السلجوقية في سنة ٥٩٠هـ. قال الذهبي: (وكان عددهم نيفاً وعشرين ملكاً، أولهم طغرلبك الذي أعاد القائم إلى بغداد. ومدة دولتهم مئة وستون سنة).

ومات الملك العزيز بمصر سنة ٥٩٥هـ. وأقيم ابنه المنصور بدله، فوثب الملك العادل سيف الدين أبو بكر العادل بن أيوب (أخو صلاح الدين) فحكم مصر ومعظم أجزاء الشام، وخلفه ابنه الكامل، الذي سقطت دمياط في عهده بأيدي الصليبيين لما هاجموا مصر سنة ٦١٥هـ. ثم انسحبوا منها مدحورين، بعد هزيمة فادحة أدت إلى الجلاء عن مصر سنة ٦١٨هـ (بعد الصلح مع الملك الكامل). وقطع المصريون جسر النيل ففرقت الأرض بالمياه

وأوشك الصليبيون على الهلاك، فطلبوا الصلح، ثم سلم الملك الكامل بن العادل الأيوبي عام ٦٢٦ هـ القدس صلحاً إلى قائد الحملة الصليبية السادسة إمبراطور الألمان فريدريك، وأضاع جهود عمّه صلاح الدين العظيمة في سبيل تحريرها. ولكنها حُررت ثانية عام ٦٣٧ هـ بيد الملك الناصر الأيوبي داود أمير الكرك، الذي سلّمها إلى الصليبيين مرة أخرى عام ٦٤١هـ؛ لأجل التحالف مع عمه الخائن الملك الصالح إسماعيل ضدّ الملك الصالح أيوب بن الملك العادل الأيوبي (ملك مصر)، وحرّرها ثالثة الملك الصالح أيوب (صلاح الدين الثاني)، الذي فتحها عام ٦٤٢ هـ، وبقيت القدس مع المسلمين وثبتت من حينها، حتى قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨م.

واستطاع صلاح الدين قيادة جيش كبير مؤلف من الشاميين والمصريين يصل تعداده إلى مئة ألف محارب متمرّس وتحوّل تركيز الصليبيين من الاهتمام بالشرق إلى الاهتمام بمصر على نحو استثنائي، وذلك بسقوط مملكة القدس عام ١١٨٧م. وهذا ما نجده في الحملة الصليبية الثالثة، عندما أدرك ريتشارد قلب الأسد أهمية مصر. وأي هجوم على المشرق لن ينجح دون موارد الثروة وتمويل الرجال الذي لا يتغلب في أرض مصر. ولاتزال مصر إلى اليوم تزوّد قدرات العالم الإسلامي بمزايا حاسمة. من هنا كانت مصر هدفاً للحملات الأوروبية في الحملة الصليبية الرابعة (التي انحرف مسارها إلى احتلال القسطنطينية)، والخامسة (دمياط)، والسابعة (دمياط)، وحملة الإسكندرية، أسفرت عن انتصارات مؤقتة أعقبتها هزائم فادحة، أو جلاء، أو مفاوضات: وانتهت أخيراً بلا شيء. وكانت عكا، في عام ١٢٩١م، آخر حصن كبير منيع للصليبيين في الأرض المقدسة، فتحه السلطان الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون، وأنهى الوجود الصليبي في أرض المشرق الإسلامي. ولم تبق إلا جزيرتان في البحر الأبيض المتوسط تستخدمان بوصفهما قاعدتين للإغارة والكر والفر، هما جزيرة أرواد وجزيرة قبرص، أسقطهما وفتحهما للإسلام في القرن اللاحق كل من السلطان محمد بن قلاوون، والسلطان الأشرف برسباي على التوالي، وكلاهما من مصر.

الحملة الصليبية الرابعة عام ٦٠٠هـ.

يقول ابن كثير في "البداية والنهاية" (ج١٣، ص: ٤٥-٤٦): (في هذه السنة كانت الفرنج قد جمعوا خلقاً منهم ليستعيدوا بيت المقدس من أيدي المسلمين، فاشغلهم الله عن ذلك بقتال الروم، وذلك أنهم اجتازوا في طريقهم بالقسطنطينية فوجدوا ملوكها قد اختلفوا فيما بينهم، فحاصروها حتى فتحوها قسراً، واباحوها ثلاثة أيام قتلاً وأسراً، واحرقوا أكثر من ربعها، وما أصبح أحد من الروم في هذه الأيام الثلاثة إلا قتيلاً أو فقيراً أو مكبولاً أو أسيراً، ولجأ عامة من بقي منهم إلى كنيستها العظمى المسماة بـ "آيا صوفيا"، فقصدهم الفرنج فخرج إليهم القسيسون بالأناجيل ليتوسلوا إليهم ويتلوا ما فيها عليهم، فما التفتوا إلى شيء من ذلك؛ بل قتلوهم أجمعين اكتعين أبصعين. وأخذوا ما كان في الكنيسة من الحلي والأذهاب والأموال التي لا تحصى ولا تعد، وأخذوا ما كان على الصلبان والحيطان؛ والحمد لله الرحيم الرحمن، الذي ما شاء كان.

ثم اقترع ملوك الفرنج وكانوا ثلاثة وهم: دوق البنادقة، وكان شيخاً أعمى يقاد فرسه، ومركيس الإفرنسيس، وكندا بلند، وكان أكثرهم عدة وعدداً. فخرجت القرعة له ثلاث مرات فولوه ملك القسطنطينية، و خذ الملكين الآخران بعض البلاد، وتحول الملك من الروم إلى الفرنج بالقسطنطينية في هذه السنة. ولم يبق بأيدي الروم هناك إلا ما وراء الخليج، استحوذ عليه رجل من الروم يقال له: تسكرى، ولم يزل مالكاً تلك الناحية حتى توفي.

ثم إن الفرنج قصدوا بلاد الشام وقد تمزّوا بملكهم القسطنطينية، فنزلوا عكا وأغاروا على كثير من بلاد الإسلام من ناحية الغور وتلك الأراضي، فقتلوا وسبوا، فنهض إليهم العادل وكان بدمشق، واستدعى الجيوش المصرية والشرقية ونازلهم بالقرب من عكا، فكان بينهم قتال شديد وحصار عظيم، ثم وقع الصلح بينهم والهدنة وأطلق لهم شيئاً من البلاد، فإنا لله وإنا إليه راجعون).

الملك الكامل بن الملك العادل أخو صلاح الدين الأيوبي:

استقل الملك الكامل بمصر عام ٦١٥هـ-١٢١٨م، بعد وفاة والده الملك العادل الذي كان قد قسم مملكته بين أولاده قبل وفاته وأعطى مصر للملك الكامل. والملك الكامل هو من أكمل بناء قلعة الجبل التي بدأ في تشييدها جده صلاح الدين الأيوبي، وكان الكامل أول من سكن قلعة الجبل من ملوك مصر، وفيها ولد الصالح أيوب في سنة ٦٠٣هـ-١٢٠٥م. في سنة ٦١٥هـ-١٢١٨م، عندما كان الصالح أيوب طفلاً في الثانية عشرة من عمره، تعرضت مصر لحملة صليبية يقودها "جان دي بريين" ملك القدس (الحملة الصليبية الخامسة). وكان ذلك تطوراً خطراً في الحروب الصليبية، إذ إن مصر منذ ذلك الحين أصبحت هدفاً للصليبيين الذين أدركوا أن مصر بإمكانياتها البشرية والاقتصادية هي حصن الإسلام ومصدر الإمدادات القوية الوفيرة من الرجال والسلاح، إن استولوا عليها سهل عليهم استعادة بيت المقدس وامتلاك الشام.

تجمعت جيوش ممالك أوروبا في عكا ومنها أبحرت إلى مصر ونزلت بالبرّ الغربي من دمياط، وخرج الملك الكامل، والد الصالح أيوب، بالجيش إلى دمياط لمواجهة الصليبيين. لكن القوات الصليبية نجحت في الاستيلاء على برج دمياط، ولما سمع السلطان العادل (والد الملك الكامل وجد الصالح أيوب) بما حدث، وكان وقتها مقيماً ببرج الصفر في الشام، دقّ بيده على صدره أسفاً وحزناً، ومرض ومات بعد بضعة أيام. صار ملك مصر بموت العادل إلى الملك الكامل محمد، ووقع عليه عبء الدفاع عن مصر. بعد حصار دام نحو ١٦ شهراً سقطت دمياط في أيدي الصليبيين فقتلوا سكانها وحولوا جامعها إلى كنيسة. ولما حاول الصليبيون التقدم داخل الأراضي المصرية حاصرهم المسلمون من كل الجهات حتى لحقت بهم الهزيمة، فطلبوا الأمان مقابل رحيلهم عن دمياط. وسُلمت دمياط إلى المسلمين في ٨ أيلول ١٢٢١م-١٩ رجب ٦١٨هـ، ودخلها الملك الكامل على رأس إخوته وقواده وأجناده. وعقدت هدنة مداها ٨ أعوام بين المسلمين والصليبيين.

الحملة الصليبية الخامسة:

استهلّ عام ٦١٥هـ، والعادل بمرج الصفر لمناجزة الفرنج، وأمر ولده المعظم بتخريب حصن الطور، فأخربه ونقل ما فيه من آلات الحرب وغيرها إلى البلدان؛ خوفاً من الفرنج. أعاد المعظم في رجب من السنة نفسها ضمان القيان والخمور والمغنيات وغير ذلك من الفواحش والمنكرات التي كان أبوه قد أبطلها، إذ إنه لم يكن أحد يتجاسر على أن ينقل ملء كفه خمراً إلى دمشق إلا بالحيلة الخفية، فجزى الله العادل خيراً، واعتذر المعظم في ذلك بأنه إنما صنع هذا المنكر؛ لسلة الأموال على الجند، واحتياجهم إلى النفقات في قتال الفرنج. وكما يقول ابن كثير في "البداية والنهاية": "وهذا من سفهه وقلة دينه وعدم معرفته بالأمور، فإن هذا الصنيع يديل عليهم الأعداء، وينتصرهم عليهم، ويتمكن منهم الداء، ويثبط الجند عن القتال، فيولون بسببه الأدبار. وهذا مما يدمر ويخرب الديار ويديل الدول. كما في الأثر: (إذا عصاني من يعرفني سطت عليه من لا يعرفني)، وهذا ظاهر لا يخفى على فطن".

لكن في العام اللاحق ٦١٦هـ أمر الشيخ محيي الدين بن الجوزي محتسب بغداد بإزالة المنكر وكسر الملاهي (عكس ما أمر به المعظم). وخُرّب سور بيت المقدس في مستهل سنة ٦١٦هـ، أمر بذلك المعظم؛ خوفاً من استيلاء الفرنج عليه بعد مشورة من أشار بذلك، فإن الفرنج إذا تمكنوا من ذلك جعلوه وسيلة لأخذ الشام جميعه، فشرع في تخريب السور في أول يوم المحرم، فهرب منه أهله خوفاً من الفرنج أن يهجموا عليهم ليلاً أو نهاراً، وتركوا أموالهم وأثاثهم وتمزقوا في البلاد كل ممزّق، وظهر الغلاء، وضجّ الناس، وابتهلوا إلى الله عند الصخرة، وفي الأقصى؛ وهي أيضاً قبلة شنعاء من المعظم مع ما أظهر من الفواحش في العام الماضي، فقال بعضهم يهجو المعظم بذلك:

في رجب حلل المحرّم ... وأخرب القدس في المحرّم

فإذا بالحملة الصليبية الخامسة تقدم على مصر؛ لتستأصلها قبل التقدم للاستيلاء على القدس. فقد استحوذت الفرنج في سنة ٦١٦هـ على مدينة دمياط ودخلوها بالأمان، وغدروا بأهلها، وقتلوا رجالها، وسبوا نساءها وأطفالها وفجروا بالنساء، وبعثوا بمنبر الجامع والربعات ورؤوس القتلى إلى الجزائر، وجعلوا الجامع كنيسة. (ابن كثير في "البداية والنهاية" ج١٣، ص: ١٠٠).

وللتفصيل: يحكي ابن تغري بردي في "النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة": (يقول أبو المظفر في تاريخه: في شعبان ٦١٦هـ أخذ الفرنج دمياط وكان المعظم عيسى (أخو الملك الكامل محمد سلطان مصر) قد جهز إليها "الناهض بن الجرخي" في ٥٠٠ راجل، فهجموا على الخنادق، فقتل ابن الجرخي ومن كان معه وصعدوا رؤوس القتلى على الخنادق، وكان الفرنج قد طموها: يعني الخنادق.

وضعف أهل دمياط وأكلوا الميتات، وعجز الملك الكامل عن نصرتهم ووقع فيهم الوباء والغلاء، فراسلوا الفرنج على أن يسلموا إليهم البلد (بالأمان) ويخرجوا منه بأموالهم وأهلهم، واجتمعوا وحلفوهم على ذلك، فركبوا في المراكب وزحفوا في البرّ والبحر، وفتح لهم أهل دمياط الأبواب، فدخلوا ورفعوا أعلامهم على السور، وغدروا بأهل دمياط، ووضعوا فيهم السيف قتلاً وأسراً، وباتوا تلك الليلة بالجامع يفجرون بالنساء ويفتضون البنات، وأخذوا المنبر والمصاحف ورؤوس القتلى وبعثوا بها إلى الجزائر، وجعلوا الجامع كنيسة، ووقع على المسلمين كآبة عظيمة، وبكى الكامل وأخوه المعظم بكاءً شديداً، ثم تأخرت العساكر عن تلك المنزلة.

الصليبيون يهاجمون دمياط في ٦١٦هـ-١٢١٨م

ومن شعر الكامل يستحث أخاه الأشرف موسى بالمجيء من بلاد الجزيرة إليه حين كان محاصراً بدمياط:

يا مسعفي إن كنت حقاً مسعفي	فارحل بغير تقيد وتوقف
واطوِ المنازل والديار ولا تنخ	إلا على باب المليك الأشرف
قبل يديه - لا عدمت - وقل له:	عني بحسن تعطف وتلطف
إن مات صنوك عن قريب تلقه	ما بين حد مهند ومثقف
أو تبطئ عن إنجاده فلقاؤه	يوم القيامة في عراص الموقف

ثم قال الكامل لأخيه المعظم: قد فات المطلوب وجرى المقدر بما هو كائن، وما في مقامك هاهنا فائدة، والمصلحة أن تنزل إلى الشام تشغل خواطر الفرنج وتستجلب العساكر من بلاد الشرق.

واستمر الملك الكامل في مقاتلة الفرنج إلى أن فتح الله عليه في سنة ٦١٨هـ، وطلب من إخوته النجدة، وتوجه المعظم في أول السنة إلى أخيه الأشرف موسى. وكان المعظم أحرص الناس على خلاص دمياط والغزاة، وكان مصافياً لأخيه الكامل، وكان الأشرف مقصراً في حق الكامل مبايناً له في الباطن، فلما اجتمعت

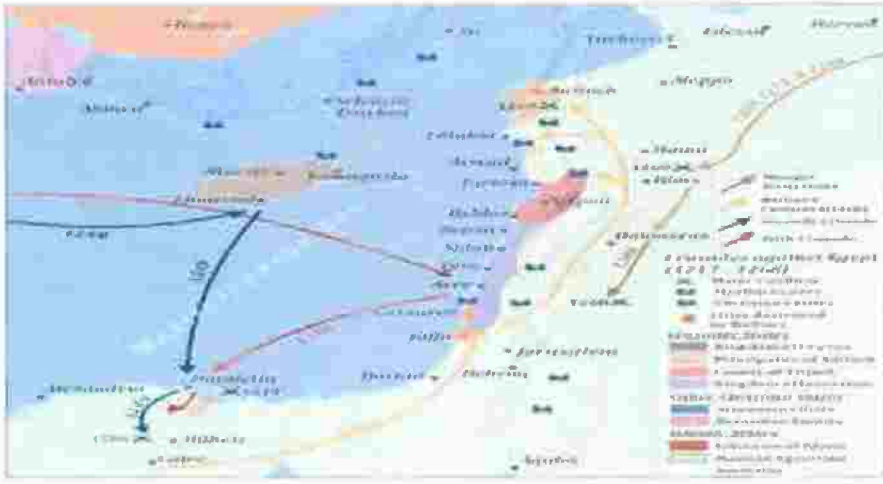

الحملات الصليبية على مصر (١٢١٧–١٢٦٨م)، والدويلات الصليبية عام ١٢٠٠م

العساكر على حران، خرج المعظم من الخيمة كالأسد الضاري يصيح: الرحيل الرحيل إلى دمياط، وخرج عساكره وعساكر أخيه إلى دمياط، وقطع بهم المعظم الفرات وسار الأشرف في أثره.

وأما الفرنج فإنهم خرجوا بالفارس والراجل، وكان البحر زائداً جداً فجاؤوا إلى ثرعة فارسوا عليها، وفتح المسلمون عليهم الترع من كل مكان وأحدق بهم عساكر الكامل فلم يبق لهم وصول إلى دمياط، وجاء أسطول المسلمين فأخذوا مراكبهم ومنعوهم عن أن تصل إليهم الميرة من دمياط، وكانوا خلقاً عظيماً، وانقطعت أخبارهم عن دمياط، وكان فيهم مئة كند وثماني مئة من الخيالة المعروفين وملك عكا والدوك واللوكان نائب البابا، ومن الرجالة ما لا يحصى، فلما عاينوا الهلاك أرسلوا إلى الكامل يطلبون الصلح والرهائن ويسلمون دمياط. فمن حرص الكامل على خلاص دمياط أجابهم، ولو أقاموا يومين أخذوا برقابهم (كان الكامل عرض عليهم أن يرد إليهم بيت المقدس وجميع ما كان صلاح الدين فتحه من بلاد السواحل على أن يتركوا دمياط: فامتنعوا من ذلك: فقدر لله أنه ساقت عليهم الأقوات، فقدمت عليهم مراكب فيها ميرة، فأخذها الأسطول البحري، وأرسلت المياه على أراضي دمياط من كل ناحية، فلم يمكنهم بعد ذلك أن يتصرفوا في أنفسهم، وحصرهم المسلمون من الجهة الأخرى، حتى اضطروهم إلى أضيق الأماكن).

أوقع الكامل في ٦١٧هـ بالفرنج الذين على دمياط بأساً شديداً، فقتل منهم عشرة آلاف، وأخذ منهم خيولهم وأموالهم، ولله الحمد. فبعث الكامل إليهم ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب (وابن أخيه شمس الملوك) وجاء ملوكهم إلى الكامل، فالتقاهم وأنعم عليهم وضرب لهم الخيام.

ووصل المعظم عيسى والأشرف موسى في تلك الحال إلى المنصورة في ثالث رجب، فجلس الكامل مجلساً عظيماً في خيمة كبيرة عالية، وقد مدّ سماطاً عظيماً، وأحضر ملوك الفرنج ووقف المعظم والأشرف والملوك في خدمته، وقام راجح الحلي الشاعر – رحمه الله تعالى – فأنشد:

هنيئاً، فإن السعد أضحى مُخلداً ... وقد أنجز الرحمن بالنصر موعدا

حبانا إله الخلق فتحاً بدا لنا ... مُبيناً واتماماً وعزاً مُؤيدا
ولما طغى البحر الخضم بأهله ال ... طغاة وأضحى بالمراكب مُزبدا
أقام لهذا الدين من سلّ سيفه ... صقيلاً كما سلّ الحُسام مُجرّدا
فلم ينجُ إلا كل شلو مُجندل ... ثوى منهم أو من تراه مُقيّدا
ونادى لسانُ الكون في الأرض را ... فعاً عقيرته في الخافقين ومنشدا
أعبّاد عيسى إنّ عيسى وحزبه ... وموسى جميعاً يخدمون مُحمدا

صح للشاعر فيما قصد من التورية في المعظم عيسى والأشرف موسى لما وقفا في خدمة الكامل محمد، فلله درهُ لقد أجاد فيما قال. ووقع الصلح بين الملك الكامل وبين الفرنج في يوم الأربعاء تاسع عشر شهر رجب سنة ثماني عشرة وستمئة، وسار بعض الفرنج في البر وبعضهم في البحر إلى عكا وتسلم الكامل دمياط.

الحملة الصليبية السادسة عام ٦٢٥هـ-١٢٢٨م:

بدأت بعد مرور أقل من ١٠ سنوات من نهاية الحملة الصليبية الخامسة، وترأسها الإمبراطور فريدريك الثاني (هوهنشتاوفن) الألماني الذي نذر الانخراط في الحملة الصليبية السابقة (أي: الحملة الخامسة)، ولكنه لم يف بنذره حينها، وأراد الإمبراطور أن يحقق مقاصده دون أن يسحب سيفه من غمده. فتزوج في صيف ١٢٢٥م من ابنة ملك القدس يوحنا دي بريان (يولاندي والمعروفة أيضاً باسم إيزابيلا)، وتزوج كذلك من ماريا من مونتفيرات، ثم أخذ يطالب بعرش مملكة قد زالت أصلاً من الوجود. ودخل في مفاوضات مع السلطان الكامل سلطان مصر والشام، دون دعوة البابا، وهذا الأمر أغضب بابا روما الجديد غريغوريوس التاسع الذي حرم فريدريك الثاني من الكنيسة، فكان هذا ردّة فعل ضدّ البابا.

وأبحر الإمبراطور إلى سوريا في صيف ١٢٢٨، فما كان من البابا إلاّ أن منع الحملة الصليبية، ووصف فريدريك بأنه قرصان، وبأنه يريد سرقة مملكة القدس، فكانت أول حملة صليبية لا يباركها البابا. لكن فريدريك الثاني لم يأبه لذلك، وخرج على رأس حملة صليبية صغيرة قوامها ٦٠٠ فارس فقط (وهذا يوضح أنه لم يكن يجهز لحرب حقيقية)، فاستولى على قبرص ووصل إلى عكا، حيث بدء مفاوضات الصداقة مع السلطان الكامل، فأرسل إليه الملك الكامل رسوله فخر الدين يوسف بن الشيخ للتفاوض على عقد معاهدة بينهما، واسفرت في شباط/فبراير ١٢٢٩م عن صلح مدة ١٠ سنوات.

تنازل بمقابله السلطان الكامل عن الأماكن النصرانية في القدس للإمبراطور الألماني باستثناء منطقة الحرم (المسجد الأقصى، ومسجد قبة الصخرة وأوقافهما)، على أن يتعايش النصارى والمسلمون في القدس جنباً إلى جنب وتنازل السلطان له عن الأماكن النصرانية الأخرى: بيت لحم، والناصرة وجميع القرى المؤدية إلى القدس، وقسم من صيدا وطورون (تبنين حالياً)؛ على أن يتعهد فردريك بمحالفة الملك الكامل ضد جميع أعدائه، ولو كانوا صليبيين، وأن يضمن فردريك عدم وصول إمدادات صليبية إلى الإمارتين الصليبيتين أنطاكيا وطرابلس. ووقع مع مصر عدّة اتفاقيات تجارية. واشترط أيضاً ألا يُجدد بناء جدار القدس ولا قلاعها (توكيداً للسلام بينهما).

وأكد فريدريك الثاني للسلطان مساعدته ضد أعدائه أياً كانوا، مُسلمين أم مسيحيين، وضمن عدم تلقي القلاع الصليبية الباقية (خارج سيطرته) أي مساعدة من أي مكان.

الإمبراطور فريدريك الثاني (على يسار الصورة)
وهو يصافح السلطان الملك الظاهر (على اليمين) على توقيع صلح القدس

ودخل فريدريك الثاني بيت المقدس في حماية قواته الألمانية في ١٧ آذار ١٢٢٩م، وتوّج فريدريك الثاني نفسه بنفسه في كنيسة القيامة، ورفض رجال الدين تتويج الإمبراطور المحروم من الكنيسة، وفرضت البابوية منعاً لممارسة الطقوس الدينية في القدس، ودفع البابا مواليه إلى ممتلكات فريدريك في إيطاليا، فأسرع فريدريك إلى المغادرة، ونشب صراع مسلح ضد الجبر الأعظم، وألحق الهزيمة بالبابا؛ فألغى البابا، في سنة ١٢٣٠م، الحظر الكنسي عن فريدريك، وصادق في السنة الثانية على معاهداته مع السلطان الكامل في دمشق ومع المسلمين.

ويذكر ابن تغري بردي في "النجوم الزاهرة" هذا الصلح في السنة الحادية عشرة من سلطنة الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب على مصر، وهي سنة ٦٣٦هـ إذ أعطى فيها الملك الكامل بيت المقدس للملك لفرنج الأنبرور (أي: الإمبراطور الألماني). وفيها خرج الملك الكامل في صفر من مصر ونزل تل العجول. وكان الملك لناصر داود بن الملك المعظم عيسى صاحب دمشق قد كاتب عمه الملك الأشرف موسى بالحضور إلى دمشق، توصل إليها ونزل بالنيرب، وكان عز الدين أيبك قد أشار على الملك الناصر داود بغدارة عمه الملك الكامل محمد صاحب مصر فخالفه، وقال الناصر لعمّه الأشرف في قتال عمّه الكامل، فلم يلتفت الأشرف إلى كلامه، واجتمع لأشرف وأخوه الملك الكامل واتفقا على حصار دمشق.

ووصلت الأخبار بتسليم القدس إلى الأنبرور، فقامت قيامة الناس لذلك ووقع أمور، وتسلم الأنبرور القدس، والكامل و لأشرف على حصار دمشق، فلم يقم الأنبرور بالقدس سوى ليلتين، وعاد إلى يافا بعد أن أحسن إلى أهل القدس ولم يغير من شعائر الإسلام شيئاً. واستطاع الكامل برجاحة عقله توظيف هذا الصلح المحدود المشروط توظيفاً عظيماً في توحيد دار الإسلام. فعاش بعد الصلح مدة ٩ سنوات (توفي عام ٦٣٥هـ)، وهو متربّع على عالم إسلاميّ موحّد.

قال ابن خلكان (فيما يرويه ابن تغري بردي في "النجوم الزاهرة"): **(واتسعت المملكة للملك الكامل، ولقد حكى لي من حضر الخطبة يوم الجمعة بمكة أنه لما وصل الخطيب إلى الدعاء للملك الكامل قال: صاحب مكة وعبيدها، واليمن وزبيدها، ومصر وصعيدها، والشام وصناديدها، والجزيرة ووليدها، سلطان القبلتين، ورب العلامتين، وخادم الحرمين الشريفين: الملك الكامل أبو المعالي ناصر الدين محمد خليل أمير المؤمنين).**

صحيح أنّ هذا الصلح المحدود المشروط لم يكن مُرحباً به، لا من قبل النصارى ولا من قبل المسلمين، حتى قيل: إن السلطان الكامل تندّم لتنازله (سلماً من دون قتال) عن كل ما حارب لأجله صلاح الدين الأيوبي، لكن

الحقيقة أن الصلح هذا إذا وضع بالميزان فإن تعايش الجيرة بين المسلمين والصليبيين الأوروبيين المتوحشين أول مرة كانت له آثار مستقبلية حميدة طغت على سلبيات الماضي. تمكن الإمبراطور الألماني (بمساعدة ٦٠٠ فارس فقط!، وباستخدام الدبلوماسية والقوة الناعمة (دون حرب ودون دعم بابوي) فعل ما لم يستطعه أحد قبله، و٣ بعده ملوك فرنسا (مثل الملك لويس التاسع) بالحرب ضد مصر والشام، بالرغم من مباركة البابا وبرغم جيوشهم المدججة بالسلاح والمتفوقة عدةً وعتاداً.

والحقيقة أن ألمانيا انفردت من دون دول أوروبا منذ ذلك الحين فصارت صديقة للمسلمين. فقد وقف الإمبراطور الألماني ضد قيام الحملة الصليبية السابعة من بعد ذلك، بل عارض البابا؛ وكان هو الذي أخبر ابن صديقه الملك الكامل (الملك الصالح أيوب) سلطان مصر والشام آنذاك عن قدوم الحملة الصليبية السابعة (قبل مجيئها). ووقفت ألمانيا من بعد ذلك ضد بابوية روما الكاثوليكية، بل كانت ألمانيا هي مركز اللوثرية وحركة الإصلاح البروتستانتي. ومن ثم وقفت ألمانيا مع الدولة العثمانية، ثم مع العرب عموماً. ومن هنا كان اختيار الرئيس المصري حسني مبارك للعلاج الجراحي خارج مصر في ألمانيا مرتين، من دون دول أوروبا وأمريكا والعالم كله.

الملك الصالح نجم الدين أيوب (٦٠٣ ٦٤٧هـ): صلاح الدين الثاني، ومؤسس المماليك بمصر (أو مفرخة صلاحات الدين!)

ابن السلطان الملك الكامل محمد بن السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن الأمير نجم الدين أيوب بن شادي الأيوبي سلطان الديار المصرية (وأخو صلاح الدين الأيوبي). **والملك الصالح** (كما يقول ابن تغري بردي) **هو أعظم ملوك بني أيوب وأجلهم وأحسنهم رأياً وتدبيراً ومهابة وشجاعة وسؤدداً بعد السلطان صلاح الدين يوسف بن ايوب** (أخي جدم الملك العادل أبي بكر بن أيوب). ولو لم يكن من محاسنه إلا تجلده على مقابلة العدو الصليبي بالمنصورة وهو بتلك الأمراض المزمنة، وموته على الجهاد، والذبّ عن المسلمين لكفى. فالله يرحمه، ما كان أصبره وأعزر مروءته!

ولا بد من تفصيل لهذا السلطان المغبون حقه في التاريخ، بل لا يعرفه إلا القليل من أبناء العروبة والإسلام. ومن الأفضل ذكره تحت عناوين خمسة: ابتلاؤه قبل سلطنته، وتحرير بيت المقدس، وتوحيد الشام مع مصر، وجهاده ضد الحملة الصليبية السابعة (أكبر حملة أساطيل بحرية على مصر)، وتنشئته المماليك الذين صاروا من بعده سلاطين مصر والشام والعالم الإسلامي (كلٌ منهم يمثل قائداً من طراز صلاح الدين).

كان الصالح أيوب ابناً للسلطان الأيوبي الملك الكامل محمد، وأمه جارية سوداء اسمها ورد المنى، وأخاً للسلطان العادل سيف الدين أبي بكر، وحفيداً للسلطان الملك العادل أخي السلطان صلاح الدين الأيوبي.

أولاً. ابتلاء الله الملك الصالح قبل سلطنته:

كان ابتلاء الله الملك الصالح قبل سلطنته مِنحة ربانية تتناسب وعظيم المهمة الملقاة عليه (فأشدّ الناس ابتلاءً هم الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل. كما في الحديث النبوي). وكان من وراء هذا الابتلاء والتمحيص حكمة الله البالغة في تجرّد الملك الصالح من الاعتماد على الأسرة الأيوبية، التي صارت مُشتتة مقسمة ذات أنانيت ومطامع شخصية، تنبئ باضمحلال البيت الأيوبي وهبوط قوة دولة الإسلام. وأفرزت محنة الملك الصالح اختياراً غنياً بالتجارب، زوّدته بمناعة مكتسبة ضد مطامع أفراد البيت الأيوبي، وأعطته رؤية ثاقبة للمستقبل أدت إلى تميّز الملك الصالح وانفراده عن جميع السلاطين الأيوبيين بشراء المماليك واستكثارهم لحمايته وحماية مصر والعالم الإسلامي، وصدق حدسه وفراسته بالأمور، إذ صار هؤلاء المماليك الأبطال من بعده أعظم سلاطين مصر والعالم.

زوال الدولة الخوارزمية (١١٩٠–١٢٢٠م) ووفاة السلطان الكامل:

بينما تلك الأحداث تجري في مصر، كان المغول يتقدمون نحو حدود العالم الإسلامي الشرقية، وكان المغول بحلول عام ٦٣٥هـ–١٢٢٨م، قد توغلوا في بلاد الدولة الخوارزمية – الجبهة الأولى للعالم الإسلامي – ودخلوا في معارك طاحنة مع جيش جلال الدين خوارزمشاه، وظلت المعارك تتواصل بين المغول والخوارزمية إلى أن انهزم جلال الدين بالكامل في سنة ٦٢٨هـ–١٢٣٠م، وقتل وانتهت دولته، وتشتت الخوارزمية وتمزقوا كل ممزق، وتحول جنودهم الذين تشردوا إلى مرتزقة يعرضون خدماتهم على ملوك المنطقة الإسلامية المجاورة. يقول الذهبي في "تاريخ الإسلام": (وأما الخوارزمية فزالت دولتهم، وتمزقوا، وقطشت أذنابهم، وبقوا حرامية، يقتلون ويسبون الحريم، ويفعلون كل قبيح).

توجه السلطان الكامل ومعه أخوه الملك الأشرف موسى صاحب دمشق إلى الشرق في سنة ٦٣٣هـ–١٢٣٥م، وسلما الروم واستولوا على حران والسويداء والرها وقطينا، ثم عاد الكامل إلى مصر، وسلم جميع بلاد الشرق إلى ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب، وهذا أغضب الأشرف الذي كتب إلى الكامل يقول: (أخذت الشرق مني وأعطيته ولدك، وقد افتقرت، وأيش هي دمشق إلا بستان؟ ومالي فيها رزق). فأرسل الكامل إليه ١٠ آلاف دينار، وفكن الأشرف ردها إليه قائلاً: (أنا أعطي هذا أميراً عندي). واتفق الأشرف وملوك حماه وحلب وغيرها على الانتقام من السلطان الكامل. لكن الأشرف مات بعد ذلك بقليل، وتملك دمشق أخوه الملك الصالح عماد الدين إسماعيل، فترك السلطان الكامل ابنه الملك العادل نائباً عنه في مصر، وسار بالأجناد المصرية إلى الشام وحاصر دمشق ودخلها، ثم توفي في ٢١ رجب عام ٦٣٦هـ.

توفي السلطان الكامل تاركاً ابنه العادل في مصر وابنه الصالح أيوب في بلاد الشرق، وكان الصالح أيوب وقت وفاة أبيه ينازل الرحبة للاستيلاء عليها بمساعدة الخوارزمية، بعد أن كان قد استولى على سنجار ونصيبين وخابور، وكانت الرحبة تابعة للملك المجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص، فلما علم الخوارزمية بوفاة السلطان الكامل، طمعوا في الرحبة وأرادوا أخذها لأنفسهم، فخرجوا عن طاعته، وهموا بالقبض عليه، ففر منهم إلى سنجار، فحاصره هناك الخائن الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وأراد القبض عليه وتقله إلى بغداد بقفص حديد لشدة كراهيته إياه، فأرسل الصالح أيوب إلى ابنه المغيث فتح الدين الذي كان هو الآخر قد فر إلى حران خوفاً من الخوارزمية، وطلب منه استمالة الخوارزمية وإحضارهم إلى سنجار، ونجح المغيث وقاضي سنجار بدر الدين في استمالة الخوارزمية، بعد أن أكدا لهم أن الصالح أيوب سيمنحهم سنجار وحران والرها، فذهبوا منهما إلى سنجار وفر بدر الدين لؤلؤ بعسكر الموصل. فوبت شوكة الصالح أيوب بعودة الخوارزمية إليه وسيرهم إلى آمد لمساعدة ابنه المعظم غياث الدين توران شاه الذي كان محاصراً هناك، عن طريق عسكر السلطان كيخسرو صاحب الروم، ونجح الخوارزمية في إبعاد الروم عن آمد، وانتقل الصالح أيوب من سنجار إلى حصن كيفا.

محاولة تهميش الملك الصالح:

ولي السلطان الملك الناصر داود بن السلطان الملك المعظم عيسى بن الملك العادل سلطنة دمشق عام ٦٢٤هـ بعد ولده، وأحبه أهل دمشق. ثم سار عمه الملك الكامل من الديار المصرية؛ لأخذ الملك منه، فاستنجد بعمه الأشرف جاء لنصرته، ثم تغير عليه، ومال إلى أخيه الكامل، وأوهم الناصر بأنه يصلح قضيته، فسار إلى الكامل، واتفقا على الناصر وحاصراه أربعة أشهر، وأخذا منه دمشق، وسار إلى الكرك، وكانت لوالده، وأعطي معها الصلت

ونابلس وعجلون وأعمال القدس. ثم إن الناصر بعد الثلاثين قصد الإمام المستنصر بالله، وقدم له تحفاً ونفائس، وسار إليه على البرية، والتمس الحضور بين يديه كما فعل بصاحب إربل، فامتنعوا عليه، فنظم هذه القصيدة:

ألا يا أمير المؤمنين، ومَن غدتْ ... على كاهل الجوزاء تعلو مرتبهْ

أيحسُنُ في شرع المعالي ودينها ... وأنت الذي تُعزى إليه مذاهبهْ

يأتي أخوض الدوّ والدوُّ مُقفرٌ ... سباريته مُغبرّةٌ وسباسبهْ

وقد رصد الأعداء لي كلّ مرصد ... وكلّهم نحوي تدبّ عقاربهْ

وآتيك والعضبُ المُهنّد مُصْلتٌ ... طريرٌ شباهُ، قانياتٌ ذوائبهْ

وأنزلُ آمالي ببابك راجياً ... فواضلَ جاهٍ يبهرُ النجم ثاقبه

فتقبلُ منّي عبدَ رقٍّ فيغتدي ... له الدهر عبداً طائعاً لا يغالبهْ

فوقعت هذه القصيدة من المستنصر بموقع، وأدخله عليه ليلاً، وتكلم معه في أشياء من العلوم والآداب، ثم خرج سراً. وقصد المستنصر بذلك رعاية الملك الكامل. ثم حضر الناصر بالمدرسة المستنصرية، وبحث واعترض واستدل، والخليفة في روشن بحيث يسمع، وقام يومئذ الوجيه القيرواني فمدح الخليفة بقصيدة جاء منها:

لو كنت في يوم السّقيفة حاضراً ... كنتَ المقدّم والإمامَ الأورعا

قال الناصر: أخطأت، قد كان حاضراً العباس جد أمير المؤمنين، ولم يكن المقدم إلا أبا بكر ﷺ فخرج الأمر بنفي الوجيه، فذهب إلى مصر، وولي بها تدريس مدرسة ابن سكر. ثم إن الخليفة خلع على الناصر، فألبسه الخلعة بالكرك، وركب بالأعلام الخليفية وزيد في ألقابه: "المولى المهاجر". ثم اتفق موت الملك الأشرف وموت الكامل، وكان الناصر بدمشق، فتطلع إلى السلطنة، ولم يكن حينئذ أميز منه، ولو بذل المال حلفوا له. ثم سلطنوا الملك الجواد، فخرج الناصر عن البلد وسار إلى عجلون وندم، فجمع وحشد ونزل على السواحل فاستولى عليها. فخرج الجواد بالعساكر، فوقع المصاف بين نابلس وجينين، فانكسر الناصر، واحتوى الجواد على خزائنه وأمواله، وكان ثقل الناصر على سبع مئة جمل، فافتقر ولجأ إلى الكرك، ونزل الجواد على نابلس. وأخذ ما فيها للناصر (انظر فيما سيأتي).

وهكذا اتفق الأمراء، ومن بينهم عماد الدين إسماعيل والناصر داود، على تنصيب الملك العادل سلطاناً على مصر أما الشام فقد تقاسمها إخوته وأقاربه من بني أيوب، فصارت دمشق من نصيب الملك الجواد مظفر الدين، وحلب من نصيب الملك الناصر صلاح الدين يوسف (على اسم صلاح الدين الأيوبي)، وحمص من نصيب الملك المجاهد أسد الدين شيركوه (على اسم أسد الدين شيركوه عمّ صلاح الدين الأيوبي)، وحماه من نصيب الملك المظفر تقي الدين محمود، وبعلبك من نصيب الملك الصالح عماد الدين إسماعيل، والكرك من نصيب الملك الناصر داود.

فأقيم بعد الملك الكامل ولدُه الملك العادل أبو بكر (ويسمى العادل الصغير على اسم جدّه العادل)؛ وسيء تسلطنه وتقدّمه على أخيه الأكبر نجم الدين أيوب أنه لما مات أبوه، الملك الكامل محمد، بقلعة دمشق، كان ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب – وهو الأكبر – نائب أبيه على الشرق وإقليم ديار بكر، وكان ابنه الملك العادل أبو بكر هذا – وهو الأصغر – نائب أبيه بديار مصر. فلمّا مات الكامل قعد الأمراء يتشاورون فيمن يولون من أولاده، فوقع الاتفاق بعد اختلاف كبير على إقامة العادل هذا في سلطنة مصر والشام، وأن يكون نائبه بدمشق ابن

عمه، الملك الجواد يونس، وأن يكون أخوه، الملك الصالح نجم الدين أيوب على ممالك الشرق على حاله، فكان ذلك. وتسلطن الملك العادل في أواخر سنة ٦٣٥هـ فبلغ ذلك أخاه الأكبر، الملك الصالح نجم الدين أيوب، فقدم ووقع له من مؤامرات أخيه العادل، وحبسه عند ابن عمه، الملك الناصر داود وغيرهما من الأمور الجسام والابتلاء العظيم، ولله فيه الحكمة البالغة. ثم برز العادل إلى بلبيس قاصداً للقتال، فاختلفت عليه الأمراء، فقيدوه، واعتقلوه، وأرسلوا إلى الصالح أيوب فوصل إليهم، فملكوه يوم الإثنين ٢٥ ذي الحجة سنة ٦٣٧هـ. وأقام في الملك عشر سنين إلا أربعة أشهر.

لما تسلطن العادل بمصر، واستقر نائبه الجواد بدمشق، وبلغ هذا الخبر الملك الصالح نجم الدين أيوب، عظم عليه ذلك؛ لكونه الابن الأكبر، فسار بعساكر الشرق ودخل دمشق سنة ٦٣٦هـ -١٢٣٨م، فخرج إليه الملك الجواد والتقاه واتفق وإياه على مقايضة دمشق بسنجار وعانة من بلاد الشرق (وكان من أسباب ذلك خوف الملك الجواد من الملك الصالح عماد الدين إسماعيل)، ثم خرج الجواد واجتمع الخلق يسبّونه في وجهه، وكان قد أساء السيرة في أهل دمشق. ثم خرج الصالح من دمشق على عزم الديار المصرية؛ لأخذ حقه بالسلطنة بعد موت أبيه، فكاتبه عمّه صاحب بعلبك، الملك الصالح إسماعيل بن العادل، وسار الملك الصالح نجم الدين إلى نابلس (ضمن ملك الناصر داود) فاستولى عليها، فتوجه ابن عمه الناصر داود (ابن الملك المعظم عيسى بن العادل) إلى مصر داخلاً في طاعة الملك العادل. فأكرمه العادل وتآمرا عليه. وأقام الصالح بنابلس ينتظر مجيء عمه الصالح إسماعيل. فلم يلتفت الملك الصالح إسماعيل إلى ابن أخيه الصالح نجم الدين أيوب هذا، وتوجه نحو دمشق وهجم عليها فدخلها سنة ٦٣٧هـ.

وبقي الصالح في مماليكه وغلمانه ليس غير، ومعه جاريته شجرة الدر أم خليل، حتى طمع فيه أهل الغور فكسرهم مماليكه. ثم وصل بعد ذلك الملك الناصر داود من مصر إلى الكرك، فركب الصالح أيوب والتقاهم، فخدموه ونتمروا عليه بالسلطنة وقالوا له: طيب قلبك، إلى بيتك جئت. فقال الصالح: لا ينظر ابن عمي فيما فعلت، فلا زال الملوك على هذا، وقد جئت إليه أستجير به. فقالوا: قد أجارك وما عليك بأس. وأقاموا عنده أياماً حول الدار. وقالوا للصالح: تطلع إلى الكرك فإن ابن عمك له بك اجتماع وأخذ سيفه. وكانت شجرة الدر حاملاً فسقطت وأخذوه وتوجهوا به إلى الكرك. (نقل الصالح أيوب إلى الكرك مع شجرة الدر التي كانت قد أنجبت منه في أثناء ذلك فيهما خليل، وحجز الثلاثة هناك في القلعة، ومعهم مملوكه ركن الدين بيبرس البندقداري (وهو بيبرس الظاهر بيبرس الذي تسلطن من بعد)).

واستفحل أمر أخيه الملك العادل صاحب مصر: بالقبض على أخيه الصالح هذا، وأخذ وأعطى وأمر ونهى فتعذر عليه بعض أمراء مصر، ولكن ما أمكنهم يومئذ إلا السكات، وأركبوه بغلة بغير مهماز ولا مقرعة وساروا به إلى البرية في ثلاثة أيام وهو لا يكلم أحداً منهم كلمة ولا يأكل لهم طعاماً، ثم أدخلوه إلى الكرك ليلاً، وأقام مماليكه بنابلس.

واستمر الحال على ذلك إلى أن بلغ الملك العادل ما جرى على أخيه الصالح، فأظهر الفرح ودقت الكوسات بزينت القاهرة.

(اطمئن السلطان العادل على عرشه في مصر: باعتقال أخيه الصالح أيوب في الكرك، فزينت القاهرة ووزعت الحلوى بتلك المناسبة، وأرسل العادل إلى الملك الناصر داود في الكرك يطلب منه إرسال أخيه الصالح أيوب إليه في قفص حديد، مقابل منحه أربع مئة ألف دينار وفوقها دمشق. فردّ عليه الناصر داود برسالة تقول: "وصل كتاب السلطان، وهو يطلب اخاه إلى عنده في قفص حديد، وانك تعطيني أربع مئة الف دينار مصرية، وتأخذ دمشق ممن هي بيده وتعطيني إياها، فأما الذهب فهو عندي كثير، واما دمشق فإذا أخذتها ممن هي معه، وسلمتها إلي، سلمت أخاك إليك، وهذا جوابي والسلام".

ولما وصل العادل، ردّ ابن عمه الناصر داود فأمر بالتجهيز للخروج إلى الشام للاستيلاء على دمشق التي كانت في يد عمه الملك عماد الدين إسماعيل.

اطلع الناصرُ داود ابنَ عمّه الصالح أيوب على كتاب أخيه العادل، وكتب له أبياتاً من الشعر ليست من تأليفه، فيها:

فاصطبر وانتظر بلوغ الأماني ... فالرزايا إذا توالت تولت

فردّ عليه الصالح شاكراً، وأضاف هو الآخر أبياتاً شعرية من بينها بيت يقول:

أما ترى البحر تطفو فوقه جيفٌ ... وتستقر بأقصى قعره الدررُ

والبيت للإمام الشافعي من قصيدة يقول فيها:

الدهر يومان ذا أمنٌ وذا خطرٌ ... والعيش عيشان ذا صفوٌ وذا كدرُ

أما ترى البحر تعلو فوقه جيفٌ ... وتستقر بأقصى قاعه الدررُ

وفي السماء نجومٌ لا عداد لها ... وليس يكسف إلا الشمس والقمرُ

ثم كاتبه عمّه الملك الصالح صاحب بعلبك في إرساله إلى الملك العادل إلى مصر. كل ذلك والعادل في قلق من جهة الصالح، فلم يلتفت الملك الناصر داود لكلامهم، وأقام الصالح مدة في الحبس، حتى أشار بعضهم على الملك الناصر بالاتفاق مع الصالح نجم الدين أيوب وإخراجه.

تحرير القدس المؤقت، وإطلاق سراح الصالح أيوب:

بينما ملوك بني أيوب في صراعاتهم مشغولون، قام الصليبيون ببناء قلعة في القدس، وكان هذ خروجاً على أحد شروط معاهدة الملك الكامل وفردريك الثاني. فلما بلغ الملك الناصر داود ذلك سار إلى القدس بجنود من مصر وضربها بالمجانيق، واستولى عليه، وأخرج الصليبيين منها في جمادى الأولى ٦٣٧هـ / كانون الأول ١٢٣٩م، بعد أن حاصرها ٢١ يوماً.

وكتب جمال الدين بن مطروح مادحاً الناصر داود حفيد الناصر صلاح الدين أبياتاً قال فيها:

المسجد الأقصى له عادة ... سارت وصارت مثلاً سائرا

إذا غدا الكفر مستوطناً ... أن يبعث الله له ناصرا

فناصرٌ طهره أولاً ... وناصرٌ طهره آخرا

ثم اشتبك الصليبيون والعسكر المصري المقيم بساحل الشام، فهُزموا وقتل منهم الكثيرين ونقلت أسراهم إلى مصر.

لم يعط السلطان العادل دمشق للملك الناصر داود، ولم يرسل الناصر داود الصالح أيوب إلى السلطان العادل. وتعقدت الأمور بينهما، وازدادت العلاقة بينهما سوءاً، ولم تنجح محاولات إقامة صلح بينهما من جهة، وبينهما وبين الملك عماد الدين إسماعيل من جهة أخرى. ثم أرسل الملك المظفر تقي الدين محمود صاحب حماه رسالة إلى الخوارزمية، نقلها إليهم جمال الدين بن مطروح، يستحثهم فيها على مناصرة الملك الصالح أيوب ضد أخيه السلطان العادل، ومع الرسالة وضع رسالة أخرى من الملك الناصر داود كتب فيها:

"إني لم أترك الملك الصالح بالكرك إلا صيانة لمهجته، خوفاً عليه من أخيه الملك العادل، ومن عمه الملك الصالح عماد الدين، وسأخرجه وأملكه البلاد، فتحركوا على بلاد حلب، وبلاد حمص". (ثم ما لبث أن سلم الناصر داود القدس ثانية إلى الصليبيين عام ٦٤١هـ؛ لأجل التحالف مع عمه الخائن الملك الصالح إسماعيل ضدّ الملك الصالح أيوب بن الملك العادل الأيوبي (ملك مصر)، كما سنرى فيما سيأتي).

أطلق الملك الناصر داود، بعد ٧ أشهر من احتجاز الصالح أيوب بقلعة الكرك سراحه، فأخرجه الناصر وتحالفا واتفقا، وذلك في آخر شهر رمضان، وكان تحليف الناصر داود للصالح أيوب على شيء ما يقوم به أحد من الملوك، وهو أنه يأخذ له دمشق وحمص وحماه وحلب والجزيرة والموصل وديار بكر ونصف ديار مصر ونصف ما في الخزائن من المال والجواهر والخيل. ولما علم الملك العادل بخلاص أخيه الصالح، اتفق وعمه الملك الصالح إسماعيل صاحب بعلبك الذي ملك دمشق، فسار الملك العادل من مصر والملك الصالح من دمشق ومعه أسد الدين صاحب حمص، ثم عزموا على قصد الناصر والصالح، فأول من برز لهم الملك العادل بعساكر مصر حتى وصل بلبيس (وكان قد أساء السيرة في أمرائه وحواشيه) فقبضوا عليه وأرسلوا إلى الصالح نجم الدين أيوب يعرفونه ويسألونه الإسراع في المجيء إلى الديار المصرية.

فسار ومعه الملك الناصر داود صاحب الكرك، فكان وصول الصالح إلى بلبيس في يوم الأحد ٢٤ ذي القعدة، فنزل في خيمة العادل، والعادل معتقل في خركاه. ومنذ أن فارق الصالح غزة تغير عليه داود وهو طامع في الملك وتحدث مع مماليك الصالح لقتله فأبوا. وشرب ليلة وصل إلى بلبيس وشطح إلى العادل، فخرج له من الخركاه، فقبل الأرض بين يديه فقال له: كيف رأيت ما أشرت عليك ولم تقبل مني؟! فقال: يا خوند التوبة، فقال: طيب طيب الساعة أطلقك، وجاء فدخل على الصالح الخيمة ووقف، فقال الصالح: باسم الله، اجلس فقال: ما أجلس حتى تطلق العادل. فقلت: اقعد، وهو يكرر الحديث، ثم سكت ونام، فما صدقت بنومه، وقمت في باقي الليل فأخذت العادل في محفة ورحلت به إلى القاهرة. ولما دخلنا القاهرة، بعثت إليه بعشرين ألف دينار، فعادت إليّ مع غلماني، وغضب وأراد نصف ما في خزائن مصر. واستولى الصالح على ملك مصر وقبض على أخيه العادل في يوم الإثنين ٢٥ ذي الحجة وحبسه عنده بالقلعة سنين.

كشف السلطان الصالح أيوب بيت المال والخزانة السلطانية، عند تسلطنه، فلم يجد سوى دينار واحد وألف درهم، فطلب القضاة والأمراء الذين قبضوا على العادل وسألهم عن سبب قبضهم عليه، فأجابوا: "لأنه كان سفيهاً". فسألهم: "يا قضاة، السفيه يجوز تصرفه في بيت مال المسلمين؟". فلما أجابوا بالنفي، قال لهم: "أقسم بالله متى لم تحضروا ما أخذتم من المال، كانت أرواحكم عوضه". فخرجوا وعادوا بمبلغ كبير من المال، فتركهم، ولكنه قبض عليهم واحداً تلو الآخر فيما بعد.

ولما أحس الصالح أن الأمراء والمماليك الأشرفية (مماليك عمه الملك الأشرف موسى) يتآمرون عليه قبض على عدد منهم، من بينهم مقدمهم أيبك الأسمر. وشرع الصالح في تنظيم أمور دولته وتقوية مماليكه، وبدأ في تشييد مقر جديد له في جزيرة الروضة، فأقام فيها الدور السلطانية والأسوار، ولما اكتملت، انتقل إليها من قلعة الجبل وسكنها مع أهله وحرمه ومماليكه.

ثانياً. الملك الصالح نجم الدين أيوب: تحرير بيت المقدس النهائي:

اتفق الناصر داود وعمه الملك الصالح إسماعيل صاحب دمشق، والمنصور صاحب حمص، على حرب الملك الصالح أيوب؛ وكان الصليبيون يراقبون الوضع باهتمام إلى حين.

وفي الوقت الذي كان الإمبراطور الألماني (صديق الملك الكامل وابنه الملك الصالح) يعارض البابا في الدعوة البابوية المستمرة إلى حملة صليبية جديدة، تحركت فصائل فرنسية قليلة من ليون بقيادة الملك تيبو دي نافار والدوق هوغ الرابع البورغوني وغيرهما من الأسياد، وأبحر القسم الأكبر في خريف ١٢٣٩م إلى سورية، إذ حاولوا، بإصرار من الفرسان الهيكليين، عقد حلف مع أمراء دمشق وحمص والكرك الأيوبيين الانفصاليين ضد مصر، ولكن المصريين هزموهم جوار عسقلان في شهر تشرين الثاني ١٢٣٩، وبدأت المخاصمات بين الصليبيين.

نشب في الشام صراع بين الصالح إسماعيل صاحب دمشق والناصر داود صاحب الكرك، وطلب الصالح إسماعيل من الصليبيين مساعدته في مقابل تسليمهم جميع ما فتحه صلاح الدين الأيوبي. ثم تطور ذلك الصراع إلى إقامة حلف مناهض للصالح أيوب في مصر. وكان من ضمن ذلك الحلف الناصر داود صاحب الكرك والصالح إسماعيل صاحب دمشق والملك المنصور إبراهيم صاحب حمص.

وانضم، إلى هذا الحلف، الصليبيون الذين وعدهم الملوك الأيوبيون المتحالفون معهم بتسليمهم جزءاً من مصر بعد هزيمة الصالح أيوب. ومنح الصالح إسماعيل الصليبيين صفد وشقيف ونصف صيدا وطبريا وسائر بلاد الساحل، وسمح لهم بدخول دمشق وشراء السلاح منها. وهذا أغضب المسلمين، فأفتى الشيخ عز الدين ابن عز الدين عبد السلام بتحريم بيع الصليبيين السلاح، وقطع الدعاء للصالح إسماعيل في جامع دمشق. فعزله الصالح إسماعيل. فسار إلى مصر حيث ولاه الصالح أيوب الخطابة بجامع عمرو بن العاص، وقلده قضاء مصر والوجه القبلي.

تسلم الصليبيون في سنة ٦٤١هـ طبريا وعسقلان من الحلف المناهض للصالح أيوب، وتمكنوا من الصخرة بالقدس، وجلسوا فوقها يحتسون الخمر، وعلقوا جرساً على المسجد الأقصى ككاتب. عندئذ، السلطان الصالح أيوب الخوارزمية في بلاد الشرق وطلب منهم الحضور إلى مصر؛ لمعاونته في محاربة الملوك الذين تحالفوا مع الصليبيين وسلموهم أراضي المسلمين. (دخل المغول في السنة نفسها بلاد الروم، وهزموا السلطان غياث الدين كيخسرو، واستولوا على مملكته وعلى سيواس وقيسارية، وفرّ غياث الدين إلى القسطنطينية. أما بدر الدين لؤلؤ الخائن صاحب الموصل، فإنه خضع بإرادته للمغول؛ فقد راح يجبي المال من أهل الشام لمصلحة المغول)

عبر الخوارزمية نهر الفرات في نحو عشرة آلاف مقاتل، يقودهم الأمير حسام الدين بركة خان مع عدة من الأمراء، واقتحموا بعلبك وغوطة دمشق، فتحصن الصالح إسماعيل بدمشق. ثم هاجم الخوارزمية القدس (مدينة بلا أسوار؛ لأن الملك المعظم خرب أسوارها)، وقتلوا أعداداً من الصليبيين، ومنها ساروا إلى غزة وأرسلوا إلى الصالح أيوب يعرفونه بقدومهم، فرحّب بهم وسمح لهم بالإقامة في غزة، وأرسل إليهم الخيل والأموال. وجهز الصالح أيوب جيشاً تحت قيادة جنراله الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري، أحد مماليكه الأخصاء الذي كان معه في الكرك وقت احتجازه (وهو ليس الظاهر بيبرس الذي تسلطن فيما بعد). وخرج الجيش بقيادة بيبرس إلى غزة حيث انضم إلى الخوارزمية. أما في الشام، فقد جهز الصالح إسماعيل عسكر دمشق يقودهم الملك المنصور صاحب حمص. وانضمت إليه قوات من الكرك والعربان يقودها الظهير بن سنقر الحلبي، والوزيري، والقوت الصليبية القادمة من عكا التي كانت تضم فرسان المعبد (الداوية) والأسباترية وفرسان التيوتون الألمان، وفرسان القديس لازاروس، وجيش بيت المقدس بقيادة "والتر الرابع" و"أرماند دو بريجورد" و"فيليب منوتفورت"، ورفي الصليبيون الصلبان فوق رؤوس عسكر الشام، وساروا جميعاً بحلفهم نحو مصر والقساوسة يباركونهم.

خطين الثانية: معركة غزة أو معركة الحربية، وتسمى أيضاً معركة لافوربي:

شنّ الصليبيون، في ١٧ تشرين الأول ١٢٤٤م – جمادي الأولى ٦٤٢هـ، في تحالف صليبي – أيوبي كبير (من الأيوبيين الانفصاليين في دمشق وحمص والكرك)، هجوماً برياً ضخماً على مصر، واصطدم الجمعان في شمال

شرقي غزة في معركة عرفت أيضاً باسم معركة الحربية أو معركة لافوربي La Forbie؛ وكان الصليبيون في معية جيش الشام بأكبر جيش دفعوا به إلى ميدان القتال منذ معركة حطين (١٥٠٠ فارس، و١٠ آلاف راجل)، وفي الميسرة عسكر الناصر صاحب الكرك والعريان، وفي القلب المنصور صاحب حماه. وهجم الخوارزمية على العسكر الشامي في حين تصدى المصريون للصليبيين. وانهزم المنصور وفر الوزيريّ وأسر الظهير الحلبي، وأحيط بفصليبيين الدين حصر جيشهم بين الخوارزمية والمصريين. وهزم التحالف الصليبي – الأيوبي هزيمة منكرة في عدة ساعات فقط، وفرّ المنصور إلى دمشق.

وقتل من الفرنج في يوم واحد زيادة على ثلاثين ألفاً، وأسروا جماعة من ملوكهم وقساوستهم وأساقفتهم، وخلقاً من أمراء المسلمين، وقتل من بينهم مقدم الداوية ورئيس أساقفة صور وأسقف الرملة. وانهزم الحلف الشامي – الصليبي هزيمة منكرة. وبعث الخوارزميون بالأسارى، وعددهم ٨٠٠، وبالرؤوس إلى مصر. ووصلت بشارة النصر إلى الملك الصالح أيوب في ١٥ جمادى الأولى، فزينت القاهرة وقلعتي الجبل والروضة، وسيق الأسرى إلى القاهرة، وكان من بينهم كونت يافا ومقدم الأسباتارية، وطوّف بهم في الشوارع وهم محملون على الجمال. واستخدم الصالح أيوب الأسرى الصليبيين في إكمال تشييد جزيرة الروضة. ممكن نصر غزة المسلمين من تعضيد نصرهم، وعرض سيادتهم الكاملة على بيت المقدس وتحريرها النهائي مع بعض معاقل الصليبيين في الشام.

أما بيبرس، فقد انطلق إلى عسقلان التي حوصرت عن طريقه براً وعن طريق السفن المصرية من البحر، ودخلت القوات القدس وحررتها – ولم يتمكن الصليبيون منذ ذاك اليوم من الاستيلاء على القدس مرة أخرى – ودخلت الخليل وبيت جبرين والأغوار. ثم أرسل الصالح أيوب جيشاً إلى دمشق تحت قيادة معين الدين الحسن بن شيخ، وتحصن الصالح إسماعيل والمنصور إبراهيم وحاصرت القوات دمشق، فأرسل الصالح إسماعيل إلى معين الدين سجادة وإبريقاً وعكازاً ومعها رسالة تقول: "اشتغالك بهذا أولى من اشتغالك بحرب الملوك وأبناء الملوك". فأرسل إليه معين الدين جنكاً وزمراً وغلالة من حرير أحمر وأصفر، ومعها رد يقول: "السجادة والإبريق والعكاز يحققون بي، وأنت أولى بالجنك والزمر والغلالة"؛ واستمر الحصار.

جرت مفاوضات بين معين الدين والصالح إسماعيل، وتقرر أن يقوم الصالح إسماعيل بتسليم دمشق على أن يخرج منها سالماً هو والمنصور بأموالهم، وأن يعوض الصالح إسماعيل ببعلبك وبصرى ومواضع أخرى، وأن يعوض المنصور بحمص وتدمر والرحبة. وغادر الصالح إسماعيل والمنصور إبراهيم دمشق بهذا الاتفاق؛ فدخلها معين الدين في ٨ جمادى الأولى سنة ٦٤٣هـ، وخطب للسلطان الصالح أيوب في مساجدها. وعين الأمير حسام الدين أبا علي الهذباني نائب السلطان في دمشق.

ولشيء من التفصيل والتوثيق العربي، يقول ابن كثير في "البداية والنهاية" تحت سنة ٦٤٢هـ (ج١٣، ص١٩٣):

(وفيها: كانت وقعة عظيمة بين الخوارزمية الذين كان الصالح أيوب صاحب مصر استقدمهم ليستنجد بهم على الصالح إسماعيل أبي الحسن صاحب دمشق، فنزلوا على غزة وأرسل إليهم الصالح أيوب الخلع والأموال والأقمشة والعساكر، فاتفق الصالح إسماعيل أي عمّ الملك الصالح نجم الدين أيوب! والناصر داود صاحب الكرك، والمنصور صاحب حمص أولاد عمّ الملك الصالح نجم الدين! مع الفرنج، واقتتلوا مع الخوارزمية قتالاً شديداً، فهزمتهم الخوارزمية كسرة منكرة فظيعة، وهزمت الفرنج بصلبانها ورياتها العالية، على رؤوس أطلاب المسلمين، وكانت كؤوس الخمر دائرة بين الجيوش، فنابت كؤوس المنون عن كؤوس الزرجون. فقتل من الفرنج في يوم واحد زيادة على ثلاثين ألفاً، وأسروا جماعة من ملوكهم وقسوسهم وأساقفتهم، وخلقاً من أمراء المسلمين، بعثوا بالأسارى إلى الصالح أيوب بمصر، وكان يومئذ يوماً مشهوداً وأمراً محموداً؛ ولله الحمد. وقد قال بعض مراء المسلمين المنصورا: قد علمتُ أنا لمّا وقفنا تحت صلبان الفرنج أنا لا نفلحُ).

واستغل المسلمون هذه الظروف، واشرف الملك الصالح نجم الدين أيوب في أيلول ١٢٤٤م بجيشه المصري يسانده ١٠ آلاف من الفرسان الخوارزميين بفتح القدس ثانية، وقضوا على الصليبيين فيها عن بكرة أبيهم، وانتقلت المدينة برسوخ إلى المسلمين.

يحكي ابن تغري بردي في "النجوم الزاهرة" عن حكمة الله في أن معركة غزة كانت سبباً في استرجاع القدس، ومن ثم توحيد الشام ومصر على يد البطل الجديد الملك الصالح نجم الدين أيوب: (وأما الخوارزمية بعد أن زال التتار دولتهم)، فإنهم تغلبوا على عدة قلاع وعادوا وخربوا البلاد لوكانوا مرتزقة شراً من التتار) ووقع الصلح في سنة ٦٤١هـ بين الصالحين (أي الملك الصالح أيوب وعمه الصالح إسماعيل) والمنصور صاحب حمص على أن تكون دمشق للصالح إسماعيل، وأن يقيم هو والحلبيون والحمصيون الخطبة في بلادهم لصاحب مصر، وأن يخرج له الملك الصالح أيوب الملك المغيث من اعتقال الملك الصالح إسماعيل - والملك المغيث هو ابن الملك الصالح نجم الدين كان معتقلاً قبل سلطنته في واقعة جرت. قلت: يعني: إن الصالح اسماعيل (عمّ الملك الصالح أيوب) قبض على المغيث بن الملك الصالح أيوب بعد خروج الصالح من دمشق قاصداً الديار المصرية قبل أن يقبض عليه الناصر داود ثم ساروا إلى مصر واتفق الملوك على عداوة الناصر داود. وجهز الصالح إسماعيل عسكراً يحاصرون عجلون (وهي للناصر)، وخطب لصاحب مصر الصالح نجم الدين في بلاده. وبقي عنده المغيث حتى تأتيه نسخ الأيمان.

قال ابن واصل: فحدثني جلال الدين الخلاطي قال: كنت رسولاً من جهة الصالح إسماعيل، فورد عليّ منه كتاب، وفيه طيه كتاب من الصالح نجم الدين إلى الخوارزمية يحثهم على الحركة ويعلمهم أنه إنما صالح عمّه الصالح ليخلص ابنه المغيث من يده، وأنه باقٍ على عداوته. ولا بد له من أخذ دمشق منه، فمضيت بهذا الكتاب إلى الصاحب معين الدين، فأوقفته عليه فما أبدى عنه عذراً يسوغ.

وردّ الصالح إسماعيل المغيث بن الصالح نجم الدين إلى الاعتقال، وقطع الخطبة، ورد عسكره عن عجلون، وأرسل إلى الناصر داود، واتفق وإياه على عداوة صاحب مصر، وكذلك رجع صاحب حلب وصاحب حمص عنه وصاروا كلمة واحدة عليه، واعتقلت رُسُلهم بمصر، واعتضد صاحب دمشق بالفرنج وسلم إليهم القدس وطبريا وعسقلان.

وتجهز صاحب مصر الملك الصالح أيوب لقتالهم، وجهز البعوث، وجاءته الخوارزمية فساقوا إلى غزة، واجتمعوا بالمصريين وعليهم ركن الدين بيبرس البندقداري الصالحي.

وتسلّم الفرنج حرم القدس وغيره، وعمّروا قلعتي طبريا وعسقلان اخلافاً لصلح الملك الكامل مع الامبراطور الألماني، ووعدهم الصالح إسماعيل لعمّ الملك الصالح أيوب بأنه إذا ملك مصر أعطاهم بعضها، فتجمعوا وحشدوا وسارت عساكر الشام إلى غزة، ومضى المنصور صاحب حمص بنفسه إلى عكا وطلبها فأجابوه وصعد الرهبان على الصخرة وعليها قناني الخمر والجرس في المسجد الأقصى، وأبطل الأذان بالحرم وأعلن الكفر. وقدم الناصر داود إلى القدس فنزل بقربيه.

ولما عدت الخوارزمية الفرات، وكانوا أكثر من عشرة آلاف، ما مروا بشيء إلا نهبوه، وتقهقر الذين بغزة منهم، وطلع الناصر إلى الكرك، وهربت الفرنج من القدس، فهجمت الخوارزمية على القدس وقتلوا من به من النصارى وهدموا مقبرة القمامة (أي المرفقة بكنيسة القيامة)، وجمعوا بها عظام الموتى، فحرقوها ونزلوا بغزة وراسلوا صاحب مصر: يعني الملك الصالح هذا، فبعث إليهم بالخلع والأموال وجاءتهم العساكر، وسار "الأمير حسام الدين بن أبي علي بعسكر ليكون مركزاً بنابلس، وتقدم المنصور إبراهيم على الشاميين لقتال المصريين (وكان شهماً شجاعاً) ورافقته الفرنج من عكا وغيرها بالفارس والراجل، ونفذ الناصر داود عسكراً فوقع المصاب بظاهر غزة، فانكسر المنصور شر كسرة، وأخذت سيوف المسلمين الفرنج فأفنوهم قتلاً وأسراً، ولم يفت منهم إلا الشارد، وأسر أيضاً من عسكر دمشق والكرك جماعة من المقدمين.

قال ابن واصل: حكي لي عن المنصور أنه قال: (والله، لقد قصّرت ذلك اليوم ووقع في قلبي أنه لا ننتصر، لانتصارنا بالفرنج) - قال ابن بردي: (عليه من الله ما يستحقه من الخزي. وأيش يفيد تقصيره بعد أن صار هو والفرنج يداً واحدة على المسلمين؟!). قال: ووصلت عسكر دمشق معه في أسوأ حال.

وأما مصر، فزينت زينة لم ير مثلها، وضربت البشائر، ودخلت أسارى الشام، الفرنج والأمراء، وكان يوماً مشهوداً بالقاهرة.

ثم عطف حسام الدين بن أبي علي وركن الدين بيبرس فنازلوا عسقلان وحاصروها وبها الفرنج الذين تسلموها، فخرج حسام الدين وامتنعت عليهم عسقلان لحصانتها. ثم ترحلوا إلى نابلس وحكموا على فلسطين والأغوار إلا عجلون فكانت بيد سيف الدين بن قليج نيابة عن الناصر داود).

كان سقوط بيت المقدس في يد قوات الملك الصالح نجم الدين أيوب صدى قوي في أوروبا يشبه صدى سقوطها في يد صلاح الدين الأيوبي عام ١١٨٧م. إذ قام "روبرت" بطريق بيت المقدس بإرسال "جاليران" أسقف بيروت إلى ملوك أوروبا وأمرائها، يستعجلهم بإرسال إمدادات إلى الأراضي المقدسة؛ لمنع زوال مملكة بيت المقدس برمتها. وذلك في أثناء شهر من سقوط القدس بأيدي المسلمين. وبدأ الأوروبيون بدعم من بابا الكاثوليك "إنوسنت الرابع" Pope Innocent IV يجهزون لحملة صليبية كبرى ضد مصر، تمكنهم من استعادة بيت المقدس. وكان ملك فرنسا لويس التاسع من أكبر المتحمسين للحملة الجديدة. كان الصليبيون يُدركون أن مصر صارت قلعة الإسلام وترسانته العسكرية، ومصدر القوة العسكرية الرئيس للمسلمين، وهي العائق الرئيس الذي يعترض طموحاتهم لاسترجاع بيت المقدس. وقرروا أنهم لن يتمكنوا من احتلال كل الشام وبيت المقدس دون الإجهاز أولاً وبداية على مصر.

ثالثاً. توحيد الشام مع مصر (القضاء على تمرد الخوارزمية والصالح إسماعيل الخائن):

عزم لصالح أيوب صاحب مصر، في ٦٤٠هـ، على دخول الشام فقيل له: إن العساكر مختلفة، فجهز عسكراً إليها وأقام هو بمصر يدبر مملكتها. ثم بعث السلطان الملك الصالح نجم الدين بن الشيخ على جيشه، وأقامه مقام نفسه. وأنفذ معه الخزائن وحكمه في الأمور، وسار هو إلى الشام ومعه الخوارزمية، فنالوا دمشق وبها عمّه الخائن الصالح إسماعيل، والمنصور صاحب حمص، فذلّ الصالح إسماعيل (وبعث وزيره أمين الدولة مستشفعاً بالخليفة: ليصلح بينه وبين ابن أخيه الملك نجم الدين فلم يظفر بطائل ورجع).

واشتد الحصار على دمشق، وأُخذت بالأمان (لقلة من مع صاحبها، ولعدم الميرة بالقلعة، وتخلي الحلبيين عنه: فترحل). ولما رأت الخوارزمية أن السلطان قد تملك الشام بهم وهزم أعداءه، صار لهم عليه إدلال كثير فطمعوا، فلما لم يحصلوا على شيء، فسدت نيتهم له وخرجوا عليه وكاتبوا الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري (وهو أكبر أمراء الصالح نجم الدين أيوب وكان بغزة فاصفى إليهم - فيما قيل) وراسلوا صاحب الكرك فنزل إليهم ووافقهم، وكانت أمه أيضاً خوارزمية، وتزوج منهم ثم طلع إلى الكرك واستولى حينئذ على القدس ونابلس وتلك الناحية، وهرب منه نواب صاحب مصر. ثم راسلت الخوارزمية الملك الصالح إسماعيل وهو في بعلبك وحلفوا له، فسار إليهم واتفقت كلمة الجميع على حرب الصالح صاحب مصر، فقلق الصالح لذلك، وطلب ركن الدين بيبرس فقدم مصر، فاعتقله، وكان آخر العهد به. **(وهذا غير بيبرس البندقداري الظاهري وإنما هذا أيضاً على اسمه وشهرته، وهذا أكبر من الظاهر بيبرس وأقدم. وقد قبض عليه الملك الصالح بعد ذلك لتمرده وأودعه السجن حيث قضى نحبه).**

ثم خرج الملك الصالح نجم الدين أيوب بعساكره فخيم بالعباسة، وكان قد نفذ رسوله إلى الخليفة المستعصم (ببغداد) يطلب تقليداً بمصر والشام أو الشرق. فجاءه التشريف والطوق الذهب والمركوب، فلبس التشريف الأسود

والعمامة والجبة وركب الفرس بالحلية الكاملة، وكان يوماً مشهوداً. ثم جاء عمه الخائن الصالح إسماعيل والخوارزمية ونازلوا دمشق، وليس بها كبير عسكر، وبالقلعة الطواشي رشيد، وبالبلد نائبها حسام الدين بن أبي علي الهذباني، فضبطها وقام بحفظها بنفسه ليل نهار، واشتد بها (أي بدمشق) الغلاء وهلك أهلها جوعاً ووباء.

وتوجه السلطان الصالح نجم الدين أيوب في ٦٤٤هـ إلى مصر، وتصدّق في القدس بألفي دينار. وأمر بعمارة سورها، وقال: اصرفوا دَخل البلد في عمارة السور.

فعند ذلك اتفق عسكر حلب والمنصور صاحب حمص على حرب الخوارزمية، فقصدوهم وتركوا حصار دمشق وساقوا يقصدونهم، فالتقى الجمعان ووقع المصاف في أول سنة ٦٤٤هـ على القصب قرب حمص، فاشتد القتال، والصالح إسماعيل مع الخوارزمية، فانكسروا عندما قتل مقدمهم حسام الدين بركة خان، وانهزموا ولم تقم لهم بعدها قائمة، وعلق رأس بركة خان على قلعة حلب، وتشتتت الخوارزمية، وخدم طائفة منهم بالشام، وطائفة بمصر، وطائفة مع كشلوخان ذهبوا إلى التتار وخدموا معهم، وكفى الله شرهم ووصل الخبر إلى القاهرة، فزينت، وحصل الصلح التام بين السلطان الصالح نجم الدين أيوب وبين صاحب حمص والحلبيين.

وأما الصالح إسماعيل الخائن، فإنه التجأ إلى ابن أخته الملك الناصر صلاح الدين صاحب حلب. وسار نائب دمشق حسام الدين إلى بعلبك وحاصرها وبها أولاد الصالح إسماعيل فسلموها بالأمان، ثم أرسلوا إلى مصر تحت الحوطة: هم والوزير أمين الدولة والأستادار ناصر الدين بن يغمور، فاعتقلوا بمصر. وصفت البلاد للملك الصالح (بفضل الله ومنته عليه).

وبقي الملك الناصر داود -سامحه الله- بالكرك في حكم المحصور، ثم رضي السلطان على فخر الدين بن الشيخ، وأخرجه من الحبس وسيره إلى الشام واستولى على جميع بلاد الناصر داود، وخرب ضياع الكرك ثم نازلها أياماً، وقلّ ما عند الناصر من المال والذخائر، وقلّ ناصره، فعمل قصيدة يعاتب فيها السلطان فيما له عنده في اليد، من الذبّ عنه وتمليكه ديار مصر (كان مزاجي الطبع، ينوي قتل الملك الصالح نجم الدين أيوب) وهي:

قل للذي قاسمته ملك اليد	ونهضت فيه نهضة المستأسد
عاصيت فيه ذوي الحجا من أسرتي	وأطعت فيه مكارمي وتودّدي
يا قاطع الرحم التي صلتي بها	كتبت على الفلك الأثير بمسجد
إن كنت تقدح في صريح مناسبي	فاصبر بعزمك للمهيب المرصد
عمّي أبوك ووالدي عمٌّ به	يعلو انتسابك كل ملك أصيد
صالا رجالا كالأسود ضواريا	فارتد تيار الفرات المزبد
دع سيف مقولي البليغ يذبّ عن	أعراضكم بفرنده المتوقد
فهو الذي قد صاغ تاج فخاركم	بمفصل من لؤلؤ وزبرجد

ثم أخذ يصف نفسه وجوده ومحاسنه وسؤدده، إلى أن قال:

يا مخرجي بالقول والله الذي	خضعت لعزته جباه السُّجّد
والله يا ابن العمّ لولا خيفتي	لرميت ثغرك بالعُداة المُرّد
لكنني ممن يخاف حرامه	ندماً يجرعني سمام الأسود
فأراك ربك بالهدى ما ترتجي	لتراك تفعل كل فعل مرشد

لتسد وجه الملك طلقاً ضاحكاً ... وترد شمل البيت غير مبدد
كي لا ترى الأيام فينا فرصة ... للخارجين وضحكة للحُسّد
لا زال هذا البيت مرتفع البنا ... يزهو بأمجد بعد آخر أمجد

ثم إن صاحب الكرك هذا الملك الناصر داود سافر إلى بغداد، فاختلف أولاده، فسار أحدهم إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب، وسلم إليه الكرك، ففرح بها مع ما فيه من الأمراض، وزينت بلاده، وبعث إليها بالطواشي بدر الدين الصوابي نائباً. ثم قدم عليه أولاد الناصر داود، فبالغ الملك الصالح في إكرامهم وأقطعهم أخبازاً جليلة. ولم يزل يتزايد به المرض إلى أن مات، وأخفي موته. قال: ثم إن السلطان طلب الأمير حسام الدين بن أبي علي وولاه نيابة الديار المصرية، واستناب على دمشق الصاحب جمال الدين يحيى بن مطروح، ثم قدم الشام وجاء إلى خدمته صاحب حماه الملك المنصور وهو ابن الثنتي عشرة سنة وصاحب حمص وهو صغير، فأكرمهما وقربهما ووصل إلى بعلبك، ثم رد إلى الشام، ثم رجع السلطان ومرض في الطريق إلى مصر.

وقد أذاق الله تعالى الملك داود هذا طعم الحبس بنفسه، مثلما حبس ابنَ عمه الملك الصالح أيوب ظلماً وعدواناً (جزاء من جنس العمل). وعاد الملك الناصر داود في عام ٦٥٣هـ من الأنبار إلى دمشق، بعد أن حبسه الملك الناصر صلاح الدين يوسف بقلعة حمص ثلاث سنين، وبعث به إلى بغداد، ثم عاد إلى دمشق وأقام بها، ثم عاد في سنة ٦٦٠هـ إلى العراق وحجّ وأقام بالحلة، وكان قد جرى بين الحج العراقي وأصحاب أمير مكة فتنة فاصلح بينهم. وقد أودع الملك داود وديعة للخليفة المستعصم قد جحدها عليه. وذكر أنه حضر أول درس ذكر بالمستنصرية في سنة ٦٣٢هـ، وأن الشعراء أنشدوا المستنصر مدائح كثيرة، فقال بعضهم في جملة قصيدة له:

لو كنت في يوم السقيفة شاهداً ... كنت المقدم والإمام الأعظما

فقال الناصر داود للشاعر: (اسكت فقد أخطأت، قد كان جدّ أمير المؤمنين العبّاس شاهداً يومئذ، ولم يكن المقدم، وما الإمام الأعظم إلا أبو بكر الصديق ﷺ). فقال الخليفة: صدقت، فكان هذا من أحسن ما نقل عنه رحمه الله تعالى وعفا عنه.

رابعاً. الحملة الصليبية السابعة (٦٤٧هـ-١٢٤٩م):

كانت هذه الحملة الهائلة رداً عسكرياً صارماً على تحرير القدس الثاني، يقودها ملك أوروبي مع أمراء أوروبا وبلاتها (تشبه الحملة الصليبية الثالثة بقيادة ملك إنكلترا). كان أول أهداف هذه الحملة هزيمة مصر لإخراجها من الصراع، بالقضاء على الدولة الأيوبية التي تحكم مصر والشام، ومن ثم إعادة احتلال بيت المقدس. وقد جهز الصليبيون هذه الحملة بتأنٍ في ثلاث سنوات، وحاولوا التحالف مع المغول؛ ليعاونوهم على تطويق العالم الإسلامي من المشرق والمغرب، فيصعب على مصر القتال على جبهتين في آن واحد، ويسهل عليهم إذاك الإطاحة بالعالم الإسلامي بضربة واحدة. وقام البابا بإرسال سفارتين إلى المغول. فأرسل مبعوثه الفرنسيسكاني "جيوفاني دا بيان كاربيني" إلى "جويوك" خان المغول الأعظم يطلب منه تحالفه مع الصليبيين. لكن ردّ "جويوك" كان مخيباً لآمال البابا، إذ ردّ عليه برسالة يطلب منه أن يعترف له بالسيادة، ويعلن خضوعه له مع ملوك أوروبا، بل طالبه بأن يأتي إلى بلاطه مع جميع ملوك أوروبا؛ لتقديم الجزية ومبايعته بوصفه الخان الأعظم وسيد العالم.

لكن إنوسنت الرابع لم يفقد الأمل، فقام في أيار/مايو عام ١٢٤٧م بإيفاد "أشلين اللومباردي Asclin of Lombardy" إلى القائد المغولي الإيلخان "بايشو" في تبريز. وبدا بايشو أكثر استعداداً للتحالف مع الصليبيين ضد المسلمين، إذ اقترح أن يقوم بمهاجمة بغداد على أن يقوم الصليبيون في ذات الوقت بمهاجمة الشام فيحصل تطويق المسلمين، وأوفد رسولين إلى

روما بقيا في ضيافة بابا الكاثوليك نحو عام، ثم عادا إلى "بياتشو" ومعهما شكوى من البابا بأنه لم يلحظ أن "بايتشو" قد أقدم على فعل شيء مثمر يخدم التحالف المأمول؛ وأخفق عملياً التحالف الصليبي – المغولي.

وأبحر لويس، في جمادى الأولى ٦٤٦هـ-آب ١٢٤٨م، من مرفأ إيجو – مورت، وتبعته سفن من المرفأ ومن مرسيليا. كان الأسطول الفرنسي الصليبي ضخماً، ويتكون من نحو ١٨٠٠ سفينة محملة بنحو ٨٠ الف مقاتل بعتادهم وسلاحهم وخيولهم. كان بصحبة لويس زوجته "مرجريت دو بروفنس Marguerite de Provence"، وأخوه الأول "شارل دي أنجو (Charlesd'Anjou)" وأخوه الثاني "روبير دي آرتوا (Robertd'Artois)" وبلاء من أقاربه ممن شاركوا في حملات صليبية سابقة مثل: "هيو دو بورجوندي (Hugh deBurgundy)" و"بيتر دو بريتاني Peter de Brittany" وغيرهم. وتبعته سفينة على متنها فرقة إنجليزية يقودها "وليم أوف سالزبري (William of Salisbury)" و"فير روزاموند (Fair Rosamond)". وكانت هناك فرقة إسكتلندية مات قائدها "باتريك اوف دونبار (Patrick of Dunbar)" في سفره إلى مرسيليا. أراد الملك لويس التوجه مباشرة إلى مصر من أجل عنصر المباغتة، لكن مستشاريه وبارونات فضلوا القيام بوقفة تعبوية لتجميع كل السفن والمقاتلين، فتوقف بجزيرة قبرص، إذ انضمّ إليه عدد كبير من بارونات سوريا وقوات من فرسان المعبد، المعروفون بالداوية والإسبتارية التي قدمت من عكا تحت قيادة مقدميها.

قام لويس، في أثناء توقفه بقبرص، باستقبال وفد مغولي سلمه رسالة ودية من خان المغول يعرض عليه فيها خدماته؛ للاستيلاء على الأراضي المقدسة، وطرد المسلمين من بيت المقدس. فأرسل لويس هدية إلى خان المغول، وكانت خيمة ثمينة على هيئة محراب كنيسة، عليها رسم يمثل بشارة الملائكة لمريم العذراء؛ لترغيبه في اعتناق النصرانية، لكن لسوء حظ لويس، عدّ المغول هديته لهم بمنزلة رسالة تعني قبولهم الخضوع للصليبيين، فطلبوا منه إرسال هدايا لهم في كل عام لكونهم الأسياد، وهذا أصابه بصدمة (ويفعل الله ما يريد).

الاستخبارات المصرية: بلغت أخبار حملة لويس التاسع لغزو مصر إلى السلطان الصالح أيوب عن طريق إمبراطور ألمانيا "فردريك الثاني"؛ بسبب صداقته مع الأيوبيين والملك الظاهر وابنه الملك الصالح، فأرسل رسولاً من قبله، تنكر في زيّ تاجر؛ ليحذر الملك الصالح من تلك الحملة. وكان الإمبراطور الألماني فريدرك الثاني في صراع مع بابا الكاثوليك وضد أي حملة صليبية ضد المسلمين. وهذا منح السلطان أيوب فرصة للاستعداد وإقامة التحصينات. ثم إن توقف الحملة الصليبية في قبرص أدى إلى تسرب أنبائها إلى مصر قبل وصول سفنها إلى المياه المصرية.

الحملة الصليبية السابعة لغزو دمياط (مصر) في ١٢٤٩م

ولما علم الصالح أيوب أن مدينة دمياط سوف تكون طريق الصليبيين المفضل لغزو مصر، أنهى حصاره لحمص، وعاد من الشام إلى مصر على محفة؛ بسبب مرضه الشديد، ونزل في شهر محرم سنة ٦٤٧ –فنيسان

١٢٤٩م، وعسكر بجيوشه جنوبها في بلد "أشموم طناح" (اليوم "أشمون الرمان") التابع لمحافظة الدقهلية – شمالي مصر – على البر الشرقي من الفرع الرئيس للنيل. وأمر بتحصين دمياط، وأصدر أوامره بالاستعداد وشحن دمياط بالأسلحة والأقوات والأجناد، وأمر نائبه بالقاهرة الأمير حسام الدين بن أبي علي بتجهيز الأسطول، وأرسل الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ، وكان أميراً في نحو الثمانين، على رأس جيش كبير ليعسكر في البرّ الغربي لدمياط؛ حتى يواجه الفرنج إذا قدموا، ويمنع نزول العدو إلى الشاطئ.

أقلع الملك لويس، في ٦٤٧هـ – أيار عام ١٢٤٩م، في سفينته الملكية "لو مونت – جوي"، وأمر باروناته باتباعه بسفنهم إلى مصر، فأبحرت السفن من ميناء ليماسول القبرصي وقعت عاصفة بحرية قوية، في أثناء التوجه إلى مصر، تسببت رياحها في جنوح نحو ٧٠٠ سفينة من سفن الحملة إلى عكا وسواحل الشام. كان ضمن المقاتلين على متن السفن الجانحة نحو ٢١٠٠ من فرسان لويس التاسع الذين كان مجموعهم نحو ٢٨٠٠ فارس، فتوقف لويس وقتاً قصيراً في جزيرة المورة اليونانية، حيث انضم إليه "هيو دو بورجوندي" الذي كان ينتظر هناك، ثم أبحر جنوباً صوب مصر. وكان هذا سبباً ثالثاً لمصلحة الاستخبارات المصرية وإحكام التحصينات المصرية.

الاستيلاء على دمياط: دخلت سفن الفرنج المياه المصرية، ووصلت إلى شاطئ دمياط ورست بإزاء المسلمين. كان المقاتلون الصليبيون، وهم ينظرون من فوق أسطح سفنهم، قد راعهم كثرة أجناد المسلمين على الشاطئ، وبريق أسلحتهم، وصهيل خيولهم. وأرسل لويس كتاباً إلى السلطان الصالح أيوب يهدده ويتوعده ويطلب منه الاستسلام، وكان السلطان الصالح مريضاً. اغرورقت عينا الصالح أيوب بعد أن قُرئ عليه كتاب لويس، وردّ عليه (يحذره من عاقبة عدوانه وصلفه، وينبئه أن بغيه سيصرعه وإلى البلاء سيقلبه). ولما وصل رد الملك الصالح إلى لويس برفض الاستسلام، قرر لويس بدء عملية الإنزال.

وصل الأسطول الصليبي إلى المياه المصرية أمام دمياط (صفر ٦٤٧هـ–حزيران ١٢٤٩م) وبدأ في اليوم الثاني فجر السبت ٢٣ صفر ٦٤٧هـ – ٥ حزيران ١٢٤٩م إنزال القوات الصليبية على برّ دمياط. وكانت القوات تضم نحو ٥٠٠٠ مقاتل وفارس. ضُربت للويس خيمة حمراء كبيرة على الشط، ونشب قتال عنيف بين المسلمين والصليبيين، انتهى بتراجع المسلمين.

الإنزال العسكري الضخم للحملة الصليبية السابعة والاستيلاء على مدينة دمياط

وارتكب الأمير فخر الدين يوسف، في المساء، خطأ تكتيكياً فادحاً فانسحب هو وقواته المكلفة بحماية المدينة من دمياط إلى المعسكر السلطاني في "أشموم طناح"، بعد أن ظن أن السلطان قد فارق الحياة؛ لأنه لم يرد على رسائله التي بعث بها إليه بالحمام الزاجل. ترك فخر الدين دمياط خلفه بكل ما فيها من سلاح ومؤونة

وأقوات. فنزع السكان وقروا هم أيضاً منها، وخلفهم العربان الذين كانوا مسؤولين بالمشاركة في حماية المدينة. فعبر الجنود الصليبيون إلى المدينة المهجورة، سيراً على الجسر الذي نسيت الحامية الأيوبية تدميره قبل انسحابها، واحتلوا دمياط دون مقاومة، حتى إنهم ظنوا بادئ الأمر أنها مكيدة من المسلمين. استولى الصليبيون على المدينة بكل ما فيها من سلاح وعتاد ومؤونة، وحصنوا أسوارها. وهكذا سقطت دمياط في أيدي القوات الحملة الصليبية السابعة دون قتال.

وكما يقول ابن تغري بردي: (ووقع الخذلان على أهل دمياط، فخرجوا منها طول الليل على وجوههم، حتى لم يبق بها أحد. وكان هذا من قبيح رأي فخر الدين: فإن دمياط كانت في نوبة سنة خمس عشرة وستمئة أقل ذخائر وعدداً وما قدر عليها الفرنج إلا بعد سنة، وإنما هرب أهلها لما رأوا هرب العسكر وضعف السلطان. فلما أصبحت الفرنج ملكوها صفواً بما حوت من العدد والأسلحة والذخائر والغلال والمجانيق؛ وهذه مصيبة لم يجر مثلها!).

اغتبط الفرنج بالاستيلاء على دمياط بهذه السهولة، لكن لويس فضل التمهل في التقدم نحو الدلتا إلى أن تصل السفن الجانحة في الشام وإلى أن ينتهي موسم فيضان النيل: حتى لا يسقط في غلطة الحملة الصليبية الخامسة التي أغرقها فيضان النيل. وتحولت دمياط إلى مستعمرة صليبية، وعاصمة لمملكة ماوراء البحار (أوتريمير) وصار جامعها الكبير كاثدرائية، ونصب أحد القساوسة أسقفاً عليها. وانشأت الأسواق الأوروبية، وأمسك تجار جنوا وبيزا بزمام التجارة فيها. واستقبل لويس صديقه بالدوين الثاني Baldwin II إمبراطور القسطنطينية، وحضرت زوجته من عكا للإقامة معه، وكانت قد توجهت من قبرص إلى عكا عند إبحاره إلى مصر.

المقاومة الإسلامية: أما في الجانب المصري، فقد وقعت أنباء سقوط دمياط في أيدي الصليبيين كالصاعقة على الناس، واشتد حنق السلطان الصالح أيوب على الأمير فخر الدين، وقال له: "أما قدرتم تقفون ساعة بين يدي الفرنج؟" وأمر بإعدام نحو ٥٤ من أمراء العربان الذين تهاونوا وغادروا دمياط بغير إذن، وصلبهم لكونوا عبرة للمنهزمين المتولين في أثناء الزحف. يقول ابن تغري بردي: (فلما وصلت العساكر وأهل دمياط إلى السلطان، حنق على الشجعان الذين كانوا بها وأمر بهم فشنقوا جميعاً ثم رحل بالجيش وسار إلى المنصورة، فنزل بها في المنزلة التي كان أبوه نزلها، وبها قصر بناه أبوه الكامل. ووقع النفير العام في المسلمين، فاجتمع بالمنصورة أمم لا يحصون من المطوعة والعُربان، وشرعوا في الإغارة على الفرنج ومناوشتهم وتخطفهم، واستمر ذلك أشهراً، والسلطان يتزايد مرضه، والأطباء قد آيسته لاستحكام المرض به. وتقدم السلطان المجاهد وهو في مرض الموت ليقود القتال والمقاومة بنفسه، فحُمل السلطان المريض في حراقة إلى قصر المنصورة.

واشتعلت روح الجهاد، وقدمت الشوالي (السفن) بالمحاربين والسلاح من أنحاء مصر كافة إلى المنصورة، استجابة لنفير الجهاد العام لأجل الجهاد ضد الغزاة. وتوافد على المدينة أفواج من المجاهدين الذين نزحوا من بلاد الشام والمغرب الإسلامي. وقامت حرب عصابات ضد الجيش الصليبي المتحصن خلف الأسوار والخنادق، وراح المجاهدون يشنون هجمات على معسكراته ويأسرون مقاتليه وينقلونهم إلى القاهرة). ويروي المؤرخ الصليبي "جوانفيل Joinville" الذي رافق الحملة، أن المسلمين كانوا يتسللون في أثناء الليل إلى المعسكر الصليبي، ويقتلون الجنود وهم نيام ويهربون برؤوسهم. ويذكر المؤرخ ابن أيبك الدواداري أن الصليبيين كانوا يخافون من العوام المتطوعين أكثر من الجنود، واقتصر الأمر على الغارات التي يشنها الفدائيون المسلمون على معسكر الصليبيين واختطاف كل من تصل إليه أيديهم، وابتكروا لذلك وسائل تثير الدهشة والإعجاب. من ذلك أن مجاهداً من المسلمين قوّر بطيخة خضراء، وأدخل رأسه فيها ثم غطس في الماء إلى أن اقترب من معسكر الصليبيين، فظنه بعضهم بطيخة عائمة في الماء، فلما نزل لأخذها خطفه الفدائي المسلم وأتى به أسيراً. وتعددت مواكب أسرى الصليبيين في شوارع القاهرة على نحو زاد من حماسة الناس، ورفع معنويات المقاتلين إلى السماء.

التقدم الصليبيّ إلى المنصورة باتجاه القاهرة: وفي الوقت نفسه قامت البحرية المصرية بحصار قوات الحملة وقطع خطوط إمدادها في فرع دمياط. استمر هذا الوضع ٦ أشهر منذ قدوم الحملة. ولويس التاسع ينتظر في دمياط قدوم أخيه الثالث. ووصل في ٢٤ تشرين الأول إلى دمياط من فرنسا "ألفونس دي بواتيه Alphonse de Poitiers" الشقيق الثالث للملك لويس، ومعه إمدادات وقوات إضافية. تشجع الصليبيون بوصول الإمدادات، وعقد الملك مجلساً للحرب لوضع خطة الزحف، فقرروا التحرك من دمياط، وكان على لويس الاختيار بين السير إلى الإسكندرية، كما اقترح "بيتر أوف بريتني" والباروناتُ، أو السير إلى القاهرة، كما أصرّ "روبرت دو أرتوا" شقيق لويس الذي أشار: "إذا أردت قتل الأفعى فاضربها على رأسها". واختار لويس ضرب رأس الأفعى (أي القاهرة)، فأمر بالمسير إلى القاهرة. وبعد نحو خمسة أشهر ونصف من احتلال دمياط، خرج الصليبيون يوم السبت ١٢ شعبان ٦٤٧هـ — ٢٠ تشرين الثاني ١٢٤٩م من دمياط، وساروا على البر، في حين إن شوانيهم في بحر النيل توازيهم (أي: سارت سفنهم بحذائهم في فرع النيل)، وبقيت في دمياط حامية صليبية.

وقاتلوا المسلمين هنا وهناك، حتى وصلوا في ٢١ كانون الأول إلى ضفة بحر أو قناة أشموم (يعرف اليوم بالبحر الصغير)، فصار على يمينهم فرع النيل، وأمامهم قناة أشموم التي تفصلهم عن معسكرات المسلمين القائمة على الضفة الأخرى، عند مدينة المنصورة. وصارت مياه بحر أشموم الحاجز الطبيعي الفاصل بينهم وبين معسكر المسلمين. حصّن الصليبيون مواقعهم بالأسوار، وحفروا خنادقهم، ونصبوا المجانيق ليرموا بها على عسكر المسلمين، ووقفت شوانيهم بإزائهم في بحر النيل، ووقفت شواني المسلمين بإزاء المنصورة. ووقع قتال شديد بين الصليبيين والمسلمين في البر ومياه النيل. حاول الصليبيون إقامة جسر ليعبروا عليه إلى الجانب الآخر، ولكن المسلمين ظلوا يمطرونهم بالقذائف ويحرقون الأرض في جانبهم كلما شرعوا في إكمال الجسر، حتى تخلوا عن الفكرة. وراحت المساجد تحضّ الناس على الجهاد ضد الغزاة مُردِدة: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، فصار الناس يتواردون من أنحاء مصر على منطقة الحرب بأعداد غفيرة.

وفاة السلطان الصالح أيوب: وبينما كان الصليبيون يتقدمون جنوباً داخل الأراضي المصرية، اشتدّ المرض على السلطان الصالح أيوب وفارق الحياة بالمنصورة في ١٥ شعبان ٦٤٧هـ — ٢٣ تشرين الثاني 1249م، فأخفت زوجته شجرة الدر خبر وفاته، بالاتفاق مع الأمير فخر الدين يوسف أتابك العسكر والطواشي جمال الدين محسن رئيس القصر؛ خوفاً من حدوث فتنة بين صفوف المسلمين، وكي لا يعلم الصليبيون فيزيد عزمهم ويشتد بأسهم، وكي لا تتأثر معنويات الجيش والعوام. أدارت أرملة السلطان الصالح شجرة الدر الأمور بحسارة، واستحثت الأمير فارس الدين أقطاي زعيم المماليك البحرية الصالحية أن يرسل رسالة عاجلة إلى حصن كيفا في شمال العراق لإحضار (نوران شاه) ابن السلطان المتوفى لتسلم تخت السلطنة وقيادة البلاد في حربها ضد الغزاة. لكن نبأ وفاة السلطان الصالح تسرّب إلى الملك لويس بطريقة أو بأخرى، فتشجّع الصليبيون أكثر، وظنوا أن التحالف القيادي القائم بين شجرة الدرّ، وهي امرأة، والأمير فخر الدين، وهو رجل طاعنٌ في السن، لن يصمد طويلاً وسوف يتهاوى عاجلاً ومعه مصر.

الهجوم الصليبيّ عبر المخاضة، ونصر الله في معارك المنصورة: وجب على الصليبيين لمواصلة الزحف أن يعبروا فرع دمياط أو قناة أشموم، فاختار لويس التاسع القناة. وفي ٥ ذي القعدة ٦٤٧هـ — ٨ شباط ١٢٥٠م، تمكنت فرقة يقودها أخو الملك "روبرت دي أرتوا" مع فرسان المعبد (الداوية)، وفرقة إنجليزية يقودها "وليم أوف سالزبري William of Salisbury"، بمساعدة أحد الخونة الذي دلّ الصليبيين على مخاضٍ في بحر أشموم، من العبور بخيولهم وسفنهم إلى الضفة الأخرى ليفاجأ المسلمون بهجوم صليبي كاسح على معسكرهم في "جديلة" على نحو ثلاثة كيلومترات من مدينة المنصورة. قتل في هذا الهجوم المباغت الأمير فخر الدين يوسف، ابن الشيخ مقدم العساكر المصرية، وهو خارج من الحمام مذهوشاً بعدما سمع جلبة وصياحاً في المعسكر. وأدى الهجوم إلى تشتت

الأجناد وتقهقرهم مذعورين إلى المنصورة. وبعد أن احتل الصليبيون معسكر جديلة، تقدموا خلف "روبرت دو أرتوا" نحو المنصورة على أمل القضاء على الجيش المصري برمته بعد أن أخذتهم العزة وظنوا أنهم لاريب منتصرون.

امسك المماليك بزمام الأمور بقيادة فارس الدين أقطاي، الذي أصبح القائد العام للجيش المصري، وكان هذا أول ظهور للمماليك بوصفهم قواداً عسكريين داخل مصر. تمكن المماليك من تنظيم القوات المنسحبة وإعادة صفوفها، ووافقت شجرة الدر – الحاكم الفعلي للبلاد – على خطة بيبرس البندقداري، باستدراج القوات الصليبية المهاجمة داخل مدينة المنصورة. فأمر بيبرس بفتح باب من أبواب المنصورة وبتأهب المسلمين من الجنود والعوام داخل المدينة مع التزام السكون التام.

وبلعت القوات الصليبية الطعم، فظن فرسانها أن المدينة قد خوت من الجنود والسكان، كما حدث من قبل في دمياط، فاندفعوا إلى داخل المدينة بهدف الوصول إلى قصر السلطان. فخرج عليهم بغتة المماليك البحرية والجمدارية، وهم يصيحون كالرعد القاصف، وأخذوهم بالسيوف من كل جانب ومعهم العربان والعوام والفلاحون يرمونهم بالرماح والمقاليع والحجارة، وقد وضع العوام على رؤوسهم طاسات نحاس بيضاً عرضاً عن خوذ الأجناد، وسد المسلمون طرق العودة بالخشب والمتاريس، فصعب على الصليبيين الفرار، وأدركوا أنهم قد سقطوا في كمين محكم داخل أزقة المدينة الضيقة، وأنهم متورطون في معركة حياة أو موت، فألقى بعضهم بأنفسهم في النيل وابتلعتهم المياه. قتل عدد كبير من القوات الصليبية المهاجمة، ولم ينج من فرسان المعبد وفرسان الإسباترية سوى ثلاثة مقاتلين، وفنيت الفرقة الإنجليزية تقريباً عن آخرها. واضطر أخو الملك لويس "روبرت دي أرتوا" إلى الاختباء في أحد الدور، ثم قُتل هو و"وليم أوف سالزبري" قائد الفرقة الإنجليزية.

وفي أثناء المعركة راح الفرنج على الضفة المقابلة لبحر أشموم يكدّون ويجدون لإتمام الجسر حتى يتمكنوا من العبور لمساعدة فرسانهم، ولكن لما وردتهم أنباء سحق الفرسان، عن طريق "بيتر أوف بريتني" الذي فرّ إليهم بوجه مشجوج من ضربة سيف، وشاهدوا بقايا فرسانهم مدبرين إلى جهتهم والمسلمين في أعقابهم، راحوا يلقون بأنفسهم في مياه النيل بغية العودة إلى معسكراتهم، وكاد لويس ذاته يسقط في الماء. يصف المؤرخ "جوانفيل" الذي حضر الواقعة كالآتي: (في تلك المعركة أعداد كبيرة من الناس، من ذوي الهيئات المحترمة، ولّوا مدبرين فوق الجسر الصغير في مشهد مخزٍ إلى أبعد الحدود. لقد كانوا يهرولون وهم في حالة من الذعر الشديد، وبدرجة جعلتنا لا نتمكن من إيقافهم على الإطلاق. أستطيع ذكر أسمائهم، ولكني لن أفعل ذلك؛ لأنهم صاروا في عداد الأموات".

وبذلك أصبح الصليبيون في ذات الموقع الذي باتوا فيه في الليلة السابقة على الضفة الشمالية من بحر أشموم، إذ أداروا عليهم سوراً، وبقوا تحت هجوم مستمر طوال اليوم. وقد اتهم بعض الفرسان لويس التاسع بالجبن والتخاذل.

عقد الأمير فارس الدين أقطاي القائد العام للجيش المصري مجلس الحرب في اليوم اللاحق لمعركة المنصورة لمناقشة أمر يتعلق بالعثور بين قتلى الفرنج على إشارة تحمل علامة البيت الملكي الفرنسي، كان صاحب الإشارة هو شقيق الملك لويس، "روبرت دي أرتوا" الذي لقي مصرعه في المعركة، وعرض الأمير أقطاي على ضباطه معطف الكونت أرتوا ظناً منه أنها سترة الملك، وأعلن أن مقتل الملك يتطلب مهاجمة الصليبيين على الفور، مسوّغاً ذلك بقوله:

"كما أن المرء لا يهاب جسداً بلا رأس، فإنه أيضاً لا يهاب قوماً بلا قائد"، فاتفق الجميع على ضرورة الهجوم الفوري على معسكر الصليبيين.

قام الجيش الإسلامي المصري بشنّ هجومه الكاسح الواسع على معسكر الفرنج، في فجر يوم الجمعة ٨ ذي القعدة ٦٤٧هـ – ١١ شباط ١٢٥٠م، لكن الملك لويس تمكن من الثبات بعد أن تكبد خسائر فادحة؛ وفي هذا الهجوم فقدَ مقدم فرسان المعبد "وليم أوف سوناك William of Sonnac إحدى عينيه، ثم فقد الأخرى بعد بضعة أيام وعات.

وبذلك انتهت معركة المنصورة الثانية، وهي المعركة التي أيقن الصليبيون بعدها أنهم لن يستطيعوا البقاء في معاكزهم، وأن عليهم الانسحاب إلى دمياط قبل فوات الأوان.

توران شاه وخطته وانتصاره في معركة فارسكور: لم تمض أيام بعد معركة المنصورة الثانية، حتى وصل توران شاه في ٢٣ ذي القعدة ٦٤٧هـ – ٢٧ شباط ١٢٥٠م، وتولى قيادة الجيش، وأخذ في إعداد خطة لإجبار الملك لويس التاسع على التسليم، بقطع خط الرجعة على الفرنسيين. فأمر بنقل عدة سفن مفككة على ظهور الجمال، وعزالها خلف الخطوط الصليبية في النيل.

وتمكنت الأساطيل المصرية بهذه الوسيلة من مهاجمة السفن الصليبية المحملة بالمؤن والأقوات، والاستيلاء عليها وأسر من فيها، وأدى هذا إلى سوء الحال بالفرنسيين، وحلول المجاعة بمعسكرهم، وتفشي الأمراض والأوبئة بين الجنود، فطلب لويس التاسع الهدنة وتسليم دمياط مقابل أن يأخذ الصليبيون بيت المقدس وبعض بلاد ساحل الشام، فرفض المصريون ذلك وأصرّوا على مواصلة الجهاد.

لم يجد الصليبيون بداً من الانسحاب إلى دمياط تحت جنح الظلام، وأمر الملك بإزالة جسر قناة أشموم، غير أنهم في غمرة فزعهم نسوا قطع الجسر، فعبره المصريون في الحال، وتعقبوا الصليبيين، وطاردوهم حتى فارسكور، وطوّقوهم هناك، وانقضوا عليهم في يوم الأربعاء الموافق ٣ محرم سنة ٦٤٨ –هنيسان ١٢٥٠م، وقتلوا منهم أكثر من عشرة آلاف، وأسروا عشرات الألوف.

وكان في عسكر المسلمين الشيخ عز الدين بن عبد السلام، وكانت النصرة أولاً للفرنج، وقويت الريح على المسلمين، فقال الشيخ عز الدين، بأعلى صوته، مشيراً بيده إلى الريح: (يا ريح خذيهم) عدة مرار، فعادت الريح على مراكب الفرنج فكسرتها، وكان الفتح، وغرق أكثر الفرنج، وصرخ من المسلمين صارخ: (الحمد لله الذي أرانا في أمة محمد ﷺ رجلاً سخر له الريح)، وكان ذلك في يوم الأربعاء ٣ المحرم.

وأسر الفرنسيس ملك الفرنج بين آلاف الأسرى في قرية "منية عبد الله" شمال مدينة المنصورة، ونقل إلى دار القاضي فخر الدين بن لقمان، إذ بقي سجيناً مدة من الزمان، وحبس مقيداً بدار ابن لقمان، ووكل بحفظه طواشي يقال له: صبيح.

تمثال لويس التاسع في مصلى القديس بباريس. ملك فرنسا لويس التاسع اتى غازيا مصر ورحل اسيراً

نتائج معركة المنصورة (أو بالأحرى معارك المنصورة الأولى والثانية وفارسكور): كان النصر كله يعود، بعد فضل الله تعالى أولاً، إلى المجاهد الملك الصالح (على الرغم من موته)، فهو الذي تولى قيادته، وخطط له، وألهب حماسه عند الانكسار، وهو الذي ربى روح الجهاد في زوجته شجرة الدر، وفي ابنه، وفي مماليكه. لذين تنفسوا انفاسه، وعاشوا هموم أستاذهم وجدّيته، بل عايشوا روح استاذهم الوثابة في الجهاد والمصابر، وفي القتال والاستشهاد حتى النصر. انطلق الحمام من المنصورة بنبأ الانتصار على الصليبيين وحط بالقاهرة، فضربت البشائر بقلعة الجبل، وفرح الناس، وأقيمت الزينات.

وتحققت نبوءة الصالح أيوب أن (بقي لويس التاسع سيصرعه وإلى البلاء سيقلبه). قتل في حملة لويس التاسع استناداً إلى المصادر الإسلامية أكثر من ٣٠ ألف، وقيل ١٠٠ الف من الجنود الصليبيين. أسر لويس التاسع في "منية عبد الله" (ميت الخولي عبد الله الآن)، بعد أن استسلم مع نبلائه للطواشي جمال الدين محسن الصالحي، وأودع مغلولاً في بيت القاضي إبراهيم بن لقمان، كاتب الإنشاء، تحت حراسة طواشي يدعى صبيح المعظمي. وأسر أيضاً أخواه "شارل دانجو" و"الفونس دو بويتي" وعدد كبير من أمرائه ونبلائه، وقد سجن معظمهم معه في دار ابن لقمان. أما الجنود العاديون الذين اسروا، فقد اقيم لهم معتقل خاص خارج المدينة. وانتشرت بعض الأمراض بين الأسرى كالملاريا والدزنطاريا والإسقربوط، حتى إن الملك أخذت أسنانه تسقط، وتعيّن حمله لقضاء حاجته.

سُمح للويس التاسع بمغادرة مصر مقابل تسليم دمياط إلى المصريين، والتعهد بعدم العودة إلى مصر مرة اخرى، وأخلي سبيل لويس مقابل فدية ضخمة ٨٠٠ ألف بيزة ذهبية. على أن يدفع نصفها مباشرة فدفع ٤٠٠ الف دينار ذهبي تعويضاً عن الأضرار التي ألحقها بمصر (دفع نصف المبلغ بعد أن جمعته زوجته في دمياط. ووعد بدفع النصف الباقي بعد وصوله إلى عكا، وهو مالم يفعله بعد أن تهرب من الدفع فيما بعد).

بعد احتلال دام ١١ شهراً و٩ أيام، سلم لويس التاسع دمياط في ٣ صفر ٦٤٨هـ — ٨ أيار ١٢٥٠م، وغادرها إلى عكا مع اخويه و١٢,٠٠٠ أسير كان من ضمنهم أسرى من معارك سابقة. أما زوجته "مرجريت دو برفنس"، التي كانت في أثناء ذلك قد أنجبت طفلاً في دمياط أسمته "جان ترستان Jean Tristan" أي "جان الحزن"، فقد غادرت دمياط مع وليدها قبل مغادرة زوجها ببضعة أيام. وكانت مرجريت تعاني كوابيس" مرعبة في أثناء نومها، وتتخيل أن غرفتها تغتص بالمسلمين، فكانت دائماً تصرخ في الليل: "أغيثوني... أغيثوني".

أما "جان ترستان" فقد مات مع لويس التاسع في سنة ١٢٧٠م في أثناء الحملة الصليبية الثامنة على تونس، وهي الحملة التي كان من أهدافها تحويل تونس إلى قاعدة صليبية ينطلق منها لويس التاسع لمهاجمة مصر مرة أخرى؛ مع أن هذا القديس الكاذب كان قد اقسم بعدم العودة إلى مصر (وهو أحد شروط إطلاق سراحه).

ثم اتفقت شجرة الدر والأمراء على إطلاق الفرنسيس، بشرط أن يردوا دمياط إلى المسلمين، ويعطوا ثماني مئة الف دينار عوضاً عما كان بدمياط من الحواصل، ويطلقوا أسرى المسلمين. فأطلق على هذا الشرط، فلما سار إلى بلاده أخذ في الاستعداد والعود إلى دمياط. فندمت الأمراء على إطلاقه؛ وقال الصاحب جمال الدين يحيى بن مطروح قصيدته المشهورة، وكتب وبعث بها إليه، يعني إلى ملك الفرنسيس وهي:

قل للفرنسيس إذا جئته	مقال صدق من قؤول نصيح
أجرك الله على ما جرى	من قتل عبّاد يسوع المسيح
أتيت مصر تبتغي ملكها	تحسب أن الزمر بالطبل ريح
فساقك الحين إلى أدهم	ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم	بحسن تدبيرك بطن الضريح

تسعين ألفاً لا ترى منهم	إلا قتيلاً أو أسيراً جريح
وفقك الله لأمثالها	لعل عيسى منكم يستريح
إن كان باباكم بذا راضياً	فرب غشّ قد أتى من نصيح
وقل لهم، إن أضمروا عودة	لأخذ ثأر أو لعقد صحيح:
دار ابن لقمان على حالها	والقيد باقٍ والطواشي صبيح

فلله درّه فيما أجاب عن المسلمين، مع اللطف والبلاغة العربية وحسن التركيب رحمه الله.

قال سعد الدين في تاريخه: اتفقوا على أن يسلم الفرنسيس دمياط، وأن يعطي هو والكنود ثماني مئة ألف بيزار عوضاً عما كان بدمياط من الحواصل ويطلقوا أسرى المسلمين، فحلفوا على هذا، وركبت العساكر ثاني صفر إلى دمياط قرب الظهر، وساروا حتى دخلوها ونهبوا وقتلوا من بقي من الفرنج، حتى ضربتهم الأمراء وأخرجوهم وقوموا الحواصل التي بقيت في دمياط بأربع مئة ألف دينار، وأخذوا من الملك الفرنسيس أربع مئة ألف دينار، وأطلقوه العصر هو وجماعته فانحدروا في شيني إلى البطس وأنفذ رسولاً إلى الأمراء الصالحية، يقول: (ما رأيت أقل عقلاً ولا ديناً منكم! أما قلة الدين فقتلتم سلطانكم بغير ذنب، يعني لما قتلوا ابن أستاذهم الملك المعظم توران شاه بعد أخذ دمياط بأيام. وأما قلة العقل، فكذا مثلي ملك البحر وقع في أيديكم بعتموه بأربع مئة ألف دينار، ولو طلبتم مملكتي دفعتها لكم حتى أخلص). ثم لما سار إلى بلاده أخذ في الاستعداد والعود إلى دمياط فأهلكه الله تعالى. وندمت الأمراء على إطلاقه.

لم يعد لويس إلى وطنه فرنسا بل آثر البقاء في مدينة عكا بعد أن سمح لإخوته ومعظم نبلائه بالسفر إلى فرنسا، وحمّلهم رسائل إلى ملوك أوروبا يطلب فيها النجدة والمدد، لعله يتمكن من إحراز نصر في الشام يمسح به وصمة الإخفاق والهزيمة التي لحقت به في مصر، ودعا البارونات إلى حملة صليبية، ولكن الدوقات والكونتات والبارونات و لفرسان تجاهلوا هذه الدعوة، فاضطر الملك لويس التاسع إلى مغادرة عكا والعودة إلى فرنسا في نيسان ١٢٥٤م بعد أربع سنوات، بعد أن توفيت والدته "الملكة بلانش القسطلية" التي كانت تدير شؤون الحكم في فرنسا وقت غيابه. وكان عمره إذاك ٤٠ سنة، وقد ضاعت أمواله هباء منثوراً.

كان عمره ٥٦ سنة (أيام السلطان الظاهر بيبرس) في ١٢٧٠م، قام هذا الملك لويس التاسع بالحملة الصليبية الثامنة (مكذباً أقواله ومخلفاً وعده) إلى تونس لإيجاد قاعدة عسكرية في شمال إفريقيا ينطلق منها إلى مصر. فسلط الله على عسكره وبه الطاعون، فصرعه الله تعالى هو وابنه هناك، وماتت معه حملته الصليبية الثامنة والأخيرة.

الملك لويس التاسع جاء ثانية غازيا تونس. وخرج منها ميتا بوباء الطاعون هو وابنه.
وانتهت حملته الصليبية الثامنة بالخسران أيضاً

على الرغم من الهزيمة الساحقة التي مني بها لويس وجيشه والأعداد الغفيرة من قتلاه وجرحاه وأسراه، وعلى الرغم من أنه لم يتمكن من الوصول إلى "رأس الأفعى" في القاهرة، بل لم يتمكن من الاستيلاء على المنصورة، وفر في النهاية بقواته ووقع في الأسر وقيّد بالسلاسل مع بارونائه، ووُضع في السجن تحت حراسة خاصة، وكاد أن يُقتل لولا موافقة شجرة الدر والمماليك على إطلاق سراحه مقابل دفع دية، على الرغم من كل ذلك فإن بعض المؤرخين الغربيين أشاروا إلى أن لويس انتصر في معركة المنصورة! وعدّوا الهجوم الخاطف على معسكر المسلمين في جديلة وصمود لويس عند الجسر في أشاء فرار فرسانه عدوه انتصاراً، وأن هذا الصمود هو معركة المنصورة!!! هذا، على الرغم من أن بعض الفرسان الفارين اتهموا لويس: بسبب توقفه عند الجسر بالجبن والتخاذل. وأضافوا أن استسلامه في فارسكور كان نتيجة لخيانة جندي صليبي رشاه المسلمون؛ كي يصيح في الجنود على لسان لويس بإلقاء السلاح والاستسلام. وأضافوا أن المسلمين طلبوا منه بعد القبض عليه أن يوافق على تنصيبه سلطاناً على مصر ولكنه رفض في عزة وكبرياء، متحججاً بأنه في حالة تنصيبه سلطاناً سيضطر إلى تخيير رعيته المسلمة بين اعتناق النصرانية أو القتل!!!

ويعبر وصف المؤرخ الصليبي "ماثيو باريس"، المتوفى عام ١٢٥٨م، الذي سجله في كتابه بعد أحداث معركة المنصورة، عن مدى الألم الذي شعر به الصليبيون بعد هزيمتهم: "كل الجيش المسيحي تمزق إرباً في مصر، و أسفاه، كان يتكون من نبلاء فرنسا، وفرسان الداوية والإسبتارية وتيونون القديسة ماري وفرسان القديس لازاروس". عززت هزيمة القوات الصليبية في المنصورة اسم تلك المدينة المرتبط بالانتصار الذي يرجع إلى تاريخ أقدم من الحملة الصليبية السابعة.

توزعت الخريطة السياسية والعسكرية في شرق حوض البحر المتوسط بعد هزيمة الصليبيين سنة ١٢٥٠م-٦٤٨هـ على أربع قوى أساسية: المماليك في مصر، والأيوبيون في الشام، والصليبيون في عكا وساحل الشام (طرابلس، وصيدا، وصور)، ومملكة قليقيا الأرمينية، وإمارة أنطاكيا الصليبية.

تسلطن الملك المعظم: بعد موت أبيه الملك الصالح بنحو أربعة أشهر ونصف؛ لأن الملك الصالح أيوب كانت وفاته في ليلة النصف من شعبان سنة سبع وأربعين بالمنصورة، والفرنج محدقة بعساكر الإسلام، فأخفت زوجته أم ولده خليل شجرة الدر موته مخافة على المسلمين، وبايعوا لابنه المعظم هذا بالسلطنة في غيبته وصارت شجرة الدر تدبر الأمور وتخفي موت السلطان الملك الصالح، إلى أن حضر المعظم توران شاه هذا من حصن كيفا إلى المنصورة في أول المحرم من سنة ثمان وأربعين وست مئة. وكان المعظم هذا نائباً لأبيه الملك الصالح على حصن كيفا وغيره من ديار بكر. ولما وصل المعظم إلى المنصورة، فتح الله على يديه ونصر الله الإسلام في يوم دخوله، فتيمن الناس بطلعته.

وسبب النصر أنه لما استهلت سنة ٦٤٨هـ، والفرنج على المنصورة والجيوش الإسلامية بإزائهم، وقد طال القتال بين الفريقين أشهراً، ضعف حال الفرنج لانقطاع الميرة عنهم، ووقع في خيلهم وباء وموت، وعزم ملكهم الفرنسيس على أن يركب في أول الليل، ويسير إلى دمياط. فعلم المسلمون بذلك.

وكان الفرنج قد عملوا جسراً عظيماً من الصنوبر على النيل، فسهوا عن قطعه، فعبر منه المسلمون في الليل إلى برهم وخيامهم على حالها وثقلهم وأحدق المسلمون بهم يتخطفونهم طول الليل قتلاً وأسراً، فالتجؤوا إلى قرية تسمى منية أبي عبد الله وتحصنوا بها ودار المسلمون حولها، وظفر أسطول المسلمين بأسطولهم فغنموا جميع المراكب بمن فيها.

واجتمع لى الفرنسيس ٥٠٠ فارس من ابطال الفرنج وقعد في حوش منية أبي عبد الله، وطلب الطواشي رشيد الدين والأمير سيف الدين القيمري فحضرا إليه، فطلب منهما الأمان على نفسه ومن معه، فأجاباه. وهرب باقي الفرنج على حمية وأحدق المسلمون بهم، ويقوا يحملون عليهم حملة بعد حملة حتى أبيدت الفرنج ولم يبق منهم سوى فرنسيس، فرموا نفوسهم بخيولهم إلى البحر فغرقوا، وغنم المسلمون منهم ما لا يوصف، واستغنى خلق وأنزل الفرنسيس في حراقة وأحدقت به مراكب المسلمين تضرب فيها الكوسات والطبول. وأحصي عدة الأسرى فكانوا نيفاً وعشرين ألف ادمي، والذي غرق وقتل سبعة آلاف نفس.

ستر القتلى وجه الأرض من كثرتهم، وكان الفارس العظيم يأتيه وسائق يسوقه وراءه كأنه أذلّ ما يكون وكان يوماً لم يشاهد المسلمون مثله ولم يقتل في ذلك اليوم من المسلمين مئة نفس، ونفذ السلطان الملك المعظم توران شاه لفرنسيس والملوك الذين معه والكنود خلعاً. وكانوا نيفاً وخمسين فلبس كلهم سواه. وقال: (إن بلادي بشدر بلاد صاحب مصر كيف البس خلعته!). وعمل السلطان من الغد دعوة عظيمة، فامتنع الملعون أيضاً من حضورها، وقال: (انا ما اكل طعامه. وما يحضرني إلا ليهزا بي عسكره. ولا سبيل إلى هذا!). وكان عنده عقل وليات ودين، فالنصارى كانوا يعتقدون فيه بسبب ذلك. وانتقى الملك المعظم الأسرى، وأخذ أصحاب الصنائع. ثم أمر بضرب رقاب الجميع.

وقال غيره: وحبسوا الفرنسيس بالمنصورة بدار ابن لقمان يحفظه الطواشي صبيح مكرماً غاية الكرامة. وقال أبو المظفر في تاريخه "مرآة الزمان": "وفي أول ليلة منها يعني سنة ثمان وأربعين، كان المصاف بين الفرنج والمسلمين على المنصورة بعد وصول المعظم توران شاه إلى المخيم، ومسك الفرنسيس وقتل من الفرنج مئة الف، ووصل كتاب المعظم توران شاه إلى جمال الدين بن يغمور: يعني إلى نائب الشام، يقول:

(﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤]. ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦] ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الروم: ٤-٥] ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١] ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤]. نبشر المجلس السامي الجمالي، بل نبشر الإسلام كافة، بما منّ الله به على المسلمين من ظفر بعدو الدين، فإنه كان قد استفحل أمره واستحكم شرّه ويئس العباد من البلاد والأهل والأولاد فنودوا: ﴿وَلَا تَايْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٧] الآية.

ولما كان يوم الأربعاء مستهل السنة المباركة، تمّم الله على الإسلام بركتها فتحنا الخزائن وبذلنا الأموال وفرقنا السلاح وجمعنا العربان والمطوعة، واجتمع خلق لا يحصيهم إلا الله تعالى، فجاؤوا من كل فج عميق ومن كل مكان بعيد سحيق. ولما رأى العدو ذلك، أرسل يطلب الصلح على ما وقع عليه الاتفاق بينهم وبين الملك العادل أبي بكر فأجبنا.

ولما كان في الليل، تركوا خيامهم وأثقالهم وأموالهم وقصدوا دمياط هاربين، فسرنا في آثارهم طالبين، وما زال السيف يعمل فيهم عامة الليل ويدخل فيهم الخزي والويل. فلما أصبحنا نهار الأربعاء قتلنا منهم ثلاثين ألفاً غير من ألقى نفسه في اللجج. وأما الأسرى فحدّث عن البحر ولا حرج، والتجأ الفرنسيس إلى المنية وطلب الأمان، فأمناه وأخذناه وأكرمناه وتسلمنا دمياط بعونه وقوته وجلاله وعظمته).

وأرسل الملك المعظم مع الكتاب إلى ابن يغمور المذكور بغفارة الفرنسيس، فلبسها ابن يغمور في دست صلكته بدمشق، وكانت سقراط أحمر بفرو سنجاب.

فكتب ابن يغمور في الجواب إلى السلطان الملك المعظم المذكور بيتين لابن إسرائيل وهما:

أسـيد أمـلاك الزمـان بأسـرهم ... تنجـزت مـن نصـر الإلـه وعـودهُ

فـلا زال مولانـا يبـيحُ حمـى العـدا ... ويلـبسُ أسـلاب الملـوك عبيـدهُ

وقال غيره: وبقي الفرنسيس في الاعتقال إلى أن قتل الملك المعظم توران شاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب فدخل حسام الدين بن أبي علي نائب السلطان في قضيته، على أن يسلم للمسلمين دمياط ويحمل خمس مئة ألف دينار، فأركبوه بغلة وساقت معه الجيوش إلى دمياط، فما وصلوا إلا والمسلمون على أعلاها بالتكبير والتهليل، والفرنج الذين كانوا بها قد هربوا إلى المراكب وأخلوها فخاف الفرنسيس واصفر لونه.

فقال الأمير حسام الدين بن أبي علي للملك المعز: هذه دمياط، قد حصلت لنا، وهذا الرجل في أسرنا وهو عظيم النصرانية وقد اطلع على عوراتنا، والمصلحة ألا نطلقه. وكان قد تسلطن أبيك التركماني الصالحي أو صار حاكماً عن الملكة شجرة الدر، فقال أبيك وغيره من المماليك الصالحية: ما نرى الغمر! وكانت المصلحة ما قاله حسام الدين. فقووا عليه وأطلقوه طمعاً في المال! فركب في البحر الرومي في شيني.

وذكر حسام الدين أنه سأل الفرنسيس عن عدة العسكر الذي كان معه لما قدم لأخذ دمياط، فقال: كان معي تسعة آلاف وخمس مئة فارس ومئة ألف وثلاثون ألف طبسي سوى الغلمان والسوقة والبحارة. انتهى.

وهكذا كانت سنة ٦٤٨هـ سنةً حاسمة في التاريخ الإسلامي: فهي سنة كسرة الفرنج على دمياط، والقبض على الملك لويس التاسع. وفيها: أخرب المماليك الترك دمياط، وحملوا آلاتها إلى مصر وأخربوا الجزيرة، أعني الروضة، وأخلوها (لكي لا يستخدمها الصليبيون بوصفها قواعد لهم عند الإغارة على مصر). لما فرغ المماليك والمصريون من خراب دمياط وتفرّق أهلها، نقلوا أخشاب بيوتهم وأبوابهم منها وتركوها خاوية على عروشها، ثم بنيت بعد ذلك بليدة بالقرب منها تسمى: المنشية. وكان سور دمياط من عمل المتوكل على الله. ونقلوا، في السنة اللاحقة (٦٤٩هـ)، تابوت الملك الصالح نجم الدين أيوب إلى تربته بالقاهرة بـ (بين القصرين). ولبس الأمراء ثياب العزاء وناحوا عليه بـ (بين القصرين)، وتصدقت زوجته (جاريته وأرملته) شجرة الدر في ذلك اليوم بمال عظيم.

قتل الملك المعظم توران شاه وأسباب القتل: وقتل، في السنة نفسها ٦٤٨هـ، الملك المعظم توران شا.. وسبب قتل الملك المعظم توران شاه هو أنه عند وصوله إلى مصر، في أثناء كسرة الفرنج، تيمّن الناس بطلعته، غير أنه بدت منه أسباب نفرت القلوب عنه، فاتفقوا على قتله. كان فيه نوع خفة، فكان يجلس على السماط فإذا سمع فقيهاً يذكر مسألة وهو بعيد عنه يصيح: لا نسلم! ثم احتجب عن الناس أكثر من أبيه، وكان إذا سكر يجمع الشموع ويضرب رؤوسها بالسيف فيقطعها، ويقول: كذا أفعل بالبحرية! يعني مماليك أبيه الذين كان جعلهم بقلعة البحر بجزيرة الروضة، ثم يسمي مماليك أبيه بأسمائهم، وأهانهم وقدّم الأراذل وأبعد الأماثل، فقرّب مماليكه، وأبعد مماليك أبيه، وما حفظ للمماليك البحرية حسن صنيعهم بقتال المنصورة، ولا هو أحسن لأرملة أبيه على ما ضحّت وقامت به من جهاد بالمال وعظيم الفعال: وهي التي أرسلت في طلبه لتسلم السلطنة. فضلاً على أنه بعد الفارس أقطاي أن يؤمره (وهو قائد الجيوش الفعلي قبل مجيئه)، ولم يف له فاستوحش منه.

وكانت أم خليل: يعني شجرة الدر زوجة والده الملك الصالح، لما وصل إلى القاهرة مضت هي إلى القدس، فبعث يهدّدها ويطلب المال والجواهر منها، فخافت منه فكاتبت فيه، فاتفق الجميع عند ذلك على قتله. وفي هذا عبرة للملوك، ألا يغتروا وأن يحفظوا للناس مواقفهم، فالله يبدل من حال إلى حال بلمحة من لمحات البصر. وقتلوه بعد شهرين من ملكه، في يوم الإثنين ٢٧ المحرم، ضربه بعض الأمراء، وهو عز الدين أيبك التركماني: ضربه في

يده فقطع بعض أصابعه وصاح: من جرحني؟ قالوا: الحشيشية. فقال: لا والله إلا البحرية، والله لا. واستدعى المزين فخيط يده وهو يتوعدهم، فقال بعضهم لبعض: تمموه وإلا أبادكم! فهرب إلى قصر من خشب في المخيم، فحاصروه فيه وأحرقوه عليه، فخرج من بابه مستجيراً برسول الخليفة فلم يقبلوا منه، فهرب إلى النيل فانغمر فيه ثم خرج فقتل سريعاً شر قتلة، وهو يستغيث فلا يغاث.

وكان الذي باشر قتله أربعة، وكان أبوه الملك الصالح أيوب قال لمحسن الخادم: اذهب إلى أخي العادل إلى الحبس وخذ معك من المماليك من يخنقه، فعرض محسن ذلك على جميع المماليك فامتنعوا إلا هؤلاء الأربعة، فإنهم مضوا معه وخنقوه: فسلطهم الله على ولده فقتلوه أقبح قتلة، ومثلوا به أعظم مثلة، لما فعل بأخيه! ويُقال: إنه، في ٥ شوال سنة ٦٤٦هـ، جهز الصالح أخاه العادل (الذي أراد أصلاً قتل أخيه الصالح) وتاه إلى الشوبك وبعث إليه الخادم محسناً، فقال: إن أردتم أن تقتلوني في الشوبك فهاهنا أولى، ولا أروح أبداً. فعذله محسن، وعرف الصالح أيوب بقوله، فقال: دبر أمره. فأخذ المحسن ثلاثة مماليك، ودخلوا عليه ليلة الإثنين ١٢ شوال، فخنقوه بشاش وعلقوه به وأظهروا أنه شنق نفسه، وأخرجوا جنازته مثل بعض الغرباء، ولم يتجاسر أحد أن يترحم عليه أو يبكي حول نعشه، وعاش بعده الملك الصالح ١٠ أشهر، رأى في نفسه العبر من مرض تعادى به وما نفعه الاحتراز.

فكان كذلك، وقع بعد ذلك قتال بين المصريين والشاميين، وعدم من المصريين طائفة كثيرة. وكانوا قد جمعوا في قتله ثلاثة أشياء: السيف والنار والماء! وتسلطن بعده زوجة والده أم خليل، شجرة الدر، باتفاق الأمراء وخشداشينها المماليك الصالحية، وخطب لها على المنابر بمصر والقاهرة.

وكانت ولاية توران شاه هذا على مصر دون الشهر، وقتل في يوم الإثنين سابع عشرين المحرم من سنة ثمان وأربعين وست مئة، وكان قدومه من حصن ٧ كيفا إلى المنصورة في ليلة مستهل المحرم من السنة المذكورة حسب ما تقدم ذكره.

قال الأمير حسام الدين بن أبي علي: كان توران شاه لا يصلح للملك، كنا نقول لأبيه الملك الصالح نجم الدين أيوب: ما تفد تحضره إلى هاهنا! فيقول: دعوني من هذا فالحمنا عليه يوماً فقال: أجيبه إلى هاهنا أقتله! وقال عماد الدين بن درباس: رأى بعض أصحابنا الملك الصالح أيوب في المنام وهو يقول:

قتلوه شرّ قتلة	صار للعالم مثله
لم يُراعوا فيه إلاّ	لا ولا مَن كان قبله
ستراهم عن قريب	لأقلّ الناس أكله

فكاك أسرى الفرنج وإعدام الصالح إسماعيل: قال الذهبي في تاريخ الإسلام تحت سنة ٦٤٨هـ: (وقال ابن الساعي: لما قتل المعظم، ثارت أسرى الفرنج وفكوا قيودهم وقتلوا خلقاً، فأحاط بهم العسكر وقتلوا منهم زيادة على ١٢ ألفاً. ودخلت الصالحية والأسرى والسناجق منكسة مكسرة، والخيول والطبول مشققة، فلما عبروا على تربة السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، أحاطوا بالصالح إسماعيل لعمّه الخائن وصاحوا: يا خوند، أين عينيك ترى عدوك؟ ثم رموا الأسارى في الجبّ، وجمعوا بين الصالح وبين أولاده أياماً، ثم افردوه وأعدموه سراً، ولم يُدر أين دُفن).

خامساً: تنشئة المماليك أو مفرخة صلاح الدين:

إذا كانت الأمور تقاس بنتائجها، فإن النتائج التاريخية العالمية لهزيمة الحملة الصليبية السابعة على مصر لا تكمن في نهاية الصليبيين المأساوية في فارسكور عام ١٢٥٠م وحسب، وإنما تكمن في تغيير ميزان القوى العالمية، مُعلنة عن بدء عصر تاريخي جديد وظهور المماليك بوصفهم قوة إقليمية كبرى على مسرح الأحداث العالمي؛ لتتصدى لجميع قوى العالم آنذاك من الصليبيين والمغول. أثبتت مصر ثانية أنها قلعة الإسلام وترسانته العسكرية الكبرى. لم يتمكن الصليبيون من تحقيق حلمهم باحتلال بيت المقدس مرة أخرى، وفقد ملوك أوروبا، باستثناء لويس التاسع، اهتمامهم بإطلاق حملة صليبية جديدة.

ومهد هذا الانتصار للمماليك البحرية، الذين أبلوا بلاءً منقطع النظير في مقاومة تلك الحملة، أن يقيموا دولتهم على أنقاض دولة الأيوبيين في مصر؛ فلم يكد يمضي شهر من تحقيق هذا النصر حتى تخلص المماليك من توران شاه، وأقاموا شجرة الدر سلطانة على مصر، وكان ذلك إيذاناً ببزوغ عصر دولة سلاطين المماليك في مصر والشام بعدّ اعتلاء الملكة شجرة الدر (وهي تركية) في أواخر عام ١٢٤٩ م بداية قيام دولة المماليك. لكن بعض المؤرخين يعدّ اعتلاء الأمير أيبك التركماني لعرش السلطنة بعد زواجه من الملكة شجرة الدر عام ١٢٥٠ م هو التاريخ الأدق لقيام هذه الدولة. وقد أطلق المؤرخون اسم المماليك البحرية على هذه الدولة إشارة لإسكانهم في جزيرة الروضة التي أنشأها الملك الصالح، وجعلها الكلية العسكرية والتدريب المتقدم على فنون القتال شتّى تخرج هؤلاء المماليك قادة لجيوش الجهاد المصرية والإسلامية.

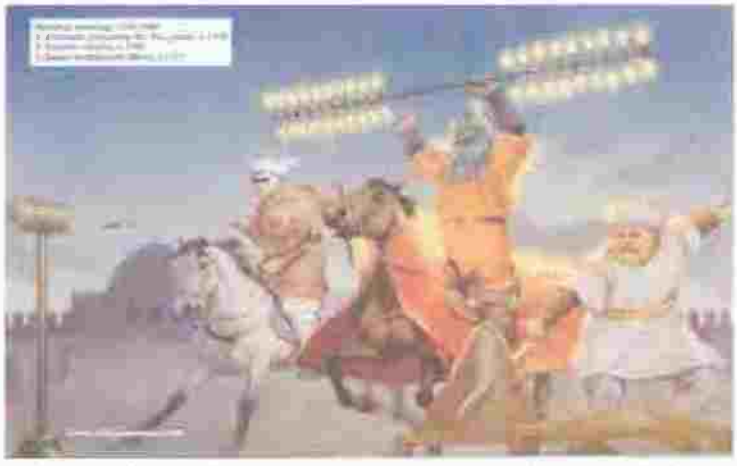

تدريبات المماليك على استخدام السيوف والرماية بالرمح والألعاب النارية

وقد نظم جمال الدين المصري المعروف بالجزار الشاعر أرجوزة سماها "العقود الدرية في الأمراء المصرية"، ضمنها أمراء مصر المماليك قائلاً:

ثم أتى الصالح وهو الأعظم ... ثم تولاها ابنه المعظم

وبعده أم خليل ملكت ... وطابت الأفعال فيها وزكت

والملك الأشرف كان طفلاً ... فلم يدبر عقدها والحلا

ثم استبدّ الملك المعزّ ... ثم ابنه ووافقته الفز

ثم حواها الملك المظفر ... وحظه من نصره موفر

ثم حوى الأمر المليك الظاهر ... لا زال للأعداء وهو قاهر!

كان الملك الصالح نجم الدين أيوب أشد الناس اهتماماً بوحدة دار الإسلام والمصلحة العامة لأمة الإسلام، ويقدمهما على كل المصالح الشخصية الضيقة لبني أيوب. قال ابن واصل: حكى لي الأمير حسام الدين قال: لما توفي السلطان قال:

(إني مسافر، وأخاف أن يعرض لي موت، وأخي العادل بقلعة مصر فيأخذ البلاد، وما يجري عليكم منه خير، فإنْ مرضت — ولو أنه حمى يوم — فأعدمه فإنه لا خير فيه، وولدي توران شاه لا يصلح للملك، فإن بلغك موتي، فلا تسلم البلاد لأحد من أهلي، بل سلمها للخليفة). انتهى

لقد شاءت القدرة الربانية أن يُقتل الخليفة المستعصم في بغداد، ليحمل هموم الصالح أيوب زوجته شجرة الدرّ ومماليكه الذين ساروا على نهجه بالجهاد، فادهشوا العالم. والملك الصالح هذا هو الذي أنشأ المماليك الأتراك وأسّرهم بديار مصر.

أيقن الملك الصالح أيوب منذ وقت مبكر أنه لا يستطيع الاعتماد على المرتزقة كالعسكر الخوارمية الذين عزمهم جنكيز خان، فساحوا في البلاد يعرضون خدماتهم على من يدفع أكثر (وإن كان بداية قد استطاع استخدامهم للإسلام، فقد ينصر الله بالعبد الفاجر أحياناً)، ثم حصل تمردهم الخطر حتى قضى عليهم. وتحقق للملك الصالح أيضاً فسادُ نيات الأشرفية (عسكر عمّه الأشرف) وأنهم يريدون الوثوب عليه، فأخذ في تفريقهم والقبض عليهم، فبعث مقدم الأشرفية وكبيرهم أيبك الأشقر نائباً على جهة ثم سير من قبض عليه ثم مسكهم عن كرة أبيهم وسجنهم، وأقبل على شراء المماليك الترك والخطائية واستخدم الأجناد. ثم شرع يؤمّر غلمانه: يعني مماليكه فأكثر من ذلك وأخذ في بناء قلعة الجزيرة، واتخذها سكناً، وأنفق عليها أموالاً عظيمة، وكانت الجزيرة قبلاً متنزهاً لوالده. فشيدها في ثلاثة أعوام وتحول إليها.

بائع الملوك والأمراء، سلطان العلماء: الشيخ عز الدين بن عبد السلام (٥٧٨—٦٦٠هـ): أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن مهذّب السُلمي، مغربي الأصل. ولد بدمشق وتوفي بمصر، اشتهر باسم العزّ بن عبد السلام. وتولى خطابة الجامع الأموي الكبير بدمشق. وفي عام ٦٢٨هـ أعطى الخائنُ الصالح إسماعيل (صاحب دمشق) حصن الصفد للصليبيين. وسلم حصن شقيف آرنون لصاحب صيدا الفرنجي، وسمح لهم بدخول دمشق لشراء السلاح والطعام: تمهيداً للتحالف مع الفرنجة لغزو ابن أخيه البطل الملك الصالح أيوب ملك مصر.

فاشتد الإنكار عليه: بسبب ذلك من الشيخ عز الدين بن عبد السلام خطيب البلد، والشيخ أبي عمرو بن الحاجب شيخ المالكية. صعد العز بن عبد السلام المنبر وخطب في الناس خطبةً عصماء، وافتى بحرمة بيع السلاح للفرنجة وحُرمة الصلح معهم. ثم قطع الخطبة عن الصالح إسماعيل، وكان ذلك بمنزلة إعلان للعصيان العام، وقال في آخر خطبته: **اللهم أبرم أمر رشد لهذه الأمة، يُعز فيه أهل طاعتك ويذل فيه أهل معصيتك، ويُؤمر بالمعروف وينهى فيه عن المنكر**، ثم نزل. علم الملك الصالح إسماعيل بخروج العز عن طاعته، فغضب عليه غضباً شديداً، وأمر بإبعاده عن الخطابة، وسجنه، وبعدما حصل القيل والقال، واضطرب أمر الناس، أخرجه من السجن ومنعه عن الخطابة. وعزل الصالح إسماعيل أبا عمرو أيضاً، واعتقلهما مدة ثم أطلقهما وألزمهما منازلهما (إقامة جبرية)، وولى الخطابة والتدريس غيرهما. ومن ثم خرج الشيخان من دمشق، فقصد أبو عمرو الناصر داود بالكرك، ودخل الشيخ عز الدين الديار المصرية عام ٦٣٩هـ، فتلقاه صاحبها أيوب بالاحترام والإكرام، وولاه خطابة القاهرة وقضاء مصر، واشتغل عليه أهلها فكان ممن أخذ عنه الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد (رحمهما الله تعالى). (انظر أيضاً البداية والنهاية: ج١٣، ص١٨٢).

وكان الملك الصالح أيوب، مهيباً جداً، دبر المملكة على أحسن وجه، وبنى المدارس الأربعة بين القصرين، وعمّر قلعة بالروضة، واشترى ألف مملوك واسكنهم بها، وسماهم البحرية، وهو الذي أكثر من شراء الترك وعتقهم وتأميرهم. ولم يكن ذلك قبله. فقام الشيخ عز الدين بن عبد السلام القومة الكبرى في بيع وذلك الأمراء المماليك، وصرف ثمنهم في مصالح المسلمين.

كان أول ما لحظه الشيخ، بعد توليه القضاء، قيام الأمراء المماليك المملوكين للدولة الإسلامية بالبيع والشراء وقبض الأثمان، وهذا يتعارض مع الشرع، إذ إنهم في الأصل مملوكين، لا يحق لهم البيع والشراء والزواج من حرائر نساء مصر، فكان لا يمضي لهم بيعاً ولا شراء، وأصدر العز بن عبد السلام، الذي لا يخاف في الله ولا في الحق لومة لائم، فتواه بعدم جواز ولاية المماليك على الأحرار، حتى شكوه إلى الملك الصالح الذي لم تعجبه فتوى الشيخ العز، فذهب إلى الشيخ يسأله أن يعدل من فتواه، فطلب منه الشيخ ألا يتدخل في القضاء، فليس هذا للسلطان، فإن شاء أن يتدخل، فالشيخ يقيل نفسه. فاجتمع أمراء الدولة من الأتراك وأرسلوا إليه، فقال الشيخ: نعقد لكم مجلساً ونتادي عليكم بالبيع لبيت مال المسلمين؛ فاستشاط نائب السلطنة غضباً، وكان من المماليك، وأقسم ليقتلن الشيخ بسيفه، فذهب إليه نائب السلطنة مع جماعة من الأمراء فطرق بابه، ففتح الباب ابنه عبد اللطيف، فراعه منظر نائب السلطنة؛ إذ رأى سيفه مسلولاً، والغضب يعلو وجهه فدخل على والده وقال: انجُ بنفسك، إنه القتل، فرد عليه الشيخ بقوله: (أبوك أقل من أن يُقتل في سبيل الله)، ثم خرج وحين وقع بصره على النائب، سقط السيف من يد النائب وارتعد، فبكى وسأل الشيخ أن يدعو له، وقال: يا سيدي ماذا ستفعل؟ قال: أنادي عليكم وأبيعكم.

وأرسل السلطان مَن يتلطف إليه، بأن السلطان لن يسمح ببيع الأمراء، وأن أمر السلطان واجب، وهو فوق قضاء الشيخ عز الدين! فأنكر الشيخ تدخل السلطان في القضاء، وقام فجمع أمتعته ووضعها على حمار، ووضع أهله على حمير أخرى، وساق الحمير ماشياً. تجمع الناس وراءه وتبعه العلماء والصلحاء والتجار والنساء والصبيان، حتى كادت مصر أن تخلو من سكانها. فأسرع الملك الصالح بنفسه خلف الشيخ ليسترضيه، فقال له: إن أردت أن يتولى هؤلاء الأمراء مناصبهم فلا بد من أن يُباعوا أولاً، ثم يعتقهم الذي يشتريهم، ولما كان ثمن هؤلاء الأمراء قد دفع من بيت مال المسلمين، فلا بد أن يُردّ الثمن إلى بيت مال المسلمين. ووافق الملك الصالح أيوب، وتولى الشيخ العزّ بن عبد السلام بنفسه عملية بيع الأمراء، وبدأ يعرض الأمراء واحداً بعد الآخر في مزاد، ويغالي في ثمنهم، ودخل الشعب في المزاد، حتى إذا ارتفع السعر جداً، دفعه الملك الصالح أيوب من ماله الخاص واشترى الأمير، ثم يعتقه بعد ذلك أمام الشعب، فيأخذ المال الشيخ العزّ بن عبد السلام ليضعه في بيت مال المسلمين.

وهكذا بيع كل الأمراء الذين يتولون أمور الوزارة والإمارة والجيش وغيرها، وصارت لهم الصفة الشرعية بالإمارة على الأحرار، وكلهم مدين لأستاذهم ومليكهم الذي اعتقهم جميعاً لله (رحم الله الملك الصالح أيوب رحمة واسعة)، ومن يومها والشيخ العز بن عبد السلام يعرف بـ (بائع الملوك والأمراء).

توفي الشيخ العز بن عبد السلام في جمادى الأولى ٦٦٠هـ / ٩ نيسان ١٢٦٦م في سلطنة الملك الظاهر بيبرس البندقداري، وعلى الرغم من شجاعة بيبرس وجرأته، لكنه كان يهاب الشيخ العز كثيراً ولا يخالف رأيه. يقال: إنه عندما مرت جنازته أسفل القلعة ورآها السلطان بيبرس، قال: "اليوم استقر أمري في الملك؛ لأن هذا الشيخ لو كان يقول للناس: اخرجوا عليه لانتزع الملك مني".

تدريبات المماليك على الفروسية والرماية

قال ابن واصل، في سيرة الملك نجم الدين أيوب هذا: (وكان مهيباً عزيز النفس عفيفاً طاهر اللسان والذيل، لا يرى الهزل ولا العبث، شديد الوقار، كثير الصمت، اشترى من المماليك الترك ما لم يشتره أحد من أهل بيته حتى صاروا معظم عسكره، ورجّحهم على الأكراد وأمّرهم، واشترى وهو بمصر خلقاً منهم وجعلهم بطانته والمحيطين بدهليزه وسماهم "البحرية". حكى لي حسام الدين بن أبي علي أن هؤلاء المماليك مع فرط جبروتهم وسطوتهم كانوا أبلغ من يعظم هيبته. كان إذا خرج وشاهدوا صورته يرعدون خوفاً منه، وأنه لم يقع منه في حال غضبه كلمة قبيحة قط؛ أكثر ما يقول إذا شتم: "يا متخلف". وكان كثير الباه بجواريه فقط. ولم يكن عنده في آخر وقت غير زوجتين: إحداهما شجرة الدر، والأخرى بنت العائلة، تزوجها بعد مملوكه الجوكندار. وكان إذا سمع الغناء لا يتزعزع ولا يتحرك وكذلك الحاضرون يلتزمون حالته، كأنما على رؤوسهم الطير، وكان لا يستقل أحد من أرباب دولته بأمر، بل يراجعون القصص مع الخدام فيوقع عليها بما يعتمده كتاب الإنشاء، وكان يحب أهل الفضل والدين، وما كان له ميل إلى مطالعة الكتب، وكان كثير العزلة والانفراد، وله نهمة باللعب بالصوالجة وفي إنشاء الأبنية العظيمة الفاخرة). انتهى كلام ابن واصل.

كان عنده سياسة حسنة ومهابة عظيمة وسعة صدر في إعطاء العساكر والإنفاق في مهمات الدولة، لا يتوقف فيما يخرجه في هذا الوجه، وكانت همته عالية جداً وآماله بعيدة، ونفسه تحدثه بالاستيلاء على الدنيا بأسرها والتغلب عليها وانتزاعها من يد ملوكها، حتى لقد حدثته نفسه بالاستيلاء على بغداد والعراق (أي: بدلاً من السلاجقة لخدمة الخلافة العباسية، وجبر ضعفها)، وكان لا يمكن القوي من الضعيف، وينصف المشروف من الشريف، وهو أول من استكثر من المماليك من ملوك البيت الأيوبي ثم اقتدوا به لما آل الملك إليهم، على الرغم من أن الخليفة المأمون والمعتصم كانوا أول من غذى جيشه برافد المماليك، وكذلك صلاح الدين.

وكان للمصدر الأساسي للمماليك إما بالأسر في الحروب، أو الشراء من أسواق العبيد والنخاسة، ولاسيَّما للمماليك من بلاد ما وراء النهر؛ أي: نهر جيحون شمال تركمانستان وأفغانستان. وعلى الرغم من كل ذلك فإن الملك الصالح نجم الدين أيوب كان أول من سنّ امتلاك المماليك منذ الصغر؛ ليكونوا غاية في الإخلاص له وللإسلام (في مناخ سياسي متقلب وظروف صعبة)، فكانوا أولاً سرية حراسة وحماية خاصة بشخصه، ثم أكثر منهم

وأمّرهم على الجيش ومرافق الدولة، وجعلها سُنّة قائمة فيمن بعده. فكل من ولي مصر بعد الصالح من بني أيوب ومن غيرهم اقتنى المماليك! وهو آخر ملوك الأيوبيين بمصر. ولا عبرة بولاية ولده الملك المعظم توران شاه، عدا الذي بالبلاد الشامية، وأما بمصر فلا.

استحدث الملك الصالح (وتبعه سلاطين المماليك) أنه لا يأتي إلا بالمماليك الصغار السن. فكان الصالح أيوب يتعامل معهم كالأبناء لا الأرقاء، ولم تكن رابطته بهم رابطة السيد بالعبد، بل رابطة المعلم والسديد أو الأب والابن، حتى إنهم كانوا يطلقون على السيد الذي يشتريهم لقب (الأستاذ) لا لقب السيّد.

ويشرح المقريزي كيف يتربى المملوك الصغير عندما يُشترى، وهو في طفولته المبكرة:

(إنّ أول المراحل في حياة المملوك هي أن يتعلم اللغة العربية قراءةً وكتابة،

ثم بعد ذلك يُدفع إلى من يعلّمه القرآن الكريم،

ثم يبدأ في تعلم مبادئ الفقه الإسلامي وآداب الشريعة الإسلامية،

ويُهتمّ جداً بتدريبه على الصلاة،

وكذلك على الأذكار النبوية،

ويُراقب المملوك مراقبة شديدة من مؤدبيه ومعلميه،

فإذا ارتكب خطأ يمسّ الآداب الإسلامية نبه لذلك، ثم عوقب). انتهى

ثم إذا وصل المملوك إلى سنّ البلوغ، جاء معلمو الفروسية ومدربو القتال يعلمونهم فنون الحرب والقتال وركوب الخيل والرمي بالسهام، والضرب بالسيوف، حتى يصلوا إلى مهارة قتالية وقوة بدنية بتحمل المشاق و لصعاب، ثم يتدربون على القيادة والإدارة ووضع الخطط الحربية، فينشأ المملوك متفوقاً تماماً في المجال العسكري، إضافة إلى الحمية الدينية الكبيرة. وكان الصالح أيوب يطمئن عليهم إلى إن زاد عدد المماليك الصالحية، حتى بنى قلعة لهم مع قصره على النيل في منطقة الروضة بالقاهرة، وكان النيل يعرف بالبحر، فيسمون المماليك الصالحية والبحرية نسبة إلى سكناهم جوار بحر النيل. ومن ثم تأهل هؤلاء المماليك ليكونوا ملوك العالم الإسلامي، بل ملوك الدنيا.

وظهر في عصر دول المماليك علماء أفذاذ، امثال:

العزّ بن عبد السلام (سلطان العلماء)، وتقي الدين بن دقيق العيد، والإمام النووي (صاحب رياض الصالحين)، وابن تيمية (شيخ الإسلام وصاحب الفتاوى الضخمة والمؤلفات الكثيرة)، وابن قيم الجوزية (تلميذ ابن تيمية، وله مؤلفات عديدة)، واحمد بن حجر العسقلاني (صاحب فتح الباري شرح صحيح البخاري)، و لمؤرخ المحقق الحافظ ابن كثير (صاحب البداية والنهاية)، والمؤرخ تقي الدين المقريزي، وابن جماعة، وابن قدامة المقدسي، والإمام الذهبي (صاحب تاريخ الإسلام في ٥٢ مجلداً، وسير أعلام النبلاء)، وابن تغري بردي (صاحب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة)، وابن منظور (صاحب لسان العرب)، والنويري (صاحب نهاية الأرب)، واحمد بن فضل الله العمري (صاحب مسالك الأبصار)، والقلقشندي (صاحب صبح الأعشى)، والإمام جلال الدين السيوطي (صاحب المؤلفات العديدة)، وشمس الدين السخاوي.

وكانت ولاية استاذ المماليك: الملك الصالح أيوب بمصر قرابة ١٠ سنوات (٩ سنين و٧ أشهر و٢٠ يوماً) – ولي السلطنة في ٢٠ ذي الحجة سنة ٦٣٧هـ، ومات في نصف شعبان سنة ٦٤٧هـ وكان عفيف الذيل، طاهر اللسان،

قليل الفحش في حال غضبه، ينتقم بالفعل لا بالقول – رحمه الله تعالى. ولما مات رثاه الشعراء بعدة مراثٍ. وأما مدائحه فكثيرة: من ذلك ما قاله فيه كاتبه وشاعره بهاء الدين زهير من قصيدته:

وسريت في ليلٍ كأن نجومه ... من فرط غيرتها إليّ تحدّق

حتى وصلتُ سرادق الملك الذي ... تقف الملوك ببابه تسترزق

ووقفت من ملك الزمان بموقفٍ ... ألفيت قلب الدهر منه يخفق

فإليك يا نجم السماء فإنني ... قد لاح نجم الدين لي يتألق

الصالح الملك الذي لزمانه ... حسن يتيه به الزمان ورونق

ملك تحدث عن أبيه وجده ... نسب لعمري في العلا لا يلحق

وبعد رحيل لويس التاسع إلى عكا، بعد اغتيال السلطان الأيوبي توران شاه بفارسكور بأيدي المماليك أنفسهم، الذين دحروا الصليبيين في المنصورة وفارسكور، أصبح هؤلاء المماليك منذ ذلك الحين حكاماً لمصر وبعد قليل جداً حكاماً للشام، ومن ثم سلاطين العالم الإسلامي قرابة ٢٥٠ عاماً.

تسلطن الملكة شجرة الدرّ على مصر: هي الملكة شجرة الدر بنت عبد الله جارية السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب وزوجته وأم ولده خليل. وكانت ذا حظوة كبيرة عنده، وكانت في صحبته وهو ببلاد المشرق في حياة أبيه الملك الكامل، ثم سارت معه لما حبسه الملك الناصر داود صاحب الكرك بالكرك ومعها ولدها خليل أيضاً، وقاست مع الصالح تلك الأهوال والمحن، ثم قدمت معه مصر لما تسلطن، وعاش ابنها خليل بعد ذلك وتوفي صغيراً.

ومازالت في عظمتها من الحشم، واليها غالب تدبير الديار المصرية في حياة سيّدها الملك الصالح وفي مرضه وبعد موته والأمور تدبّرها على أكمل وجه إلى أن قدم ولد زوجها الملك المعظم توران شاه، فلم يشكر لها ما فعلته من الإخفاء لموت والده، وقيامها بالتدبير أتم قيام، حتى حضر إلى المنصورة وجلس في دست السلطنة.

ولم تدع أحداً يطمع في الملك لعظمتها في النفوس، فترك توران شاه ذلك كله وأخذ في تهديدها وطلب الأموال منها. واتفقوا على ولايتها: لحسن سيرتها وغزير عقلها وجودة تدبيرها، وجعلوا المعز أيبك التركماني أتابكاً لها، وخطب لها على المنابر بمصر والقاهرة، لكنها لم تلبس خلعة السلطنة الخليفتي على العادة، غير أنهم بايعوها بالسلطنة في أيام أرسالاً وتم أمرها. وقال الشيخ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي في تاريخه:

(شجرة الدر أم خليل الصالحية وجارية السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب وأم ولده خليل. كان الملك الصالح يحبها حباً عظيماً، ويعتمد عليها في أموره ومهماته، وكانت بديعة الجمال ذات رأي وتدبير ودهاء وعقل، ونالت من السعادة ما لم ينله أحد في زمانها. ولما مات الملك الصالح في شعبان سنة ٦٤٧هـ على دمياط في حصار الفرنج، أخفت موته وصارت تعلم بخطها مثل علامة الملك الصالح، وتقول: السلطان ما هو طيب، وتمنع الناس من الدخول إليه. وكان أرباب الدولة يحترمونها، ولما علموا بموت السلطان ملكوها عليهم أياماً.

وتسلطنت بعد قتل السلطان الملك المعظم توران شاه بن الملك الصالح نجم الدين أيوب، وخُطب لها على المنابر، وكان الخطباء يقولون على المنبر بعد الدعاء للخليفة: "واحفظ اللهم الجهة الصالحية، ملكة المسلمين، عصمة الدنيا والدين، أم خليل المستعصمية صاحبة السلطان الملك الصالح".

واتفق المماليك البحرية والأعيان على تولية شجرة الدر أم خليل جارية الملك الصالح (زوجته) فملكوها ونقش اسمها على الدينار والدرهم، وكانت تعلم على المناشير وتكتب: والدة خليل. ولم يل مصر في الإسلام امرأة قبلها: غير أن المصريين استنكروا وجود سيدة تتحكم في رقاب الأمراء والكبراء والسادة، وتخضعوا خضعاً شديداً، وخرجت المظاهرات الغاضبة تستنكر هذا الحضور والنفوذ السياسي الكبير لسيدة من سيدات القصر وقاد المعارضة العز بن عبد السلام، ووقف وسط جموع المتظاهرين، منادياً بجلوس امرأة على عرش مصر، مبيناً أن هذا الجلوس مخالف للشرع الحكيم. وكتب الشيخ عز الدين بن عبد السلام في بعض تصانيفه على ما إذا ابتلي المسلمون بولاية امرأة، وأرسل الخليفة المستعصم يعاتب أهل مصر في ذلك، ويقول: (إن كان ما بقي عندكم رجل تولونه، فقولوا لنا نرسل إليكم رجلاً).

وأقامت شجرة الدر في المملكة ثلاثة أشهر، ثم عزلت نفسها. واتفقوا على أن يملكوا الملك الأشرف موسى بن صلاح الدين يوسف بن المسعود بن الملك الكامل، فملكوه وله ثماني سنين، وذلك في يوم الأربعاء ثالث جمادى الأولى سنة ٤٨. وجعل عز الدين أيبك التركماني مملوك الصالح أتابكه، وخطب لهما، وضربت السكة باسمهما، وعظم شأن الأتراك من يومئذ، ومدوا أيديهم إلى العامة، وأحدث وزيره الأسعد الفائزي ظلامات ومكوساً كثيرة.

ثم إن عز الدين خلع الملك الأشرف، واستقل بالسلطنة في سنة ٦٥٢هـ، ولقب الملك المعز؛ وهو أول من ملك مصر من الأتراك، فلم يرض الناس بذلك حتى أرضى الجند بالعطايا الجزيلة. وأما أهل مصر فلم يرضوا بذلك، ولم يزالوا يسمعونه ما يكره إذا ركب، ويقولون: لا نريد إلا سلطاناً رئيساً ولد على الفطرة، وكان المعز تزوج شجرة الدر. ثم إنه خطب ابنة صاحب الموصل، فغارت شجرة الدر فقتلته في أواخر ربيع الأول سنة ٦٥٥هـ، وأقيم بعده ولده علي ولقب المنصور، وعمره نحو ١٥ سنة، فأقام سنتين وثمانية أشهر، وفي أيامه أخذ التتار بغداد، وقتل الخليفة.

وكانت تركيا ذات شهامة وسيرة حسنة شديدة الغيرة. فلما بلغها أن زوجها الملك المعز أيبك يريد أن يتزوج ببنت الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، تخيلت منه أنه ربما عزم على إبعادها أو إعدامها؛ لأنه سئم من حجرها عليه واستطالتها، فعاجلته وعزمت على الفتك به وإقامة غيره في الملك.

ودبرت قتل الملك المعز في الحمام، وأعانها على ذلك جماعة من الخدام، في يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٦٥٥هـ. وكان ملكاً شجاعاً كريماً عاقلاً سيوساً كثير البذل للأموال، أطلق في مدة سلطنته من الأموال والخيول وغير ذلك ما لا يحصى كثرة، حتى رضي الناس بسلطان منه الرق. وكان أهل مصر يسمعونه ما يكره إذا ركب ومر بالطرقات، ويقولون: (لا نريد إلا سلطاناً رئيساً مولوداً على الفطرة). على أن الملك المعز كان عفيفاً حليماً كثير الاحتمال لتجنيهم عليه، وشر أخلاقهم. وُجدت شجرة الدر مقتولة مسلوبة خارج القلعة في يوم السبت حادي عشر شهر ربيع الآخر، فحُملت إلى التربة التي كانت بنتها لنفسها بقرب مشهد السيدة نفيسة – رحمها الله تعالى – فدفنت هناك. ولشجرة الدر أوقاف على التربة المذكورة وغيرها.

ظهور التتار أو المغول، وأسبابه:

- **يخطئ من يظن أن جنكيز خان كان مجرد قائد مغولي عظيم!!!**
- **ويخطئ من يظن أن الخليفة الناصر لدين الله هو الذي تعاون مع التتار لإزالة الدولة الخوارزمية؛ حامية الجناح الشرقي لديار أمة الإسلام!!!**
- **ويخطئ من يظن أن أول من أسقط الخلافة العباسية هو هولاكو!!!**
- **ويخطئ من يظن أن التتار هاجموا بغداد أول مرة عام ٦٥٦هـ، بقيادة هولاكو خان!!!**

- ويحطئ من يظن أن خيانة ابن العلقمي (وزير المستعصم) مع التتار إنما بدأت عام ٦٥٤هـ بوصفها ردّة فعل لفتنة الكرخ بين الشيعة والسنة في ذلك العام!!!

الخلفية التاريخية وحقيقة جنكيز خان: بدايةً، فإنّ بعض المؤرخين يسميهم المغول، ويرى أن التتار فرع من المغول، لكن المغول بقيادة جنكيز خان تغلبوا على التتار فتلاشوا في دولة واحدة، فصاروا يسمون مرة بالمغول ومرة بالتتار، وهم يعبدون الكواكب ويسجدون للشمس، ويرون أن (تنكرى) وهو الرب الذي يعلو السماء الزرقاء، يبارك خطواتهم، وأنهم خلقوا ليحكموا العالم كله، ولهذا سمى زعيمهم نفسه بجنكيز خان؛ أي: حاكم العالم. وينطلقون من قاعدة: أن في السماء ربّاً واحداً، فليكن هناك حاكم واحد على الأرض) وهو الخان، ولا يختلفون بذلك عن الصليبيين في رؤيتهم للعالم. بدأ مُلك جنكيز خان في الصين عام ٥٩٩هـ، ثم بدأ ملكه بالتوسع في أوائل القرن السابع، حتى فتح (بكين) عام ٦١٢هـ، أما في جهة الغرب، فقد وصل ملكه إلى أواسط آسيا عام ٦٠٧هـ وتصل إليهم أخبار الأمم، ولا تصل أخبارهم إلى الأمم، وقلما يقدر جاسوس أن يتمكن منهم؛ لأن الغريب لا يشبههم.

كان ابتداء مُلك جنكيز خان سنة ٥٩٩هـ، وكان قتاله لخوارزم شاه في حدود سنة ٦١٦هـ، ومات خوارزم شاه في سنة ٦١٧هـ، فاستحوذ حينئذ على الممالك بلا منازع ولا ممانع. وكانت وفاة جنكيز خان عام ٦٢٤هـ، فجعلوه في تابوت من حديد وربطوه بسلاسل وعلقوه بين جبلين هناك. وأما كتابه (الياسا)، فإنه يُكتب في مجلدين بخط غليظ، ويحمل على بعير عندهم؛ وقد ذكر بعضهم أنه كان يصعد جبلاً ثم ينزل ثم يصعد ثم ينزل مراراً حتى يعي ويقع مغشياً عليه، ويأمر من عنده أن يكتب ما يلقي على لسانه حينئذ، فإن كان هذا هكذا، فالظاهر أن الشيطان كان ينطق على لسانه بما فيها. (وهذا يعني أن جنكيز خان لم يكن قائداً عسكرياً وحسب، إنما لبس لبوس الأنبياء الكذابين، مُدعياً نزول الوحي عليه في كتاب المغول المقدس "الياسا" أو "اليسق"، وبهذه النبوة المزعومة وبهذا الكتاب وبقوة شخصيته وحّد جموع التتار تحت إمرته وقيادته لاكتساح العالم).

وذكر الجويني: أن بعض عبادهم كان يصعد الجبال في البرد الشديد للعبادة فسمع قائلاً يقول له: إنا قد ملّكنا جنكيز خان وذريته وجه الأرض، قال الجويني: فمشايخ المغول يصدقون هذا، ويأخذونه مسلماً. والاحتكام إلى كتاب "الياسا" كفر، فمن ترك الشرع المحكم المنزل على محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء، وتحاكم إلى غيره من الشرائع المنسوخة كفر، فكيف بمن تحاكم إلى "الياسا" وقدمها عليه؟! فمن فعل ذلك كفر، بإجماع المسلمين:

قال الله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]. وقد ذكر علاء الدين الجويني طرفاً كبيراً من أخبار جنكيز خان ومكارم كان يفعلها لسجيته وما أداه إليه عقله، وإن كان مشركاً بالله، وقالوا: أهدى له رجل جام زجاج من معمول حلب، فاستحسنه جنكيز خان، فوهن أمرّه عنده بعض خواصه وقال: خوند هذا زجاج لا قيمة له.

فقال: أليس قد حمله من بلاد بعيدة حتى وصل إلينا سالماً؟ أعطوه منتي بالس.

قال: وأهدى له إنسان رمانة، فكسرها وفرق حبّها على الحاضرين، وأمر له بعدد حبها بوالس ثم أنشد:

فلذاك تزدحم الوفود ببابه ... مثل ازدحام الحبّ في الرمان

وقد قتل من الخلائق ما لا يعلم عددهم إلا الذي خلقهم.

الأخطاء الفادحة للدولة الخوارزمية، وزوالها (١١٩٠–١٢٢٠م):

بدأ اجتياح التتار العالم الإسلامي في بداية القرن السابع الهجري. ويخطئ من يظنّ أن الدولة الخوارزمية هي التي أبطأت اجتياح التتار، ومنعته من اجتياح العالم الإسلامي؛ لأن هذه الدولة كانت أصلاً السبب المباشر لاجتياح التتار العالم الإسلامي، فجلبت عليه ويلات المغول. وتمثل دولة الحشاشين في قلعة "ألموت" والقلاع الإسماعيلية سبب آخر لاجتياح المغول.

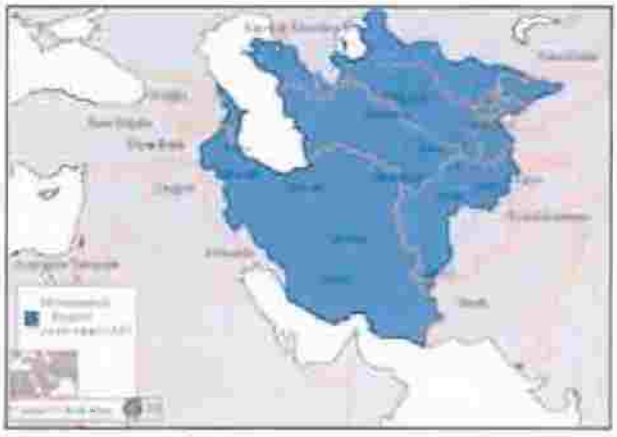

صحيح أن الدولة الخوارزمية وقفت بوجه تقدم المغول إلى أن سقطت (وهذا الأمر عجل سقوط بغداد بعدها)، لكن خوارزم شاه أخطأ أصلاً في حق الخلافة العباسية، فقام بخلعها وإهانة رسول الخليفة فأهانه الله. وأخطأ خوارزم شاه خطأً فادحاً بفعل ٣ كبائر مع جنكيز خان، عادت عليه بالشرّ وباستئصاله من ملكه العريض في سنة واحدة فقط، وعادت على العالم الإسلامي بالوبال والدمار.

أما خطؤه مع الخليفة العباسيّ الناصر لدين الله، أحمد بن المستضيء، فيقول الذهبي في "تاريخ الإسلام"، تحت سنة ٦١٤هـ: (قال أبو المظفر: وفيها قدم خوارزم شاه محمد بن تكش في أربع مئة ألف، وقيل في ست مئة ألف، فوصل همذان، قاصداً بغداد، فاستعدّ الخليفة وفرّق الأموال والعدد، وراسله مع الشيخ شهاب الدين السهروردي، فأهانه ولم يحتفل به، واستدعاه، وأوقفه إلى جانب الخيمة، ولم يجلسه... فسلمت عليه فلم يردّ، ولا أمرني بالجلوس، فشرعت فخطبت خطبة بليغة، ذكرت فيها فضل بني العباس، ووصفت الخليفة بالزهد والورع والتقى والدين، والترجمان يعيد عليه قولي، فلما فرغتُ، قال للترجمان: قل له: هذا الذي تصفه ما هو في بغداد، بل أنا أجيء، وأقيم خليفة يكون بهذه الصفة، ثم ردّنا بغير جواب. ونزل عليهم بهمذان الثلج فهلكت خيلهم، وركب الملك خوارزم شاه يوماً فعثر به فرسه، فتطيّر ووقع الفساد في عساكره، وقلت الميرة، وكان معه سبعون ألفاً من الخطى، فردّه الله تعالى عن بغداد).

وقال الذهبي أيضاً: (ولم يل الخلافة أحد أطول مدة منه (أي: الناصر لدين الله أحمد بن المستضيء ٥٥٣–٦٢٢هـ)، فإنه أقام فيها ٤٧ سنة، ولم تزل مدة حياته في عز وجلالة وقمع الأعداء واستظهار على الملوك، ولم يجد ضيماً ولا خرج عليه خارجي إلا قمعه ولا مخالف إلا دفعه، وكل من أضمر له سوءاً رماه الله بالخذلان، وكان مع سعادة جده شديد الاهتمام بمصالح الملك، لا يخفى عليه شيء من أحوال رعيته كبارهم وصغارهم، وأصحاب أخباره في أقطار البلاد يوصلون إليه أحوال الملوك الظاهرة والباطنة، وكانت له حيل لطيفة ومكائد غامضة وخدع لا يفطن لها أحد؛ يوقع الصداقة بين ملوك متعادين وهم لا يشعرون، ويوقع العداوة بين ملوك متفقين وهم لا يفطنون...

وأتى رسول خوارزم شاه برسالة مخفية وكتاب مختوم، فقيل له: ارجع فقد عرفنا ما جئت به، فرجع وهو يظن أنهم يعلمون الغيب، قيل: إن الناصر كان مخدوماً من الجن. وظهر خوارزم شاه بخراسان وما وراء النهر وتجبّر وطغى واستعبد الملوك الكبار وأباد أمماً كثيرة، وقطع خطبة بني العباس من بلاده، وقصد بغداد فوصل إلى همذان، فوقع عليهم ثلج عظيم عشرين يوماً، فغمّاهم في غير أوانه، فقال له بعض خواصه: إن ذلك غضب من الله، حيث قصدت بيت الخلافة، وبلغه أن أمم الترك قد تألبوا عليه، وطمعوا في البلاد لبعده عنها، فكان ذلك سبب رجوعه، وكفي الناصر شره بلا قتال).

وأما بالنسبة إلى أخطائه مع جنكيز خان، فإنه قام بقتل تجّار جنكيز خان عام ٦١٦هـ، ثم قتل رسوله له، ومن ثم بادر فنهب أموال قبيلته، وسبى ذراريهم وأطفالهم. وجنكيز خان في شغل شاغل بقتال أعدائه من قبيلة أخرى. يقول ابن كثير في "البداية والنهاية" (ج١٣، ص ١٤٠–١٤١): (ولكن كان البداءة من خوارزم شاه، فإنه لما أرسل جنكيز خان تجاراً من جهته، معهم بضائع كثيرة من بلاده (في رواية: يبتضعون له ثياباً للكسوة) انتهوا إلى إيران فقتلهم نائبها من جهة خوارزم شاه، وهو والد زوجة كشلي خان لقائد تتاري يعادي جنكيز خان)، وأخذ جميع ما كان معهم، فأرسل جنكيز خان إلى خوارزم شاه يستعلمه: هل وقع هذا الأمر عن رضى منه، أو أنه لا يعلم به، فأنكره، وقال له فيما أرسل إليه: "من المعهود من الملوك أن التجار لا يقتلون؛ لأنهم عمارة الأقاليم، وهم الذين يحملون إلى الملوك ما فيه التحف والأشياء النفيسة، ثم إن هؤلاء التجار كانوا على دينك فقتلهم نائبك، فإن كان أمراً أمرت به طلبنا بدمائهم، وإلا فأنت تنكره وتقتص من نائبك".

فلما سمع خوارزم شاه ذلك من رسول جنكيز خان، لم يكن له جواب سوى أنه أمر بضرب عنقه فأساء التدبير، وقد كان خرف وكبرت سنه، وقد ورد الحديث: (اتركوا الترك ما تركوكم)، فلما بلغ ذلك جنكيز خان، تجهز لقتاله وأخذ بلاده، فكان بقدر الله تعالى ما كان من الأمور التي لم يسمع بأغرب منها ولا أبشع).

ويقول ابن كثير (ج١٣، ص٩٩–١٠٥)، تحت أحداث عام ٦١٦هـ: (وفيها: عبرت التتار نهر جيحون بصحبة ملكهم جنكيز خان من بلادهم... وسبب دخولهم نهر جيحون أن جنكز خان بعث تجاراً له (الحادثة)، ولم يكن ما فعله خوارزم شاه فعلاً جيداً. فلما تهدده أشار من أشار على خوارزم شاه بالمسير إليهم، فسار إليهم وهم في شغل شاغل بقتال كشلي خان، فنهب خوارزم شاه أموالهم، وسبى ذراريهم وأطفالهم، فأقبلوا إليه محروبين، فاقتتلوا أربعة أيام قتالاً لم يسمع بمثله، أولئك يقاتلون عن حريمهم والمسلمون عن أنفسهم، يعلمون أنهم متى ولوا استأصلوهم، فقتل من الفريقين خلق كثير، حتى إن الخيول كانت تزلق في الدماء، وكان من جملة من قُتل من المسلمين نحوٌ من عشرين ألفاً، ومن التتار أضعاف ذلك.

ثم تحاجز الفريقان، وولى كل منهم إلى بلاده، ولجأ خوارزم شاه وأصحابه إلى بخارى وسمرقند فحصنها، وبالغ في كثرة من ترك بها من المقاتلة، ورجع إلى بلاده ليجهز الجيوش الكثيرة)... ثم كان اجتياح جحافل المغول على العالم الإسلامي، فيقول ابن كثير، تحت أحداث عام ٦١٦هـ وعام ٦١٧هـ:

(فقصدت التتار بخارى، فأمنهم جنكيز خان ودخلها، فأحسن السيرة فيهم مكراً وخديعة، ثم عاد إلى البلد فاصطفى أموال تجارها وأحلها لجنده فقتلوا من أهلها خلقاً لا يعلمهم إلا الله عز وجل، وأسروا الذرية والنساء، وفعلوا معهن الفواحش بحضرة أهليهن، فمن الناس من قاتل دون حريمه حتى قتل، ومنهم من أسر فعذب بأنواع العذاب، وكثر البكاء والضجيج بالبلد من النساء والأطفال والرجال، ثم ألقت التتار النار في دور بخارى ومدارسها ومساجدها، فاحترقت حتى صارت بلاقع خاوية على عروشها، ثم كروا راجعين عنها قاصدين سمرقند، وفعلوا مثل ذلك.

ثم دخلت سنة ٦١٧هـ، عمّ البلاء في هذه السنة وعظم العزاء بجنكيز خان المسمّى بتموجين لعنه الله تعالى، ومن معه من التتار قبحهم الله أجمعين، واستفحل أمرهم، واشتد إفسادهم من أقصى بلاد الصين إلى أن وصلوا بلاد العراق وما حولها حتى انتهوا إلى إربل وأعمالها، فملكوا في سنة واحدة، وهي هذه السنة، سبعة الممالك إلا العراق والجزيرة والشام ومصر، وقهروا جميع الطوائف التي بتلك النواحي الخوارزمية والقفجاق والكرج واللان والخزر وغيرهم وقتلوا في هذه السنة من طوائف المسلمين وغيرهم في بلدان متعددة كبار ما لا يحد ولا يوصف، وبالجملة فلم يدخلوا بلداً إلا قتلوا جميع من فيه من المقاتلة والرجال، وكثيراً من النساء والأطفال، وأتلفوا ما فيه بالنهب إن احتاجوا إليه، وبالحريق إن لم يحتاجوا إليه، حتى إنهم كانوا يجمعون الحرير الكثير الذي يعجزون عن حمله فيطلقون فيه النار، وهم ينظرون إليه، ويخربون المنازل وما عجزوا عن تخريبه يحرقونه، وأكثر ما يحرقون المساجد والجوامع.

وكانوا يأخذون الأسارى من المسلمين، فيقاتلون بهم ويحاصرون بهم، وإن لم ينصحوا في القتال قتلوهم. ثم قاتلت التتار ابنه جلال الدين تكش (ويقال له محمود بن علاء الدين خوارزم شاه محمد بن تكش الخوارزمي، وهم من سلالة طاهر بن الحسين، وجدهم تكش هو الذي أزال الدولة السلجوقية) كانت التتار قهروا أباه حتى شردوه في البلاد، فمات في بعض جزائر البحر، ثم ساقوا وراء جلال الدين هذا حتى مزقوا عساكره شذر مذر، وتفرقوا عنه أيدي سبأ، وانفرد هو وحده فلقيه فلاح من قرية بأرض ميّافارقين، فأنكره لما عليه من الجواهر الذهب، وعلى فرسه، فقال له: من أنت؟ فقال: أنا ملك الخوارزمية – وكانوا قد قتلوا للفلاح أخاً – فأنزله وأظهر إكرامه، فلما نام قتله بفأس كانت عنده، وأخذ ما عليه، فبلغ الخبر إلى شهاب الدين غازي بن العادل صاحب ميافارقين، فاستدعى الفلاح فأخذ ما كان عليه من الجواهر وأخذ الفرس أيضاً، وكان الأشرف يقول: هو سد ما بيننا وبين التتار، كما أن السد بيننا وبين يأجوج ومأجوج.

كان المغول، بحلول عام ٦٢٥هـ–١٢٢٨م قد توغلوا في بلاد الدولة الخوارزمية – الجبهة الأولى للعالم الإسلامي – ودخلوا في معارك طاحنة مع جيش جلال الدين خوارزمشاه. وظلت المعارك تتواصل بين المغول والخوارزمية إلى أن انهزم جلال الدين بالكامل في سنة ٦٢٨هـ–١٢٣٠م، وقتل وانتهت دولته، وتشتت الخوارزمية، وتمزقوا كل ممزق وتحول جنودهم الذين تشردوا إلى مرتزقة يعرضون خدماتهم على ملوك المنطقة الإسلامية المجاورة.

يقول الذهبي في "تاريخ الإسلام": (وأما الخوارزمية، فزالت دولتهم، وتمزقوا، وقطشت أذنابهم، وبقوا حرامية، يقتلون ويسبون الحريم، ويفعلون كل قبيح).

وفتحت الجبهة الشرقية للعالم الإسلامي على مصراعيها أمام جحافل المغول الذين لم يتبق لهم سوى دخول بغداد والتوغل في الأراضي العربية.

أول سقوط للخلافة العباسية في بغداد: الفتنة العُظمَى:

لا يعلم كثيرون أن محاولة إسقاط الخلافة العباسية عام ٦٥٦هـ على يد هولاكو إنما كانت هي المحاولة الثانية!

أما أول محاولة لإسقاط الخلافة العباسية، فقد تمّت عام ٤٥٠هـ على يد البساسيري، ولها دلالتُها الخطرة في تعاظم الخطر الباطني، الذي أدى إلى إلغاء الخلافة العباسيّة تماماً مدة سنة واحدة، ونقل السلطة المركزيّة من بغداد إلى العبيديين في مصر، حتّى سمّى الحافظ الذهبيُّ هذه الواقعة في كتابه "سير أعلام النبلاء" (الفتنة العُظمى).

آلت الدولة العباسيّة، في سنة ٤٢٢هـ، إلى عبد الله بن أحمد القادر الملقّب بـ "القائم بأمر الله"، وكان الخليفة الـ ٢٦ من خلفاء بني العبّاس، والرابع والأخير في خلفاء العصر البويهي. وكان البويهيّون زيدية المذهب، لا يسبّون أبا بكر وعمر، ويعترفون بهم، ولكن كانوا أصحاب بدعة ويزمنون بأفضلية عليّ عليهما. وكانوا يمدّون الجسور إلى العبيديين إخوانهم في العقيدة، وتجري بينهم المراسلات، بل كانوا يشاورونهم في إمكان إعلان الحاكم العبيدي خليفةً للمسلمين عامةً.

وبرز نجم أرسلان البساسيري التركي، أحد قوّاد البويهيّين، وكان الخليفة القائم بأمر الله قد قدّمه على جميع الأتراك، وفوّض الأمور بأسرها إليه، وكان على سدّة الحكم العبيدي في مصر آنذاك الخليفة المستنصرُ محمّد بن عليّ، تعاظم شأنُ البساسيريّ، وانتشر ذكره وطار اسمه وتهيّبته أمراء العرب والعجم... وجبى الأموال وخرب الضياع، ولم يكن الخليفة يقطع أمراً دونه، ولا يحلّ ولا يعقد إلاّ عن رأيه. ثم استمر في انتزاع الصلاحيّات، حتى لم يبق للملك الرحيم (البويهي) ولا الخليفة (القائم بأمر الله) معه إلاّ الاسم. وراسل البساسيريُّ المستنصرَ العبيديَّ في سنة ٤٤٧هـ، وأطلعه على عزمه إلغاء الخلافة العبّاسيّة، وإرسال شارات الخلافة إليه: تمهيداً لاستقدامه إلى بغداد ومبايعته خليفةً للمسلمين عامّة، وطلب منه الدعم بالمال والسلاح. وساءت علاقة الخليفة القائم بالبساسيري، وأرسل إلى الملك البويهي يقول له: إن البساسيري خلع الطاعة، وكاتب الأعداء، وإن الخليفة له على الملك عهود، وله على الخليفة مثلها، فإن آثره فقد قطع ما بينهما، وإن أبعده، وأصعد إلى بغداد، تولى الديوان تدبير أمره.

فنقد الخليفة ثقته بمن حوله، ورأى أن المصلحة تقضي الاتصال بقوة السلاجقة النامية لحماية الخلافة وكسر شوكة البساسيريّ، خاصة أنها كانت تدين بالمذهب السنّي، وتحترم الخلافة. فاستدعى الخليفة طُغرُلبك القائد السلجوقي إلى بغداد من الريّ. فخرج البساسيريّ بعسكره إلى مكان بين الرقّة وبغداد يسمّى الرَّحَبة، وأمدّه المستنصر بما أراد من مال وسواه، انطلاقاً من مواقع نفوذه في الشام.

وعندما دخل طغرلبك بغداد، أظهر العامة تذمرهم، وقتلوا عدداً من جنده، فاستاء من ذلك، واتهم الملك (رحيم) البويهي وأتباعه، فقبض عليهم، وأرسل الملك البويهي إلى قلعة السيروان قرب الري (طهران اليوم)، إذ ظل معتقلاً بها ٣ أعوام ثم توفي، واستولى على إقطاعات عسكره. وهذا دفع أكثر هؤلاء إلى الخروج من بغداد، وانضموا إلى البساسيري، فكثر بهم عدد أنصاره.

وبدأ العصر السلجوقي ذو المسار الإسلامي الصحيح بدخول طغرلبك إلى بغداد، واستعد طغرلبك لقتال البساسيريّ، لكنّ البساسيريّ ودعاة الإسماعيلية معه مثل (هبة الله الشيرازي) تمكّنوا من الإيقاع بين طغرلبك وأخيه إبراهيم ينال، عن طريق مراسلة الأخير، وإطماعه بإقصاء أخيه، والاستيلاء على منصبه.

واضطر طغرلبك إزاء تمرد أخيه إبراهيم ينال إلى أن يغادر بغداد، ويعود إلى الري لمحاربة أخيه والقضاء على ثورته. واستغل البساسيري هذا الوضع، وزحف على بغداد - بعد أن كان قد احتل الأنبار - على رأس قوة عسكرية تقدر بأربع مئة شخص، حاملاً الرايات المستنصرية، وقد كتب عليها "الإمام المستنصر بالله أبو تميم معد أمير المؤمنين"، وسار معه أمير الموصل قريش بن بدران العقيلي، وكان حليفاً للبساسيري، في منتهى فارس، وتمكنا من دخول بغداد في ذي القعدة سنة ٤٥٠هـ دون مقاومة تذكر.

واضطر الخليفة القائم إلى طلب الأمان من قريش بن بدران، فأجابه إلى طلبه، وأرسله إلى حُديثة عانة تحت الإقامة الجبرية، وكان البساسيري يرغب في إرساله إلى مصر عند المستنصر العبيدي. وأرغم البغاة الخليفة العباسي قبل مغادرته بغداد على كتابة عهد اعترف فيه بأنه لا حق لبني العباس، ولا له هو، في الخلافة مع وجود بني فاطمة الزهراء، ثم بعثوا بهذا العهد إلى القاهرة. وأرسلوا ثوب الخليفة وعمامته وشِبَاكه الذي كان يجلس فيه، مع الهدايا والتحف، وقد أثار وصولها إلى القاهرة موجة عارمة من الفرح لدى المستنصر العبيدي وأنصاره.

دعا البساسيري للمستنصر العبيدي في جامع المنصور ببغداد في يوم الجمعة ١٣ ذي القعدة سنة ٤٥٠هـ، وقطع الخطبة للعباسيين، وزيد في الأذان "حي على خير العمل"، ثم أقيمت الخطبة للعبيديين في جميع مساجد بغداد، وكان أول من أيّده ودعا للمستنصر أهل الكرخ. ونُهبت دار الخلافة، وقُتل البساسيريُّ بعضَ رجال الدولة، ومنهم رئيس الرؤساء وقاضي القضاة، واستمرت الخطبة للخليفة العبيدي، وامتدّ احتجاز الخليفة في عانة عاماً كاملاً كذلك. وتناهت الأنباء في هذه الأثناء، أن "ينال" حصر أخاه طغرلبك في همذان، فبلغ من سوء الحال وتردّي الأوضاع أنّ سمّى الحافظ الذهبي هذه الواقعة «الفتنة العظمى»، وبلغ من ذلك أنّه نُهب الحريم ودار الخلافة. وسُلّمت زوجة الخليفة إلى أحد مُظاهري البساسيريّ من العرب. وملك البساسيريُّ بغداد والبصرة والكوفة وواسط والموصل وخوزستان وغيرها. وشمخت أنوف الرافضة، واستأسدوا به على أهل السنّة، ورُفعت رايات المستنصرية العبيديين.

أمّا في الشرق، فقد بدأت الكفة تميل إلى مصلحة طغرلبك بعد أن جاءته إمدادات من ابن أخيه البطل ألب أرسلان، فتمكن طغرلبك عام ٤٥١هـ من التغلب على أخيه وقتله، ثم زحف نحو العراق لإعادة الأمور إلى نصابها. فطلب من البساسيري وقريش بن بدران إعادة الخطبة للخليفة القائم، مقابل عدم دخوله بغداد، فرفض البساسيري إجابة طلبه.

ثم إن قريش بن بدران سعى لدى الأمير محيي الدين مهارش العقيلي، حاكم حديثة عانة؛ ليمنع عودة الخليفة إلى بغداد. وبالرغم من النجاحات التي حققها البساسيري، والمناطق التي استولى عليها، لكنه لم يتمكن من مواجهة الجيش السلجوقي القادم؛ لذلك خرج البساسيري من بغداد مع جنده، وقصد الكوفة في السادس من ذي القعدة سنة ٤٥١هـ. لكن لماذا لم يقدم المستنصر العبيدي الدعم الكافي للبساسيري على الرغم من إخلاصه له؟

الذي يظهر أنّ أحد وزراء المستنصر – أبا الفرج محمد بن جعفر المغربي – كان يكره البساسيريّ، فلذلك كان نفرّ عنه المستنصرَ وحذّره منه. فضلاً على أن المستنصر لم يكن يملك القوة الكافية لإمداده. وأيّاً كان الباعثُ، فإنّ المستنصر لم يثق تماماً بالبساسيريّ، فاكتفى بتقديم الدعم المادّي. وكان هذا من في مصلحة المسلمين. علّق ابن تغري بردي في كتابه "النجوم الزاهرة" (ج٥/ ص١١) على موقف المستنصر العبيدي من البساسيري بعد خروجه من بغداد، بقوله: (ولولا تخوف المستنصر من البساسيري، وترك تحريضه على ما هو بصدده، لكانت دعوته تتم بالعراق زمناً طويلاً).

وكتب القائم من إقامته الجبريّة في عانة تظلُّماً إلى الله عزَّ وجلَّ في رقعة جاء فيها: «إلى الله العظيم من المسكين عبده، وبعث بها إلى الكعبة. وهو أمر لطيف أن ينفذ الإنسان رسالة إلى رب العالمين في بيته الأعظم! وإن كان سبحانه قريب يجيب دعوة المضطر إذا دعاه أيّاً كان. أما هذه القصاصة، فقال الحافظ الذهبي فيها: (نفعت وأخذ الله بيده).

وتفاهم طغرلبك والأمير محيي الدين مهارش لإعادة الخليفة العباسي القائم إلى بغداد، واستقبلا عند وصوله إلى النهراوان، وبالغ في الاحتفاء به، وأبدى سروره لعودته، واعتذر له عن تأخره في نجدته لاشتغاله في إخماد ثورة أخيه، وأبدى نيته في المضي خلف البساسيري الذي التجأ إلى الكوفة. وعزم طغرلبك على المسير إلى الشام، ثم إلى مصر ليعامل المستنصر العبيدي معاملة تتلاءم وأفعاله، وأعيدت الدعوة للعباسيين في بغداد بعد انقطاع دام سنة.

ولم يكد الخليفة يستقر في بغداد، حتى عهد السلطان طغرلبك إلى القائد خمارتكين الطغرائي بالمسير على رأس ألفي فارس إلى الكوفة، حيث يقيم البساسيري، وضمّ إليه طائفة من الجند بقيادة ابن منيع الخماجي، وسار بنفسه في إثرهم. ودارت بين الطرفين معركة ضاريةعند الكوفة منتصف شهر ذي الحجة سنة ٤٥١هـ. أسفرت عن انتصار السلاجقة، ومقتل البساسيري وهزيمة جيشه،وحمل رأسه إلى بغداد، فطوف به، وعلّق إزاء دار الخلافة.

وبذلك تمكن طغرلبك من القضاء على فتنة البساسيري التي أقصّت مضاجع الخلافة العباسية، وطوي فصل من فصول التآمر الباطني. وقيل: إن القائم لم يضع رأسه بعد ذلك على وسادة، ولازم الصيام والقيام وقضاء الحوائج. واستمر في الحكم بعد ذلك قرابة ١٦ سنة.

أول هجوم للتتار على بغداد:

شنّ المغول أول هجوم لهم على بغداد سنة ٦١٧هـ، ولكنهم أخفقوا في الاستيلاء عليها. ففي "تاريخ الإسلام" للذهبي تحت حداث ٦١٧هـ: (قال الموفق عبد اللطيف: الشعب من التتار فرقتان، كما ينشعب من جهنم لسانان:

فرقة قصدت أذربيجان وآران ثم بلاد الكرج، وفرقة أتت على همذان وأصبهان، وخالطت حلوان تقصد بغداد. أما الفرقة التي قصدت بغداد، فردّهم الله بقوة العقل وحسن التدبير:

أما (أولاً) صاحب إربل، فشحن الدربندات بالأكراد، وإليهم ينتهي العلم بالصوصية، فسلطهم عليهم يسرقونهم ويقتلونهم صبراً في نومهم، فيصبحون وقد نكبوا نكبات في جهات لا يدرون من أين ولا كيف.

ثم (ثانياً) إن الخليفة الناصر لدين الله جمع الجموع وعسكر العساكر وحشر فنادى، وأقبلت إليه البعوث من كل حدب ينسلون، فلما سمعوا بوصول رسول التتر، تقدموا إلى صاحب إربل أن يحتفل ويظهر جميع عسكره، ويدخل بينهم من العوام والفلاحين من يشتبه بهم. فلما وصل الرسول إربل، تلقاه عساكر قطعت قلبه، وصاروا يتكررون عليه، كلما مرّ بقوم سبقوه وعادوا ووقفوا بين يديه، فلما دخل ولاية دقوقا، عبّئ له من العساكر أضعاف ذلك.

ثم (ثالثاً) أُخرج إلى بغداد فلقيته عساكر بغداد، صغرت في عينه ما رأى، لم يتركوا ببغداد فرساً ولا جملاً ولا حماراً حتى أركبوه رجلاً، ومعه شيء من السلاح، وأكثرهم بالأعلام والبرك أسطوانات (أي جل مزركش)، وخلق يلعبون بالنفط، ويرمون بالبندق الزجاج فيه النفط، فامتلأت البرية بالنيران. ثم حُمل إلى دار، ثم أُخرجوا بالليل خفية على طريق غير مسلوكة، وردوا إلى إربل، وقيل للرسول: "إنما هربناك في الخفية: خوفاً عليك من العامة". فحصل، وقد امتلأ قلبه رعباً ودماغه خيالاً، وأيقن قومه ما أثبته عيانه، فعلموا أنهم لا قبل لهم ببغداد، فرجعوا خائبين). انتهى.

وجاءت فرقة من التتار إلى إربل، في ٦٣٣هـ، فواقعوا عسكرها، فقتل جماعة من التتار، وقتل من الأربلية نفر يسير، ثم إن التتار ساقوا إلى الموصل ونهبوا وقتلوا، فاهتم المستعصم بالله (أبو المستعصم بالله الذي قتله التتار) وفرّق الأموال والسلاح، فرجع التتار.

ونزل التتار إربل وحاصروها في ٦٣٤هـ، ونقبوا السور وأخذوها عنوة، وقتلوا وسبوا، وجافت إربل بالقتلى. وكان باتكينُ نائبَ البلد بالقلعة فقاتلهم. ثم إن التتار نقبوا القلعة، وجعلوا تحتها سَرَباً وطرْقاً، فقلت المياه على أهل القلعة، ومات بعضهم من العطش، ولم يبق إلا أخذ القلعة، ثم لطف الله بمن بقي بالقلعة، ورحلت التتار بمكاسب لا تحصى. ويقول ابن كثير: (ثم دخلت سنة ٦٣٤هـ: فيها: حاصرت التتار إربل بالمجانيق ونقبوا الأسوار حتى فتحوها عنوة، فقتلوا أهلها وسبوا ذراريهم، وامتنعت عليهم القلعة مدة. وفيها: النائب من جهة الخليفة، فدخل فصل الشتاء فأقلعوا عنها وانشمروا إلى بلادهم. وقيل: إن الخليفة جهز لهم جيشاً فانهزم التتار). (البداية والنهاية ج١٣، ص٢٠٧) وامتنع الحج من العراق عام ٦٣٤هـ وعام ٦٣٥هـ.

ثم دخلت سنة ٦٤٣هـ (وهي سنة الخوارزمية؛ وذلك أن الصالح أيوب بن الكامل صاحب مصر بعث الخوارزمية، ومعهم ملكهم بركات خان في صحبة معين الدين، ابن الشيخ، فأحاطوا بدمشق يحاصرون عمه الصالح). وفي هذه السنة: كانت وقعة عظيمة بين جيش الخليفة وبين التتار لعنهم الله، فكسرهم المسلمون كسرة عظيمة وفرقوا شملهم، وهزموا من بين أيديهم، فلم يلحقوهم ولم يتبعوهم؛ خوفاً من غائلة مكرهم، وعملاً بقوله ﷺ: (اتركوا الترك ما تركوكم). (البداية والنهاية ج١٣، ص١٩٧).

وفي ذلك يقول الذهبي في "تاريخ الإسلام": (وفيها (أي: سنة ٦٤٣هـ) وصلت التتار إلى بعقوبا فعاثوا وأفسدوا فخرج من بغداد الدوادار الصغير في عسكر بغداد، فالتقاهم في ربيع الآخر فكسرهم ورد ومعه الأسرى).

قتلت التتر بخانقين في ٦٤٧هـ خلقاً عظيماً من النزّال، ونهبوا أغنامهم وأبقارهم، ثم نهبوا ناحية لبت والراذان لمن قرى بغداد وأخربوا تلك النواحي، فخرج من بغداد عسكر لذلك، وأُمر الناسُ في جمادى الآخرة بالمبيت في أسواق بغداد وفي دروبها وبالوقيد. وحجّ الركب العراقي في ٦٥٠هـ، بعد انقطاعه عشر سنين. نقاله الذهبي في تاريخ الإسلام.

كارثة الإسلام والعربية الكبرى: سقوط بغداد عاصمة الإسلام، على يد المغول بقيادة هولاكو.

أما المحاولة الثانية لإسقاط الخلافة العباسية، فكانت على يد هولاكو المغول، وتمت بإسناد وافضي أيضاً، **وتمثل الغزو التتاري الثاني على بغداد**. وهو هولاكو بن تولي خان بن جنكيز خان المغولي. ولي الملك بعد موت أبيه تولي خان، واتسعت ممالكه، وعظم أمره، وكثرت جيوشه من المغول والتتار، وما زال أمره في زيدة حتى ملك مدينة "ألموت"، وقتل متوليها شمس الشموس، وأخذ بلاده.

وقد بسط ابن الأثير في كامله خبرهم في هذه السنة بسطاً حسناً مفصلاً، وقدم على ذلك كلاماً هائلاً في تعظيم هذا الخطب العجيب.

قال: (فنقول: هذا فصل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقمت الليالي والأيام عن مثلها، عمت الخلائق وخصت المسلمين، فلو قال قائل: إن العالم منذ خلق الله آدم وإلى الآن، لم يبتلوا بمثلها لكان صادقاً، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا يدانيها. ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعل بخت نصر ببني إسرائيل من القتل، وتخريب بيت المقدس، وما البيت المقدس بالنسبة إلى ما خرب هؤلاء الملاعين من البلاد التي كل مدينة منها أضعاف البيت المقدس، وما بنو إسرائيل بالنسبة إلى ما قتلوا، فإن أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بني إسرائيل).

كانت الخلافة العباسية في بغداد تعاني أشد درجات الضعف والوهن، فأرسل له هولاكو رسالة يطالبه فيها بالاستسلام دون شروط، وكان من أهم العوامل التي عجلت بسقوط بغداد بيد التتار – بالإضافة إلى ضعف الخلافة – هو سوء البطانة والحاشية التي كان يستعين بها الخليفة العباسي، فلم يكن وزيره ابن العلقمي إلا منفذاً لمخططات الأعداء، فقام بإعفاء الجيش وتسريحه، وأثار الفتنة بين أهل بغداد نفسها أكثر من مرة، وكان عوناً للتتار فيما بعد على دخول بغداد؛ بسبب مشوراته المدسوسة التي كان يبغي منها تمكين العدو من رقاب المسلمين.

لم يكن الخليفة **المستعصم بالله** (٦٠٩-٦٥٦هـ/١٢١٢-١٢٥٨م) نبيهاً ولا مهتماً بالأخطار المحدقة بالخلافة الإسلامية، كأبيه المستنصر بالله ولا جده الناصر لدين الله اللذين أنفقا الأموال الكثيرة على إعداد الجيوش.

وجزعاها على العساكر. حكم المستعصم ١٦ عاماً (٦٤٠-٦٥٦هـ / ١٢٤٢-١٢٥٨م)، وكان يحبّ جمع الأموال، بل ينكر ودائع الملوك، ويستجمع المال بتسريح جنده وعساكره (بمشورة وزيره ابن العلقمي).

(أودع الملك الناصر داودُ وديعةً عند الخليفة المستعصم، في ٦٤٧هـ، قيمتها مئة ألف دينار فجحدها الخليفة، فتكرر وفوده إليه، وتوسله بالناس في ردها إليه، فلم يفد من ذلك شيئاً، فوفد عليه في ٦٥٤هـ، فتوقف في ردها واحتجّ بحجج باردة. وجرت أمور قبيحة لم يعهد مثلها من أمير فضلاً على أمير المؤمنين.

ثم سار إلى بغداد في سنة ثلاث وخمسين؛ بسبب الوديعة والحجج، وكتب معه الناصر صاحب الشام كتاباً إلى الخليفة يشفع فيه في رد وديعته، ويخبر برضاه عنه، فسافر ونزل بمشهد الحسين بكربلاء، وسير إلى الخليفة قصيدة يمدحه ويتلطفه، والقصيدة طويلة مطلعها:

مقامُـكَ أعلـى في النُّفـوس وأعظـمُ ... وحلمُـكَ أرجـى في النُّفـوس وأكـرمُ

فلم ينفع ذلك، ثم أحضر شيخ الحرم والخدام، ووقف بين الضريح مستمسكاً بسجف الحجرة الشريفة، وقال: اشهدوا أن هذا مقامي من رسول الله ﷺ قد دخلت عليه مستشفعاً به إلى ابن عمه أمير المؤمنين في رد وديعتي. فعظم الناس هذا وبكوا، وكتب بصورة ما جرى إلى الخليفة. ولما كان الركب في الطريق، وقع القتال بين الحجيج، فجاء الناصر يشق الصفوف، وأصلح بينهم. وكان الناصر داود قد حجّ، وعاد إلى العراق بسببها، فأُنزل بالحلة وأُجري عليه راتب ضعيف، فعمل قصيدة تلطف فيه وعدد خدَمه وخدَم آبائه فما نفع، بل سيّروا إليه من حاسبه على جميع ما اتصل إليه من النفقات والمأكول وما حملوه إليه من الهدايا في تردده، ثم أوصلوا إليه شيئاً يسيراً، وقالوا: قد وصل إليك قيمة وديعتك فهات خطك بوصوله، وإنك لم يبق لك شيء، فكتب كارهاً. ولم يصل إليه من قيمتها العشر. ثم رجع ثم قدم دمشق ونزل بقرية البويضا بقرب البلد، وأخذ يتجهز للمسير، فلم ينشب أن جاءت الأخبار بما جرى على بغداد). (البداية والنهاية ج ١٣، ص٢٤٩، وتاريخ الإسلام للذهبي تحت أحداث ٦٥٤هـ)

ولي وزارة العراق مؤيد الدين محمد بن العلقمي في ٦٤٢هـ، بعد موت ابن الناقد الوزير. وابن العَلْقمي ٥٩٣-٦٥٦هـ (١١٩٧-١٢٥٨م) هو محمد بن محمد بن علي بن أبي طالب، اشتغل في صباه بالأدب، وارتقى إلى رتبة الوزارة عام ٦٤٢هـ، فوليها ١٤ عاماً، ووثق به "المستعصم" فألقى إليه زمام أموره. وكان حازماً خبيراً بسياسة الملك، كاتباً فصيح الإنشاء، اشتملت خزانته على عشرة آلاف مجلد، وصنف له الصَّغاني "العُباب" وصنف له ابن أبي الحديد "شرح نهج البلاغة".

خيانة ابن العلقمي: متى؟ ولماذا؟

قدم رسولان من التتار في ٦٤٤هـ، أحدهما من بركة، والآخر من باجو، فاجتمعا بالوزير مؤيد الدين بن العلقمي، وتغمّت على الناس بواطن الأمور.

وفي ٦٤٨هـ ثارت الجند ببغداد؛ لقطع أرزاقهم، ومنعوا يوم الجمعة الخطيب عن الخطبة، واستغاثوا لأجل قطع أرزاقهم. وكان ذلك كان من عمل الوزير ابن العلقمي الرافضي؛ فإنه كان حريصاً على زوال دولة بني العباس ونقلها إلى العلويين، وكان يرسل إلى التتار في السرّ والخليفة المستعصم لا يطلع على باطن الأمور، ولا له غرض في المصلحة. وهذا يعني أن خيانة ابن العلقمي بدأت من عام ٦٤٤هـ، عندما اجتمع هو شخصياً مع رسولي التتار، وليس من عام ٦٥٤هـ بعد فتنة الكرخ كما يُقال.

وكثر اللصوص ببغداد في العام ٦٤٨هـ نفسه، وصار لهم مقدم يقال له: غيث، وتجرؤوا على دور الأمراء. وكان أمر الله بتبديد أموال الخليفة وأمراته وخزائنهم في سنة ٦٥٤هـ (عقاباً من جنس العمل بقطع أرزاق الجند).

فقد غرقت بغداد الغرق العظيم الذي لم يعهد مثله (غرقت بغداد أيضاً عام ٦١٤هـ وعام ٦٤٦هـ بأسوأ من الأول)، إذ انتقل الخليفة ودخل الماء إلى دار الوزير، وغرقت خزائن الخليفة وجرى شيء لم يجر مثله، وكان ذلك في شهر ربيع الآخر وجمادى الأولى. وكان ظهور النار العظيمة بالمدينة الشريفة في سنة ٦٥٤هـ.. وحدثت فتنة الكرخ في ٦٥٤هـ (انظر فيما سيأتي).

وكان وزير الخليفة المستعصم بالله، مؤيد الدين بن العلقمي ببغداد، رافضياً خبيثاً حريصاً على زوال الدولة العباسية، ونقل الخلافة إلى العلويين. ويدبّر ذلك في الباطن ويظهر للخليفة المستعصم خلاف ذلك. (كان استاذ الخلافة ثم ولي الوزارة في ربيع الأول عام ٦٤٢هـ بعد موت ابن الناقد الوزير). ومازال يثير الفتن بين أهل السنة والرافضة حتى تجالدوا بالسيوف، وقتل جماعة من الرافضة ونهبوا، فاشتكى أهل باب البصرة إلى الأمير مجاهد الدين الدوادار والأمير أبي بكر بن الخليفة، فتقدما إلى الجند بنهب الكرخ، فركبوا من وقتهم وهجموا على الرافضة بالكرخ وقتلوا منهم جماعة، وارتكبوا معهم العظائم (وقيهم أقارب الوزير وأصدقاؤه وجماعة علويون). فحنق الوزير ابن العلقمي، ونوى الشر في الباطن، وأمر أهل الكرخ الرافضة بالصبر والكفّ عن القتال، وقال لهم: (أنا أكفيكم غيّهم).

وثيقة الخيانة الخطرة: إن رسالة ابن العلقمي إلى ابن صلايا العلوي تمثل الإدانة الصريحة لهذا الوزير الخائن، وتبيّن أنه كان يخطط لخيانة الإسلام مع مجموعة متواطئة معه تعلم جيداً خيانته للإسلام، فما أفشوا سره، بل عاونوه في تواطئه مع المغول ضد الإسلام، منهم رسولاه: أخوه وغلامه، ومنهم امرأته التي استهجنت تحقار المغول لزوجها الذي صار يركب كديشاً بعد أن كان الوزير المعلى، ومنهم ابن صلايا العلوي هذا، ومنهم أهل الكرخ الذين صاروا من مقدمة جيش هولاكو على بغداد. **ولخطورة هذه الرسالة نوردها كاملة**، كما ذكرها الذهبي في ترجمته لابن العلقمي عام ٦٥٦هـ في "تاريخ الإسلام":

(فكتب - أي ابن العلقمي - إلى نائب إربل تاج الدين محمد بن صلايا العلوي الرسالة التي يقول فيها:

كتب بها الخادم من النيل إلى سامي مجدك الأثيل، ويقول فيها: نُهب الكرخ المكرم والعترة العلوية، وجسن التمثل بقول الشاعر:

أمورٌ يضحكُ السُّفهاءُ منها ... ويبكي من عواقبها اللبيب

فلهم أسوة بالحسين حيث نهب حرمه وأريق دمه ولم يعثر فمه:

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى ... فلم يستبينوا النُّصح إلاّ ضُحى الغد

وقد عزموا - لا أتم الله عزمهم، ولا أنفذ أمرهم - على نهب الحلة والنيل، بل سولت لهم أنفسهم "مراً، فصبر جميل، وإن الخادم قد أسلف الإنذار، وعجل لهم الأعذار.

أرى تحت الرماد وميض نار ... ويوشك أن يكون لها ضرامُ

وإن لم يطفها عقلاءُ قوم ... يكون وقودها جثثٌ وهامُ

فقلتُ من التعجب: ليت شعري ... أأيقاظ أميّةُ أم نيامُ

فكن جوابي (أي إجابتهم له) بعد خطابي: لا بد من الشيعة ومن قتل جميع الشيعة، ومن إحراق كتابي "الوسيلة" و"الذريعة"، فكن لما نقول سميعاً، والا جرّعناك الحمام تجريعاً. فكلامك كلام، وجوابك سلام، وتتركن في بغداد أحمل من المشط عند الأصلع، والخاتم عند الأقطع، ولتبذن ليدَ القلاسفة بحظورات الشرائع، ولتلقى لقاء أهي القرى أسرار الطبائع. فلا فعلن يلبي كما قال المتنبي:

قومٌ إذا آحدّوا الأقلام من غضبٍ ... ثم استمدّوا بها ماءَ المنيّات

نالوا بها من أعاديهم وإنْ بَعُدُوا ... ما لا يُنال بحدّ المشرفيّات

﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (النمل: ٣٧).

ووديعةٍ من سرّ آلِ محمّدٍ ... أودعتُها إذْ كنتُ من أمنائها

فإذا رأيتَ الكوكبين تقاربا ... في الجدي عند صباحها ومسائها

فهناك يؤخذ ثارُ آل محمدٍ ... لطلابها بالتّرك من أعدائها

فكن لهذا الأمر بالمرصاد، وترقب أول النحل وآخر صاد، والخير يكون إن شاء الله). انتهى

وكان الخليفة المستنصر بالله (أبو المستعصم) قد استكثر من الجند قبل موته حتى بلغ عدد عسكره مئة ألف. وكان الوزير ابن العلقمي يصانع التتار في الباطن ويكاتبهم ويهاديهم. فلما استخلف المستعصم بعد موت أبيه المستنصر، وكان المستعصم خلياً من الرأي والتدبير، أشار عليه ابن العلقمي المذكور بقطع أرزاق أكثر الجند (تقوية اقتصاد البلاد)، وأنه بمصانعة التتار وإكرامهم يحصل بذلك المقصود ولا حاجة إلى كثرة الجند، ففعل الخليفة ذلك! (وكلمة الشيخ مطاعة!) ثم إن الوزير بعد ذلك كاتب التتار، وأطمعهم في البلاد سراً، وأرسل إليهم غلامه وأخاه، وسهل عليهم فتح العراق، وأخذ بغداد، وطلب منهم أن يكون نائبهم بالبلاد، فوعدوه بذلك وتأهبوا لقصد بغداد، وكاتبوا لؤلؤاً صاحب الموصل في تهيئة الإقامات والسلاح، فكاتب لؤلؤ الخليفة سراً وحذره، ثم هيأ لهم الآلات والإقامات.

وكان الوزير ابن العلقمي المذكور ليس لأحد معه كلام في تدبير أمر الخليفة، فصار لا يوصل مكاتبات لؤلؤ ولا غيره إلى الخليفة، وعمّى عنه الأخبار والنصائح، فكان يقرؤها هو ويجيب عنها بما يختار، فنتج أمر التتار بذلك غاية النتاج، وأخذ أمر الخليفة والمسلمين في إدبار! وكان تاج الدين بن صلايا نائب الخليفة بإربل حذر الخليفة وحرك عزمه والخليفة لا يتحرك ولا يستيقظ، فلما تحقق الخليفة حركة التتار نحوه، سيّر إليهم شرف الدين بن محيي الدين بن الجوزي رسولاً يمدهم بأموال عظيمة، ثم سير مئة رجل إلى الدربند يكونون فيه يطالعون الخليفة بالأخبار، فمضوا فلم يطلع لهم خبر؛ لأن الأكراد الذين كانوا هناك دلوا التتار عليهم فهجموا عليهم وقتلوهم أجمعين.

وبعد استنفاذ الطرق الدبلوماسية، وإخفاق المراسلات المتكررة بين هولاكو والمستعصم، اتخذ هولاكو القرار بالهجوم على بغداد، فسار إليها في مئتي ألف مقاتل، وكان بصحبته جمع ممن ينتسب إلى الإسلام، منهم نصير الدين الطوسي الفيلسوف الذي كان أحد مستشاري هولاكو، ومنهم أمير شيراز، ووصل الجيش التتري إلى بغداد في محرم سنة ٦٥٦هـ.

ثم ركب هولاكو بن تولي خان بن جنكيز خان في جيوشه من المغول، وقصدوا العراق، وكان على مقدمته الأمير بايجو نوين، وفي جيشه خلق من أهل الكرخ الرافضة. فوصلوا إلى قرب بغداد، واقتتلوا من جهة البر الغربي عن دجلة، فخرج عسكر بغداد وعليهم ركن الدين الدوادار، فالتقوا على نحو مرحلتين من بغداد، فانكسر البغداديون، وأخذتهم السيوف، وغرق بعضهم في الماء، وهرب الباقون. ثم ساق بايجونوين مقدمة هولاكو، فنزل القرية مقابل دار الخلافة وبينه وبينها دجلة ليس غير.

وقصد هولاكو بغداد من البر الشرقي، وضرب سوراً وخندقاً على عسكره وأحاط ببغداد، فأشار الوزير ابن العلقمي على الخليفة المستعصم بالله بمصانعتهم.

تصوير فارسي من القرن الرابع عشر لحصار بغداد في شباط ١٢٥٨م قبيل تدميرها على أيدي التتار

وقال له: اخرج إليهم: أنا في تحرير الصلح. فخرج إليهم واجتمع بهولاكو وتوثق لنفسه ورد إلى الخليفة، وقال: (إن الملك قد رغب في أن يزوج بنته بابنك الأمير أبي بكر، ويبقيك على منصب الخلافة كما أبقى صاحب الروم في سلطنته، ولا يطلب إلا أن تكون الطاعة له كما كان أجدادك مع السلاطين السلجوقية، وينصرف هو عنك بجيوشه فتحييه يا مولانا أمير المؤمنين لهذا، فإن فيه حقن دماء المسلمين. ويمكن أن تفعل بعد ذلك ما تريد والرأي أن تخرج إليه". فسمع له الخليفة، وخرج إليه في جمع من الأعيان من أقاربه وحواشيه وغيرهم. فلما توجه إلى هولاكو، لم يجتمع به هولاكو، وأنزل في خيمة. ثم ركب الوزير وعاد إلى بغداد بإذن هولاكو، واستدعى الفقهاء والأعيان والأماثل ليحضروا عقد بنت هولاكو على ابن الخليفة. فخرجوا من بغداد إلى هولاكو. فأمر هولاكو بضرب أعناقهم، ثم مد الجسر ودخل بايجو نوين بمن معه إلى بغداد وبذلوا السيف فيها، واستمر القتل والنهب والسبي في بغداد بضعة وثلاثين يوماً: فلم ينجُ منهم إلا من اختفى.

ثم أمر هولاكو بعدّ القتلى، فبلغوا ألف ألف وثماني مئة ألف وكسراً. وقال الذهبي - رحمه الله - في "تاريخ الإسلام": والأصح أنهم بلغوا ثماني مئة ألف. ثم نودي بعد ذلك بالأمان، فظهر من كان اختفى وهم قليل من كثير.

وأما الوزير ابن العلقمي فلم يتم له ما أراد، وما اعتقد أن التتار يبذلون السيف مطلقاً في أهل السنة والرافضة معاً، وراح مع الطائفتين أيضاً أممٌ لا يُحصون كثرة، وذاق ابن العلقمي الهوان والذل من التتار ولم تطل أيامه. وقال ابن كثير في "لبداية والنهاية" في ترجمته: (ثم حصل له بعد ذلك من الإهانة والذل على أيدي التتار الذين مالأهم وزال عنه ستر الله، وذاق الخزي في الحياة الدنيا، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى. وقد رآته امرأة، وهو في الذل والهوان، وهو راكب في أيام التتار برذوناً مرسماً عليه، وسائق يسوق به ويضرب فرسه، فوقفت إلى جانبه، وقالت له: يا ابن العلقمي، هكذا كان بنو العباس يعاملونك؟ فوقعت كلمتها في قلبه وانقطع في داره إلى أن مات كمداً وغبينة وضيقاً وقلة وذلة، في مستهل جمادى الآخرة من هذه السنة، وله من العمر ثلاث وستون سنة، ودفن في قبور الروافض بمكان قريب من مشهد الإمام موسى الكاظم بالكاظمية ببغداد). وقد سمع بأذنيه، ورأى بعينيه من الإهانة من التتار والمسلمين ما لا يحد ولا يوصف.

وحشية المغول بلا حدود ولا رحمة: تلال بل جبال من رؤوس المسلمين المقطوعة

وتولى بعده ولده الخبيث الوزارة لواسمه أبو الفضل محمد بن محمد، وكان أبو الفضل كاتباً منشئاً بليغاً معظماً في دولة أبيه، ثم أخذه الله أخذ القرى وهي ظالمة سريعاً، وقد هجاه بعض الشعراء فقال فيه:

يا فرقة الإسلام نوحوا واندبوا ... أسفاً على ما حل بالمستعصم

دست الوزارة كان قبل زمانه ... لابن الفرات فصار لابن العلقمي)

قال الذهبي في "تاريخ الإسلام" وفيات تحت سنة ٦٥٦هـ: (وكان في قلبه غلّ على الإسلام وأهله، فأخذ يكاتب التتار، ويتخذ عندهم يداً ليتمكن من اغراضه الملعونة. وهو الذي جرأ هولاكو وقوّى عزمه على المجيء، وقرر معه لنفسه أموراً انعكست عليه، وندم حيث لا ينفع الندم، وبقي يركب كديشاً، فرآته امرأته فصاحت به: يا ابن العلقمي، أهكذا كنت تركب في أيام أمير المؤمنين؟).

ثم ضرب هولاكو عنق مقدم جيشه بايجو نوين؛ لأنه بلغه عنه من الوزير ابن العلقمي أنه كاتب الخليفة المستعصم لما كان بالجانب الغربي.

ولما تم أمر هولاكو، طلب الخليفة وقتله خنقاً. وقيل: غمّ في بساط، وقيل جعله هو وولده في عدلين وأمر برفسهما حتى ماتا.

ثم قتل الأمير مجاهد الدين الدوادار، والخادم إقبال الشرابي صاحب الرباط بحرم مكة، والأستادار محيي الدين بن الجوزي وولديه وسائر الأمراء الأكابر والحجّاب والأعيان. ويقال: إن هولاكو حينما استحل بغداد، حبس الخليفة وأمر جنوده بوضع طبق من ذهب فيها كنوزه (التي ادخرها في قبو قصره)، فقال هولاكو كل (يقصد بالذهب)، فردّ الخليفة: أيؤكل؟ فأجابه هولاكو: لو أنفقت هذا على جنودك وشعبك لما كنت أنا هاهنا. والقصة مع ما فيها من حكمة، إلا أنها من تلفيق ماركو بولو؛ لأن هولاكو والتتار كانوا عازمين على اكتساح الأرض (سواء كان حكامها ظالمين أم عادلين).

وللتوثيق العربي، يقول ابن كثير في "البداية والنهاية" عن هولاكو بعد تدميره بغداد، واحتجاز الخليفة عنده ليقرر ماذا يبتّ في أمره: (ثم عاد (هولاكو) إلى بغداد، وفي صحبته خوجة نصير الدين الطوسي، والوزير ابن العلقمي وغيرهما، والخليفة تحت الحوطة والمصادرة، فأحضر من دار الخلافة شيئاً كثيراً من الذهب والحلي والمصاغ والجواهر والأشياء النفيسة، وقد أشار أولئك الملأ من الرافضة وغيرهم من المنافقين على هولاكو أن لا يصالح الخليفة، وقال الوزير: متى وقع الصلح على المناصفة لا يستمر هذا إلا عاماً أو عامين، ثم يعود الأمر إلى ما كان عليه قبل ذلك، وحسنوا له قتل الخليفة، فلما عاد الخليفة إلى السلطان هولاكو أمر بقتله.

ويقال: إن الذي أشار بقتله الوزير ابن العلقمي، والمولى نصير الدين الطوسي. وكان النصير عند هولاكو قد استصحبه في خدمته لما فتح قلاع "الألموت"، وانتزعها من أيدي الإسماعيلية، وكان النصير وزيراً لشمس الشموس ولأبيه من قبله علاء الدين بن جلال الدين، وكانوا ينسبون إلى نزار بن المستنصر العبيدي.

وانتخب هولاكو النصير ليكون في خدمته كالوزير المشير، فلما قدم هولاكو وتهيب من قتل الخليفة هوّن عليه الوزير ذلك فقتلوه رفساً، وهو في جوالق؛ لئلا يقع على الأرض شيء من دمه؛ خوفاً من أن يؤخذ بثأره فيما قيل لهم، وقيل: بل خنق، ويقال: بل أغرق، فالله أعلم.

فيا ؤوا بإثمه، وإثم من كان معه من سادات العلماء والقضاة والأكابر والرؤساء والأمراء وأولي الحل والعقد ببلاده، ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان، ودخل كثير من الناس في الآبار وأماكن الحشوش، وقني الوسخ، وكمنوا كذلك أياماً لا يظهرون). (ج١٣، ص٢٣٥)

صورة تخيلية من عصور أوروبا الوسطى، حسب رحلات ماركو بولو الذي ادعى ان هولاكو (لليسار) سجن الخليفة المستعصم في غرفة مع كنوزه دون ماء ولاطعام، وقال له: (كلّ أموالك ما استطعت: لأنك كنت مُغرماً بجمعها)، وحسب المصادر العربية، فإن هولاكو سجن الخليفة ثم قتله رحمه الله بعد ان لفه في بساط، رفساً بسنابك خيله.

شهادة خطيرة لشاهد عدل مسلم شهد قتل الخليفة ونجا من القتل:

يوردها الذهبي في "تاريخ الإسلام"، تحت ترجمة المستعصم عام ٦٥٦هـ، ولخطورتها نوردها كاملة، وتعليقات الذهبي قبلها وبعدها: (قلت: وكان - المستعصم - يلعب بالحمام، ويهمل أمر الإسلام، وابن العلقمي يلعب به كيف أراد، ولا يطلعه على الأخبار. وإذا جاءته نصيحة في السرّ أطلع عليها ابن العلقمي ليقضي الله أمراً كان مفعولاً. فحكى جمال الدين سليمان بن عبد الله بن رطلين قال:

جاء هولاوو أي: هولاكو في نحو مئتي ألف نفس، ثم طلب الخليفة، فطلع ومعه القضاة والمدرسون والأعيان في نحو سبع مئة نفس، فلما وصلوا إلى الحربية، جاء الأمر بحضور الخليفة ومعه سبعة عشر نفساً، فاتفق أن أبي كان أحدهم، فحدثني أنهم ساقوا مع الخليفة، وأنزلوا من بقي عن خيلهم، وضربوا رقابهم ووقع السيف في بغداد، فعمل القتل أربعين يوماً. وأنزلوا الخليفة في خيمة صغيرة، والسبعة عشر في خيمة. قال أبي: فكان الخليفة يجيء إلينا كل ليلة، ويقول: ادعوا لي. وقال: فاتفق أنه نزل على خيمته طائر، فطلبه هولاوو، وقال: أيش عمل هذا الطائر؟ وأيش قال لك؟ ثم جرت له محاورات معه ومع ابن الخليفة أبي بكر. ثم أمر بهما فأخرجا، ورفسوهما حتى ماتا، وأطلقوا السبعة عشر، وأعطوهم نشابة، فقتل منهم رجلان وطلب الباقون بيوتهم فوجدوها بلاقع. فأتوا الدرسة المغيثية، وقد كنت ظهرت فبقيت أسأل عن أبي، فدللت عليه، فأتيته وهو ورفاقه، فسلمت عليهم. فلم يعرفني أحد منهم، وقالوا: ما تريد؟ قلت: أريد فخر الدين بن رطلين. وقد عرفته، فالتفت إليّ، وقال: ما تريد منه؟ قلت: أنا ولده فنظر إليّ وتحققني، فلما عرفني بكى، وكان معي قليل سمسم فتركته بينهم. وأقمنا هناك إلى صفر، إلى أن رفع السيف، فأتينا دار فخر الدين أحمد بن الدامغاني صاحب الديوان، وقد أراد ابن العلقمي أن يصرّه، فقال هولاكو: هذا يعرف أموال الخليفة وذخائره وأمواله، وهذا كان يتولاها. فقال: إذا كان الخليفة اختاره لنفسه، فأنا أولى أن أوليه. وكتب له الفرمان، وقال للوزير: لا تفعل شيئاً إلا بموافقته.

ثم إن ابن العلقمي عمل على أن لا يُخطب بالجوامع، ولا تُصل الجماعة، وأن يبني مدرسة على مذهب الشيعة، ولم يحصل أمله، وفتحت الجوامع، وأقيمت الجماعات. وحدثني أبي: فخر الدين، قال: كان قد مشى حال الخليفة بأن يكون للتتار نصف دخل البلاد، وما بقي شيء أن يتم ذلك، وإنما الوزير ابن العلقمي قال: ما هذا مصلحة، والمصلحة قتله، وإلا ما يتمّ ملك العراق.

قلت: تُوفّي الخليفة في أواخر المحرم أو في صفر، وما أظنه دفن، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وكان الأمر أعظم من أن يوجد مؤرخ لموته، أو موارٍ لجسده. وراح تحت السيف أمم لا يحصيهم إلا الله، فيقال: إنهم أكثر من ألف ألف. واستفتت التتار إلى الأبد، وسبوا من النساء والولدان ما ضاق به الفضاء. وقد بينا ذلك في الحوادث. وقتلوا الخليفة خنقاً، وقيل: غموه في بساط حتى مات. والأشهر أنه رفس حتى خرجت روحه.

وحكى جمال الدين بن رطلين، عن أبيه أنه قال: أخذوا الخليفة ليقتلوه، وكان معه خادم يقال له: قرنفل، فألقى عليه نفسه يقيه من القتل، فقتلوا الخادم، وعادوا إلى رفس الخليفة حتى مات؛ وكانوا يسمونه الأبله.

وحدثني شيخنا ابن الدبّاهي، قال: لما بقي بين التتار وبين بغداد يومان، أعلم الخليفة حينئذ، فقال: عدلان يروحان ويصران إن كان هذا الخبر صحيحاً. ثم طلب والدي، فحضر إلى بين يديه، وطلب منه الرأي. وقال: كيف نعمل؟ فصاح والدي وقال: فات الأمر كنتم صبرتم زاده. انتهى

ويقول الذهبي في "تاريخ الإسلام" تحت أحداث سنة ٦٥٦هـ:

(خيانة ابن العلقمي) وولى هولاكو على العراق نوّابه، وعزم ابن العلقمي على أن يحسّن لهولاكو أن يقيم ببغداد خليفة علوياً، فلم يتهيأ ذلك له، واطرحته التتار، وبقي معهم على صورة بعض الغلمان، ثم مات كمد رحمه الله، ولا خفف عنه.

(قتل ابن صلايا) وسار هولاكو قاصداً إلى أذربيجان، فنزل إليه بدر الدين صاحب الموصل، فأكرمه ورده إلى الموصل، ونزل إليه تاج الدين بن صلايا فقتله، فقيل: إن صاحب الموصل كان في نفسه من ابن صلايا، فقال لهولاكو: هذا شريف علوي، فربما تطاول إلى الخلافة، وتقوم معه خلق؛ فلهذا قتله هولاكو، ولم تطل لصاحب الموصل بعد ذلك حياة. انتهى

وعادت بغداد بعد ما كانت أنس المدن كلها كأنها خراب، ليس فيها إلا القليل من الناس، وهم في خوف وجوع وذلة وقلة، وكان الوزير ابن العلقمي قبل هذه الحادثة يجتهد في صرف الجيوش وإسقاط اسمهم من الديوان، فكانت العساكر في آخر أيام المستنصر قريباً من مئة ألف مقاتل، منهم من الأمراء من هو كالملوك الأكابر الأكاسر، فلم يزل يجتهد في تقليلهم إلى أن لم يبق سوى عشرة آلاف، ثم كاتب التتار وأطمعهم في أخذ البلاد وسهل عليهم ذلك، وحكى لهم حقيقة الحال، وكشف لهم ضعف الرجال، وذلك كله طمعاً منه في أن يزيل السنة بالكلية، وأن يظهر البدعة الرافضة، وأن يقيم خليفة من الفاطميين، وأن يبيد العلماء والمفتين، والله غالب على أمره، وقد رد كيده في نحره، وأذله بعد العزة القعساء، وجعله حوشكاشاً للتتار بعد ما كان وزيراً للخلفاء، واكتسب إثم من قتل ببغداد من الرجال والنساء والأطفال. فالحكم لله العلي الكبير رب الأرض والسماء.

وانقضت الخلافة من بغداد، وزالت أيامهم من تلك البلاد، وخربت بغداد الخراب العظيم، وأحرقت كتب العلم التي كانت بها من سائر العلوم والفنون التي ما كانت في الدنيا، قيل: إنهم بنوا بها جسراً من الطين والماء عوضاً عن الآجر، وقيل غير ذلك. وكانت كسرة الخليفة يوم عاشوراء من سنة ٦٥٦هـ، ونزل هولاكو بظاهر بغداد في عاشر المحرم، وبقي السيف يعمل فيها ٣٤ يوماً. وآخر جمعة خطب الخطيب ببغداد كانت الخطبة: (الحمد لله الذي هدم بالموت مشيد الأعمار، وحكم بالفناء على أهل هذه الدار... إلى أن قال: اللهم أجرنا في مصيبتنا التي لم يصب الإسلام وأهله بمثلها. وإنا لله وإنا إليه راجعون).

عمل الخائن الخواجة نصير الدين الطوسي الرصد بمدينة مراغة في سنة ٦٥٧هـ، ونقل إليه شيئاً كثيراً من كتب الأوقاف التي كانت ببغداد، وعمل دار حكمة، ورتب فيها فلاسفة، ورتب لكل واحد في اليوم والليلة ثلاثة

دراهم. ودار طب، فيها للطبيب في اليوم درهمان. ومدرسة، لكل فقيه في اليوم درهم. ودار حديث، لكل محدث نصف درهم في اليوم.

وواكبت اللغة العربية، بحزن شديد، نكبة الإسلام، بسقوط بغداد أمّ الدنيا وحاضرة حواضر العالم الإسلامي. فمثل الشعراء والعلماء قصائد في مراثي بغداد وأهلها. وعمل الشيخ تقي الدين إسماعيل بن عبد الله التنوخي قصيدته المشهورة، وهي:

لسائل الدمع عن بغداد أخبار ... فما وقوفك والأحباب قد ساروا

يا زائرين إلى الزوراء لا تفدوا ... فما بذاك الحمى والدار ديّارُ

تاج الخلافة والربع الذي شرفت ... به المعالم قد عفّاه إقفار

أضحى لعطف البلى في ربعه أثر ... وللدموع على الآثار آثار

يا نار قلبي من نار لحرب وغى ... شبّت عليه ووافى الربع إعصار

علا الصليب على أعلى منابرها ... وقام بالأمر من يحويه زنار

وكم بدور على البدرية انخسفت ... ولم يعد لبدور منه إبدار

وكم ذخائر أضحت وهي شائعة ... من النهّاب وقد حازته كفّار

وكم حدود أقيمت من سيوفهم ... على الرقاب، وحطّت فيه أوزار

وهم يُساقون للموت الذي شهدوا ... النار يا رب من هذا ولا العار

والله يعلم أن القوم أغفلهم ... ما كان من نعم فيهن إكثارُ

فأهملوا جانب الجبّار، إذ غفلوا ... فجاءهم من جنود الكفر جبّارُ

يا للرجال بأحداث تحدثنا ... بما غدا فيه إعذار وإنذار

من بعد أسر بني العباس كلهم ... فلا أنار لوجه الصبح إسفار

ما راق لي قط شيء بعد بينهم ... إلا أحاديث أرويها وآثار

لم يبق للدين والدنيا وقد ذهبوا ... سوق لمجد وقد بانوا وقد باروا

إن القيامة في بغداد قد وجدت ... وحدها حين للإقبال إدبار

آل النبي وأهل العلم قد سُلبوا ... فمن ترى بعدهم تحويه أمصار

ما كنت أمل أن أبقى وقد ذهبوا ... لكن أبى دون ما أختار أقدار

وقال غيره في فقد الخلافة من بغداد بيتاً مفرداً وأجاد:

خلت المنابرُ والأسرّة منهم ... فعليهمُ حتى الممات سلامُ

وقال سيط التعاويذيّ في دمار بغداد من أجل بقاء ابن العلقمي:

بادت وأهلوها معاً فبيوتهم ... ببقاء مولانا الوزير خرابُ

وهكذا، لم تمض إلا بضعة أسابيع حتى دخل التتار بغداد، وقتلوا كل من استطاعوا قتله من أهلها، وكان ضحايا هذه المجزرة الجماعية ثماني مئة ألف إنسان، ولم ينجُ من الناس إلا أهل الذمة من اليهود والنصارى، وبعض التجار، ومن التجأ إلى دار الوزير ابن العلقمي، وامتلأت بغداد بالجثث حتى صارت كالتلال والجبال في الطرقات،

وتعفنت الأشلاء، وتلوث الهواء: فانتشر الطاعون في بغداد، فمات منه خلق كثير. وكان كثير من الناس قد اختبؤوا في الآبار وقنوات الأوساخ والنجاسات، فلما تودي في بغداد بالأمان، خرجوا كأنهم الموتى من قبورهم لا يعرف الوالد ولده، ثم أخذهم الطاعون فألحقهم بمن سبقهم، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وبعد سقوط بغداد: فوض الطاغية هولاكو أمرها إلى الأمير (علي بهادر)، وجعل معه الوزير ابن العلقمي الذي كان يطمع في الملك، فأخزاه الله في الدنيا ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ (فصلت: ١٦)، ولما لم يحصل له الملك، انقطع في داره فمات هماً وكمداً، ثم تولى الوزارة بعده ولده الخبيث فأخذه الله سريعاً وألحقه بوالده، ثم قرر هولاكو مغادرة بغداد بعد أن صارت خراباً فخرج إلى أذربيجان، وبدأت استعداداته للمرحلة الثالثة من الحملة، وهي غزو سوريا وفلسطين ومصر.

التحالف الصليبيّ المغوليّ:

كان هولاكو حفيد جنكيز خان معلناً بدينه الشاماني (عبادة الشمس)، لكنه كان متسامحاً مع النصرانية؛ والسبب في ذلك أن أمه "سورغاختاني – بيكي"، وزوجته المفضلة "دقوز خاتون"، والعديد من معاونيه المقربين كانوا نصارى نسطوريين، بل إنّ واحداً من أهم جنرالاته هو القائد "كتبغانويين"، كان نصرانياً نسطورية.

صار التعاون العسكري بين المغول وبين توابعهم النصارى الصليبيين متيناً وكبيراً في المدة ما بين ١٢٥٨–١٢٦٠م. تمكن جيش هولاكو بمساندة قوات النصارى من البلاد الخاضعة له: بوهيموند الرابع ملك أنطاكيا الصليبي، وهيثوم الأول ملك أرمينيا، ونصارى جورجيا، من التحطيم الكامل لاثنين من أهم السلالات الإسلامية آنذاك: السلالة العباسية في بغداد، والأيوبية في سوريا.

وعلى الرغم من توغل جيوش المغول شرقي أوروبا والعالم الإسلامي، كان الصليبيون يأملون في التحالف مع المغول ضد العالم الإسلامي، وخضعت مملكة قليقيا بإرادتها للمغول في عام١٢٤٧م، وقام "هيثوم" ملك أرمينيا الصغرى بزيارة "قاراقوروم" عاصمة المغول في عام ١٢٥٤م، (بعد أربع سنوات من إخفاق الحملة الصليبية السابعة)؛ وأرسل لويس التاسع من عكا الكاهن الفرنسيسكاني "وليم أوف روبروك" إلى عاصمة المغول في عام ١٢٥٣م للتشاور، وكان وليم هذا يصحب لويس في مصر في أثناء حملته عليها. فقد كان من ضمن أهداف الحملة الصليبية السابعة على مصر بقيادة لويس التاسع إنشاء حلف صليبي – مغولي ضد العالم الإسلامي.

اجتاح المغول بغداد في عام ١٢٥٨م، عاصمة الخلافة الإسلامية ومركز العلوم والمعرفة في العالم الإسلامي، ودمروها، وأسقطوا معها الخلافة العباسية، وقتلوا أعداداً غفيرة من علمائها المسلمين، ودمروا المكتبات بما فيها من أعمال وإنجازات علمية لا تعوض، فانمحى بذلك جزء كبير من التراث الثقافي والعلمي للمسلمين. ومن ثم احتلو بلاد الشام ودمروها.

بغداد؛ حاضرة العباسيين وعاصمتهم، جوهرة الإسلام، وواحدة من أعظم مدائن العالم وأكبرها قرابة ٥٠٠ سنة، سقطت في ١٥ شباط ١٢٥٨م، الحادثة التي تعدّ النكبة الكبرى في تاريخ الإسلام. كان نصارى جورجيا هم أول من صدّع جدران المدينة، وكما يصفهم المؤرخ ستيفن رانسيمان: (كانوا من أشرس الناس في تحطيمها). وعندما استولى هولاكو على المدينة، قام المغول بتدمير مبانيها، وحرقوا ما بجوارها، وذبحوا قرابة ٨٠٠ ألفاً من الرجال والنساء والأطفال على أقل تقدير. لكن بتدخل زوجة هولاكو النسطورية النصرانية دقوز خاتون، أبقى على حياة السكان النصارى.

بالنسبة الى النصارى الآسيويين، يُعدّ سقوط بغداد سبباً للابتهاج والاحتفال. صار (هولاكو وملكته دقوز خاتون) وكلاء الربّ ضد أعداء النصرانية. ووُصف الزوجان المغوليان، من قبل المؤرخين الأرمن، على أنهما "قسطنطين وهيلين" الجُدد بالنسبة إلى الكنيسة الأرمنية (قسطنطين هو أول إمبراطور روماني يعتنق النصرانية مع زوجته هيلين) بل ظهر الزوجان المغوليان في صور وهما يمثلان "قسطنطين وهيلين". وأشار قسيس من الكنيسة الأرثوذوكسية السريانية على أنهما "قسطنطين وهيلين"، وكُتب عن هولاكو بأنه لا يُضاهي ملك الملوك هذا أحدٌ في حكمته، وفي عقله الراجح، وفي أعماله الباهرة!!!

التحالف النصرانيّ المغوليّ "هولاكو وملكته دقوز خاتون" وهما مُصوّران باحتفاء على أنهما "قسطنطين وهيلين" الجُدد، كما يظهران في إنجيل باللغة السريانية

تحت ظلّ جنكيز خان: زار الرئيسُ الأمريكي (هولاكو بوش) رئيسَ منغوليا المغولي (أولانباتار) في ٢٠٠٥/١١/٢١؛ ليُنسّق أمور سقوط بغداد في ٢٠٠٣م!

التاريخ يُعيد نفسه. فما أشبه اليوم بالبارحة! وهل يَلام من يسمّون الرئيس الأمريكي هولاكو- بوش.

الرئيس بوش في أثناء زيارته إلى منغوليا (في ٢٠٠٥/١١/٢١م)،
وهو يلتقي بالممثلين المغول في أثناء أدائهم السينمائي لبعث تراث جنكيز خان

عين جالوت: المعركة الفاصلية العالمية الكبرى، وفاتحة الانتصارات الإسلامية

كان مسار الأحداث التي زلزلت العالم الإسلامي يجري بسرعة متقطعة النظير. وحسب المصادر العربية الموثقة للتاريخ الإسلامي لـ (البداية والنهاية) لابن كثير، و(النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة) لابن تغري بردي، مطعمة بمقتطفات من المصادر العربية والغربية الأخرى، فإنّ مسار الأحداث هو كما يأتي:

سقوط الشام (ميافارقين، حلب، دمشق) وهروب أهاليها إلى مصر:

قدم رسول من ملك التتار تولى بن جنكيز خان إلى ملوك الإسلام؛ يدعوهم إلى طاعته ويأمرهم بتخريب أسوار بلدانهم، وعنوان الكتاب: (من نائب رب السماء، ماسح وجه الأرض، ملك الشرق والغرب قان قان). و قبل هولاكو خان، فقصد الشام بجنوده وعساكره، وقد امتنعت عليه ميافارقين مدة سنة ونصف (ولم يسعفها أحد من بلاد الشام)، فأرسل إليها ولده أشموط، فافتتحها قسراً، وأنزل ملكها المجاهد البطل الكامل بن الشهاب غازي بن العادل، فأرسله إلى أبيه وهو محاصر حلب فقتله بين يديه، واستناب عليها بعض مماليك الأشرف (ملك حمص الذي اجبر للتعاون مع التتار)، وطوف برأس الكامل في البلاد. ودخلوا برأسه إلى دمشق، فنصب على باب الفراديس البراني، ثم دفن بمسجد الرأس داخل باب الفراديس الجواني. فنظم أبو شامة في ذلك قصيدة يذكر فيها فضله وجهاده، وشبهه بالحسين في قتله مظلوماً ودفن رأسه عند رأسه.

بطل ميافارقين: اسطورة الشهيد الذي دوّخ المغول:

خرج حفيد صلاح الدين الأيوبي، في زمن عز فيه الرجال؛ ليقاوم التتار على الرغم من خذلان المسلمين المجاورين له. إنه الملك الكامل الشهيد ناصر الدين محمد بن الملك المظفر شهاب الدين غازي بن السلطان الملك العادل أبي بكر محمد ابن أيوب. تملك ميافارقين عام ٦٤٥هـ عقيب وفاة والده، ودام في الملك سنين إلى أن جفل من التتار بعد أن كان يداريهم سنين، وقدم على الملك الناصر صلاح الدين يوسف بدمشق عام ٦٥٦هـ بعد سقوط بغداد، واستنجده على التتار فوعده الناصر بالنجدة لدون أن يوفي بوعده، وآخر الأمر أنه رجع إلى بلاده وحصره التتار بها نحو سنتين حتى استشهد بأيديهم – رحمه الله تعالى – عام ٦٥٨هـ.

لما وصلت الأنباء إلى الملك الكامل محمد بسقوط بغداد، أعد العدة للجهاد، ولما بلغ الأمر إلى هولاكو، أراد أن يقتّ في ساعد الملك الكامل، فارسل إليه رسولاً يوحي إليه بالاستسلام كغيره من الأمراء الأيوبيين، وكان

الرسول يكون نصرانياً عربياً اسمه "قسيس يعقوبي" وذلك لأمرين: حتى يستطيع التفاهم مع الملك الكامل بلغته، والأمر الثاني: لتوصيل رسالة غير مباشرة إلى الكامل أن النصارى مع هولاكو. فوقع الكامل بين أرمينيا النصرانية المتحالفة مع التتار من الشرق، والكرج النصرانية في الشمال الشرقي، ومن الجنوب الشرقي التتار. إلا أن كل هذا لم يفتّ في ساعد الملك الكامل. ولكي يعلن الحرب على التتار، ولا يعطي فرصة لنفسه أو لمن معه بالتخاذل، فقد أقدم على قتل الرسول معلناً بذلك الحرب على التتار. (قصة التتار للدكتور راغب السرجاني)

يقول الذهبي في "سير أعلام النبلاء": (فحاصره عسكر هولاكو نحواً من عشرين شهراً، حتى فني الناس جوعاً وبأء، وحتى لم يبق بالبلد سوى سبعين رجلاً فيما قيل، فحدثني الشيخ محمود بن عبد الكريم الفارقي، قال:

سار الكامل إلى قلاع بنواحي آمد فأخذها، ثم نقل إليها أهله، وكان أبي في خدمته، فرحل بنا إلى قلعة منها، فعبرت التتار علينا، فاستنزلوا أهل الملك الكامل بالأمان من قلعة أخرى، وردوا بهم علينا، وأنا صبي مميز، وحاصروا ميافارقين أشهراً، فنزل عليهم الثلج، وهلك بعضهم، وكان الكامل يبرز إليهم ويقاتلهم، وينكي فيهم فيهابوه، ثم بنوا عليهم سوراً بإزاء البلد، بأبرجة، وتفدت الأقوات، حتى كان الرجل يموت فيؤكل، ووقع فيهم الموت، وفتر عنهم التتار وصابروهم، فخرج إليهم غلام أو أكثر وجلوا للتتار أمر البلد، فما صدقوا، ثم قربوا من السور وبقوا أياماً لا يجسرون على الهجوم، فدلي إليهم مملوك للكامل حبالاً فطلعوا إلى السور فبقوا أسبوعاً لا يجسرون، وبغي بالبلد نحو التسعين بعد الوف من الناس، فدخلت التتار دار الكامل وآمنوه، وأتوا به هولاكو بطرها، فإذا هو يشرب الخمر، فناول الكامل كأساً فأبى، وقال: هذا حرام، فقال لامرأته: ناوليه أنت، فناولته فأبى، وشتم وبصق – فيما قيل – في وجه هولاكو. وكان الكامل ممن سار قبل ذلك ورأى القان الكبير، وفي اصطلاحهم، من رأى وجه القان لا يقتل، فلما واجه هولاكو بهذا استشاط غضباً وقتله).

يقول الذهبي في "سير أعلام النبلاء": (كان شاباً، عاقلاً، شجاعاً، مهيباً، محسناً إلى رعيته، مجاهداً، غازياً، ديّناً، تقيّاً، حميد الطريقة. وكان الكامل شديد البأس، قوي النفس، لم ينقهر للتتار، حتى إنهم أخذوا أولاده من حصنهم، وأتوه بهم إلى تحت سور ميافارقين، وكلموه أن يسلم البلد بالأمان، فقال: ما لكم عندي إلا السيف).

يقول الصفدي في كتابه "الوافي بالوفيات" عن الملك المظفر محمد بن غازي: (كان ملكاً جليلاً ديناً خيراً عالماً مهيباً شجاعاً، محسناً إلى الرعية، كثير التعبد والخشوع، لم يكن في بيته من يضاهيه. ومدحه الشعراء: لمواقفه المحمودة وصموده في وجه التتار، فقالوا:

ابن غازٍ غزا وجاهد قوماً	اثخنوا في العراق والمشرقين
ظاهراً غالباً وعاد شهيداً	بعد صبرٍ عليهم عامين
لم يشنه أن طيف برأس منه	فله أسوة برأس الحسين
وافق السيف في الشهادة	لقد حاز أجره مرتين
جمع الله حسن زين الشهيدين	على فتح تينك القلعتين
ثم واروا في مشهد الرأس ذاك	الرأس فاستعجبوا من الحالين
وارتجوا أنه يجيء لدى البعث	رفيق الحسين في الجنتين)

يقول الذهبي: طيف برأسه بدمشق بالطبول، وعلق على باب الفراديس، فلما انقلعوا، وجاء المظفر لقطز دفن الرأس.

أرسل هولاكو في عام ٦٥٧هـ (بعد سقوط بغداد) إلى الملك الناصر صاحب دمشق يستدعيه إليه فأرسل إليه ولده العزيز وهو صغير ومعه هدايا كثيرة وتحف، فلم يحتفل به هولاكو بل غضب على أبيه: إذ لم يُقبل إليه بنفسه، وأخذ ابنه، وقال: أنا أسير إلى بلاده بنفسي. فانزعج الناصر لذلك، وبعث بحريمه وأهله إلى الكرك ليحصنهم بها، وخاف أهل دمشق خوفاً شديداً، ولا سيما لما بلغهم أن التتار قد قطعوا الفرات، فسافر كثير منهم إلى مصر في زمن الشتاء، فمات ناس كثير منهم ونهبوا. فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولا بد من استشراء المفاسد في الشام (كما في العراق) مع انتشار الظلم، لتستوجب غضب الله بتسليط الأعداء عليهم، ويصف الذهبي في "تاريخ الإسلام" مفاسد دمشق تحت أحداث عام ٦٥٥هـ: (قال ابن حَمُّوَيْه بعد أن ترك الجندية وتصوّف في "تاريخه": ولما عاندني الدهر في أموري، وباعد سروري، وكدّر مشاربي، وحسّر مآربي، وانقطعت الأرزاق، وانحلّ كيس الإنفاق، خرجت من مصر، فلما حللت بدمشق، مسقط رأسي، وجدها وقد صوّح واديها، وخلا من الأنيس ناديها، وارتفعت عنها البركات، وأحيط بها الظلم والظلمات. والأسواق كاسدة، والرعايا فاسدة. عدم ركبا، وظهرت الخيانات وشغل المودف، وعلت المنكرات، وأحدث من الرسوم ما لم يعهد، وحملوا أثقالاً مع الثقالم. إن استغاثوا بالملك أجابهم بالضرب والرد، وإن استنجدوا بالوزير عاملهم بالإعراض والصد، وإن سألوا الحاجب طلب الرشا بلا حمد. إلى أن قال: لا يحضرهم أحد على مائدة، ولا يرجع من عندهم بفائدة. قوم إذا أكلوا أخفوا كلامهم واستوثقوا من رتاج الباب والدار، يكذبون ويحلفون، ويغدرون ويُخْلِفون، وعلى حريم أصحابهم بالفاحشة يحلفون. قد قنع كل منهم بلومه، ولف ذنبه على خيشومه. قيل لوزيرهم: إنا نطيل الجلوس، فلو جعلت علامة لقيامنا. قال: إذا قلت، يا غلام، هات الغداء، فانصرفوا. وقال صاحب ديوانهم لغلامه: هات غدائي وأغلق الباب. فقال: بل أغلق الباب وأجيء بالطعام. قال: أنت حر لوجه الله بعد موتك. وحضر شاعر مائدة أكبر أمرائهم، فرمى لقمة للهر، فقال الأمير: لا تطعمها فإنها هرة جيراننا. ومن غرائب الظلم أن رجلاً جاء بحمل عسل، فأخذ للخوشخاناه، فطولب بمكس العسل، فقال: خذوا من تحت أيديكم. قالوا: ما نعرف ما تقول. فذهب بالبغل يبيعه، فأخذه أمير الإصطبل وطولب بحقه في السوق، فقال: ادفعوا لي ثمنه وخذوا حقكم. قالوا: ما نعلم ما تقول. وحبسوه على مكسه. فكتب إلى أهله: أنفذوا لي دراهم حتى أستفك روحي، فقد راح العسل والبغل، وأنا محبوس على المكس. ومما يناسب هذه الحكاية أن امرأة ذهب عنها حُلِيٌّ بخمسة آلاف، فوجده منادٍ يسوق الرحبة فرده عليها، فوهبته خمس مئة درهم، فتمنع وقال: إنما رددته لله. فالزمته فأخذ الدراهم. فسمع به الوالي فأحضره وأخذ منه الدراهم وضربه وقال: ليش ما جيت بالحُلِيّ إلى عندنا؟).

يقول الذهبي في "تاريخ الإسلام" تحت أحداث ٦٥٦هـ:

(**اكتاب هولاكو إلى صاحب الشام**) وفيها جاءت رسل قاآن من بلاد ما وراء النهر ورسل هولاكو إلى صاحب الشام، فصورة كتاب هولاكو:

"يعلم السلطان الملك الناصر – طال بقاؤه – أنه لما توجهنا إلى العراق وخرج إلينا جنودهم، فقتلناهم بسيف الله تعالى، ثم خرج إلينا رؤساء البلد ومقدموها، فكان قصارى كلامهم سبباً لهلاك نفوسهم يستحق الإذلال، فأعدمناهم أجمعين، وذلك بما قدمت أيديهم وبما كانوا يكسبون. وأما ما كان من صاحب البلدة، فإنه خرج إلى خدمتنا، ودخل تحت عبوديتنا، فسألناه عن أشياء كذبنا فيها، فاستحق الإعدام. وكان كذبه ظاهر، ووجدوا ما عملوا حاضراً. أجب ملك البسيطة، ولا تقولن: قلاعي المانعات ورجالي المقاتلات. ولقد بلغنا أن شذرات من العسكر التجأت إليك هاربة، وإلى جنابك لائذة،

(أيـــن المفـــرُّ ولا مفـــرَّ لهـــاربٍ ... ولنـــا البســـيطان الثـــرى والمـــاءُ)

فساعة وقوفك على كتابنا تجعل قلاع الشام سماها أرضاً، وطولها عرضاً، والسلام. ومن كتاب ثان: خدمة ملك ناصر -طال عمره. أما بعد، فإنا فتحنا بغداد، واستأصلنا ملكها وملكها، وكان ظن وقد ضن بالأموال، ولن ينافس في الرجال أن ملكه يبقى على ذلك الحال، وقد علا ذكره، ونما قدره، فخسف في الكمال بدره،

(إذا تمّ أمـــرٌ بـــدا نقصُـــهُ ... توقّـــعُ زوالاً إذا قيـــل تـــمّ)

ونحن في طلب الازدياد، على ممر الآباد، فلا تكن كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، وأبد ما في نفسك، إما عسالك بمعروف أو تسريح بإحسان. أجب ملك البسيطة تأمن شره، وتنلْ بِرّه، واسع إليه برجالك وأموالك، ولا تعوق رسولنا، والسلام.

[وصول فرسان من العراق إلى دمشق] ووصل نحو خمس مئة فارس من عسكر العراق، ذكروا أن التتار حالوا بينهم وبين بغداد. ثم جاء بعدهم نحو ثلاث مئة فارس إلى دمشق.

[اشتداد الوباء بالشام] واشتد الوباء بالشام في أثناء السنة، ومات خلق حتى لقد قيل: إنه خرج من حلب في يوم واحد ألف وستا جنازة. وأما دمشق فكان فيها من المرض ما لا يحد ولا يوصف، واستغنى العطارون، ونفدت الأدوية، وعز الأطباء إلى الغاية. وبيع الفروج بدمشق بثلاثة دراهم، وبحلب بعشرة دراهم. ومبدأ الوباء في جمادى الأولى لفساد الهواء بملحمة بغداد، انتهى

وعرض طاعون بالشام عقيب ما حدث في العراق، فطعن الناصر داود في جنبه (وهو الذي حرر القدس من الصليبيين ثم أرجعها لهم، وهو الذي اعتقل الملك الصالح أيوب ثم أطلق سراحه). قال ابن واصل: وكثر الطاعون بالشام مع بعد مسافة بغداد. وحكى جالينوس أنه وقعت ملحمة في بلاد اليونان، فوقع الوباء بسببها في بلاد النوبة مع بعد المسافة.

قال ابن واصل: حكى لي عبد الله بن فضل أحد ألزام الناصر داود، قال: اشتد الوباء فتسخطنا، فقال لنا الناصر: لا تفعلوا، فإنه لما وقع بمعواس زمن عمر ﷺ قال بعض الناس: هذا رجز، فذكر الخبر بطوله. وأن معاذاً قال: اللّهُمّ أدْخِل على آل مُعاذ منه أوْفى نصيب. فمات مُعاذ وابنُه. ثم ابتهل الناصر، وقال: اللّهُمّ اجعلنا منهم وارزُقنا ما رزقتهم ثم أصبح من الغد أو بعده مطعوناً. وقال ابن واصل: عُمُرُهُ نحو ثلاث وخمسين سنة، وكان قد استولى عليه الشيب سشيلاء كثيراً، رحمه الله لوهذا من تطهير الله له. غفر الله ذنبه).

تواترت الأخبار، في بداية ٦٥٨هـ، أنّ المغول بصحبة ملكهم هولاكو خان جازوا الفرات على جسور عملوها، ووصلوا إلى حلب في ثاني صفر من هذه السنة، وقد كان أرسل هولاكو يقول لأهل حلب: نحن إنما جئنا لقتال الملك الناصر بدمشق، فاجعلوا لنا عندكم شحنة، فإن كانت النصرة لنا فالبلاد كلها في حكمنا، وإن كانت علينا، فإن شئتم قبلتم الشحنة، وإن شئتم أطلقتموه. فأجابوه ما لك عندنا إلا السيف، فتعجب من ضعفهم بجوابهم، فزحف حينئذ إليهم وأحاط بالبلد، وكان ما كان بقدر الله سبحانه. فحاصروها سبعة أيام ثم افتتحوها بالأمان، ثم غدروا بأهلها وقتلوا منهم خلقاً لا يعلمهم إلا الله عز وجل، ونهبوا الأموال، وسبوا النساء والأطفال، يجرى عليهم قريب مما جرى على أهل بغداد، فجاسوا خلال الديار، وجعلوا أعزة أهلها أذلة، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وامتنعت عليه القلعة شهراً ثم تسلموها بالأمان. وخرب أسوار البلد وأسوار القلعة، وبقيت حلب كأنها حمار أجرب، وكان نائبها الملك المعظم توران شاه بن صلاح الدين وكان عاقلاً حازماً، لكنه لم يوافقه الجيش على القتال، وكان أمر الله قدراً مقدوراً. ولما فتحت حلب أرسل صاحب حماه بمفاتيحها إلى هولاكو، فاستناب عليها

رجلاً من العجم يدّعي أنه من ذرية خالد ابن الوليد يقال له: خسروشاه، فخرب أسوارها كمدينة حلب. (البداية والنهاية ج١٣/ص ٢٥٤)

يقول عمر بن أحمد الحلبي، المعروف بابن النديم الذي قدم مصر لما جفل الناس من التتر ثم عاد بعد خراب حلب إليها، فصُدع بما رأى، وقال قصيدته المحزنة (وتوفي بعد ذلك بالقاهرة ٦٦٠هـ بعد أن أنعم الله على المسلمين في معركة عين جالوت) قال في حلب:

هو الدهر ما تبنيه كفّاك يهدم ... وإن رمت إنصافاً لديه فتظلم
أباد ملوك الفرس جمعاً وقيصراً ... وأصمت لدى فرسانها منه أسهم
وأفنى بني أيوب مع كثرة جمعهم ... وما منهم إلا عليك معظم
وملك بني العباس زال، ولم يدع ... لهم أثراً من بعدهم وهم هم
وأعتابهم أضحت شداسٌ وعهدها ... تباس بأفواه الملوك وتلثم
وعن حلب ما شئت قل من عجائب ... أحل بها يا صاح، إن كنت تعلم
فيا لك من يوم شديد لغامه ... قد أصبحت فيه المساجد تهدم
وقد درست تلك المدارس وارتمت ... مصاحفها فوق الثرى وهي ضخم
ولكنما لله في ذا مشيئة ... فيفعل فينا ما يشاء ويحكم

ارسل هولاكو، وهو نازل على حلب جيشاً مع أمير من كبار دولته يقال له كتبغانوين: فوردوا دمشق في آخر صفر فأخذوها سريعاً من غير ممانعة ولا مدافع، بل تلقاهم كبارها بالرحب والسعة. وقد كتب هولاكو أماناً لأهل البلد، فقرئ بالميدان الأخضر ونودي به في البلد، فأمن الناس على وجل من الغدر، كما فعل بأهل حلب، هذا والقلعة ممتنعة مستورة، وفي أعاليها المجانيق منصوبة، والحال شديدة، فأحضرت التتار منجنيقاً يحمل على عجل والخيول تجرها، وهم راكبون على الخيل وأسلحتهم على أبهار كثيرة، فنصب المجانيق على القلعة من غربيها، وخربوا حيطاناً كثيرة، وأخذوا حجارتها، ورموا بها القلعة رمياً متواتراً كالمطر المتدارك، فهدموا كثيراً من أعاليها وشرفاتها وتداعت، فأجابهم متوليها في آخر ذلك النهار للمصالحة، فتحوها وخربوا كل بدنة فيها، وأعالي بروجها، وذلك في نصف جمادى الأولى من هذه السنة. وقتلوا المتولي بها بدر الدين بن قراجا، وسبيها جمال الدين بن الصيرفي الحلبي، وسلموا البلد والقلعة إلى أمير منهم يقال له: إبل ميان، وكان – لعنه الله – معظماً لدين النصارى، فاجتمع به أساقفتهم وقسوسهم، فعظمهم جداً، وزار كنائسهم، فصارت لهم دولة وصولة بحبه.

وذهب طائفة من النصارى إلى هولاكو، وأخذوا معهم هدايا وتحفاً، وقدموا من عنده، ومعهم أمان فرمان من جهته، ودخلوا من باب توما، ومعهم صليب منصوب يحملونه على رؤوس الناس، وهم ينادون بشعارهم، ويقولون (ظهر الدين الصحيح دين المسيح). ويذمّون دين الإسلام وأهله، ومعهم أواني فيها خمر لا يمرون على باب مسجد إلا رشوا عنده خمراً، وقماقم ممتلئة خمراً يرشون منها على وجوه الناس وثيابهم، ويأمرون كل من يجتازون به في الأزقة والأسواق أن يقوم لصليبهم.

ورحل الملك الناصر صلاح الدين يوسف الأيوبي (باسم جده صلاح الدين، لكنه اسم هذا دون مسمّاه) ملك دمشق آنذاك إلى الديار المصرية خائفاً من التتار، وكان ضعيف الهمة غير ثابت الرأي. ولما تحقق الناصر بحركة التتار، رحل إلى "برزة" شمالي دمشق ونزل بها بعساكره، واجتمع إليه أمم عظيمة من العرب والعجم والتركمان والأتراك والمطوعة، فلم يعجب الناصر حاله؛ لتخوفه لما رأى من تخاذل عسكره، وعلم أنه إذا لاقى التتار لن يثبت

عسكره لهم لكثرتهم ولقوتهم. فإن هولاكو في خلق لا يحصيهم إلا الله تعالى من المغول والكرج والعجم وغيرهم. وأما هولاكو، فإنه مازال يأخذ بلداً بعد أخرى إلى أن استولى على حلب والشام واضمحل أمر الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب الشام بعد أمور ووقائع وقعت له وانفل عنه أصحابه. فلما وقع ذلك فارقه الأمير بيبرس البندقداري إلى مصر (انظر نهاية الناصر يوسف تحت عين جالوت).

السلطان المظفر قطز: الرجل المناسب للمقام المناسب وللوقت المناسب

وقدم القاضي الوزير كمال الدين عمر بن أبي جرادة المعروف بابن العديم إلى الديار المصرية رسولاً من صاحب دمشق الناصر بن العزيز، يستنجد المصريين على قتال التتار، وأنهم قد اقترب قدومهم إلى الشام، وقد استولوا على بلاد الجزيرة وغيرها. واستفحل أمر قطز بديار مصر، وصار هو المشار إليه فيها؛ لصغر الملك المنصور علي ولكثرة حواشي قطز، ثم تحقق قطز مجيء التتار إلى البلاد الشامية، وعلم أنه لا بد من خروجه من الديار المصرية بالعساكر للذب عن المسلمين. فرأى أنه لا يقع له ذلك. فإن الآراء مغلولة لصغر السلطان ولاختلاف الكلمة.

فجمع قطز كمال الدين بن العديم الحنفي وغيره من الأعيان والأمراء بالديار المصرية وعرفهم أن الملك المنصور هذا صبي لا يحسن التدبير في مثل هذا الوقت الصعب، ولا بد أن يقوم بأمر الملك رجل شهم يطيعه كل أحد وينتصب للجهاد في التتار. وبان عذر قطز الذي اعتذر به إلى الفقهاء والقضاة وإلى ابن العديم، حين قال: (لا بد للناس من سلطان قاهر يقاتل عن المسلمين عدوهم، وهذا صبي صغير لا يعرف تدبير المملكة).

فأجابه الجميع: ليس لها غيرك!

وخلع الملك المنصور في الحال من الملك. وبويع الأمير قطز ولقب بالملك المظفر سيف الدين قطز. وحلف قطز الناس لنفسه وتم أمره، وذلك في يوم السبت سابع عشر ذي القعدة سنة ٦٥٧هـ؛ ولهذا قبض الأمير سيف الدين قطز على ابن أستاذه أيبك: نور الدين علي الملقب بالمنصور (البالغ من العمر ١٥ سنة)، واعتقله مع والدته بالدور السلطانية من قلعة الجبل. فلما تمسكه، سيره مع أمه وابنيه وأخوته إلى بلاد الإشكري، وتسلطن هو، وسمى نفسه بالملك المظفر. وكان هذا من رحمة الله بالمسلمين، فإن الله جعل على يديه كسر التتار (وسيأتي بيانه إن شاء الله تعالى).

ولم يكن قطز أصلاً من الرقيق. حكى الشيخ شمس الدين الجزري في تاريخه عن أبيه قال: كان قطز في خدمة ابن الزعيم بدمشق في القصاعين، فضربه أستاذه فبكى، ولم يأكل شيئاً يومه، ثم ركب أستاذه للخدمة وأمر الفراش أن يترضاه ويطعمه، قال: فحدثني الحاج علي الفراش، قال: فجئته، وقلت: ما هذا البكاء من لطشة (أي لطمة)، فقال: إنما بكائي من لعنة أبي وجدي وهم خير منه، فقلت: من أبوك؟ واحد كافر! فقال: والله، ما أنا إلا مسلم ابن مسلم، أنا محمود ابن ممدود، ابن أخت خوارزم شاه من أولاد الملوك، فسكته وترضيته، وتنقلت به الأحوال إلى أن تملك مصر، ولما تملك أحسن إلى الحاج علي الفراش المذكور وأعطاه خمس مئة دينار وعمل له راتباً.

وعن حسام الدين البركتخاني، قال: تسلطن قطز وتملك الديار المصرية ويكسر التتار. قال تاج الدين ابن الأثير: فبقيت متعجباً من حديثه، وقلت له: أيش هذا القول، ومن أين لك هذا؟ قال: والله هذا قطز خشداشي، كنت أنا وإياه عند الهيجاوي من أمراء مصر ونحن صبيان، وكان عليه قمل كثير، فكنت أسرّح رأسه، على أني كلما أخذت منه قملة أخذت منه فلساً أو صفعته، ثم قلت في أثناء ذلك: والله، ما أشتهي إلا أن الله يرزقني إمرة خمسين فارساً، فقال لي: طيّب قليك، أنا أعطيك إمرة خمسين فارساً فصفعته، وقلت: أنت تعطيني إمرة خمسين! قال: نعم، فصفعته، فقال لي: والك علة! أيش يلزم لك إلا إمرة خمسين فارساً، أنا والله أعطيك، قلت:

ويلك! كيف تعطيني؟ قال: أنا أملك الديار المصرية وأكسر التتار وأعطيك الذي طلبت. قلت: ويلك أنت مجنون! أنت بقملك تملك الديار المصرية؟ قال: نعم. رأيت النبي ﷺ في المنام، وقال لي: «أنت تملك الديار المصرية وتكسر التتار»، وقول النبي ﷺ حق لا شك فيه، قال: فسكتُّ، وكنت أعرف منه الصدق في حديثه وعدم الكذب. قال تاج الدين: فلما قال لي هذا، قلت له: قد وردت الأخبار بأنه تسلطن. قال لي: والله وهو يكسر التتار.

قال تاج الدين: فرأيت حسام الدين البركخاني – الحاكي ذلك بالديار المصرية – بعد كسر التتار فسلم علي، وقال: يا مولاي تاج الدين، تذكر ما قلت لك في الوقت الفلاني. قلت: نعم. قال: والله، عندما عاد الملك الناصر من قطيا دخلت الديار المصرية فأعطاني إمرة خمسين فارسا كما قال لا زائد على ذلك.

وحكى عز الدين محمد بن أبي الهيجاء: أن الأمير بدر الدين بكتوت الأتابكي قال: كنتُ أنا والملك المظفر قطز والملك الظاهر بيبرس – رحمهما الله تعالى – في حال الصبا كثيراً ما نكون مجتمعين في ركوبنا وغير ذلك، فاتفق أن رأينا منجماً في بعض الطريق بالديار المصرية فقال له الملك المظفر قطز: أبصر نجمي. فضرب بالرمل وحسب، وقال: أنت تملك هذه البلاد وتكسر التتار، فشرعنا نهزأ به. ثم قال له الملك الظاهر بيبرس: أبصر نجمي. فقال: وأنت أيضاً تملك الديار المصرية وغيرها فتزايد استهزاؤنا به. ثم قالا لي: لا بد أن تبصر نجمك، فقلت له: أبصر لي نجمي. فحسب وقال: أنت تخلص لك إمرة مئة فارس يعطيك هذا، وأشار إلى الملك الظاهر. فاتفق أن وقع الأمر كما قال، ولم يحزم منه شيء. وهذا من عجيب الاتفاق.

يقول الإمام الذهبي في ترجمة قطز بن عبد الله في "تاريخ الإسلام" تحت وفيات عام ٦٥٨هـ: (قطز بن عبد الله: السلطان الشهيد الملك المظفر، سيف الدين المعزي. كان أكبر مماليك المعز أيبك التركماني، وكان بطلاً شجاعاً، مقداماً، حازماً، حسن التدبير، يرجع إلى دين وإسلام وخير، وله اليد البيضاء في جهاد التتار، فعوّض الله شبابه بالجنة. حكى شمس الدين بن الجزري في "تاريخه"، عن أبيه قال: كان قطز في رق ابن الزعيم بدمشق في القصاعين، فضربه أستاذه فبكى، ولم يأكل شيئاً يومه. ثم ركب أستاذه للخدمة، وأمر الفراس أن يترضاه ويطعمه. قال: فحدثني الحاج علي الفراش، قال: جئته فقلت: ما هذا البكاء، من لطشة؟ فقال: إنما بكائي من لعنة أبي وجدي، وهم خير منه. فقلت: من أبوك؟! واحد كافر. فقال: والله ما أنا إلا مسلم ابن مسلم، أنا محمود بن مودود، ابن أخت خوارزم شاه من أولاد الملوك. فسكتّ وترضيته وتنقلتُ به الأحوال إلى أن تملك. ولما تملك الشام أحسن إلى الحاج علي الفراش، وأعطاه خمس مئة دينار، وعمل له راتباً. قلت: وكان مدبر دولة أستاذه الملك المنصور علي بن المعز، فلما دهم العدو الشام رأى أن الوقت يحتاج إلى سلطان مهيب كامل الرجولية، فعزل الصبي من الملك وتسلطن، وتم له ذلك في أواخر سبع وخمسين ثم لم يبلغ ريقه، ولا تهنّى بالسلطنة حتى امتلأت الشامات المباركة بالتتار، فتجهز للجهاد، وشرع في أهبة الغزو، والتف عليه عسكر الشام وبايعوه، فسار بالجيوش في أوائل رمضان لقصد الشام، ونصر الإسلام، فعمل المصاف مع التتار، وعليهم كتبغا على عين جالوت، فنصره الله تعالى، وقتل مقدم التتار.

قال الشيخ قطب الدين: حكي عنه أنه قتل جواده يومئذ، ولم يصادف أحداً من الوشاقية، فبقي راجلاً، فمرّ به بعض الأمراء الشجعان، فترجل وقدم له حصانه، فامتنع وقال: ما كنت لأمنع المسلمين الانتفاع بك في هذا الوقت، ثم تلاحقت الوشاقية إليه. حدثني أبي أحمد أن الملك قطز لما رأى انكشافاً في ميسرته، رمى الخوذة عن رأسه وحمل وقال: (وا دين محمد). فكان النصر.

قال: وكان شاباً أشقر، كبير اللحية. قلت: ثم جهز الأمير ركن الدين بيبرس، أعني الملك الظاهر، في أقفية التتار، ووعده بنيابة حلب، فساق وراءهم إلى أن طردوهم عن الشام. ثم إنه أنشئ عزمه على إعطائه حلب، وولاها

لعلاء الدين بن صاحب الموصل، فتأثر ركن الدين من ذلك، ودخل الملك المظفر دمشق، فأحسن إلى الرعية، وأحبّوه حباً زائداً، ثم استناب على البلد علم الدين سنجر الحلبي، ورجع بعد شهر إلى مصر، فقتل بين الغرابي والصالحية في آخر الرمل ودفن بالقصير).

وقال ابن الجزري في "تاريخه": (حدثني أبي قال: حدثني أبو بكر بن الدريهم الإسعردي والزكي إبراهيم الحنيلي أستاذ الفارس اقطايا قال: كنا عند سيف الدين قطز لما تسلطن أستاذه المعز، وقد حضر عنده منجم مغربي، فصرف أكثر غلمانه، فأردنا القيام، فأمرنا بالقعود، ثم أمر المنجم فضرب الرمل. ثم قال: اضرب لمن يطلب بعد أستاذي، ومن يكسر التتار، فضرب، وبقي زماناً يحسب، وقال: يا خوند، يطلع معي خمس حروف بلا نقط بين خمس حروف بلا نقط. فقال: لم لا تقول محمود بن ممدود. فقال: يا خوند، لا يقع غير هذا الاسم. فقال: أنا هو، وأنا أكسرهم وآخذ بثأر خالي خوارزم شاه. فتعجبنا من كلامه وقلنا: إن شاء الله يكون هذا يا خوند. فقال: اكتموا هذا. وأعطى المنجم ثلاث مئة درهم). انتهى

غارات المغول العدوانية عام ١٢٦٠م على أرض المشرق.

ادت انتصارات المغول المبكرة على حلب ودمشق إلى هجمات صغيرة على اهداف ثانوية، مثل بعلبك، والصُبيبة، وعجلون، بالإضافة إلى غارات على المدن الفلسطينية، وربما شملت القدس أيضا. وبلغت غارات التتار إلى غزة وبلد الخليل عليه السلام، فقتلوا الرجال، وسبوا النساء والصبيان، واستاقوا من الأسرى والأبقار والأغنام والمواشي شيئاً كثيراً.

العدل المالي والاقتصادي أساس النصر والتمكين:

كان للنبي ﷺ وللخلفاء الراشدين من بعده، سياسة العدل في المال والغنائم، فلا تكاد الأموال والغنائم تصل، حتى يوزعوها كلها في الحال، بل لا يهنأ لهم بال ولا يناموا براحة إلا والمال كله قد توزع على الرجال، فلا يتملكون ولا يفتنون بالمال، لكنهم كسبوا قلوب الرجال بهذا العدل في توزيع المال، فكان الرجال يقاتلون بأرواحهم عند لقاء العدو، وكانت الانتصارات من الله، فجاء من بعدهم من لا همّ له الا جمع المال، والاغتناء به على حساب الرجال، فكسبوا عداوة قلوب الرجال، الذين خذلوهم عند لقاء العدو الذي استولى بدوره على المال كله، وبذلك أضاعوا المال والرجال والبلاد. فالعدل المالي لا يقل عن الجهاد بوصفه سببا أساسيا للنصر والتمكين، وهكذا كان نور الدين محمود القائد الزاهد، ففتح الله عليه، وهكذا كان صلاح الدين القائد الزاهد، ففتح الله عليه.

والتحضير لمعركة مصيرية مع المغول لاينفع معه مال الأمير ولا يغني عنه؛ لأنها معركة الوجود والأرض والعرض. وبعد وصول قطز إلى سدة حكم مصر، وظهور خطر التتار، ووصول أخبار فظائعهم ورسلهم المهددين وللاستعداد لملاقاة التتار الزاحفين، أمر قطز بجمع الأموال للإعداد للحرب، ووقف العلماء وعلى رأسهم العز بن عبد السلام أمام الأمراء وقادة الجند، فقرروا ألا يؤخذ من الناس شيء إلا إذا كان بيت المال فارغاً، وبعدما يخرج الأمراء والتجار وأغنياء الناس من أموالهم وذهبهم حتى يتساوى الجميع. فقال العز بن عبد السلام:

(إذا طرق العدو البلاد، وجب على العالم كله قتالهم (أي: العالم الإسلامي)، وجاز أن يؤخذ من الرعية ما يُستعان به على جهازهم (أي: فوق الزكاة) بشرط أن لا يبقى في بيت المال شيء (وهذا هو الشرط الأول)، وأن تبيعوا ما لكم من المتلكات والآلات (أي: يبيع الحكام والأمراء والوزراء ما يمتلكون)، ويقتصر كل منكم على فرسه وسلاحه، وتتساووا في ذلك أنتم والعامة (هذا هو الشرط الثاني)، وأما أخذ الأموال العامة مع بقاء ما في أيدي قادة الجند من الأموال والآلات الفاخرة، فلا!!!): بمعنى آخر: إذا لم يبق في بيت المال شيء، ثم أنفقتم أموال الحواصل المذهبة وغيرها من الفضة والزينة، وتساويتم أنتم والعامة في الملابس، سوى آلات الحرب حيث لم يبق للجندي سوى فرسه التي يركبها، ساغ للحاكم حينئذ أخذ شيء من أموال الناس (أي: فرض ضرائب) في دفع الأعداء عنهم؛ لأنه إذا دهم العدو البلاد، وجب على الناس كافة دفعهم بأموالهم وأنفسهم.

على الرغم من أن الفتوى عجيبة في جرأتها، فإن قطز كان أول من استجاب لها بنفسه، فباع كل ما يملك، وأمر الوزراء والأمراء أن يفعلوا ذلك! فانصاع الجميع. وتم تجهيز الجيش المسلم بالطريقة الشرعية، واكتشف المسلمون أن مصر غنية جداً.

وحصلت مشكلة شبيهة حين نودي بالنفير العام إلى الغزو في سبيل الله تعالى، اجتمع عند الملك قطز من عساكر مصر نحو أربعين ألفاً، وبرزت مشكلة جمع الأموال اللازمة لهذا الجهاد، فعقد مجلساً للعلماء على رأسهم شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام، واستشاره السلطان في شأن المال، فقال الإمام كلاماً عظيماً لا يصدر إلا ممن وثق بنصر الله تعالى لعبيده، فقال: (اخرجوا وأنا أضمن لكم على الله النصر)، فقال السلطان: (إن المال في خزائني قليل، وأنا أريد أن أقترض من أموال التجار)، فقال له الإمام ابن عبد السلام: (إذا احضرت ما عندك وعند حريمك، وأحضر الأمراء ما عندهم من الحلي الحرام اتخذه، وضربته سكة ونقداً، وفرقته في الجيش ولم يقم بكفايتهم، ذلك الوقت اطلب القرض، وأما قبل ذلك، فلا)، فأحضر السلطان والعسكر كلهم ما عندهم من ذلك بحضرة الشيخ، وكانت له عندهم عظمة، وله في أنفسهم مهابة، إذ لا يستطيعون مخالفته، فامتثلوا ما قاله.

وكان حين سار من مصر في خدمته خلق من كبار الأمراء البحرية وغيرهم ومعه المنصور صاحب حماه، وجماعة من أبناء الملوك، فأرسل قطز إلى صاحب حماه يقول له: (لا تتعنى في مد سماطك في هذه الأيام وليكن مع الجندي لحمة يأكلها، والعجل العجل)، وكان اجتماعه مع عدوه كما ذكرنا في العشر الأخير من رمضان يوم الجمعة، وهذه بشارة عظيمة، فإن وقعة بدر كانت يوم الجمعة في رمضان، وكان فيها نصر الإسلام.

توحيد العباد والبلاد فوق المصالح الشخصية:

لما مات الملك الصالح نجم الدين أيوب، وملك بعده ابنه الملك المعظم توران شاه وقتل، واجمعوا على الأمير عز الدين أيبك التركماني، وولوه الأتابكية ثم استقل بالملك. كان مقدم المماليك الصالحية البحرية أيام الملك المعز أيبك هو فارس الدين أقطاي الجمدار، وكان جسوراً شرساً وفيه كبرياء وجبروت، وكان ينظر للملك المعز أيبك باحتقار، ولعله طمع بالملك. ثم قال للملك المعز أيبك: إنه يريد الزواج بابنة ملوك، ولا بد من السكن في قلعة الجبل

لكونها من بنات الملوك ولا يليق سكناها بالبلد، فاستشعر الملك المعز منه بما عزم عليه، وأخذ يدبر أمره وعمل على قتله. وكان المظفر سيف الدين قطز أخص مماليك الملك المعز وأقربهم إليه وأوثقهم عنده. وهو الذي قتل الأمير فارس الدين أقطاي سنة ٦٥١هـ.

ركب الملك الظاهر بيبرس وأتباع أقطاي من المماليك البحرية الصالحية، وقصدوا قلعة الجبل، فلما لم ينالوا مقصودهم، خرجوا من القاهرة، مجاهرين بالعداوة للملك المعز أيبك التركماني، ومهاجرين إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب الشام. وهم: الملك الظاهر بيبرس، وسيف الدين بلبان الرشيدي، وعز الدين أزدمر السيفي، وشمس الدين سنقر الرومي، وشمس الدين سنقر الأشقر، وبدر الدين بيسري الشمسي، وسيف الدين قلاوون الألفي، وسيف الدين بلبان المستعرب وغيرهم. فلما شارفوا دمشق، سيّر إليهم الملك الناصر طيب قلوبهم، فبعثوا فخر الدين إياز المقرئ يستحلفه لهم، فحلف الناصر لهم، ودخلوا دمشق في العشر الأخير من شهر رمضان سنة ٦٥٢هـ، فأكرمهم الملك الناصر صلاح الدين وأطلق للملك الظاهر بيبرس ثلاثين ألف درهم وثلاثة قُطُر بغال وثلاثة قطر جمال وملبوساً، وفرّق في بقية الجماعة الأموال والخلع على قدر مراتبهم.

ودأموا على ذلك حتى قبض الأمير قطز على ابن أستاذه الملك المنصور علي، وتسلطن وتلقب بالملك المظفر قطز. شرع بيبرس يحرض الملك الناصر على التوجه إلى الديار المصرية ليملكها فلم يجبه، فكلمه بيبرس في أن يقدمه على أربعة آلاف فارس أو يقدم عليهم غيره ويتوجه بها إلى شط الفرات؛ ليمنع التتار من العبور إلى الشام، فلم يمكنه الملك الصالح إسماعيل لباطن كان له مع التتار (جزاه الله بما يستحق)!

بينما كان سلطان ديار مصر الملك المظفر سيف الدين قطز، (مملوك المعز أيبك التركماني) في بداية ٦٥٨هـ في حرب مع سلطان دمشق وحلب الملك الناصر ابن العزيز بن الظاهر، وسلطان الكرك والشوبك الملك المغيث بن العادل بن الكامل. ومعهما الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري، وقد عزموا على قتال المصريين، وأخذ مصر منهم. وبينما الناس على هذه الحال، تواترت الأخبار بقصد التتار بلاد الشام، إذ دخل جيش المغول صحبة ملكهم هولاكو خان، وجازوا الفرات على جسور عملوها، ووصلوا إلى حلب في ثاني صفر من هذه السنة. تغيّرت الأولويات في خضم الأحداث من الصراع الداخلي إلى ضرورة جهاد التتار.

ثم حدث أن سلطان الشام الناصر في بداية السنة وهو مقيم في وطأة برزة، ومعه جيوش كثيرة من الأمراء وأبناء الملوك، وجحافل كثيرة من الجيش والمتطوعة والأعراب، وغيرهم، ليناجزوا التتار إن قدموا عليهم، وكان في جملة من معه الأمير بيبرس البندقداري في جماعة من البحرية، ولكن الكلمة بين الجيوش مختلفة غير مؤتلفة، ذلك لما يريده الله عز وجل. وكان الناصر ضعيفاً عن مقاومة المغول، فانفضّ ذلك الجمع، ولم يسر لا هو ولا هم، فإنا لله وإنا إليه راجعون. فلما وقع ذلك فارقه الأمير بيبرس البندقداري إلى مصر. (البداية والنهاية ج١٣/ص٢٥١).

فاستمر بيبرس عند الناصر إلى سنة ٦٥٨هـ، ففارقه بمن معه وقصد الشهرزورية وتزوج منهم، ثم أرسل إلى الملك المظفر قطز من استحلفه له فحلف قطز، وقد عزمت طائفة من الأمراء على خلع الناصر وسجنه ومبايعة أخيه الملك الظاهر علي، فلما عرف الناصر ذلك، هرب إلى القلعة وتفرقت العساكر شذر مذر، وفارقه الأمير ركن الدين بيبرس إلى مصر وساق في أصحابه المماليك البحرية إلى ناحية غزة، فاستدعاه الملك المظفر قطز إليه واستقدمه عليه، وأقطعه قليوب، وأنزله بدار الوزارة، وعظم شأنه لديه (وإنما كان حتفه على يديه).

ودخل بيبرس إلى القاهرة في يوم السبت ٢٣ شهر ربيع الأول سنة ٦٥٨هـ، فركب الملك المظفر قطز للقائه، وأنزله في دار الوزارة وأقطعه قصبة قليوب. فلم تطل مدته بالقاهرة، وتهيأ الملك المظفر قطز لقتال التتار، وسيّر بيبرس هذا في عسكر أمامه كالجاليش (مقدم الجيش) ليتجسس أخبار التتار، فكان أول ما وقعت عينه عليهم ملاوشتهم بالقتال في غزة (انظر فيما سيأتي).

وتوجه الملك الناصر نحو الديار المصرية، ونزل العريش ثم قطيا بعد أن تفرق عسكره عنه، وتوجه معظم عسكره إلى مصر قبله مع الأثقال.

فلما وصل الناصر إلى قطيا، عاد منها إلى جهة الشام لشيء بلغه عن الملك المظفر صاحب مصر، ونزل بوادي موسى ثم نزل بركة زيزاء، فدلّ الجاسوس حسين الكردي الطيرادار التتار عليه، فكبسه التتار بها وهو في خواصه وقليل من مماليكه، فاستأمن الناصر من التتار وتوجه إليهم، فلما وصل إليهم، احتفظوا به ومشى معهم في ذلّ وهوان إلى أن قتل. جاء في الأثر: (إذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني).

رسالة المغول إلى سلطان مصر، وجوابه:

بينما كان قطز يعد الجيش والشعب لقاء التتار، وصل رسل هولاكو يحملون رسالة تهديد لقطز جاء فيها:

(بسم إله السماء الواجب حقه، الذي ملّكنا أرضه، وسلّطنا على خلقه... الذي يعلم به الملك المظفر الذي هو من جنس "المماليك" صاحب مصر وأعمالها، وسائر أمرائها وجندها وكتّابها وعمّالها، وباديها وحاضرها، وأكابرها وأصاغرها... أنّا جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه، وسلّطنا على من حل به غيظه... فكم بجميع الأمصار معتبر، وعن عزمنا مزدجر... فاتعظوا بغيركم، وسلّموا إلينا أمركم... قبل أن ينكشف الغطاء، ويعود عليكم الخطأ... فنحن ما نرحم من يبكي، ولا نرق لمن اشتكى... فتحنا البلاد، وطهرنا الأرض من الفساد... فعليكم بالهرب، وعلينا بالطلب... فأي أرض تأويكم؟ وأي بلاد تحميكم؟ وأي ذلك ترى؟ ولنا الماء والثرى؟ فما لكم من سيوفنا خلاص، ولا من أيدينا مناص: فخيولنا سوابق، وسيوفنا صواعق، ورماحنا خوارق، وسهامنا لواحق، وقلوبنا كالجبال، وعديدنا كالرمال.

فالحصون لدينا لا تمنع، والجيوش لقتالنا لا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يسمع، لأنكم أكلتم الحرام، وتعاظمتم عن ردّ السلام، وخنتم الأيمان، وفشا فيكم العقوق والعصيان... فابشروا بالمذلة والهوان ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ الأحقاف: ٢٠، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ الشعراء: ٢٢٧... وقد لبثت أن نحن الكفرة وأنتم الفجرة... وقد سلطنا عليكم من بيده الأمور المدبرة، والأحكام المقدرة... فكثيركم عندنا قليل، وعزيزكم لدينا ذليل، وبغير المذلة ما لملوككم علينا من سبيل... فلا تطيلوا الخطاب، وأسرعوا ردّ الجواب... قبل أن تضرم الحرب نارها، وتوري شرارها... فلا تجدون منا جاهاً ولا عزا، ولا كتاباً ولا حرزاً، إذ أزعجكم رماحنا أزّاً... وتدهون منا بأعظم داهية، وتصبح بلادكم منكم خالية، وعلى عروشها خاوية... فقد أنصفناكم، إذ أرسلنا إليكم، ومنّا برسلنا عليكم).

جمع قطز القادة والمستشارين، وأطلعهم على الرسالة، وكان من رأي بعض القادة الاستسلام لتتار وتجنب ويلات الحرب، فما كان من قطز إلا أن قال:

(أنا ألقى التتار بنفسي، يا أمراء المسلمين، لكم زمان تأكلون من بيت المال، وأنتم للغزاة كرهون، وأنا متوجه، فمن اختار الجهاد يصحبني، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته، وإن الله مطلع عليه، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين لعن القتال!).

فتحمس القواد والأمراء لرؤية قائدهم يقرر الخروج لمحاربة التتار بنفسه، بدلاً من أن يرسل جيشاً ويبقى هو. ثم وقف يخاطب الأمراء وهو يبكي ويقول: (يا أمراء المسلمين، من للإسلام إن لم نكن نحن). فقام الأمراء يعلنون موافقتهم على الجهاد، وعلى مواجهة التتار مهما كان الثمن.

وهنا قام قطز بقطع أعناق الرسل الأربع الذين أرسلهم إليه هولاكو بالرسالة التهديدية، وعلّق رؤوسهم على باب زويلة في القاهرة. وأرسل الرسل في الديار المصرية تنادي بالجهاد في سبيل الله ووجوبه وفضائله. وكان العالم الرباني العامل العزّ بن عبد السلام ينادي في الناس بنفسه، فهبّ نفر كثير ليكونوا في قلب جيش المسلمين وميسرته، أما القوات النظامية من المماليك، فكونت الميمنة واختبأت بقيتها خلف التلال لتحسم المعركة.

ولكن جحافل المغول في أثناء اجتياح هولاكو الشام (وهو الوقت الذي أرسل رسالته إلى سلطان مصر) كان يتجاوز ٣٠٠ ألف مقاتل مغولي؛ أي: أكثر بـ ١٥ مرة من جيش المماليك البالغ تعداده ٢٠ ألفاً؛ أي: إن الكفة سترجح حتماً لمصلحة المغول في أي معركة مع ممالك مصر.

ثم إن الشريط الساحلي الفلسطيني كان بيد الصليبيين الذين كانوا معروفين بتحالفهم مع المغول (كما في سقوط بغداد ودمشق)، وهذا يزيد الطين بلة في تعقيد موقف المسلمين. وهنا تتدخل العناية الإلهية؛ حين تصدق النيات مع الله الناصر القاهر فوق عباده، مالك الملك والملوك والملكوت، وهذا الجبابرة، وكاسر الأكاسرة، وخافض القيصرة.

مخطوطة فارسية من القرن الرابع عشر تظهر جنكيز خان مع ثلاثة من أولاده الأربعة. ابنه الأصغر اسمه تولي (أبو ماتغي، وهولاكو)، كان موت ماتغي بداية ١٢٦٠م هو الذي دفع هولاكو إلى سحب قواته، تاركاً قوة مغولية أصغر كثيراً من جيشه لتتقدم إلى مصر

انسحاب هولاكو من بلاد الشام، ونيابته للجنرال كتبغا نوين: ولكن قبل أن تتقدم جحافل المغول نحو مصر، كان عليهم (بحكمة الله وتقديره) أن ينسحبوا؛ بسبب الصراع الداخلي على السلطة ورئاسة إمبراطورية المغول الكبرى. وكان هولاكو يطمع فيها. فانسحب هولاكو بمعظم قواته، تاركاً قوة متوسطة الحجم قراية ٢٠ ألفاً، بقيادة جنراله المحنك كتبغا نوين لإدارة بلاد الشام التي استولوا عليها. وكان كتبغا نوين قد اشترك في تدمير بغداد، وفي الاستيلاء على دمشق.

يقول ابن كثير في "البداية والنهاية" (ج١٣/ص٢٦٣): (معنى نوين: أمير عشرة آلاف، وكان هذا الخبيث قد فتح لأستاذه هولاكو من أقصى بلاد العجم إلى الشام، وقد أدرك جنكيز خان جد هولاكو، وكان كتبغا هذا يعتمد في خرابه للمسلمين أشياء لم يسبقه أحد إليها:

- كان إذا فتح بلداً ساق مقاتلة هذا البلد إلى البلد الآخر الذي يليه، ويطلب من أهل ذلك البلد أن يؤوا هؤلاء إليهم، فإن فعلوا حصل مقصوده في تضييق الأطعمة والأشربة عليهم، فتقصر مدة الحصار عليه، لما ضاق على أهل البلد من أقواتهم، وإن امتنعوا من إيوائهم عندهم، قاتلهم بأولئك المقاتلة الذين هم أهل البلد الذي فتحه

قبل ذلك، فإن حصل الفتح وإلا كان قد أضعف أولئك بهؤلاء حتى يفني تلك المقاتلة، فإن حصل الفتح وإلا قاتلهم بجنده وأصحابه مع راحة أصحابه وتعب أهل البلد وضعفهم حتى يفتحهم سريعاً.

- وكان يبعث إلى الحصن يقول: إن ماءكم قد قلّ فنخشى أن تأخذكم عنوة فنقتلكم عن آخركم، ونسبي نساءكم وأولادكم فما بقاؤكم بعد ذهاب مائكم، فافتحوا صلحاً قبل أن تأخذكم قسراً. فيقولون له: إن الماء عندنا كثير فلا نحتاج إلى ماء. فيقول: لا أصدق، حتى أبعث من عندي من يشرف عليه، فإن كان كثيراً انصرفت عنكم. فيقولون: ابعث من يشرف عليه، فيرسل رجالاً من جيشه معهم رماح مجوفة محشوة سماً. فإذا دخلوا الحصن الذي قد أعياه ساطوا ذلك الماء بتلك الرماح على أنهم يفتشونه ويعرفون قدره، فينفتح ذلك السم ويستقر في ذلك الماء فيكون سبب هلاكهم وهم لا يشعرون. لعنه الله لعنة تدخل معه قبره)

الصدام بين الصليبيين والمغول: استمرت غارات المغول الإرهابية جنوباً إلى فلسطين باتجاه مصر، تاركين قرابة ألف مقاتل مغولي حامية لمدينة غزة التي استولوا عليها. فصارت أرض السيطرة المغولية متاخمة لدويلات الفرنجة، وهذا أدى احتكاكاً مباشراً مع بعض الحوادث، أدت إحداها لتفاقم الوضع في صيدا.

فقد قام جون رئيس بيروت، وجوليان دي غارنير رئيس صيدا وبيوفورت (يصفه معاصروه الصليبيون بأنه كان عديم المسؤولية وطائشاً) بالإغارة على منطقة البقاع ونهبها، وكانت تحت السيطرة المغولية. عندها أرسل كتبغا نوين (جنرال المغول) ابن أخته في قوة صغيرة مطالباً بالتعويضات. فإذا بهم يُقتلون في هجوم بكمين دبّره جوليان. فكان جواب كتبغا نوين قوياً فقام بالإغارة على مدينة صيدا بنفسه، وبسلبها ونهبها وقتل أهاليها الصليبيين. وأدت هذه الحوادث إلى انعدام الثقة بين المغول والقوات الصليبية، التي توجد قواتها في مدينة عكا الساحلية. ثم جاءت الأخبار باكتساح المغول أوروبا وغزوهم بولندا.

كتبغا نوين يحاصر صيدا بعد مقتل ابن اخته على يد جوليان دي غارنير. لورد صيدا

رجع في الوقت نفسه تقريباً، وليم من روبريك، سفير الملك لويس التاسع (ملك الإفرنج الصليبي) المبعوث إلى منغوليا لأجل التحالف الصليبي – المغولي؛ رجع بتقرير كامل مخيّب لآمال البابوية الكاثوليكية تماماً. وبعد قراءته، بعث البابا اليكساندر الرابع برسائله لأرجاء العالم النصراني، محذراً بفصل كل من يتحالف والمغول من الانتماء الكنسي، وهذا حرم المغول من التعاون الصليبي.

باستثناء فرنجة انطاكيا (نصارى الأرمن شرقيون وليسوا صليبيين، لكنهم تحالفوا مع المغول نكاية بالإسلام)، وكان الصليبيون والنصارى الآخرون مترددون في تعاونهم مع المغول، واحياناً يتخذون موقف مضاد للمغول.

رأى بطريق القدس أن المغول يمثلون خطراً واضحاً، وكتب إلى البابا يحذره منهم في ١٢٥٦م. لكن الصليبيين في عكا وقعوا في دوامة: إن هم تعاونوا مع قطز، صاروا أعداءً للمغول وعرضة لوحشيتهم. ومن ناحية أخرى، فإنّ قطز هو أملهم الوحيد لتخليص المنطقة من شر المغول. اتخذ فرنجة عكا في ١٢٦٠م موقفاً محايداً بين المغول وبين المماليك المسلمين.

فأرسل الفرنجة دومينيكان دَيشيد من آشبي إلى بلاط هولاكو في ١٢٦٠م. لكنهم في الوقت نفسه دخلوا بهدنة سلبية مع المماليك المصرية. سمح بارونات عكا بموجبها لقوات المماليك بحرّية الحركة عبر أراضي دويلتهم القصيرانية من دون التعرض لهم. في أثناء مسير المماليك شمالاً للاشتباك بالمغول، مقابل اتفاقية بشراء غنائم المماليك من الخيل المغولية بأسعار مُخفضة، إن هم انتصروا.

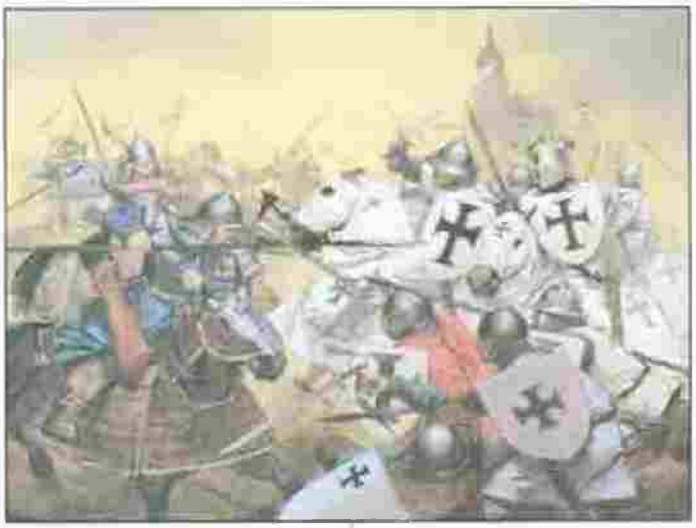

تحالف الصليبيين مع المغول انعكس وبالاً عليهم فتحوّل إلى صدام مغولي صليبي.
من الدعوات النبوية: (اللهم اهلك الظالمين بالظالمين، واخرجنا من بينهم سالمين)

زعام المبادرة، وعنصر المباغتة بالخروج للقاء المغول خارج مصر:

والمقصود أن المظفر قطز، لما بلغه ما كان من أمر التتار بالشام المحروسة، وأنهم عازمون على الدخول إلى ديار مصر بعد تمهيد ملكهم بالشام، بادرهم قبل أن يبادروه، وبرز إليهم، واقدم عليهم قبل أن يقدموا عليه. فخرج في عساكره وقد اجتمعت الكلمة عليه.

فلما اجتمعت العساكر الإسلامية بالديار المصرية، ألقى الله تعالى في قلب الملك المظفر قطز الخروج لقتالهم بعد أن كانت القلوب قد يئست من النصرة على التتار، وأجمعوا على حفظ مصر ليس غير؛ لكثرة عددهم واستيلائهم على معظم بلاد المسلمين وأنهم ما قصدوا إقليماً إلا فتحوه، ولا عسكراً إلا هزموه، ولم يبق خارجاً عن حكمهم في الجانب الشرقي إلا الديار المصرية والحجاز واليمن.

قام قطز بزمام المبادرة، مع التخطيط العسكري لاستدراج المغول حسب خطة مدروسة إلى عين جالوت، بدل أن ينتظر مباغتة المغول له ومجيئهم إلى حصار بلاده، كما كانوا يفعلون مع باقي بلاد الإسلام. وكان بصحبة قطز الملك المنصور صاحب حماه، وكان مقدم جيش قطز هو بيبرس البندقداري. وصمم الملك المظفر – رحمه الله – على لقاء التتار، وخرج من مصر في الجحافل الشامية والمصرية في شهر رمضان، وبصُحبته الملك المنصور صاحب حماه، وسيّر الملك المظفر قطز إلى صاحب حماه، وهو بالصالحية يقول له: لا تحتفل في مد سماط، بل كل واحد

من أصحابك يقطر على قطعة لحم في صولقه. سافر الملك المظفر بالعساكر من الصالحية، ووصل غزة والقلوب وجلة. وهرب جماعة من المغاربة الذين كانوا بمصر إلى الغرب، وهرب جماعة من الناس إلى اليمن والحجاز، وبقي الباقون في وجل عظيم وخوف شديد يتوقعون دخول العدو وأخذ البلاد.

وكان معه بيبرس الذي كان مُغرما بخالد بن الوليد وأبي عبيدة (ولهذا جدد مقام هذين الصحابيين المجاهدين الجليلين في سلطنته التي أعقبت سلطنة قطز)، واستلهام ذكريات صلاح الدين وخالد بن الوليد، يقول خالد بن الوليد: (ما ليلة تزفّ إليّ فيها عروس أنا لها مُحبّ – أو أبشر فيها بغلام، بأحبّ عندي من ليلة شديدة البرد في سرية من المهاجرين أُصبّح بهم أعداء الله). من هنا كان اختيار عين جالوت (جنوب حطين بـ ٦٥ كم حيث موقعة حطين عام ٥٨٣هـ؛ أي: قبل ٧٥ سنة)، وقرب اليرموك وفي ظلال معركة اليرموك، مع خطة شبيهة: الخروج من المدينة على السهل الفسيح وعمل الكمين وراء التلال وملافاة العدو، ثم استدراجه بالانسحاب الكاذب لجرّه إلى الكمين المنصوب؛ وهذا يُفاجئ العدو ويباغته، ويحبط معنوياته القتالية.

تقع عين جالوت قرب المناطق الساحلية التي يسيطر عليها الصليبيون، وبالإضافة إلى كونها سهلا تحوّطه تلال ومرتفعات متموجة، وهذا يمكن قوات قطز وبيبرس من الاختباء والترصّد والرماية، ويوصفها ملجأ آمنا للكرّ والفرّ دون ضرورة الاشتباك المباشر مع العدو على أرض مبسوطة مكشوفة، وهي أقرب إلى الشام من مصر، وهذا يعطي مرونة الحركة لتتبع فلول المغول بعد الانتصار عليهم بمشيئة الله. وموقعها قرب الشام يمكن الشاميين النازحين والمقاتلين في جيش قطز من الاستبسال والتفاني في الجهاد، وطمعا في العودة مرة أخرى إلى بلادهم وممتلكاتهم، وخاصة الأمراء الأيوبيين، واختار قطز لهذه المعركة الفاصلة شهر رمضان المبارك، صادف شهر آب/أغسطس الحار الذي سيؤثر في حركة المغول القادمة من صحارى منغوليا الباردة.

تحرك جيوش المسلمين: طلب سيف الدين قطز من الأمراء الاجتماع العاجل، وحثهم على القتال، وذكرهم بما وقع في أقاليم الإسلام، وقال لهم: (يا مسلمين، قد سمعتم ما جرى من أهل الأقاليم من القتل والسبي والحريق، وما منكم أحد إلا وله مال وحريم وأولاد، وقد علمتم أن أيدي التتار تحكمت في الشام، وقد أوهنوا قوى دين الإسلام، وقد لحقني على نصرة دين الإسلام الحمية، فيجب عليكم يا عباد الله القيام في جهاد أعداء الله حق القيام، يا قوم، جاهدوا في الله بصدق النية، تجارتكم رابحة، وأنا واحد منكم، وها أنا وأنتم بين يديّ ربّ لا ضام ولا يفوته فائت ولا يهرب منه هارب). فعند ذلك ضجت الأمراء بالبكاء، وتحالفوا أنهم لا بقاء لهم في الدنيا إلى أن تنكشف هذه الغمة. فعند ذلك جرد السلطان، الأمير ركن الدين بيبرس وصحبته جماعة من العساكر وأرسله طليعة.

الانقضاض على حامية غزة المغولية (معركة غزة): تحركت طلائع الجيش المملوكي بقيادة الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري نحو فلسطين، فسار حتى نزل غزة في شعبان ٦٥٨هـ – ٢٦ تموز ١٢٦٠م. واستطاع ركن الدين بيبرس أن يحقق انتصاراً ساحقاً على الحامية المغولية (١٠٠٠ مغولي) في غزة، واكتشف المغول أنه مازال في المسلمين نخوة، وفيهم من يتجرأ لحمل السيوف ضدهم دفاعاً عن الدين والأرض والعرض. هذا النصر الصغير كان فاتحة خير وبشارة أمل في النصر الكبير.

اتفاقية مع دويلة الصليبيين في عكا

فتقدمت جيوش قطز إلى الشمال، باتجاه عين جالوت للقاء المغول، فأرسل إلى الصليبيين وعرّفهم بأنه خارج لقتال المغول ليس غير، وتوصّل معهم إلى هدنة سلمية، يُسمح بموجبها لقوات المماليك بحُرّية الحركة عبر أراضي دويلتهم النصرانية من دون التعرض لهم، مقابل اتفاقية بيعهم الخيول المغولية بأسعار مُخفضة، إن هم انتصروا.

وقال مهددا الصليبيين: (والله العظيم، متى تبعهم منهم فارس أو راجل – يريد أذى عسكر المسلمين – قتلتكم قبل ملتقاي التتار، وقد عرفتكم ذلك)، عند ذلك كتب الملوك إلى أتباعهم بما سمعوه، ورفض السلطان قطز أي مساعدة عرضها الصليبيون عليه، فقد كان حريصا كل الحرص على صبغ حروبه ضد المغول والصليبيين معاً بصبغة إسلامية خالصة، وألا يستعين بمشرك في قتال المغول، ثم إن هذا يشير إلى رغبة قطز، ومشروعه الجهادي الذي يستهدف دحر العدوان المغولي ومن ثم التوجه إلى الساحل الشامي لتطهيره من نير الاحتلال الصليبي، وحرص في الوقت نفسه على أن لا تكون للصليبيين عليه منة عند مهاجمتهم.

تحركات التجمع العسكرية المؤدية إلى معركة عين جالوت شمال بيسان

خروج المغول: وأما كتبغا نوين مقدم التتار على عسكر هولاكو (لما بلغه خروج الملك المظفر قطز) كان بالبقاع (لبنان)، فاستدعى الملك الأشرف موسى بن المنصور صاحب حمص، وقاضي القضاة محيي الدين المجير بن الزكي، واستشارهم في ذلك، فمنهم من أشار بعدم الملتقى والاندفاع بين يدي الملك المظفر إلى حيث يجيئه مدد من هولاكو ليقوى على ملتقى العسكر المصري، ومنهم من أشار بغير ذلك، وتفرقت الآراء، فاقتضى رأي كتبغا نوين الملتقى وتوجه من فوره لما أراد الله تعالى من إعزاز الإسلام وأهله وإذلال الشرك وحزبه، بعد أن جمع كتبغا نوين من في الشام من التتار وغيرهم، وقصد محاربة المسلمين وصحبته الملك السعيد حسن بن الملك العزيز عثمان، وكان كتبغا نوين نصرانيا نسطوريا، وقد صحبه في عين جالوت كل من أمير انطاكيا الصليبية، وملك أرمينيا الصغرى.

معلومات استخبارية مهمة: بينما هو في الطريق، جاء رجل من أهل الشام وقدم معلومات استخباراتية لسيف الدين قطز، وهو مُرسل من قبل صارم الدين أيبك، وهو أحد المسلمين الذين أسرهم هولاكو عند غزوه بلاد الشام، ثم قبل الخدمة في صفوف جيش التتار، واشترك وإياهم في مواقعهم المختلفة، وجاء معهم إلى موقعة عين جالوت، وقد نقل هذا الرسول إلى قطز – المعلومات الآتية:

أ) جيش التتار ليس بقوته المعهودة، فقد أخذ هولاكو معه عدداً من القادة والجند، فلم يعد الجيش على الهيئة نفسها التي دخل بها الشام، فلا تخافوهم.

ب) ميمنة التتار أقوى من ميسرتهم، فعلى جيش المسلمين أن يقوي جدا ميسرته التي ستقاتل ميمنة التتار.

ج) إن الأشرف الأيوبي أمير حمص سيكون في جيش التتار بفرقته ،ومع صارم الدين آيبك، ولكنهم سوف ينهزمون بين يدي المسلمين. أي: إن الرسالة تقول: إن الأشرف الأيوبي قد راجع نفسه وآثر أن يكون مع جيش قطز، ولكنه خرج مع جيش التتار: مكيدة لهم، وتفكيكاً لصفهم. ومع ذلك أخذ المسلمون حذرهم، وأعادوا من هذه الأمور دون تفريط في الإعداد أو تهاون في الاحتياط والحذر، وبذلك انتهى يوم الرابع والعشرين من رمضان ٦٥٨هـ، وقضى المسلمون الليل في القيام والابتهال والدعاء والرجاء.

استدراج المغول إلى عين جالوت: كان سيف الدين قطز قد بعث الأمير ركن الدين بيبرس على رأس فرقة طليعية صدامية من شجعان المسلمين للاشتباك مع الجيش المغولي ومناوشته ثم التظاهر بالهزيمة والانسحاب التكتيكي استدراجاً للمغول لجلبهم إلى سهل عين جالوت، حيث يربض جيش قطز وراء تلاله.

فرسان المغول

الجيش المغولي

المغول يقعون في فخ عين جالوت محوّطين بقوات الملك المظفر قطز.

والإسلام (معركة عين جالوت الجمعة ٢٥ رمضان سنة ٦٥٨هـ ٣ أيلول ١٢٦٠م).

عين جالوت معركة التاريخ المفصلية: استدراج المغول (مقدمة الصورة) إلى عين جالوت، حيث يكمن جيش المماليك خلف التلال (مؤخرة الصورة وجوانبها)

وأقام المسلمون ليلة القدر قبل يوم اللقاء، إذ التقى الجمعان، وذلك بعد طلوع الشمس، وقد امتلأ الوادي بالناس وكثر صياح أهل القرى من الفلاحين، وتتابع ضرب كوسات السلطان والأمراء إيذانا ببدء الهجوم. ويُقال: إنه استخدمت في عين جالوت مدافع يدوية تحدث انفجاراً وصوتاً مدوياً؛ وهذا أحدث اضطراباً في قوات العدو المغولي بقيادة كتبغا، وكان قطز يعرف جيداً تفوق جيشه في العدد على العدو؛ ولذا أخفى قواته الرئيسة في التلال القريبة، ولم يعرض للعدو إلا المقدمة الطليعية التي قادها بيبرس، وما لبث كتبغا أن وقع في الفخ، إذ حمل بكل رجاله على القوات الإسلامية التي شهدها أمامه (وهو يظنّ أنه كلّ الجيش)، فأسرع بيبرس في تقهقره إلى التلال بعد أن اشتدت مطاردة كتبغا له، فلم يلبث الجيش المغولي بأسره أن جرى تطويقه فجأة، وجرت بين الطرفين معركة طاحنة، واضطربت قوات المماليك بعض الوقت، وانكسرت ميسرة المسلمين في بداية الأمر كسرة شنيعة.

كان قطز يقف في مكان عالٍ خلف الصفوف يراقب الموقف برمته، ويوجه فرق الجيش إلى سد الثغرات، ويخطط لكل كبيرة وصغيرة، وشاهد قطز المعاناة التي تعيشها ميسرة المسلمين، فدفع إليها بآخر الفرق النظامية من خلف التلال، ولكن الضغط النتري استمر. فما كان من قطز إلا أن نزل ساحة القتال بنفسه؛ وذلك لتثبيت

الجنود ورفع روحهم المعنوية، فحمل الملك المظفر – رحمه الله – بنفسه في طائفة من عساكره، وأردف الميسرة حتى جبر ضعفها، وتحايل المغول وتراجعوا، ثم اقتحم الملك المظفر وباشر القتال بنفسه وأبلى في ذلك اليوم بلاء حسناً. وهو يشجع أصحابه ويحسن لهم الموت في سبيل الله ويكر بهم كرة بعد كرة، ألقى يخوذته على الأرض تعبيراً عن اشتياقه إلى الشهادة، وعدم خوفه من الموت، ولكي يرى الجميع وجهه فيعرفونه فيقتدوا به، وصرخ بأعلى صوته مطلقاً صرخته الشهيرة عبر التاريخ (وإسلاماه)، وحمل بنفسه ويمن معه حملة صادقة فأيده الله بنصره، ورأى جنود الإسلام قائدهم أمامهم، يقاتل كالأسد، فالتفوا حوله، واستبسلوا في القتال، وانقضوا على التتار فخلخلوا صفوفهم، وكسروهم كسرة عظيمة، ولم تنقض سوى ساعات حتى بدأ تفوق المسلمين في الميدان، وأبادوا خضراء الجيش المغولي.

وكانت دعوات الشيخ العز بن عبد السلام في أرض المعركة، ومعه دعوات العلماء ودعوات المجاهدين، ودعوات المقاتلين من المظلومين المهاجرين من الشام. فلاحت بشائر النصر، وولى التتار الأدبار لا يلوون على شيء، واعتصم منهم طائفة بالتل المجاور لمكان الوقعة فأحدقت بهم العساكر وصابروهم على القتال حتى أفنوهم قتلاً ونجا من نجا.

ونصر الله الإسلام وأعزّه، وانكسرت التتار وولوا الأدبار على أقبح وجه، بعد أن قتل معظم أعيانهم، وأصيب مقدم العساكر التترية كتبغا نوين، فإنه أيضاً لما عظم الخطب باشر القتال بنفسه فأخزاه الله تعالى وقتل شر قتلة. وكان الذي حمل عليه وقتله الأمير جمال الدين آقوش الشمسي – رحمه الله تعالى.

صورتان تنسبان إلى الملك المظفر قطز في معركة عين جالوت. الأولى: وهو بلا خوذة يطعن التتار بالرمح، ويتفادى رمية رمح من جانبه الأيسر. والصورة الأخرى: وهو يُرمى بوابل من السهام يصدّها بدرعه وهو يقاتل بالسيف، فتصاب فرسه لينزل منها ويقاتل راجلاً، حتى يأتوه بفرس آخر

وسعد التتار بقتل كتبغا نوين، وذهب سعدهم بقتله، وكان شيخاً كبيراً قد أسن، وكان يميل إلى دين النصارى، ولكن لا يمكنه الخروج من حكم جنكيز خان في الياسق. قال الشيخ قطب الدين اليونيني: وقد رأيته ببعلبك حين حاصر قلعتها.

وكان شيخاً حسناً له لحية طويلة مسترسلة قد صفرها مثل الدبوقة، وتارة يعلقها من خلفه بلفّه، وكان مهيباً شديد السطوة، قال: وقد دخل الجامع فصعد المنارة ليتأمل القلعة منها، ثم خرج من الباب الغربي فدخل

دكاناً خرابا فقضى حاجته والناس ينظرون إليه وهو مكشوف العورة، فلما فرغ من حاجته مسّحه بعض أصحابه بقطن ملبد مسحة واحدة الكبر سنه!

قال: ولما بلغه خروج المظفر بالعساكر من مصر، تلوم في أمره وحار ماذا يفعل، ثم حملته نفسه الأبية على لقائه، وظن أنه منصور على جاري عادته، فحمل يومئذ على الميسرة فكسرها ثم أيد الله المسلمين وثبتهم في المعركة، فحملوا حملة صادقة على التتار فهزموهم هزيمة لا تجبر أبدا، وقتل أميرهم كتبغا نوين في المعركة وأسر ابنه، وكان شاباً حسناً، فأحضر بين يدي المظفر قطز، فقال له: أهرب أبوك؟ قال: إنه لا يهرب، فطلبوه فوجدوه بين القتلى، فلما راه ابنه صرخ وبكى، فلما تحققه المظفر سجد لله تعالى، ثم قال: أنام طيباً.

كان هذا سعادة التتار، وذهب سعدهم بقتله، وهكذا كان كما قال، ولم يفلحوا بعده قط، وكان قتله يوم الجمعة، لخامس والعشرين من رمضان، وكان الذي قتله الأمير آقوش الشمسي رحمه الله. وهكذا قتل القائد كتبغا نوين الذي اشترك في تدمير بغداد، وتدمير الشام، وقائد جيش المغول في عين جالوت.

وفي حال الفراغ من المصاف حضر الملك السعيد حسن بن الملك العزيز عثمان ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب (كان صاحب الصبيبة وبانياس بعد أبيه)، ثم أخذتا منه وحبس بقلعة المنيرة، فلما جاءت التتار، كان معهم وردوا عليه بلاده، فلما كانت وقعة عين جالوت، أتي به أسيراً إلى بين يدي السلطان الملك المظفر قطز، وكان التتار لما ملكوا قلعة البيرة وجدوه فيها معتقلاً، فاطلقوه وأعطوه بانياس وقلعة الصبيبة، فانضم مع التتار وبقي منهم وقاتل يوم المصاف المسلمين قتالاً شديداً؛ لأنه كان قد لبس سرقوج التتار وناصحهم على المسلمين، فلما أيد الله المسلمين بنصره، وحضر الملوك عند الملك المظفر فحضر الملك السعيد هذا من جملتهم على رغم أنفه فلم يقبل المظفر عذره وأمر بضرب عنقه فضربت، واستأمن الأشرف صاحب حمص، وكان مع التتار، فأمنه الملك المظفر، ورد إليه حمص، وكذلك رد حماه إلى المنصور وزاده المعرة وغيرها.

تقهقر المغول من عين جالوت إلى مدينة بيسان (على بُعد ١٢ كلم / ٧.٥ ميلاً من عين جالوت): ومرّ العسكر في إثر التتار إلى قرب بيسان، فرجع التتار، والتقوا بالمسلمين لقاءً ثانياً أعظم من الأول، فهزمهم الله وقتل اكابرهم وعدة منهم، وكان قد تزلزل المسلمون زلزالاً شديداً، فصرخ السلطان صرخة عظيمة، سمعه معظم العسكر وهو يقول: ((واإسلاماه)) ثلاث مرات: (يا الله، انصر عبدك قطز على التتار) فلما انكسر التتار الكسرة الثانية، نزل السلطان من على فرسه، ومرّغ وجهه على الأرض، وقبلها وصلى ركعتين لله تعالى ثم ركب، فأقبل العسكر وقد امتلأت أيديهم بالغنائم، وقتل المسلمون منهم جمعاً كثيراً، وفر الباقون مدبرين.

وقاتل قطز مع الجيش قتالاً شديداً، حتى صوب أحد التتر سهمه نحو قطز فأخطأه، ولكنه أصاب الفرس الذي كان يركب عليه قطز، فقُتل الفرسُ من ساعته، فترجل قطز على الأرض، وقاتل ماشياً لا خيل له. قال الإمام الذهبي: (ولما تسلطن، لم يبلغ ريقه ولا تهنّى بالسلطنة حتى امتلأت الشامات المباركة بالتتار) ثم ساق الذهبي وقال الشيخ قطب الدين: (حكي عن الملك المظفر قطز أنه قتل جواده يوم القتال مع التتار، ولم يصادف المظفر أحد من الأوشاقية فبقي راجلاً، فراه بعض الأمراء الشجعان، فترجل له وقدم له حصانه، فامتنع المظفر من ركوبه وقال: ما كنت لأمنع المسلمين الانتفاع بك في هذا الوقت! ثم تلاحقت الأوشاقية إليه)، وأتوه بفرس من الخيول الاحتياطية.

قال الشيخ قطب الدين اليونيني في تاريخه الذي ذيّله على "مرآة الزمان": (وكان الملك المظفر بطلاً شجاعاً مقداماً حازماً حسن التدبير لم يكن يوصف بكرم ولا شح، بل كان متوسطاً في ذلك، وذكر حكايته لما أن قتل

جواده يوم الوقعة بنحو مما حكيناه لكنه زاد بأن قال: فلامَ المظفرُ بعضُ خواصّه على عدم ركوبه وقال: يا خوند – لو صادفك والعياذ بالله تعالى – بعض المغول وأنت راجل، كنت رحت وراح الإسلام. فقال: (أما أنا فكنت رحت إلى الجنة – إن شاء الله تعالى – وأما الإسلام فما كان الله ليضيعه، فقد مات الملك الصالح نجم الدين أيوب وقتل بعده ابنه الملك المعظم توران شاه، وقتل الأمير فخر الدين بن الشيخ مقدم العساكر يوم ذ لك وتصر الله الإسلام بعد اليأس من نصره!) – يعني عن نوبة أخذ الفرنج دمياط.

تقهقر المغول، ومعركة أفاميا: واستمر ركن الدين بيبرس في مطاردة فلول المغول حتى أفاميا، فوجدهم قد تجمعوا بها ووجدوا صفوفهم مرة ثالثة استعداداً لمواجهتهم، فهاجمهم بكل شجاعة وكسرهم كسرة شنيعة وغنم منهم أموالاً طائلة وخيولاً كثيرة، وتبعهم الجيش الإسلامي يقتلونهم في كل موضع.

تتبع فلول المغول، وقتلهم من قبل الأهالي: واستمرت فرقة الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري تتبعهم إلى أطراف البلاد، واستوفى أهل البلاد والضياع من التتار آثارهم، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة حتى إنه لم يسلم منهم إلا القليل جداً. استغرقت موقعة عين جالوت أقل من ٢ أيام في العشر الأواخر من رمضان ٦٥٨هـ، وجاءت البشارة بنصرة المسلمين على التتار بعين جالوت.

تحرير دمشق وباقي بلاد الشام:

فكانت دمشق هي أولى المحطات الإسلامية التي تقع تحت سيطرة التتار، وهي تقع على مسافة مئة وخمسين كيلومتراً تقريباً من عين جالوت إلى الشمال الشرقي منها، فقبل وصوله إلى دمشق أرسل رسالة عظيمة تحمل بشريات النصر الكبير، وكان مما جاء في هذه الرسالة:

(أما النصر الذي شهد الضرب بصحته، والطعن بنصيحته، فهو أن التتار – خذلهم الله – استطالوا على الأيام، وخاضعوا بلاد الشام، واستعبدوا بقيالهم على الإسلام، وهذه عساكر الإسلام مستوطنة في مواطنها، ما تزلزل لمؤمن قدم إلا وقدم إيمانه راسخة، ولا تثبت لأحد حجة إلا وكانت الجمعة لاسخة، ولا عقدت برجمة ناقوس إلا وحلها الآذان، ولا نطق كتاب إلا وأخرسه القرآن، ولم تزل أخبار المسلمين تنتقل إلى الكفار، وأخبار الكفار تنتقل إلى المسلمين، إلى أن خلط الصباح فضته بذهب الأصيل، وصار اليوم كأمس، ولسخت آية الليل بسورة الشمس، إلى أن تراءت العين بالعين، وأضرمت نار الحرب بين الفريقين، فلم تر إلا ضرباً يجعل البرق نضواً، ويترك في بطن كل من المشركين شلواً، وقتل من المشركين كلّ جبّار عنيد، ذلك بما قدمت ايديهم ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فصلت: ٤٦).

استمر الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري وفرقته من الشجعان يتبعون التتار يقتلونهم في كل مكان، إلى أن وصلوا خلفهم إلى حلب، وهرب من بدمشق من التتار، وكان هربهم منها يوم الأحد ٢٧ رمضان صبيحة النصر الذي جاءت فيه البشارة بالنصر على عين جالوت.

فتبعهم المسلمون من دمشق، يقتلون ويأسرون وينهبون الأموال فيهم، ويفكّون الأسارى من أيديهم قهراً، ولله الحمد والمنن على جبره الإسلام، ومعاملته إياهم بلطفه الحسن، وجاءت بذلك البشارة السارة، فجاوبتا البشائر من القلعة المنصورة، وفرح المؤمنون يومئذ بنصر الله فرحاً شديداً، وأيد الله الإسلام وأهله تأييداً وكبت الله النصارى واليهود والمنافقين، وظهر دين الله وهم كارهون.

وهكذا بعد اجتياح المغول بغداد والشام، أرادوا اجتياح مصر، فبادرهم المماليك قبل ذلك، وهزموهم عند عين جالوت شر هزيمة، وأوقفوا زحفهم.

وكان الناصر يوسف في آخر اخفاقات الأيوبيين قد حاول التحالف مع المغول ضد مصر، بنصيحة وزيره صديق المغول زين الدين الحافظي، ولكنهم قبضوا على الناصر يوسف قبل عين جالوت، وسلموه إلى هولاكو الذي قتله بعد هزيمتهم في عين جالوت انتقاماً من المسلمين.

وقام مماليك مصر بتحرير الشام من المغول، وبقي بعض الأيوبيين تبعاً للمماليك في مصر.

وأصبح المماليك، الذين تكوّنت دولتهم في رحم الأخطار والصعاب بعد جهاد طويل ضد الغول، حكّاماً لمصر والشام، والقوة المهيمنة على شرق البحر المتوسط وجنوبه عقوداً طويلة من الزمان

فرسان المماليك: سرعة بداهة ولياقة بدنية وخفة حركة، مع التدريب المستمر على أنواع السلاح شتى

ثم كتب الملك المظفر كتاباً إلى أهل دمشق يخبرهم فيه بالفتح وكسر العدو المخذول، ويعدهم بوصوله إليهم ينشر العدل فيهم فسُرّ عوامُّ دمشق وأهلها بذلك سروراً زائداً، وقتلوا فخر الدين محمد بن يوسف بن محمد الكنجي في وسط جامع دمشق.

وكان المذكور شيخاً رافضياً خبيثاً، وكان مصانعاً للتتار على أموال الناس، وكان خبيث الطوية، وانضم مع التتار، ممالئاً لهم على أموال المسلمين قبحه الله. وقتلوا أيضاً بدمشق من أعوان التتار ابن الماسكيني وابن النفيل وغيرهما، وقتلوا جماعة مثله من المنافقين، وكان الأمر كما قال تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

فلما هرب نواب التتار حين بلغتهم الكسرة، أصبح الناس، وتوجهوا إلى دور النصارى ينهبونها، ويأخذون ما استطاعوا منها، وأخربوا كنيسة اليعاقبة، وأحرقوا كنيسة مريم حتى بقيت كوماً، وقتلوا منهم جماعة واختفى الباقون. وكان النصارى بدمشق قد شمخوا وتجرؤوا على المسلمين؛ واستطالوا بتردد التتار إلى كنائسهم. وذهب بعضهم إلى هولاكو، وجاؤوا من عنده بفرمان يتضمن الوصية بهم والاعتناء بأمرهم، ودخلوا بالفرمان من باب

توما، وصلبانهم مرتفعة، وهم ينادون بارتفاع دينهم واتضاع دين المسلمين، ويرشون الخمر على الناس في أبواب المساجد. فحصل عند المسلمين من ذلك همٌّ عظيم (بسبب التحالف المغولي - الصليبي. ولكون كتبغا نوين المغولي الذي فتح دمشق كان نصرانيا نسطورياً).

وكانت النصارى في تلك الأيام الزموا المسلمين القيام في دكاكينهم للصليب، ومن لم يقُمْ أخرجوا به وأهانوه وشقوا السوق على هذا الوجه إلى عند القنطرة آخر سويقة كنيسة مريم، فقام بعضهم على الدكان الوسطى من الصف الغربي بين القناطر وخطب، وفضل دين النصارى ووضع من دين الإسلام. وكان ذلك في ثاني عشرين شهر رمضان. ثم من الغد طلع المسلمون مع قضاتهم وشهودهم إلى قلعة دمشق وبها التتار، فأهانهم التتار ورفعوا قسيس النصارى عليهم ثم أخرجوهم بالضرب، فصار ذلك كله في قلوب المسلمين. فتبادر عند ذلك المسلمون إلى كنيسة النصارى التي خرج منها الصليب فانتهبوا ما فيها وأحرقوها وألقوا النار فيما حولها، فاحترق دور كثيرة للنصارى. وملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً، واحرق بعض كنيسة اليعاقبة. وهمّتْ طائفة بنهب اليهود. فقيل لهم: إنه لم يكن منهم من الطغيان كما كان من عبدة الصلبان.

وصول سيف الدين قطز إلى دمشق: وصل البطل سيف الدين قطز إلى دمشق، في اليوم ٢٠ رمضان سنة ٦٥٨هـ، واستقبله الناس استقبال الفاتحين، وعلقت الزينات في الشوارع، وخرج الرجال والنساء والأطفال يستقبلون البطل المظفر. ثم وصل الملك المظفر قطز إلى دمشق مؤيداً منصوراً، فانجبرت بذلك قلوب الرعايا، وتضاعف شكرهم لله تعالى. والتقاه أهل دمشق بعد أن عفّوا آثار النصارى وخربوا كنائسهم: جزاء بما كانوا سلفوه من ضرب النواقيس على رؤوس المسلمين ودخولهم بالخمر إلى الجامع. وفي هذا المعنى يقول بعض شعراء دمشق:

هلك الكفر في الشام جميعاً	واستجد الإسلام بعد دحوضه
بالمليك المظفر الملك الأر	وع سيف الإسلام عند نهوضه
ملك جاءنا بعزم وحزم	فاعتززنا بسمره وبيضه
أوجب الله شكر ذاك علينا	دائماً مثل واجبات فروضه

وفي نصرة الملك المظفر هذا، يقول الشيخ شهاب الدين ابو شامة:

غلب التتار على البلاد فجاءهم	من مصر تركي يجود بنفسه
بالشام أهلكهم وبدّد شملهم	ولكل شيء آفة من جنسه

(انظر البداية والنهاية ج١٣/ص٢٥٧)

ولما استقر الملك المنصور بحماه، قبض على جماعة كانوا مع التتر واعتقلهم، وهنّأ الشيخ شرف الدين شيخ الشيوخ المنصور بهذا النصر العظيم، ويعود المغرة بقصيدة منها:

رُغْتَ العدى، فضمنت ثلّ عروشها	ولقيتها، فأخذت تل جيوشها
نازلت أملاك التتار، فأنزلت	عن فعلها قسراً وعن إكديشها
فقدا لسيفك في رقاب كماتها	حصد المناجل في يبيس حشيشها
فقت الملوك ببذل ما تحويه، إذ	ختمت خزائنها على منقوشها
وطويت عن مصر فسيح مراحل	ما بين بركتها وبين عريشها

حتى حفظت على العباد بلادها ... من رُومها الأقصى إلى إحبوشها
فرشت حماه لوطئ نعلك خدّها ... فوطئت عين الشمس من مفروشها
وضربت سكتها التي اخلصتها ... عما يشوب النقد من معشوشها
وكذا المعزّ، إذا ملكت قيادها ... دهشت سروراً سار في مدهوشها
لا زلت تنعش بالنوال فقيرها ... وتنال أقصى الأجر من منعوشها

وقد اتفق في هذا العام أمور عجيبة؛ وهي: أن أول هذه السنة كانت الشام للسلطان الناصر بن العزيز، ثم في النصف من صفر صارت لهولاكو ملك التتار، ثم في آخر رمضان صارت للمظفر قطز، ثم في أواخر ذي القعدة صارت للظاهر بيبرس، وقد شركه في دمشق الملك المجاهد سنجر.

وكذلك كان القضاء في أولها بالشام لابن سني الدولة صدر الدين، ثم صار للكمال عمر التفليسي من جهة هولاكو، ثم لابن الزكي، ثم لنجم الدين بن سني الدولة. وكذلك كان خطيب جامع دمشق عماد الدين بن الحرستاني من سنين متطاولة، فعزل في شوال منها بالعماد الأسعردي، وكان صيناً قارئاً مجيداً، ثم أعيد العماد الحرستاني في أول ذي القعدة منها. فسبحان من بيده الأمور يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

ولا تقارن فرحة النصر لدين الله والرفعة للإسلام والعزة للمسلمين، بفرحة الطعام والشراب والمال والجاه والسلطان. ودخل الجيش المملوكي المسلم دمشق، واستتب الأمن الحقيقي بسرعة عجيبة، ولم يحدث شيء مما يقع عند دخول المستعمرين البلاد، واستقر الوضع بسرعة، وحفظ الأعراض والنفوس والأموال لكل الساكنين من نصارى ويهود، وقام قطز بعزل ابن الزكي قاضي دمشق الذي عينه التتار وكان موالياً لهم، وعين مكانه نجم الدين أبا بكر بن صدر الدين بن سني الدولة وبدأ يفصل في القضايا، ويحكم في المخالفات التي تمت بين المسلمين والنصارى حتى لا يظلم نصراني في بلاد المسلمين، هذا مع كل ما فعله النصارى بالمسلمين في أثناء احتلال التتار للمدينة، وكان في اليوم الثاني لدخول قطز إلى دمشق عيدُ الفطر له طعمه الخاص ومكانته المتميزة؛ لأنه كان أيضاً عيداً للنصر والتمكين.

لم يضيع قطز وقتاً، بل أرسل مقدمة جيشه بقيادة بيبرس؛ لتتبع الفارين من التتار، وتطهير مدن الشام الأخرى من الحاميات التترية، وطارد المغول في أعالي بلاد الشام حتى لحق بهم في حمص، وفرّ المغول بحياتهم، وألقوا ما كان معهم من متاع وغيره، وأطلقوا الأسرى وعرّجوا نحو طريق الساحل، فتخطف المسلمون منهم، وقتلوا خلقاً كثيراً وأسروا أكثر، فلما بلغ هولاكو كسرة عسكره وقتل نائبه كتبغا عظم عليه، فإنه لم يكسر له عسكر قبل ذلك ورحل من يومه.

ثم قدم الخبر على السلطان بدمشق في شوال، بأن المنهزمين من رجال التتار ونسائهم لحقهم الطلب من الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري، فإن بيبرس كان تقدم قبل السلطان إلى دمشق يتبع آثار التتار إلى قرب حلب، فلما قرب منهم بيبرس، سيّبوا ما كان في أيديهم من أسارى المسلمين ورموا أولادهم، فتخطفهم الناس، وقاسوا من البلاء ما يستحقونه. وبعد هذه المعركة تطهرت الشام من التتار، وانكفؤا على أنفسهم، ولم يقدروا على شيء، واستطاع المسلمون تطهير بلاد الشام كلها، في بضعة أسابيع، وأعلن قطز توحيد مصر والشام من جديد في دولة واحدة تحت زعامته، بعد عشر سنوات من الفرقة، وذلك منذ وفاة السلطان المجاهد الملك الصالح نجم الدين أيوب - رحمه الله - في سنة ٦٤٨هـ، وخُطب لقطز على المنابر في كل المدن المصرية والفلسطينية والشامية، حتى خطب له في أعالي بلاد الشام والمدن حول نهر الفرات، وعاش المسلمون أياماً من أسعد أيامهم.

ترتيب البيت الداخلي في الشام: شرع السلطان سيف الدين قطز في ترتيب أحوال الشام بسرعة؛ حتى يتمكن من العودة إلى مصر. ولما قدم الملك المظفر إلى دمشق أحسن إلى الناس، وأجراهم على عوائدهم وقواعدهم إلى آخر أيام الملك الناصر صلاح الدين يوسف (الذي قتله التتار)، فأقطع الأمراء الصالحية والمعزية وأصحابه إقطاعات الشام، وجعل نائبه على دمشق الأمير علم الدين سنجر الحلبي، وأعاد ملوك الأيوبيين أصحاب العروش الصغيرة إلى عروشهم ملوكاً تابعين لسلطان مصر المملوكي، وبعث إليه الأشرف موسى، حاكم حمص، الذي كان هولاكو قد عينه نائباً له في حكمها وفي بلاد الشام، يطلب الأمان، فاستجاب قطز وأمّنه على عرشه، كذلك بعث بالملك المظفر علاء الدين علي بن بدر الدين لؤلؤ صاحب سنجار ليكون نائباً للسلطان في مدينة حلب، ووزع الإقطاعات في المناطق الريفية المحيطة بحلب على الأمراء الموالين له. كذلك قام سيف الدين قطز ببعض التعديلات الإدارية البسيطة في بلاد الشام، فأقر الملك المنصور على ما كان عليه (وكان حضر مع الملك المظفر قطز من مصر وقاتل معه)، فأقرّه على حماه وبارين، وأعاد له المعرّة التي كانت بيد حكام حلب منذ سنة ٦٣٥هـ. ومن ناحية أخرى، أخذ منه سلمية وأعطاها الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا بن مانع أمير العرب. وعين الأمير جمال شمس الدين أقوش البرلي العزيزي أميراً بالساحل وغزة ومعه عدد من أمراء العزيزية، وكان هذا الأمير قد فارق الناصر يوسف، صاحب دمشق وحلب، وانضم إلى قوات السلطان قطز في القاهرة، ثم خرج في جيش السلطان وحارب معه في عين جالوت (وهو الذي قتل كتبغا نوين قائد جيش التتار). ثم أمر بشنق حسين الكردي الطبردار، فشنق؛ لأنه دلّ على الملك الناصر.

ويتتبع الذهبي نهاية الناصر يوسف، في "تاريخ الإسلام"، تحت وفيات ٦٥٩هـ:

(حكى علاء الدين بن نصر الله أن الملك الناصر جاء إلى داره يقتة، قال: فمددت له في الوقت سماطاً بالدجاج المحشي بالسكر والفستق وغيره، فتعجب وقال: كيف تهيأ لك هذا؟ فقلت: هو من نعمتك، اشتريته من عند باب القلعة. وكانت نفقة مطابخه وما يتعلق بها في كل يوم أكثر من عشرين ألف درهم...

وقال ابو شامة: وفي منتصف صفر، ورد الخبر إلى دمشق باستيلاء التتار على حلب بالسيف، فهرب صاحبها من دمشق بأمراته الموافقين له على سوء تدبيره وزال مُلكه عن البلاد، ودخلت رسُل التتار بعده بيوم إلى دمشق، وقرئ فرمان الملك بأمان دمشق وما حولها. ووصل الناصر إلى غزة، ثم إلى قطيا، فتفرق عنه عسكره، فتوجه في خواصه إلى وادي موسى، ثم جاء إلى بركة زيزا، فكبسه كتبغا، فهرب، ثم أتى التتار بالأمان، فكان معهم في ذل وهوان. وكان قد هرب إلى البراري، فساقوا خلفه، فاخذوه وقد بلغت عنده شربة الماء نحو مئة دينار. فأتوا به إلى مقدم التتار كتبغا وهو يحاصر عجلون، فوعده وكذبه، وسقاه خمراً صرْفاً، فسكر، وطلبوا منه تسليم قلعة عجلون، فجاء إلى نائبها، وأمره بتسليمها، ففعل، ودخلها التتار، فنهبوا جميع ما فيها. ثم ساروا بالناصر وأخيه إلى هولاكو. قال قطب الدين: فأكرمه وأحسن إليه، فلما بلغه كسر عسكره بعين جالوت غضب، وأمر بقتله، فاعتذر إليه، فأمسك عن قتله، لكن أعرض عنه. فلما بلغه كسرة بيدره على حمص استشاط غضباً، وقتله ومن معه، سوى ولده الملك العزيز. وقيل: إنّ قتل الناصر كان عقيب عين جالوت، في الخامس والعشرين من شوال سنة ثمان، وعاش إحدى وثلاثين سنة وأشهراً. فيقال: قُتل بالصيف، وقيل: إنه خُصّ بعذاب دون أصحابه. وقد اشتهر عنه أنه لما مر به التتار على حلب، وهي خاوية على عروشها، قد هدت أسوارها، وهُدمت قلعتها، وأحرقت دُورها الفاخرة، وباد أهلها، وأصبحت عبرة للناظرين، انهلت مُقلتُه بالعَبْرة، وقال:

يعزّ عليـنـا أنْ تـرى رَبْعَكُـمْ يَبْلَـى ... وكانـت بـه آيـات حُسْـنكم تُتْـلى

وقد أورد له ابن واصل عدة قصائد، ووصفه بالذكاء والفضيلة والكرم، إلى أن قال: وفي سابع جمادى الأولى، عُقد عزاؤه بدمشق بالجامع، لما ورد الخبر بمقتله. قال: وصورته على ما ثبت بالتواتر أن هولاكو لما بلغه قتل كُتْبُغا، ثم كسْرة أصحابه بحمص، أخذ الناصر وأخاه وقال للترجمان: قل له: أنت زعمت أن البلاد ما فيها أحد، وأن من فيها في طاعتك، حتى غرّرت بي وقتلت المغل. فقال الناصر: أما إنهم في طاعتي لو كنتُ في الشام ما ضربَ أحدٌ في وجه غلمانك بسيف. ومن يكون ببلاد توريز، كيف يحكم على من في الشام؟ فرماه هولاكو بالنشاب فأصابه فقال: الصنيعة يا خوند. فقال أخوه الملك الظاهر: اسكت، تقول لهذا الكلب هذا القول وقد حضرت. فرماه هولاكو بفردة ثانية فقتله. ثم أخرج الملك الظاهر وبقية أصحابهم، فضربت أعناقهم).

مقاتل المماليك: دباية بشرية مُدججة بأنواع السلاح

وهكذا قام السلطان قطز بترتيب حكم الشام، وأعاد إلى ربوعها الأمن والاستقرار الذي كان مفقوداً منذ غزاها المغول. توجه السلطان سيف الدين قطز في اليوم ٢٦ شوال ٦٥٨هـ بجيشه الظافر صوب مصر، وبينما كانت القاهرة تتزين لاستقبال القائد المنتصر، جاء أجل سيف الدين قطز.

نتائج الانتصار في عين جالوت وإفرازاته وأبعاده:

١. حطم الانتصار الإسلامي الساحق في معركة عين جالوت أسطورة جيش المغول الذي لا يُقهر، وكسرت عين جالوت الحاجز النفسي بالنقص أمام تفوق المغول العسكري.

٢. مثّل انتصار عين جالوت مَعْلماً جهادياً مُتميزاً، وبداية الفتوح المباركة لبلاد الشام كلها، وأرجع الحقوق المسلوبة إلى نصابها، والممتلكات المغتصبة إلى أصحابها.

٣. يمثل اصطدام المماليك بالمغول في عين جالوت المعركة المفصلية الكبرى في التاريخ العالمي وفي التاريخ الإسلامي، وأمن سلامة المستقبل لمسارات كلٍّ من الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، على السواء. لقد كان انتصار الإسلام في عين جالوت انتصاراً للغة العربية، لغة الإسلام، فلو انتصر المغول على مصر

العروبة والإسلام، لانتهى الإسلام – لا قدّر الله – ولَماتت لغته العربية، ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره. كذلك لو نجح المغول في اجتياح مصر لكانت لهم القدرة، بعد عودة هولاكو، من الاستمرار في اجتياح الشمال الإفريقي والتقدم إلى مضائق جبل طارق. ولكان المغول يحوّطون أوروبا كالسوار حول المعصم من بولندا شرقاً ومن إسبانيا غرباً. وتحت ظروف كهذه، ما كان للنهضة الأوروبية أن تحدث. ولكان من المؤكد أن تكون ضعيفة الأساسات، بل لكان العالم كله يختلف تماماً عما هو عليه اليوم.

٤. كان الانتصار الإسلامي الساحق الماحق على المغول في عين جالوت بداية النهاية للمغول الكفار، وإرهاصات البداية لهداية المغول واعتناقهم الإسلام. فلا يفلّ الحديد إلا الحديد، والحديد بالحديد يفلح. ونصر الإسلام في عين جالوت هو نصر الله لدينه الحق وإظهاره على الدين كله، ولو كره الكافرون.

٥. وبقدر ما أنقذت المعركة مدينة القاهرة من مصير الدمار الأكيد الذي حلّ ببغداد وحلب وباقي مدن الشام، فإنّ معركة عين جالوت وضعت اللمسات الأخيرة ومسك الختام في القضاء المحتوم على الدويلات الصليبية المتبقية والضعيفة نسبياً.

٦. وارتفعت، بهذه المعركة، مصرُ المماليك إلى قمة الذروة والقوة الإسلامية سياسياً، وعسكرياً، وثقافياً، واستطاعت المحافظة على مركزها الطليعي هذا قرابة ٢٥٠ سنة، حتى بزوغ نجم العثمانيين. وصدق المصطفى في أحاديثه عن مناقب مصر، حين قال ﷺ: «الله الله في قبط مصر؛ فإنكم ستظهرون عليهم، ويكونون لكم عدة وأعواناً في سبيل الله». صححه الألباني: السلسلة الصحيحة ٣١١٣.

وروى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي ذرٍّ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنكم ستفتحون أرضاً يذكر فيها القيراط، فاستوصوا بأهلها خيراً، فإن لهم ذمةً ورحماً». قال الإمام النووي، في شرح مسلم وفي رياض الصالحين: أما الرحم فلكون هاجر أم إسماعيل منهم، وأما الصهر فلكون مارية أم إبراهيم منهم.

وروى ابن عبد الحكم في فتوح مصر: "إذا فتح الله عليكم مصر، فاتخذوا فيها جنداً كثيفاً، فذلك الجند خير أجناد. فقال أبو بكر: ولم يا رسول الله؟ قال: لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة". أخرجه ابن عبد الحكم في فتوح مصر، والدارقطني في المؤتلف والمختلف، وابن عساكر في تاريخ دمشق وإسنادُه ضعيف؛ لأنّ مداره على ابن لهيعة وهو ضعيف، وفيه الأسود بن مالك لا يوجد له ترجمة، وبحير بن ذاخر مجهول الحال.

٧. **موقف هولاكو من الهزيمة:** لم يستطع هولاكو، بفضل الله ومنته الكبرى على المسلمين، لتقدم غرباً لمساعدة جيوشه المهزومة في عين جالوت؛ لاشتغاله في حروب طاحنة مع منافسيه من أهل بيته (بفضل الله ومنّه على المسلمين حين يصدقون النية لله)، وعلى رأسهم ابن عمه زعيم القبيلة الذهبية، بركة خان المسلم المجاهد، واكتفى هولاكو بأن عمل على مراسلة الخان الأعظم في قراقورم، فأخبره بما حلّ بالمغول في بلاد الشام من هزيمة على يد سلطان مصر. فما كان من الخان الأعظم إلا أن أصدر مرسوماً يقضي بإعطاء هولاكو البلاد الواقعة بين نهر جيحون حتى بلاد الشام، قاصداً بذلك رفع معنويات هولاكو وجيوشه، وتشجيعه على معاودة حرب المماليك، وبدأ هولاكو يستعد لحرب المسلمين، لكن الموت عاجله بجلطة في المخ (كان أصلاً مصاباً بالصرَع) في سنة ٦٦٣هـ /١٢٦٥م، فتوفي دون أن يحقق حلمه بضمّ مصر والشام إلى ممتلكاته (أهلكه الله – انظر ترجمته فيما سيأتي: اعتناق المغول الإسلام). ولكن حصلت معركة حمص الأولى بين بقايا المغول في الشام والبيت الأيوبي، وكانت مسك الختام لانكسار المغول في الشام (انظر فيما سيأتي).

وفاة الملك المظفر قطز:

وكان الملك المظفر قطز قد وعد الأمير بيبرس بحلب وأعمالها، فلما انتصر على التتار، انثنى عزمه عن عطائه حلب وولاها علاء الدين علي بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، فكان ذلك سبب الوحشة بين بيبرس والملك المظفر قطز. فقد ساق بيبرس وراء التتار إلى حلب، وطردهم عن البلاد، ووعده السلطان بحلب، ثم رجع عن ذلك، فتأثر بيبرس ووقعت الوحشة بينهما، فأضمر كل لصاحبه الشر، فاتفق بيبرس وجماعة من الأمراء على قتل المظفر (علماً أن المظفر قطز قد قتل سابقاً مقدّمهم فارس الدين أقطاي الجمندار)، فقتلوه في الطريق في ١٦ ذي القعدة سنة ٦٥٨هـ بين العرابي والصالحية.

يذكر الإمام الذهبي في "تاريخ الإسلام"، تحت حوادث عام ٦٥٨هـ:

(**العَوْد المظفر إلى مصر**) وأقام المظفر نحو الشهر، وسار إلى الديار المصرية. ونقل الصاحب عز الدين بن شداد ن المظفر لما ملك دمشق، عزم على التوجه إلى حلب لينظف آثار التتار من البلاد، فوشى إليه واشٍ أن ركن الدين لبندقداري قد تنكر له وتغير عليه: وأنه عامل عليك. فصرف وجهه عن قصده، وعزم على التوجه إلى مصر وقد ضمر الشر لبندقداري، وأسر ذلك إلى بعض خواصه، فاطلع على ذلك البندقداري.

قتل المظفر قطزًا ثم ساروا والحقود ظاهرة في العيون والخدود، وكل منهما متحرس من الآخر، إلى أن أجمع ركن الدين البندقداري على قتل المظفر. واتفق والأمراء: سيف الدين بلبان الرشيدي، وبهادر المعزي، وبيدغان لركني، وبكتوت الجوكندار، وبلبان الهاروني، وأنس الأصبهاني. فلما قارب القصر الذي بالرمل عرج للصيد، ثم رجع، فسايره البندقداري وأصحابه، وحادثه، وطلب منه امرأة من سبي التتار، فأنعم له بها، فأخذ يده ليقبلها، وكانت تلك إشارة بينه وبين أولئك، فبادره بدر الدين بكتوت الجوكندار المعزي، فضربه بالسيف على عاتقه فأبانه، ثم رماه بهادر المعزي بسهم قضى عليه، وذلك يوم سادس عشر ذي القعدة.

السلطنة لبيبرس ثم ساروا إلى الدهليز، وضربوا مشورة فيمن يملكوه عليهم، فاتفقوا على ركن الدين لبندقداري، وتقدم الأمير فارس الدين أقطاي المعروف بالأتابك فبايعه، ثم تلاه الرشيدي، ولُقّب بالملك القاهر، ثم ساق هو والأتابك، وقلاوون الذي تسلطن، والبيسري، وجماعة، وقصد قلعة مصر، ورتب أقوش النجيبي أستاذ دارة، وعز الدين الأخرم أمير جندار، فخرج نائب الملك المظفر على القاهرة للقائه، وهو الأمير عز الدين الحلي، فصادف هؤلاء، فأخبروه بما وقع، فحلف لركن الدين، ورد إلى القلعة ووقف على بابها ينتظره، وكانت القاهرة قد بنت لقدوم لمظفر وهم في فرحة، فلما طلع الضوء، لم يشعروا إلا والمنادي يقول: معشر الناس، ادعوا لسلطانكم الملك القاهر ركن الدنيا والدين. ووعدهم بالإحسان وإزالة... لأن المظفر كان قد أحدث على المصريين حوادث كثيرة، منها تصقيع الأملاك وتقويمها وزكاتها، وأخذ ثلث الزكاة، وثلث التركات، وعن كل إنسان دينار واحد، ومضاعف الزكاة، فبلغ ذلك في العام ست مئة ألف دينار، فأطلق لهم ذلك. وجلس على تخت الملك يوم لأحد، وذلك اليوم الثاني من قتله للمظفر، فأشار عليه الوزير زين الدين بن الزبير، وكان منشئاً بليغاً، بأن يغير هذا اللقب، وقال: ما لقب به أحد فأفلح. لقب به القاهر بن المعتضد فسُمل بعد قليل وخلع، ولقب به الملك القاهر بن صاحب الموصل فسُمّ، فابطل السلطان هذا اللقب وتلقب بالملك الظاهر) انتهى

ولم يخلف الملك المظفر قطز ولداً ذكراً، وكان قتله يوم السبت ١٦ ذي القعدة سنة ٦٥٨هـ. فتكون مدة سلطنة الملك المظفر قطز سنة إلا يوماً واحداً، فإنه تسلطن يوم السبت ١٧ ذي القعدة من سنة ٦٥٧هـ. أما الملك المظفر قطز، فإنه دفن موضع قتله — رحمه الله تعالى — وكثر أسف الناس وحزنهم عليه. ثم عمّى بيبرس على

موضع دفن قطز. قال عنه الحافظ الذهبي في "تاريخ الإسلام": (وكان المظفر أكبر مماليك الملك المعز أيبك التركماني، وكان بطلاً شجاعاً مقداماً حزماً حسن التدبير يرجع إلى دين وإسلام وخير، وله اليد البيضاء في جهاد التتار. فعوّض الله شبابه بالجنة ورضي عنه).

وكانت مصر قد زينت للملك المظفر فاستمرت الزينة. ركب بيبرس، وساق في جماعة من أصحابه، حتى وصل إلى قلعة الجبل، فدخلها من غير ممانع واستقر ملكه. وكان الذي ركب معه من الصالحية إلى القلعة، وهم خواصه من خشداشيته وهم: فارس الدين الأتابك، وبيسرى، وقلاوون الألفي، وبيليك الخازندار، وبلبان الرشيدي. ثم في يوم الأحد ١٧ ذي القعدة وهو صبيحة قتل المظفر قطز، وهو أول يوم من سلطنة الظاهر بيبرس، جلس بالإيوان من قلعة الجبل.

ولما جلس الظاهر بالإيوان، رسم أن يكتب إلى الأقطار بسلطنته، فأول من بدأ به الملك الأشرف صاحب حمص، ثم الملك المنصور صاحب حماه، ثم الأمير مظفر الدين صاحب صهيون، ثم إلى الإسماعيلية، ثم إلى الملك السعيد المظفر علاء الدين علي بن لؤلؤ صاحب الموصل الذي صار نائب السلطنة بحلب، ثم إلى من في بلاد الشام يعرفهم بما جرى.

ثم أفرج عمن بالحبوس، من أصحاب الجرائم، وأقرّ الصاحب زين الدين يعقوب بن الزبير على الوزارة، وتقدم بالإفراج عن الأجناد المحبوسين، والإنعام عليهم وزيادة من رأى استحقاقه من الأمراء، وخلع عليهم وسير الأمير جمال الدين آقوش المحمدي بتواقيع للأمير سنجر الحلبي نائب دمشق، فتوجه إليه فوجده قد تسلطن بدمشق ودعا لنفسه وحلف الأمراء وتلقب بالملك المجاهد، فعظم ذلك على الملك الظاهر بيبرس، وأخذ في إصلاح أمره معه والإحسان إلى خشداشيته البحرية الصالحية وأمر أعيانهم. ثم إنه أخرج الملك المنصور نور الدين علياً بن الملك المعز أيبك التركماني وأمه وأخاه ناصر الدين فاقان من مصر إلى بلاد الأشكري، وكانوا معتقلين بقلعة الجبل. ودخل مصر، وأزال عن أهلها ما كان المظفر أحدثه عليهم من المظالم.

وقفة مع قتل ملوك المماليك: عدل الله وفضله، وجزاء من جنس العمل:

- الحظ أن الملك المعظم توران شاه بن الصالح نجم الدين أيوب قد قتل، قتله فارس الدين أقطاي.
- ثم إنّ فارس الدين أقطاي قد قتل، قتله قطز بأمر الملك المعز أيبك.
- ثم إنّ شجرة الدر قامت فقتلت الملك المعز أيبك.
- ثم إن جواري الزوجة الأولى للملك المعز ايبك، قتلن شجرة الدر.
- ثم إن بيبرس قد قتل قطز؛ لنقضه الوعد بتأميره على حلب، ونقتله فارس الدين أقطاي.

وما هذا إلا عدلٌ إلهي، وفضل رباني، يتطهيرهم من الذنوب في الدنيا بالقتل جزاءً من جنس عملهم؛ لكي يلاقوا الله تعالى يوم القيامة وهم أنقياء من ذنوبهم. فإن الله لا يُثني عليهم العقوبة في الدنيا والآخرة. عما الله تعالى عنهم جميعاً، وتغمّدهم برحمته الواسعة. فلقد أبلوا خير بلاء في نصرة الإسلام، في أحلك مدة في تاريخ الإسلام.

معركة حمص الأولى، أو وقعة حمص "القيقان": (الآن غير واحد حدث أنه رأى فيقاناً عظيمة – جمع قوق، وهو طائر مائي طويل العنق – قد نزلت وقت المصاف على التتار تضرب في وجوههم). تمثل مسك الختام والامتداد النهائي لمعركة عين جالوت، ومعارك حمص الأولى والثانية والثالثة، وموقعة شقحب كلها قريبة من مرقد خالد بن الوليد في حمص، حيث استلهام البطولة وذكريات الانتصارات لسيف الله المسلول في أرض الشام المباركة.

ولما صح عند التتار قتل الملك المظفر قطز –رحمه الله تعالى– وكان النائب ابن صاحب الموصل أساء السيرة في الجند والرعية، فاجتمع رأي الأمراء والجند بحلب على قبضه وإخراجه من حلب، وتحالفوا على ذلك، وعينوا للقيام بالأمر الأمير حسام الدين الجوكنداري العزيزي، فبينما هم على ذلك، وردت عليهم بطاقة نائب البيرة، يخبر أن التتار قاربوا البيرة لمحاصرتها، واستصرخ بهم لينجدوه بعسكر.

وكان التتار قد هدموا أبراج البيرة وأسوارها، فلما وصلوا إلى عمق البيرة، صادفوا التتار بجموعهم فاقتتلوا قتالاً شديداً وقتلوا من المسلمين جماعة كثيرة، وما سلم منهم إلا القليل. وورد هذا الخبر لحلب، فجفل أهل حلب إلى جهة القبة ولم يبق بها إلا القليل. ثم بعد أيام قلائل دهم العدو حلب، فاندفع الأمير حسام الدين الجوكنداري المقدم على عسكر حلب بمن معه إلى جهة دمشق، ودخلت التتار حلب، وأخرجوا من كان فيها إلى ظاهر حلب، ووضعوا السيف فيهم فقتل بعضهم وفر بعضهم.

ونزل العسكر الحلبي بظاهر حماة، فقام الملك المنصور بضيافتهم ثم تقدم التتار إلى حماة، فلما قاربوا منها، رحل صاحبها الملك المنصور ومعه الجوكنداري بعساكر حلب إلى حمص، ونزل التتار على حماة، فامتنعت عليهم، فاندفعوا من حماة طالبين العسكر، وجفل الناس بين أيديهم، وخاف أهل دمشق خوفاً شديداً، وأقام الجميع على حمص، حتى قدم إليهم التتار في أوائل المحرم من سنة ٦٥٩هـ، وكانوا في ستة آلاف فارس فخرج إليهم الملك المنصور صاحب حماة، والأشرف صاحب حمص، والجوكنداري العزيزي بعساكر حلب، وحملوا عليهم حملة رجل واحد، فهزموهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وهرب الأمير بيدرا مقدم التتار في نفر يسير، وكانت الوقعة عند قبر خالد بن الوليد ﷺ، ثم عاد التتار إلى حلب، وفعلوا بأهلها تلك الأفعال القبيحة على عادتهم. ثم جهز الملك الظاهر عسكراً لخروج التتار من حلب، فساروا إليها وأخرجوهم منها على أقبح وجه. كل ذلك والدنيا بلا خليفة من سنة ست وخمسين وست مئة.

يذكر الإمام الذهبي في "تاريخ الإسلام" بركات الله على المسلمين **بأحداث سنة ٦٥٩هـ**. فيقول: (**وقعة حمص**) وكانت في خامس المحرم. اجتمع عدد من التتار الذين نجوا من عين جالوت، والذين كانوا بحران والجزيرة، وكانوا قد ملكوا من القحط فأغاروا على حلب، وقتلوا أهلها بقربليا، ثم ساقوا إلى حمص لما علموا بقتلة الملك المظفر، وأن العساكر مختلفة، فوجدوا على حمص الأمير حسام الدين الجوكندار ومعه العسكر الذين كانوا بحلب، والملك المنصور صاحب حماه، والملك الأشرف صاحب حمص، وعدتهم ألف وأربع مئة، فحملوا على التتار وهم في ستة آلاف فارس حملة صادقة فكسروهم وركبوا أقفيتهم قتلاً حتى أتى القتل على معظمهم، وهرب مقدمهم بيدرا في نفر يسير بأسوأ حال. وكانت الوقعة عند تربة خالد بن الوليد ﷺ. وتسمى **وقعة حمص "القيقان"**: لأن غير واحد حدث أنه رأى قيقاناً عظيمة قد نزلت وقت المصاف على التتار تضرب في وجوههم. وحكى بدر الدين محمد بن عز الدين حسن القيمري، وكان صدوقاً، قال: كنت مع صاحب حماه، فوالله، لقد رأيت بعيني طيوراً بيضاء وهي تضرب في وجوه التتار يومئذ. نقله عنه الجزري في "تاريخه". وقال أبو شامة: جاء الخبر بأن التتار كسروا بأرض حمص كسرة عظيمة وضربت البشائر، وكانت الوقعة عند قبر خالد إلى قريب الرستن، وذلك يوم الجمعة خامس المحرم، وقتل منهم فوق الألف، ولم يُقتل من المسلمين سوى رجل واحد. ثم جاءت رؤوسهم إلى دمشق. قلت: حكى أبي أنهم جابوها في شراع، وكنا نتعجب من كبر تلك الرؤوس كأنها رؤوس المُغل.

الهزيمة الفرنجا قال: وفيه، يعني ربيع الأول، خرج الفرنج في تسع مئة قنطارية، وخمس مئة تركُبُلي، ونحو ثلاثة آلاف راجل، فأخذ الجميع قتلاً وأسراً، ولم يفلت منهم سوى واحد. قلت: انتدب لقتالهم الفاخرية التركمان، فأخلوا لهم بيوتهم وهربوا، وكمنوا لهم، ثم نزلوا عليهم وبيتوهم، وأراح الله منهم. وكان خروجهم من عكا وصيدا.

[والعزاء بالملك الناصر يوسفا عُقد العزاء في جمادى الأولى بجامع دمشق للملك الناصر. جاء الخبر انه ضُربت رقبته مع جماعة لما بلغهم أن المصريين كسروهم على عين جالوت.

[الخُلف بين هولاكو وبركة] ووقع الخلف بين هولاكو وبركة، وأظهر بركة عداوته، وبعث الرسل إلى الملك الظاهر بالموادة واجتماع الكلمة، ويحرضه على حرب هولاكو، ثم جرى بينهما مصاف، كما يأتي إن شاء الله تعالى.

[دخول اول دفعة من التتار في الإسلام] ووصل إلى دمشق في ذي الحجة من التتار نحو المئتين هاربين إلى المسلمين، فأعطوا أخباراً. وهم أول من فرّ من التتار ودخل في الإسلام.

[استرجاع الروم القسطنطينية من الفرنج] تحزبت نصارى الروم في سنة ستين وحشدوا، وأخذوا مدينة القسطنطينية من الفرنج. وكان الفرنج قد استولوا عليها من سنة ست مئة. أرّخ ذلك الملك المؤيد رحمه الله. انتهت وقائع هذه الطبقة، والحمد لله وحده).

الملك الظاهر، أبو الفتوح، الأسد الضاري، ركن الدين بيبرس البندقداري (حكم ٦٥٨هـ ٦٧٦هـ / ١٢٦٠م ١٢٧٠م)

يمثل بيبرس ظاهرة فريدة جداً في التاريخ الإسلامي وتاريخ الجهاد المزدوج ضد الصليبيين والمغول في آن واحد، وفي مدة عصيبة جداً من أخطر مدد التاريخ الإسلامي على الإطلاق. وكان طوال حكمه مُكللاً بالانتصارات وقضى معظم سنوات حكمه مُجاهداً بنفسه قائداً لجيوشه في معارك متكررة ضد الصليبيين والمغول وحلفائهم، وكانت الغلبة فيها دائماً إلى جانبه والنصر حليفاً له، بتوفيق الله وفضله. فلا غرابة في تسمية هذا السلطان المجاهد في جميع أرجاء العالم الإسلامي. وتسمّى الكثير من المسلمين باسمه. فهو الذي قهر ٣ حملات صليبية (الحملة الصليبية السابعة على مصر، والحملة الصليبية الثامنة على تونس، والحملة الصليبية التاسعة على فلسطين) ولبيبرس الفعل الأكبر في الانتصار بعين جالوت، المعركة المفصلية الكبرى في تاريخ الإسلام والعالم: فهو الذي انقضّ على حامية غزة المغولية وهزمها شرّ هزيمة، وهو الذي كان رأس الحربة للفرقة الطليعية التي صدمت المغول، وهو الذي تصنع الانكسار والانسحاب، ونجح بجرّ جيش المغول واستدراجه إلى كمين المسلمين في عين جالوت ومباغتته هناك بجحافل الإسلام، حسب الخطة المسماة عسكرياً بالانسحاب الكاذب، وهو الذي قاد فرقة الشجعان لمطاردة فلول المغول الهاربة وقتلها وتمشيط حلب وحمص وباقي مدن الشام منهم. استمر حكم هذا السلطان المجاهد بيبرس البندقداري مدة ١٩ عاماً، كانت بركة وفتحاً للإسلام وحفظاً لبيضة الإسلام من كل أعدائه.

وكان بيبرس عبقرياً، متوقد الذكاء، ذا فكر خلاّق. فمن بنات أفكاره: إعادة إحياء الخلافة العباسية في القاهرة، بعد قضاء المغول عليها في اجتياحهم وتدميرهم بغداد. وتكثيف الدعوة الإسلامية للمغول، وإقامة حلف دفاعي مع المغول المسلمين ضد المغول الكفار، واستقدام المسلمين منهم لمصر لمبايعة الخليفة ومعايشة الإسلام في مصر، وعسكرة العالم الإسلامي بالتدريب والجهاد والرباط والمصابرة الدائمة في الثغور ضد الصليبيين والمغول. بل قام أيضاً بتوظيف الحشاشين في الشام عام ١٢٧٣م لمصلحة الإسلام، باستئجارهم للقيام بالاغتيالات انتقامية ضد الصليبيين وأعداء الإسلام، مقابل أجر ثابت لكل عملية فدائية، ثم إنه سجل ذلك الرحالة العربي ابن بطوطة (بدلاً من استخدام أعداء الإسلام والصليبيين لهم ضد زعماء المسلمين).

ولإسناد حملاته العسكرية أيضاً، قام بيبرس بإنشاء دور صناعات السلاح (الترسانات)، وتصنيع السفن الحربية وسفن الحمولة لإنشاء الأسطول المصري وتقويته. وحدّث أيضاً الكثير من آلة الحرب البرية الثقيلة لحصار

القلاع والحصون، ويقال: إنه أول من استخدم المتفجرات في المدافع اليدوية المتنقلة في الحروب، في عين جالوت، وفي حملاته العسكرية (هذه المدافع بدائية تحدث صوت انفجار مدوٍّ، وهذا يحدث اضطراباً في قوات العدو). وامتدت حملاته العسكرية إلى آخر أطراف الشام وسواحلها، وإلى ليبيا وبلاد النوبة. وكان إدارياً بارعاً ورجلاً مؤسساتياً يعمل بروح الفريق، وقد أرسى دعائم الحكم ونظم شؤون البلاد، وبسط الأمن وأحل السلام. وأنشأ العديد من مشروعات البنية التحتية، مثل منظومة البريد بالخيل والتسلُّم السريع، ووصول البريد من القاهرة إلى دمشق في أربعة أيام. وأنشأ عدة جسور، وقنوات للريّ وللملاحة، وطوّر الموانئ، وبنى المدارس والمستشفيات والمساجد. وكان راعياً للعلوم الإسلامية، مثل مساعدة البحوث الطبية وتطويرها لطبيبه العربيّ ابن النفيس الدمشقيّ. أسس المدرسة الظاهرية وهي بجوار ضريحه في دمشق. هذا والمكتبة الظاهرية تزخر بنفائس المخطوطات في شتى المعارف، وما زالت موجودة إلى اليوم في دمشق.

صورة فنية تظهر الملك الظاهر بيبرس، وهو يقاتل المغول والصليبيين في معارك الجهاد

إقامة الخلافة العباسية في مصر: ولما أخذ التتار بغداد، وقتل الخليفة، وجرى ما جرى، أقامت الدنيا بلا خليفة ثلاث سنين ونصف سنة؛ وذلك من يوم الأربعاء ١٤ صفر سنة ٦٥٦هـ، وهو يوم قتل الخليفة المستعصم – رحمه الله – إلى سنة ٦٥٩هـ؛ فلما كان رجب من هذه السنة، قدم أبو القاسم أحمد بن أمير المؤمنين الظاهر بأمر الله، وهو عم الخليفة المستعصم وأخو المستنصر، وقد كان معتقلاً ببغداد ثم أطلق، فكان مع جماعة من الأعراب بالعراق، ثم قصد الملك الظاهر حين بلغه ملكه، فقدم عليه الديار المصرية صحبة جماعة من أمراء الأعراب عشرة، منهم الأمير ناصر الدين مهنا.

وكان دخوله إلى القاهرة في ثاني رجب فخرج السلطان للقائه، ومعه القاضي تاج الدين والوزير والعلماء والأعيان والشهود والمؤذنون فتلقوه، وكان يوماً مشهوداً، وخرج اليهود بتوراتهم والنصارى بإنجيلهم، ودخل من باب النصر بأبهة عظيمة.

فلما كان يوم الإثنين ١٣ رجب ٦٥٩هـ، جلس السلطان والخليفة في الإيوان بقلعة الجبل والقاضي والوزير والأمراء على طبقاتهم، وأثبت نسب الخليفة على القاضي تاج الدين؛ فلما ثبت قام قاضي القضاة قائماً، وأشهد على نفسه بثبوت النسبة الشريفة. ثم كان أول من بايعه شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام، ثم السلطان الملك الظاهر، ثم القاضي تاج الدين، ثم الأمراء والدولة، وركب في دست الخلافة بمصر والأمراء بين يديه، والناس

حوله، وشق القاهرة. وكان يوماً مشهوداً. ولقب المستنصر بالله بلقب أخيه، وخطب له على المنابر، وضرب اسمه على السكة، وكتبت بيعته إلى الآفاق، وأنزل بقلعة الجبل هو وحشمه وخدمه. فلما كان يوم الجمعة سابع عشر رجب، ركب في أبهة السواد، وجاء إلى الجامع بالقلعة فصعد المنبر، وخطب خطبة ذكر فيها شرف بني العباس، ودعا للسلطان، ثم نزل فصلى بالناس، وكان وقتاً حسناً ويوماً مشهوداً.

ثم ركب الخليفة والسلطان والقاضي والوزراء والأمراء في يوم الإثنين ٤ شعبان ٦٥٩هـ، وأهل الحل والعقد إلى خيمة عظيمة قد ضربت ظاهر القاهرة، فألبس الخليفة السلطان بيده خلعة سوداء وعمامة سوداء، وطوقه في عنقه من ذهب، وقيداً من ذهب في رجليه. وفوّض إليه الأمور في البلاد الإسلامية، وما سيفتحه من بلاد الكفر. ولقبه بـ (قسيم أمير المؤمنين)، وصعد فخر الدين بن لقمان رئيس الكتاب منبراً، فقرأ عليه تقليد السلطان.

دعوة المغول إلى الإسلام:

جلب الإسلام انتباه المغول، بعد أن استولى جنكيز خان على أفغانستان. وفي أثناء رجوعه إلى منغوليا عام ١٢٢٢م، زار بخارى في ترانس – أوكسيانا. ويعتقد أنه سأل عن الإسلام، وثم وافق على وجود ذوي العقائد الإسلامية – إضافة إلى النصارى، والطاويين، والبوذيين – ولم يوافق على فريضة الحجّ؛ لأنه رآه غير ضروري. ولكنه استمر في عبادته آلهته (تانكري) كما فعل أسلافه.

يرجع أول ظهور للإسلام في منغوليا إلى ١٢٥٤م، عندما زار الفرانسيسكي (وليم من روبريك) بلاط الخان الأعظم مونغا في قراقورم. احتفل هو بعيد الفصح إيستر والنصارى النسطوريين في الكنيسة، لكنه لحظ أيضاً ٧ معابد للوثنيين (ربما يقصد المعابد البوذية والطاوية)، مع مسجدين للمسلمين. من هنا يؤرخ المؤرخون تاريخ وصول الإسلام إلى منغوليا في المدة ما بين ١٢٢٢م–١٢٥٤م.

لكن الفضل الأكبر يعود (بعد الله) إلى الملك الظاهر بيبرس حاكم المماليك، الذي قام بعمل مهم جداً في اعتناق الكثير من مغول القبيلة الذهبية الإسلام. طور بيبرس علاقات قوية مع مغول القبيلة الذهبية، واتخذ خطوات في ترحيل مغول قبيلة الذهبية إلى مصر. وأدى وصول وفود المغول من القبيلة الذهبية إلى مصر ودعوتهم إلى الإسلام وتعايشهم في البيئة الإسلامية إلى دخول أعداد كبيرة من المغول إلى دين الإسلام. وبانتصارات الإسلام الكاسحة والعديدة ضد المغول منذ عين جالوت أدى إلى دخول المغول بالآلاف المؤلفة. واعتنقت بحلول ١٣٣٠م ثلاثة من الخانات الأربعة العظمى (التي تصنع إمبراطورية المغول) دين الإسلام، وهي القبيلة الذهبية، وأولوس هولاكو، وأولوس شاغاتاي. فضلاً على أنها احتضنت إمبراطورية يوان (الخانة الرابعة) العديد من المسلمين في أقاليمها مثلاً قبائل يوغورز، والقرس (**للمزيد انظر فيما سيأتي: اعتناق المغول الإسلام**).

جهاد الملك الظاهر بيبرس:

وأخبار غزواته تفوق الوصف: إذ انتصر على الصليبيين في أكثر من ٢٠ موقعة، استولى فيها على كثير من حصونهم ومدنهم ودوّخهم، فلم يقدروا عليه. حاصر الظاهر بيبرس في ١٢٦٣م عكا عاصمة ما تبقى من مملكة القدس، فلم يستطع فتحها، لكنه دحر الصليبيين في جميع المعارك اللاحقة (أرسوف، أثليث، حيفا، صفد، يافا، عسقلان، قيصريا). بدأ حصاره على دويلة طرابلس في ١٢٧١م، ثم طلبوا الصلح فقبله في آيار ١٢٧١.

ولعلّ من أعماله العسكرية: غزوه مملكة أرمينيا المعادية في الشمال والمحالفة للمغول، وهدم عاصمتها سيس، واستيلائه على مدن قيصرية وأرسوف ١٢٦٥م، ويافا في ١٢٦٨م، وفتح في أيار/ مايو ١٢٦٨ دويلة أنطاكيا، أعتى المدن الصليبية (قمة أعماله العسكرية ضد الصليبيين – ولم يستطع صلاح الدين الأيوبي فتح أنطاكيا)، ثم

صافيتا وحصن الخروب، ومعظم القلاع الصليبية على الساحل السوري. وحارب الباطنية الملاحدة في شمال سوريا وقضى عليهم، ثم قام بتوظيف الحشاشين تحت المراقبة؛ للقيام بأعمال فدائية معينة مقابل أجر ثابت لكل عملية. وأعاد فتح مملكة أرمينيا وتأديبها مجدداً؛ لنقضها العهود السابقة، ولمساندتهم المغول في حملاتهم على الشام. وتكرر صدّه وتدميره للهجمات المغولية العديدة على سوريا، ولعل من أعظم المعارك ضد المغول (بعد عين جالوت) هي معركة حمص الأولى، وتحرير حلب، ثم دحره الجيش المغولي وإلحاق الهزائم به في موقعة الفرات، وفي موقعة أبلستين (ضد التحالف المغولي - الصليبي).

المماليك بقيادة بيبرس يدحرون حلفاء المغول النصارى الأرمن في معركة ماري عام ١٢٦٦م، ويقتلون أحد أبناء هيثوم الأول ويقبضون على ابنه الثاني (صار من بعد ذلك الملك ليون الثاني). ثم قام المماليك بتدمير بلاد أرمينيا الصغرى

ثم إنه أرسل حملة تأديبية إلى بلاد النوبة في الجنوب، وتوفي عام ١٢٧٩ م في أثناء انهماكه في جولة تفقدية لجنده المرابطين في الثغور، إذ أعيد جثمانه إلى دمشق ودفن في المدرسة الظاهرية التي سبق له أن أنشأها في مدينة دمشق، تلك التي لاتزال قائمة حتى اليوم. وقد عمّت سيرة هذا السلطان المجاهد الشجاع الآفاق في العالم الإسلامي؛ تقديراً لانتصاراته الباهرة وبطولاته الكبيرة في الذود عن حياض الإسلام وديار المسلمين، حتى أصبحت سيرة حياته أسطورة شعبية كبيرة، تتناقلها ألسنة الرواة بالحب والإعجاب من جيل إلى جيل، منافسةً بذلك السير البطولية الأسطورية الشعبية لعنترة بن شداد، وأبي زيد الهلالي، والمهلهل الزير سالم، وغيرهم.

الحملة الصليبية الثامنة (١٢٧٠م) والحملة الصليبية التاسعة (١٢٧١-١٢٧٢م):

انطلق لويس التاسع ملك فرنسا عام ٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م، مع عدد قليل من البارونات والفرسان الفرنسيين، إذ إنّ إخفاق الحملات الصليبية وانحطاط سمعتها صدّهم عنها، حتى إن مؤرخ سيرة حياة لويس التاسع الذي رافقه في حملته السابقة، رفض الانضمام إليه هذه المرة، ويروي هذا المؤرخ أن نبأ الحملة الجديدة كان مفاجئاً جداً بالنسبة إليه شخصياً، وبالنسبة إلى الأشخاص الآخرين المقربين من الملك. وأنه أهش البارونات، وكانت المعارضة مُجمعٌ عليها تقريباً، واضطر الملك إلى شراء حماسة الأسياد بالمال، ونذر الملك الصليبي أبناءه الثلاثة وبعض تابعي الملك الآخرين، واتفقوا على توجه الحملة نحو تونس، بوصفها قاعدة لغزو مصر. بدأت المفاوضات مع المستنصر أمير تونس، ولما نزل الصليبيون في تونس، وصلت المفاوضات إلى طريق مسدود، وعندها انضم شارل الأول كونت أنجو، الأخ الأصغر للويس وملك مملكة نابولي، واستولوا على قلعة قرطاجا القديمة، ولكن وباء الطاعون دبّ في صفوف فرسان الفرنجة، توفي على إثرها الملك وأفراد الأسرة المالكة المرافقة له، باستثناء فيليب الابن البكر للملك الذي شفي، ووصل في اليوم نفسه لوفاة الملك في ٢٥ آب ١٢٧٠م، أخوه شارل الأول، وخاضت قواته برفقة قوات لويس بقيادة خلفه فيليب، بضع معارك ضد قوات أمير تونس، ووقعت معاهدة صلح مع المستنصر في أول

تشرين الثاني ١٢٧٠، ألزمته دفع جزية مضاعفة إلى ملك الصقليين، وشملت حقوقاً تجارية متبادلة، بعد ١٧ يوماً من التوقيع، ركب الصليبيون السفن وغادروا تونس.

ثم قام إدوارد الأول بالحملة الصليبية التاسعة ضد السلطان بيبرس عام ١٢٧١م، وكانت بمنزلة ردة فعل لسقوط دويلة أنطاكيا الصليبية، وكان إدوارد (قبل أن يصبح ملكاً) قد لحق متأخراً ليصحب لويس التاسع في حملته الصليبية الثامنة على تونس عام ١٢٧٠م، فأهلكه الله هناك بالطاعون هو وابنه، وخابت حملته (وقد جيّش له الملك بيبرس حملة مضادة عبر ليبيا، فلما علم بموته رجع).

إدوارد الأول ملك إنكلترا، هو الملك الإنجليزي عديم الرحمة، الذي قتل الثائر الإسكتلندي وليم والاس (كما في الفيلم العالمي: القلب الشجاع Brave Heart). وتعدّ الحملة الصليبية التاسعة خاسرة ايضاً، وهي آخر حملة صليبية على الشرق الأوسط.

كانت آمال الصليبيين في السنوات الأخيرة، وأمام خطر المماليك في مصر معلقةً بالتحالف الصليبي الفرنجي – المغولي. وكان المغول الإيلخانيون متعاطفين ومتعاونين مع النصرانية، بل إن الأمراء الفرنجة تمكنوا من تفعيل تحالفهم وترجمة تعاونهم بفاعلية في عدة حملات مشتركة على الشرق الأوسط عدة مرات، وعلى الرغم من أن المغول استطاعوا بنجاح الهجوم جنوباً في حملات وصلت إلى دمشق، لكن القابلية للتنسيق مع الصليبيين في الغرب كانت محبطة ومخيبة لآمال الصليبيين عدة مرات، خصوصاً ضياع الفرصة لمثل هذا التحالف في معركة عين جالوت عام ١٢٦٠م. وتمكن المماليك أخيراً بالإيفاء بوعودهم الصادقة في تطهير الشرق الأوسط كله من الفرنجة. وبعد سقوط دويلة أنطاكيا (١٢٦٨م على يد الظاهر بيبرس)، ودويلة طرابلس (١٢٨٩م على يد الناصر قلاوون)، وأخيراً مملكة عكا (١٢٩١م على يد الأشرف خليل بن قلاوون)، صار الفرنجة الصليبيون الذين يرفضون الخروج من بلاد المسلمين معرضين للقتل أو للعبودية بوصفهم رقيقاً أبيض، ومن ثم اختفت آخر آثار الحكم الصليبي النصراني في المشرق تماماً.

فتوجه إدوارد بصاحبه أخو الملك لويس التاسع (شارلس من أنجو) إلى مملكة الصليبيين في عكا وقبرص، بوصفهما قاعدتي انطلاق لمساعدة طرابلس الصليبية، وفيها أمير أنطاكيا المخلوع مع رئيس طرابلس في أثناء حصار الملك الظاهر بيبرس لمدينة طرابلس.

غزوات أبو الفتوح الملك الظاهر بيبرس في حربه ضد الفرنجة (الأخضر) والمغول (الأحمر) في أثناء الحملة الصليبية التاسعة

بمجرد وصول إدوارد إلى عكا، بدأ بمحاولته للتحالف الفرنجي – المغولي، وأرسل سفيراً إلى إيلخان المغول "أبغا بن هولاكو" الذي وافق على التعاون العسكري. وبوصول قوات إضافية من قبرص، بدأ إدوارد بالإغارة على قرى أعمال المغول على سوريا في نهاية تشرين الأول ١٢٧١م وانهبوا حلب وما حولها. ولاشتغال "أبغا ابن هولاكو" بصراعاته في تركستان، لم يستطع إرسال أكثر من ١٠ آلاف فارس مغولي بقيادة سماغار، وارتحل المسلمون بالآلاف. لكن المغول لم يثبتوا أمام جيش البطل بيبرس الذي جاءهم من مصر وقارعهم في ١٢ تشرين الثاني ١٢٧١م فهزمهم شر هزيمة فتقهقروا إلى ما وراء الفرات.

وتحسباً لهجوم بري وبحري على مصر، أنشأ الظاهر بيبرس أسطوله البحري، وأخذ زمام المبادرة بهجوم بحري للإنزال في قبرص في ١٢٧١م: من أجل استدراج العدو وسحب قواته من عكا إلى قبرص، لكن العملية البحرية لم تنجح.

أراد إدوارد توقيع هدنة مدة ١١ سنة مع بيبرس؛ وذلك بسبب اختلافات الصليبيين الداخلية بين فرسان الهيكل وبين أسرة الصليبيين في قبرص، لكن بيبرس حاول اغتيال الملك إدوارد بإرسال رجال من فرقة الحشاشين تخفوا كنصارى يطلبون التعميد (وهذا من ذكاء بيبرس)، فاستطاع إدوارد وفرسانه كشفهم وقتلهم. وفتت هذه المحاولة في عضد الملك إدوارد، وثبطت عزائمه للهجوم على القدس. وجاءت الأنباء بوفاة والده الملك هنري الثالث، فوقع الهدنة مع بيبرس على عجل للخروج من معمعة حملته الخاسرة، والرجوع إلى بلاده ليتوّج ملك إنكلترا عام ١٢٧٢م.

وهذه مقتطفات للتوثيقات العربية لفتوحات بيبرس، من كتاب "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" لابن تغري بردي:

أرسل الظاهر بيبرس في سنة ٦٦٤هـ عسكراً، مقدمه الأمير سيف الدين قلاوون الألفي؛ للإغارة على بلاد الساحل، فأغاروا على عكا وصور وطرابلس وحصن الأكراد، وسبوا وغنموا ما لا يحصى. ونزل الملك الظاهر بنفسه على صفد، ثم رحل إلى دمشق، ولما كان الملك الظاهر نازلاً بصفد وصل إليه رسول صاحب صهيون بهدية جليلة ورسالة مضمونها الاعتذار من تأخيره عن الحضور، فقبل الملك الظاهر الهدية والعذر.

ثم وصلت رسل صاحب سيس (عاصمة مملكة الأرمن) أيضاً بهدية، فلم يقبلها ولا سمع رسالتهم. ثم رحل الملك الظاهر من دمشق يوم السبت ثالث ذي القعدة، وأمر العساكر بالتقدم إلى بلاد سيس للإغارة عليها، وقدم عليهم الملك المنصور صاحب حماه، وتدبير الأمور راجع إلى الأمير آق سنقر الفارقاني. فساروا حتى وصلوا إلى الدرب الذي يدخلون منه إليها. وكان صاحبها قد بنى عليها أبرجة فيها المقاتلة، فلما رأوا العسكر تركوها ومضوا، فأخذها المسلمون وهدموها ودخلوا بلاد سيس فنهبوا وأسروا وقتلوا، وكان فيمن أسر ابن صاحب سيس وابن أخته وجماعة من أكابرهم. ودخلوا المدينة يوم السبت ثاني عشر ذي القعدة، وأخذوا منها ما لا يحصى كثرة، وعادوا نحو دمشق. فلما قاربوها، خرج الملك الظاهر لتلقيهم في ٣ ذي الحجة واجتاز بقارة في ٦ ذي الحجة، فأمر بنهبها وقتل من فيها من الفرنج، فإنهم كانوا يخيفون السبيل ويستأسرون المسلمين، فأراح الله منهم وجعلت كنيستها جامعاً، ورتب بقارة خطيباً وقاضياً، ونقل إليها الرعية من المسلمين. ثم التقى العساكر وخلع عليهم وعاد معهم، فدخل دمشق والغنائم والأسرى بين يديه في يوم الإثنين ١٥ شهر ذي الحجة فأقام بها مدة.

ثم خرج منها طالباً الكرك في مستهل المحرم سنة ٦٦٥هـ، ثم عاد الملك الظاهر إلى ديار مصر، وعند عوده إليها وصل إليه رسل صاحب اليمن الملك المظفر شمس الدين يوسف بن عمر، ومعهم فيل وحمار وحش أبيض وأسود وخيول وعيني وتحف، وطلب معاضدة الملك الظاهر له، وشرط له أن يخطب له ببلاده.

ثم خرج السلطان في يوم السبت في ٢ جمادى الآخرة إلى بركة الجب عازماً على قصد الشام على حين غفلة، وجعل نائب السلطنة على مصر الأمير بيليك الخازندار، ورحل في سابع الشهر فوردت عليه رسل صاحب يافا في الطريق فاعتقلهم، وأمر العسكر بلبس آلة الحرب ليلاً، وسار فأصبح يافا وأحاط بها من كل جانب فهرب من كان فيها من الفرنج إلى قلعتها، فملك السلطان المدينة وطلب أهل القلعة الأمان، فأمنهم وعوّضهم عما نهب لهم أربعين ألف درهم، فركبوا في المراكب إلى عكا، وكان أخذ قلعة يافا في الثاني والعشرين من الشهر المذكور وأمر بهدمها.

فلما فرغ السلطان من هدمها، رحل عنها يوم الأربعاء ١٢ رجب طالباً الشقيف فنزل عليه يوم الثلاثاء وحاصرها حتى تسلمها يوم الأحد ٢٩ رجب، وكان الملك الظاهر أيضاً ملك الباشورة بالسيف في ٢٦ منه.

ثم رحل الملك الظاهر عنها بعد أن رتب بها عسكراً في عاشر شعبان وبعث أكثر أثقاله إلى دمشق، وسار إلى طرابلس فشن عليها الغارة، وأخرب قراها وقطع أشجارها وغور أنهارها.

ثم رحل إلى حصن الأكراد، ونزل بالمرج الذي تحته فحضر إليه رسول من قبله بإقامة وضيافة فردها عليه، وطلب منهم دية رجل من أجناده كانوا قتلوه مئة ألف دينار فأرضوه. فرحل إلى حمص ثم إلى حماه ثم إلى أفاميا ثم سار ونزل منزلة أخرى.

فتح انطاكيا: ثم رحل ليلاً وأمر العسكر بلبس آلة الحرب، ونزل انطاكيا في غرة شهر رمضان فخرج إليه جماعة من أهلها يطلبون الأمان، وشرطوا شروطاً لم يجب إليها وزحف عليها فملكها يوم السبت رابع الشهر ورتب على أبوابها جماعة من الأمراء؛ لئلا يخرج أحد من الحرافشة بشيء من النهب ومن يوجد معه شيء يؤخذ منه، فجمع من ذلك ما أمكن جمعه وفرقه على الأمراء والأجناد بحسب مراتبهم. وحصر من قتل بأنطاكيا فكانوا فوق ٤٠ ألفاً وأطلق جماعة من المسلمين. كانوا فيها أسرى من الحلبيين وكتب البشائر بذلك إلى مصر وإلى سائر الأقطار.

وأنطاكيا: مدينة عظيمة مشهورة مسافة سورها اثنا عشر ميلاً وعدد أبراجها مئة وستة وثلاثون برجاً، وعدد شرفاتها أربع وعشرون ألفاً. ولم يفتحها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب – رحمه الله رحمة واسعة – في حين فتح، فكم ترك الأول للآخر.

ولما ملك الملك الظاهر أنطاكيا، وصل إليه قُصّاد من أهل القصير يطلبون تسليمها إليه، فسير السلطان الأمير شمس الدين آق سنقر الفارقاني بالعساكر إليها فوصل إليها، ووجد أكثر أهلها قد برح منها فتسلمها في ثالث عشر شهر رمضان، وكان قد تسلم دركوش بواسطة فخر الدين الجناحي في تاسع شهر رمضان، وعاد إلى دمشق فدخلها في ٢٧ رمضان وعيّد السلطان بقلعة دمشق، ثم عاد إلى القاهرة.

تهديد المغول وجواب بيبرس: ولما صار الملك الظاهر بدمشق، وصلت إليه كتب التتار ورسلهم وأرسل: محب الدين دولة خان وسيف الدين سعيد ترجمان وآخر، ومعهم جماعة من أصحاب سيس، فأنزلهم السلطان بالقلعة وأحضرهم من الغد وأدوا الرسالة ومضمونها:

أن الملك أبغا بن هولاكو، لما خرج من الشرق ملك جميع البلاد ومن خالفه قتل وأنت: يعني للملك الظاهر لو صعدت إلى السماء، أو هبطت إلى الأرض ما تخلص منا، فالمصلحة أن تجعل بيننا صلحاً وأنت مملوك أبعث في سيواس، فكيف تشاق ملوك الأرض وأولاد ملوكها: فأجابه في وقته، بأنه في طلب جميع ما استولوا عليه من العراق والجزيرة والروم والشام، وسفرهم إليه بسرعة.

حجّ الظاهر بيبرس ودعواته عند الحرمين بالنصر، تصدق في المدينة بصدقات كثيرة، وخرج منها متوجهاً إلى مكة، فوصل إليها في ثامن ذي الحجة، فخرج إليه أبو نمي وعمه إدريس صاحبا مكة وبذلا له الطاعة، فخلع عليهما وسارا بين يديه إلى عرفات فوقف بها يوم الجمعة ثم عاد إلى منى ثم إلى مكة وطاف بها طواف الإفاضة، وصعد الكعبة وغسلها بماء الورد وطيبها بيده وأقام يوم الإثنين، ثم ركب وتوجه إلى المدينة الشريفة فزار بها قبر النبي ﷺ ثانياً.

ثم توجه إلى الكرك، فوصل إليه في يوم الخميس، التاسع والعشرين من ذي الحجة فصلى به الجمعة. ثم توجه إلى دمشق، فوصل يوم الأحد ثاني المحرم سنة ٦٦٨هـ في السحر، فخرج الأمير جمال الدين آقوش فصادفه في سوق الخيل واجتمع به. ثم سار إلى حلب فوصل إليها في سادس المحرم. ثم خرج منها في عاشره، وسار إلى حماه ثم إلى دمشق ثم إلى مصر، وبصحبته الأمير عز الدين الأفرم، فدخلها يوم الأربعاء رابع صفر واتفق ذلك اليوم ودخول ركب الحاج. وكانت العادة يوم ذاك بدخول الحاج إلى القاهرة بعد عاشر صفر، فاقام الملك الظاهر بالقاهرة أياماً، وخرج منها في صفر المذكور إلى الإسكندرية، ومعه ولده الملك السعيد وسائر الأمراء فتصيد أياماً، وعاد إلى نحو القاهرة في يوم الثلاثاء ثامن شهر ربيع الأول، وخلع في هذه السفرة على الأمراء، وفرق فيهم الخيل والجواشر الذهب والسيوف المحلاة والذهب والدراهم والقماش وغير ذلك. فلم يقم بالقاهرة إلا مدة يسيرة، وخرج منها متوجهاً إلى الشام في يوم الإثنين حادي عشرين شهر ربيع الأول في طائفة يسيرة من أمرائه وخواصه، فوصل إلى دمشق في يوم الثلاثاء سابع شهر ربيع الآخر، ولقي أصحابه في الطريق مشقة شديدة من البرد. ثم خرج عقيب ذلك إلى الساحل، وأسر ملك عكا وقتل وأسر وسبى.

في سنة ٦٦٩هـ (بداية الحملة الصليبية التاسعة من قبرص إلى عكا) خرج من مصر إلى عسقلان، في يوم السبت عاشر صفر، في جماعة يسيرة من الأمراء والأجناد، فوصل إلى عسقلان، وهدم من سورها ما كان أهمل هدمه في أيام الملك الصالح، ووجد فيما هدم كوزان مملوءان ذهباً مقدار ألفي دينار، ففرقها على من صحبه وورد عليه الخبر وهو بعسقلان أن عسكر ابن أخي بركة خان المغولي كسر عسكر أبغا بن هولاكو، فَسُرَّ الملك الظاهر بذلك سروراً زائداً.

وعاد إلى مصر يوم السبت ثامن شهر ربيع الأول وانتهى، في هذه السنة، القناطر والجسر الذي عمل على بحر أبي المنجا ووقف عليه الملك الظاهر وقفاً يُعمَّرُ منه ما اندثر منه على طول السنين. بنى الملك الظاهر، في هذه السنة أيضاً جامع المنشية وأقيمت فيه الخطبة يوم الجمعة ثامن عشرين شهر ربيع الآخر من سنة ٦٦٩هـ.

ويوم الإثنين سابع عشر ذي الحجّة ٦٦٩هـ أمر الملك الظاهر بإراقة الخمور في سائر بلاده، وأوعد مَنْ يَعْصِرُها بالقتل، فأرين على الأجناد والعوام منها ما لا تُحْصَى قيمتُه، وكان ضمانُ ذلك في ديار مصر خالصة ألفَ دينار، في كل يوم، وكُتب بذلك توقيعٌ قُرِئ، وفي العشْر الأخير من ذي الحجة اهتمّ الملك الظاهر بإنشاء شوانٍ (بناء لأسطول المرة الثانية) عوضاً عمّا ذهب على قُبْرُص، وانتهى العمل من الشواني في يوم الأحد رابع عشر المحرم سنة سبعين، وركب السلطان إلى الصناعة لإلقاء الشواني في بحر النيل، وركب السلطان في شيني منها ومعه الأمير عز الدين بيليك الخازندار. فلما صار الشيني في الماء، مال بمن فيه فوقع الخازندار منه إلى البحر، فنهض بعض رجال الشيني ورمى بنفسه خلفه، فأدركه وأخذ بشعره وخلصه، وقد كاد يهلك فخلع عليه الملك الظاهر وأحسن إليه. وخرج الملك الظاهر، في ليلة السبت السابع والعشرين منه، من الديار المصرية إلى الشام في نفر يسير من خواصه وأمرائه، ودخل حصن الكرك وخرج منه وصحب معه نائبه الأمير عز الدين أيدمر وسار إلى دمشق، فوصل إليه يوم الجمعة ثاني عشر صفر فعزل عنها الأمير جمال الدين آقوش النجيبي، وولى مكانه الأمير عز الدين أيدمر المعزول عن نيابة الكرك.

انتصار بيبرس الساحق على جيش المغول في موقعة الفرات عام ٦٧١هـ/١٢٧٢م؛ ثم خرج منها إلى حماه في ٢٠ صفر ثم عاد منها في ٢٦. وفيها أمر ملك التتار أبغا بن هولاكو عساكره بقصد البلاد الشامية، فخرج عسكره في عدة عشرة آلاف فارس وعليهم الأمير صمغرا واليرواناه، فلما بلغهم أن الملك الظاهر بالشام أرسلوا ألفا وخمس مئة من المغول: ليتجسسوا الأخبار ويغيروا على أطراف بلاد حلب، وكان مقدمهم أمال بن بيجو نوين، ووصلت غارتهم إلى عينتاب ثم إلى قسطون ووقعوا على تركمان نازلين بين حارم وأنطاكيا، فاستأصلوهم، ثم تقدم الملك الظاهر بتجفيل البلاد ليحمل التتار الطمع فيدخلوا فيتمكن منهم.

وبعث إلى مصر بخروج العساكر، فخرجت ومقدمها الأمير بيسري فوصلوا إلى السلطان في خامس شهر ربيع الآخر، وخرج بهم في السابع منه فسبق إلى التتار خبره فولوا على أعقابهم. وكان الظاهر لما مر بحما، استصحب معه الملك المنصور صاحب حماه، ونزل الظاهر حلب يوم الإثنين ثاني عشر شهر ربيع الآخر من سنة ٦٧٠هـ وخيم بالميدان الأخضر، ثم جهز الأمير شمس الدين آق سنقر الفارقاني في عسكر، وأمره أن يمضي إلى بلاده حلب الشمالية ولا يتعرض لبلاد صاحب سيس. وجهز الأمير علاء الدين طيبرس الوزيري في عسكر وأمره بالتوجه إلى حران. فأما الفارقاني، فإنه سار خلف التتار إلى مرعش فلم يجد منهم أحداً ثم عاد إلى حلب فوجد الملك الظاهر مقيماً بها. ثم عاد إلى دمشق في خامس المحرم من سنة ٦٧١هـ. وخرج الملك الظاهر من دمشق في المحرم عائداً إلى الديار المصرية فأقام بالقاهرة إلى ليلة الجمعة ثم توجه إلى دمشق فدخل قلعتها ليله الثلاثاء رابع صفر فأقام بدمشق إلى ٥ جمادى الأولى.

واتصل به أن فرقة من التتار قصدت الرحبة، فبرز إلى القصير فبلغه أنهم عادوا من الرحبة ونزلوا على البيرة، فسار إلى حمص وأخذ مراكب الصيادين على الجمال ليجوز عليها ثم سار حتى وصل إلى الباب من أعمال حلب، وبعث جماعة من الأجناد والعربان تكشف أخبارهم وسار إلى منبج فعادوا وأخبروا أن طائفة من التتار مقدار ثلاثة آلاف فارس على شط الفرات مما يلي الجزيرة، فرحل عن منبج يوم الأحد ١٨ جمادى الأولى ووصل إلى شط الفرات وتقدم إلى العسكر بخوضها، فخاض الأمير سيف الدين قلاوون الألفي والأمير بدر الدين بيسري في أول الناس، ثم تبعهما هو بنفسه وتبعته العساكر فوقعوا على التتار فقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأسروا تقدير مئتي نفس، ولم ينج منهم إلا القليل وتبعهم بيسري إلى قريب سروج ثم عاد.

وكان على البيرة جماعة كثيرة من عسكر التتار، وكانوا قد أشرفوا على أخذها، فلما سمعوا بقدومه هربوا وتركوا أموالهم وأثقالهم، ودخل السلطان إلى البيرة في أبهة عظيمة، وفرق في أهلها أموالاً كثيرة، ثم عاد إلى دمشق في ثالث جمادى الآخرة ومعه الأسرى. وخرج منها نحو الديار المصرية، فخرج ولده الملك السعيد لتلقيه في يوم الثلاثاء ٩ عشر جمادى الآخرة فاجتمع به بين القصير والصالحية في يوم الجمعة ثاني عشرينه فترجلا واعتنقا طويلاً ثم ركبا وسارا جميعاً إلى القلعة بالقاهرة، وبين يديهم أسارى التتار ركاباً على الخيل. وكان يوماً مشهوداً.

أوخلّدت اللغة العربية هذا النصر ومما قاله القاضي شهاب الدين أبو الثناء محمود الكاتب، في خوض السلطان الفرات بالجيش:

سر حيث شئت لك المهيمن جار ... واحكم فطوع مرادك الأقدارُ

لم يبق للدين الذي أظهرته ... يا ركنه عند الأعادي ثارُ

لما تراقصت الرؤوس وحركت ... من مطربات قسيك الأوتارُ

خضت الفرات بسابح أفضى به ... موج الصبا من فعله الآثار

حملتك أمواج الفرات ومن رأى ... بحراً سواك تقله الأنهار
وتقصعت فرقاً ولم يك طودها ... إذ ذاك إلا جيشك الجرار
رشت دماؤهم الصعيد فلم يطر ... منهم على الجيش السعيد غبار
شكرت مساعيك المعاقل والورى ... والترب والآساد والأطيار
هذي منعت وهؤلاء حميتهم ... وسقيت تلك وعمّ ذا الإيسار
فلأملأن الدهر فيك مدائحاً ... تبقى بقيت وتذهب الأعصار

وقال الموفق عبد الله بن عمر الأنصاري -رحمه الله- وأجاد:

الملك الظاهر سلطاننا ... نفديه بالأموال والأهل
اقتحم الماء ليطفي به ... حرارة القلب من المُغل

وقال بعض من شاهد ذلك:

ولما تراءينا الفرات بخيلنا ... سكرناه منا بالقنا والصوارم
فأوقعت التيار عن جريانه ... إلى حين عدنا بالغنى والغنائم

انتصار الظاهر بيبرس الساحق على تحالف سلاجقة الروم مع المغول في موقعة أبلستين والاستيلاء على قيصريا عام ٦٧٢هـ / ١٢٧٧م: جلس الملك الظاهر بدار العدل، في يوم الإثنين سابع المحرم سنة ٦٧٢هـ / ١٢٧٧م، وحكم بين الناس ونظر في أمور الرعية؛ فانصف المظلوم وخلص الحقوق ومال على القوي. وفي العاشر منه هدمت غرفة على باب قصر من قصور الخلفاء الفاطميين بالقاهرة.

وفيها قبض على ملك الكرج: ذلك أنه كان قد خرج من بلاده قاصداً زيارة القدس الشريف متنكراً في زي ترهبان، ومعه جماعة يسيرة من خواصه، فسلك بلاد الروم إلى سيس فركب البحر إلى عكا ثم خرج منها إلى بيت المقدس، فاطلع الأمير بدر الدين الخازندار على أمره وهو على يافا، فبعث إليه من قبض عليه، فلما حضر بين يديه بعثه مع الأمير ركن الدين منكورس إلى السلطان، وكان السلطان قد توجه إلى دمشق فوصل إلى دمشق في رابع عشر جمادى الأولى، فأقبل عليه السلطان وسأله حتى اعترف، فحبسه في برج من أبراج قلعة دمشق، وأمره أن يبحث من جهته إلى بلاده من يعرفهم بأسره فبعث نفرين.

ثم ورد الخبرُ على الملك الظاهر بأن عسكر الروم والتتار مع البَرْوَاناه اجتمعوا على نهر جَيحان، فلمّا صَعِد العسكرُ الجبلَ، أشرف على صحراء أبلستين فشاهد التتار قد رتّبوا عساكرهم أحدَ عشرطُلْباً، في كل طُلْب ألف فارس وعزلوا عسكر الروم عنهم؛ خوفاً من باطن يكون لهم مع المسلمين، وجعلوا عسكر الكرج طُلْباً واحداً، فلمّا تراءى الجمْعَان، حملت مَيْسرة التتار حملةً واحدة، وصدموا سنجق الملك الظاهر، ودخلت طائفة منهم بينهم وشقّوا المَيْسرة وساقوا إلى المَيْمنة، فلما رأى الملك الظاهر ذلك أردفهم بنفسه ثم لاحت منه التفاتةٌ فرأى المَيْسرة قد أتت عليها ميمنةُ التتار، فأمر الملك الظاهر جماعةً من أصحابه الشُّجْعان بإردافها، ثم حَمل هو بنفسه -رحمه الله- فلما رآته العساكر، حملت نحوه برُمّتها حملةَ رجل واحد، فترجل التتار عن خيولهم وقاتلوا قتال لموت، فلم يُغنِ عنهم ذلك شيئاً، وصبّر لهم الملك الظاهر وعسكره وهو يكرّ في القوم كالأسد الضاري، ويقتحم لأهوال بنفسه ويُشجع أصحابه ويُطيب لهم الموت في الجهاد، إلى أن أنزل اللّهُ تعالى نصره عليه، وانكسر التتارُ قبح كسْرة وقُتلوا وأسروا وفرّ مَنْ نجا منهم، فاعتصموا بالجبال، فقصدتْهم العساكرُ الإسلامية وأحاطوا بهم،

فترجلوا عن خيولهم وقاتلوا فقُتل منهم جماعة كثيرة، وقُتل ممن قاتلهم من عساكر المسلمين الأميرُ ضياء الدين بن الخطير وكان من الشجعان الفرسان. والأميرُ شرف الدين قيران العلائي، والأميرُ عز الدين آخو المحمدي، وسيفُ الدين قجماق الجاشنكير والأميرُ أيبك الشقيفي — رحمهم الله تعالى وأسكنهم الجنة.

وأسر من كبار الرومين مُهَذَّب الدين بن مُعين الدين البرْوانَاه، وابن بنت معين الدين المذكور، والأميرُ تورة الدين جبريل بن جاجا والأميرُ قُطب الدين محمود أخو مجد الدين الأتابك، والأمير سراج الدين إسماعيل بن جاجا، والأميرُ سيف الدين سُنْقُرجاه الزُوياشي، والأمير نصرة الدين بَهْمَن أخو تاج الدين كيوي يعني العسهر صاحب سيواس، والأمير كمال الدين إسماعيل عارض الجيش، والأمير حُسام الدين كاوك، والأميرُ سيف الدين بن الجاويش، والأميرُ شهاب الدين غازي بن علي شير التُرْكماني، فوبّخهم السلطان الملك الظاهر لكونهم قاتلوه في مساعدة التتار الكفرة ثم سلمهم إلى من احتفظ بهم.

وأسر من مقدمي التتار على الألوف والمئين بركة صهر أبغا بن هولاكو ملك التتار، وسُرْطَق، وحيز كدوس، وسركدة، وتمادية.

ولما أسر من أسر وقتل من قتل، نجا البرواناه وساق حتى دخل قيصريا يوم الأحد ثاني عشر ذي القعدة، واجتمع بالسلطان غياث الدين والصاحب فخر الدين والأتابك مجد الدين والأمير جلال الدين المستوفي والأمير بدر الدين ميكائيل النائب، فأخبرهم بالكسرة وقال لهم: إن التتار المنهزمين متى دخلوا قيصريا فتكوا بمن فيها حنقاً على المسلمين، وأشار عليهم بالخروج منها فخرج السلطان غياث الدين بأهله وماله إلى توقات وبينها وبين قيصريه أربعة أيام.

ورصدت اللغة العربية وشعراء الإسلام النصر المبين في هذه الوقعة، فيما قاله العلامة شهاب الدين أبو الثناء محمود الحلبي كاتب المرج في قصيدته:

كذا فلتكن في الله تمضي العزائم ... وإلا فلا تجفو الجفون الصوارمُ
عزائم حادتها الرياح، فأصبحت ... مخلفة تبكي عليها الغمائم
سرت من حمى مصر إلى الروم فـ ... ـاحتوت عليه وسوراه الظبا واللهاذم
بجيش تظل الأرض منه كأنها ... على سعة الأرجاء في الضيق خاتم
كتائب كالبحر الخضم جيادها ... إذا ما تهادى موجه المتلاطم
تحيط بمنصور اللواء مظفرٌ ... له النصر والتأييد عبد وخادم
مليك يلوذ الدين من عزماته ... بركن له الفتح المبين دعائم
مليك لأبكار الأقاليم نحوه ... حنين كذا تهوى الكرام الكرائم
مليك به الدين في كل ساعة ... بشائر للكفار منها مآتم
جلا حين أقذى ناظر الكفر للهدى ... ثغوراً بكى الشيطان وهي بواسم
إذا رام شيئاً لم يعقه لبعدها ... وشتتها عنه الإكام الطواسم
فلو نازع النسرين أمراً لناله ... وذا واقع عجزاً وذا بعد حائم
ولما رمى الروم المتيع بخيله ... ومن دونه سد من الصخر عاصم
يروم عقاب الجو قطع عقابه ... إليه، فلا تقوى عليها القوادم

وسالت عليهم أرضهم بمواكب ... لها النصر طوع والزمان مسالم
أدارت بهم سوراً منيعاً مشرفاً ... بسمر العوالي، ما له الدهر هادم
من الترك أما في المغاني، فإنهم ... شموس، وأما في الوغى فضراغم
غدا ظاهراً بالظاهر النصر فيهم ... تبيد الليالي والعدا وهو دائم
فأهووا إلى لثم الأسنة في الوغى ... كأنهم العشاق وهي المباسم
فلا زلت منصور اللواء مؤيداً ... على الكفر ما ناحت وأبكت حمائم

ثم جرد الملك الظاهر الأمير سنقر الأشقر لإدراك ما فات من الترك والتوجه إلى قيصريا، وكتب معه كتاباً بتأمين أهلها وإخراج الأسواق والتعامل بالدراهم الظاهرية.

ثم رحل الملك الظاهر بكرة السبت حادي عشر ذي القعدة قاصداً قيصريا، فمر في طريقه بقرية أهل الكهف ثم إلى قلعة سمندو فنزل إليه واليها مذعناً للطاعة ثم سار إلى قلعة دزندا وقلعة قالو، ففعل متوليها كذلك ثم نزل بقرية من قرى قيصريا فبات بها فلما أصبح رتب عساكره، وخرج أهل قيصريا بأجمعهم مستبشرين بلقائه، وكانوا لنزوله نصبوا الخيام بوطاة، فلما قرب الظاهر منها ترجل ووجوه الناس على طبقاتهم ومشوا بين يديه إلى أن وصل إليها.

فلما كان يوم الجمعة سابع عشر الشهر، ركب السلطان للجمعة فدخل قيصريا ونزل دار السلطنة وجلس على التخت وحضر بين يديه القضاة والفقهاء والصوفية والقراء وجلسوا في مراتبهم على عادة ملوك السلجوقية، فأقبل عليهم السلطان ومد لهم سماطاً فأكلوا وانصرفوا، ثم حضر الجمعة بالجامع وخطب له وحضر بين يديه الدراهم التي ضربت له باسمه.

وكتب إليه البرواناه يهنئه بالجلوس على تخت الملك بقيصريا، فكتب الملك الظاهر إليه بعوده ليوليه مكانه، فكتب إليه يسأله أن ينتظره خمسة عشر يوماً وكاد مراد البرواناه يصل أبغا ويحثه على المسير ليدرك الملك الظاهر بالبلاد فاجتمع تتاوون بالأمير شمس الدين سنقر الأشقر، وعرفه مكر البرواناه في ذلك، فكان ذلك سبباً لرحيل الملك الظاهر عن قيصريا مع ما انضاف إلى ذلك من قلق العساكر، فرحل يوم الإثنين، وكان على اليزك عز الدين أيبك الشيخي، وكان الملك الظاهر ضربه بسبب سبقه الناس فغضب وهرب إلى التتار.

وكان أولاد قرمان قد رهنوا أخاهم الصغير علي بك بقيصريا، فأخرجه الملك الظاهر وأنعم عليه وسأل السلطان في تواقيع وسناجق له ولإخوته فأعطاه وتوجه نحو إخوته بجبل لارندا.

وعاد السلطان وأخذ في عوده أيضاً عدة بلاد إلى أن وصل مكان المعركة يوم السبت، فرأى القتلى فسأل عن عدتهم فأخبر أن المغول خاصة ستة آلاف وسبع مئة وسبعون نفساً، ثم رحل حتى وصل أقجادربند وبعث الخزائن والدهليز والسناجق بصحبة الأمير بدر الدين بيليك الخازندار ليعبر بها الدربند، وأقام السلطان في ساقة العسكر بقية اليوم ويوم الأحد ورحل يوم الإثنين فدخل الدربند.

ليذكر ابن دقماق في "الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين" تحت أحداث عام ٦٧٥هـ، انتقام التتار الجبان لهزيمتهم النكراء في أبلستين: إذ أمر قائدهم أبغا بمجزرة أهالي قيساريا العزّل انتقاماً: (وفيها سافر السلطان إلى دمشق ثم إلى حلب ثم قطع الدربند، وكان على جاليشه سنقر الأشقر، فلقي ثلاثة آلاف من التتار فكسرهم، ثم طلعوا إلى الجبل، فأشرفوا على صحراء أبلستين فعاينوا التتار قد تعبّوا أحد عشر كردوساً، كل كردوس ألف، وانعزلوا عن عسكر الروم خوفاً من مخامرتهم. فالتقى الجمعان، فترجّل التتار ورموا النشاب وقاتلوا أشد قتال.

فقتل منهم النصف وانهزم الباقون وتبعهم المسلمون، وأرسل السلطان إلى قيساريا أماناً لأهلها، ثم دخل قيساريا، وكان يوماً مشهوداً، ونزل بدار السلطنة وصلى بها الجمعة، فبلغ الملك الظاهر حركة التتار، فخرج منه ورجع، وأسرع أبغا إلى صحراء أبلستين فرأى القتلى، فغضب ورجع إلى قيساريا فقتل من أعيانها جماعة، ثم أمر التتار بالقتل والنهب، فقتلوا من الرعية خلقاً كثيراً فوق مئة الألف)).

ثم سار إلى أن وصل إلى دمشق، في سابع المحرم سنة ست وسبعين وست مئة، ونزل بالجوسق المعروف بالقصر الأبلق جوار الميدان الأخضر، وتواترت عليه الأخبار بوصول أبغا ملك التتار إلى مكان الوقعة، فجمع السلطان الأمراء وضرب مشورة فوقع الاتفاق على الخروج من دمشق بالعساكر وتلقيه حيث كان، فأمر الملك الظاهر بضرب الدهليز على القصير. وفي أثناء ذلك وصل رجل من التركمان وأخبر أن أبغا عاد إلى بلاده هارباً خائفاً ثم وصل الأمير سابق الدين بيسري أمير مجلس الملك الناصر صلاح الدين وهو غير بيسري الكبير وأخبر بمثل ما أخبر التركماني، فعند ذلك أمر الملك الظاهر برد الدهليز إلى الشام.

وكان عود أبغا من ألطاف الله تعالى بالمسلمين، فإن الملك الظاهر في يوم الجمعة نصف المحرم من سنة ست وسبعين ابتدأ به مرض الموت.

وفاة الملك الظاهر بيبرس (رحمه الله): لما كان يوم الخميس رابع عشر المحرم سنة ٦٧٦هـ، جلس الملك الظاهر بالجوسق الأبلق بميدان دمشق يشرب الخمر، وبات على هذه الحالة، فلما كان يوم الجمعة خامس عشره وجد في نفسه فتوراً وتوعكاً فشكا ذلك إلى الأمير شمس الدين سنقر الألفي السلحدار، فأشار عليه بالقيء فاستدعاه فاستعصى عليه القيء، فلما كان بعد صلاة الجمعة ركب من الجوسق إلى الميدان على عادته والألم مع ذلك يقوى عليه وعند الغروب عاد إلى الجوسق.

فلما أصبح اشتكى حرارة في بطنه، فصنع له بعض خواصه دواء ولم يكن عن رأي طبيب فلم ينجع وتضاعف ألمه، فأحضر الأطباء فأنكروا استعماله الدواء وأجمعوا على استعمال دواء مسهل، فسقوه فلم ينجع، فحركوه بدواء آخر كان سبب الإفراط في الإسهال ودفع دماً، فتضاعفت حماه وضعفت قواه، فتخيل خواصه أن كبده يتقطع وأن ذلك عن سم سقيه فعولج بالجوهر، وأخذ أمره في انحطاط وجهده المرض وتزايد به إلى أن قضى نحبه يوم الخميس بعد صلاة الظهر ٢٧ المحرم، فاتفق رأي الأمراء على إخفائه وحمله إلى القلعة؛ لئلا تشعر العامة بوفاته ومنعوا من هو داخل من المماليك من الخروج ومن هو خارج منهم من الدخول.

فلما كان آخر الليل حمله من كبار الأمراء سيف الدين قلاوون الألفي وشمس الدين سنقر الأشقر وبدر الدين بيسري وبدر الدين بيليك الخازندار وعز الدين أقوش الأفرم وعز الدين أيبك الحموي وشمس الدين سنقر الألفي الظاهري وعلم الدين سنجر الحموي أبو خرص وجماعة من أكابر خواصه.

وتولى غسله وتحنيطه وتصبيره وتكفينه مهتار الشجاع عنبر، والفقيه كمال الدين الإسكندري المعروف بابن المنجي، والأمير عز الدين الأفرم ثم جعل في تابوت، وعلق في بيت من بيوت البحرية بقلعة دمشق إلى أن حصل الاتفاق على موضع دفنه. وكانت مدة ملكه ١٩ سنة وشهرين ونصفاً.

وأما صدقاته، فكان يتصدق في كل سنة بعشرة آلاف إردب قمح في الفقراء والمساكين وأرباب الزوايا.

وكان يرتب لأيتام الأجناد ما يقوم بهم على كثرتهم.

ووقف وقفاً على تكفين أموات الغرباء بالقاهرة ومصر.

ووقفاً ليشترى به خبز ويفرق في فقراء المسلمين.

وأصلح قبر خالد بن الوليد ﷺ بحمص.

ووقف وقفاً راتباً على من هو فيه من إمام ومؤذن وغير ذلك.

ووقف على قبر أبي عبيدة بن الجراح ﷺ.

ووقفاً مثل ذلك، وأجرى على أهل الحرمين والحجاز وأهل بدر وغيرهم ما كان انقطع في أيام غيره من الملوك.

وأما عمائره: من المدارس والجوامع والأسبلة والأربطة، فكثيرة وغالبها معروفة به وكان يخرج كل سنة جملة مستكثرة يستفك بها من حبسه القاضي من المقلين. وكان يرتب في أول شهر رمضان بمصر والقاهرة مطابخ لأنواع الأطعمة وتفرق على الفقراء والمساكين.

وأما حرمته ومهابته، فمنها: أن جماعة من التجار خرجوا من بلاد العجم قاصدين مصر، فلما مروا بسيس منعهم صاحبها من العبور، وكتب إلى أبغا ملك التتار فأمره أبغا بالحوطة عليهم وإرسالهم إليه، وبلغ الملك الظاهر خبرهم فكتب إلى نائب حلب بأن يكتب إلى نائب سيس: إن هو تعرض لهم بشيء يساوي درهماً واحداً أخذت عوضه مراراً، فكتب إليه نائب حلب بذلك فأطلقهم وصانع أبغا بن هولاكو على ذلك بأموال جليلة حتى لا يخالف مرسوم الظاهر وهو تحت حكم غيره لا تحت حكم الظاهر.

ومنها: أن تواقيعه التي كانت بأيدي التجار المترددين إلى بلاد القبجاق بإعفائهم من الصادر والوارد، كان يعمل بها، حيث حلوا من مملكة بركة خان ومنكوتمر وبلاد فارس وكرمان.

وكان الملك الظاهر يطلع على أحوال أمرائه وأعيان دولته حتى لم يخفَ عليه من أحوالهم شيء. وكان يقرب ارباب الكمالات من كل فن وعلم. وكان يميل إلى التاريخ وأهله ميلاً زائداً ويقول: سماع التاريخ أعظم من التجارب، وكانت ترد عليه الأخبار وهو بالقاهرة بحركة العدو، فيأمر العسكر بالخروج وهم زيادة على ثلاثين ألف فارس فلا يبيت منهم فارس في بيته، وإذا خرج من القاهرة لا يمكن من العود إليها ثانياً.

ومن حزمه ومهابته أنه في بداية حكمه في عام ٦٦٢هـ، كثر الحريق بمصر والقاهرة، فقالوا للسلطان: هذا الحريق من القصارى، فأمر السلطان بجمع النصارى من مدينتي مصر القسطاطا والقاهرة، فلما اجتمعوا أمر بحريقهم، فجمعت الأحطاب والحلفاء، فشفع فيهم الأمير فارس الدين أقطاي أتابك العسكر، على أن يلتزموا الأموال التي احترقت وأن يحملوا إلى بيت المال خمسين ألف دينار. (الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين لابن دقماق)

والذي افتتحه من أيدي الفرنج – خذلهم الله – قيساريا وأرسوف وصفد وطبريا ويافا والشقيف وأنطاكيا وبغراس والقصير وحصن الأكراد وعكار والقرين وصافيثا ومرقيا. وناصفهم على المرقب وبانياس وبلاد أنطرطوس وعلى سائر ما بقي في أيديهم من البلاد والحصون وغيرها. واستعاد من صاحب سيس دربساك، ردركوش ورعبان والمرزبان وبلاداً أخر.

والذي صار إليه من أيدي المسلمين: دمشق وبعلبك وعجلون وبصرى وصرخد والصلت وحمص وتدمر والرحبة ودلويا وتل باشر. وهذه البلاد انتقلت إليه عن الملك الأشرف صاحب حمص في سنة اثنتين وستين وست مئة. وصهيون وبلاطنس وبرزيه وهذه منتقلة إليه عن الأمير سابق الدين سليمان بن سيف الدين أحمد وعمه عز الدين. وحصون الإسماعيلية وهي: الكهف والقدموس والمينقة والعليقة والخوابي والرصافة ومصياف والقليعة والشوبك والكرك.

وما انتقل إليه عن التتار: بلاد حلب الشمالية بأسرها وشيزر والبيرة. وأما ما افتتحه من البلاد وصار إليه من أيدي المسلمين فعدة بلاد وقلاع. وفتح الله على يديه بلاد النوبة، وفيها من البلاد مما يلي أسوان جزيرة بلاق ويلي هذه البلاد بلاد العلا وجزيرة ميكائيل وفيها بلاد وجزائر الجنادل وهي أيضاً بلاد، ولما فتحها أنعم بها على ابن عم المأخوذة منه ثم ناصفه عليها ووضع عليه عبيداً وجواري وهجناً وبقراً وعن كل بالغ من رعيته ديناراً في كل سنة. وكانت حدود مملكة الملك الظاهر من أقصى بلاد النوبة إلى قاطع الفرات.

مبانيه: وأما مبانيه فكثيرة: منها ما هدمه التتار من المعاقل والحصون. وجدد جامع الأنور – أعني جامع الظافر العبيدي – المعروف الآن بجامع الفاكهيين والجامع الأزهر، وبنى جامع العافية بالحسينية وأنفق عليه فوق الألف ألف درهم. وأنشأ قريباً منه زاوية الشيخ خضر وحماماً وطاحوناً وفرناً وعمر بالمقياس قبة رفيعة مزخرفة، وأنشأ عدة جوامع بالديار المصرية، وجدد قلعة الجزيرة وقلعة العمودين ببرقة وقلعة السويس.

وعمّر جسراً بالقليوبية والقناطر على بحر أبي المنجا وقنطرة بعلية السيرج وقنطرتين عند القصير على بحر إبراش بسبعة أبواب، مثل قنطرة بحر أبي المنجا، وأنشأ في الجسر الذي يسلك فيه إلى دمياط ست عشرة قنطرة، وبنى على خليج الإسكندرية قريباً من قنطرتها قنطرة عظيمة بعقد واحد، وحفر خليج الإسكندرية وكان قد ارتدم بالطين. وحفر بحر أشموم وكان قد عمي. وحفر ترعة الصلاح وخورسخا وحفر المحامدي و لكافوري. وحفر في ترعة أبي الفضل ألف قصبة وحفر بحر الصمصام بالقليوبية وحفر بحر سردوس.

وتمم عمارة حرم رسول الله ﷺ وعمل منبره وجعل بالضريح النبوي درابزيناً، وذهّب سقوفه وجددها وبيض حيطانه وجدد البيمارستان بالمدينة النبوية، ونقل إليه سائر المعاجين والأكحال والأشربة، وبعث إليه طبيباً من الديار المصرية.

وجدد في الخليل عليه السلام قبته، ورمّ شعثه وأصلح أبوابه وميضأته وبيضه وزاد في راتبه. وجدد بالقدس الشريف ما كان قد تهدم من قبة الصخرة، وجدد قبة السلسلة وزخرفها، وأنشأ بها خاناً للسبيل نقل بيه من دهليز كان للخلفاء المصريين بالقاهرة وبنى به مسجداً وطاحوناً وفرناً وبستاناً.

ووسع عمارة مشهد جعفر الطيار ﷺ ووقف عليه وقفاً زيادة على وقفه على الزائرين له والوافدين عليه. وعمر جسراً بقرية دامية بالغور على نهر الشريعة، ووقف عليه وقفاً برسم ما عساه يتهدم منه. وأنشأ جسوراً كثيرة بالغور والساحل.

وأنشأ قلعة قاقون وبنى بها جامعاً. ووقف عليه وقفاً وبنى على طريقها حوضاً للسبيل. وجدد جامع مدينة الرملة، وأصلح جامعاً لبني أمية ووقف عليه وقفاً. وعدة جوامع ومساجد بالساحل.

وكل ذلك من كثرة عدله وإنصافه للرعية والنظر في أمورهم، وإنصاف الضعيف من المستضعف. الذب عنهم من العدو المخذول. رحمه الله وعفا عنه.

يقول الذهبي في ترجمته في "تاريخ الإسلام":

(السلطان الملك الظاهر ركن الدين أبو الفتوح البندقداري الصالحي النجمي الأيوبي التركي، صاحب مصر والشام. ولد في حدود ٦٢٠هـ، قبلها بقليل أو بعدها. وأصله من صحراء القفجاق فأبيع بدمشق ونشأ بها، فيقال: كان مملوكاً للعماد الصائغ الذي كان يسكن عند النكلانية... ثم اشتراه الأمير علاء الدين البندقداري الصالحي، فطلع بطلاً شجاعاً نجيباً لا ينبغي أن يكون إلا عند ملك. فأخذه الملك الصالح إليه وصار من جملة

البحرية، وشهد وقعة المنصورة بدمياط، وصار أميراً في الدولة المعزية، وتقلبت به الأمور... واشتهر بالشجاعة والإقدام، وبعد صيته. ولما سارت الجيوش المنصورة من مصر لحرب التتار، كان هو طليعة الإسلام، وجلس على سرير الملك بعد قتل المظفر، وذلك في ١٧ ذي القعدة من سنة ٦٥٨هـ بقلعة الجبل. وكان أستاذه البندقدار من بعض أمرائه، وكان غازياً، مجاهداً، مرابطاً، خليقاً للملك، لولا ما كان فيه من الظلم والله يرحمه ويغفر له ويسامحه، فإن له أياماً بيضاء في الإسلام، ومواقف مشهودة، وفتوحات معدودة. وله سيرتان كبيرتان لابن عبد الظاهر ولابن شداد رحمهما الله، لم أقف عليهما بعد.

وقد دخل الروم، قبل موته بشهرين، وكسر التتار، ودخل مدينة قيصريا، وجلس بها في دست الملك، وصلى بها الجمعة، وخطبوا له، وضربت السكة باسمه، وذلك في ذي القعدة، ثم رجع وقطع الدربند، وعبر النهر الأزرق، ودخل دمشق في سابع المحرم مؤيداً منصوراً، فنزل بالقلعة، ثم انتقل إلى قصره الأبلق، فمرض في نصف المحرم، وانتقل إلى عفو الله وسعة رحمته يوم الخميس بعد الظهر ٢٨ من المحرم بالقصر، وحمل إلى القلعة ليلاً مع أكابر أمرائه، وغسله وصبره المهتار شجاع الدين عنبر، والكمال علي بن المتيحي الإسكندراني المؤذن، والأمير عز الدين الأفرم، ووضع في تابوت، وعلق في بيت بالقلعة، وهو في أول عشر الستين، وخلف عشرة أولاد: الملك السعيد محمد، وسلامش، وخضر، وسبع بنات. قال ذلك الشيخ قطب الدين، وقال: كان له عشرة آلاف مملوك لكان يشتريهم ويعلمهم الإسلام ويدربهم على الانضباط والعسكرية، ويعتقهم ليكونوا من فرسانه ومن أبطال الإسلام.

وحكى الشيخ شرف الدين عبد العزيز الأنصاري الحموي، قال: كان الأمير علاء الدين البندقدار الصالحي، لما قبض وأحضر إلى حماه واعتقل بجامع قلعتها، اتفق حضور ركن الدين بيبرس مع تاجر، وكان الملك المنصور إذ ذاك صبياً، فأراد شراء رقيق تبصره الصاحبة والدته. فأحضر بيبرس هذا وخشداشه، فرأتهما من وراء الستر، فأمرت بشراء خشداشه، وقالت: هذا الأسمر لا يكن بينك وبينه معاملة، فإن في عينيه شراً لائحاً. فردهما جميعاً، فطلب البندقدار الغلامين، فاشتراهما وهو معتقل، ثم أفرج عنه، وسار بهما إلى مصر، وآل أمر ركن الدين إلى ما آل. وقد سار غير مرة في البريد حال سلطنته، وعمل في حصارات المدائن التي أخذها من الفرنج في بذل نفسه وفرط إقدامه على لمخاوف ما يقضي منه العجب، فيه يُضرب المثل، وإليه المُنتهى في سياسة الملك وتفقد أحوال جنده. فهو كما قيل: لولا نقص عدله، لكان أحوذياً نسيج وحده. وقد أعد للأمور أقرانها، أقامه الله وقت ظهور هولاكو وأبغا فهاباه، وانجمعا عن البلاد). انتهى

السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون بن عبد الله الصالحي الألفي (٦٧٨–٦٨٩هـ/ ١٢٧٩–١٢٩٠م)

من سلاطين المماليك البحرية العظام، واسمه قلاوون الألفي؛ لأن الملك الصالح نجم الدين أيوب اشتراه بألف دينار لبراعته القتالية الفريدة، ثم تولى تربيته وتدريبه فكان من أكابر الأمراء عنده وبعده. أبلى بلاءً حسناً في معركة المنصورة في الحملة الصليبية السابعة، وكان مقدم الجيوش والبطل المغوار المجاهد عند السلطان الظاهر بيبرس.

ولما تزوج الملك السعيد بن الظاهر بيبرس بابنته غازية خاتون، عظم شأنه جداً عند الظاهر، وما زال يترفع في الدولة حتى صار أتابك ولده من بعده. وفي عام ٦٧٨هـ اتفق وقوع الخلاف بين الممالك كلها، فاختلف التتار فيما بينهم واقتتلوا فقتل منهم خلق كثير، واختلف الفرنج في السواحل وصال بعضهم على بعض وقتل بعضهم بعضاً، وكذلك وقع الخلاف بين الأمراء الظاهرية؛ لأن السلطان الملك السعيد بن الظاهر بيبرس لما بعث الجيش إلى سيس (عاصمة أرمينية) أقام بعده بدمشق، وأخذ في اللهو واللعب والانبساط مع خاصته، الذين تمكنوا من الأمور. وأبعد عنه الأمراء الكبار، الذين قالوا: (الملك لا ينبغي له أن يلعب ويلهو، إنما همّة الملوك في العدل، ومصالح المسلمين،

والذبّ عن حوزتهم، كما كان أبوه)، وصدقوا فيما قالوا. فإن لعب الملوك والأمراء وغيرهم دليل على زوال النعم، وخراب الملك، وفساد الرعية؛ فحدث خلاف داخلي سرعان ما انتهى باتفاق الجميع مع الأمير سيف الدين قلاوون الألفي الصالحي على أن يترك الملك السعيد الملك ويخلع نفسه (دام حكمه سنتين)، ويعوّض بإمارة الكرك والشوبك، ويكون في صحبته أخوه نجم الدين خضر؛ وتكون المملكة لأخيه الصغير بدر الدين سلامش بن الظاهر بيبرس (عمره يومئذ ٧ سنين)، ويكون الأمير سيف الدين قلاوون أتابكه (أي: المشرف عليه).

ثم بعد أشهر قلائل، وأمام التحديات الكبيرة في الأمة الإسلامية، اتفق المماليك والقضاة والأعيان على خلع سلامش ابن الظاهر، وأخرجوه من البين، واتفقوا على بيعة الملك المنصور قلاوون الصالحي، ولقبوه الملك المنصور (انظر "البداية والنهاية" لابن كثير ١٣ ج/ص٣٣٧). واستقل قلاوون بالملك عام ٦٧٨هـ حتى توفي عام ٦٨٩هـ. وكانت مدة حكمه ١١ سنة.

جاهد هذا السلطان على افتداء الأسرى الأتراك لدى المغول، حيث يجري تحريرهم من عبودية الأسر ودفع الفدية المطلوبة عنهم من أموال السلاطين، أو الأمراء الخاصة، أو من أموال خزينة الدولة؛ لتجنيدهم بصفة تلاميذ عسكريين يتلقون التربية والتعليم الكافيين أولاً، ثم يتلقون التدريبات العسكرية المختلفة بأجود المقاييس؛ ليتخرجوا فرساناً أكفاء، قادرين على خوض الحروب وكسب المعارك وإحراز الانتصارات.

ومن أهم أعماله: قيادته الجيوش الإسلامية إلى بلاد الشام؛ لمحاربة المغول في ملحمة حمص الثانية، حيث استطاع هزيمتهم وجرح/قتل قائدهم منكوتمر، ثم قاد جيشه وفتح حصن المرقب المنيع عام ٦٨٢هـ. وقام بإنشاء دار صناعة (ترسانة) جديدة في الإسكندرية، وطوّر صناعة المجانيق الجبارة؛ لفتح الحصون المستعصية. ثم سار إلى دويلة طرابلس الشام الصليبية واستطاع تحريرها عام ٦٨٨هـ من أيدي الصليبيين الذين احتلوها مدة ١٨٥ عاما (من ٥٠٣ حتى ٦٨٨هـ)، ومن ثم عزم على فتح عكا، وبرز إليها، فعاجلته المنية في ٢٦ ذي القعدة، عام ٦٨٩هـ. وأكمل المشوار ابنه الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون. والجدير بالذكر أن الناصر صلاح الدين الأيوبي لم يستطع فتح حصن المرقب، ولا فتح دويلة طرابلس.

ملحمة الإسلام بقيادة سيف الدين قلاوون والانتصار على المغول في معركة حمص الثانية عام ٦٨٠هـ/١٢٨١م.

وثق ابن تغري بردي تفاصيل هذه الوقعة الفاصلة الرهيبة في تاريخ الإسلام، في كتابه "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة":

(وكان سبب حركة التتار أنهم لما سمعوا اختلاف الكلمة، وظنوا أن سنقر الأشقر بمن معه يتفق معهم على قتال الملك المنصور قلاوون لاختلف سنقر الأشقر مع قلاوون على طريقة وصوله إلى الحكم، ثم اصطلحا، لكن حاول المغول استغلال الموقف وبثّ الفرقة بينهما، فشلوا.

فأرسل أمراء العساكر المصرية إلى سنقر الأشقر يقولون له: (هذا العدو قد دهمنا وما سببه إلا الخلاف بيننا، وما ينبغي هلاك الإسلام، والمصلحة أننا نجتمع على دفعه)، فامتثل سنقر ذلك، وأنزل عسكره من صهيون وأمر رفيقه الحاج أزدمر أن يفعل كذلك من شيزر، وخيّمت كل طائفة تحت قلعتها ولم يجتمعوا بالمصريين، غير أنهم اتفقوا على اجتماع الكلمة ودفع العدو المخذول عن الشام...

وبينما السلطان في ذلك وردَ عليه مجيء التتار إلى البلاد الشامية وهو بدمشق. فتهيأ لقتالهم وأرسل يطلب العساكر المصرية، وبعد قليل حضرت عساكر مصر إلى دمشق. واجتمعت العساكر عند السلطان ولم يتأخر أحدٌ من التركمان والعُربان وسائر الطوائف.

ووصل لخبَر بوصول التتار إلى أطراف بلاد حلب، فخلت حلب من أهلها وجُندها ونزحوا إلى جهة حَماة وحمص، وتركوا الغلال والحواصل والأمتعة وخرجوا جرائدَ على وجوههم. ثم ورد الخبر بوصول منكوتمُر بن هولاكو ملك التتار إلى عين تاب وما جاورها في يوم الأحد ٢٦ جُمادى الآخرة وكان فيهم ملك التتار إبغا مختفياً بنظر ماذا يفعل أصحابه، وكيف يقاتلون أعداءهم. فخرج الملك المنصور قلاوون بعساكره في يوم الأحد المذكور (وقت الخطباء والأئمة في الجوامع والمساجد في الصلوات وغيرها)، وخيّم بالمرج. ووصل التتار إلى بغراس، فقدم الملك المنصور عسكره أمامه، ثم سافر هو بنفسه في سلخ جمادى الآخرة المذكور وسار حتى نزل السلطان بعساكره على حمص في يوم الأحد ثالث عشرين شهر رجب، وراسل سنقر الأشقر بالحضور إليه بمن معه من الأمراء والعساكر، وكذلك الأمير أيتمش السعدي الذي كان هرب من عند السلطان لما قبض على الأمراء الظاهرية، فامتثل سنقر الأشقر أمر السلطان بالسمع والطاعة وركب من وقته بجماعته وحضر إلى عند الملك المنصور قلاوون واستحلفه لأيتمش السعدي يميناً ثانية (ليزداد طمأنينة)، ثم أحضره وتكامل حضورهم عند السلطان. وعدل السلطان سنقر الأشقر بالاحترام التام والخدمة البالغة والإقامات العظيمة والرواتب الجليلة.

شرعت التتار تتقدم قليلاً قليلاً بخلاف عادتهم، فلما وصلوا حماه أفسدوا بنواحيها وشعثوا وأحرقوا بستان الملك المنصور صاحب حماه وجوسقه وما به من الأبنية. واستمر عسكر السلطان بظاهر حمص على حاله إلى أن وصلت التتار إليه يوم الخميس رابع عشر شعبان، فركب الملك المنصور بعساكره وصافف العدو والتقى الجمعان عند طلوع الشمس، وكان عدد التتار على ما قيل مئة ألف فارس أو يزيدون، وعسكر المسلمين على مقدار النصف من ذلك أو أقل، وتواقعوا من ضحوة النهار إلى آخره وعظم القتال بين الفريقين وثبت كل منهما.

قال الشيخ قطب الدين اليونيني: وكانت وقعة عظيمة لم يشهد مثلها في هذه الأزمان ولا من سنين كثيرة، وكان الملتقى فيما بين مشهد خالد بن الوليد ﷺ إلى الرستن والعاصي، واضطربت ميمنة المسلمين وحملت التتار على ميسرة المسلمين فكسروها وانهزم من كان بها، وكذلك انكسر جناح القلب الأيسر وثبت الملك المنصور سيف الدين قلاوون رحمه الله تعالى في جمع قليل بالقلب ثباتاً عظيماً، ووصل جماعة كثيرة من التتار خلف المنكسرين من المسلمين إلى بحيرة حمص، وأحدق جماعة من التتار بحمص وهي مغلقة الأبواب وبذلوا نفوسهم وسيوفهم فيمن وجدوه من العوام والسوقة والغلمان والرجالة المجاهدين بظاهرها، فقتلوا منهم جماعة كثيرة وأشرف الإسلام على خطة صعبة، ثم إن أعيان الأمراء ومشاهيرهم وشجعانهم مثل: سنقر الأشقر المقدم ذكره، وبدر الدين بيسري، وعلم الدين سنجر الدواداري، وعلاء الدين طيبرس الوزيري، وبدر الدين بيليك امير سلاح، وسيف الدين أيتمش السعدي، وحسام الدين لاجين المنصوري، والأمير حسام الدين طرنطاي وأمثالهم، لما رأوا ثبات السلطان ردوا على التتار وحملوا عليهم حملات حتى كسروهم كسرة عظيمة وجرح منكوتمر مقدم التتار، وجاءهم الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا في عربه عرضاً، فتمت هزيمتهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة تجاوز الوصف. واتفق أن ميسرة المسلمين كانت انكسرت كما ذكرنا والميمنة ساقت على العدو، ولم يبق مع السلطان إلا النفر اليسير والأمير حسام الدين طرنطاي قدامه بالسناجق، فعادت الميمنة الذين كسروا ميسرة المسلمين في خلق عظيم ومروا به وهو في ذلك النفر تحت السناجق – يعني الملك المنصور قلاوون – والكوسات تضرب.

قال: ولقد مررت به في ذلك الوقت وما حوله من المقاتلة ألف فارس إلا دون ذلك فلما مروا به – يعني ميمنة

التتار التي كانت كسرت ميسرة المسلمين للإجهاز على القلب وقتل السلطان! – ثبت لهم ثباتاً عظيماً ثم سـاق عليهم بنفسه، فانهزموا أمامه لا يلوون على شيء وكان ذلك تمام النصر. كان انهزامهم عن آخرهم قبل الغروب وافترقوا فرقتين: فرقة أخذت جهة سلمية والبرية، وفرقة أخذت جهة حلب والفرات.

ولما انقضت الحرب في ذلك النهار عاد السلطان إلى منزلته وأصبح بكرة يوم الجمعة سادس عشر رجب، جهز السلطان وراءهم جماعة كثيرة من العسكر والعربان ومقدمهم الأمير بدر الدين بيليك الأيدمري، وكان لما لاحت الكسرة على المسلمين نهب لهم من الأقمشة والأمتعة والخزائن والسلاح ما لا يحصى كثرة، وذهب ذلك كله أخذته الحرافشة من المسلمين مثل الغلمان وغيرهم.

انتصار المسلمين بقيادة قلاوون (إلى اليمين)
وهزيمة المغول وهروبهم (إلى اليسار) في معركة حمص في ٢٩ تشرين الأول ١٢٨١م

وكتبت البشائر بهذا النصر العظيم إلى سائر البلاد، وحصل للناس السرور الذي لا مزيد عليه، وعملت القلاع وزينت المدن. وأما أهل دمشق فإنه كان ورد عليهم الخبر أولاً بكسرة المسلمين ووصل إليهم جمعة ممن كان انهزم، فلما بلغهم النصر كان سرورهم أضعاف سرور غيرهم. وكان أهل البلاد الشامية من يوم خرج السلطان من عندهم إلى ملتقى التتار وهم يدعون الله تعالى في كل يوم ويبتهلون إليه، وخرج أهل البلاد بالنساء والأطفال إلى الصحارى والجوامع والمساجد وأكثروا من الابتهال إلى الله عز وجل في تلك الأيام لا يفترون عن ذلك، حتى ورد عليهم هذا النصر العظيم ولله الحمد وطابت قلوب الناس وردّ من كان نزح عن بلاده وأوطانه واطمأن كل أحد وتضاعف شكر الناس لذلك.

وقتل في هذه الوقعة من التتار ما لا يحصى كثرة، وكان من استشهد من عسكر المسلمين دون المئتين على ما قيل. وممن قتل: الأمير الحاج أزدمر وسيف الدين بلبان الرومي وشهاب الدين توتل الشهرزوري وعز الدين بن النصرة من بيت الأتابك صاحب الموصل وكان أحد الشجعان المفرطين في الشجاعة رحمهم الله تعالى أجمعين.

ثم إن السلطان انتقل من منزلته بظاهر حمص إلى البحيرة التي بحمص؛ ليبعد عن الجيف، ثم توجه عائداً إلى دمشق فدخلها يوم الجمعة الثاني والعشرين من شعبان قبل الصلاة، وخرج الناس إلى ظاهر البلد للقائه فدخل دمشق وبين يديه جماعة من أسرى التتار وبأيديهم رماح عليها رؤوس القتلى منهم، فكان يوماً مشهوداً.

ودخل السلطان الشام وفي خدمته جماعة من الأعيان منهم:

سنقر الأشقر الذي كان تسلطن وتلقب بالملك الكامل، وأيتمش السعدي، والأمير علم الدين سنجر الدواداري، وبلبان الهاروني، ثم قدم بعد ذلك الأمير بدر الدين الأيدمري بمن معه من العسكر عائداً من تتبع التتار

بعد ما أنكى فيهم نكاية عظيمة. ووصل إلى حلب وأقام بها وسيّر أكثر من معه يتبعونهم. فهلك من التتار خلق كثير غرقوا بالفرات عند عبورهم. وعندما عدوه نزل إليهم أهل البيرة فقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأسروا منهم جمعاً كثيراً وتفرق جمع التتار وأخذت أموالهم. وانهزموا في أسوأ حال وأتعسه يتخطفون من كل جانب، ويقتلون من كل فج، حتى وصلوا إلى الفرات ففرق أكثرهم، ونزل إليهم أهل البيرة فقتلوا منهم خلقاً كثيراً وأسروا آخرين والجيوش في آثارهم يطردونهم عن البلاد حتى أراح الله تعالى منهم الناس.

وقد استشهد في هذه الوقعة جماعة من سادات الأمراء منهم الأمير الكبير الحاج عز الدين أزدمر جمدار، وهو الذي جرح ملك التتار يومئذ منكوتمر. فإنه خاطر بنفسه وأوهم أنه مقفز إليه وقلب رمحه حتى وصل إليه فطعنه فجرحه فقتلوه رحمه الله تعالى. ودفن بالقرب من مشهد خالد.

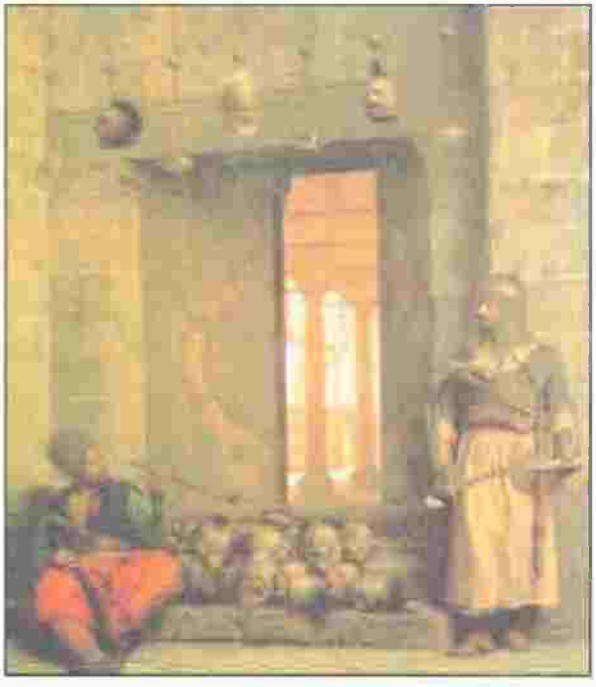

آباد المماليك المسلمون في عين جالوت، وحمص الأولى، والفرات، وابلستين، وحمص الثانية، وشقحب، جيوش المغول الغازية التي أشيع أنها لا تقهر. وقام أبطال المماليك بإذكاء روح الجهاد وعسكرة العالم الإسلامي. وقاموا بنصب رؤوس المغول المقطوعة على أبواب المساجد لرفع همم المسلمين.

وأقام السلطان بدمشق إلى ثاني شهر رمضان خرج منه عائداً إلى الديار المصرية، وخرج الناس لوداعه مبتهلين بالدعاء له. وسار حتى دخل الديار المصرية يوم ثاني عشرين الشهر بعد أن احتفل أهل مصر لملاقاته وزُينت الديار المصرية زينة لم يُرَ مثلها من مدة سنين، وعملت بها القلاع، وشقّ القاهرة في مروره إلى قلعة الجبل حتى طلع إليها، فكان هذا اليوم من الأيام المشهودة وتضاعف سرور الناس بسلامته وبنصر المسلمين على العدو المخذول). انتهى

وقد جاء إيغا ملك التتار نفسه، فنزل قريباً من الفرات: ليرى ماذا يكون من الأمر، فلما جرى عليهم ما جرى ساءه ذلك ومات غماً وحزناً. ولم يكن بعد هولاكو في التدبير والحزم مثله، ولم تكن وقعة حمص هذه برأيه ولا عن مشورته، ولكن أخوه منكوتمر أحب ذلك، فلم يخالفه. توفي بين العيدين من هذه السنة، وقام بالملك بعده ولده

السلطان احمد المسلم، وسُرّ السلطان قلاوون بخبر إسلام أحمد بن هولاكو. وارسل ملك التتار أحمد المسلم في ٦٨١هـ إلى الملك المنصور يطلب منه المصالحة وحقن الدماء فيما بينهم، وجاء في الرسلية الشيخ قطب الدين الشيرازي أحد تلامذة النصير الطوسي، فأجاب المنصور إلى ذلك، وكتب المكاتبات إلى ملك التتار بذلك.

لكن في ٦٨٢هـ اختلف التتار فيما بينهم على ملكهم السلطان أحمد فعزلوه عنهم وقتلوه، وملّكوا عليهم السلطان ارغون بن أبغا، ونادوا بذلك في جيشهم، وتأطدت أحوالهم، ومشت أمورهم على ذلك وسادت دولة السلطان أحمد، وقامت دولة ارغون بن أبغا ملك التتار، وكان سفاكاً للدماء: قتل عمه السلطان أحمد بن هولاكو، فعظم في أعين المغول، مات عام ٦٩٠هـ من شراب شربه فيه سم، فاتهمت المغول اليهود به — وكان وزيره سعد الدولة ابن الصفي يهودياً — فقتلوا من اليهود خلقاً كثيراً، ونهبوا منهم أموالاً عظيمة جداً في جميع مدائن العراق، ثم اختلفوا فيمن يقيمونه بعده، فمالت طائفة إلى كيخنو فأجلسوه على سرير المملكة فبقي مدة، قيل سنة وقيل أقل من ذلك، ثم قتلوه وملكوا بعده بيدرا.

وجاء الخبر بوفاة أرغون إلى الملك الأشرف وهو محاصر عكا ففرح بذلك كثيراً، وكانت مدة ملك أرغون ٨ سنين، وقد وصفه بعض مؤرخي العراق بالعدل والسياسة الجيدة.

فتح حصن المرقب المنيع ومدينة مرقية عام ٦٨٣هـ:

وكان في نفس السلطان من أهل المرقب: لما فعلوا مع عسكره ما فعلوا في السنين الماضية، فنازل السلطان حصن المرقب في يوم الأربعاء ١٠ صفر، وشرع العسكر في عمل الستائر والمجانيق، فلما انتهت الستائر التي للمحانيق حملتها المقاتلة لباب الحصن، فسقطت الستارة إلى بركة كبيرة كان عليها جماعة من أصحاب الأمير علم الدين سنجر الدويداري منهم: شمس الدين سلقر أستاداره وعدة من مماليكه فاستشهدوا جميعهم رحمهم الله تعالى.

ثم حضر رسل الفرنج في يوم الأحد ١٤ من الشهر من عند ملكهم الإسبتار، وسألوا السلطان التسلم والأمان لأهل المرقب على نفوسهم وأموالهم ويسلّمون الحصن المذكور، فلم يجبهم السلطان إلى ذلك.

وكمل نصب المجانيق ورمى بها وشعث الحصن وهدم معظم أبراجه، واستمر الحال إلى ١٦ شهر ربيع الأول حيث زحف السلطان على الحصن فأذعن من فيه بالتسليم، وحصلت المراسلة في معنى ذلك.

فلما كان يوم الجمعة ١٨ شهر ربيع الأول المذكور سُلّم، ورفعت عليه الأعلام الإسلامية، ونزل من به بالأمن على أرواحهم فركبوا وجهّز معهم من أوصلهم إلى أنطرطوس وبالقرب من هذا الحصن مرقية، وهي بلدة صغيرة على البحر وكان صاحبها قد بنى في البحر برجاً عظيماً لا يرام ولا تصله النشاب ولا حجر المنجنيق وحصنه.

واتفق حضور رسل صاحب طرابلس إلى السلطان يطلب مراضيه، فاقترح عليه خراب هذا البرج وإحضار من كان فيه أسيراً من الجبيليين الذين كانوا مع صاحب جُبيل، فأحضر من بقي منهم أحياء واعتذر عن هدم البرج بأنه ليس له ولا هو تحت حكمه، فلم يقبل السلطان اعتذاره وصمّم على طلبه منه، فقيل: إنه اشتراه من صاحبه بعدة قرى وذهب كثير، ودفعه إلى السلطان فأمر بهدمه فهدم واستراح الناس منه. وحصل الاستيلاء في هذه الغزوة على المرقب وأعماله، ومرقية.

والمرقب من الحصون المشهورة بالمنعة والحصانة وهو كبير جداً، ولم يفتحه السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فيما فتح، فابقاه السلطان الملك المنصور بعد أن أشير عليه بهدمه ورمم شعثه واستناب فيه بعض مرائه ورتبه أحواله.

وكتبت البشائر بهذا الفتح إلى الأقطار. ولما كان السلطان الملك المنصور على حصار المرقب جاءته البشرى بولادة ولده الملك الناصر محمد بن قلاوون، فمولد الملك الناصر محمد هذه السنة... وهو أعظم ملوك الترك بلا مدافعة.

ولما فتح لسلطان الملك المنصور المرقب عملت الشعراء في ذلك عدة قصائد، فمن ذلك ما قاله العلامة شهاب الدين أبو الثناء محمود:

الله أكبر هذا النصر والظفر	هذا هو الفتح لا ما تزعم السير
هذا الذي كانت الآمال إن طمحت	إلى الكواكب ترجوه وتنتظر
فانهض وسر وامتلك الدنيا فقد نحلت	شوقاً منابرها وارتاحت السرر
كم رام قبلك هذا الحصن من ملك	فطال عنه وما في باعه قصر
وكيف تمنحه الأيام مملكة	كانت لدولتك الغراء تدخر
وكيف يسمو إليها من تأخر عن	إسعاده منجداك القهر والقدر
غر العدا منك حلم تحته همم	لأشقر البرق من تحجيلها غرر
لها وإن أشبهت لطف النسيم سرى	معنى العواصف لا نبقي ولا تذر
أوردتها المرقب العالي وليس سوى	ماء المجرة في أرجائها نهر
كأنه وكأن الجو يكنفه	وهم تمثله في طيها الفكر
يختال كالغادة العذراء قد نظمت	منه مكان اللآلي الأنجم الزهر
ويومض البرق يهفو نحوه ليرى	أدنى رياه ويأتي وهو معتذر
وليس يُروى بماء السحب مصعدة	إليه من فيه إلا وهو منحدر
وأضرمت حوله نار لها لهب	من السيوف ومن تبل الوغى شرر
كأنها ومجانيق الفرنج لها	فرائس الأسد في أظفارها الظفر
وكم شكا الحصن ما يلقى فما	اكترثت يا قلبها أحديد أنت أم حجر
وللنقوب دبيب في مفاصله	تثير سقماً ولا يبدو له أثر
أضحى به مثل صب لا تبين به	نار الهوى وهي في الأحشاء تستعر
ركبت في جندك الأولى إليه ضحاً	والنصر يتلوك منه جندك الأخر
قد زال تجلى قواه عن قواعده	وخرّ أعلاه نحو الأرض يبتدر
وساخ وانكشفت أقباؤه وبدا	لديك من مضمرات النصر ما ستروا
إن لم يوف الورى بالشكر ما فتحت	يداك فالله والأملاك قد شكروا

ثم سار الملك المنصور قلاوون من المرقب إلى دمشق وأقام بها أياماً، ثم خرج منها عائداً إلى نحو الديار المصرية في بكرة الإثنين ثاني عشر جمادى الأولى، فدخل الديار المصرية في أوائل شهر رجب.

فتح دويلة طرابلس الصليبية عام ٦٨٨هـ بعد ١٨٥ عاماً. أطول احتلال صليبي: برغم التكوين النصراني لدويلة طرابلس الصليبية، إلا أنها صارت دويلة تابعة ذليلة للإمبراطورية المغولية منذ ١٢٦٠م، عندما خضع أميرها بوهيمند

السادس (تحت تأثير والد زوجته هيثوم الأول، ملك أرمينية) وسلم للاجتياح المغولي. ومنذ ذلك الحين وطرابلس تمثل قاعدة عسكرية للتقدم المغولي في الشام الإسلامي، مما أدى إلى زيادة النقمة الإسلامية منها.

لكن المغول لم يتمكنوا من الدفاع عن ولايتهم الذليلة هذه. وإيلخان المغول (أبغا خان) أرسل رسله إلى أوروبا لتكوين جبهة التحالف الفرنجي – المغولي ضد المسلمين. لكنه سرعان ما توفي عماً؛ بسبب انتصار جيوش الإسلام بقيادة البطل قلاوون على جيوش المغول بقيادة منكوتمر، فمات في ١٢٨٢م. ثم جاء بعده تيكودر بن هولاكو الذي أسلم وصار اسمه أحمد. رُفض تحت قيادة أحمد بن هولاكو المغولي التحالف مع الصليبيين، و الدفاع عن المقاطعات الصليبية ضد الزحف الإسلامي، مما خفف العبء على المماليك في تركيز جهادهم ضد مدن الساحلية التي كانت تحت السيطرة الصليبية. لكن تيكودر أو أحمد المسلم قتل، حيث اغتاله ابن أخيه: أرغون بن أبغا خان بن هولاكو عام ١٢٨٤م، واستحل العرش بدل عمه، وكان أرغون هذا متعاطفاً مع النصارى، واستمر على تواصل والده باوروبا؛ لاحتمال تكوين تحالف مستقبلي. ولكنه لم يكن يتحمس للدفاع عن دويلة طرابلس الصليبية. وقد استمر المماليك في أثناء ذلك بالجهاد وفتح المرقب في ١٢٨٥م، واللاذقية في ١٢٨٧م.

ولم يزل السلطان قلاوون ملتزماً بالهدنة مع دويلة طرابلس الصليبية، لكنهم هم الذين نقضوا العهد وأعطوه الحجة لحصارهم. ولم يسلك النصارى الطريق الحكيم، فدبّ الخلاف بينهم في معارك، من أشهرها ما حصل بين المملكتين التجاريتين: جنوه والبندقية. فقامت لوسيا أميرة طرابلس الصليبية بالتحالف مع الجنويين، مما أكسبها عداوة تجار البندقية. ويقال: إن تجار البندقية أرسلوا مبعوثهم إلى الإسكندرية لاستثارة المماليك بالتدخل ضد تجار جنوه الذين يريدون الهيمنة على تجارة المشرق، وتعويق أو تدمير تجارة المماليك إن هم سيطروا على طرابلس. وهذا الزعم – أن تجار البندقية هم الذين أثروا في قلاوون لتحريك جيشه شمالاً لحصار طرابلس – لا يتفق تماماً مع شخصية قلاوون الجهادية، ولا مع ما جاء في المصادر العربية كما سنرى.

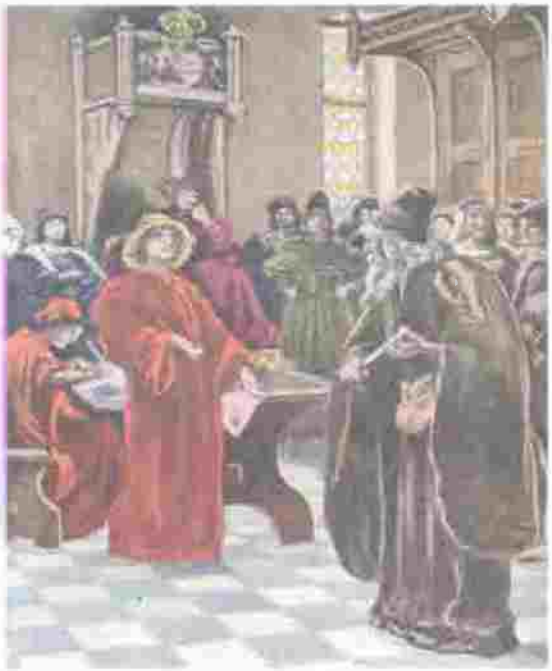

كان لتجار البندقية دور كبير في تمويل الحملات الصليبية

تحرك السلطان قلاوون بجيش كبير مع العديد من المجانيق الكبيرة، وبدأ بحصار طرابلس في آذار/ مارس ١٢٨٩م. بالمقابل، أعطى كبار رجال الدين والنبلاء الأميرة لوسيا السلطة المطلقة. كان في ميناء طرابلس آنذاك ٤ سفن حربية من جنوه، مع سفينتين حربيتين من البندقية، مع العديد من المراكب الصغيرة، وجاءت الإمدادات العسكرية إلى طرابلس من فرسان المعبد الذين أرسلوا قوة بقيادة جيفري من فيندك، وأرسل فرسان الإسبتارية قوة بقيادة ماثيو من كليرمونت، وأرسل فوجٌ فرنجي (فرنسي) من عكا بقيادة جون من غريلي، وأرسل هنري الثاني (ملك قبرص) أخاه الشاب أمالريك بصحبة الفرسان و٤ سفن حربية، وارتحل العديد من المدنيين غير المقاتلين من طرابلس إلى قبرص.

أطلق المماليك نيرانهم وقذائفهم عبر مجانيقهم الجبارة، وسرعان ما انهار لهم برجان من أبراج قلاع السور تحت وابل القذائف. وبدأ المدافعون يتهيؤون للهروب

اسرع عبر المماليك ثغرات الأسوار المهدمة، واستولوا على المدينة في ٢٦ نيسان/ أبريل، مُنهين بذلك الاحتلال الصليبي لمدينة طرابلس بعد أكثر من ١٨٠ سنة، وهي أطول مدة احتلال فرنجي لأي مدينة في المشرق الإسلامي. استطاعت الاميرة لوسيا الهرب إلى قبرص مع اثنين من مارشالات تنظيمات الفرسان، ومع أمالريك. وقُتل قائد فرسان الهيكل هناك بيتر من مونكادا، مع بارثولوميو إمبرياكو. دخل المماليك وقتلوا سكان المدينة المقاتلين، وفرّ بعضهم في سفينة. أما الذين التجؤوا إلى الجزيرة المجاورة سانت – ثوماس فسرعان ما قبض عليهم المماليك في ٢٩ نيسان/أبريل، فأخذ النساء والأطفال سبايا أرقاء، وأما الـ ١٢٠٠ أسير فقد أُرسلوا إلى الإسكندرية؛ ليعملوا في دار الصناعة (الترسانة) الجديدة للسلطان. قارن بين معاملة الإسلام الإنسانية للنصارى، وبين معاملة النصارى الصليبيين الوحشية بقتل جميع المسلمين رجالاً ونساءً وأطفالاً دون تمييز.

وفي التوثيق العربي يقول ابن تغري بردي في "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة":

(ثم في سنة ثمان وثمانين وست مئة فتحت طرابلس، وهو أن صاحب طرابلس كان وقع بينه وبين (سير تلميه) الفرنجي وكان من أصحاب صاحب الحصن الذي أخربه صاحب طرابلس: رضاءً للملك المنصور قلاوون حسب ما تقدم ذكره.

فحصلت بينه وبين صاحب طرابلس وحشة بسبب ذلك، واتفق موت صاحب الحصن وسأل (سير تلميه) من السلطان الملك المنصور المساعدة وأن يتقدم للأمير بلبان الطباخي السلحدار أن يساعده على تملّك طرابلس على أن تكون مناصفة، وبذل في ذلك بذولاً كثيرة فسوعد إلى أن تم له مراده، ورأى أن الذي بذله للسلطان لا يوافقه الفرنج عليه فشرع في باب التسويف والمغالطة ومدافعة الأوقات، فلما علم السلطان باطن أمره عزم على قتاله قبل استحكام أمره، فتجهز وخرج من الديار المصرية بعساكره لحصار طرابلس وسار حتى وصل دمشق وأقام بها، ثم نهيأ وخرج منها ونازل طرابلس في مستهل شهر ربيع الأول ونصب عليها المجانيق وضايقها مضايقة شديدة إلى أن ملكها بالسيف في الرابعة من نهار الثلاثاء رابع شهر ربيع الآخر، وشمل القتل والأسر سائر من كان بها وغرق منهم في الماء جماعة كثيرة، ونُهب من الأموال والذخائر والمتاجر وغير ذلك ما لا يوصف، ثم أحرقت وخُرّب سورها وكان من أعظم الأسوار وأمنعها.

ثم تسلم حصن أنفة، وكان أيضاً لصاحب طرابلس، فأمر السلطان بتخريبه. ثم تسلم السلطان البترون وجميع ما هناك من الحصون.

وكان لطرابلس مدة طويلة بأيدي الفرنج من سنة ٥٠٣هـ إلى الآن. احتلها الصليبيون ١٨٥ عاماً من ٥٠٣ حتى ٦٨٨هـ.

قلت. وكان فتح طرابلس الأول في زمن معاوية بن أبي سفيان ﷺ، وتنقلت في أيدي الملوك وعظمت في زمن بني عمار قضاة طرابلس وحكامها.

فلما كان في آخر المئة الخامسة ظهرت طوائف الفرنج في الشام واستولوا على البلاد، فامتنعت عليهم طرابلس مدة حتى ملكوها بعد أمور في سنة ثلاث وخمس مئة واستمرت في أيديهم إلى أن فتحها الملك المنصور قلاوون في هذه السنة.

وقال شرف الدين محمد بن موسى المقدسي الكاتب في السيرة المنصورية: إن طرابلس كانت عبارة عن ثلاثة حصون مجتمعة باللسان الرومي، وكان فتحها على يد سفيان بن مجيب الأزدي، الذي بعثه معاوية بن أبي سفيان ﷺ لحصارها في خلافة عثمان بن عفان ﷺ. انتهى كلام شرف الدين باختصار.

قلت: وأما طرابلس القديمة فقد كانت من أحسن المدن وأطيبها، ثم بعد ذلك اتخذوا مكاناً على ميل من البلدة وبنوه مدينة صغيرة بلا سور فجاء مكاناً رديء الهوى والمزاج من الوخم. انتهى.

ولما فتحت طرابلس كتبت البشائر إلى الآفاق بهذا النصر العظيم، ودقت البشائر والتهاني، وزينت المدن وعملت القلاع في الشوارع، وسُر الناس بهذا النصر غاية السرور. وأنشأ في هذا المعنى القاضي تاج الدين ابن الأثير كتاباً إلى صاحب اليمن بأمر الملك المنصور يعرفه بهذا الفتح العظيم، وبالبشارة به.

هجوم المماليك
وسقوط دويلة طرابلس الصليبية عام ١٢٨٩م

وأوله: (بسم الله الرحمن الرحيم، أعز الله نصر المقام العالي السلطاني الملكي المظفري الشمسي).

ثم استطرد وحكى أمر الفتح وغيره إلى أن قال فأحسن فيما قال: (وكانت الخلفاء والملوك في ذلك الوقت ما فيهم إلا من هو مشغول بنفسه، مُكب على مجلس أنسه، يرى السلامة غنيمة، وإذا عنّ له وصف الحرب لم يسأل منها إلا عن طرق الهزيمة، قد بلغ أمله من الرتبة، وقنع من ملكه كما يقال بالسكة والخطبة. أموال تنهب وممالك تذهب، لا يبالون بما سُلبوا، وهم كما قيل: (من البحر البسيط)

إن قـاتلوا قُتلـوا أو طـاردوا طُـردوا ... أو حـاربوا حُربـوا أو غـالبوا غُلبـوا

إلى أن أوجد الله تعالى من نصر دينه وأذل الكفر وشياطينه). انتهى. قلت: والكتاب هذه خلاصته والذي أعجبني منه). انتهى

وجاءت العربية لتخلد هذا النصر المبين على هذه الدويلة الصليبية، وعمل الشعراء في هذا الفتح عدة قصائد. فمن ذلك ما قاله العلامة شهاب الدين أبو الثناء محمود كاتب الدرج يمدح الملك المنصور قلاوون ويذكر فتحه طرابلس. والقصيدة أولها:

علينـا لمـن أولاك نعمتـه الشـكر ... لأنـك للإسـلام يـا سـيفه ذخـر
ولله في إعـلاء ملكـك في الـورى ... مـراد وفي التأييـد يـوم الـوغى سـر
ألا هكـذا يـا وارث الملـك فليكن ... جهـاد العـدا لا مـا تـوالى بـه الـدهر
نهضـت إلى عليـا طـرابلس الـتي ... أقـلّ عناهـا أن خنـدقها البحـر

وفاة الملك المنصور قلاوون: خرج السلطان قلاوون مجاهداً لفتح عكا: أهم معقل صليبي (وتوفي بهذه النية – يرحمه الله). وجاء البريد يعمل مجانيق لحصار عكا، فركب القادة إلى أراضي بعلبك: لما هنالك من الأخشاب العظيمة التي لا يوجد مثلها في دمشق، وهي تصلح لعمل المنجنيقات، وكلفوا الناس تكليفاً كبيراً، وأخذوا أخشابهم وحملت إلى دمشق بكلفة عظيمة وشدة كثيرة. وبينما الناس في ذلك إذ ورد البريد، فأخبروا بوفاة الملك المنصور يوم السبت ٢٦ ذي القعدة سنة ٦٨٩هـ، بالمخيم ظاهر القاهرة، ثم حمل إلى قلعة الجبل ليلاً وجلس بعده ولده

للملك الأشرف خليل بولاية العهد له، وحلف له جميع الأمراء، وخطب له على المنابر، وركب في آبهة الملك، والعساكر كلهم في خدمته مشاة من قلعة الجبل إلى الميدان الأسود الذي هو سوق الخيل. والخلع على الأمراء والمقدمين. وعلى القضاة والأعيان. ودفن السلطان قلاوون في تربته بمدرسته الهائلة التي انشأها بين القصرين. التي ليس بديار مصر ولا بالشام مثلها. وفيها: دار حديث ومارستان، وعليها أوقاف دارة كثيرة عظيمة. مات عن قريب من ٦٠ سنة، وكانت مدة ملكه ١١ سنة، رحمه الله تعالى.

الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون (٦٦٦-٦٩٣هـ / ١٢٦٧-١٢٩٣م): تحرير عكا وإنهاء الاحتلال الصليبي:

ومن السلاطين المشهورين السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون الذي تولى الحكم بعد والده السلطان قلاوون عام ٦٩٠هـ-١٢٩٠م. واستمر في حمل راية الجهاد، فقاد جيشه في حملة عسكرية ضخمة على مدينة عكا عاصمة ما تبقى من مملكة بيت المقدس وآخر حصون الصليبيين المستعصية، فنجح الأشرف خليل في دكها وطرد الصليبيين منها برغم إمدادهم بالنجدة من القبارصة. وقد دبّ الرعب في نفوس الصليبيين بعد هذا الفتح، فتركوا حصونهم وقلاعهم في كل من بيروت وصيدا وصور وغيرها، وعاد السلطان إلى القاهرة منتصراً مظفراً ومعه آلاف من أسرى العدو الصليبيين. وفتح حصن الروم المنيع، ثم اتجه لقتال المغول في حلب ومنها إلى سيا الصغرى، ثم اتجه إلى أرمينيا، وفتح بلاد أرض الروم، ورجع إلى القاهرة حيث تعرض للاغتيال عام ١٢٩٣م.

ومن الجدير بالذكر أن الناصر صلاح الدين الأيوبي لم يفتح مدينة صور، ولم يستطع استرداد عكا بعد أن انتزعها منه الملك ريشارد قلب الأسد قائد الحملة الصليبية الثالثة، بعد إعطاء الأمان، ولكن حين دخل عكا، غدر بأهلها وقتل ٣٠٠٠ من الرجال والنساء والأطفال.

فتح عكا الأسطوري عام ٦٩٠هـ ١٢٩١م، عاصمة ما تبقى من مملكة بيت المقدس الصليبية:

في عام ١٢٨٩ قضى السلطان قلاوون على دويلة طرابلس الصليبية، وحرر طرابلس من قبضة الصليبيين، ثم قرر في العام الآتي تحرير ثغر عكا، أي بقايا مملكة بيت المقدس الصليبية، إلا أنه - ولفرحة سكانها الصليبيين - توفي في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر قبل أن يبدأ بالمسير.

فلما تولى الأشرف خليل السلطنة قرر المسير إلى عكا: لفتحها وإنهاء الاحتلال الصليبي لها، فأرسل إلى "وليام أوف بوجيه" رئيس طائفة فرسان المعبد (الداوية) بعكا يعلمه بأنه قد قرر الهجوم عليها، وطلب منه عدم إرسال رسل أو هدايا إليه؛ لأن ذلك لن يثنيه عن مهاجمة المدينة. إلا أن عكا أرسلت إلى القاهرة وفداً محملاً بالهدايا يرأسه فيليب ماينبوف لاسترجاء الأشرف بالعدول عن خطته وضرورة الحفاظ على المعاهدة، فرفض الأشرف خليل مقابلتهم وقام بحبسهم.

قام الأشرف بتعبئة جيوشه من مصر والشام، التي كانت تضم أعداداً كبيرة من المتطوعين وآلات الحصار التي كانت تشمل اثنين وتسعين منجنيقاً. كانت بعض العرادات الضخمة تحمل أسماءً مثل "المنصوري" و"الغاضبة"، وكانت هناك مجانيق أصغر حجماً ولكن ذات قوة تدميرية هائلة اسمها "الثيران السوداء". احتشدت الجيوش عند قلعة الحصن في جبال الساحل السوري، ثم انضم إليها جيش مصر الذي خرج به الأشرف خليل من القاهرة. انضمت أربعة جيوش يقودها نواب السلطان: جيش دمشق يقوده حسام الدين لاجين، وجيش من حماه يقوده المظفر تقي الدين، وجيش من طرابلس يقوده سيف الدين بلبان. أما الجيش الرابع فقد كان من الكرك وكان على رأسه الأمير المؤرخ بيبرس الدوادار؛ وقد كان في جيش حماه أمير مؤرخ آخر هو أبو الفداء.

كان الصليبيون في عكا يدركون منذ مدة خطورة موقفهم، وكانوا قد أرسلوا إلى ملوك أوروبا وأمرائها يطلبون منهم العون والمساعدة إلا أنهم لم يصلهم من أوروبا دعم يذكر، حيث قام ملك إنكلترا إدوارد الأول بإرسال

بعض الفرسان. والدعم الوحيد الذي كان ذا أهمية جاء من هنري الثاني ملك قبرص الذي قام بتعضين أسوار عكا وأرسل قوة عسكرية على رأسها أخوه "أمالريك". كانت عكا محمية براً عن طريق سورين مزدوجين سميكين، واثني عشر برجاً شيدها الملوك الأوروبيون وبعض أثرياء حجاج بيت المقدس. كانت الأسوار مقسمة على الطوائف والفرق الصليبية بحيث تكون كل طائفة (فرسان المعبد، والإسباتريه، وفرسان التيوتون الألمان وغيرهم) مسؤولة عن حماية قسمها.

غادر الأشرف خليل القاهرة في السادس من آذار/مارس عام ١٢٩١م، ويحلول الخامس من نيسان/أبريل كان جيشه يقف بمواجهة عكا. نصب الأشرف دهليزه الأحمر فوق تلة مواجهة لبرج المذنوب البابوي على مسافة غير بعيدة من شاطئ البحر، وانتشر جيش مصر من نهاية سور مونتموسارت حتى خليج عكا، واتخذ جيش حماه مواقعه عند البحر وعلى ساحل عكا. وانطلقت في اليوم اللاحق عرارات جيش المسلمين ومناجيقه تلقي بالأحجار الضخمة والنيران على أسوار عكا، وراح رماة السهام من المسلمين يإمطار المدافعين من الصليبيين المتحصنين فوق أبهاء الأبراج وأقاريزها بسهامهم.

وبعد ثمانية أيام من الدك والمناوشات والاشتباكات تقدم الفرسان والمهندسون المسلمون وقد تفضا بالدروع في موجات متلاحقة نحو سور عكا حتى سيطروا على حافته دون أن يتمكن المدافعون الصليبيون من إيقاف موجات زحفهم؛ لكثرة أعدادهم وتلاحق موجاتهم بامتداد الأسوار. استخدم المسلمون سلاحاً يدوياً صغير يطلق نيراناً كثيفة وسريعة أطلق عليه الصليبيون اسم "كارابوها"، وقد أحدث هذا السلاح أضراراً بالغة بالمقاتلين الصليبيين وصعب عليهم التقدم نحو المهاجمين المسلمين، وتمكن المسلمون من إحداث أضرار وبعض الثقوب في الأجزاء الضعيفة من الأسوار، وأخذ الأمير سنجر الشجاعي ومقاتلوه على عاتقهم ثقب سور برج جديد يسمى برج الملك وكان أمام البرج الملعون، فقام الصليبيون بإشعال النار فيه وتركوه ينهار.

على الرغم من استمرار وصول الإمدادت والتعزيزات العسكرية من قبرص إلى عكا عن طريق البحر إلا أن الصليبيين المحاصرين فيها كانوا يدركون أنهم غير قادرين على التصدي لجيش المسلمين. قامت في ١٥ من نيسان/أبريل، وتحت ضوء القمر قوة صليبية من فرسان المعبد بقيادة "جين غريلي Jean Grailly" و"أوتو أوف غراندسون Otto of Grandson" بغارة مفاجئة على معسكر جيش حماه بهدف إحراق إحدى عرّادات المسلمين إلا أنه، وبحمد الله، تعثرت أرجل خيولهم في حبال خيام المقاتلين المسلمين مما أدى إلى انكشاف أمرهم، وقتل العديد منهم وأسرهم.

خريطة مدينة عكا عام ١٢٩١م، ومحاولة فرسان المعبد الفاشلة الإغارة على المسلمين

وتمكن عدد منهم من الفرار ببعض طبول المسلمين ودروعهم. ثم شن فرسان الإسبتاريه بعد بضعة أيام غارة أخرى على معسكر للمسلمين، هذه المرة في الظلام الدامس، ولكن غارتهم انتهت هي الأخرى بالفشل بعد أن انكشف امرهم وانشغل المسلمون للمشاعل وتصدوا لهم، فلاذوا بالفرار بجرحاهم.

استرد الصليبيون المحاصرون في الرابع من شهر أيار/مايو بعض الثقة والأمل حين وصل الملك هنري الثاني من قبرص، وبصحبته أربعون سفينة محملة بالمقاتلين والعتاد. تولى هنري قيادة الدفاع، ولكن سرعان ما أدرك هنري قلة حيلته في مواجهة الأشرف خليل، فأوفد إليه فارسين من فرسان المعبد هما "وليم أوف كافران William of Caffran" و"وليم أوف فيليبه William of Villiers": لطلب السلام وإعادة الهدنة، وسألهما الأشرف عما إذا كانا قد أحضرا معهما مفاتيح المدينة، فلما أجابا بالنفي قال لهما إن كل ما يهمه هو امتلاك المدينة، وانه لا يهمه مصير سكانها، ولكن تقديراً منه لشجاعة الملك هنري ولصغر سنه وقدومه لتقديم المساعدة وهو مريض، فإنه على استعداد أن يبقي على حياة السكان في حال تسليم المدينة له دون قتال. فأجابا بأنهما لم يأتيا إليه للاستسلام، ولكن لطلب رحمته على السكان فقط. وبينما الفارسان يستعطفان الأشرف إذ بعرارة صليبية تلقي من داخل عكا يحجر يسقط بالقرب من دهليز الأشرف، فظن أنها مؤامرة صليبية لقتله وأراد قتل الفارسين، إلا أن الأمير سنجر الشجاعي شفع فيهما، فسمح الأشرف لهما بالعودة إلى عكا.

فتح عكا: بدأت ابراج عكا منذ ٨ أيار/مايو تصاب باضرار بالغة؛ نتيجة لدكها المستمر بالمناجيق وتثقيبها عن طريق المهندسين المسلمين، فانهار برج الملك هنو وتبعه البرج الإنجليزي وبرج الكونتيسة دو بلوا، وقام المسلمون في ١٦ أيار/مايو بهجوم مركز على باب القديس انطوان تصدى له فرسان المعبد والإسبتاريه. سمع صليبيو عكا في فجر يوم الجمعة ١٨ مايو/أيار (١٧ جمادى الأولى سنة ٦٩٠هـ) دقات طبول المسلمين، وبدأ المسلمون بالزحف الشامل على عكا بامتداد الأسوار، تحت هدير دقات الطبول التي حُملت على ثلاث مئة جمل؛ لإنزال الرعب في صدور الصليبيين داخل عكا.

اندفع جنود جيش الأشرف وجيش حماه وهم يكبرون (الله أكبر) لمهاجمة تحصينات المدينة تحت قيادة الأمراء المماليك الذين ارتدوا عمائم بيضاء، ووصل المقاتلون إلى البرج الملعون وأجبروا حاميته على التراجع إلى جهة باب القديس انطوان، واستمات فرسان المعبد وفرسان الإسبتاريه في الدفاع عن البرج والباب، ولكن المقاتلين المسلمين، الذين كانت نار الإغريق من ضمن أسلحتهم، تمكنوا من الاستيلاء عليهما، وراحت قوات جيش المسلمين تتدفق على شوارع المدينة حيث دار قتال عنيف بينهم وبين الصليبيين. وقتل مقدم فرسان المعبد "وليم أوف بوجوه"، وتبعه "ماثيو أوف كليرمونت Matthew of Clermont"، وجُرح مقدم الإسبتارية "جون فيليبه" جرحاً بالغاً فحُمل إلى سفينته وبقي فيها.

رفعت الصناجق الإسلامية على أسوار عكا، وأيقن الملك هنري أنه لا طاقة للصليبيين بجيش الأشرف وأن عكا ستسقط في يد الأشرف لا محال، فأبحر عائداً إلى قبرص ومعه "جون فيليبه" مقدم الإسبتاريه، وقد تعرض الملك هنري فيما بعد للاتهام بالتخاذل والجبن.

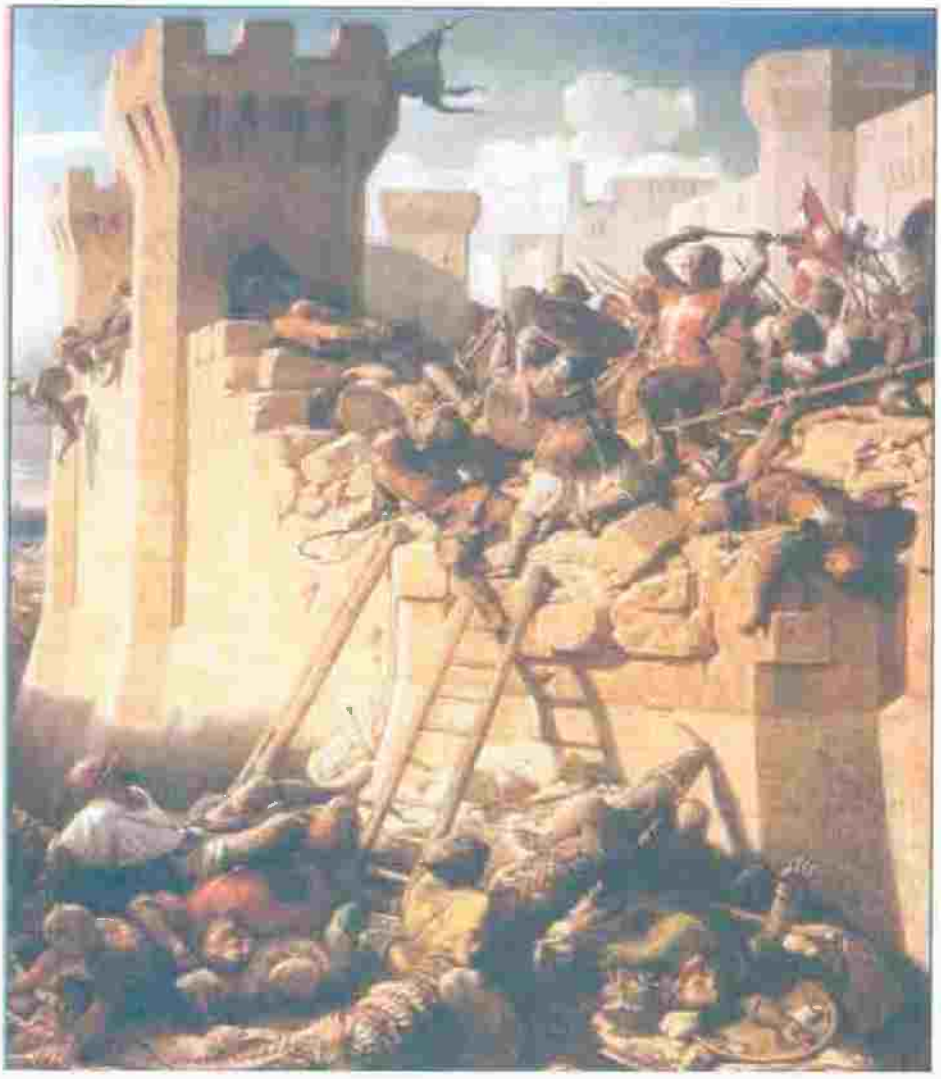

حصار عكا الأسطوري وفتحها عام ٦٩٠هـ - ١٢٩١م (يشبه إلى حدّ ما فتح القسطنطينية ١٤٥٣م)

انفاق فرسان الهيكل او المعبد تحت مدينة عكا: بداية الأنفاق تحت الأرض تتشعب للاتساع وللذهاب والمجيء، ثم تتحد لتكوّن نفقاً واحداً يتصل بالبحر

انفاق فرسان الهيكل تحت مدينة عكا: وسط النفق المتحد الذي يربط قلاع عكا تحت الأرض بالبحر مباشرة كممر سريّ للهرب

نهاية النفق تحت الأرض يرتبط بالبحر مباشرة
(انظر مياه البحر على جانبي الممر السري)

سادت عكا حالة من الفوضى العارمة والرعب الهائل، واندفع سكانها المذعورين إلى الشواطئ؛ بحثاً عن مراكب لتقلهم بعيداً عنها، ولا يدري أحد بالتحديد كم منهم قتل على الأرض، أو كم منهم ابتلعه البحر. وقد تمكن بعض الأثرياء من النبلاء من الفرار من عكا في مراكب الكاتلاني "روجر فلور Roger de Flor"، مقدم المرتزقة وفارس المعبد، مقابل أموال دفعوها له. وقد تمكن "روجر دو فلور" من استغلال الموقف فابتز الأثرياء والنبيلات وكوّن ثروة طائلة.

كانت مدينة عكا قبل أن يحل الليل قد صارت في يد المسلمين، عدا حصن فرسان المعبد الذي كان مشيداً على ساحل البحر في الجهة الشمالية الغربية من المدينة. عادت عكا إلى المسلمين بعد حصار دام أربعة وأربعين يوماً، وبعد أن احتلها الصليبيون مئة عام.

تفاوض السلطان خليل بعد أسبوع من فتح عكا مع "بيتر دو سيفري Peter de Severy" رئيس حصن فرسان المعبد، وجرى الاتفاق على تسليم الحصن مقابل السماح بإبحار كل من في الحصن إلى قبرص.

بعد وصول رجال السلطان إلى الحصن: للإشراف على تدابير الإخلاء، تعرضوا لبعض النسوة في الحصن أو أرادوا أخذهن مما أدى إلى غضب فرسان المعبد، فانقضوا عليهم وقتلوهم وأزالوا صنجق المسلمين الذي كان قد رفع على الحصن من قبل، واستعدوا لمواصلة القتال.

غادر "تيبالد غودين Theobald Gaudin" مقدم فرسان المعبد الجديد، في الليل تحت جنح الظلام الحصن إلى صيدا في صحبة عدد من المقاتلين ومعه أموال الطائفة. وذهب "بيتر دو سيفري" في اليوم اللاحق إلى السلطان خليل ومعه بعض الفرسان: للتفاوض من جديد، فقبض الأشرف عليهم وأعدمهم انتقاماً لرجاله الذين قتلهم الفرسان في الحصن، فلما رأى بقية الفرسان المحاصرين في الحصن ما حدث لبيتر دو سيفري ورفاقه واصلوا القتال.

دفع الأشرف في ٢٨ من أيار/مايو، بعد أن حفر المهندسون نقباً تحت الحصن، بالقي مقاتل للاستيلاء عليه، وبينما هم يشقون طريقهم داخله انهار البناء وهلك كل من كان بداخل الحصن من مدافعين ومهاجمين.

وصلت أنباء انتصار جيش المسلمين وتحريره عكا إلى دمشق والقاهرة، ففرح الناس وزينت طدن، ودخل السلطان خليل دمشق ومعه الأسرى الصليبيين مقيدين بالسلاسل، وقوبل جيش المسلمين بالاحتفالات ورفع رايات النصر وزينت دمشق وعمت البهجة بين الناس. وبعد أن دخل القاهرة وتزينت وفرشت فيها الشقق الحرير تحت حافر فرسه، وبعد أن زار قبر أبيه الملك المنصور، صعد إلى قلعة الجبل وخلع على الأمراء. أمر الأشرف بإطلاق سراح "فيليب مابنبيف" وزملائه الصليبيين الذين كان قد قبض عليهم قبل مسيره إلى عكا، وقام بنقل براية كنيسة القديس أندرياس من عكا إلى القاهرة: لاستخدامها في استكمال مسجده.

تحرير ساحل الشام:

كان ثغر صور من أمنع المعاقل الصليبية على ساحل الشام، وقد حاول صلاح الدين الأيوبي تحريره مرتين ولكنه لم ينجح. كانت سيدة صور "مرجريت أوف لوسيجنان Margaret of Lusignan" أرملة "جون أوف مونتفورت John of Montfort" قد تنازلت لابن اختها "أمالريك" عن صور منذ مدة قصيرة قبل فتح الأشرف عكا. أرسل الأشرف في ١٩ أيار/مايو، وهو ما زال في عكا، فريقاً من المقاتلين تحت قيادة الأمير سنجر الشجاعي لتعرف حال الصليبيين في صور. ارتعب "آدم أوف كافران Adam of Cafran" نائب "أمالريك" في صور، عندما رأى قوات الشجاعي وفرّ إلى قبرص، فاستولى الشجاعي على صور من دون قتال.

أرسل الأشرف خليل الأمير الشجاعي إلى صيدا، فقرر فرسان المعبد اللوذ بقلعتهم، التي كانت مشيدة على جزيرة صغيرة قرب الشاطئ؛ إذ إن ثروتهم كانت قد نقلها زعيمهم الجديد "تيبالد جودين" إلى صيدا وقت حصار حصنهم في عكا. ثم فرّ "تيبالد جودين" بالثروة إلى قبرص بعد أن وعد فرسان حامية صور بإرسال إمدادات إليهم من قبرص، وهو ما لم يفعله، فاضطر الفرسان إلى مناوشة قوات الشجاعي بعض الوقت حتى تمكنوا ذات ليلة من الفرار إلى طرطوس بعدما لاحظوا أن المسلمين يبنون جسراً بين الشاطئ والقلعة.

توجه الشجاعي بعد أن حرر صيدا إلى بيروت، التي كان بها حامية صليبية صغيرة وكانت مرفأ جارياً مهماً للصليبيين. كانت سيدة بيروت "إيشيفا أوف إيبلين Eschiva of Ibelin" تظن أنها بمأمن من المسلمين: بسبب توقيعها هدنة مع السلطان قلاوون والد الأشرف خليل. طلب الشجاعي عندما وصل إلى بيروت من مقدمي الحامية المثول أمامه، فلما أتوه قبض عليهم، ففر المقاتلون الصليبيون عن طريق البحر. تحررت بيروت من الصليبيين في ٣١ تموز/يوليو، وأمر الشجاعي بتدمير قلاعها وأسوارها وتحويل كاتدرائيتها إلى مسجد.

تحررت حيفا من دون مقاومة صليبية تُذكر. وقام الأمير سيف الدين بلبان بمحاصرة طرطوس، ففر الصليبيون إلى جزيرة أرواد مقابل الساحل السوري والقريبة من طرطوس. وتحررت طرطوس في الثالث من آب، وبعدها عثليت في ١٤ من آب.

فقدَ الصليبيون بهذا معاقلهم كافة على ساحل الشام، عدا جزيرة أرواد التي بقيت اثنتي عشرة سنة في أيدي فرسان المعبد إلى أن قام المسلمون بمحاصرتها وتحريرها في عام ١٣٠٢م.

كان الأشرف يدرك أنه بطرد الصليبيين من سواحل الشام فإن قبرص قد صارت مصدر الخطر الأساسي على المسلمين؛ فملك قبرص كان يعدّ بالنسبة إلى الصليبيين من الناحية الاسمية ملكاً لبيت المقدس حتى بعد تحريرها. وأصبحت حكومة قبرص بعد تحرير ساحل الشام الحكومة الصليبية الأكثر حماسة لمعاودة الاستيلاء على "الأرض المقدسة"، فقام الأشرف بتدمير كل المواقع والمدن والحصون الساحلية؛ ليحرم الصليبيين من الإفادة منها في حالة مهاجمتهم لها، وفضل أن تبقى منطقة الساحل مهجورة ما دام يقي التهديد الصليبي قائماً.

فتح قلعة الروم وتهديد مملكة أرمينيا الصغرى:

في عام ١٢٩٢م وصل الأشرف خليل ومعه وزيره ابن السلعوس إلى دمشق، وانطلق منها على رأس الجيش إلى حلب ومنها إلى قلعة الروم "هرمونغلاً" مقر بطريرك أرمينيا. حاصر الأشرف قلعة الروم بـ ٢٠-٣٠ منجنيقاً، وعمل الأمير الشجاعي سلسلة وشبكها في شرايف القلعة، فصعد الأجناد وقاتلوا قتالاً شديداً إلى أن استولوا على القلعة بعد ٣٣ يوماً. وأمر السلطان خليل بتغيير اسمها من قلعة الروم إلى قلعة المسلمين، وطلب من الأمير الشجاعي عمارتها، وعاد إلى دمشق بالأسرى المكبلين بالأغلال، وكان من ضمنهم بطريرك الأرمن. وقام أهل دمشق باستقبال الجيش بآلاف الشموع المضيئة وتزينت المدينة احتفالاً بالنصر. وتوجه الأشرف من دمشق إلى القاهرة التي تزينت له من باب النصر، وصعد إلى قلعة الجبل من باب زويلة، واستقبلته رعيته المحتشدة والمبتهجة بآلاف الشموع.

كانت مملكة أرمينيا الصغرى، أو مملكة قليقيا، من ألد أعداء الدولة المملوكية؛ حيث شاركت في الحروب الصليبية ضد المسلمين، وتحالفت مع المغول عليهم، وكان لها قوات شاركت في صف المغول في معركة عين جالوت. وقد أصبحت تلك المملكة الصليبية بعد هزيمة المغول، التي أدت إلى نقص قدرتهم على حمايتها، هدفاً للمماليك يغيرون عليها من حين إلى آخر منذ عهد السلطان الظاهر بيبرس. أصبحت سيس عاصمة مملكة أرمينيا الصغرى بعد فتح قلعة الروم مقراً للكنيسة الكاثوليكية الأرمينية.

تجهز الجيش في دمشق بقيادة الأمير بيدرا نائب السلطنة، ثم لحق به الأشرف بعد أن توقف في الكرك؛ لترتيب أحوالها، وأمر بالتجهيز؛ لأخذ بهنسا من الأرمن. لما علم الأرمن بنية الأشرف أرسلوا إليه الرسل يرجون منه عدم مهاجمة مملكتهم، فجرى الاتفاق على تنازل الأرمن عن بهنسا ومرعش وتل حمدون في مقابل عدول الأشرف عن مهاجمتهم، فأرسل الأشرف الأمير طوغان والي البر بدمشق مع رسل الأرمن إلى تلك المناطق لتسلمها، فصارت في حوزة المسلمين بغير قتال.

وللتوثيق العربي يقول ابن كثير: (وفيها جاء البريد إلى دمشق في مستهل ربيع الأول لتجهيز آلات الحصار لعكا، ونودي في دمشق الغزاة في سبيل الله إلى عكا. وقد كان أهل عكا في هذا الحين عدوا على من عندهم من تجار المسلمين فقتلوهم وأخذوا أموالهم، فانبرزت المناجيق إلى ناحية الجسورة، وخرجت العامة والمتطوعة يجرون في العجل حتى الفقهاء والمدرسون والصلحاء. وتولى ساقها الأمير علم الدين الدوادار، وخرجت العساكر بين يدي نائب الشام وخرج هو في آخرهم، ولحقه صاحب حماه الملك المظفر وخرج الناس من كل صوب، واتصل بهم عسكر طرابلس، وركب الأشرف من الديار المصرية بعساكره قاصداً عكا.

فتوافت الجيوش هنالك، فنازلها يوم الخميس رابع ربيع الآخر ونصبت عليها المناجيق من كل ناحية يمكن نصبها عليها، واجتهدوا غاية الاجتهاد في محاربتها والتضييق على أهلها، واجتمع الناس بالجوامع لقراءة صحيح البخاري، فقراه الشيخ شرف الدين الفزاري، فحضر القضاة والفضلاء والأعيان. وصمم السلطان على الحصر فرتب الكوسات ثلاث مئة حمل، ثم زحف يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأولى ودقت الكوسات جملة واحدة عند طلوع الشمس، وطلع المسلمون على الأسوار مع طلوع الشمس، ونصبت المناجيق الإسلامية فوق أسوار البلد، فولت الفرنج عند ذلك الإدبار، وركبوا هاربين في مراكب التجار. وقد كان لها في أيدي الفرنج من سنة ٥١٨هـ وأما عكا فقد كان الملك الناصر يوسف بن أيوب أخذها من أيدي الفرنج، ثم إن الفرنج جاؤوا فأحاطوا بها بجيوش كثيرة، ثم جاء صلاح الدين ليمنعهم عنها مدة ٣٧ شهراً، ثم آخر ذلك استملكوها وقتلوا من كان فيها من المسلمين، كما تقدم ذلك). (البداية والنهاية ج١٣، ص٣٧٨-٣٧٩)

ويوثق ابن تغري بردي تفاصيل هذا **الفتح الأسطوري الملحمي** في تاريخ الإسلام في كتابه "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة":

(ولما استهلت سنة ٦٩٠هـ أخذ الملك الأشرف في التجهز للسفر إلى البلاد الشامية وإتمام ما كان قصده والده من حصار عكا، وأرسل إلى البلاد الشامية، وجمع العساكر، وعمل آلات الحصار، وجمع الصناع إلى أن تم أمره وخرج بعساكره من الديار المصرية في ثالث شهر ربيع الأول من سنة تسعين المذكورة، وسار حتى نازل عكا في يوم الخميس رابع شهر ربيع الآخر ويوافقه خامس نيسان، فاجتمع عنده على عكا من الأمم ما لا يحصى كثرة.

وكان المطوّعة أكثر من الجند ومن في الخدمة. ونصب عليها المجانيق الكبار الفرنجية خمسة عشر منجنيقاً، منها ما يرمي بقنطار دمشقي وأكبر، ومنها دونه لوتسمى المنصوري نسبة إلى الملك المنصور قلاوون!

وأما المجانيق الشيطانية وغيرها فكثيرة، ونقب عدة نقوب وأنجد أهل عكا صاحب قبرس بنفسه وفي ليلة قدومه عليهم أشعلوا نيراناً عظيمة لم ير مثلها؛ فرحاً به، وأقام عندهم قريب ثلاثة أيام، ثم عاد عندما شاهد انحلال أمرهم وعظم ما دهمهم ولم يزل الحصار عليها والجد في أمر قتالها إلى أن انحلت عزائم من بها وضعف أمرهم واختلفت كلمتهم. هذا والحصار عمّال في كل يوم، واستشهد عليها جماعة من المسلمين.

فلما كان سحر يوم الجمعة ١٧ جمادى الأولى ركب السلطان والعساكر وزحفوا عليها قبل طلوع الشمس، وضربوا الكوسات فكان لها أصوات مهولة وحسّ عظيم مزعج، فحال ملاصقة العسكر لها ولاسوار هرب الفرنج وملكت المدينة بالسيف، ولم تمض ثلاث ساعات من النهار المذكور إلا وقد استولى المسلمون عليها ودخلوها، وطلب الفرنج البحر فتبعتهم العساكر الإسلامية تقتل وتأسر فلم ينجُ منهم إلا القليل، ونهب ما وجد من الأموال والذخائر والسلاح، وعمل الأسر والقتل في جميع أهلها، وعصى الديوية والإسبتار، واستتر الأرمن في أربعة أبراج شواهق في وسط البلد فحصروا فيها.

فلما كان يوم السبت ١٨ الشهر، وهو ثاني يوم فتح المدينة، قصد جماعة من الجند وغيرهم الدار والبرج الذي فيه الديوية فطلبوا الأمان، فأمنهم السلطان وسير لهم صنجقاً فأخذوه ورفعوه على برجهم وفتحوا الباب، فطلع إليهم جماعة كثيرة من الجند وغيرهم. فلما صاروا عندهم تعرض بعض الجند والعوام للنهب، ومدوا أيديهم إلى من عندهم من النساء والأصاغر، فغلق الفرنج الأبواب ووضعوا فيهم السيف فقتلوا جماعة من المسلمين ورموا الصنجق وتمسكوا بالعصيان وعاد الحصار عليهم.

وفي اليوم المذكور نزل من كان ببرج الإسبتار الأرمن بالأمان، فأمنهم السلطان على أنفسهم وحريمهم على يد

الأمير زين الدين كتبغا المنصوري، وجرى القتال على برج الديوية ومن عنده إلى يوم الأحد التاسع عشر من جمادى الأولى طلب الديوية ومن بقي في الأبراج الأمان، فأمنهم السلطان على أنفسهم وحريمهم على أن يتوجهوا حيث شاؤوا. فلما خرجوا قتلوا منهم فوق الألفين وأسروا مثلهم، وساقوا إلى باب الدهليز النساء والصبيان، وكان من جملة حنق السلطان عليهم مع ما صدر منهم أن الأمير أقبغا المنصوري أحد أمراء الشام كان طلع إليهم في جملة من طلع فأمسكوه وقتلوه، وعرقبوا ما عندهم من الخيول، وأذهبوا ما أمكنهم إذهابه، فتزايد الحنق عليهم وأخذ الجند وغيرهم من السبي والمكاسب ما لا يحصى. ولما علم من بقي منهم ما جرى على إخوانهم تمسكوا بالعصيان وامتنعوا من قبول الأمان وقاتلوا أشد قتال واختطفوا خمسة نفر من المسلمين ورموهم من أعلى البرج، فسلم منهم نفر واحد ومات الأربعة.

ثم في يوم الثلاثاء ثامن عشرين جمادى المذكورة أخذ البرج الذي تأخر بعكا ونزل من فيه بالأمان وكان قد غلق من سائر جهاته. فلما نزلوا منه وحولوا معظم ما فيه سقط على جماعة من المسلمين المتفرجين ومضى قصد النهب فهلكوا عن آخرهم. ثم بعد ذلك عزل السلطان النساء والصبيان ناحية، وضرب رقاب الرجال أجمعين وكانوا خلائق كثيرة.

والعجب أن الله سبحانه وتعالى قدّر فتح عكا في مثل اليوم الذي أخذها الفرنج فيه ومثل الساعة التي أخذوها فيها: فإن الفرنج كانوا استولوا على عكا في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وخمس مئة في الساعة الثالثة من النهار، وأمنوا من كان بها من المسلمين ثم قتلوهم غدراً، وقدّر الله تعالى أن المسلمين استرجعوها منهم في هذه المرة يوم الجمعة في الساعة الثالثة من النهار، ووافق السابع عشر من جمادى الأولى، وأمنهم السلطان ثم قتلهم كما فعل الفرنج بالمسلمين، فانتقم الله تعالى من عاقبتهم. وكان السلطان عند منازلته عكا قد جهز جماعة من الجند مقدمهم الأمير علم الدين سنجر الصوابي الجاشنكير إلى صور؛ لحفظ الطرق ويتعرف الأخبار، وأمره بمضايقة صور. فبينما هو في ذلك لم يشعر إلا بمراكب المنهزمين من عكا قد وافت الميناء التي لصور، فحال بينها وبين الميناء، فطلب أهل صور الأمان فأمنهم على أنفسهم وأموالهم ويسلموا صور، فأجيبوا إلى ذلك فتسلمها.

وتعد صور من أجلّ الأماكن ومن الحصون المنيعة، ولم يفتحها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فيما فتح من الساحل، بل كان صلاح الدين كلما فتح مكاناً وأمنهم أوصلهم إلى صور هذه؛ لحصانتها ومنعتها، فألقى الله تعالى في قلوب أهلها الرعب حتى سلموها من غير قتال ولا منازلة، ولا كان الملك الأشرف في نفسه شيء من أمرها البتة. وعندما تسلمها جهز إليها من أخربها وهدم أسوارها وأبنيتها، ونقل من رخامها وأنقاضها شيء كثير.

ولما تيسر أخذ صور على هذه الصورة قوي عزم الملك الأشرف على أخذ غيرها. ثم رحل الملك الأشرف عن عكا في بكرة نهار الإثنين خامس جمادى الآخرة، ودخل دمشق يوم الإثنين ثاني عشره بعد أن زينت له دمشق غاية الزينة، وعملت القباب بالشوارع من قريب المصلى إلى الباب الجديد، وحصل من الاحتفال لقدومه ما لا يوصف، ودخل وبين يديه الأسرى من الفرنج تحتهم الخيول وفي أرجلهم القيود، ومنهم الحامل من سناجق الفرنج المنكسة، وعليهم من حمل رمحاً علمه من رؤوس قتلى الفرنج، فكان لقدومه يوم عظيم.

وأقام الأشرف بدمشق إلى فجر نهار الأربعاء تاسع عشر شهر رجب. وعاد إلى الديار المصرية فدخلها يوم الإثنين تاسع شعبان. فاحتفل أيضاً أهل مصر لملاقاته احتفالاً عظيماً أضعاف احتفال أهل دمشق، وعند دخوله إلى مصر أطلق رسل صاحب عكا الذين كانوا معوقين بالقاهرة.

ثم إن الأمير علم الدين سنجر الشجاعي نائب الشام فتح صيدا - بعد حصار كبير - بالأمان في يوم السبت خامس عشر شهر رجب. ولما أخذت هذه البلاد في هذه السنة أمر السلطان أن تخرب قلعة جبيل وأسوارها بحيث يلحقها بالأرض، فخربت أصلاً، ثم أخذت عثليث بعد شهر.

وأما أهل أنطرطوس لما بلغهم أخذ هذه القلاع عزموا على الهرب، فجرد الأمير سيف الدين بلبان الطباخي عسكراً، فلما أحاطوا بها ليلة الخميس ٥ شعبان ركبوا البحر وهربوا إلى جزيرة أرواد، وهي بالقرب منها، فندب إليها السعدي بما كان أحضره من المراكب والشواني، فأخلوها. وكان فتح هذه المدن الست في ٦ شهور).

ويذكر ابن كثير في "البداية والنهاية" (ج١٣، ص٣٨١-٣٨٢) مواكبة اللغة العربية لتخليد هذا الانتصار التاريخي، فقال:

(وعمل أهل دمشق ختمة عظيمة بالميدان الأخضر إلى جانب القصر الأبلق، فقرئت ختمات كثيرة، ثم خطب الناس بعدها الشيخ عز الدين الفاروثي، ثم ابن البزوري، ثم تكلم من له عادة بالكلام، وجاءت البريدية بالتهيؤ لغزو العراق، ونودي في الناس بذلك، وعملت سلاسل عظام: بسبب الجسورة على دجلة بغداد، وحصلت الأجور على المقصود وإن لم يقع المقصود، وحصل لبعض الناس أذىً بسبب ذلك).

وكان للغة العربية دور ريادي في تخليد هذه الملحمة التاريخية، وقد نظم الشيخ شهاب الدين محمود قصيدة في فتح عكا:

الحمد لله زالت دولة الصُّلب ... وعزّ بالترك دينُ المصطفى العربي
هذا الذي كانت الآمال لو طلبت ... رؤياه في النوم لاستحيت من الطلب
ما بعد عكا وقد هدّت قواعدها ... في البحر للشرك عند البرّ من أرب
لم يبق من بعدها للكفر إذ خربت ... في البحر والبرّ ما ينجي سوى الهرب
أمّ الحروب فكم قد أنشأت فتناً ... شابَ الوليدُ بها هولاً ولم تشب
يا يوم عكا لقد أنسيت ما سبقت ... به الفتوح وما قد خطّ في الكتب
لم يبلغ النطق حدّ الشكر فيك فما ... عسى يقوم به ذو الشعر والأدب
أغضبتَ عُبّاد عيسى إذ أبدتهم ... لله أي رضى في ذلك الغضب
وأشرف المصطفى الهادي البشير على ... ما أسلف الأشرف السلطان من قرب
فقرّ عيناً لهذا الفتح وابتهجت ... ببشره الكعبة الغرّاء في الحجب
وسار في الأرض سيراً قد سمعت به ... فالبرّ في طرب والبحر في حرب

فتح قلعة الروم بعد الحصار:

يقول ابن كثير في البداية والنهاية (ج١٣، ص٣٨٦-٣٨٨): (وفي ربيع الأول من ٦٩٠هـ توجه السلطان الأشرف بالعساكر نحو الشام، فقدم دمشق ومعه وزيره ابن السلعوس، فاستعرض الجيوش وأنفق فيهم أموالاً جزيلة، ثم سار بهم نحو بلاد حلب، ثم سار إلى قلعة الروم فافتتحها بالسيف قهراً في يوم السبت حادي عشر رجب، وجاءت البشارة بذلك إلى دمشق وزينت البلد سبعة أيام وبارك الله لجيش المسلمين في سعيهم، وكان يوم السبت إلباً على أهل يوم الأحد، وكان الفتح بعد حصار عظيم جداً مدة ثلاثين يوماً.

وكانت المنجنيقات تزيد على ثلاثين منجنيقاً، واستشهد من الأمراء شرف الدين بن الخطير، وقد قتل من أهل البلد خلق كثير، وغنم المسلمون منها شيئاً كثيراً، ثم عاد السلطان إلى دمشق وترك الشجاعي بقلعة الروم يعمرون ما وهى منها؛ بسبب رمي المنجنيقات عليها وقت الحصار، وكان دخوله إلى دمشق بكرة يوم الثلاثاء تاسع عشر شعبان، فاحتفل الناس لدخوله ودعوا له وأحبوه، وكان يوماً مشهوداً بسط له كما يبسط له إذا قدم من الديار المصرية.

وكان ملك قلعة الروم مع السلطان أسيراً، وكذلك رؤوس أصحابه، فدخل بهم دمشق وهم يحملون رؤوس أصحابهم على رؤوس الرماح، وجهز السلطان طائفة من الجيش نحو جبل كسروان والجزر؛ بسبب ممالأتهم الفرنج قديماً على المسلمين، وكان مقدم العساكر بندار وفي صحبته سنقر الأشقر...

وقد امتدح الشهابُ محمودُ الملك الأشرف خليل على فتحه قلعة الروم بقصيدة هائلة فاضلة أولها:

لـك الرايـة الصـفراء يقـدمها النصـر ... فمـن كيقيـاد إن رآهـا وكيخسـرو

إذا خفقـت في الأفـق هـدب بنودهـا ... هوى الشرك واستعلى الهدى وانجلى الثغر

نتائج فتح عكا الأسطوري:

١. **نهاية الوجود الصليبيّ على ارض الإسلام:** أنهى الأشرف خليل الوجود الصليبي على أرض الإسلام. كان الجهاد لتقويض الحلم الصليبي عملية تراكمية ابتدأها الناصر صلاح الدين وأكملها الظاهر بيبرس والسلطان قلاوون، وأنهى مشوارها الطويل الأشرف خليل. وتساقطت بسقوط عكا المراكز الصليبية على ساحل الشام الواحدة بعد الأخرى، وتبخر الحلم الصليبي الذي عمل الصليبيون في مئتي عام على تحقيقه بكل جد ودون كلل وكلفهم المال والرجال. ولم يبقَ للصليبيين من قاعدة لشن الحملات على سواحل الشام ومصر إلا من جزيرتي: أرواد وقبرص في البحر الأبيض المتوسط (انظر فيما سيأتي: فتح السلطان محمد بن قلاوون جزيرة أرواد، وفتح السلطان الأشرف برسباي جزيرة قبرص).
شدّت الحملات الصليبية أعصاب أوروبا وجعلتها في حالة اضطراب وفوران دائم مدة قرنين من الزمان، وكلفت العالم النصراني، مباشرة أو بوجه غير مباشر، العديد من ملايين الضحايا (فقد فقدَ مليونان إلى ٦ ملايين من الأوروبيين أرواحهم حسب الإحصائيات المختلفة)، زيادة على النفقات التي لا تعد ولا تحصى في الأموال وفي المعاناة. وصاحبت ذلك كله الفوضى والفجور والجرائم التي تصاحب الحروب دوماً. وصدق الله تعالى إذ يقول:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ الأنفال، ٣٦-٣٧.

يقول الإمام أبو جعفر الطبري في تفسير الآية ٣٦: (يقول تعالى ذكره: إن الذين كفروا بالله ورسوله ينفقون أموالهم، فيعطونها أمثالهم من المشركين؛ ليتقوّوا بها على قتال رسول الله ﷺ والمؤمنين به، ليصدّوا المؤمنين بالله ورسوله عن الإيمان بالله ورسوله، فسينفقون أموالهم في ذلك، ثم تكون نفقتهم تلك عليهم: "حسرة"، يقول: تصير ندامة عليهم؛ لأن أموالهم تذهب، ولا يظفرون بما يأملون ويطمعون فيه من إطفاء نور الله تعالى وإعلاء كلمة الكفر على كلمة الله تعالى؛ لأن الله مُعْلي كلمته، وجاعل كلمة الكفر السفلى، ثم يغلبهم المؤمنون، ويحشر الله الذين كفروا به وبرسوله إلى جهنم، فيعذبون فيها، فأعظم بها

حسرة وندامة لمن عاش منهم ومن هلك! أما الحيّ، فحُرم ماله وذهب باطلاً في غير درك نفع، ورجع مغلوباً مقهوراً محروباً مسلوباً. وأما الهالك، فقتل وسُلب، وعُجّل به إلى نار الله يخلد فيها، نعوذ بالله من غضبه».

٢. **قدوم الفرنجة للحج أو زيارة بيت المقدس دون سلاح:** حاول بابا الكاثوليك "نيقولا الرابع" بعد سقوط عكا فعل شيء يعيد إلى الصليبيين مكانتهم وهيبتهم، وقام فور سماعه بسقوط عكا بتحميل عشرين سفينة بالمقاتلين في أنقونا وجنوه وأرسل بها إلى قبرص. وقامت تلك السفن بعد أن انضمت إليها سفن الملك هنري بغارة فاشلة على حصن تركي على ساحل الأناضول، وغارة كرّ وفرّ على مدينة الإسكندرية في مصر غلاً وحقداً على انتصارات الأشرف وجيش المسلمين. ولكن البابا نيقولا مات في سنة ١٢٩٢م دون تحقيق أكثر من ذلك. وبفشل الحروب الصليبية، صار المجيء إلى بيت المقدس من دون سلاح، للحج أو الزيارة أمناً أكثر من ذي قبل، وبرعاية إسلامية مسؤولة.

٣. **تنامي التجارة بين الشرق والغرب:** أحدثت الحملات الصليبية طلباً مستمراً لضرورة نقل الرجال والمعدات والتجهيزات، فشجعت بناء السفن، وامتدت أسواق البضائع الشرقية إلى قلب أوروبا، وحُمّلت منتوجات دمشق والموصل والإسكندرية والقاهرة والمدن الكبرى الأخرى عبر البحر الأبيض المتوسط إلى الموانئ الإيطالية، ومن هناك تجد طريقها إلى جميع البلاد الأوروبية.

كان بريق الشرق بحريره، وأحجاره النفيسة، وعطوره، وتوابله، ولآلئه، وعاجه ساحراً للعيون؛ حتى إن الصليبيين المتحمسين كانوا يسمون الشرق "الدهليز إلى جنة الفردوس". وبرغم الفشل السياسي والحربي للحملات الصليبية فإن هذه الحروب كان لها نتائج بالغة الأثر، منها اتساع تجارة أوروبا خاصةً "جنوه و"البندقية" و"بيزا" مع موانئ الشام.

ولم يقتصر هذا الاتساع على المدة التي سيطر فيها الصليبيون على الأراضي المقدسة، بل استمر حتى بعد أن أجلوا عن الإقليم كله. وحصّل تجار السلاح والبضائع والنقل مدة الحروب الصليبية على أموال هائلة، فازدهرت تجارة التجار الأوروبيين في إيطاليا وفرنسا، وخصوصاً تجار البندقية، وبيزا، وجنوه.

٤. **تنامي سلطة ملوك أوروبا:** كان للحملات الصليبية تأثير سياسي: فقد ساعدت على تقويض الأرستقراطية الإقطاعية، وأبرزت دور الملوك والشعوب. فقد رهن الآلاف من البارونات والفرسان أو باعوا أراضيهم لأجل استحصال مال لتزويد الحملات الصليبية، وقضى الآلاف نحبهم في سوريا، وتحولت ملكية أراضيهم (بسبب فشل الورثة) إلى الدولة وسلطة الملك، وفقد الكثيرون ثرواتهم لأجل الصرف على معيشتهم في حلهم وترحالهم وحملاتهم.

إضافة إلى ذلك، فإن الحروب الخاصة التي كانت سائدة في العصور الوسطى بدأت تموت مع رحيل العديد من أرباب الإقطاعية المشاغبين إلى الأرض المقدسة. إن تناقص هؤلاء في أعدادهم وفي تأثيرهم صاحبه تنامي السلطة الملكية، ويمكن تتبع آثاره في التغيرات التي حصلت في فرنسا، البلد الأصليّ للحركة الصليبية. حصلت المدن على العديد من الأفضليات السياسية على حساب البارونات والأمراء الصليبيين. كان المال في القرنين الثاني عشر والثالث عشر متوافراً غالباً في أيدي الطبقة الكادحة العامة من الشعب، بمقابل إسهامات وديون قدموها لأسيادهم الإقطاعيين، واستلموا بالمقابل أفضلية قيّمة وخاصة. إن تنامي سلطة الملوك في أوروبا أدى إلى عاملين: أحدهما تحجيم البابوية، والآخر تنامي الوطنيات القومية ودخولهم في صراعات داخلية، كالحرب المريرة التي نشبت بين فرنسا وإنكلترا في عام ١٢٩٣م، ولم يعد في استطاعتهم تنظيم حملات صليبية جديدة.

٥. **تحجيم البابوية الكاثوليكية في روما:** كان قانون الإرث المطبق في أوروبا ينص على أن يرث الابن الأكبر عقارات والده وعبيده بعد موته، وتوزع المنقولات بين أبنائه. ونشأت بسبب هذا القانون طبقة من النبلاء أو الأسياد الذين لم يكونوا يملكون إقطاعيات، فشاعت بينهم ألقاب مثل "بلا أرض" و"المعدم": دلالة على عدم ملكيتهم قطعة أرض، ورأى الكثير من هؤلاء فرصتهم في الحملات الصليبية للحصول على أراض في الشرق، ورأى آخرون فيها فرصة لتوسيع أملاكهم بضمّ أملاك جديدة. كذلك كان الفقراء يجدون فيها فرصة لحياة جديدة أفضل، ووسيلة تخرجهم من حياة العبودية التي كانوا يعيشونها في ظل نظام الإقطاع السائد في ذلك الوقت.

فجاءت الكنيسة وزجّت الملايين من البشر للقتال في الشرق، ونمت سلطة الكنيسة بداية حتى طغت على سلطة ملوك أوروبا وأباطرتها، وعاشت على أموال الضحايا، فتضخمت أموالها وممتلكاتها من بيع صكوك الغفران ومن رهن الأموال والأملاك للفرسان المقاتلين الذين رحلوا ولم يعودوا. ثم أدت ممارسات الكنيسة غير الربانية وغير الأخلاقية في أوروبا نفسها من الحملات الصليبية ضد الهرطقة ومحاكم التفتيش إلى ردة فعل أوروبي، وإلى ازدياد الاستياء الشعبي من استغلال الكنيسة البشع، وبتنامي سلطة الملوك، واحتكاك الغرب بالشرق الإسلامي. كل هذا مهد للإصلاحات البروتستانتية للكنيسة الكاثوليكية، فتحجمت البابوية الكاثوليكية ومنعت من الهيمنة على ملوك أوروبا. بل العكس صار صحيحاً حيث هيمنت ملوك أوروبا على البابوية.

٦. **التأثير الثقافي والحضاري:** زود الاحتكاك بثقافة الشرق تأثيراً عاماً في صقل الثقافة الغربية وتحسينها. وساعدت على انتقال الحضارة الإسلامية إلى أوروبا وبداية حركة الفكر الحر والنهضة الأوروبية. وتسرّبت مع لغة الفرنجة مفردات اللغة العربية إلى أوروبا، مع التجار ومع الصليبيين.

٧. **نهاية فرسان الهيكل:** كانت نهايتهم مأساوية في أوروبا بعد أن تورطوا في مشكلات مالية مع ملك فرنسا فيليب الرابع، واتهمهم البابا كليمينت الخامس بالهرطقة، فجرى الاستيلاء على ثرواتهم ولعنوا وألقي القبض على تلثيهم وكبارهم في النار. ومن ثم هربوا إلى إسكتلندا، وتخفوا هناك بحركة البناءين الأحرار السرّية (فري – ماسون أو الماسونية)، وصاروا يمتهنون مهنة القانون في بريطانيا.

فرسان المعبد يُحرقون بالنار في فرنسا وأوروبا (راجع الفصل الخامس من المقدمة)، ثم هرب الكثير منهم إلى إسكتلندا بثرواتهم، وتخفوا هناك بإنشاء حركة الماسونية، وعالبيتهم اليوم مُحامون قانونيون (Barristers) في المحاكم العليا

٨. لعل التأثيرات السياسية الأخرى للصليبيين (في الرؤية الأوروبية) تكمن في تأخير تقدم العثمانيين وإسقاط القسطنطينية ثلاثة قرون أخرى، وهذا ما أعطى دول أوروبا الوقت لتجميع قواها في مناهضة الزحف الإسلامي عندما بدأ يتوغل في قلب أوروبا في القرن الخامس عشر.

٩. حملات صليبية عبر المحيطات: ثم إنّ أوروبا بعد اندحار حملاتها الصليبية على ديار الإسلام حاولت تجميل صورتها، وتلميع نتائجها مما حفزها على حملات صليبية أخرى عبر البحار يسمونها - زوراً - بالاكتشافات الجغرافية (ويعنون بذلك الحملات العسكرية الاستكشافية). قادها الكثير من الرحالة بداية، خصوصاً مشاهير الإيطاليين، مثل ماركو بولو، والرجل الإنجليزي المغمور سير جون مانديفل؛ لاستكشاف البلاد النائية من آسيا. بل إن حب المغامرة العسكرية الاستعمارية (تحت المظلة التجارية) قد حولت القرن الخامس عشر إلى قرن شهير مسلهماً رحلات أدميرال البحرية الإسباني كولومبوس، وأمير البحار البرتغالي فاسكو دي جاما، والبرتغالي ماجلان. ويمكن تتبع نشأتها جميعاً كامتداد لحملات الصليب إلى المشرق!!!

١٠. تركت فرنسا أثراً لا يُمحى من ذاكرة التاريخ الإسلامي بقيادتها الحملات الصليبية الأولى حتى صار العرب والمسلمون يطلقون كلمة فرنجة على جميع الأوروبيين والغربيين، وفسروا كل حملات الغرب الاستعمارية على أنها صليبية في روحها، فسمي الغزو الأمريكي على العراق بقيادة بوش الابن عام ٢٠٠٣م بالحملة الصليبية العاشرة على ديار الإسلام!!! وعُدّ احتلال فرنسا للجزائر في القرن التاسع عشر حملة صليبية، وبعد جثوم لقيل ١٣٠ سنة، قدمت فيه الجزائر مليون شهيد أو يزيد، تحررت الجزائر وفشلت كل محاولات فرنسا لطمس هويتها الإسلامية وتهميشها، وكان أول نشيد فرح بتحرير الجزائر من فرنسا أو من فرنجة الصليبيين الحديثة:

يا محمد مبروك عليك ... الجزاير رجعت ليك

ولا عجب أن يكون النشيد الوطني الجزائري نشيد من أناشيد الجهاد والتحرير الخالدة التي ألهبت الملايين من العرب والمسلمين، رسالة موجهة إلى فرنسا الحديثة (قائدة الحملات الصليبية القديمة). كتب النشيد شاعر الثورة مفدي زكريا، حيث نظمه بسجن بربروس في الزنزانة رقم ٦٩ بالجزائر، بتاريخ ٣٥ نيسان ١٩٥٥م، ولحنه الموسيقار المصري محمد فوزي:

قسماً بالنازلات الماحقات ... والدماء الزاكيات الطاهرات

والبنود اللامعات الخافقات ... في الجبال الشامخات الشاهقات

نحن ثرنا فعياة أو ممات ... وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر

فاشهدوا... فاشهدوا... فاشهدوا...

نحن جند في سبيل الحق ثرنا ... وإلى استقلالنا بالحرب قمنا

لم يكن يصغى لنا لما نطقنا ... فاتخذنا رنة البارود وزنا

وعزفنا نغمة الرشاش لحناً ... وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر

فاشهدوا... فاشهدوا... فاشهدوا...

يا فرنسا قد مضى وقت العتاب ... وطويناه كما يطوى الكتاب

يـــا فرنســـا إن ذا يـــوم الحســـاب ... فاســـتعدي وخـــذي منـــا الجـــواب
إن في ثورتنـــا فصـــل الخطـــاب ... وعقـــدنا العـــزم أن تحيـــا الجزائـــر

فاشهدوا... فاشهدوا... فاشهدوا...

نحـــن مـــن أبطالنـــا نـــدفع جنـــداً ... وعلـــى اشـــلائنا نبعـــث مجـــدا
وعلـــى أرواحنـــا نصـــعد خلـــداً ... وعلـــى هاماتنـــا نرفـــع بنـــدا
جبهـــة التحريـــر أعطينـــاك عهـــداً ... وعقـــدنا العـــزم أن تحيـــا الجزائـــر

فاشهدوا... فاشهدوا... فاشهدوا...

صـــرخة الأوطـــان مـــن ســـاح الفـــداء ... فاسمعوهـــا واســـتجيبوا للنـــداء
واكتبوهـــا بـــدماء الشـــهداء ... واقرؤوهـــا لـــبني الجيـــل غـــدا
قـــد مـــددنا لـــك يـــا مجـــد يـــداً ... وعقـــدنا العـــزم أن تحيـــا الجزائـــر

فاشهدوا... فاشهدوا... فاشهدوا...

صورة "الصليبيّ الأخير أو الصليبيّ المهزوم"
أدت انتصارات المسلمين المتعاقبة، وهزائم الصليبيين المتوالية،
وعداوات الأوروبيين بينهم وخطاياهم، إلى نهاية الحملات الصليبية

الملك الناصر ناصر الدين محمد بن قلاوون (٦٨٤–٧٤١هـ/١٢٨٥–١٣٤١م) ونهاية المغول:

ولد بالقاهرة وتوفي فيها، وقد ولد ووالده على حصار المرقب، تاسع سلاطين الدولة المملوكية البحرية، ومن السلاطين الذين حكموا مدةً طويلة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الذي تولى العرش منذ عام ١٢٩٣م،

واستمر حكمه ٣٢ عاماً مع أنه خلع في أول عهده ثم أعيد إلى الحكم، وخلع نفسه والتجأ إلى قلعة الكرك بعد سنوات من مدة حكمه الثانية، ثم عاد للاستمرار في الحكم. ومن أهم أعماله انتصاره على المغول في بلاد الشام مرتين، ومحاصرة عاصمة أرمينيا سيس، وإجبار أهلها على دفع كل ما تأخر عليهم من الجزية للمسلمين. وهو من أبرز سلاطين الأسرة القلاوونية والدولة المملوكية. خاض حروباً ضد الصليبيين والمغول، وحروبا إصلاحية في الداخل ضد الفساد. شهدت مصر في مدة حكمه الثالثة نهضة حضارية وعمرانية لم تشهدها في عهد أي سلطان آخر من سلاطين الدولة المملوكية. جلس على تخت السلطنة ثلاث مرات: الأولى وعمره ٩ سنوات، و لثانيه وعمره ١٤ سنة، والثالثة وعمره ٣٥ سنة.

١. من ٦٩٣–٦٩٤هـ (١٢٩٣–١٢٩٤م)، تلاه السلطان العادل كتبغا (حكم ١٢٩٤م–١٢٩٥م)، والسلطان حسام الدين لاجين (حكم ١٢٩٦–١٢٩٩م).
٢. من ٦٩٨–٧٠٨هـ (١٢٩٩–١٣٠٩هـ) ثم خلع نفسه بسبب تحكم الأميرين سلار وبيبرس الجاشنكير ومؤامرتهما، فتسلطن الملك المظفر بيبرس الجاشنكير عشرة أشهر وأربعة وعشرين يوماً، ولم ينهنّ فيها من الفتن. ثم رجع محمد بن قلاوون إلى السلطنة بمساندة الجيش والشعب، فهرب المظفر من مصر قبل دخول الملك الناصر. قال بعض الأدباء:

تثنى عطف مصر حين وافى	قدوم الناصر الملك الخبير
فدلّ الجشنكير بلا لقاء	وأمسى وهو ذو جأش نكير
إذا لم تعضد الأقدار شخصاً	فأول ما يُراع من النصير

٣. ومن ٧٠٩هـ/١٣٠٩م حتى وفاته عام ٧٤١هـ/١٣٤١م.

معركة وادي الخزندار أو معركة حمص الثالثة عام ٦٩٩هـ–١٢٩٩م:

خلفية المعركة: بعد موت جنكيز خان عام ١٢٢٧م قسمت إمبراطورية المغول بين أبنائه الأربعة. وكانت الأجزاء التي تهم الدولة المملوكية جزأين هما: الجزء الغربي من دولة جنكيز خان من نصيب حفيده "باتو بن جوجي"، وعرف هذا الفرع باسم " القبيلة الذهبية " (خانات القفجاق) وشملت حدودها أجزاء مما يُعرف اليوم باسم (روسيا، أوكرانيا، مولدوفيا، كازاخستان). والجزء الآخر بلاد فارس وكان من نصيب "تولوي"، وعرف هذا الفرع باسم دولة "الإلخانات" (مغول فارس المتوحشون). وقد توسّع الإلخانات في آسيا الصغرى، وافتحموا حدود العالم الإسلامي، وفي عام ١٢٥٨ استولوا بقيادة "هولاكو" على بغداد ودمروها، وقتلوا الخليفة المستعصم بالله وقضوا على الخلافة العباسية، ثم استولوا على دمشق، وبذلك فقد المسلمون مركزين مهمين من مراكز الثقافة في العالم الإسلامي.

أما القبيلة الذهبية في الجزء الغربي، فقد اعتنقت الإسلام، وصارت عضداً وحليفاً للمسلمين في حربهم ضد مغول فارس. وبعد الاستيلاء على بغداد ودمشق أرسل هولاكو إلى سيف الدين قطز سلطان مصر المملوكي يهدده ويأمره بالخضوع له. فخرج قطز من القاهرة بجند مصر، ومن انضم إليه من عسكر الشام والعرب والتركمان واصطدم بجيش المغول في ٣ أيلول ١٢٦٠م وهزمه هزيمة ساحقة في معركة عين جالوت الكبرى.

بانتصار قطز على مغول فارس تم تحرير دمشق من المغول، وتلاشت الدولة الأيوبية نهائياً، وامتدت الدولة المملوكية الناشئة إلى الشام. إلا أن معركة عين جالوت لم تنه مطامع مغول فارس في الشام، بل صار المغول يتربصون ويعدّون العدة لأخذ ثأر هزيمتهم على أيدي المماليك. لم يكد يعلم المغول بموت السلطان قطز حتى أغاروا بقيادة "بيدرا" على مدينة البيرة وبعد ذلك هاجموا حلب واستولوا عليها.

أدرك السلطان بيبرس الذي خلف قطز خطورة مغول فارس على دولة المماليك والعالم الإسلامي. فهادن الصليبيين وعقد حلفاً مع "بركة خان ابن جوجي" ملك مغول القبيلة الذهبية الذي أشهر إسلامه، حتى يتفرغ لمواجهة خطر مغول فارس. وتمكن بيبرس من استرداد البيرة ووقف للمغول والصليبيين بالمرصاد، وهزمهم في وقعة حمص الأولى، والفرات وإبلستين.

بعد وفاة الظاهر بيبرس جدّد السلطان قلاوون (الذي خلف بيبرس وابنيه السعيد بركة خان وسلامش)، الهدنة مع الصليبيين ليتفرغ هو الآخر لمواجهة الخطر المغولي، حيث اجتاح "اباقا بن هولاكو" الشام، فتصدى له السلطان قلاوون وهزم جيوش المغول هزيمة نكراء عند حمص سنة ١٢٨١م (معركة حمص الثانية). وبعد وفاة أباقا خلفه أخوه "تكودار" الذي أشهر إسلامه وسمى نفسه (أحمد) مما أدى إلى تحسن العلاقات بين مغول فارس والمماليك. إلا أن تحسن العلاقات لم يدم طويلاً، إذ قتل تكودار على يد ابن أخيه "ارغون بن اباقا" الذي ولي عرش مغول فارس مكانه في عام ١٢٨٤م وعرف بكراهيته وعدائه للمسلمين. بعد صراعات داخلية بين مغول فارس أطاح "غازان بن ارغون" بابن عم أبيه "بايدو بن طرقاي" عام ١٢٩٥م ليصبح بذلك سابع إلخانات فارس، وقام بتبديل لقبه من إلخان إلى سلطان.

ونشأ غازان نصرانياً وقامت بتربيته "ديسبينا خاتون" زوجة "اباقا"، التي كانت صديقة للصليبيين وعدوة لدودة للمسلمين. إلا أن غازان اعتنق الإسلام وسمّى نفسه محمودا، وجعل الإسلام الديانة الرسمية لدولة مغول فارس، لكنه ظل فاسد العقيدة ومارس الشامانية سراً، وكان أقرب إلى المجوس والروافض. ولم يود إسلامه إلى تلاشي أحقاده على المماليك وأطماعه في السيطرة على بلاد المسلمين. وبقي غازان صديقاً وحليفاً للصليبيين.

عندما استولى غازان على عرش الإلخانات كان السلطان العادل كتبغا (حكم ١٢٩٤م–١٢٩٥م) يجلس على عرش المماليك بقلعة الجبل بالقاهرة. وكان كتبغا ذاته من أصل مغولي، وفي عهده وفد إلى الشام ومصر عدد كبير من المغول الوافدية من طائفة الأويراتية.

وفيما بين عامي ١٢٩٦م–١٢٩٩م حكم البلاد السلطان حسام الدين لاجين، وبعد وفاته نصب الناصر محمد بن قلاوون المرة الثانية سلطاناً على البلاد، وكان عمره حينذاك ١٤ عاماً. وفي عهد السلطان لاجين فر الأميران فيجق المنصوري نائب دمشق وبكتمر السلاح دار إلى المغول وأقاما عند غازان. فلما نصب الناصر سلطاناً أغرى فيجق غازان بسهولة الزحف على الشام؛ نظراً إلى صغر سنّ السلطان الناصر وانشغال الأمراء في خلافاتهم. فما كاد الناصر محمد يستقر على تخت السلطنة عام ١٢٩٩ حتى وردت الأنباء بزحف المغول بقيادة غازان على الشام.

معركة وادي الخزندار ١٢٩٩ تصور انكسار المسلمين (لليمين) أمام جيش المغول (لليسار).
الحقيقة أن المسلمين وإن انكسروا لكنهم قتلوا من المغول قرابة ١٤٠٠٠ منهم، ولهذا لم يقم المغول بملاحقة المسلمين.

زحف المغول على الشام: في سنة ٦٩٩هـ-١٢٩٩م وردت أنباء عن زحف مغولي من حلب على الشام يقوده محمود غازان سلطان مغول فارس، وأن طلائع المغول قد وصلت إلى البيرة. جمع الناصر محمد الأمراء للتشاور واتفقوا على خروج بيبرس الجاشنكير أستادار السلطان إلى حلب على رأس جيش صغير قوامه خمس مئة مملوك، على أن يلحق به الناصر ببقية الجيش. في ١٥ صفر خرج الناصر من القاهرة على رأس جيشه متوجهاً إلى دمشق. وفي صحبته الخليفة العباسي الإمام أحمد الحاكم بأمر الله، والقضاة الأربعة، وسائر الأمراء.

تآمر المغول الأويراتية: عند وصول جيش الناصر محمد إلى تل العجول من غزة تآمر المغول الأويراتية الذين وفدوا إلى مصر وأقاموا فيها في عهد السلطان المخلوع كتبغا، مع بعض المماليك السلطانية على اغتيال الأميرين سلار نائب السلطنة وبيبرس الجاشنكير أستادار السلطان بهدف الانتقام وإعادة كتبغا – وهو مغولي الأصل – إلى الحكم. وأفلت بيبرس من القتل بعد أن هاجمه أحد المماليك السلطانية ويدعى برنطاي ولكنه نجا. قُتل برنطاي بعد أن تبادرته السيوف. ظن سلار أن المؤامرة قد تمت بمعرفة الناصر فأرسل إلى أمير جاندار يقول: "ما هذه الفتنة التي تريدون إثارتها في هذا الوقت ونحن على لقاء العدو؟ وقد بلغنا أن الأويراتية قد واقفت المماليك السلطانية على قتلنا، وكان هذا برأيك ورأي السلطان، وقد دفع الله عنا.

إن كان الأمراء كذلك فنحن مماليك السلطان ومماليك أبيه الشهيد، ونحن نكون فداء للمسلمين، وإن لم يكن الأمر كذلك فابعثوا إلينا غرماءنا". فلما سمع الناصر هذا الكلام بكى، وأقسم أنه لم يكن يعلم. وأقسم أمير جاندار أيضاً وذكر أنه ظن أن السلطان كان هو هدف المتآمرين.

وتم الصلح بين أمير جاندار والأمراء البرجية. وقُبض على الأويراتية، فأقروا بما كانوا قد عزموا عليه من قتل بيبرس الجاشنكير وسلار وإعادة العادل كتبغا إلى الحكم. وشنق نحو الخمسين من الأويراتية، ونودي عليهم: "هذا جزاء من يقصد إقامة الفتن بين المسلمين ويتجاسر على الملوك".

في ٨ ربيع الأول وصل الناصر إلى دمشق على رأس جيشه، ووردت الأنباء بالبريد ومع القادمين من حلب وغيرها بعبور غازان نهر الفرات بجيش ضخم. في ١٧ ربيع الأول خرج عسكر دمشق وتبعه الناصر بجيشه ونزلوا بحمص وأرسل الناصر العربان لمعاينة وضع المغول، فبلغه أنهم يحتشدون عند سلمية. وفي سحر ١٨ ربيع الأول خرج الناصر من حمص لملاقاة المغول، وقد أمر الجنود بالتخلي عن الرماح والاعتماد على السيوف والدبوس. ووصل الناصر إلى مجمع المرج –الذي عرف فيما بعد باسم وادي الخزندار – وقام الأمراء بترتيب الجنود وتنظيم الصفوف. ورح الفقهاء يعظون المقاتلين ويقوون عزائمهم حتى بكوا من وقع الكلمات وشدة التأثر.

تطور المعركة الميدانية: كانت عدة جيش المسلمين نحو ٢٠ ألف فارس وكان جيش غازان في نحو ١٠٠ ألف. وكان يضم قوات متحالفة من مملكة قليقية Cilicia الأرمنية. وقف الأمير عيسى بن مهنا في الميمنة على رأس العربان، يليه الأمير بلبان الطباخي نائب حلب على رأس عسكر حلب وحماه. ووقف على رأس الميسرة أقش قتال السبع والحاج كرت نائب طرابلس والأمير بدر الدين بكتاش في عدة من الأمراء. أما في القلب فقد وقف بيبرس الجاشنكير وسلار وأيبك الخازندار في عدة من الأمراء. ووقف الناصر محمد على بعد مع حسام الدين لاجين الأستادار. وقد اضطر بيبرس الجاشنكير إلى الاعتزال بسبب إصابته بمغص شديد مفاجئ منعه من الثبات على فرسه.

أمر غازان مقاتليه بالثبات وعدم الحركة إلى أن يتحرك هو حتى يتمكنوا من مهاجمة جيش الناصر هجمة رجل واحد. فلما انطلقت طليعة جيش الناصر (الزرّاقون) بالنفط المشتعل تجاه جيش المغول، لم يتحرك غازان

بعكس ما توقع المسلمون، وظل غازان على ثباته حتى اقتربت طليعة المسلمين منه وقد خمدت نيران النفط، فهجم جيشه حملة واحدة، انطلقت سهام عشرة آلاف مقولي من رماة النشاب نحو العربان وضغطت ميمنة جيشهم عليهم تولى العربان مدبرين وخلفهم جيش حلب وحماه فهزمت ميمنة جيش المسلمين. أما ميسرة جيش الناصر فقد تمكنت من صدم ميمنة غازان صدمة قوية فرقت جمعها وحرتها عن آخرها، وفقد المغول في تلك الصدمة نحو خمسة آلاف. وعرف الناصر محمد ذلك فابتهج.

كاد غازان أن يولي الأدبار فاستدعى قبجق نائب دمشق فشجعه وثبته حتى تماسك ونظم صفوفه وحمل حملة واحدة على قلب جيش المسلمين فلم يصمد سلار وسائر الأمراء البرجية وتولوا أمام جيش غازان الذي تبعهم وراح يرمي السهام على أقفيتهم. رأى الملك الناصر جيشه يولي الأدبار وخلفه جيش غازان يمطره بالسهام، فراح يبكي ويبتهل قائلا "يارب لا تجعلني كعبا نحسا على المسلمين". لم يبق مع الناصر من المماليك غير اثني عشر مملوكا.

الحليفان المغولي والنصراني: غازان إيلخان المغول (وهو جالس في الخيمة)
وهيثوم ملك ارمينية الصغرى (راكع على الأرض لليسار)

عاد مقاتلو ميسرة جيش المسلمين التي هزمت ميمنة غازان إلى حمص بالغنائم بعد العصر، فإذا بهم يرون الأمراء البرجية يولون منهزمين وفي أعقابهم المغول يتبعونهم فيهتوا. إلا أن غازان أمر مقاتليه بالانسحاب خشية أن يكون المسلمون قد نصبوا لهم كمينا فنجوا.

وصل بقية المنهزمين إلى حمص وقت الغروب بلا عتاد ولا سلاح. بعد ما غنم المغول سائر ما كان معهم، فصرخ فيهم أهل حمص: "الله الله في المسلمين!"، ثم توجهوا إلى دمشق.

وبلغ السلطان أن التتار قد نزلوا بالقرب من سلمية وأنهم يريدون الرجوع إلى بلادهم لما بلغهم من كثرة الجيوش واجتماعهم على قتالهم – وكان هذا الخبر مكيدة من التتار – فركب السلطان بعساكره من حمص بكرة يوم الأربعاء وقت الصبح ٢٧ شهر ربيع الأول وساقوا الخيل إلى أن وصلوا إليهم وهم بالقرب من سلمية بمكان يسمى وادي الخازندار، فركب التتار لقائهم وكانوا تهيؤوا لذلك. وكان الملتقى في ذلك المكان في الساعة الخامسة من نهار الأربعاء المذكور وتصادما وقد كلت خيول السلطان وعساكره من السوق والنعم القتال بين الفريقين، وحملت ميسرة المسلمين عليهم فكسرتهم أقبح كسرة وقتلوا منهم جماعة كثيرة نحو ٥٠٠٠ أو أكثر ولم يقتل من المسلمين إلا اليسير.

ثم حملت القلب أيضاً حملة هائلة، وصدمت العدو أعظم صدمة، وثبت كل من الفريقين ثباتاً عظيماً. ثم حصل تخاذل في عسكر الإسلام بعضهم في بعض – بلاء من الله تعالى – فانهزمت ميمنة السلطان بعد أن كان لاح لهم النصر فلا قوة إلا بالله. ولما انهزمت الميمنة انهزم أيضاً من كان وراء السناجق السلطانية من غير قتال وألقى الله تعالى الهزيمة عليهم. فانهزم جميع عساكر الإسلام بعد النصر وساق السلطان في طائفة يسيرة من أمرائه ومدبري مملكته إلى نحو بعلبك وتركوا جميع الأثقال ملقاة فبقيت العدد والسلاح والغنائم والأثقال ملأت تلك الأراضي حتى بقيت الرماح في الطرق كأنها القصب لا ينظر إليها أحد، ورمى الجند خوذهم عن رؤوسهم وجواشنهم وسلاحهم تخفيفاً عن الخيل لتنجيهم بأنفسهم وقصد الجميع دمشق. وكان أكثر من وصل إلى دمشق من المنهزمين من طريق بعلبك.

ولما بلغ أهل دمشق وغيرها كسرة السلطان عظم الضجيج والبكاء وخرجت المخدرات حاسرات "يعرفن أين يذهبن والأطفال بأيديهن وصار كل واحد في شغل عن صاحبه، إلى أن ورد عليهم الخبر أن ملك التتار قازان مسلم وأن غالب جيشه على ملة الإسلام وأنهم لم يتبعوا المنهزمين، وبعد انفصال الوقعة لم يقتلوا أحداً ممن وجدوه وإنما يأخذون سلاحه ومركوبه ويطلقونه فسكن بذلك روع أهل دمشق قليلاً. ثم صار من وصل إلى دمشق أخذ أهله وحواصله وتوجه إلى جهة مصر وبقي من بقي بدمشق في خمدة وحيرة لا يدرون ما عاقبة أمرهم، فطائفة تغلب عليهم الخوف وطائفة يترجون حقن الدماء وطائفة يترجون أكثر من ذلك من عدل وحسن سيرة.

واجتمعوا في يوم الأحد بمشهد علي من الجامع الأموي واشتوروا في أمر الخروج إلى ملك التتار غازان وأخذهم أماناً لأهل البلد، فحضر من الفقهاء قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة وهو يومئذ خطيب جامع أهل دمشق، والشيخ زين الدين الفاركي، والشيخ تقي الدين بن تيمية، وقاضي قضاة دمشق نجم الدين بن صصرى، و لصاحب فخر الدين بن الشيرجي، والقاضي عز الدين بن الزكي، والشيخ وجيه الدين بن المنجا، والشيخ عز الدين بن التلانسي، وابن عمه شرف الدين، وأمين الدين بن شقير الحراني، والشريف زين الدين بن عدنان، و لصاحبه شهاب الدين الحنفي، والقاضي شمس الدين بن الحريري، والشيخ محمد بن قوام النابلسي، وجلال الدين أخو القاضي إمام الدين القزويني – وقد خرج أخوه إمام الدين قبل ذلك مع جماعة جافلاً إلى مصر – وجلال الدين بن القاضي حسام الدين الحنفي، وجماعة كثيرة من العدول والفقهاء والقراء.

وأما السلطان الملك الناصر وعساكره فإنه سار هو بخواصه بعد الوقعة إلى جهة الكسوة. وأما العساكر المصرية والشامية فلا يمكن أن يعبر عن حالهم: فإنه كان أكبر الأمراء يرى وهو وحده وقد عجز عن الهرب ليس معه من يقوم بخدمته وهو مسرع في السير خائف متوجه إلى جهة الكسوة لا يلوي على أحد قد دخل قلوبهم الرعب والخوف، تشتمهم العامة وتوبخهم بسبب الهزيمة من التتار وكونهم كانوا قبل ذلك يحكمون في الناس ويتعاظمون عليهم، وقد صار أحدهم الآن أضعف من الهزيل وأمعن العامة في ذلك وهم لا يلتفتون إلى قولهم ولا ينتقصون من أحد منهم.

قال الشيخ قطب الدين اليونيني: مع أن الله تعالى لطف بهم لطفاً عظيماً إذ لم يسق عدوهم خلفهم ولا تبعهم إلا حول المعركة وما قاربها، وكان ذلك لطفاً من الله تعالى بهم. وبقي الأمر على ذلك إلى آخر يوم الخميس سادس شهر ربيع الآخر فوصل أربعة من التتار ومعهم الشريف القمي وتكلموا مع أهل دمشق فلم يتبرم أمر. ثم قدم من الغد آخر ومعه فرمان يعني مرسوماً من غازان بالأمان وقرئ بالمدرسة البادرانية. ثم وقع بعد ذلك أمور يطول شرحها من أن قازان أرسل إلى أهل دمشق وعرفهم أنه يحب العدل والإحسان للرعية وإنصاف المظلوم من الظالم وأشياء من هذا النمط فحصل للناس بذلك سكون وطمأنينة.

الخسائر: استناداً إلى المقريزي، قتل في المعركة العديد من الأمراء، ونحو أربعة عشر ألفاً من المغول. وتجدر الإشارة إلى أن المماليك كانوا عادة يحصون عدد الأمراء المقتولين مع عدم الإشارة إلى المقتولين من عوام الجنود والمتطوعين. ويذكر ابن إياس أن عدد القتلى من الجانبين كان ضخماً.

دخول الغول دمشق: ما كاد المنهزمون يصلون إلى دمشق حتى وصل خبر بقدوم غازان، فسارعوا بمغادرة المدينة. وصل غازان إلى أطراف دمشق بعد أن نهب الخزائن السلطانية وعتاد جيش المسلمين في معركة حمص، فقامت صيحة عظيمة وهرب الناس من المدينة في فزع، وهرب نحو مئتي سجين من السجون لومات من الزحام في الأبواب العديد من الناس، وفر إلى جهة مصر كثير منهم. واجتمع من بقي في المدينة بالجامع الأموي، واتفقوا على إرسال قاضي القضاة بدر الدين محمد والفقيه تقي الدين أحمد بن تيمية، في عدة من شيوخ وقضاة دمشق، إلى غازان لطلب الأمان، فذهبوا إليه ومنهم من قبل له الأرض، وطلبوا منه الأمان عن طريق مترجم، فقال لهم: "قد بعثت إليكم الأمان" وصرفهم، فعادوا إلى دمشق، وفي يوم الجمعة قرأ الأمير إسماعيل التتري الفرمان، الذي حمل الأمان لأهل دمشق. ولم يخطب في مساجد دمشق لأحد من الملوك في ذاك اليوم. وبعد يومين دخل غازان دمشق ومعه قبجق نائب دمشق.

ثم دخل الأمير قبجق المنصوري الذي كان نائب دمشق قبل تاريخه وهرب من الملك المنصور لاجين إلى غازان ومعه رفقته الأمير بكتمر السلاح دار وغيره إلى دمشق، وهرب القادة المسلمين خوفاً وهو أهم أسباب الفرقة والهزيمة، ومن ثم عمل السلطان محمد بن قلاوون على توحيد الصف داعياً إلى رجوع هؤلاء القادة من غازان إلى جيش الإسلام، خصوصاً بعد أن اكتشف الجميع أن محمود غازان الذي يدعي الإسلام كان فاسداً ديناً ودنيا.

استمرار جهاد البطل ارجواش في قلعة دمشق: رفض الأمير علم الدين سنجر المنصوري نائب قلعة دمشق المعروف بأرجواش الخضوع لغازان، وتحصّن في قلعة دمشق، معلناً بذلك عدم سقوط دمشق. ورأى بعض الأمراء تسليم القلعة للتتار حماية للسكان، فوقف ابن تيمية أمامهم وطلب من صاحب القلعة عدم تسليمها لو لم يبق فيها إلا حجرٌ واحد، فأخذ صاحب القلعة برأي ابن تيمية وكان فيه مصلحة للمسلمين.

فلما كلم قبجق وبكتمر الأمير ارجواش المنصوري خشداشهم نائب قلعة دمشق في تسليمها إلى غازان وقالوا له: دم المسلمين في عنقك إن لم تسلمها. فأجابهم: (دم المسلمين في أعناقكم أنتم الذين خرجتم من دمشق وتوجهتم إلى غازان وحسنتم له المجيء إلى دمشق وغيرها). ثم وبّخهم ولم يسلم قلعة دمشق وتهيأ للقتال والحصار واستمر على حفظ القلعة. فذهب الأمير إسماعيل التتري إلى قضاة دمشق وأعيانها يحذرهم من مغبّة عدم استسلام أرجواش وتسليمه القلعة إلى المغول، وهددهم بنهب دمشق وقتل الجميع. فأرسلوا إليه الرسل يطلبون منه الاستسلام فرفض ورد عليهم بالشتائم.

ودخل غازان دمشق في يوم الجمعة ١٤ ربيع الآخر ٦٩٩هـ، وخطب لغازان على منبر دمشق بالقابه وهي: "السلطان الأعظم سلطان الإسلام والمسلمين مظفر الدنيا والدين محمود غازان". وقرئ على الناس تقليد قبجق دمشق وحلب وحماه وحمص وغيرها، وولايته للقضاة والخطباء وغيرهم، ونثرت الدنانير على الناس ففرحوا بها. ونهب المغول وأرمن مملكة قليقية المدن وأحرقوا المساجد والمدارس وقتلوا الناس. قام الأرمن بتخريب الصالحية (قرب دمشق، سوريا) وقتلوا وأسروا نحو ١٠٠٠٠ من أهلها وفرّ من تمكن منهم إلى دمشق.

وانتهز الأرمن فرصة هزيمة المسلمين فاستولوا على تل حمدون وغيرها. وخرج ابن تيمية إلى غازان بتل راهط للشكوى من النهب والتخريب وقتل الناس برغم منح الأمان، فلم يتمكن من لقائه لانشغاله بشرب الخمر. فاجتمع بالوزيرين سعد الدين ورشيد الدين فنصحاه بدفع المال. نصب المغول المنجنيق على القلعة بالقرب من جامع دمشق

الكبير فلما بلغ أرجواش ذلك بعث بعض رجاله فأفسدوا ما وضعه المغول. ولكن المغول أعادوا وضع المنجنيق وقاموا بحراسته، وحولوا الجامع إلى حانة، واستباحوا حرمته وشربوا فيه الخمور وفجروا بنساء المسلمين، ولم تقم به صلاة العشاء في هذا الوقت. فأرسل أرجواش رجلاً لقتل المنجنيقي فهجم عليه بسكين وقتله وهو في وسط المغول، وهرب إلى القلعة. ثم قام أرجواش بهدم ما حول القلعة وحرقه لئلا يستتر به المغول.

رحيل غازان والمغول بعد السرقة والفساد: راح المغول يجبون الأموال من أهل الشام وينقلونها إلى خزانة غازان. فلما انتهت الجباية غادر غازان دمشق إلى فارس بعد أن أقام الأمير قبجق نائباً على دمشق، والأمير بكتمر نائباً على حلب وحمص وحماه، والأمير الألبكي نائباً على صفد وطرابلس والساحل تحت حماية نائبه قطلو شاه، ووعد بالعودة لغزو مصر كاتباً: "إنا قد تركنا نوابنا بالشام في ستين ألف مقاتل، وفي عزمنا العود إليها في زمن الخريف، والدخول إلى الديار المصرية وفتحها". بعد رحيل غازان استمر نهب دمشق وتخريبها، وكسر المغول أبواب البيوت ونهبوا ما فيها وأحرقوا الكثير من الدور والمدارس واحترقت المدرسة العادلية. ونهب المغول الأغوار حتى بلغوا القدس، ووصلوا إلى غزة حيث قتلوا بعض الرجال في جامعها. وحين بدأ بعض التتار ببعض أعمال القتل والنهب والسبي، خرج ابن تيمية مع جماعة إلى ملك التتار قازان ولم يحصل لهم الاجتماع به، واستعصت القلعة على قازان، فعاد إلى العراق وترك نائبه بولاي في الشام في ستين ألف مقاتل. ثم توجه جماعة من التتار جهة الغور فعاثوا فيه الفساد، فخرج ابن تيمية إلى بولاي وكلمه في أسارى المسلمين الذين معه، ففك أسر كثير منهم.

ولابن قاضي شهبة:

رمتنا صروف الدهر حقاً بسبعة ... فما أحدٌ منا من السبع سالم
غلاءٌ وغازان وغزو وغارة ... وغدر وإغبان وغم ملازمُ

ودامت هذه الشدة على أهل دمشق، والحصار حاصل في كل يوم على قلعة دمشق حتى عجزوا عن أخذها من يد أرجواش (كان عنده سلامة باطن).

وجرى جبي المال، وأخذه غازان وسافر من دمشق في يوم الجمعة ثاني عشر جمادى الأولى بعد أن ولى الأمير قبجق المنصوري نيابة الشام على عادته أولاً وقرر بدمشق جماعة أُخر يطول الشرح في ذكرهم.

وأقام الأمير قطلوشاه مقدم عساكر التتار بعد غازان بدمشق بجماعة كثيرة من التتار لأخذ ما بقي من الأموال ولحصار قلعة دمشق، ودام على ذلك حتى سافر من دمشق ببقية التتار في يوم الثلاثاء ثالث عشرين جمادى الأولى. وخرج الأمير قبجق نائب الشام لتوديعه ثم عاد يوم الخميس خامس عشرينه وانقطع أمر المغول من دمشق بعد أن قاسى أهلها شدائد وذهبت أموالهم.

قال ابن المنجا: إن الذي حمل إلى خزانة قازان خاصة نفسه ثلاثة آلاف ألف وست مئة ألف سوى ما محق عليهم من التراسيم والبراطيل والاستخراج لغيره من الأمراء والوزراء وغير ذلك. بحيث إن الصفي السنجاري استخرج لنفسه أكثر من ثمانين ألف درهم وللأمير إسماعيل مئتي ألف درهم وللوزير نحو أربع مئة ألف وقس على هذا. واستقر بدمشق ورسم أن ينادى فيها أن أهل القرى والحواضر يخرجون إلى أماكنهم: رسم بذلك سلطان الشام حاج الحرمين سيف الدين قبجق. وصار قبجق يركب بالعصابة والشاويشية بين يديه وجتمع الناس عليه.

كل ذلك والقتال والمباينة واقعة بين الأمير أرجواش نائب قلعة دمشق وبين قبجق المذكور ونواب قازان والرسل تمشي بينهم في الصلح، وأرجواش يأبى تسليم القلعة له: فلله درّ هذا الرجل! ما كان أثبت جنانه مع تغفل كان فيه حسب ما يأتي ذكره. هذا وقبجق غير مستبد بأمر الشام بل غالب الأمر بها لنواب قازان مثل بولاي وغيره.

وصلت الأخبار بقدوم الجيوش المصرية إلى الشام، فخرج بولاي ومن معه من التتار من دمشق وبقيت دمشق بلا جند ولا حرس، فنودي في أهلها أن يخرجوا بأسلحتهم ويبيتوا على الأسوار والأبواب يحرسون البلد، فخرجوا على الأسوار، وكان ابن تيمية يدور على الأسوار كل ليلة، يحرض الناس على الصبر والقتال، ويتلو عليهم آيات الجهاد والرباط، (هكذا يكون تفاعل الأمة المؤمنة مع الأزمات).

ثم سافر بولاي من دمشق بمن كان بقي معه من التتار في عشية يوم السبت الرابع من شهر رجب ومعه قبجق وقد أشيع أن قبجق يريد الانفصال عن التتار، وبعد خروجهما استبد أرجواش نائب قلعة دمشق بتدبير أمور البلد.

وفي يوم الجمعة سابع عشر شهر رجب أعيدت الخطبة بدمشق إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون والمخلية الحاكم بأمر الله على العادة ففرح الناس بذلك، وكان أسقط اسم الملك الناصر محمد من الخطبة بدمشق من سابع شهر ربيع الآخر فالمدة مئة يوم. ثم نادى أرجواش بكرة يوم السبت بالزينة في البلد ففزينت.

ولما عادت الحياة إلى دمشق دار ابن تيمية وأصحابه على الخانات فكسروا آنية الخمر وأباريق، ثم خرج ابن تيمية مع الأفرم نائب دمشق إلى بلاد جبيل وكسروان لتأديبهم على دعمهم التتار وإغارتهم على المسلمين، فخرج رؤساؤهم إلى ابن تيمية فأظهروا الطاعة والندم وردّوا كل ما أخذوا.

ثم عاد الأفرم إلى دمشق وصدرت الأوامر أن يعلق الناس الأسلحة بالدكاكين، وأن يتعلموا الرمي، فبنيت الإماجات (وهي معسكرات التدريب) في دمشق، وأمر الفقهاء أن يتعلموا الرمي استعداداً لأي طرف طارئ، وهكذا يجب أن تستعد الأمة في أوقات الرخاء، حتى إذا نزلت الشدائد الكبرى من أبنائها من يدافع عنها ويرد عنها كيد الأعداء.

وحاول جواسيس المغول النكاية بابن تيمية في حادثة يرويها ابن كثير في "البداية والنهاية" (ج١٤/ص٢٧): (وفي جمادى الأولى وقع بيد نائب السلطنة كتاب مزور فيه أن الشيخ تقي الدين بن تيمية والقاضي شمس الدين بن الحريري وجماعة من الأمراء والخواص الذين بباب السلطنة يناصحون التتر ويكاتبونهم، ويريدون تولية قبجق على الشام، وأن الشيخ كمال الدين بن الزملكاني يعلمهم بأحوال الأمير جمال الدين الأفرم، وكذلك كمال الدين بن العطار. فلما وقف عليه نائب السلطنة عرف أن هذا مفتعل، ففحص عن واضعه فإذا هو فقير كان مجاوراً بالبيت الذي كان مجاور محراب الصحابة، يقال له اليعقوبي، وآخر معه يقال له أحمد الغناري، وكانا معروفين بالشر والفضول. ووجد معهما مسودة هذا الكتاب. فتحقق نائب السلطنة ذلك فعزرا تعزيراً عنيفاً، ثم وسطا بعد ذلك، وقطعت يد الكاتب الذي كتب لهما هذا الكتاب، وهو التاج المناديلي. وفي أواخر جمادى الأولى انتقل الأمير سيف الدين بلبان الجوكندار المنصوري إلى نيابة القلعة عوضاً عن أرجواش).

أخبار عودة التتار إلى الشام: فلما استهلت سنة ٧٠٠هـ كثرت الأراجيف بالشام ومصر بحركة قازان، وكان قازان قد تسمى محمود وصار يقال له السلطان محمود غازان، وكان شامانياً بوذياً ثم أسلم عام ٦٩٤هـ وأسلم معه ٧٠ ألفاً من التتار، ولكنه إسلام فيه فساد في العقيدة وموالاة للنصارى وقتال للمسلمين.

ثم وصلت في أول المحرم من سنة ٧٠٠هـ الأخبار والقصاد من الشرق وأخبروا أن قازان قد جمع جموعاً كثيرة وقد تاس في جميع بلاده الغزاة إلى مصر، وأنه قاصد الشام، فجفل أهل الشام من دمشق وتفرقوا في السواحل وقصدوا الحصون ونشتت غالب أهل الشام إلى البلاد من الفرات إلى غزة، فعند ذلك تجهز الملك الناصر وجهز عساكره وتهيأ وخرج بجميع عساكره وأمرائه من القاهرة إلى مسجد التبن في يوم السبت ثالث عشر صفر وسافر حتى قارب دمشق.

وأقام بمنزلته إلى سلخ شهر ربيع الآخر وتوجه هو وعساكره عائدين إلى جهة الديار المصرية بعد أن لاقوا شدة ومشقة عظيمة من كثرة الأمطار والثلوج والأوحال وعدم المأكول، بحيث إنه انقطعت الطريق من البرد والمطر وعدم جلب المأكول لهم ولدوابهم، حتى إنهم لم يقدروا على الوصول إلى دمشق. وكان طلوع السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى قلعة الجبل يوم الإثنين حادي عشر جمادى الأولى.

وقبل عود السلطان إلى مصر كان جهز السلطان الأمير بكتمر السلاح دار والأمير بهاء الدين يعقوبا إلى دمشق أمامه فدخلوا دمشق. ثم أشيع بدمشق عود السلطان إلى القاهرة فجفل غالب أهل دمشق منها. ونائب الشام لم يمنعهم بل يحسّن لهم ذلك. وقيل إن والي دمشق بقي يجفل الناس بنفسه وصار يمر بالأسواق ويقول: في أي شيء أنتم قعود! ولما كان يوم السبت تاسع جمادى الأولى نادت المنادية بدمشق: من قعد قدمه في رقبته ومن لم يقدر على السفر فليطلع إلى القلعة. فسافر في ذلك اليوم معظم الناس.

انتقام الله من جيش قازان المغولي: وأما قازان فإنه وصل إلى حلب ووصل عساكره إلى قرون حماه وإلى بلاد سرمين وسير معظم جيشه إلى بلاد انطاكيا وغيرها فنهبوا من الدواب والأغنام والأبقار ما جاوز حد الكثرة، وسبوا عالماً كثيراً من الرجال والنساء والصبيان.

ثم أرسل الله تعالى على غازان وعساكره الأمطار والثلوج بحيث إنه أمطر عليهم ١٤ يوماً وقت مطر ووقت ثلج فهلك منهم عالم كثير، ورجع غازان بعساكره إلى بلادهم أقبح من المكسورين وقد تلفت خيولهم وهلك أكثرها وعجزهم الله تعالى وخذلهم وردهم خائبين عما كانوا عزموا عليه. ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ الأحزاب: ٢٥.

ابن تيمية الإمام العالم العامل ودوره في الجهاد:

للظروف التاريخية والسياسية دور في تنضيج شخصية ابن تيمية، وشهرتها. وقد كان له بصماته الواضحة في أحداث تاريخية وسياسية مفصلية في التاريخ الإسلامي، ولعل أشهر أدواره تصديه لحملات التتار، ونجاحه في تحريض عوام المسلمين وأمرائهم على جهادهم بحنكة إدارية وديلوماسية شجاعة، وقد تجلت هذه الشجاعة والحنكة الديلوماسية في أثناء رئاسته وفداً من أبناء دمشق وذهابه إلى الملك "قازان" ملك التتار وطلب الأمان لأهل دمشق، وتحذيره من ممارسة العبث والفساد، وذهابه إلى قائد التتار "بولاي" وإقناعه بالإفراج عن الأسرى من أهل دمشق، ثم سفره إلى سلطان المماليك وإقناعه بضرورة إرسال جيشه لمواجهة التتار.

وكانت دمشق في عصر ابن تيمية تعيش حالة فراغ دستوري وإداري، ونجح ابن تيمية في سد هذا الفراغ، وتحديداً من بعد موت الظاهر بيبرس، وكان الناس يلوذون به عندما تدلهم الخطوب ويفزع الناس ويسر عسكر نائب السلطان في دمشق. ومن يقرأ التاريخ يجد أن ابن تيمية كان أشبه ما يكون بالحاكم الحقيقي، وأن وجود نائب السلطان كان وجوداً رمزياً، ولهذا توسع ابن تيمية في مفهوم فقه الحسبة، وكان أحياناً يقود الجيش بنفسه ليحارب بهم بعض فرق الشيعة التي تواطأت مع التتار، واتهمه خصومه باستغلال هذا النفوذ في إقصائهم، وقاموا بتنظيم عدد من الفاعليات الاحتجاجية للمطالبة برفع ولاية ابن تيمية عليهم، وجلب له الحضور السياسي عداوات فقهاء المذاهب الأخرى.

وفي صفر سنه ٧٠٠هـ جاءت الأخبار بعودة التتار إلى بلاد الشام فاضطرب الناس وزادت أجرة النقل، وبيعت الأمتعة والثياب بأرخص الأثمان. وجلس ابن تيمية في مجلسه في الجامع في الثاني من صفر، وحرض الناس على القتال وبذل الأموال، ونهاهم عن الفرار، فسكن الناس وهدأت الأوضاع. ثم قام ابن تيمية بأعمال جليلة في هذه

الأزمة فخرج إلى نائب الشام والجيش المرابطين، فثبتهم وطيب قلوبهم، ووعدهم بنصر الله، وبات عندهم ليلة، وعاد إلى دمشق.

ثم جاءت الأخبار برجوع السلطان الناصر محمد وجيشه إلى مصر، فسأل أميرُ الشام ابنَ تيمية أن يسير إليه، فركب الشيخ حتى وصل إلى السلطان وطلب منه النصرة، وخوّفه بالله، وهدده بأنه إذا تأخر فإن أهل الشام سيجعلون عليهم سلطاناً غيرَه يدافع عنهم. ثم أقام شيخ الإسلام بمصر ثمانية أيام يحث الناس على الجهاد والخروج. وقد اجتمع الشيخ تقي الدين بن تيمية بشيخ مصر تقي الدين بن دقيق العيد قاضي الديار المصرية ومشيخة دار الحديث الكاملية منذ ٦٩٥هـ، فقال له تقي الدين بن دقيق العيد لما رأى تلك العلوم منه: (ما أظن بقي يُخلق مثلك). واستجاب السلطان والناس لدعوة الشيخ ابن تيمية، وتحرك الجيش المصري إلى الشام، واستعد المسلمون للحرب، ثم جاءت الأخبار بانسحاب التتار إلى العراق وكفى الله المؤمنين القتال.

رسالة ابن تيمية في جهاد التتار وجهاد عملاء التتار من منافقي الأمة الإسلامية:

رسالة ابن تيمية الشيخ العالم العامل في جهاد المغول من البدائع اللغوية والوثائق التاريخية، فهي نموذج لجهاد هذا العالم الفاضل في سبيل الله، فقد كان يجول بسيفه في ساحات الوغى مع أعظم الفرسان الشجعان، الذين شاهدوه في القتال في أثناء فتح عكا فعجبوا من شجاعته وفتكه بالعدو، خاصة بعد أن بدأ التخاذل من قبل المنافقين يسري بين الناس (وما أشبه اليوم بالبارحة)، فكتب ابن تيمية الرسالة هذه سنة ٧٠٠هـ بُعيد انكسار المسلمين أمام التتار في معركة الخازندار (٦٩٩هـ) واحتلالهم دمشق (٧٠٠هـ) وخروجهم منها بسرعة، ثم حاول التتار القدوم ثانية، لكن قدّر الله تعالى أن يردّ كيد التتار في ذلك العام، فقد أرسل الله تعالى عليهم برداً شديداً ومطراً شديداً متصلاً لأكثر من ٤٠ يوماً، فرّق الله به جموعهم، وأهلك أنعامهم، ورد كيدهم عن المسلمين سنة ٧٠٠-٧٠١هـ. نشر ابن تيمية رسالته هذه (قبيل موقعة شقحب ٧٠٢هـ-١٣٠٣م)، يستثير الهمم لقتال التتار بكل قوة وحماس، حتى قال في ذلك: (إذا رأيتموني في ذلك الجانب - أي في جانب العدو - وعلى رأسي مصحف فاقتلوني)، وأدت الرسالة نفعها ومفعولها، حين انتصر المسلمون بفضل الله في وقعة شقحب انتصاراً موزراً عظيماً ونهائياً على المغول، الذين أسلموا من بعد ذلك، ودخلوا دار الإسلام طائعين مسلمين ومؤمنين بدين الله: دين الإسلام الخالد. الرسالة من أبدع ما كتب للتدبر بمعانيها (مذكورة في مجموع الفتاوى لابن تيمية: ج٢٨، ص٤١٠-٤٦٧، والعقود الدرية: ص١٢٦-١٩١):

[بسم الله الرحمن الرحيم

إلى من يصل إليه من المؤمنين والمسلمين:

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته:

فإنا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، وهو للحمد أهل، وهو على كل شيء قدير، ونسأله أن يصلي على صفوته من خليقته وخيرته من بريته محمد عبده ورسوله صلى الله عليه، وعلى آله وسلم تسليماً.

أما بعد: فقد صدق الله وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ (الأحزاب: ٢٥).

والله تعالى يحقق لنا التمام بقوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ۝ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢٦-٢٧).

فإن هذه الفتنة التي ابتلي بها المسلمون مع هذا العدو المفسد الخارج عن شريعة الإسلام: قد جرى فيها شبيه بما جرى للمسلمين مع عدوهم، على عهد رسول الله ﷺ في المغازي التي انزل الله فيها كتبه، وامتلى بها نبيه والمؤمنين: مما هو أسوة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً إلى يوم القيامة: فإن نصوص الكتاب والسنة اللذين هما دعوة محمّد ﷺ يتناولان عموم الخلق بالعموم اللفظي والمعنوي أو بالعموم المعنوي.

وعهود الله في كتابه وسنّة رسوله تنال آخر هذه الأمة كما نالت أولها، وإنما قص الله علينا قصص من قبلنا من الأمم لتكون عبرة لنا، فنشبّه حالنا بحالهم ونقيس أواخر الأمم بأوائلها، فيكون للمؤمن من المتأخرين شبه بما كان للمؤمن من المتقدّمين، ويكون للكافر والمنافق من المتأخرين شبه بما كان للكافر والمنافق من المتقدّمين. كما قال تعالى لما قصّ قصة يوسف مفصلة وأجمل قصص الأنبياء، ثم قال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ [يوسف: ١١١]، أي هذه القصص المذكورة في الكتاب ليست بمنزلة ما يفترى من القصص المكذوبة، كنحو ما يذكر في الحروب من السِّير المكذوبة، وقال تعالى لما ذكر قصة فرعون: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ۝ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝﴾ [النازعات: ٢٥-٢٦].

وقال في سيرة نبينا محمّد ﷺ مع أعدائه ببدر وغيرها: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣]، وقال تعالى في محاصرته لبني النضير: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢]، فأمرنا أن نعتبر بأحوال المتقدّمين علينا من هذه الأمة، وممن قبلها من الأمم. وذكر في غير موضع: أنّ سنّته في ذلك سنّة مطّردة وعادته مستمرة، فقال تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۝ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ۝ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠-٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: ٢٢-٢٣].

وأخبر سبحانه أنّ دأب الكافرين من المتأخرين، كدأب الكافرين من المتقدمين، فينبغي للعقلاء أن يعتبروا بسنّة الله وأيامه في عباده ودأب الأمم وعاداتهم، لا سيما في مثل هذه الحادثة العظيمة التي طبق الخافقين خبرها، واستطار في جميع ديار الإسلام شررها، وأطلع فيها النفاق ناصية رأسه، وكشّر فيها الكفر عن أنياب واضراسه، وكاد فيه عمود الكتاب أن يجتثّ ويحترم، وحبل الإيمان أن ينقطع ويصطلم، وعقر دار المؤمنين أن يحلّ بها البوار، وأن يزول هذا الدّين باستيلاء الفجرة الكفّار، وظن المنافقون والذين في قلوبهم مرضٌ أنّ ما وعدهم الله ورسوله إلا غروراً، وأن لن ينقلب حزب الله ورسوله إلى أهليهم أبداً، وزين ذلك في قلوبهم، وظنوا ظنّ السَّوْء، وكانوا قوماً بوراً.

ونزلت فتنة تركت الحليم فيها حيران، وأنزلت الرّجل الصّاحي منزلة السّكران، وتركت الرّجل اللبيب لكثرة الوسواس ليس بالنائم ولا اليقظان، وتناكرت فيها قلوب المعارف والإخوان، حتى بقي للرجل نفسه شغل عن أن يفيئ اللهفان، وميّز الله فيها أهل البصائر والأيمان، من الذين في قلوبهم مرضٌ أو نفاق، ووضعت إيمانٌ ورفع بها أقواماً إلى الدّرجات العالية، كما خفض بها أقواماً إلى المنازل الهاوية، وكفّر بها عن آخرين أعمالهم الخاطئة، وحدث من أنواع البلوى، ما جعلها قيامةً مختصرةً من القيامة الكبرى، فإن الناس تفرّقوا فيها ما بين شقي وسعيد، كما يتفرّقون كذلك في اليوم الموعود، وفرّ الرّجل فيها من أخيه وأمّه وأبيه: إذ كان لكلّ امرئ منهم شأن يغنيه

وكان من الناس من أقصى همته النجاة بنفسه، لا يلوي على ماله ولا ولده ولا عرسه، كما أن منهم من فيه قوة على تخليص الأهل والمال، وآخر فيه زيادة معونة لمن هو منه ببال، وآخر منزلته منزلة الشفيع المطاع، وهم درجات عند الله في المنفعة والدفاع، ولم تنقع المنفعة الخالصة من الشكوى، إلا الإيمان والعمل الصالح والبر والتقوى، وبليت فيها السرائر، وظهرت الخبايا التي كانت تكنها الضمائر، وتبين أن البهرج من الأقوال والأعمال، يخون صاحبه احوج ما كان إليه في المآل، وذم سادته وكبراءه من أطاعهم، فأضلوه السبيلا، كما حمد ربه من صدق في إيمانه، فاتخذ مع الرسول سبيلا، وبان صدق ما جاءت به الآثار النبوية من الأخبار بما يكون، وواطئتها قلوب الذين هم في هذه الأمة محدثون، كما تواطأت عليه المبشرات التي أريها المؤمنون، وتبين فيها الطائفة المنصورة الظاهرة، على الدين الذين لا يضرهم من خالفهم، ولا من خذلهم إلى يوم القيامة.

حيث تحزبت الناس ثلاثة أحزاب: حزب مجتهد في نصر الدين، وآخر خاذل له، وآخر خارج عن شريعة الإسلام، وانقسم الناس ما بين مأجور ومعذور، وآخر قد غره بالله الغرور، وكان هذا الامتحان تمييزاً من الله وتقسيما: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (الأحزاب: ٢٤).

ووجه الاعتبار في هذه الحادثة العظيمة: أن الله تعالى بعث محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشرع له الجهاد إباحة له أولا، ثم إيجابا له ثانيا: لما هاجر إلى المدينة، وصار له فيها أنصار ينصرون الله ورسوله، ففزا بنفسه ﷺ مدة مقامه بدار الهجرة، وهو نحو عشر سنين: بضعا وعشرين غزوة، أولها غزوة بدر وآخرها غزوة تبوك: أنزل الله في أول مغازيه (سورة الأنفال) وفي آخرها (سورة براءة)، وجمع بينهما في المصحف؛ لتشابه أول الأمر وآخره، كما قال أمير المؤمنين عثمان: لما سئل عن القران بين السورتين من غير فصل بالبسملة.

وكان القتال منها في تسع غزوات، فأول غزوات القتال: بدر وآخرها حنين والطائف، وأنزل الله فيها ملائكته كما أخبر به القرآن: ولهذا صار الناس يجمعون بينهما في القول، وإن تباعد ما بين الغزوتين مكاناً وزماناً: فإن بدراً كانت في رمضان في السنة الثانية من الهجرة، ما بين المدينة ومكة شامي مكة، وغزوة حنين في آخر شوال من السنة الثامنة، وحنين واد قريب من الطائف شرقي مكة، ثم قسم النبي ﷺ غنائمها بالجعرانة واعتمر من الجعرانة، ثم حاصر الطائف، فلم يقاتله أهل الطائف زحفا وصفوفا، وإنما قاتلوه من وراء جدار، فآخر غزوة كان فيها القتال زحفاً واصطفافاً: هي غزوة حنين.

وكانت غزوة بدر أول غزوة ظهر فيها المسلمون على صناديد الكفار، وقتل الله أشرافهم وأسر رؤوسهم مع قلة المسلمين وضعفهم: فإنهم كانوا ثلاث مئة وبضعة عشر ليس معهم إلا فرسان، وكان يعتقب الاثنان والثلاثة على البعير الواحد، وكان عدوهم بقدرهم أكثر من ثلاث مرات في قوة وعدة وهيئة وخيلاء، فلما كان من العام المقبل غزا الكفار المدينة، وفيها النبي ﷺ وأصحابه، فخرج إليهم النبي ﷺ وأصحابه في نحو من ربع الكفار، وتركوا عيالهم بالمدينة لم ينقلوهم إلى موضع آخر.

وكانت أولاً الكرة للمسلمين عليهم ثم صارت للكفار، فانهزم عامة عسكر المسلمين، إلا نفراً قليلاً حول النبي ﷺ منهم من قتل ومنهم من جرح، وحرصوا على قتل النبي ﷺ، حتى كسروا رباعيته، وشجوا جبينه، وهشموا البيضة على رأسه، وأنزل الله فيها شطرا من سورة آل عمران من قوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ (آل عمران: ١٢١)، وقال فيها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (آل عمران: ١٥٥)، وقال فيها: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ

ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، وقال فيها: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

وكان الشيطان قد نعق في الناس: أن محمداً قد قتل، فمنهم من تزلزل لذلك فهرب، ومنهم من ثبت فقاتل، فقال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وكان هذا مثل حال المسلمين لما انكسروا في العام الماضي. وكانت هزيمة المسلمين في العام الماضي بذنوب ظاهرة وخطايا واضحة: من فساد النيات والفخر والخيلاء والظلم والفواحش والأعراض عن حكم الكتاب والسنة، وعن المحافظة على فرائض الله والبغي على كثير من المسلمين الذين بأرض الجزيرة وغروم، وكان عدوهم في أول الأمر راضياً منهم بالموادعة والمسالمة، شارعاً في الدخول في الإسلام، وكان مبتدئاً في الإيمان والأمان، وكانوا هم قد أعرضوا عن كثير من أحكام الإيمان، فكان من حكمة الله ورحمته بالمؤمنين أن ابتلاهم بما ابتلاهم به؛ ليمحص الله الذين آمنوا وينيبوا إلى ربهم، وليظهر من عدوهم ما ظهر منه من البغي والمكر والنكث والخروج عن شرائع الإسلام، فيقوم بهم ما يستوجبون به النصر، وبعدوهم ما يستوجب به الانتقام، فقد كان في نفوس كثير من مقاتلة المسلمين ورعيتهم من الشر الكبير ما لو يقترن به ظفر بعدوهم — الذي هو على الحال المذكورة — لأوجب لهم ذلك من فساد الدين والدنيا ما لا يوصف.

كما أن نصر الله للمسلمين يوم بدر كان رحمةً ونعمةً وهزيمتهم يوم أحد كان نعمةً ورحمة على المؤمنين؛ فإن النبي ﷺ قال: «**لا يقضي الله للمؤمن قضاءً إلا كان خيراً، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء فشكر الله كان خيراً له، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له**».

فلما كانت حادثة المسلمين عام أول شبيهةً بأحد، وكان بعد أحد بأكثر من سنة — وقيل بسنتين — قد ابتلي المسلمون عام الخندق، كذلك في هذا العام ابتلي المؤمنون بعدوهم كنحو ما ابتلي المسلمون مع النبي ﷺ عام الخندق وهي غزوة الأحزاب التي أنزل الله فيها (سورة الأحزاب)، وهي سورة تضمنت ذكر هذه القصة التي نصر الله فيها عبده ﷺ وأعز فيها جنده المؤمنين وهزم الأحزاب — الذين تحزبوا عليه — وحده بغير قتال؛ بل هيأت المؤمنين بإزاء عدوهم، ذكر فيها خصائص رسول الله ﷺ وحقوقه وحرمته وحرمة أهل بيته؛ لما كان هو القطب الذي تصرم الله فيها بغير قتال، كما كان ذلك في غزوتنا هذه سواءً، وظهر فيها سر تأييد الدين كما ظهر في غزوة الخندق، وانقسم الناس فيها كانقسامهم عام الخندق.

وذلك أن الله تعالى منذ بعث محمداً ﷺ، وأعزه بالهجرة والنصرة صار الناس ثلاثة أقسام: قسم مؤمنين وهم الذين آمنوا به ظاهراً وباطناً، وقسماً كفاراً، وهم الذين أظهروا الكفر به، وقسماً منافقين، وهم الذين آمنوا ظاهراً لا باطناً، ولهذا افتتح (سورة البقرة) بأربع آيات في صفة المؤمنين، وآيتين في صفة الكافرين، وثلاث عشرة آية في صفة المنافقين، وكل واحد من الإيمان والكفر والنفاق له دعائم وشعب، كما دلت عليه دلائل الكتاب والسنة، وكما فسره أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ في الحديث المأثور عنه في الإيمان ودعائمه وشعبه.

فمن النفاق ما هو أكبر ويكون صاحبه في الدرك الأسفل من النار؛ كنفاق عبد الله بن أبي وغيره؛ بأن يظهر تكذيب الرسول، أو جحود بعض ما جاء به أو بغضه، أو عدم اعتقاد وجوب اتباعه، أو المسرة بانخفاض دينه، أو المساءة بظهور دينه، ونحو ذلك؛ مما لا يكون صاحبه إلا عدواً لله ورسوله، وهذا القدر كان موجوداً في زمن رسول الله ﷺ وما زال بعده؛ بل هو بعده أكثر منه على عهده؛ لكون موجبات الإيمان على عهده أقوى، فإذا كانت مع قوتها — وكان النفاق معها موجوداً — فوجوده فيما دون ذلك أولى.

وكما انه ﷺ كان يعلم بعض المنافقين، ولا يعلم بعضهم، كما بينه قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾(التوبة: ١٠١)، كذلك خلفاؤه بعده ووزثته: قد يعلمون بعض المنافقين ولا يعلمون بعضهم، وفي المنتسبين إلى الإسلام من عامة الطوائف منافقون كثيرون في الخاصة والعامة، ويسمون (الزنادقة)، وقد اختلف العلماء في قبول توبتهم في الظاهر: لكون ذلك لا يعلم إذ هم دائماً يظهرون الإسلام، وهؤلاء يكثرون في المتفلسفة: من المنجمين ونحوهم، ثم في الأطباء، ثم في الكتّاب أقل من ذلك، ويوجدون في المتصوفة والمتفقهة، وفي المقاتلة والأمراء، وفي العامة أيضاً، ولكن يوجدون كثيراً في نحل أهل البدع: لا سيما الرافضة، فمنهم من الزنادقة والمنافقين ما ليس في أحد من أهل النحل، ولهذا كانت الخرمية والباطنية والقرامطة والإسماعيلية والنصيرية، ونحوهم من المنافقين الزنادقة: منتسبة إلى الرافضة، وهؤلاء المنافقون في هذه الأوقات لكثير منهم ميل إلى دولة هؤلاء التتار: لكونهم لا يلزمونهم شريعة الإسلام: بل يتركونهم وما هم عليه، وبعضهم إنما ينفرون عن التتار لفساد سيرتهم في الدنيا، واستيلائهم على الأموال، واجترائهم على الدماء والسبي: لا لأجل الدين، فهذا ضرب النفاق الأكبر.

وأما النفاق الأصغر: فهو النفاق في الأعمال ونحوها: مثل أن يكذب إذا حدث، ويخلف إذا وعد، ويخون إذا اؤتمن، أو يفجر إذا خاصم، ففي الصحيحين عن النبي ﷺ قال: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان**»، وفي رواية صحيحة: «**وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم**».

وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «**أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**».

ومن هذا الباب: الإعراض عن الجهاد، فإنه من خصال المنافقين، قال النبي ﷺ: «**من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من نفاق**» رواه مسلم، وقد أنزل الله (سورة براءة) التي تسمى الفاضحة: لأنها فضحت المنافقين، أخرجاه في الصحيحين عن ابن عباس قال: هي الفاضحة ما زالت تنزل: (ومنهم ومنهم حتى ظنوا أن لا يبقى أحد إلا ذكر فيها).

وعن المقداد بن الأسود (رضي الله عنه) قال: "هي سورة البحوث: لأنها بحثت عن سرائر المنافقين"، وعن قتادة (رضي الله عنه) قال: "هي المثيرة: لأنها أثارت مخازي المنافقين"، وعن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: "هي المبعثرة"، والبعثرة والإثارة متقاربان، وعن ابن عمر (رضي الله عنهما) "أنها المقشقشة، لأنها تبرئ من مرض النفاق"، يقال: تقشقش المريض إذا برأ: قال الأصمعي: وكان يقال لسورتي الإخلاص: المقشقشتان: لأنهما يبرئان من النفاق.

وهذه السورة نزلت في آخر مغازي النبي ﷺ غزوة تبوك عام تسع من الهجرة، وقد عز الإسلام وظهر، فكشف الله فيها أحوال المنافقين، ووصفهم فيها بالجبن وترك الجهاد، ووصفهم بالبخل عن النفقة في سبيل الله والشح على المال، وهذان داءان عظيمان: الجبن والبخل، قال النبي ﷺ: «**شر ما في المرء شح هالع وجبن خالع**» حديث صحيح: ولهذا قد يكونان من الكبائر الموجبة للنار، كما دل عليه قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾(آل عمران: ١٨٠)، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾(الأنفال: ١٦).

وأما وصفهم بالجبن والفزع فقال تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ۝٥٦ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [التوبة: ٥٦-٥٧]. فأخبر سبحانه أنهم وإن حلفوا إنهم من المؤمنين فما هم منهم؛ ولكن يفزعون من العدو: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً﴾ يلجؤون إليه من المعاقل والحصون التي يفر إليها من يترك الجهاد، أو ﴿مَغَارَاتٍ﴾ وهي جمع مغارة، ومغارات

سميت بذلك؛ لأن الداخل يغور فيها أي يستتر: كما يغور الماء: ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾، وهو الذي يتكلف الدخول إليه، إما لضيق بابه أو لغير ذلك، أي مكاناً يدخلون إليه، ولو كان الدخول بكلفة ومشقة: لولوا عن الجهاد ﴿إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أي يسرعون إسراعاً لا يردهم شيء، كالفرس الجموح الذي إذا حمل لا يرده اللجام، وهذا وصف منطبق على أقوام كثيرين في حادثتنا، وفيما قبلها من الحوادث وبعدها.

وكذلك قال في (سورة محمد) ﷺ: ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٠] أي هبعداً لهم: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥] فحصر المؤمنين فيمن آمن وجاهد.

وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ۝٤٤ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٤-٤٥]، فهذا إخبار من الله بأن المؤمن لا يستأذن الرسول في ترك الجهاد؛ وإنما يستأذنه الذي لا يؤمن، فكيف بالتارك من غير استئذان.

ومن تدبر القرآن وجد نظائر هذا متضافرة على هذا المعنى، وقال في وصفهم بالشح: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤]، فهذه حال من أنفق كارهاً، فكيف بمن ترك النفقة رأساً، وقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة: ٥٨].

وقال: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ۝٧٥ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [التوبة: ٧٥-٧٦].

وقال في السورة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٤ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤-٣٥] فانتظمت هذه الآية حال من أخذ المال بغير حقه، أو منعه من مستحقه من جميع الناس؛ فإن الأحبار هم العلماء، والرهبان هم العباد، وقد أخبر أن كثيراً منهم يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون - أي يعرضون ويمنعون، يقال: صد عن الحق صدوداً وصد غيره صداً - وهذا يندرج فيه ما يؤكل بالباطل: من وقف أو عطية على الدين كالصلاة والنذور التي تنذر لأهل الدين ومن الأموال المشتركة كأموال بيت المال ونحو ذلك، فهذا فيمن يأكل المال بالباطل بشبهة دين.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، فهذا يندرج فيه من كنز المال عن النفقة الواجبة في سبيل الله، والجهاد أحق الأعمال باسم سبيل الله، سواء كان ملكاً أو مقدماً أو غنياً أو غير ذلك، وإذا

دخل في هذا ما كنز من المال الموروث والمكسوب، فما كنز من الأموال المشتركة التي يستحقها عموم الأمة - ومستحقها: مصالحهم - أولى وأحرى.

فإذا تبين بعض معنى المؤمن والمنافق، فإذا قرأ الإنسان (سورة الأحزاب)، وعرف من المنقولات في الحديث والتفسير والفقه والمغازي: كيف كانت صفة الواقعة التي نزل بها القرآن، ثم اعتبر هذه الحادثة بتلك: وجد مصداق ما ذكرنا، وأن الناس انقسموا في هذه الحادثة إلى الأقسام الثلاثة، كما انقسموا في تلك، وتبين له كثير من التشابهات، افتتح الله السورة بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ (الأحزاب: ١)، وذكر في أثنائها قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ۝٤٧ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ (الأحزاب: ٤٧-٤٨)، ثم قال: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ (الأحزاب: ٢-٣)، فأمره باتباع ما أوحي إليه من الكتاب والحكمة - التي هي سنته - وبأن يتوكل على الله، فبالأولى يحقق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وبالثانية يحقق قوله: ﴿وَبِكَ نَسْتَعِينُ﴾، ومثل ذلك قوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ (هود: ١٢٣)، وقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (الشورى: ١٠).

وهذا وإن كان مأموراً به في جميع الدين: فإن ذلك في الجهاد أوكد؛ لأنه يحتاج إلى أن يجاهد الكفار والمنافقين: وذلك لا يتم إلا بتأييد قوي من الله: ولهذا كان الجهاد سنام العمل وانتظم سنام جميع الأحوال الشريفة، ففيه سنام المحبة كما في قوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ (المائدة: ٥٤) وفيه سنام التوكل وسنام الصبر: فإن المجاهد أحوج الناس إلى الصبر والتوكل: ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ۝٤١ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (النحل: ٤١-٤٢).

وقال موسى لقومه: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الأعراف: ١٢٨)، ولهذا كان الصبر واليقين - اللذين هما أصل التوكل - موجبان الإمامة في الدين كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (السجدة: ٢٤)، ولهذا كان الجهاد موجباً للهداية التي هي محيطة بأبواب العلم، كما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (العنكبوت: ٦٩).

فجعل لمن جاهد فيه هداية جميع سبله تعالى: ولهذا قال الإمامان عبد الله بن المبارك، وأحمد بن حنبل وغيرهما: إذا اختلف الناس في شيء، فانظروا ماذا عليه أهل الثغر فإن الحق معهم: لأن الله يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (العنكبوت: ٦٩)، وفي الجهاد أيضاً: حقيقة الزهد في الحياة الدنيا، وفي الدار الدنيا، وفيه أيضاً: حقيقة الإخلاص، فإن الكلام فيمن جاهد في سبيل الله لا في سبيل الرياسة، ولا في سبيل المال، ولا في سبيل الحمية، وهذا لا يكون إلا لمن قاتل ليكون الدين كله لله، ولتكون كلمة الله هي العليا، وأعظم مراتب الإخلاص: تسليم النفس والمال إلى المعبود: كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ (التوبة: ١١١)، والجنة: اسم للدار التي حوت كل نعيم، أعلاه النظر إلى الله إلى ما دون ذلك مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين مما قد نعرفه وقد لا نعرفه كما قال الله تعالى فيما رواه عنه رسوله ﷺ: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

فقد تبين بعض أسباب افتتاح هذه السورة بهذا. ثم إنه تعالى قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ (الأحزاب: ٩) كان مختصر القصة: أن المسلمين تحزب عليهم عامة المشركين الذين حولهم، وجاؤوا بجموعهم إلى المدينة ليستأصلوا المؤمنين. فاجتمعت قريش وحلفاؤهم من بني أسد وأشجع وفزارة وغيرهم من قبائل نجد، واجتمعت أيضاً اليهود: من قريظة والنضير. فإن بني النضير كان النبي ﷺ قد أجلاهم قبل ذلك، كما ذكره الله تعالى في (سورة الحشر)، فجاؤوا في الأحزاب إلى قريظة وهم معاهدون للنبي ﷺ، ومجاورون له قريباً من المدينة، فلم يزالوا بهم حتى نقضت قريظة العهد، ودخلوا في الأحزاب، فاجتمعت هذه الأحزاب العظيمة، وهم يقدر المسلمين مرات متعددة، فرفع النبي ﷺ الذرية من النساء والصبيان في أطام المدينة، وهي مثل الجواسق، ولم ينقلهم إلى مواضع أخر، وجعل ظهرهم إلى سلع - وهو الجبل القريب من المدينة من ناحية الغرب والشام - وجعل بينه وبين العدو خندقاً، والعدو قد أحاط بهم من العالية والسافلة، وكان عدواً شديد العداوة، لو تمكن من المؤمنين لكانت نكايته فيهم أعظم النكايات.

وفي هذه الحادثة تحزب هذا العدو من مغول، وغيرهم من أنواع الترك، ومن فرس ومستعربة ونحوهم من أجناس المرتدة، ومن نصارى الأرمن وغيرهم، ونزل هذا العدو بجانب ديار المسلمين، وهو بين الأقدام و لأحجام، مع قلة من بإزائهم من المسلمين، ومقصودهم الاستيلاء على الدار واصطلام أهلها. كما نزل أولئك بنواحي المدينة بإزاء المسلمين، ودام الحصار على المسلمين عام الخندق - على ما قيل - بضعاً وعشرين ليلة، وقيل: عشرين ليلة، وهذا العدو عبر الفرات سابع عشر ربيع الآخر، وكان أول انصرافه راجعاً عن حلب لما رجع مقدمهم الكبير قازان بمن معه: يوم الإثنين حادي أو ثاني عشر جمادى الأولى يوم دخل العسكر عسكر المسلمين إلى مصر المحروسة، واجتمع بهم الداعي وخاطبهم في هذه القضية، وكان الله سبحانه وتعالى لما ألقى في قلوب المؤمنين ما ألقى من الاهتمام والعزم: ألقى الله في قلوب عدوهم الروع والانصراف. وكان عام الخندق برد شديد وريح شديدة منكرة بها صرف الله الأحزاب عن المدينة، كما قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ (الأحزاب: ٩).

وهكذا هذا العام أكثر الله فيه الثلج والمطر والبرد على خلاف أكثر العادات، حتى كره كثير الناس ذلك، وكنا نقول لهم: لا تكرهوا ذلك؛ فإن لله فيه حكمة ورحمة، وكان ذلك من أعظم الأسباب التي صرف الله به العدو: فإنه كثر عليهم الثلج والمطر والبرد، حتى هلك من خيلهم ما شاء الله، وهلك أيضاً منهم من شاء الله، وظهر فيهم وفي بقية خيلهم من الضعف والعجز بسبب البرد والجوع ما رأوا أنهم لا طاقة لهم معه بقتال، حتى بلغني عن بعض كبار المقدمين في أرض الشام أنه قال: لا بيض الله وجوهنا: أعدونا في الثلج إلى شعره، ونحن قعود لا نأخذهم؟ حتى علموا أنهم كانوا صيداً للمسلمين لو يصطادونهم! لكن في تأخير الله استيلاءهم حكمة عظيمة، وقال الله في شأن الأحزاب: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ (الأحزاب: ١٠-١١).

وهكذا هذا العام، جاء العدو من ناحيتي علو الشام وهو شمال الفرات، وهو قبلي الفرات، فزاغت الأبصار زيغاً عظيماً، وبلغت القلوب الحناجر: لعظم البلاء: لا سيما لما استفاض الخبر بانصراف العسكر إلى مصر، وقرب العدو وتوجهه إلى دمشق، وظن الناس بالله الظنونا، هذا يظن أنه لا يقف قدامهم أحد من جند الشام، حتى يصطلموا أهل الشام، وهذا يظن أنهم لو وقفوا لكسروهم كسرة، وأحاطوا بهم إحاطة الهالة بالقمر، وهذا يظن أن أرض الشام ما بقيت تسكن، ولا بقيت تكون تحت مملكة الإسلام، وهذا يظن إنهم يأخذونها، ثم يذهبون إلى مصر فيستولون عليها فلا يقف قدامهم أحد فيحدث نفسه بالفرار إلى اليمن ونحوها، وهذا - إذا أحسن ظنه -

قال: إنهم يملكونها العام، كما ملكوها عام هولاكو سنة سبع وخمسين، ثم قد يخرج العسكر من مصر فيستنقذها منهم، كما خرج ذلك العام، وهذا ظن خيارهم.

وهذا يظن أن ما اخبره به أهل الآثار النبوية وأهل التحديث والمبشرات، أماني كاذبة وخرافات لاغية، وهذا قد استولى عليه الرعب والفزع، حتى يمر الظن بفؤاده مر السحاب ليس له عقل يتفهم ولا لسان يتكلم. وهذا قد تعارضت عنده الأمارات، وتقابلت عنده الإرادات: لا سيما وهو لا يفرق من المبشرات بين الصادق والكاذب، ولا يميز في التحديث بين المخطئ والصائب، ولا يعرف النصوص الأثرية معرفة العلماء: بل إما أن يكون جاهلاً بها، وقد سمعها سماع الغير، ثم قد لا يتفطن لوجوه دلالتها الخفية، ولا يهتدي لدفع ما يتخيل أنه معارض لها في بادئ الرؤية. فلذلك استولت الحيرة على من كان متسماً بالاهتداء، وتراجمت به الآراء تراجم الصبيان بالحصباء: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ (الاحزاب: ١١) ابتلاهم الله بهذا الابتلاء الذي يكفر به خطيئاتهم، ويرفع به درجاتهم، وزلزلوا بما يحصل لهم من الرجفات ما استوجبوا به أعلى الدرجات، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ (الاحزاب: ١٢).

وهكذا قالوا في هذه الفتنة، فيما وعدهم أهل الوراثة النبوية والخلافة الرسالية وحزب الله المحدثون عنه، حتى حصل لهؤلاء التأسي برسول الله ﷺ، كما قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الاحزاب: ٢١).

فأما المنافقون فقد مضى التنبيه عليهم، وأما الذين في قلوبهم مرض، فقد تكرر ذكرهم في هذه السورة، فذكروا هنا وفي قوله: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ (الاحزاب: ٦٠)، وفي قوله: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ (الاحزاب: ٣٢) وذكر الله مرض القلب في مواضع، فقال تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ (الانفال: ٤٩)، والمرض في القلب كالمرض في الجسد، فكما أن هذا هو إحالة عن الصحة والاعتدال من غير موت، فكذلك قد يكون في القلب مرض يحيله عن الصحة والاعتدال من غير أن يموت القلب، سواء أفسد إحساس القلب وإدراكه، أم أفسد عمله وحركته، وذلك – كما فسروه: هو من ضعف الإيمان: إما بضعف علم القلب واعتقاده، وإما بضعف عمله وحركته، فيدخل فيه من ضعف تصديقه، ومن غلب عليه الجبن و الفزع: فإن أدواء القلب من الشهوة المحرمة والحسد والجبن والبخل وغير ذلك كلها أمراض.

وكذلك الجهل والشكوك والشبهات التي فيه، وعلى هذا فقول: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ (الاحزاب: ٣٢) هو إرادة الفجور وشهوة الزنا كما فسروه به، ومنه قول النبي ﷺ: «وأي داء أدوا من البخل؟». وقد جعل الله تعالى كتابه شفاءً لما في الصدور، وقال النبي ﷺ: «**إنما شفاء العي السؤال**». وكان يقول في دعائه ﷺ: «**اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأهواء والأدواء**». ولن يخاف الرجل غير الله إلا لمرض في قلبه كما ذكروا أن رجلاً شكا إلى أحمد بن حنبل خوفه من بعض الولاة فقال: لو صححت لم تخف أحداً، أي خوفك من أجل زوال الصحة من قلبك.

ولهذا أوجب الله على عباده أن لا يخافوا حزب الشيطان؛ بل لا يخافون غيره تعالى فقال: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (ال عمران: ١٧٥) أي يخوفكم أولياءه، وقال لعموم بني إسرائيل تنبيهاً لنا: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ (البقرة: ٤٠)، وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ (المائدة: ٤٤)، وقال: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾ (البقرة: ١٥٠)، وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾ (المائدة: ٣)، وقال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾

(التوبة: ١٨)، وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ﴾ (الاحزاب: ٣٩)، وقال تعالى: ﴿ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ ﴾ (التوبة: ١٣).

فدلت هذه الآية – وهي قوله تعالى: ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ (الانفال: ٤٩) – على أن المرض والنفاق في القلب يوجب الريب في الأنباء الصادقة، التي توجب أمن الإنسان: من الخوف حتى يظنوا أنها كانت غروراً لهم، كما وقع في حادثتنا هذه سواء. ثم قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ﴾ (الاحزاب: ١٣)، وكان النبي ﷺ قد عسكر بالمسلمين عند سلع، وجعل الخندق بينه وبين العدو، فقالت طائفة منهم: لا مقام لكم هنا: لكثرة العدو، فارجعوا إلى المدينة، وقيل: لا مقام لكم على دين محمد فارجعوا إلى دين الشرك، وقيل: لا مقام لكم على القتال، فارجعوا إلى الاستئمان والاستجارة بهم.

وهكذا لما قدم هذا العدو، كان من المنافقين من قال: ما بقيت الدولة الإسلامية تقوم، فينبغي الدخول في دولة التتار. وقال بعض الخاصة: ما بقيت أرض الشام تسكن: بل ننتقل عنها إما إلى الحجاز واليمن وما إلى مصر وقال بعضهم: بل المصلحة الاستسلام لهؤلاء، كما قد استسلم لهم أهل العراق والدخول تحت حكمهم. فهذه المقالات الثلاث قد قيلت في هذه النازلة، كما قيلت في تلك. وهكذا قال طائفة من المنافقين، والذين في قلوبهم مرض، لأهل دمشق خاصة والشام عامة: لا مقام لكم بهذه الأرض، ونفي المقام بها أبلغ من نفي المقاء، وإن كانت قد فرقت بالضم أيضاً، فإن من لم يقدر أن يقوم بالمكان فكيف يقيم به؟

قال الله تعالى: ﴿ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ (الاحزاب: ١٣). وكان فريق من هؤلاء المذمومين يقولون – والناس مع النبي ﷺ عند سلع داخل الخندق والنساء والصبيان في آطام المدينة: يا رسول الله إن بيوتنا عورة، أي مكشوفة ليس بينها وبين العدو حائل – وأصل العورة: الخالي الذي يحتاج إلى حفظ وستر، يقال: اعور مجلسك إذا ذهب ستره أو سقط جداره، ومنه عورة العدو – وقال مجاهد والحسن: أي ضائعة تخشى عليها السراق، وقال قتادة: قالوا: بيوتنا مما يلي العدو، فلا نأمن على أهلنا فائذن لنا أن نذهب إليها لحفظ النساء والصبيان، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ﴾ (الاحزاب: ١٣) لأن الله يحفظها ﴿ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ (الاحزاب: ١٣)، فهم يقصدون الفرار من الجهاد ويحتجون بحجة الأسرة.

وهكذا أصاب كثيراً من الناس في هذه الغزاة، صاروا يفرون من الثغر إلى المعاقل والحصون، وإلى الأماكن البعيدة كمصر، ويقولون: ما مقصودنا إلا حفظ العيال، وما يمكن إرسالهم مع غيرنا، وهم يكذبون في ذلك فقد كان يمكنهم جعلهم في حصن دمشق لو دنا العدو، كما فعل المسلمون على عهد رسول الله ﷺ، وقد كان يمكنهم إرسالهم والمقام للجهاد، فكيف بمن فر بعد إرسال عياله؟ قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴾ (الاحزاب: ١٤)، فأخبر أنه لو دخلت عليهم المدينة من جوانبها، ثم طلبت منهم الفتنة – وهي الافتتان عن الدين بالكفر أو النفاق – لأعطوا الفتنة، ولجاؤوها من غير توقف.

وهذه حال أقوام لو دخل عليهم هذا العدو المنافق المجرم، ثم طلب منهم موافقته على ما هو عليه من الخروج عن شريعة الإسلام – وتلك فتنة عظيمة – لكانوا معه على ذلك، كما ساعدهم في العام الماضي أقوام بأنواع من الفتنة في الدين والدنيا ما بين ترك واجبات وفعل محرمات، إما في حق الله وإما في حق العباد، كترك الصلاة وشرب الخمور، وسب السلف وسب جنود المسلمين والتجسس لهم على المسلمين، ودلالتهم على أموال المسلمين وحريمهم، وأخذ أموال الناس وتعذيبهم وتقوية دولتهم الملعونة، وإرجاف قلوب المسلمين منهم إلى غير ذلك من أنواع

الفتنة، ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ (الأحزاب: ١٥) وهذه حال أقوام عاهدوا ثم نكثوا قديماً وحديثاً في هذه الغزوة، فإن في العام الماضي وفي هذا العام في أول الأمر كان من أصناف الناس من عاهد على أن يقاتل ولا يفر ثم فر منهزماً لما اشتد الأمر.

ثم قال الله تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الأحزاب: ١٦)، فأخبر الله أن الفرار لا ينفع لا من الموت ولا من القتل، فالفرار من الموت كالفرار من الطاعون، ولذلك قال النبي ﷺ: «إذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه» والفرار من القتل كالفرار من الجهاد، وحرف (لن) ينفي الفعل في الزمن المستقبل، والفعل نكرة، والنكرة في سياق النفي تعم جميع أفرادها، فاقتضى ذلك: أن الفرار من الموت أو القتل ليس فيه منفعة أبداً، وهذا خبر الله الصادق، فمن اعتقد أن ذلك ينفعه فقد كذب الله في خبره.

والتجربة تدل على مثل ما دل عليه القرآن، فإن هؤلاء الذين فروا في هذا العام لم ينفعهم فرارهم: بل خسروا الدين والدنيا وتفاوتوا في المصائب، والمرابطون الثابتون نفعهم ذلك في الدين والدنيا حتى الموت الذي فروا منه كثر فيهم، وقل في المقيمين، فما منع الهرب من شاء الله، والطالبون للعدو والمعاقبون له لم يمت منهم أحد ولا قتل: بل الموت قل في البلد من حين خرج الفارون، وهكذا سنة الله قديماً وحديثاً.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الأحزاب: ١٦) يقول: لو كان الفرار ينفعكم لم ينفعكم إلا حياةً قليلةً ثم تموتون، فإن الموت لا بد منه، وقد حكي عن بعض الحمقى أنه قال: فنحن نريد ذلك القليل، وهذا جهل منه بمعنى الآية، فإن الله لم يقل: إنهم يمتعون بالفرار قليلاً، لكنه ذكر أنه لا منفعة فيه أبداً، ثم ذكر جواباً ثانياً، أنه لو كان ينفع لم يكن فيه إلا متاع قليل، ثم ذكر جواباً ثالثاً وهو أن الفار يأتيه ما قضي له من المضرة، ويأتي الثابت ما قضي له من المسرة، فقال: ﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (الأحزاب: ١٧)، ونظيره: قوله في سياق آيات الجهاد: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ (النساء: ٧٨) الآية، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (آل عمران: ١٥٦).

فمضمون الأمر: أن المنايا محتومة، فكم من حضر الصفوف فسلم، وكم ممن فر من المنية فصادفته، كما قال خالد بن الوليد ﷺ - لما احتضر: (لقد حضرت كذا وكذا صفاً، وأن بيدني بضعاً وثمانين، ما بين ضربة بسيف وطعنا برمح ورمية بسهم، وهأنذا أموت على فراشي كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء).

ثم قال تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ (الأحزاب: ١٨)، قال العلماء: كان من المنافقين من يرجع من الخندق فيدخل المدينة، فإذا جاءهم أحد قالوا له: ويحك اجلس فلا تخرج. ويكتبون بذلك إلى إخوانهم الذين بالعسكر: أن ائتونا بالمدينة فإنا ننتظركم، يثبطونهم عن القتال، وكانوا لا يأتون العسكر إلا ألا يجدوا بداً، فيأتون العسكر ليرى الناس وجوههم، فإذا غفل عنهم عادوا إلى المدينة، فانصرف بعضهم من عند النبي ﷺ، فوجد أخاه لأبيه وأمه وعنده سَوِيق، ونبيذ، فقال: أنت ههنا ورسول الله ﷺ بين الرماح والسيوف؟ فقال: هلم إلي فقد حيط بك وبصاحبك.

فوصف المثبطين عن الجهاد - وهم صنفان - بأنهم: إما أن يكونوا في بلد الغزاة أو في غيره، فإن كانوا فيه عوقوهم عن الجهاد بالقول أو بالعمل أو بهما، وإن كانوا في غيره راسلوهم أو كاتبوهم: بأن يخرجوا إليهم من بلد الغزاة ليكونوا معهم بالحصون أو بالبعد، كما جرى في هذه الغزاة، فإن أقواماً في العسكر والمدينة وغيرهما،

صاروا يعوقون من أراد الغزو وأقواماً بعثوا من المعاقل والحصون وغيرها إلى إخوانهم: هلم إلينا قال الله تعالى فيهم: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ (الاحزاب: ١٨-١٩)، أي: بخلاء عليكم بالقتال معكم والنفقة في سبيل الله. وقال مجاهد: بخلاء عليكم بالخير والظفر والغنيمة، وهذه حال من بخل على المؤمنين بنفسه وماله، و شح عليهم بفضل الله: من نصره ورزقه الذي يجريه بفعل غيره، فإن أقواماً يشحون بمعروفهم وأقواماً يشحون بمعروف الله وفضله، وهم الحساد.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ (الاحزاب: ١٩)، من شدة الرعب الذي في قلوبهم يشبهون المغمى عليه وقت النزع، فإنه يخاف ويذهل عقله ويشخص بصره ولا يطرف، فكذلك هؤلاء؛ لأنهم يخافون القتل: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ (الاحزاب: ١٩)، ويقال في اللغة (صلقوكم) وهو رفع الصوت بالكلام المؤذي، ومنه (الصالقة): وهي التي ترفع صوتها بالمصيبة، يقال: صلقه وسلقه، وقد قرأ طائفة من السلف بها؛ لكنها خارجة عن المصحف – إذا خاطبه خطاباً شديداً قوياً، ويقال: خطيب مسلاق: إذا كان بليغاً في خطبته؛ لكن الشدة هنا في الشر لا في الخير، كما قال: ﴿بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ (الاحزاب: ١٩) وهذا السلق بالألسنة الحادة يكون بوجوه: تارة يقول المنافقون للمؤمنين: هذا الذي جرى علينا بشؤمكم: فإنكم أنتم الذين دعوتم الناس إلى هذا الدين، وقاتلتم عليه وخالفتموهم: فإن هذه مقالة المنافقين للمؤمنين من الصحابة

وتارة يقولون: أنتم الذين أشرتم علينا بالمقام هنا، والثبات بهذا الثغر إلى هذا الوقت، وإلا فلو كنا سافرنا قبل هذا لما أصابنا هذا، وتارة يقولون – أنتم مع قلتكم وضعفكم – تريدون أن تكسروا العدو وقد غركم دينكم، كما قال تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الانفال: ٤٩)، وتارة يقولون: أنتم مجانين لا عقل لكم تريدون أن تهلكوا أنفسكم والناس معكم، وتارة يقولون: أنواعاً من الكلام المؤذي الشديد، وهم مع ذلك أشحة على الخير، أي حراص على الغنيمة والمال الذي قد حصل لكم، قال قتادة: إن كان وقت قسمة الغنيمة بسطوا ألسنتهم فيكم، يقولون: أعطونا فلستم بأحق بها منا، فأما عند البأس فأجبن قوم وأخذلهم للحق، وأما عند الغنيمة فأشح قوم

وقيل: أشحة على الخير أي بخلاء به، لا ينفعون لا بنفوسهم ولا بأموالهم، وأصل الشح: شدة الحرص الذي يتولد عنه البخل والظلم: من منع الحق وأخذ الباطل، كما قال النبي ﷺ: «**إياكم والشح: فإن الشح أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالظلم فظلموا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا**»، فهؤلاء أشحاء على إخوانهم: أي بخلاء عليهم، وأشحاء على الخير أي حراص عليه، فلا ينفقونه، كما قال: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ (العاديات: ٨).

ثم قال تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الاحزاب: ٢٠)، فوصفهم بثلاثة أوصاف:

احدها: أنهم لفرط خوفهم يحسبون الأحزاب لم ينصرفوا عن البلد، وهذه حال الجبان الذي في قلبه مرض، فإن قلبه يبادر إلى تصديق الخبر المخوف وتكذيب خبر الأمن، الوصف.

الثاني: أن الأحزاب إذا جاؤوا تمنوا أن لا يكونوا بينكم: بل يكونون في البادية بين الأعراب يسألون عن أنبائكم: إيش خبر المدينة؟ وإيش جرى للناس؟

والوصف الثالث: أن الأحزاب إذا أتوا – وهم فيكم – لم يقاتلوا إلا قليلاً

وهذه الصفات الثلاث منطبقة على كثير من الناس في هذه الغزوة، كما يعرفونه من أنفسهم ويعرفه منهم من خبرهم.

ثم قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢١)، فأخبر سبحانه أن الذين يبتلون بالعدو، كما ابتلي رسول الله ﷺ، فلهم فيه أسوة حسنة، حيث أصابهم مثل ما أصابه، فليتأسوا به في التوكل والصبر، ولا يظنون أن هذه نقم لصاحبها وإهانة له، فإنه لو كان كذلك ما ابتلي بها رسول الله ﷺ خير الخلائق؛ بل بها ينال الدرجات العالية، وبها يكفر الله الخطايا لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ويذكر الله كثيراً، وإلا فقد يبتلى بذلك من ليس كذلك فيكون في حقه عذاباً، كالكفار والمنافقين.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب: ٢٢)، قال العلماء: كان الله قد أنزل في سورة البقرة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (البقرة: ٢١٤)، فبين الله سبحانه - منكراً على من حسب خلاف ذلك - أنهم لا يدخلون الجنة إلا بعد أن يبتلوا مثل هذه الأمم قبلهم بـ (البأساء) وهي الحاجة والفاقة، و(الضراء): وهي الوجع والمرض، و(الزلزال): وهي زلزلة العدو، فلما جاء الأحزاب عام الخندق فرأوهم، قالوا: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ (الأحزاب: ٢٢) وعلموا أن الله قد ابتلاهم بالزلزال، وأتاهم مثل الذين خلوا من قبلهم، وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً لحكم الله وأمره، وهذه حال أقوام في هذه الغزوة: قالوا ذلك.

وكذلك قوله: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ﴾ (الأحزاب: ٢٣)، أي: عهده الذي عاهد الله عليه، فقاتل حتى قتل أو عاش، و(النحب): النذر والعهد، وأصله من النحيب، وهو الصوت، ومنه: الانتحاب في البكاء، وهو الصوت الذي تكلم به في العهد، ثم لما كان عهدهم هو نذرهم الصدق في اللقاء - ومن صدق في اللقاء فقد يقتل - صار يفهم من قوله: ﴿قَضَى نَحْبَهُ﴾ أنه استشهد، لا سيما إذا كان النحب: نذر الصدق في جميع المواطن؛ فإنه لا يقضيه إلا بالموت، وقضاء النحب هو الوفاء بالعهد، كما قال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ﴾ (الأحزاب: ٢٣) أي أكمل الوفاء، وذلك لمن كان عهده مطلقاً: بالموت أو القتل، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ﴾ قضاءه إذا كان قد وفى بعضهم، فهو ينتظر تمام العهد.

وأصل القضاء: الإتمام والإكمال: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (الأحزاب: ٢٤)، بين الله سبحانه أنه أتى بالأحزاب ليجزي الصادقين بصدقهم، حيث صدقوا في إيمانهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (الحجرات: ١٥)، فحصر الإيمان في المؤمنين المجاهدين، وأخبر أنهم هم الصادقون في قولهم: آمنا؛ لا من قال كما قالت الأعراب: آمنا والإيمان لم يدخل في قلوبهم؛ بل انقادوا واستسلموا.

وأما المنافقون فهم بين أمرين: إما أن يعذبهم وإما أن يتوب عليهم، فهذا حال الناس في الخندق وفي هذه الغزاة، وأيضاً فإن لله تعالى ابتلى الناس بهذه الفتنة: ليجزي الصادقين بصدقهم، وهم الثابتون الصابرون لينصروا الله ورسوله ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم، ونحن نرجو من الله أن يتوب على خلق كثير من هؤلاء المذمومين؛ فإن منهم من ندم، والله سبحانه يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات، وقد فتح الله للتوبة باباً من قبل المغرب عرضه أربعون سنة، لا يغلقه حتى تطلع الشمس من مغربها.

وقد ذكر أهل المغازي – منهم ابن إسحاق – أن النبي ﷺ قال في الخندق: «الآن نغزوهم ولا يغزونا»، فما غزت قريش ولا غطفان ولا اليهود المسلمين بعدها: بل غزاهم المسلمون: ففتحوا خيبر ثم فتحوا مكة.

كذلك – إن شاء الله – هؤلاء الأحزاب من المغول وأصناف الترك ومن الفرس والمستعربة والنصارى، ونحوهم من أصناف الخارجين عن شريعة الإسلام: الآن نغزوهم ولا يغزوننا. ويتوب الله على من يشاء من المسلمين الذين خالط قلوبهم مرض أو نفاق، بأن ينيبوا إلى ربهم ويحسن ظنهم بالإسلام وتقوى عزيمتهم على جهاد عدوهم. فقد أراهم الله من الآيات ما فيه عبرة لأولي الأبصار كما قال: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ الأحزاب: ٢٥

فإن الله صرف الأحزاب عام الخندق بما أرسل عليهم من ريح الصبا: ريح شديدة باردة، وبما فرق به بين قلوبهم، حتى شتت شملهم، ولم ينالوا خيراً، إذ كان همهم فتح المدينة والاستيلاء عليها وعلى الرسول والصحابة، كما كان هم هذا العدو فتح الشام والاستيلاء على من بها من المسلمين فردهم الله بغيظهم، حيث أصابهم من الثلج العظيم والبرد الشديد والريح العاصف والجوع المزعج ما الله به عليم. وقد كان بعض الناس يكره تلك الثلوج والأمطار العظيمة التي وقعت في هذا العام، حتى طلبوا الاستصحاء غير مرة، وكنا نقول لهم: هذا فيه خيرة عظيمة، وفيه لله حكمة وسر فلا تكرهوه. فكان من حكمته: أنه فيما قيل: أصاب قازان وجنوده حتى أهلكهم، وهو كان فيما قيل: سبب رحيلهم، وابتلي به المسلمون ليتبين من يصبر على أمر الله، وحكمة ممن يفر عن طاعته وجهاد عدوه، وكان مبدأ رحيل قازان فيمن معه من أرض الشام وأراضي حلب: يوم الإثنين حادي عشر جمادى الأولى، يوم دخلت مصر عقيب العسكر، واجتمعت بالسلطان وأمراء المسلمين. وألقى الله في قلوبهم من الاهتمام بالجهاد ما ألقاه.

فلما ثبت الله قلوب المسلمين، صرف العدو جزاءً منه وبياناً أن النية الخالصة والهمة الصادقة ينصر الله بها، وإن لم يقع الفعل وإن تباعدت الديار، وذكر أن الله فرق بين قلوب هؤلاء المغول والكرج وألقى بينهم تباغضاً وتعادياً، كما ألقى سبحانه عام الأحزاب بين قريش وغطفان وبين اليهود، كما ذكر ذلك أهل المغازي، فإنه لم يتسع هذا المكان لأن نصف فيه قصة الخندق، بل من طالعها علم صحة ذلك كما ذكره أهل المغازي: مثل عروة بن الزبير والزهري وموسى بن عقبة وسعيد بن يحيى الأموي ومحمد بن عائذ ومحمد بن إسحاق والواقدي وغيرهم.

ثم تبقى بالشام منهم بقايا سار إليهم من عسكر دمشق أكثرهم مضافاً إلى عسكر حماه وحلب وما هنالك، وثبت المسلمون بإزائهم، وكانوا أكثر من المسلمين بكثير؛ لكن في ضعف شديد وتقربوا إلى حماه وأذلهم الله تعالى، فلم يقدموا على المسلمين قط، وصار من المسلمين من يريد الإقدام عليهم فلم يوافقه غيره، فجرت مناوشات صغار كما جرى في غزوة الخندق، حيث قتل علي بن أبي طالب ﷺ فيها عمرو بن عبد ود العامري، لما اقتحم الخندق هو ونفر قليل من المشركين، كذلك صار يتقرب بعض العدو فيكسرهم المسلمون، مع كون العدو المتقرب أضعاف من قد سرى إليه من المسلمين. وما من مرة إلا وقد كان المسلمون مستظهرين عليهم، وساق المسلمون خلفهم في آخر النوبات، فلم يدركوهم إلا عند عبور الفرات، وبعضهم في جزيرة فيها، فرأوا أوائل المسلمين فهربوا منهم وخالطوهم؛ وأصاب المسلمون بعضهم، وقيل: إنه غرق بعضهم.

وكان عبورهم وخلو الشام منهم في أوائل رجب بعد أن جرى – ما بين عبور قازان أولاً وهذا العبور – رجفات ووقعات صغار وعزمنا على الذهاب إلى حماه غير مرة لأجل الغزاة؛ لما بلغنا أن المسلمين يريدون غزو الذين بقوا، وثبت بإزائهم المقدم الذي بحماه ومن معهم من العسكر ومن أتاه من دمشق، وعزموا على لقائهم، نالوا أجراً عظيماً، وقد قيل: إنهم كانوا عدة كمائات: إما ثلاثة أو أربعة.

فكان من المقدر: أنه إذا عزم الأمر وصدق المؤمنون الله يلقي في قلوب عدوهم الرعب، فيهربون لكن أصابوا من البليدات بالشمال مثل (تيزين) و(القوعة) و(معرة مصرين) وغيرها ما لم يكونوا وطئوه في العام الماضي، وقيل: إن كثيراً من تلك البلاد كان فيهم ميل إليهم؛ بسبب الرفض وأن عند بعضهم فرامين منهم؛ لكن هؤلاء ظلمة ومن أعان ظالماً بلي به، والله تعالى يقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩]، وقد ظاهروهم على المسلمين: الذين كفروا من أهل الكتاب من أهل (سيس) والإفرنج، فنحن نرجو من الله أن ينزلهم من صياصيهم، وهي الحصون - ويقال للقرون: الصياصي - ويقذف في قلوبهم الرعب، وقد فتح الله تلك البلاد، ونغزوهم إن شاء الله تعالى، فتفتح أرض العراق وغيرها وتعلو كلمة الله ويظهر دينه.

فإن هذه الحادثة كان فيها أمور عظيمة جاوزت حد القياس، وخرجت عن سنن العادة، وظهر لكل ذي عقل من تأييد الله لهذا الدين، وعنايته بهذه الأمة، وحفظه للأرض التي بارك فيها للعالمين - بعد أن كاد الإسلام أن يتثلم وكر العدو كرة فلم يلو عن، وخذل الناصرون فلم يلووا على، وتحير السائرون فلم يدروا من...، ولا إلى...، وانقطعت الأسباب الظاهرة، وأهطعت الأحزاب القاهرة، وانصرفت الفئة الناصرة، وتخاذلت القلوب المتناصرة، وثبتت الفئة الناصرة، وأيقنت بالنصر القلوب الطاهرة، واستنجزت من الله وعده العصابة المنصورة الظاهرة، ففتح الله أبواب سمواته لجنوده القاهرة، وأظهر على الحق آياته الباهرة، وأقام عمود الكتاب بعد ميله، وثبت لواء الدين بقوته وحوله، وأرغم معاطس أهل الكفر والنفاق، وجعل ذلك آية للمؤمنين إلى يوم التلاق، فالله يتم هذه النعمة بجمع قلوب أهل الإيمان على جهاد أهل الطغيان، ويجعل هذه المنة الجسيمة مبدأ لكل منحة كريمة وأساساً لإقامة الدعوة النبوية القويمة، ويشفي صدور المؤمنين من أعاديهم، ويمكنهم من دانيهم وقاصيهم.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً.

قال الشيخ رحمه الله:

كتبت أول هذا الكتاب بعد رحيل قازان وجنوده، لما رجعت من مصر في جمادى الآخرة، وأشاعوا أنه لم يبق منهم أحد، ثم لما بقيت تلك الطائفة اشتغلنا بالاهتمام بجهادهم وقصد الذهاب إلى إخواننا بحماه، وتحريض الأمراء على ذلك، حتى جاءنا الخبر بانصراف المتبقين منهم، فكتبته في رجب والله أعلم.

والحمد لله وحده، وصلى الله على أشرف الخلق محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين. انتهى

العدل الثاني أساس النصر والتمكين: وأما الملك الناصر محمد بن قلاوون فإن عوده إلى الديار المصرية كان يوم الأربعاء ١٢ ربيع الآخر وتبعته العساكر المصرية والشامية متفرقين. وتهيأ السلطان إلى لقاء غازان ثانياً وجهز العساكر وقام بكلفهم أتم قيام على صغر سنه.

بدأ الناصر فور عودته إلى القاهرة بتنظيم الجيش وتجهيزه؛ لأخذ الثأر من المغول. واستدعى صناع السلاح وجُمعت الأموال والخيل والرماح والسيوف من كل أرجاء مصر. ورسم للجنود العائدين بالنفقة فمنحوا أموالاً كثيرة أصلحوا بها حوالهم وجددوا عدتهم وخيولهم. ونودي بحضور الأجناد البطالين ووزعوا على الأمراء. استدعي مجدي الدين عيسى نائب الحسبة؛ ليأخذ فتوى الفقهاء بأخذ المال من الناس للنفقة على الحرب. فأحضر فتوى قديمة كان السلطان قطز قد استخدمها في أخذ دينار من كل شخص قبل معركة عين جالوت. ولكن الشيخ تقي الدين محمد بن دقيق العيد امتنع عن إصدار فتوى بهذا الخصوص قائلاً: "لم يكتب ابن عبد السلام للملك المظفر قطز حتى أحضر سائر الأمراء ما في ملكهم من ذهب وفضة وحلي نسائهم وأولادهم وراه. وحلف كل منهم أنه لا يملك سوى هذا، وكان ذلك ليس بكاف؛ فعند ذلك كتب بأخذ الدينار من كل واحد. وأما الآن فيبلغني أن كلا من

الأمراء له مال جزيل، وفيهم من يجهز بناته بالجواهر واللآلئ، ويعمل الإناء الذي يستنجي منه في الخلاء من فضة، ويرصع مجلس زوجته بأصناف الجواهر". عندئذ تقرر النظر في أموال التجار والأغنياء، وأخذ مايمكن أخذه من كل منهم بحسب قدرة كل واحد. وفرض على كل فرد من التجار والأغنياء من عشرة دنانير إلى مئة دينار، وطلب من أعيان التجار مالاً على سبيل القرض، فجرى جمع مبالغ كبيرة، على الرغم من الشكاليف الباهظة والأعداد الكبيرة من نازحي الشام إلا أن ذلك لم يؤثر كثيراً في اقتصاد مصر، إذ ارتفع سعر السلاح ولكن هبطت أسعار الغذاء ولم يحدث نقص في الأسواق.

خريطة موقع معركتي وادي الخزندار وشقحب بين المماليك والمغول في عهد الناصر محمد بن قلاوون ومحمود غازان

في أثناء ذلك وردت إلى القاهرة أنباء رحيل غازان عن دمشق وإقامة قبجق نائباً عليها، فأرسل الناصر إلى قبجق وبكتمر يدعوهما للولاء له، فاستجابا له. وخرج قبجق من دمشق متوجهاً إلى مصر، فاستولى الأمير أرجواش على دمشق وأعاد الخطبة باسم الملك الناصر بعد انقطاعها مئة يوم.

وسار بيبرس الجاشنكير وسلار إلى دمشق وأرسلا العسكر إلى حلب فقتلوا من كان فيها من أتباع غازان، وفرّ بعضهم إلى غازان وعرّفوه بغدر قبجق به. وأقيم العادل كتبغا نائباً على حماة، وخلع على أرجواش بأنعم عليه، وأقيم قبجق على نيابة الشوبك. وزحفت جنود الناصر على جبل الدروز وألزموا الدروز، بعد أن طلبوا الأمان، بإعادة العتاد والأموال التي نهبوها من الجنود وقت انسحابهم إلى مصر.

اللغة العربية في أروع تواصل بين ملك المغول الدجّال محمود غازان، وبين سلطان الإسلام البطل محمد بن قلاوون.

ووصل الخبر برجوعهم في جمادى الآخرة وقد خلت دمشق وجميع بلاد الشام من سكانها. وفيها في تاسع ذي القعدة وصل إلى القاهرة من حلب الأمير آنس يخبر بحركة التتار وأن التتار قد أرسلوا أمامهم رسلاً وأن رسلهم قد قاربت الفرات، ثم وصلت الرسل المذكورة بعد ذلك بمدة إلى الديار المصرية في ليلة الإثنين خامس عشر ذي الحجة وأعيان القصاد ثلاثة نفر: قاضي الموصل وخطيبها كمال الدين بن بهاء الدين بن كمال الدين بن يونس الشافعي، وآخر عجمي، وآخر تركي.

ولما كان عصر يوم الثلاثاء جمعوا الأمراء والمقدمين إلى القلعة وعملت الخدمة ولبسوا المماليك أفخر الثياب والملابس، وبعد العشاء الأخيرة أوقدوا الشموع نحواً من ألف شمعة ثم أظهروا زينة عظيمة بالقصر ثم أحضروا الرسل وحضر القاضي بجملتهم وعلى رأسه طرحة، فقام وخطب خطبة بليغة وجيزة وذكر آيات كثيرة في معنى الصلح واتفاق الكلمة ورغب فيه، ثم إنه دعا للسلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ومن بعده للسلطان محمود غازان ودعا للمسلمين والأمراء وأدى الرسالة.

ومضمونها: إنما قصدهم الصلح ودفعوا إليهم كتاباً مختوماً من السلطان غازان فأخذ منهم الكتاب ولم يقرؤوه تلك الليلة وأعيد الرسل إلى مكانهم.

فلما كان ليلة الخميس فتح الكتاب وقرئ على السلطان وهو مكتوب بالمغولي وكتم الأمر. فلما كان يوم الخميس ثامن عشر ذي الحجة حضر جميع الأمراء والمقدمين وأكثر العسكر وأخرج إليهم الكتاب وقرئ عليهم وهو مكتوب بخط غليظ في نصف قطع البغدادي ومضمونه:

[بسم الله الرحمن الرحيم،

وتنهي بعد السلام إليه، أن الله عز وجل جعلنا وإياكم أهل ملة واحدة، وشرّفنا بدين الإسلام، وأيدنا وندبنا لإقامة منار، وسددنا وكان بيننا وبينكم ما كان بقضاء الله وقدره وما كان ذلك إلا بما كسبت أيديكم وما الله بظلام للعبيد.

وسبب ذلك أن بعض عساكركم أغاروا على ماردين وبلادها في شهر رمضان المعظم قدره الذي لم تزل الأمم يعظمونه في سائر الأقطار، وفيه تغل الشياطين وتغلق أبواب النيران، فطرقوا البلاد على حين غفلة من أهلها وقتلوا وسبوا وفسقوا وهتكوا محارم الله بسرعة من غير مهلة وأكلوا الحرام وارتكبوا الآثام وفعلوا ما لم تفعله عباد الأصنام، فأتونا أهل ماردين صارخين مستغيثين بالأطفال والحريم وقد استولى عليهم الشقاء بعد النعيم فلاذوا بجنابنا وتعلقوا بأسبابنا ووقفوا موقف المستجير الخائف ببابنا فهزتنا نخوة الكرام وحركتنا حمية الإسلام، فركبنا على الفور بمن كان معنا ولم يسعنا بعد هذا المقام، ودخلنا البلاد وقدمنا النية وعاهدنا الله تعالى على ما يرضيه عند بلوغ الأمنية.

وعلمنا أن الله تعالى لا يرضى لعباده الكفر بأن يسعوا في الأرض فساداً والله لا يحب الفساد، وأنه يغضب لهتك الحريم وسبي الأولاد. فما كان إلا أن لقيناكم بنية صادقة وقلوب على الحمية للدين موافقة، فمزقناكم كل ممزق، والذي ساقنا إليكم هو الذي نصرنا عليكم، وما كان مثلكم إلا كمثل قرية كانت آمنة مطمئنة – الآية – فوليتم الأدبار، واعتصمتم من سيوفنا بالفرار، ففتونا عنكم بعد اقتدار، ورفعنا عنكم حكم السيف البتار، وتقدمنا إلى جيوشنا ألا يسعوا في الأرض كما سعيتم، وأن ينشروا من العفو والعفاف ما طويتم، ولو قدرتم ما عفوتم ولا عففتم، ولم نقلدكم منة بذلك بل حكم الإسلام في قتال البغاة.

كذلك وكان جميع ما جرى في سالف القدم، ومن قبل كونه جرى به في اللوح والقلم، ثم لما رأينا الرعية تضرروا بمقامنا في الشام لمشاركتنا لهم في الشراب والطعام وما حصل في قلوب الرعية من الرعب عند معاينة جيوشنا، التي هي كمطبقات السحب، فأردنا أن نسكن خوفهم بعودتنا من أرضهم بالنصر والتأييد والعلو والمزيد، فتركنا عندهم بعض جيوشنا بحيث تتونس بهم، وتعود في أمرها إليهم ويحرسونهم، من تعدي بعضهم على بعض بحيث إنكم ضاقت بكم الأرض، إلى أن يستقر جأشكم وتبصروا رشدكم، وتسيّروا إلى الشام من يحفظه من أعدائكم المتقدمين، وأكرادكم المتمردين، وتقدمنا إلى مقدمي طوامين جيوشنا أنهم متى سمعوا قدوم أحد منكم إلى الشام أن يعودوا إلينا بسلام، فعادوا إلينا بالنصر المبين، والحمد لله رب العالمين.

والآن، فإنا وإياكم لم نزل على كلمة الإسلام مجتمعين، وما بيننا ما يفرق كلمتنا إلا ما كان من فعلكم بأهل ماردين، وقد أخذنا منكم القصاص وهو جزاء كل عاص، فنرجع الآن في إصلاح الرعايا، ونجتهد نحن وإياكم على العدل في سائر القضايا، فقد تضررت بيننا وبينكم حال البلاد وسكانها، ومنعها الخوف من القرار في أوطانها، وتعذر سفر التجار، وتوقف حال المعايش لانقطاع البضائع والأسفار، ونحن نعلم أننا نسأل عن ذلك

ونحاسب عليه، وأن الله عز وجل لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وأن جميع ما كان وما يكون في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

وأنت تعلم أيها الملك الجليل أنني وأنت مطالبون بالحقير والجليل، وأننا مسؤولون عما جناه أقل من ولداه، وأن مصيرنا إلى الله، وإنا معتقدون الإسلام قولاً وعملاً ونيةً: عاملون بفروضه في كل وصية.

وقد حملنا قاضي القضاة علامة الوقت حجة الإسلام بقية السلف كمال الدين موسى بن محمد أبا عبد الله أعزه الله تعالى مشافهة يعيدها على سمع الملك، والعمدة عليها، فإذا عاد من الملك الجواب فليسيّر لنا هدية الديار المصرية: لتعلم بإرسالها أن قد حصل منكم في إجابتنا للصلح صدق النية، ونهدي إليكم من بلادنا ما يليق أن نهديه إليكم، والسلام الطيب منا عليكم، إن شاء الله تعالى.

فلما سمع الملك الناصر الكتاب استشار الأمراء في ذلك، وبعد أيام طلبوا قاضي الموصل أعني الرسول المقدم ذكره من عند قازان وقالوا له: أنت من أكابر العلماء وخيار المسلمين، وتعلم ما يجب عليك من حقوق الإسلام والنصيحة للدين، فنحن ما نتقاتل إلا لقيام الدين، فإن كان هذا الأمر قد فعلوه حيلة ودهاء فنحن نحلف لك أن ما يطلع على هذا القول أحد من خلق الله تعالى ورغبوه غاية الرغبة، فحلف لهم بما يعتقده أنه ما يعلم من قازان وخواصه غير الصلح وحقن الدماء ورواج التجار ومجيئهم وإصلاح الرعية.

ثم إنه قال لهم: والمصلحة أنكم تتفقون وتبقون على ما أنتم عليه من الاهتمام بعدوكم، وأنتم فلكم عادة في كل سنة تخرجون إلى أطراف بلادكم لأجل حفظها فتخرجون على عادتكم، فإن كان هذا الأمر خديعة فيظهر لكم فتكونون مستيقظين، وإن كان الأمر صحيحاً فتكونون قريبين منهم فينتظم الصلح وتحقن الدماء فيما بينكم.

فلما سمعوا كلامه ورأوا ما فيه من غرض وهو مصلحة، فشرعوا ليعيّنوا من يروح في الرسالة، فيّنوا جماعة منهم الأمير شمس الدين محمد بن التيتي والخطيب شمس الدين الجوزي خطيب جامع ابن طولون فتشفع ابن الجوزي حتى تركوه وعينوا القاضي عماد الدين بن السكري خطيب جامع الحاكم، وهو ناظر دار العدل بالديار المصرية، وشخصاً هو أمير آخور من البرجية.

الحرب النفسية وجواب السلطان المسلم البطل محمد بن قلاوون على افتراءات غازان ملك المغول:

فلما حضر الأمراء قدام السلطان بالخلع السنية وتلك الهيئة الجميلة الحسنة، أدهش عقول الرسل مما رأوا من حسن زي عسكر الديار المصرية بخلاف زي التتار، وأحضروا الرسل في الليل إلى الدهليز إلى بين يدي السلطان، وقد أوقدوا شموعاً كثيرة ومشاعل عديدة وفوانيس وأشياء كثيرة من ذلك تتجاوز عن الحد، بحيث إن البرية بقيت حمراء تتلهب نوراً وناراً، فتحدثوا معهم ساعة ثم أعطوهم جواب الكتاب وخلعوا عليهم خلع السفر، وأعطوا لكل واحد من الرسل عشرة آلاف درهم وقماشاً وغير ذلك، ونسخة الكتاب المسير إليهم صورته:

[بسم الله الرحمن الرحيم،

علمنا ما أشار الملك إليه، وعوّل في قوله وفعله عليه، فأما قول الملك: قد جمعتنا وإياكم كلمة الإسلام! وأنه لم يطرق بلادنا ولا قصدها إلا لما سبق به القضاء المحتوم، فهذا الأمر غير مجهول بل هو عندنا معلوم، وأن السبب في ذلك غارة بعض جيوشنا على ماردين، وأنهم قتلوا وسبوا وهتكوا الحريم، وفعلوا فعل من لا له دين، فالملك يعلم أن غارتنا ما برحت في بلادكم مستمرة من عهد آبائكم وأجدادكم، وأن من فعل ما فعل من الفساد لم يكن

برآينا ولا من أمرائنا ولا الأجناد، بل من الأطراف الطامعة ممن لا يُؤبه إليه، ولا يعوّل في فعل ولا قول عليه، وأن معظم جيشنا كان في تلك الغارة إذا لم يجدوا ما يشترونه للقوت صاموا، لئلا يأكلوا ما فيه شبهة أو حرام، وأنهم أكثر ليلهم سجداً وأكثر نهارهم صياماً.

وأما قول الملك بن الملك الذي هو من أعظم القان، فيقول قولاً يقع عليه الرد من قريب، ويزعم أن جميع ما هو عليه من علمنا ساعة واحدة يغيب، ولو يعلم أنه لو تقلب في مضجعه من جانب إلى جانب، أو خرج من منزله راجلاً أو راكباً، كان عندنا علم من ذلك في الوقت القريب، أو يتحقق أن أقرب بطانته إليه هو العين لنا عليه وإن كثر ذلك لديه. ونحن تحققنا أن الملك بقي عامين يجمع الجموع وينتصر بالتابع والمتبوع، وحشد وجمع من كل بلد واعتضد بالنصارى والكرج والأرمن، واستنجد بكل من ركب فرساً من فصيح وألكن، وطلب من المسومات خيولاً وركاباً وكثّر سواداً وعدّد أطلاباً، ثم إنه لما رأى أنه ليس له بجيشنا قبل في المجال، عاد إلى قول الزور والمحال، والتخديعة والاحتيال، وتظاهر بدين الإسلام واشتهر به في الخاص والعام والباطن، بخلاف ذلك حتى ظن جيوشنا وبطالنا أن الأمر كذلك، فلما التقينا معه كان معظم جيشنا يمتنع من قتاله ويبعد عن نزاله ويقول: "لا يجوز لنا قتال المسلمين ولا يحل قتل من يتظاهر بهذا الدين"! فلهذا حصل منهم الفشل، وبتأخرهم عن قتالكم حصل ما حصل، وأنت تعلم أن الدائرة كانت عليك.

وليس يرى من أصحابك إلا من هو نادم أو باكٍ، أو فاقد عزيزاً عنده أو شاكٍ، والحرب سجال: يوم لك ويوم عليك، وليس ذلك مما تعاب به الجيوش ولا تقهر، وهذا بقضاء الله وقدره المقدر.

وأما قول الملك إنه لما التقى بجيشنا مزّقهم كل ممزق، فمثل هذا القول ما كان يليق بالملك أن يقوله أو يتكلم به، وهو يعلم وإن كان ما رأى بل يسأل كبراء دولته وأمراء عساكره عن وقائع جيوشنا، ومراتع سيوفنا من رقاب آبائه وأجداده، وهي إلى الآن تقطر من دمائهم، وإن كنتَ نصرتَ مرة فقد كسرت آباؤك مراراً، وإن كان جيشك قد داس أرضنا مرة، فبلادكم لغارتنا مقام ولجيوشنا قرار، وكما تدين تدان.

وأما قول الملك: إنه ومن معه اعتقدوا الإسلام قولاً وفعلاً وعملاً ونية، فهذا الذي فعلته ما فعله من هو متوجه إلى هذه البنية أعني الكعبة المضية، فإن الذي جرى بظاهر دمشق وجبل الصالحية ليس بخفيّ عنك ولا مكتوم، وليس هذا هو فعل المسلمين، ولا من هو متمسك بهذا الدين، فأين وكيف وما الحجة! وحرم البيت المقدس تشرب فيه الخمور، وتهتك الستور، وتقتض البكور، ويقتل فيه المجاورون، ويستأسر خطباؤه أو المؤذنون، ثم على رأس خليل الرحمن تعلق الصلبان وتهتك النسوان، ويدخل فيه الكافر سكران، فإن كان هذا عن علمك ورضاك، فواخيبتك في دنياك وأخراك، ويا ويلك في مبدئك ومعادك، وعن قليل يؤذن بخراب عمرك وبلادك وهلاك جيشك وأجنادك.

وإن كنت لم تعلم بذلك فقد أعلمناك، فاستدرك ما فات فليس مطلوباً به سواك، وإن كنت كما زعمت أنك على دين الإسلام وأنت في قولك صادق في الكلام وفي عقدك صحيح النظام، فاقتل الطوامين الذين فعلوا هذه الأفعال، وأوقع بهم أعظم النكال، لتعلم أنك على بيضاء المحجّة، وكان فعلك وقولك أبلغ حجة. ولما وصلت جيوشنا إلى القاهرة المحروسة وتحققوا أنكم تظاهرتم بكلمة الإخلاص، وخدعتم باليمين والإيمان، وانتصرتم على قتالهم بعبدة الصلبان، اجتمعوا وتأهبوا وخرجوا بعزمات محمّدية، وقلوب بدرية، وهمم عليّة، عند الله مرضيّة، وجدّوا المسير في البلاد ليتشفوا منكم غليل الصدور والأكباد، فما وسع جيشكم إلا الفرار، وما كان لهم على اللقاء صبر ولا قرار، فاندفعت عساكرنا المنصورة مثل أمواج البحر الزخار إلى الشام، يقصدون دخول بلادكم ليظفروا بنيل المرام، فخشينا على رعيتكم تهللك، وأنتم تهربون ولا تجدون إلى النجاة مسلك، فأمرناهم بالمقام ولزوم الأهبة والاهتمام، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

وأما ما تحمله قاضي القضاة من المشافهة، فإنا سمعناه ووعيناه وتحققنا تضمنته مشافهة، ونحن نعلم علمه ونسكه ودينه وفضله المشهور وزهده في دار الغرور، ولكن قاضي القضاة غريب عنكم بعيد منكم لم يطلع على بواطن قضاياكم وأموركم، ولا يكاد يظهر له خفي مستوركم، فإن كنتم تريدون الصلح والإصلاح وبواطنكم كظواهركم متتابعة في الصلاح، وأنت أيها الملك طالب الصلح على التحقيق، وليس في قولك مين ولا يشوبه تمليق، نقلدك سيف البغي ومن سل سيف البغي قتل به – ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله – فيرسل إلينا من خواص دولتك رجل يكون منكم ممن إذا قطع بأمر وقفتم عنده، أو فصل حكماً انتهيتم إليه، أو جزم أمراً عولتم عليه، يكون له في أول دولتكم حكم وتمكين، وهو فيما يقول عليه ثقة أمين، لنتكلم معه فيما فيه الصلاح لذات البين، وإن لم يكن كذلك عاد بخفي حنين.

وأما ما طلبه الملك من الهدية من الديار المصرية، فليس نبخل عليه ومقداره عندنا أجل مقدار، وجميع ما يهدى إليه دون قدره، وإنما الواجب أن يهدي أولاً من استهدى لتقابل هديته بأضعافها، وتتحقق صدق نيته وإخلاص سريرته، وتفعل ما يكون فيه رضا الله عز وجل، ورضا رسوله في الدنيا والآخرة، لعل صفقتنا رابحة في معادنا غير خاسرة. والله تعالى الموفق للصواب! انتهى.

خديعة الدجّال قازان

ثم في صفر هذا وصل الخبر إلى السلطان بأن قازان على عزم الركوب وقصد الشام، وأن مقدم عساكره الأمير بولاي قد قارب الفرات، وأن الذي أرسله من الرسل خديعة. فعند ذلك شرع السلطان في تجهيز العساكر وتهيأ للخروج إلى البلاد الشامية. ثم في أثناء ذلك ورد على السلطان قاصد الأمير كتبغا المنصوري نائب صرخد – وكتبغا هذا هو الملك العادل المخلوع بالملك المنصور لاجين المقدم ذكرهما – وأخبر أنه وقع بين حماه وحمص وحصن الأكراد برد، وفيه شيء على صورة بني آدم من الذكور والإناث، وصور قرود وغير ذلك. فتعجب السلطان وغيره من ذلك.

ثم في ليلة الجمعة ١٨ جمادى الأولى سنة ٧٠١هـ في وقت السحر: توفي الخليفة أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد بن علي الهاشمي العباسي بمسكنه بالكبش ظاهر القاهرة، وحمل إلى تربته بجوار السيدة نفيسة ودفن بها، بعد أن أوصى بولاية العهد إلى ولده أبي الربيع سليمان: وتقدير عمره فوق العشرين سنة.

وكان السلطان طلبه في أول نهار الجمعة قبل الإشاعة بموت والده، وأشهد عليه أنه ولى الملك الناصر محمد بن قلاوون جميع ما ولاه والده وفوضه إليه، ثم عاد إلى الكبش. فلما فرغت الصلاة على الخليفة رد ولده المذكور وأولاد أخيه من جامع ابن طولون إلى دورهم، ونزل من القلعة خمسة خدام من خدام السلطان وقعدوا على باب الكبش صفة الترسيم عليهم، وسيّر السلطان يستشير قاضي القضاة تقي الدين بن دقيق العيد الشافعي في أمر سليمان المذكور: هل يصلح للخلافة أم لا، فقال: نعم يصلح وأثنى عليه.

وبقي الأمر موقوفاً إلى يوم يوم الخميس رابع عشرين جمادى الأولى المذكور. فلما كان بكرة النهار المذكور طلب سليمان إلى القلعة، فطلع هو وأولاد أخيه بسبب المبايعة، فأمضى السلطان ما عهد إليه والده للمذكور بعد فصول وأمور يطول شرحها بينه وبين أولاد أخيه، وجلس السلطان وخلع على أبي الربيع سليمان هذا خلعة الخلافة، ونُعت بالمستكفي وهي جبة سوداء وطرحة سوداء، وخلع على أولاد أخيه خلع الأمراء الأكابر خلعاً ملوكية.

وبعد ذلك بايعه السلطان والأمراء والقضاة والمقدمون وأعيان الدولة ومدوا السماط على العادة. ثم رسم له السلطان بنزوله إلى الكبش وأجرى راتبه الذي كان مقرراً لوالده وزيادة، ونزلوا إلى الكبش وأقاموا به إلى يوم

الخميس مستهل جمادى الآخرة، إذ حضر من عند السلطان المهمندار ومعه جماعة وصحبتهم جمال كثيرة، فنقلوا الخليفة وأهلا. أخيه ونساءهم وجميع من يلوذ بهم إلى قلعة الجبل وأنزلوهم بالقلعة في دارين: الواحدة تسمى بالصالحية والأخرى بالظاهرية، وأجروا عليهم الرواتب المقررة لهم.

وكان في يوم الجمعة ثاني يوم المبايعة خطب بمصر والقاهرة للمستكفي هذا، ورسم بضرب اسمه على سكة الدينار والدرهم! انتهى.

في جمادى الآخرة عام ٧٠٢هـ-١٣٠٣م:

وصلت أخبار من حلب بأن جيش المغول أوشك على الزحف على الشام مرة أخرى. فخرج جيش الناصر بجيش مصر، وانضم إليه عسكر الشام، والتقى الجمعان في ٢ رمضان سنة ٧٠٢هـ - ٢٠ نيسان ١٣٠٣م قرب دمشق، في معركة تعرف باسم معركة "شقحب" أو معركة "مرج الصفر". وفيها أبلى جيش المسلمين بلاءً حسناً، وانتصر فيها على جيش المغول نصراً كبيراً غسل عار هزيمة وادي الخزندار.

في رجب عام ٧٠٢هـ-١٣٠٣م:

قدم البريد إلى القاهرة من حلب بأن غازان على وشك التحرك إلى الشام، فخرج إلى دمشق الأمير بيبرس الجاشنكير على رأس ثلاثة آلاف من الأجناد.

وأرسل غازان قائده ونائبه قطلوشاه إلى الشام بجيش قوامه ٨٠ ألف مقاتل. ولما عرف قطلوشاه أن الناصر لم يخرج من مصر بعد، وأن ليس بالشام غير العسكر الشامي، توجه تواً إلى حماه.

انتصار المسلمين على التحالف الثلاثي: الأرمنيّ - الصليبيّ - المغوليّ:

١. **هاجم جيش من المسلمين بلاد الأرمن (حليف المغول والصليبيين).**
وتوجهوا إلى بلاد سيس، وأحرقوا الزروع ونهبوا ما قدروا عليه، وحاصروا مدينة سيس وغنموا من سفح قلعتها شيئاً كثيراً من جمال الأرمن، وعادوا من الدربند إلى مرج أنطاكيا. ثم قدموا في تاسع عشر ذي القعدة.

٢. **إنشاء أسطول بحري ومهاجمة قاعدة الصليبيين في أرواد.**
ثم ورد الخبر على السلطان من طرابلس أن الفرنج أنشؤوا جزيرة تجاه طرابلس تعرف بجزيرة أرواد وعمّروها بالعدد والآلات وكثر فيها جمعهم وصاروا يركبون البحر ويأخذون المراكب.
فرسم السلطان للوزير بعمارة أربعة شوان حربية في محرم سنة ٧٠٢هـ، ففعل ذلك ونجزت عمارة الشواني وجهزت بالمقاتلة وآلات الحرب مع الأمير جمال الدين آقوش الشارني العلائي وإلى البهنسا، واجتمع الناس لمشاهدة لعب الشواني في يوم السبت ١٢ المحرم، ونزل السلطان والأمراء لمشاهدة ذلك، واجتمع من العالم ما لا يحصيه إلا الله تعالى، حتى بلغ كراء المركب التي تحمل عشرة أنفس إلى مئة درهم. وامتلأ البر من بولاق إلى الصناعة حتى لم يوجد موضع قدم، ووقف العسكر على بر بستان الخشاب وركب الأمراء الحراريق إلى الروضة، وبرزت الشواني تجاه المقياس تلعب كأنها في الحرب، فلعب الشيني الأول والثاني والثالث وأعجب الناس إعجاباً زائداً لكثرة ما كان فيها من المقاتلة والنفوط وآلات الحرب، وتقدم الرابع وفيه الأمير آقوش فما هو إلا أنه خرج من الصناعة بمصر وتوسط في النيل إذا بالريح حركته فمال به ميلة واحدة فانقلب وصار أعلاه أسفله، فصرخ الناس صرخة واحدة كادت تسقط منها الحبالى وتكدر ما

كانوا فيه من الصفو، فتلاحق الناس بالشيني وأخرجوا ما سقط منه في الماء، فلم يعدم منه سوى الأمير أقوش وسلم الجميع، فتكدر السلطان والأمراء بسببه وعاد السلطان بأمرائه إلى القلعة وانضم الجمع.

ثم شرع العمل في إعادة الشيني الذي غرق حتى تجز وندب السلطان الأمير سيف الدين كهرداش الزراق المنصوري إلى السفر فيه عوضاً عن أقوش الذي غرق رحمه الله تعالى، وتوجه الجميع إلى طرابلس ثم إلى جزيرة أرواد المذكورة وهي بالقرب من أنطرطوس، فأخربوها وسبوا وغنموا؛ وكان الأسرى منها مئتين وثمانين نفراً، وقدم الخبر بذلك إلى السلطان فسر وسر الناس قاطبة ودقت البشائر لذلك أياماً.

هجوم التحالف المغولي (احمر) الصليبي (اخضر) الأرمني (ازرق) واندحارهم امام المسلمين في شقحب (١٣٠٠-١٣٠١)

٣. خروج أمة الإسلام لقتال التتار في ملحمة شقحب في رمضان ٧٠٢هـ.

ثم بعد ذلك بأيام ورد الخبر من حلب أن قازان عزم الحركة إلى الشام. فوقع الاتفاق على خروج العساكر من الديار المصرية إلى الشام، وعين من الأمراء الأمير بيبرس الجاشنكير وطغريل الإيغاني وكراي المنصوري وحسام الدين لاجين أستادار بمضافيهم وثلاثة آلاف من الأجناد، وساروا من مصر في ثامن عشر شهر رجب وتواترت الأخبار بنزول قازان على الفرات ووصل عسكره إلى الرحبة، وبعث أمامه قطلوشاه من أصحابه على عساكر عظيمة إلى الشام تبلغ ثمانين ألفاً، وكتب إلى الأمير عز الدين أيبك الأفرم نائب الشام يرغبه في طاعته.

ودخل الأمير بيبرس الجاشنكير بمن معه إلى دمشق في نصف شعبان وليث يستحث السلطان على الخروج، وأقبل الناس من حلب وحماه إلى دمشق جافلين من التتار، فاستعد أهل دمشق للفرار ولم يبق لا خروجهم، فنودي بدمشق: من خرج منها حلّ ماله وعمه.

انتصار الطلائع الإسلامية على طليعة التتار:

وخرج الأمير بهادر آص والأمير قطلوبك المنصوري وأنس الجمدار في عسكر إلى حماه، ولحق بهم عساكر طرابلس وحمص فاجتمعوا على حماه عند نائبها الملك العادل كتبغا المنصوري. وبلغ التتار ذلك فبعثوا طائفة كثيرة إلى القريتين فأوقعوا بالتركمان. فتوجه إليهم أسندمر كرجي نائب طرابلس وبهادر آص وكجكن وعرلوا العادلي وتمر الساقي وأنص الجمدار ومحمد بن قرا سنقر في ١٥٠٠ فارس، فطرقوهم بمنزلة عرض في ١١ شعبان على غفلة، فافترقوا عليهما أربع فرق وقاتلوهم قتالاً شديداً من نصف النهار إلى العصر حتى كسروهم وأفنوهم — وكانوا التتار فيما يقال ٤ آلاف – واستنقذوا التركمان وحريمهم وأولادهم من أيدي التتار وهم نحو ٦ آلاف أسير. ولم يفقد من العسكر الإسلامي إلا الأمير أنص الجمدار المنصوري ومحمد بن باشقرد الناصري وستة وخمسون من الأجناد، وعاد من انهزم من التتار إلى قطلوشاه، وأسر العسكر المصري ٢٨٠ من التتار وكتب إلى السلطان بذلك ودقت البشائر بدمشق.

مقدم التتار: ففي شهر رجب من سنة ٧٠٢هـ قويت الأخبار بعزم التتار على دخول بلاد الشام، فانزعج الناس لذلك، واشتد خوفهم جداً كما يقول الحافظ ابن كثير، وقنت الخطيب في الصلوات، وقُرئ صحيح البُخاري، وهذه عادة كانوا يستعملونها في مواجهة الأعداء، فيعمدون إلى قراءته في المسجد الجامع. وشرع الناس في الهرب إلى الديار المصرية والكرك والحصون المنيعة، وتأخر مجيء العساكر المصرية عن إبانها فاشتد لذلك الخوف.

قال ابن كثير: (وفي يوم السبت ١٠ شعبان ضربت البشائر بالقلعة – أي قلعة دمشق – وعلى أبواب الأمراء، وخروج السلطان من مصر لمناجزة التتار المخذولين... وفي ١٨ شعبان قدمت طائفة كبيرة من جيش المصريين، فيهم كبار الأمراء من أمثال ركن الدين بيبرس الجاشنكير وحسام الدين لاجين وسيف الدين كراي). ثم قدمت بعدهم طائفة أخرى فيهم سنجر الدين أمير السلاح وأيبك الخزندار. فقويت القلوب في دمشق، واطمأن كثير من الخلق. ولكنّ الناس في الشمال سيطر عليهم الذعر، واستبدّ بهم الفزع، فنزح عدد عظيم منهم من بلاد حلب وحماه وحمص...

ثم خافوا أن يدهمهم التتار فنزلوا إلى المرج، ووصل التتار إلى حمص وبعلبك وعاثوا في تلك البلاد فساداً، وقلق الناس قلقاً عظيماً لتأخُّر قدوم السلطان ببقية الجيش، وخافوا خوفاً شديداً، وبدأت الأراجيف تنتشر، وشرع المثبِّطون يوهنون عزائم المقاتلين ويقولون: لا طاقة لجيش الشام مع هؤلاء المصريين بلقاء التتار لقلة المسلمين وكثرة التتار. وزيّنوا للناس التراجع والتأخُّر عنهم مرحلة مرحلة. ولكن تأثير العلماء ولاسيما شيخ الإسلام ابن تيمية كان يتصدّى لهؤلاء المرجفين المثبِّطين، حتى استطاعوا أن يقنعوا الأمراء بالتَّصدّي للتتار مهما كان الحال.

خروج الملك الناصر محمد بن قلاوون مع الخليفة المستكفي بالله بالجيوش المصرية: وكان السلطان الملك الناصر محمد قد خرج بعساكره وأمرائه من الديار المصرية إلى جهة البلاد الشامية في ثالث شعبان، وخرج بعده الخليفة المستكفي بالله واستناب السلطان بديار مصر الأمير عز الدين أيبك البغدادي.

وجد قطلوشاه مقدم التتار بالعساكر في المسير حتى نزل قرون حماه في ثالث عشر شعبان، فاندفعت العساكر المصرية التي كانت بحماه بين يديه إلى دمشق، وركب نائب حماه الأمير كتبغا (الذي كان تسلطن وتلقب بالملك العادل في محفة لضعفه)، واجتمع الجميع بدمشق واختلف رأيهم في الخروج إلى لقاء العدو أو انتظار قدوم السلطان، ثم خشوا من مفاجأة العدو فنادوا بالرحيل وركبوا في أول شهر رمضان من دمشق، فاضطربت دمشق بأهلها وأخذوا في الرحيل منها على وجوههم واشتروا الحمار بست مئة درهم والجمل بألف درهم، وترك كثير منهم حريمه وأولاده ونجا بنفسه إلى القلعة، فلم يبت الليل إلا وبوادر التتار في سائر نواحي المدينة.

شيخ الإسلام ابن تيمية يحرض المؤمنين على القتال: واجتمع الأمراء وتعاهدوا وتحالفوا على لقاء العدوّ وشجّعوا رعاياهم، ونودي بالبلد دمشق أن لا يرحل منه أحد، فسكن الناس وهدأت نفوسهم وجلس القضاة بالجامع يحلّفون جمعة من الفقهاء والعامّة على القتال، وتوقّدت الحماسة الشعبية، وارتفعت الروح المعنوية عند العامة والجند. وكان لشيخ الإسلام ابن تيمية أعظم التأثير في ذلك الموقف، فقد عمل على تهدئة النفوس، حتى كان الاستقرار الداخلي عند الناس والشعور بالأمن ورباطة الجأش. ثم عمل على إلهاب عواطف الأمة وإذكاء حماستها وتهيئتها لخوض معركة الخلاص... ثمّ توجّه ابن تيمية بعد ذلك إلى العسكر الواصل من حماه فاجتمع بهم في القطيفة، فأعلمهم بما تحالف عليه الأمراء والناس من لقاء العدو، فأجابوا إلى ذلك وحلفوا معهم.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يحلف للأمراء والناس: إنكم في هذه الكرّة منصورون، فيقول له الأمراء: قل إن شاء الله، فيقول: إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً. وكان يتأوّل في ذلك أشياء من كتاب الله منها قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ (الحج: ٦٠).

وقد ظهرت عند بعضهم شبهات تفتُّ في عضد المحاربين للتتار من نحو قولهم: كيف نقاتل هؤلاء التتار، وهم يظهرون الإسلام وليسوا بُغاة على الإمام... فإنهم لم يكونوا في طاعته في وقت ثم خالفوه؟

فردّ شيخ الإسلام ابن تيمية هذه الشُبهة قائلاً: هؤلاء من جنس الخوارج الذين خرجوا على عليٍّ ومعاوية رضي الله عنهما، ورأوا أنهم أحقُّ بالأمر منهما، وهؤلاء يزعمون أنهم أحقّ بإقامة الحقّ من المسلمين، وهم متلبِّسون بالمعاصي والظُلْم. فانجلى الموقف وزالت الشبهة وتفطّن العلماء والناس لذلك، ومضى يؤكّد لهم هذا الموقف قائلاً: "إذا رأيتموني في ذلك الجانب - يريد جانب العدوّ - وعلى رأسي مصحف فاقتلوني. فتشجّع الناس في قتال التتار وقويت قلوبهم".

وامتلأت قلعة دمشق والبلد بالناس الوافدين، وازدحمت المنازل والطرق. وخرج الشيخ تقي الدين بن تيمية من دمشق صبيحة يوم الخميس من باب النصر بعشقة كبيرة، وصَحِبَتْهُ جماعة كبيرة يشهد القتال بنفسه ويمن معه فظنّ بعض الرعاع أنه خارج للفرار، فقالوا: أنت منعتنا من الجفل وها أنت ذا هارب من البلد... فلم يردّ عليهم إعراضاً عنهم وتواضعاً لله، ومضى في طريقه إلى ميدان المعركة.

وخرجت العساكر الشامية إلى ناحية قرية الكسوة. ووصل التتار إلى قازة. وقيل: إنهم وصلوا إلى القطيفة فانزعج الناس لذلك، وخافوا أن تكون العساكر قد هربوا، وانقطعت الآمال، والحّ الناس في الدعاء والابتهال في الصلوات وفي كلّ حال. وذلك في يوم الخميس التاسع والعشرين من شعبان... فلمّا كان آخر هذا اليوم، وصل أحد أمراء دمشق، فبشّر الناس بأنّ السلطان قد وصل وقت اجتماع العساكر المصرية والشامية. وتابع التتار طريقهم من الشمال إلى الجنوب، ولم يدخلوا دمشق بل عرجوا إلى ناحية تجمّع العساكر، ولم يشغلوا أنفسهم باحتلال دمشق وقالوا: إن غلبنا فإنّ البلد لنا وإن غُلبنا فلا حاجة لنا به.

ووقفت العساكر قريباً من قرية الكسوة، فجاء العسكر الشامي، وطلبوا من شيخ الإسلام أن يسير إلى السلطان يستحثّه على السير إلى دمشق، فسارَ إليه، فحثّه على المجيء إلى دمشق بعد أن كاد يرجع إلى مصر. فجاء وإيّاه جميعاً، فسأله السلطان أن يقف معه في معركة القتال، فقال له الشيخ ابن تيمية: السُنّةُ أن يقف الرجُلُ تحت راية قومه، ونحن من جيش الشام لا نقف إلاّ معهم.

وحرّض السلطان على القتال، وبشّره بالنصر، وجعل يحلف بالله الذي لا إله إلاّ هو: إنّكم منصورون عليهم في هذه المرّة. فيقول له الأمراء: قل إن شاء الله. فيقول: إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً. وأفتى الناسَ بالفطر مدّة قتاله، وأفطر هو أيضاً، وكان يدور على الأجناد والأمراء فيأكل من شيء معه في يده ليعلمهم أنّ إفطارهم ليتقوّوا به على القتال أفضل من صيامهم.

ولقد نظّم المسلمون جيشهم في يوم السبت ٢ رمضان أحسن تنظيم، في سهل شقحب الذي يشرف على جبل غباغب. وكان السلطان الناصر في القلب، ومعه الخليفة المستكفي بالله والقضاة والأمراء. وقبل بدء القتال اتُّخذت الاحتياطات اللازمة، فمرّ السلطان ومعه الخليفة والقرّاء بين صفوف جيشه، بقصد تشجيعهم على القتال وبثّ روح الحماسة فيهم. وكانوا يقرؤون آيات القرآن التي تحضُّ على الجهاد والاستشهاد، وكان الخليفة يقول (**دافعوا عن دينكم وعن حريمكم**).

الإلحاح بالدعاء وقراءة القرآن في المعركة: وسار العسكر مُخفّاً، وبات الناس بدمشق في الجامع يضجون بالدعاء إلى الله تعالى، فلما أصبحوا رحل التتار عن دمشق بعد أن نزلوا بالغوطة. وبلغ الأمراء قدوم السلطان فتوجهوا إليه من مرج راهط فلقوه على عقبة الشحورا في يوم السبت ٢ رمضان وقبلوا له الأرض.

ثم ورد عند لقائهم به الخبر بوصول التتار في ٥٠ ألفاً مع قطلوشاه نائب غازان، فلبس العسكر بأجمعه السلاح، واتفقوا على قتال التتار بشقحب (تحت جبل غباغب) وكان قطلوشاه قد وقف على أعلى النهر فصفت العساكر الإسلامية: فوقف السلطان في القلب وبجانبه الخليفة والأمير سلار النائب والأمير بيبرس الجاشنكير وعز الدين أيبك الخازندار وبكتمر الجوكندار وآقوش الأفرم نائب الشام والأمير برلغي والأمير أيبك الحموي وبكتمر الأبو بكري وقطلوبك ونوغاي السلاح دار ومبارز الدين أمير شكار ويعقوبا الشهرزوري ومبارز الدين أولبا بن قرمان، ووقف في الجناح الأيمن الأمير قبجق بعساكر حماه والعربان وجماعة كثيرة من الأمراء، ووقف في الميسرة الأمير بدر الدين بكتاش الفخري أمير سلاح، والأمير قرا سنقر نائب حلب بعساكرها، والأمير بتخاص نائب صفد بعساكرها والأمير طغريل الإيغاني وبكتمر السلاح دار وبيبرس الدوادار بمضافيهم.

ومشى السلطان على التتار والخليفة بجانبه، ومعهما القراء يتلون القرآن ويحثون على الجهاد ويشوقون إلى الجنة، وصار الخليفة يقول: "يا مجاهدون، لا تنظروا إلى سلطانكم، قاتلوا عن دين نبيكم ﷺ، وعن حريمكم!" والناس في بكاء شديد ومنهم من سقط عن فرسه إلى الأرض! وتواصى بيبرس وسلار على الثبات في الجهاد. وكل ذلك والسلطان والخليفة يكران في العساكر يميناً وشمالاً. ثم عاد السلطان والخليفة إلى مواقفهما، ووقف خلفه الغلمان والأحمال والعساكر صفاً واحداً، وقال لهم: (من خرج من الأجناد عن المصاف فاقتلوه ولكم سلبه).

وحمي وطيس المعركة: فلما تم الترتيب، زحفت كراديس التتار كقطع الليل، وكان ذلك وقت الظهر من يوم السبت ١٢ رمضان المذكور.

وأقبل قطلوشاه لقائد جيوش المغول بمن معه من الطوامين وحملوا على الميمنة فثبتت لهم الميمنة، وقاتلوهم أشد قتال، حتى قتل من أعيان الميمنة الأمير حسام الدين لاجين الأستادار وأولبا بن قرمان والأمير سنقر الكافوري والأمير أيدمر الشمسي القشاش والأمير آقوش الشمسي الحاجب وحسام الدين علي بن باخل، ونحو الألف فارس، كل ذلك وهم في مقابلة العدو والقتال عمال بينهم.

فلما وقع ذلك أدركتهم الأمراء من القلب ومن الميسرة، وصاح سلار: "هلك، والله، أهل الإسلام!" وصرخ في بيبرس الجاشنكير وفي البرجية، فأتوه دفعة واحدة، فأخذهم وصدم بهم العدو وقصد مقدم التتار قطلوشاه وتقدم عن الميمنة حتى أخذت الميمنة راحة، وأبلى سلار في ذلك اليوم هو وبيبرس الجاشنكير بلاء حسناً وسلموا نفوسهم إلى الموت. فلما رأى باقي الأمراء منهم ذلك، ألقوا نفوسهم إلى الموت واقتحموا القتال، وكانت لسلار والجاشنكير في ذلك اليوم اليد البيضاء على المسلمين – رحمهما الله تعالى – واستمروا في القتال إلى أن كشفوا التتار عن المسلمين.

وكان جوبان وقرمجي، وهما من طوامين التتار، قد ساقا تقوية ليولاي لقائد الفرقة المغولية) وهو خلف المسلمين فلما عاينوا الكسرة على قطلوشاه، أتوه نجدة ووقفوا في وجه سلار وبيبرس، فخرج من عسكر السلطان سندمر والأمير قطلوبك والأمير قبجق والمماليك السلطانية، وأردفوا سلار وبيبرس وقاتلوا أشد قتال حتى أزاحوهم عن مواقفهم، فمالت التتار على الأمير برلغي في موقفه فتوجه الجماعة المذكورون إلى برلغي واستمر القتال بينهم.

وأما سلار، فإنه قصد قطلوشاه مقدم التتار وصدمه بمن معه وتقاتلا وثبت كل منهما. وبالنسبة إلى الميمنة، فإنه لما قتل الأمراء منها، انهزم من كان معهم ومرت التتار خلفهم، فجفل الناس وظنوا أنها كسرة، وأقبل السواد الأعظم على الخزائن السلطانية فكسروها ونهبوا ما فيها من الأموال، وجفل النساء والأطفال، وكانوا قد خرجوا من دمشق عند خروج الأمراء منها، وكشف النساء عن وجوههن وأسبلن الشعور، وضج ذلك الجمع العظيم بالدعاء، وقد كادت العقول تطيش وتذهب عند مشاهدة الهزيمة! واستمر القتال بين التتار والمسلمين إلى أن وقف كل من الطائفتين.

معركة جبل غباغب: ومال قطلوشاه بمن معه إلى جبل قريب منه، وصعد عليه وفي نفسه أنه انتصر وأن بولاي في أثر المنهزمين من المسلمين. فلما صعد الجبل رأى السهل والوعر كله عساكر والميسرة السلطانية ثبتة وأعلامها تخفق، فبهت قطلوشاه وتحير وتسمّر بموضعه، حتى كمل معه جمعه وأتاه من كان خلف المنهزمين من الميمنة السلطانية ومعهم عدة من المسلمين قد أسروهم، منهم: الأمير عز الدين أيدمر نقيب المماليك السلطانية، فأحضره قطلوشاه وسأله: "من أين أنت؟". فقال: "من أمراء مصر" وأخبره بقدوم السلطان. وكان قطلوشاه ليس له علم بقدوم السلطان بعساكر مصر إلا ذلك الوقت. فعند ذلك جمع قطلوشاه أصحابه وشاورهم فيما يفعل، وإذا بكوسات السلطان واليوقات قد زحفت وأزعجت الأرض وأرجفت القلوب بحسها، فلم يثبت بولاي وخرج من تجاه قطلوشاه في نحو ٢٠ ألفاً من التتار ونزل من الجبل بعد المغرب ومر هارباً.

وبات السلطان وسائر عساكره على ظهور الخيل والطبول تضرب وتلاحق بهم من كان قد انهزم شيئاً بعد شيء، وهم يقصدون ضرب الطبول السلطانية والكوسات. وأحاط عسكر السلطان بالجبل الذي بات عليه التتار، وصار بيبرس وسلار وقبجق والأمراء والأكابر في طول الليل داثرين على الأمراء والأجناد، يوصونهم ويرتبونهم ويؤكدون عليهم في التيقظ. ووقف كل أمير في مصافه مع أصحابه والحمل والأثقال قد وقف على بعد وثبتوا على ذلك حتى ارتفعت الشمس.

وشرع قطلوشاه في ترتيب من معه ونزلوا مشاة وفرساناً وقاتلوا العساكر. فبرزت المماليك السلطانية بمقدميها إلى قطلوشاه وجوبان، وعملوا في قتالهم عملاً عظيماً. فصاروا تارة يرمونهم بالسهام وتارة يواجهونهم بالرماح، واشتغل الأمراء أيضاً بقتال من في جهتهم وصاروا يتناوبون في القتال أميراً بعد أمير. وألحت المماليك السلطانية في القتال، وأظهروا في ذلك اليوم من الشجاعة والفروسية ما لا يوصف، حتى إن بعضهم قتل تحته الثلاثة من الخيل.

قتل التتار النازلين إلى النهر بسبب العطش: وما زال الأمراء على ذلك حتى انتصف نهار الأحد، فصعد قطلوشاه الجبل. وقد قتل من عسكره نحو ثمانين رجلاً وجرح الكثير واشتد عطشهم. واتفق أن بعض من كان أسره التتار هرب ونزل إلى السلطان، وعرفه أن التتار قد أجمعوا على النزول في السحر لمصادمة العساكر السلطانية، وأنهم في شدة من العطش. فاقتضى الرأي أن يفرج لهم عند نزولهم ويركب الجيش أقفيتهم. فلما باتوا على ذلك وأصبحوا نهار الإثنين، ركب التتار في الرابعة من النهار ونزلوا من الجبل فلم يتعرض لهم أحد. وساروا إلى النهر فاقتحموه. فعند ذلك ركبهم بلاء الله من المسلمين، وأيدهم الله تعالى بنصره حتى حصدوا رؤوس التتار عن أبدانهم ووضعوا فيهم السيف ومروا في أثرهم قتلاً وأسراً إلى وقت العصر. وعادوا إلى السلطان، وعرفوه بهذا النصر العظيم، فكتبت البشائر في البطائق وسرحت الطيور بهذا النصر العظيم إلى غزة.

بشائر النصر ومنع المنهزمين من دخول مصر: وكتب إلى غزة بمنع المنهزمين من عساكر السلطان من الدخول إلى مصر، وتتبع من نهب الخزائن السلطانية والاحتفاظ بمن يمسك منهم، وعين السلطان الأمير بدر الدين بكتوت الفتاح للمسير بالبشارة إلى مصر، ثم كتب بهذا الفتح العظيم إلى سائر الأقطار.

ودخل، في يوم الإثنين رابع رمضان، شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية البلد ومعه أصحابه من المجاهدين، ففرح الناس به، ودعوا له وهنؤوه بما يسّر الله على يديه من الخير. ثم ركب السلطان في يوم الإثنين من مكان الواقعة وبات ليلته بالكسوة، وأصبح يوم الثلاثاء وقد خرج إليه أهل دمشق، فسار إليها ومعه الخليفة في عالم عظيم من الفرسان والأعيان والعامة والنساء والصبيان لا يحصيهم إلا الله تعالى، وهم يضجون بالدعاء والثناء والشكر لله سبحانه وتعالى على هذه المنة! وتساقطت عبرات الناس فرحاً ودقت البشائر بسائر الممالك. وكان هذا اليوم يوماً لم يشاهد مثله. وسار السلطان حتى نزل بالقصر الأبلق وقد زينت المدينة.

دخل السلطان إلى دمشق، في يوم الثلاثاء خامس رمضان، وبين يديه الخليفة، وزُيِّنت البلد، وبقيا في دمشق إلى ثالث شوّال إذ عادا إلى الديار المصرية. وكان فرح السلطان الناصر محمد بن قلاوون والمسلمين بهذه المعركة فرحاً كبيراً، ودخل مصر دخول الظافر المنتصر، يتقدّم موكبه الأسرى المغول يحملون في أعناقهم رؤوس زملائهم القتلى، واستُقبل استقبال الفاتحين.

قتل فلول التتار وجواسيسهم: واستمرت الأمراء وبقيت العساكر في طلب التتار إلى الشريتين، وقد كلت جيول التتار وضعفت نفوسهم وألقوا أسلحتهم واستسلموا للقتل، والعساكر تقتلهم بغير مدافعة، حتى إن أراذل العامة والغلمان قتلوا منهم خلقاً كثيراً وغنموا عدة غنائم، وقتل الواحد من العسكر العشرين من التتار فما فوقها، ثم أدركت عربان البلاد التتار وأخذوا في كيدهم: فيجيء منهم الاثنان والثلاثة إلى العدد الكثير من التتار، كأنهم يهدونهم إلى طريق قريبة من مفازة فيوصلونهم إلى البرية ويتركونهم بها فيموتوا عطشاً، ومنهم من دار بهم وأوصلوهم إلى غوطة دمشق فخرجت إليهم عامة دمشق فقتلوا منهم خلقاً كثيراً. ثم تتبعت الحكام النهية وعاقبوا منهم جماعة كثيرة، حتى تحصل أكثر ما نهب من الخزائن ولم يفقد منه إلا القليل. ثم خلع السلطان على الأمراء جميعهم، ثم حضر الأمير برلغي، وقد كان انهزم فلم يأذن له السلطان في الدخول عليه وقال: بأي وجه تدخل علي أو تنظر في وجهي؟! فما زال به الأمراء حتى رضي عنه. ثم قبض على رجل من أمراء حلب، كان قد انتمى إلى التتار وصار يدلهم على الطرقات، فسُمِّر على جمل وشهر بدمشق وضواحيها. واستمر الناس في شهر رمضان كله في مسرات تتجدد، ثم صلى السلطان صلاة عيد الفطر وخرج في ثالث شوال من دمشق يريد الديار المصرية.

ارتفاع ضغط دم غازان ونزفه وإهانة قادة المغول: وأما التتار، فإنه لما قتل أكثرهم ودخل قطلوشاه الفرات في قليل من أصحابه، ووصل خبر كسرته إلى غازان، ووقعت الصرخات في بلادهم وخرج أهل تبريز وغيرها إلى لقائهم واستعلام خبر من فقد منهم حتى علموا ذلك، فقامت النياحة في مدينة تبريز شهرين على القتلى. ثم بلغ الخبر غازان فاغتم غماً عظيماً، وخرج من منخريه دم كثير حتى أشفى على الموت واحتجب عن حواشيه فإنه لم يصل إليه من عساكره من كل عشرة واحد ممن كان انتخبهم من خيار جيشه.

ثم بعد ذلك بمدة، جلس غازان وأوقف قطلوشاه مقدم عساكره وجوبان وسوتاي ومن كان معهم من الأمراء وأنكر على قطلوشاه وأمر بقتله، فما زالوا به حتى عفا عنه وأبعده من قدامه حتى صار على مسافة بعيدة، بحيث يراه وقام إليه وقد مسكه الحجاب سائر من حضر — وهم خلق كثير جداً — وصار كل منهم يبصق في وجهه حتى بصق الجميع، ثم أبعده عنه إلى كيلان ثم ضرب بولاي عدة عصي وأهانه. وفي الجملة، فإنه حصل على غازان بهذه الكسرة من القهر والهم ما لا مزيد عليه. ولله الحمد.

الملك الناصر محمد بن قلاوون يدخل القاهرة منصوراً: وسار السلطان الملك الناصر بعساكره وأمرائه حتى وصل إلى القاهرة ودخلها في يوم ٢٣ شوال... وكان نائب الغيبة قد رسم بزينة القاهرة من باب النصر إلى باب السلسلة من القلعة، وكتب بإحضار سائر مغاني العرب بأعمال الديار المصرية كلها.

وتفاخر الناس في الزينة ونصبوا القلاع، واقتسمت استادارية الأمراء شوارع القاهرة إلى القلعة، وزينوا ما يخص كل واحد منهم وعملوا به قلعة بحيث نودي: من استعمل صانعاً في غير صنعة القلاع كانت عليه جناية للسلطان.

وتحسن سعر الخشب والقصب وآلات النجارة، وتفاخروا في تزيين القلاع المذكورة، وأقبل أهل الريف إلى القاهرة لمشاهدة قدوم السلطان وعلى الزينة، فإن الناس كانوا قد أخرجوا الحلي والجواهر واللآلئ وأنواع الحرير فزينوا بها. ولم ينسلخ شهر رمضان، حتى تهيأ أمر القلاع وعمل ناصر الدين محمد بن الشيخي والي القاهرة قلعة

بباب النصر فيها سائر أنواع الجد والهزل ونصب عدة أحواض ملأها بالسكّر والليمون، وأوقف مماليكه بشربات حتى يسقوا العسكر. وقدم السلطان إلى القاهرة في يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من شوال، وقد خرج الناس إلى لقائه ولمشاهدته، وبلغ كراء البيت الذي يمر عليه السلطان من خمسين درهماً إلى مئة درهم. فلما وصل السلطان إلى باب النصر، ترجل الأمراء كلهم، وأول من ترجل منهم الأمير بدر الدين بكتاش الفخري أمير سلاح، وأخذ يحمل سلاح السلطان، فأمره السلطان أن يركب لكبر سنه ويحمل السلاح خلفه فامتثل ومشى.

وحمل الأمير مبارز الدين سوار الرومي أمير شكار القبة والطير على رأس السلطان، وحمل الأمير بكتمر أمير جاندار العصا، والأمير سنجر الجمقدار الدبوس، ومشى كل أمير في منزلته وفرش كل منهم الشقق من قلعته إلى قلعة غيره التي أنشأها بالشوارع.

استعراض الأسرى ورؤوس قتلى التتار: وكان السلطان إذا تجاوز قلعة، فرشت القلعة المجاورة له الشقق حتى يمشي عليها بفرسه مشياً هيناً من غير هرج بسكون ووقار؛ لأجل مشي الأمراء بين يديه. وكان السلطان كلما رأى قلعة أعجبه، أمسك عن المشي ووقف، حتى يعاينها ويعرف ما اشتملت عليه هو والأمراء حتى يجبر خاطر فاعلها بذلك هذا، والأمراء من التتار بين يديه مقيدون، ورؤوس من قتل منهم معلقة في رقابهم و١٠٠٠ رأس على ١٠٠٠ رمح وعدة الأسرى ١٦٠٠ وفي أعناقهم أيضاً ١٦٠٠ راس، وطبولهم قدامهم مُخرّقة. وكانت القلاع التي نصبت ٧٠ قلعة. بعد موقعة شقحب المباركة هذه، لم تقم للمغول ولا للصليبيين ولا للأرمن قائمة.

ولصفيّ الدين الحلي مديح للسلطان محمد بن قلاوون في مقارعته المغول والانتصار عليهم:

لا يمتطي المجد من لم يركب الخطرا	ولا ينال العلا من قدّم الحذرا
ومن أراد العلا عفواً بلا تعب	قضى ولم يقض من إدراكها وطرا
لابد للشهد من نحل يمنّعه	لا يجتني النفع من لم يحمل الضررا
لا يبلغ السولُ إلا بعد مولمة	ولا يتم المنى إلا لمن صبرا

وارتفعت مكانة مصر في العالم الخارجي في عهد الناصر، ووسعت البلاد الإسلامية والمسيحية على السواء لخطب ودها، وأصبحت القاهرة قبلة للمترددين والزوار من شتى الأرجاء. وخُطب باسم الناصر على منبر بغداد التي كانت في حوزة مغول فارس، ونقش اسمه على نقودها، وخطب ملوك بني رسول في اليمن للناصر وأرسلوا إليه الهدايا. وخطب للناصر في دولة بني قرمان في آسيا الصغرى، وعلى منابر تونس وطرابلس الغرب وماردين. وقامت علاقات وُدّيّة بينه وبين ملوك الهند والصين وملوك غرب إفريقيا. وكان الناصر، ومن ألقابه خادم الحرمين الشريفين، يشرف على الحجاز، وينصب أمراء مكة والمدينة. وعقد الملك الناصر اتفاقية سلام مع أبي سعيد إيلخان مغول فارس في عام ١٣٢٢. وكثر وصول السفارات إلى مصر من ملوك أوروبا والعالم المسيحي، فوصلت سفارات من بابا الكاثوليك، وملك فرنسا، وملك أرجونا، وإمبراطور القسطنطينية، وإمبراطور الحبشة وغيرهم.

وصلت، في حزيران ١٣٢٧م، إلى القاهرة سفارة من بابا الكاثوليك جون الثاني والعشرين (John XXII) ومعهم هدية ورسالة من البابا، يرجو فيها من الناصر حماية المزارات المسيحية في الأراضي المقدسة ووقف الحملات على مملكة أرمينيا الصغرى. وكانت هذه أول سفارة بابوية تفد إلى مصر منذ عهد السلطان الأيوبي الصالح أيوب. وأرسل فيليب السادس ملك فرنسا إلى القاهرة سفارة ضخمة قوامها ١٢٠رجلاً في عام ١٣٣٠م، طالب من الناصر منحه بيت المقدس وبعض المناطق على ساحل الشام، فأهان الناصر رجال السفارة وملكهم، وقال لهم: "لولا أن الرسل لا يقتلون، لضربت أعناقكم"، وطردهم من مصر.

يقول ابن إياس عن الناصر: "خُطب له في أماكن لم يُخطب فيها لأحد من الملوك غيره، وكاتبه سائر الملوك من مسلم وكافر. ويذكر المقريزي عن الناصر في الصدد ذاته: "ولم يعهد في أيام ملك قبله ما عهده في أيامه: من مسالمة الأيام له، وعدم حركة الأعداء براً وبحراً وخضوع جميع الملوك له ومهاداتهم إياه".

ابن بطُوطة: وكان الرحالة الشهير ابن بطوطة من الذين زاروا مصر في سنة ٧٢٥هـ-١٣٢٤م، وهو في طريقه إلى الحج في عهد الناصر محمد. وذكر في كتابه: "تحفة النظار"، مشيداً به: (وكان سلطان مصر على عهد دخولي إليها الملك الناصر أبا الفتح محمد بن المنصور، سيف الدين قلاوون الصالحي... وللملك الناصر السيرة الكريمة والفضائل العظيمة. وكفاه شرفاً انتماؤه لخدمة الحرمين الشريفين. وما يفعله في كل سنة من أفعال البر التي تعين الحجاج. من الجمال التي تحمل الزاد، والماء للمنقطعين والضعفاء. وتحمل من تأخر أو ضعف عن المشي في الدربين المصري والشامي).

اعتناق المغول الإسلام:

على الرغم من النازلات الجسام التي حلت بدار العروبة والإسلام (من مذابح الصليبيين في القدس ومعرة النعمان وباقي بلاد الشام)، بقيت جذوة اللغة العربية ناراً تحت الرماد، ثم انبثقت من تحت ركام المعارك وضرابها واحترابها منصورة موزرة بنصر الله، ظاهرة بدين الإسلام على الدين كله. خرجت العربية منصورة بعد معارك حطين، وحصين الثانية (معركة غزة)، وتحرير القدس، وإعادة تحرير القدس، وكسر شوكة الصليبيين في دمياط مصر ٣ مرات على الأقل (في أثناء الحملات الصليبية الثانية والخامسة والسابعة). وعلى الرغم من وحشية المغول واكتساحهم عاصمة الخلافة الإسلامية في بغداد، ومن التدمير الهائل لمكتباتها الزاخرة بالعلوم والآداب والوثائق، ومن المذابح الدموية لسكانها التي لم يسمع العالم لها نظيراً، واجتياح الشام بجواضره في حلب ودمشق وحماه، على الرغم من كلّ ذلك خرجت اللغة العربية منصورة بدين الله على وحشية المغول. بعد المعارك الفواصل في عين جالوت وحمص والفرات وإبلستين وشقحب.

ولم يقتصر عمل اللغة العربية على رصد حوادث التاريخ الجسام وتوثيق سردها وحسب، بل تعداه في الأشعار الملهبة للحماس بعد كل واقعة وموقعة، وفي القصائد الروائع بوصفها رمزَ شموخ ودليلاً على انتصار الإسلام على الرغم من العاديات على كلّ الأعداء. بل تعدى عمل اللغة العربية ذلك: في التأثير الحضاري العميق الأثر في وحشية أوروبا ذاتها، إبان الحروب الصليبية في أثناء عصور أوروبا المظلمة، وفي نهضتها الفكرية والعلمية، وفي تأثير الإسلام في إصلاح الكنيسة وتقويض البابوية: المركز العصبي لإعلان هذه الحملات الصليبية على دار الإسلام.

كذلك، فإنّ للغة العربية أكبر الفضل على العالم كله: بتخليصه من شبح الشيطان المغولي الكاسح لأوروبا النصرانية وآسيا المسلمة. فلقد كان للعربية عمل متميزٌ في التأثير الحضاري العميق الأثر في المغول: في إسلامهم واستعرابهم واستيعابهم في حظيرة الإسلام وحضارته، وفي تحويلهم من وحوش بشرية ضارية إلى أناس متحضرين. فبدل أن يفرض الغالب عقيدته على المغلوب، ولم يكن لهؤلاء الوحوش المغول من دين ولا حضارة، فسرعان ما جتذبهم الإسلام بعد انتصاراته الساحقة عليهم.

لم يذهب سقوط بغداد سدًى، فالوحشية التي استخدمها هولاكو في مذبحة بغداد وفي قتل الخليفة وعلماء الإسلام، سرعان ما استعدت عليه وجندت له ابن عمه: بركة خان المغولي المسلم ليقف كالطود الشامخ، وعدواً لدّ ضدّ هولاكو ليوقفه عند حده (انظر فيما سيأتي). ثم أعقب ذلك نصر الله للمسلمين في معركة عين جالوت التاريخية التي قلبت موازين القوى العالمية لمصلحة الإسلام، أعقبه سلسلة انتصارات مباشرة للمسلمين كما في

معركة حمص الأولى، وغيرها فبدأ المغول إذاك بعد انكساراتهم هذه يفكرون جدياً في اعتناق الإسلام. إذ لا يفل الحديد إلاّ الحديد.

وللقلوب أقفالها ومفاتيحها. فإذا كان الصحابي ركانة لم يُسلم إلا بعد أن صرعه رسول الله ﷺ مرتين، فالمغول لم يسلموا إلا بعد أن صرعهم الإسلام عدة مرات: في عين جالوت، وفي معركة حمص الأولى، وموقعة الفرات، وموقعة إيلستين، وحمص الثانية، وموقعة شقحب.

ثم كانت للسلطان الظاهر ركن الدين بيبرس اليد البيضاء، وأفضل الأثر والتأثير في نصرة دين الله وإسلام المغول عن طريق المصاهرات والزواج والتحالفات مع بركة خان المسلم، وقبل هذا وذاك عن طريق انتصاراته الكاسحة وفتوحاته الدائمة بفضل الله.

ثم كان استرقاق آلاف الأسرى المغول وتعليمهم وتربيتهم على الإسلام، ثم عتقهم من بعد إسلامهم، ليكونوا أمراء مسلمين، بل سلاطين لدار الإسلام يحاربون بأنفسهم أبناء جلدتهم المغول الكفرة. وكانت أعمال بيبرس البطل الأسطوري، سُنة اقتدى بها ملوك المماليك من بعده.

ثم بدأت هجرات المغول الكبيرة، جماعات وأفرادا من البيوت ومن الفرسان، تهاجر من دار الكفر إلى دار الإسلام، لتعتنق دين الله، وتعيش في كنفه في رحاب إخوانهم المسلمين، في مصر والشام، وهذا أعاد ذكريات الإسلام الحبيبة في هجرة المهاجرين من مكة إلى إخوانهم الأنصار في المدينة.

وفيما يأتي إضاءات على هذه البدايات الخالدة والنادرة في تاريخ الإسلام حول اعتناق المغول لدين الإسلام:

١. **بركة خان** (توفي ٦٦٥هـ/١٢٦٦م): هو زعيم القبيلة الذهبية، وابن عم هولاكو، تحالف مع الملك الظاهر بيبرس سلطان مصر والشام. هو بركة خان بن جوجي بن جنكيز خان، وهو أحد ٧ أبناء لجوجي هم: "باتو، أورد، شوبان، بركة، جمناي، بركجار، توقاتيمر". وكان الابن الأكبر "باتو" قد ورث منصب أبيه و صبح زعيم للقبيلة الذهبية، التي تُعدّ أولى قبائل التتار إسلاماً وأكثرها تعاطفاً وتأدباً مع المسلمين. وبركة خان هو ابن عم هولاكو، وكانت مملكته عظيمة متسعة جداً، وهي بعيدة عن بلادنا وله عساكر وافرة العدد، وكان بركة هذا يميل إلى المسلمين ميلاً زائداً، ويعظم أهل العلم ويقصد الصلحاء ويتبرّك بهم. ووقع بينه وبين ابن عمّه هولاكو العداوة، وقاتله بسبب قتله للخليفة المستعصم بالله وغيره من علماء المسلمين وعامتهم. وكان بينه وبين الملك الظاهر بيبرس مودة ويعظم رسله، وكان قد أسلم هو وكثير من جنده وبنى المساجد، وأقيمت الجمعة ببلاده وكان جواداً عادلاً شجاعاً، ومات ببلاده وهو في آخر الستين، وقام مقامه منكوتمر.

وبسبب تعاطف "باتو" مع المسلمين في بلاده، أخذ النصارى، خاصة الرهبان والقساوسة في بلاد المغول (وكان لهم فعل وتأثير كبير في الحرب المزوعة على بلاد الإسلام) في تحريض الزعيم الكبير للمغول "كيوك بن أوغطاي" لمحاربة "باتو" قبل أن ينتشر الإسلام في كل ربوع الشمال. وتوفي "باتو" سنة ٦٥٠هـ وخلفه من بعده في رئاسة القبيلة الذهبية ابنه "سرتق" الذي لم يعش طويلاً حتى توفي وانتقلت الرئاسة إلى عمّه "بركة خان" عام ٦٥٢هـ.

دخل "بركة خان" الإسلام سنة ٦٥٠ هجرية، وكان من قبل مُحبّاً ومتأثراً بالإسلام بسبب امرأة أبيه "رسالة" وقد التقى "بركة خان" في مدينة "بخارى" وأحد علماء المسلمين واسمه (نجم الدين مختار الزاهدي)، إذ كان بركة عائداً للتوّة من زيارة عاصمة المغول "قرا قورم" وأخذ "بركة" في الاستفسار عن الإسلام من هذا العالم المسلم الجليل، وهو يجيبه بكل وضوح وسلاسة، فطلب بركة منه أن يؤلف له رسالة، تؤيد بالبراهين رسالة الإسلام

وتوضح بطلان عقائد التتار والتثليث وترد على المخالفين والمنكرين للإسلام، فألف "الزاهدي" الرسالة ودخل "بركة خان" في الإسلام إثر قراءتها عن حب واقتناع وإخلاص ورغبة عارمة في نصرة هذا الدين.

أعماله: لم يكن دخول "بركة خان" في الإسلام كدخول آحاد الناس، بل دخل الإسلام بطلا ملكا سلطانا قبيلة مغولية، والمغول وقتها هم الكابوس المفزع للبشرية جمعاء، وللمسلمين خاصة؛ لذلك جاءت أعمال هذا البطل العظيم على المستوى نفسه الفائق من المسؤولية والقيادة، وتحول هذا السلطان الوثني إلى جندي من أخلص جنود الإسلام شديد الحب والتفاني في نصرة الدين وأهله، فلقد ضرب أروع الأمثلة في الولاء والبراء. وفيما يأتي طائفة من أهم أعماله "بركة خان" في نصرة الإسلام:

أولاً: مبايعة خليفة المسلمين: بعدما أعلن "بركة خان" إسلامه، كان أول ما فعله أن أرسل ببيعته للخليفة العباسي المستعصم ببغداد، وهذا الإجراء على الرغم من أنه بسيط وعادي؛ لأن خليفة المسلمين وقتها لم يكن له نفوذ فعلي إلا على مساحة ضيقة من الأرض، لكنه يعطي صورة جلية لولاء "بركة خان" لسلطان المسلمين وانضوائه تحت جماعة المسلمين.

ثانياً: ظهار شعائر الإسلام: بعدما اعتلى "بركة خان" رئاسة القبيلة الذهبية، أخذ في إظهار شعائر الإسلام، وقام "بركة خان" بإكمال بناء مدينة "سراي" وهي مدينة "سراتوف" الآن في روسيا على نهر الفولجا، وجعلها عاصمة القبيلة الذهبية، وبنى فيها المساجد والحمامات ووسعها جداً حتى صارت أكبر مدن العالم وقتها، وجعلها على الطراز الإسلامي.

ثالثاً: غيرته على المسلمين: وقد ظهرت هذه العقيدة بوضوح عندما فكر القائد المغولي "هولاكو بن تولي بن جنكيزخان" في الهجوم على بغداد، وكان "مونكو خان بن تولي" أخو "هولاكو" هو خان المغول، وقد نال هذا المنصب بمساعدة قوية من "باتو" الأخ الأكبر "لبركة خان".

وحاول "هولاكو" إقناع أخيه الأكبر مونكو خان بهذه الفكرة، وبالفعل وافق على الفكرة، ورحب بالهجوم على باقي بلاد المسلمين، وبدأ "هولاكو" في الإعداد لذلك، وما إن وصلت الأخبار إلى "بركة خان" حتى التهبت مشاعره، وأسرع إلى أخيه "باتو" وألح عليه في منع الهجوم على المسلمين وقال له: (إننا نحن الذين أهمنا "مونكو" خاناً أعظم، وما جازانا على ذلك إلا أنه أراد أن يكافئنا بالسوء في أصحابنا، ويخفر ذمتنا ويتعرض إلى ممالك الخليفة، وهو صاحبي وبيني وبينه مكاتبات وعقود ومودة، وفي هذا ما لا يخفى من القبح). وبالفعل اقتنع "باتو" تماماً بكلام أخيه وبعث إلى هولاكو يكفه عما ينويه من قتال المسلمين، وبالفعل أجّل "هولاكو" الهجوم على المسلمين حتى وفاة "باتو".

رابعاً: تفريقه وحدة التتار الوثنيين: فقد استغل "بركة خان" خروج الخان الأعظم مونكو لقتال بعض الخارجين عليه ومعه أخوه "قوبلاي خان"، وترك أخاه الآخر "أرتق بوكا" مكانه لتسيير الأمور لحين عودته، فاستغل "بركة خان" وفاة "مونكو" في الطريق لإثارة الفتنة بين "أرتق بوكا" و"قبلاي"، إذ اتفق الجند والأمراء على تولية "قبلاي"، فأرسل "بركة خان" إلى "أرتق بوكا" بقوة عسكرية لمنازعة أخيه "قبلاي" على منصب الخان الأعظم لشق الفرقة بينهما، وحرض أيضا أسرة أوقطاي خان على مساعدة "أرتق بوكا" ووقعت الحرب بينهما سنة ٦٥٨هـ، وذلك قبل معركة (عين جالوت) بقليل، وهذا جعل هولاكو يعود مُسرعاً من الشام لفضّ النزاع.

واستمرت الحروب عدة سنوات، وكان "بركة خان" في الوقت نفسه يقنع ويحث كثيراً من جنود "هولاكو" بالشام على الدخول في الإسلام والانضمام إلى جيش "بيبرس"، وبالفعل اقتنع الكثيرين منهم وتحولوا إلى حرب "هولاكو".

خامساً: محالفته للمماليك: فقد دخل "بركة خان" في حلف مع المماليك الذين بهروا العالم عندما انتصروا على التتار في موقعة (عين جالوت) سنة ٦٥٨هـ، وكثرت المراسلات والاتصالات بينه وبين السلطان بيبرس، وكان لها أثر كبير في توجيهه لحرب "هولاكو".

وبالفعل، اتفق "بركة خان" و"بيبرس" على محاربة "هولاكو"، وكتب بركة خان" برسالة إلى "بيبرس" يقول له فيها: (قد علمتَ محبتي للإسلام، وعلمت ما فعل هولاكو بالمسلمين، فاركب أنت من ناحية، حتى آتيه أنا من الناحية الأخرى: حتى نهزمه أو نخرجه من البلاد، وأعطيك جميع ما كان بيده من البلاد).

سادساً: محاربته هولاكو والتتار: لم يكتف "بركة خان" بمناصرة المسلمين، فلقد انقلب حرباً ضروساً على التتار الوثنيين عموماً، وعلى "هولاكو" خصوصاً، إذ لم ينس "بركة خان" ما فعله "هولاكو" بالخلافة العباسية أبداً، عندما اكتسح هولاكو بجحافله بغداد. فقد حاول "بركة خان" بشتى الوسائل أن يوقف هذا المد الجارف الذي ينذر بمحو الإسلام من الوجود، ولكن لأن معظم جنوده كانوا لا يزالون على الوثنية، فقد رفضوا الانصياع لأمره بمحاربة "هولاكو": لأنهم بذلك سيخالفون الخان الأعظم للتتار، والذي قد وافق على الهجوم على غدد.

فاتخذ "بركة خان" في اختلاق الذرائع والحجج لإشعال الحرب ضد "هولاكو"، ووجد ضالته في مسألة الغنائم، فقد كان من عرف "جنكيزخان" القديم أن أسرة "جوجي" لها ثلث الغنائم التي يحصل عليها التتار جميعاً في أي معركة يخوضونها.

والواقع أنه لم تكن الغنائم هي الدافع لـ"بركة خان"، بل اختلاق عذر للحرب مع هولاكو: فأرسل "بركة" رسلاً من طرفه، وأمرهم أن يشتدوا ويغلظوا على "هولاكو" في السؤال، فاستشاط "هولاكو" غضباً وقتل رسل "بركة خان" وسير جيشاً لمحاربة "بركة خان" فانهزم جيش هولاكو شرّ هزيمة عام ٦٦٠هـ (أي سنتين بعد موقعة عين جالوت في ٦٥٨هـ)، فعاود الهجوم مرة أخرى بجيش أكبر، فانهزم جيش "بركة خان" وكان يقوده أحد قواده واسمه "نوغاي"، فأراد "هولاكو" أن يجهز تماماً على "بركة خان" فأرسل جيشاً جراراً فيه معظم جنوده، يقودهم ابنه أباقا، فخرج لهم "بركة خان" نفسه على رأس الجيش، ومزّق جيش هولاكو شر تمزيق عام ٦٦١هـ في منطقة القوقاز، ولم ينج منهم سوى القليل.

مصير هولاكو: أما "هولاكو" فوجد أن كل البلايا والهزائم التي حاقت به وبالتتار جميعاً كان سببها "بركة خان" فاشتد غيظه وحقده على "بركة خان" وحاول محاربته عدة مرات، ولكنه هزم شر هزيمة، وهذا أشعل الغيظ في قلبه، حتى وصلت نيران غيظه إلى عقله وجسده، فأصيب بجلطة في المخ بعد وصوله خبر هزيمة ولده "أباقا" أمام "بركة خان" سنة ٦٦١ هجرية، وظل يعاني الصرع حتى هلك سنة ٦٦٣ هجرية، فانتقم "بركة خان" للإسلام والمسلمين من هذا المجرم الطاغية الذي دمر دولة الخلافة الإسلامية، وسفك دماء الملايين من المسلمين. أهلكه الله في السنة السادسة من سلطنة الظاهر بيبرس.

ذكر الذهبي في "تاريخ الإسلام" **ترجمة هولاكو** (وأحياناً يسمى هولاوو) تحت وفيات عام ٦٦٣هـ (هولاكو بن تولي قان بن الملك جنكيزخان: ملك التتار ومقدمهم. ذكره الشيخ قطب الدين، فقال: كان من أعظم ملوك التتر، وكان شجاعاً حازماً مدبراً، ذا همة عالية، وسطوة ومهابة ونهضة تامة، وخبرة بالحروب، ومحبة في العلوم العقلية من غير أن يتعقل منها شيئاً. اجتمع له جماعة من فضلاء العالم، وجمع حكماء مملكته، وأمرهم أن يرصدوا الكواكب. وكان يطلق الكثير من الأموال والبلاد. وهو على قاعدة المغل من عدم التقيد بدين، لكن زوجته تنصرت. وكان سعيداً في حروبه وحصاراته. طوى البلاد واستولى على الممالك في أيسر مدة، ففتح بلاد

خراسان، وفارس، وأذربيجان، وعراق العجم، وعراق العرب، والشام، والجزيرة، والروم، وديار بكر. كذا قال الشيخ قطب الدين. والذي افتتح خراسان وعراق العجم غيره، وهو جنكزخان وأولاده، وهذا الطاغية. فافتتح العراق، والجزيرة، والشام، وهزم الجيوش وأباد الملوك، وقتل الخليفة وأمراء العراق وصاحب الشام، وصاحب ميافارقين.

قال لي الظهير الكازروني: حكى لي النجم أحمد بن البواب النقاش نزيل مراغة، قال: عزم هولاكو على زواج بنت ملك الكرج. قالت: حتى تسلم. فقال: عرفوني ما أقول. فعرضوا عليه الشهادتين. فأقر بهما وشهد عليه بذلك الخواجه نصير الطوسي وفخر الدين المنجم. فلما بلغها ذلك أجابت. فحضر القاضي فخر الدين الخلاطي، فتوكل لها النصير، وللسلطان الفخر المنجم. وعقدوا العقد باسم تامار خاتون بنت الملك داود بن إيواني على ثلاثين ألف دينار. قال ابن البواب: وأنا كتبت الكتاب في ثوب أطلس أبيض، وعجبت من إسلامه. قلت: إن صح هذا فلعله قالها بفمه لعدم تقيده بدين، ولم يدخل الإسلام إلى قلبه، والله أعلم. لواسلامه مثل إسلام نابوليون بونابرت!.

قال قطب الدين: كان هلاكه بعلة الصرع. فإنه حصل له الصرع منذ قتل الملك الكامل صاحب ميافارقين، فكان يعتريه في اليوم المرة والمرتين. ولما عاد من كسرة بركة له أقام يجمع العساكر، وعزم على العود لقتال بركة، فزاد به الصرع، ومرض نحواً من شهرين وهلك. لمن الواضح أنه مرض بالسكتة الدماغية والشلل الجسمي، فيستطيع أن يرى ولكن لا يستطيع الحركة ولا الكلام، تشبه لحد ما سكتة دماغ رئيس وزراء إسرائيل أريل شارون عام ٢٠٠٦)، فأخفوا موته وصيّروه (أي ملحوداً)، وجعلوه في تابوت، ثم أظهروا موته. وكان ابنه آبغا غائباً، فطلبوه ثم ملكوه فجلس مكانه في الملك وقيل: إنه لم يدفن وعلق بسلاسل، ومات وله ٦٠ سنة أو نحوها!.

وهلك هولاوو وله ستون سنة أو نحوها، وقد أباد أمماً لا يحصيهم إلا الله. ومات في هذه السنة. قيل في سابع ربيع الآخر سنة ثلاث وستين ببلد مراغة، ونقل إلى قلعة تلا، وبنوا عليه قبة. وخلف من الأولاد ١٧ ابناً سوى البنات، وهم: آبغا، وأشموط، وتمشين، وبكشي، وكان بكشي فاتكاً جباراً، وأجاي، ويستز، ومنكوتمر الذي التقى هو والملك المنصور على حمص وانهزم جريحاً، وباكودر، وارغون، وتغابي دمر، والملك أحمد. قلت: وكان القان الكبير قد جعل أخاه هولاوو نائباً على خراسان وأذربيجان، فأخذ العراق والشام وغير ذلك، واستقل بالأمر مع الانقياد للقان والطاعة له، والبرد واصلة إليه منه في الأوقات. وتفاصيل الأمور لم تبلغنا كما ينبغي. وقد جمع صاحب الديوان كتاباً في أخبارهم في مجلدتين. ووالد هولاوو هو تولي خان الذي عمل معه السلطان جلال الدين مصافاً في سنة ثماني عشرة، فنصر جلال الدين وقتل في الوقعة تولي إلى لعنة الله. وكان القان الأعظم في أيام هولاوو أخاه منكوقا بن تولي بن جنكزخان، فلما هلك، جلس على التخت بعده أخوهما قبلاي، فامتدت دولته وطالت أيامه، ومات سنة خمس وتسعين بخان بالق أم بلاد الخطا وكرسي مملكة التتار. وكانت دولة قبلاي نحواً من أربعين سنة. في آخر أيامه أسلم قازان على يد شيخنا بدر الدين بن حمويه الجويني. وقال الظهير الكازروني: عاش هولاكو نحو خمسين سنة، وكان عارفاً بغوامض الأمور وتدبير الملك، فاق على من تقدمه. وكان يحب العلماء ويعظمهم، ويشفق على رعيته، ويأمر بالإحسان إليهم. قلت: وهل يسع مؤرخاً في وسط بلاد سلطان عادل أو ظالم أو كافر إلا أن يثني عليه ويكذب، فالله المستعان! فلو أثنى على هولاكو بكل لسان لاعترف المثني بأنه مات على ملة آبائه، وبأنه سفك دم ألف ألف أو يزيدون، فإن كان الله تعالى مع هذا وفقه للإسلام فيا سعادته، لكن حتى يصح ذلك، والله أعلم). انتهى

رحيل بركة خان: بعدما هلك الطاغية "هولاكو" من شدة الغيظ والحقد على ما جرى على يد "بركة خان" ورث مكانه ابنه "اباقا"، وورث عنه أيضاً حقده وحسده على "بركة خان"؛ خاصة لأن "بركة" قد هزمه هزيمة كبيرة سنة ٦٦١ هجرية، لذلك كانت محاربة "بركة" أولى الأولويات في تفكير "اباقا بن هولاكو".

وبالفعل، أعدّ "اباقا" جيشاً جراراً لمحاربة "بركة" وأرسل "بركة" أولاً قائده "نوغاي"، ولكنه هزم وأصيب بسهم في عينه، وكان "بركة خان" يحب "نوغاي" لإسلامه وجهاده معه في كل موطن، فخرج "بركة خان" نفسه للقاء "اباقا" وفي نيته محاربة عدو الإسلام، وإزالة هذا الفرع الخبيث من شجرة التتار التي بدأت تتحول إلى الإسلام شيئاً فشيئاً، وأتاه اليقين في الطريق، وتوفي البطل العظيم مجاهداً مناصراً دين الله عام ٦٦٥هـ، بعدما قضى من حياته الحقيقية، ١٥ سنة، في خدمة الإسلام ومحبة المسلمين ومحاربة أعداء الإسلام، حتى مات وبلّل بالمغفرة ثراه على نية الجهاد، ولم يكن له أولاد ولم يترك ذرية، ولكنه ترك سجلاً حافلاً في العمل للدين وفهمه الصحيح لعقيدة الولاء والبراء، حتى إن السلطان المملوكي الظاهر "بيبرس" قد سمى ولده الأكبر "بركة خان"؛ حباً في شخصية هذا البطل العظيم، ولشديد الأسف لا يعرفه معظم المسلمين الآن، توفي في السنة السابعة من سلطنة الظاهر بيبرس.

٢. دخول أول دفعة من التتار في الإسلام في ذي الحجة ٦٥٩هـ، مباشرة بعد معركة حمص الأولى (وقعة القيقان)، إذ وصل إلى دمشق من التتار نحو المئتين هاربين إلى المسلمين، فأعطوا أخباراً، وهم أول من فرّ من التتر ودخل في الإسلام، وكانوا بداية الهجرة المباركة إلى دار الإسلام، وبهم قويت شوكة الإسلام ضد كفار التتر أنفسهم. لتاريخ الإسلام للذهبي تحت أحداث سنة ٦٥٩هـ.

٣. بيبرس الداعية في تزاوجه ومصاهراته وعلاقاته السياسية بالمغول: وكانت مدة سلطنة بيبرس وملكه ١٩ سنة وشهرين ونصفاً، وكان الملك الظاهر بيبرس (رحمه الله) أبا الفتوح، ملكاً شجاعاً مقداماً غازياً مجاهداً مرابطاً خليقاً بالملك خفيف الوطأة سريع الحركة يباشر الحروب بنفسه، وكان قد نذر نفسه لله تعالى في تزوجاته ومصاهراته، فكانت كلها سياسية من أجل نصرة الدين، فزوجاته أم الملك السعيد ناصر الدين محمد بركة خان هي بنت الأمير حسام الدين بركة خان بن دولة خان الخوارزمي، وزوجاته الأخريات: بنت الأمير سيف الدين توكاي التتاري، وبنت الأمير سيف الدين كراي التتاري، وبنت الأمير سيف نوغاي التتاري، وشهرزورية تزوجها لما قدم غزة وحالف الشهرزورية قبل سلطنته فلما تسلطن طلقها، ومن أبنائه: الملك المسعود نجم الدين خضرا أمه أم ولد، والملك العادل بدر الدين سلامش، وولد له من البنات سبع.

ووفد على بيبرس من التتار زهاء ثلاثة آلاف فارس، فمنهم من أمّره طبل خاناه، ومنهم من جعله أمير عشرة إلى عشرين، ومنهم من جعله من السقاة، ثم جعل منهم سلحدارية، وجمدارية، ومنهم من أضافه إلى الأمراء (انظر ترجمة الملك الظاهر بيبرس البندقداري، آخر الجزء الثاني، النجوم الزاهرة لابن تغري بردي).

٤. أثر انتصارات المسلمين في إسلام المغول: وأثر معركة حمص الثانية سنة ٦٨٠هـ، والانتصار التاريخي الساحق للسلطان قلاوون وجيوش الإسلام ضد جيوش المغول الكافرة البالغ تعدادها مئة ألف أو يزيد، والهزيمة المنكرة لقائدهم منكوتمر وجرحه في المعركة، ورد الخبر في أول سنة ٦٨١هـ أنه تسلطن في مملكة التتار مكان ابغا بن هولاكو، أخوه لأبيه أحمد بن هولاكو، وهو مسلم حسن الإسلام وعمره يومئذ ٣٠ سنة، وأنه وصلت أوامره إلى بغداد تتضمن إظهار شعائر الإسلام وإقامة منارة، وأنه أعلى كلمة الدين وبنى الجوامع والمساجد والأوقاف ورتب القضاة، وأنه انقاد إلى الأحكام الشرعية، وأنه ألزم أهل الفتة بلبس الغيار وضرب الجزية عليهم، ويقال: إن إسلامه كان في حياة والده هولاكو، فسُرّ السلطان قلاوون بذلك سروراً عظيماً.

٥. **تربية الأسرى المغول وعتقهم بعد إسلامهم:** وفيهم من أُسر وربّي ثم تسلطن في بلاد المسلمين. فمثلاً: أسلطان الملك العادل زين الدين كتبغا بن عبد الله المنصوري، وأصله من التتار من سبي وقعة حمص الأولى التي كانت في سنة ٦٥٩هـ. فأخذه الملك المنصور قلاوون وأدبه، ثم أعتقه وجعله من مماليكه ورقاه حتى صار من أكابر أمرائه، واستمر على ذلك في الدولة الأشرفية خليل ابن قلاوون إلى أن قتل، وتسلطن أخوه الملك الناصر محمد بن قلاوون في سنة ٦٩٣هـ وأقام الناصر في الملك وعمره ٩ سنوات. إلى سنة ٦٩٤هـ ووقع الاتفاق على خلعه وسلطنة كتبغا هذا، فتسلطن بعد أن خلع ابن أستاذه الملك الناصر محمد بن قلاوون الخميس ١٢ المحرم سنة ٦٩٦هـ باتفاق الأمراء، وصار السلطان العاشر من ملوك الترك بالديار المصرية، وتلقب بالملك العادل وسنه يوم ذاك نحو ٤٠–٥٠ سنة. (وهو غير كتبغا نوين صهر هولاكو الذي قتل، وكان كتبغا هذا من جملة من كان في عسكر هولاكو من التتار ممن لا يؤبه له من الأصاغر). وكسبه قلاوون في الواقعة: فكان بين المدة نحو ٣٥ سنة، حتى قمر الله تعالى سلطنة كتبغا هذا.

٦. **هجرة المغول المسلمين (المهاجرين) إلى دار الإسلام:** بدأ آلاف التتار بالتحول إلى الإسلام، فمثلاً: بينما السلطان الملك العادل كتبغا فيما هو فيه من أمر الغلاء بمصر، ورد عليه الخبر في صفر سنة ٦٩٥هـ بأنه قد وصل الى الرحبة عسكر كثير نحو عشرة آلاف ١٠٠٠٠ بيت من عسكر (بيدو) ملك التتار طالبين الدخول في الإسلام: خوفاً من السلطان غازان، ومقدّمهم أمير اسمه طرغاي، وهو زوج بنت هولاكو، فرسم الملك العادل إلى الأمير علم الدين سنجر الدواداري بأن يسافر من دمشق إلى الرحبة حتى يتلقاهم فخرج إليهم، ثم خرج بعده الأمير سنقر الأعسر شاد دواوين دمشق، ثم ندب الملك العادل أيضاً الأمير قراسنقر المنصوري بالخروج من القاهرة، فخرج حتى وصل إلى دمشق لتلقي المذكورين، ورسم له أن يحضر معه في عوده إلى مصر جماعة من أعيانهم. فوصل قراسنقر الى دمشق وخرج لتلقيهم ثم عاد إلى دمشق في يوم الإثنين الثالث والعشرين من شهر ربيع الأول، ومعه من أعيانهم مئة فارس وثلاثة عشر فارساً. وفرح الناس بهم وبإسلامهم وأنزلوهم بالقصر الأبلق من الميدان. وأما الأمير علم الدين سنجر الدواداري، فبقي مع الباقين وهم فوق عشرة آلاف ما بين رجل كبير وكهل وصغير وامرأة، ومعهم ماشية كثيرة ورخت عظيم. وأقام قراسنقر بهم أياماً، ثم سافر بهم إلى جهة الديار المصرية. وقدموا القاهرة في آخر شهر ربيع الآخر، فأكرمهم السلطان الملك العادل كتبغا ورتب لهم الرواتب.

٧. **إسلام ملك التتار غازان:** ويقال: قازان وكلاهما يصح معناه، واسمه الحقيقي محمود بن أرغون بن أبغا بن هولاكو. وهو مُظهر الإسلام وشعائر الإيمان على الرغم من فساد كبير في عقيدته وعمله، بل قيل: إنه كان يعتقد سراً بالشامانية دين التتار.

تحرير جزيرة أرواد، آخر جيب صليبيّ بحري عام ١٣٠٢م:

بعد أن حرر الأشرف خليل ساحل الشام بالكامل عام ١٢٩١م، فرّ فرسان المعبد (الداوية) وبعض الصليبيين إلى جزيرة أرواد مقابل طرطوس، فتحولت الجزيرة إلى قاعدة صليبية لشن الهجمات على سفن المسلمين، وقاعدة ترصّد وتربّص بطرطوس وساحل الشام. طلب غازان المغولي في أواخر عام ١٣٠٠، من أرمن قليقيا (مملكة أرمينيا الصغرى) والصليبيين في جزيرة قبرص بالقيام بعملية مشتركة ضد المسلمين، فقام الصليبيون في قبرص بشحن مقاتلين من فرسان المعبد والإسبتارية، وقوات يقودها الأمير أمالريك أوف لوزيان (Amalric of Lusigan) ابن ملك قبرص، إلى أرواد.

وحين وصلت الأنباء إلى القاهرة، قرر الملك الناصر محمد بن قلاوون بناء شواني لغزو الجزيرة. وأبحر الأمير كهرداش في سبتمبر ١٣٠٢م من مصر إلى الشام وحاصر أرواد، وفتك بالحامية الصليبية، وأسرّ عدداً من فرسان

المعبد، وفرّ بعضهم إلى قبرص. واستسلمت أرواد آخر جيب للصليبيين في الشام في ٢٦ أيلول ١٣٠٢، ودقت بشائر النصر في القاهرة. وكان يوم دق البشائر هو اليوم نفسه الذي عاد فيه الأمير بكتاش منتصراً على أرمن قليقيا. فالأمير بكتاش كان قد خرج، في عدة من الأمراء من بينهم كتبغا، إلى مملكة قليقيا الأرمنية بسبب تحالفها مع غازان. انتشرت قوات بكتاش في أرجاء كليكليا، وحرقت المحصولات، وأسرت أعداداً من الأرمن وحاصرت عاصمتهم سيس. وعاد إلى القاهرة غانماً في أثناء البشائر لتحرير أرواد.

أرواد آخر جيوب الصليبيين في الشام

كان طرد الصليبيين من أرواد، وتوجيه ضربة لمملكة قليقيا انتصاراً مهماً للمسلمين على التحالف الصليبي – الأرمني – المغولي التي كان الصليبيون وأرمن قليقيا يسعون دوماً جاهدين إلى تحقيقه. ذكر في تلك المدة هيثوم الأرمني (Hethum the Armenian) في كتابه، مخاطباً بابا الكاثوليك عن أهمية التعاون مع المغول قائلاً :(هذا هو الوقت المناسب لاستعادة الأرض المقدسة بمساعدة المغول، ومن الممكن احتلال مصر من دون مصاعب أو مخاطر)، ويشرح في فقرة أخرى: (يجب طلب شيئين من ملك المغول: أولاً: أن لا يسمح بمرور أي شيء عبر مناطقه إلى أراضي الأعداء، وثانياً: أن يرسل رجاله ورسله لإشعال حرب في أراضي ملاطية، ويدمر ويخرب منطقة حلب. وعندما نقوم نحن الحجاج وقوات قبرص وأرمينيا بغزو أراضي الأعداء بحراً وبراً. وعلى قواتنا المسيحية أن تحصن جزيرة أرواد؛ إذ إنها تحتل موقعاً رائعاً لضرب سفن الأعداء وإحداث أضراراً جسيمة بهم).

جزيرة قبرص في شرق البحر الأبيض المتوسط

السلطان برسباي (حكم من ٨٢٥–٨٤١هـ /١٤٢٢ ١٤٣٧م) وفتح جزيرة قبرص، آخر قاعدة صليبية عام ٨٢٩هـ–١٤٢٦م:

بدأ "برسباي" حياته مملوكاً للأمير "دقماق المحمدي" نائب "ملطية" (في تركيا اليوم)، الذي اشتراه من أحد تجار العبيد، ومكث في خدمته، وإليه انتسب اسمه، فأصبح يعرف بـ برسباي الدقماقي، ثم أهداه سيده إلى السلطان الظاهر برقوق سلطان مصر، فأعتقه، وجعله من جملة مماليكه وأمرائه، وبعد وفاة السلطان برقوق، تقلّب في عدة مناصب منتقلاً بين سلطان وآخر، حتى نجح في اعتلاء عرش السلطنة في ٨ ربيع الآخر ٨٢٥هـ – ١ نيسان ١٤٢٢م، وصار يلقب بالسلطان الأشرف برسباي. ومن ألقابه خادم الحرمين الشريفين، وهو السلطان الثامن

في ترتيب سلاطين المماليك البرجية، و٣٢ في الترتيب العام لسلاطين دولة المماليك. وقد حكم السلطان برسباي مدة ١٣ سنة، نجح فيها في إشاعة الأمن والاستقرار، والقضاء على التمرد والضرب على أيدي الخارجين على النظام، وقد مكنه ذلك الاستقرار، الذي نعمت به البلاد، من القيام بغزو جزيرة قبرص.

ولقبرص تاريخ إسلامي يمتد إلى سنة ٢٧/٢٨هـ ولقد غزا معاوية ﷺ قُبْرُس أو قبرص (سنة ٢٨هـ-٦٤٩م)، وهي من أكبر جزائر البحر الأبيض المتوسط في أقصى شرقيّه، وكانت تابعة للإمبراطورية الرومانية. كتب معاوية بن أبي سفيان ﷺ والي الشام إلى الخليفة الراشدي الثالث، عثمان بن عفان ﷺ يستأذنه في غزو البحر أكثر من مرة، فأجابه عثمان إلى ذلك، وكتب إليه: (لا تنتخب الناس ولاتقرع بينهم، خيِّرهم، فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنْه) ففعل معاوية، واستعمل على البحر عبد الله بن قيس الفزاري. واتجه الأسطول الإسلامي عام ٢٨هـ نحو قبرص، وهي الجزيرة المهمة في موقعها في البحر المتوسط؛ فهي المحطة البحرية الإستراتيجية للتجارة والملاحة، ثم إن موقعها مهم عسكرياً؛ لحماية فتوح المسلمين في بلاد الشام وإفريقيا.

اتجه الأسطول الإسلامي من سواحل بلاد الشام، بقيادة عبد الله بن قيس إلى قبرص، وسار إليها أيضاً أسطول إسلامي آخر من مصر، بقيادة عبد الله بن سعد، فانتزعها المسلمون عام ٢٨هـ من البيزنطيين، وإمبراطورهم آنذاك كونستانس الثاني. وقد صالح أهل قبرص المسلمين على:

١. ألا يقيموا بغزو المسلمين.
٢. وعليهم أن يؤذنوا المسلمين بمسير عدوهم من الروم.
٣. مع جزية قدرها سبعة آلاف دينار كل سنة.
٤. وأن يختار المسلمون بطريق قبرص.

وبذلك يكون أول فتح لجزيرة قبرص على يد معاوية سنة ٢٨هـ، وغزاها معه جماعة من الصحابة، فيهم أبو ذر، وعبادة بن الصامت ومعه زوجته أم حرام، وأبو الدرداء، وشداد بن أوس (رضي الله عنهم أجمعين). قال جبير بن نفير: ولما فتحت قبرص وأخذ منها السبي، نظرت إلى أبي الدرداء يبكي، فقلت: ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله، وأذل الكفر وأهله؟. قال: فضرب منكبي بيده، وقال: ثكلتك أمك ياجبير، ما أهون الخلق على الله إذا تركوا أمره، بينما هي أمة ظاهرة قاهرة للناس لهم الملك، إذ تركوا أمر الله فصاروا إلى ماترى، فسلط الله عليهم السباء، وإذا سلط الله السباء على قوم فليس له فيهم حاجة.

وتوفيت في هذه الغزوة أم حرام بنت ملحان الأنصارية تحقيقاً لنبوة رسول الله ﷺ، وهي أنه نام رسول الله ﷺ في بيتها، فاستيقظ وهو يضحك، وقال: «**عُرض عليَّ ناسٌ من أمتي يركبون ظهر البحر الأخضر كالملوك على الأسِرَّة**»، قالت أم حرام: يا رسول الله، ادعُ الله أن يجعلني منهم، قال ﷺ: «**إنك منهم**»، ثم نام فاستيقظ وهو يضحك، فقالت أم حرام: يا رسول الله، ما يضحكك؟ فقال: «**عرض عليَّ ناس من أمتي يركبون ظهر البحر الأخضر كالملوك على الأسِرَّة**»، قالت: يا رسول الله، ادعُ الله أن يجعلني منهم، قال ﷺ: «**أنت من الأولين**». وقد صحبها زوجها عبادة بن الصامت ﷺ في غزو قبرص، فلما جاز البحر بها، ركبت دابة فصرعتها فقتلتها، ودفنت هناك، وقبرها يزار حتى يومنا هذا.

ثم إن أهلها النصارى كانوا يثورون على تبعيتهم إلى الحكم الإسلامي بين الفينة والأخرى؛ فلهذا تكررت الغزوات على قبرص في الأعوام: ١٣٠، ١٥٨، ١٨٤، ١٩٠هجرية، وقبيل ابتداء الحملات الصليبية وجه ملك القسطنطينية (نقفور) أسطولاً إلى قبرص عام ٩٦٥ م، فاحتلها، فأصبحت سنداً بالغ الأهمية للصليبيين، وبعد

استرجاع بيت المقدس على يد صلاح الدين الأيوبي، اتجه ريتشارد قلب الأسد إلى قبرص وجعلها قاعدة له عام ١١٩١م، وأصبحت مملكة في عام ١١٩٨م، وأصبح ملكها موجهاً إلى المغول للقضاء على المسلمين، و صبحت عام ١٢٤٨م قاعدة للملك لويس التاسع عند غزوة مصر.

ووحّد ملك قبرص (هيو)، في عام ١٢٦٣م، قبرص وعكا التي كانت لاتزال بيد الصليبيين، فأصبح مسؤولاً عن حماية عكا آخر معاقل الصليبيين في الشرق. وحرر المسلمون عكا في عام ١٢٩١م، وأضحت قبرص بعدها مركز تهديد للشواطئ الإسلامية؛ لذلك كان الملك الأشرف خليل محرر عكا ينادي دوماً: (قبرص.. قبرص.. قبرص)، غير أن تهديدات المغول أعاقته عن تنفيذ أهدافه، ووافته المنية بالاغتيال.

وكان المماليك قد اهتموا بالسيطرة على قبرص؛ لكونها تحولت قاعدة للهجوم على السواحل الإسلامية، وكان القبارصة قبل هذه المعركة قد اتخذوا جزيرتهم مركزاً للوثوب على الموانئ الإسلامية في شرق البحر المتوسط، وتهديد تجارة المسلمين، فقاموا بغارة على الإسكندرية في سنة ٧٦٧هـ-١٣٦٥م، وأحرقوا الحوانيت والخانات والفنادق، ودنّسوا المساجد وعلقوا عليها الصلبان، وفعلوا المنكرات، ومكثوا بالمدينة ثلاث أيام يعيثون فيها فساداً، ثم غادروها إلى جزيرتهم، وتكررت مثل هذه الحملة على طرابلس الشام في سنة ٧٩٦هـ-١٣٩٣م وظلت غارات القبارصة لا تنقطع على الموانئ الإسلامية، ولم تفلح محاولات سلاطين المماليك في دفع هذا الخطر والقضاء عليه، وبلغت استهانة القبارصة بهيبة دولة المماليك واغترارهم بقوتهم أن اعتدى بعض قراصنتهم على سفينة مصرية سنة ٨٢٦هـ-١٤٢٣م، وأسروا من فيها، ولم تفلح محاولات السلطان برسباي في عقد معاهدة مع جانوس ملك قبرص، تضمن عدم التعدي على تجار المسلمين.

ونمادى القبارصة في غرورهم، فاستولوا على سفينتين تجاريتين، قرب ميناء دمياط، وأسروا من فيهما، وكانوا يزيدون على مئة رجل، ثم تجاوزوا ذلك فاستولوا على سفينة محملة بالهدايا، كان قد أرسلها السلطان برسباي إلى السلطان العثماني "مراد الثاني"، عند ذلك لم يكن أمام برسباي سوى التحرك لدفع هذا الخطر، والرد على هذه الإهانات التي يواظب القبارصة على توجيهها لدولة المماليك. واشتعلت في نفسه نوازع الجهاد، والشعور بالمسؤولية، فأعد ثلاث حملات لغزو قبرص، وذلك في ثلاث سنوات متتالية.

حملات السلطان الأشرف برسباي الثلاث: لم يكن أمام برسباي سوى التحرك لدفع هذا الخطر؛ رداً على الحملات الصليبية التي قام بها ملوك تلك الجزيرة على الإسكندرية ودمياط، في أثناء اشتداد حملات تيمورلنك على بلاد الشام، فلما تصدعت دولة تيمورلنك بعد وفاته، قام السلطان الأشرف برسباي بهذا الرد. فخرجت الحملة الأولى في سنة ٨٢٧هـ-١٤٢٤م حملة استطلاعية صغيرة إلى جزيرة قبرص، وهاجمت ميناء "ليماسول"، وأحرقت ثلاث سفن قبرصية كانت تستعد للقرصنة، وغنموا غنائم كثيرة، ثم عادت الحملة إلى القاهرة، شجع هذا الظفر أن يبادر برسباي بإعداد حملة أعظم قوة من سابقتها لغزو قبرص، فخرجت الحملة الثانية في (رجب ٨٢٨هـ - مايو ١٤٢٥م) مكونة من أربعين سفينة، واتجهت إلى الشام، ومنها إلى قبرص، وكانت جهتها هذه المرة سفينة فاما غوستا، وقد أحرزت النصر، ومكثت ٤ أيام، ثم اتجهت إلى مدينة ليماسول ونجحت في تدمير قلعة ليماسول، وقُتل نحو خمسة آلاف قبرصي، وعادت إلى القاهرة تحمل بين يديها ألف أسير، فضلاً على الغنائم التي حُملت على الجمال والبغال.

وبعد عام خرجت الحملة الثالثة، واستهدف السلطان برسباي فتح الجزيرة وإخضاعها لسلطانه، فأعد حملة أعظم من سابقتيها وأكثر عدداً وعُدة، فأبحرت مئة وثمانون سفينة من ميناء رشيد المصري في ٨٢٩هـ-١٤٢٦م، وسارت نحو ليماسول ففتحها في (٢٦ شعبان ٨٢٩هـ - ٢ تموز ١٤٢٦م)، ثم اتجهت نحو الداخل وتحركت الحملة

شمالاً، فالتقت بجيش كبير يقوده ملك قبرص جانوس نفسه، فجرت معركة طاحنة بين الفريقين، انتصر فيها المسلمون انتصاراً كبيراً، وأسروا الملك، وحملوه معهم، واستولت القوات المصرية على العاصمة "نيقوسيا"، وبذا دخلت الجزيرة في طاعة دولة المماليك.

استولت قوات المماليك على جزيرة قبرص المرة الثانية في تاريخ الإسلام، في يوم الخميس ١٢ رمضان عام ٨٢٩هـ-١٤٢٦م، وذلك على يد السلطان المملوكي الأشرف برسباي. ولما بلغ السلطان الأشرف (برسباي) خبر فتح قبرص، بكر من شدة الفرح، وبكى الناس لبكائه، وصار يكثر من الحمد والشكر لله، وقرأ الكتاب الوارد بهذا النصر على الناس.

واحتفلت القاهرة برجوع الحملة الظافرة التي تحمل أكاليل النصر، وشقت الحملة شوارع القاهرة التي احتشد أهلها لاستقبال الأبطال في (٨ شوال ٨٢٩هـ - ١٤ آب ١٤٢٦م)، وكانت جموع الأسرى البالغة ٢٧٠٠ أسير تسير خلف الموكب، وكان من بينها ملك قبرص جانوس وأمراؤه.

استقبل برسباي بالقلعة ملك قبرص، وكان بحضرته وفود من أماكن مختلفة، مثل: شريف مكة، ورسل من آل عثمان، وملك تونس، وبعض أمراء التركمان. فقبّل جانوس الأرض بين يدي برسباي، واستعطفه في أن يطلق سراحه، فوافق السلطان على أن يدفع مائتي ألف دينار فدية، مع التعهد بأن تظل قبرص تابعة لسلطان المماليك، وأن يكون هو نائباً عنه في حكمها، وأن يدفع جزية سنوية.

وللتوثيق العربي لهذا الفتح المبين، هذه نُتفٌ من توثيق شاهد العيان ابن تغري بردي المعاصر للسلطان في "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" ذكره تحت حكم السلطان الأشرف برسباي:

غزوة قبرص على حدتها: ولما كان يوم الإثنين ٢٣ شهر رمضان أعلم ٨٢٩هـ ورد الخبر على السلطان بأخذ مدينة قبرص، وأسر ملكها جينوس بن جاك، فدقت البشائر بالقلعة لهذا الفتح ثلاثة أيام. وكان من خبر ذلك أن الغزاة لما ساروا من الثغور المذكورة إلى جهة قبرص، وصلوا إلى مدينة اللمسون الياماسول مجتمعين ومتفرقين، فبلغهم من أهل اللمسون أن متملك قبرص جاءه نجدة كبيرة من ملوك الفرنج، وأنه استعد لقتالهم كما تقدم ذكره.

الاستيلاء على لياسول: ولما وصلوا إلى اللمسون، نازلوا قلعتها وقاتلوا من بها حتى أخذوها عنوة في يوم الأربعاء ٢٦ شعبان. ونهبوها وسبوا أهلها وقتلوا جماعة كبيرة ممن كان بها من الفرنج. ثم هدموها عن آخرها وساروا منها في يوم الأحد أول شهر رمضان من سنة تسع وعشرين المقدم ذكرها، بعد أن أقاموا عليها نحو ستة أيام وساروا فرقتين: فرقة في البر، وعليهم الأمير تغري بردي المحمودي، والأمير حسين بن أحمد المدعو تغري برمش أحد مقدمي الألوف، ومن انضاف إليهم من أمراء الطبلخانات، والعشرات والعساكر المصرية والشامية من الخيالة والرجالة، وفرقة في البحر ومقدمهم الأمير إينال الجكمي أمير مجلس، والأمير قراميراد خجا الشعباني أحد مقدمي الألوف بمن انضاف إليهم من العساكر المصرية والشامية. وكان سببُ مسير هؤلاء في البحر مخافةَ أن يطرق الفرنج المراكب من البحر ويأخذوها، ويصير المسلمون ببلادهم يقاتلونهم على هيئتهم وكان ذلك من أكبر المصالح.

ثم سار من في البر متفرقين، حتى صاروا بين اللمسون والملاحة وهم من غير تعبئة لقتال، بل على صفة المسافرين، غير أن على بعضهم السلاح وأكثرهم بلا سلاح لشدة الحر. وصار كل واحد من القوم يطلب قداماً من غير أن يتربص أحدهم لآخر، وفي ظنهم أن صاحب قبرص لا يلقاهم إلا خارج قبرص.

وتأخر الأمراء ساقة العسكر كما هي عادة مقدمي العساكر، والناس تجدُّ في السير إلى أن يماربوا قبرس، ثم يقفوا هناك يريدون خيلهم إلى أن تكتمل العساكر وتتهيأ الأطلاب للقتال، ثم يسيرون جملة واحدة بعد التعبئة والمصافة.

الموقعة البرية الكبرى: وبينما هم في السير، إذا هم بمملك قبرس بجيوشه وعساكره، ومن انضاف إليه من ملوك الفرنج وغيرها، وقد ملأت الفضاء. وكان الذين وافاهم صاحب قبرس من المسلمين الذين سبقوا طائفة قليلة جداً، وأكثرهم خيالة من أعيان المماليك السلطانية.

فعندما وقع العين على العين، لم يتمالك المسلمون أن يصبروا لمن خلفهم حتى يصيروا جملة واحدة، بل انتهزوا الفرصة وتعرضوا للشهادة، وقال بعضهم لبعض: هذه الغنيمة. ثم حركوا خيولهم وقصدوا القوم بقلب صادق، وقد احتسبوا نفوسهم في سبيل الله وحملوا على الفرنج حملة عظيمة، وصاحوا: (الله أكبر) وقاتلوهم أشد قتال وأردفهم بعض جماعة وتخلف عنهم أخر، منهم رجل من أكابر الخاصكية، أقام يستظل تحت شجرة كانت هناك.

وتقاتل المسلمون والفرنج قتالاً شديداً، قتل فيه السيفي تغري بردي المؤيدي الخازندار، وكان من محاسن الدنيا، لم تر عيني أكمل منه في أبناء جنسه. والسيفي قطلوبغا المؤيدي البهلوان، وكان رأساً في الصراع. ومن مقولة تغري بردي المقدم ذكره في الشجاعة والفروسية، والسيفي إينال طاز البهلوان، والسيفي تاتن البشبكي وهؤلاء الأربعة من الأعيان والأبطال المعدودة، عوض الله شبابهم الجنة بمنه وكرمه، ثم قتل من المسلمين جماعة أخر، وهم مع قلتهم ويسير عددهم في ثبات إلى أن نصرَ الله الإسلام ووقع على الكفرة الخذلان، وانكسروا وأسر متملك قبرس مع كثرة جموعه وعظم عساكره التي لا تحصر وقلة عسكر المسلمين حتى إن الذي كان قد حصل أوائل الوقعة أقل من سبعين نفساً، قبل أن يصل إليهم الأمير إينال العلائي الناصري، أحد أمراء الطبلخانات، ورأسه نوبة ثالث، وهو الملك الأشرف إينال والأمير تغري برمش، ثم تتابع القوم طائفة بعد طائفة. كل ذلك بعد ما انكسرت الفرنج، وأسر صاحب قبرس، وقتل من قتل من المسلمين. ولما ترادفت عساكر الإسلام، ركبوا أقفية الفرنج ووضعوا في السيف وأكثروا من القتل والأسر، وانهزم من بقي من الفرنج إلى مدينة قبر الأفقسيا.

قتل الخونة: ثم وجد المسلمون مع الفرنج طائفة من التركمان المسلمين، قد أمد الفرنج بهم علي بك بن قرمان عليه من الله ما يستحقه، فقتل المسلمون كثيراً منهم. واجتمع عساكر البر والبحر من المسلمين في الملاحة، يوم الإثنين ثاني شهر رمضان، وتسلم الأمير تغري بردي المحمودي صاحب قبرس، كل ذلك، والمسلمون يقتلون ويأسرون وينهبون، حتى امتلأت أيديهم، واجهدوا في حمل الغنائم.

وأما القتلى من الفرنج، فلا تحصر ويُستحى من ذكرها كثرة. حدثني بعض مماليك الوالد ممن باشر الواقعة من أولها إلى آخرها وجماعة كبيرة من الأصحاب الثقات، قالوا: كان موضع الواقعة أزيد من ألفي قتيل من قتلى الفرنج، هذا الموضع الذي كان فيه القتال. وأما الذي قتل من الفرنج بالضياع والأماكن وبطريق قبرس، فلا حد له ولا حساب، فإنه استمر القتل فيهم أياماً. واستمر الملاحة إلى يوم الخميس خامس شهر رمضان، فساروا منها يريدون الأفقسيا مدينة قبرس.

المعركة البحرية: ولما ساروا، وافاهم الخبر بعد أن تقدم منهم جماعة كبيرة من المطوعة والمماليك السلطانية إلى مدينة قبرس بأن أربعة عشر مركباً من مراكب الفرنج مشحونة بالسلاح والمقاتلة أتت المراكب لقتال المسلمين، منها سبعة أغربة وسبعة مربعة القلاع. فلاقاهم الأمير إينال الحكمي أمير مجلس، والأمير قراسقل الشعباني، والأمير طوغان السيفي تغري بردي أحد مقدمي دمشق، والأمير جاني بك رأس نوبة السيفي يلبغا

اقاصري، المعروف بالنور وبمن انضاف إليهم من المطوعة وغيرهم، وهؤلاء الأمراء الذين كانوا مقدمي العساكر في البحر بالمراكب، واقتتلوا مع الفرنج المذكورين أشد قتال، حتى هزموهم وأخذوا منهم مركباً مربعاً من مراكب الفرنج، بعد أن قتلوا منهم عدة كبيرة تقارب ما ذكرنا ممن قتل بمكان الوقعة الأولى وولت الفرنج الأدبار.

دخول قصر ملك الجزيرة: واستمر الذي توجه من الغزاة إلى الأفقسيا من المماليك السلطانية، وغيرهم يقتلون في طريقهم ويأسرون إلى أن وصلوا إلى المدينة ودخلوا قصر الملك ونهبوه. ثم عادوا ولم يحرقوا بمدينة قبرس إلا مواضع يسيرة، ولم يدخل المدينة أحد من أعيان العسكر، وغالب الذي دخلها من المماليك السلطانية والمطوعة، وكان دخولهم وإقامتهم بها وعودهم منها في يومين وليلة واحدة. ثم أقام جميع الغزاة بالملاحة وأراحوا بها أبدانهم سبعة أيام، وهم يقيمون فيها شعائر الإسلام من الأذان والصلاة والتسبيح.

ولله الحمد على هذه المنة بهذا الفتح العظيم، الذي لم يقع مثله في الإسلام من يوم غزاهم معاوية بن ابي سفيان ﷺ في سنة نيف وعشرين، ثم ركبت الغزاة المراكب عائدين إلى جهة الديار المصرية، ومعهم الأسرى والغنائم، ومن جملتها متملك قبرس في يوم الخميس ثاني عشر رمضان، بعد ان بعث أهل الماغوسة يطلبون الأمان. هذا ما كان من أمرهم. انتهى

وجزيرة قبرس تسمى باللغة الرومية شبرا ليعني سايبروس Cyprus والبحر يحيط بها مئتي ميل، والميل أربعة آلاف ذراع، والذراع أربعة وعشرون إصبعاً، والإصبع ست شعيرات مضموم بعضها إلى بعض، والفرسخ بهذا الميل ثلاثة أميال و لبريد بهذا الفرسخ أربعة فراسخ. وجزيرة قبرس من الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة وسلطانها يقال له: أراد شبرا؛ أي: سلطان الجزيرة. وقبرس مدينة بالجزيرة تسمى الأفقسيا. ومسيرة جزيرة قبرس سبعة أيام. بالجزيرة المذكورة اثنا عشرة ألف قرية كباراً وصغاراً، وبمدنها وقراها من الكنائس والديارات (أم الأديار؟ لأن تدير جمعه أدياره) والقلالي والصوامع كثير. وبها البساتين المشتملة على الفواكه المختلفة، وبها الرياحين العطرة كالخزام والياسمين والورد والسوسن والنرجس والريحان والنسرين والأقحوان وشقائق النعمان وغير ذلك. وبمدن الجزيرة المذكورة الأسواق والخانات والحمامات والمباني العظيمة. انتهى.

وأما أمر السلطان الملك الأشرف برسباي، فإنه لما بلغه خبر أخذ قبرس في يوم الإثنين ثالث عشرين رمضان حسبما تقدم ذكره، كاد أن يطير فرحاً. ولقد رأيته وهو يبكي من شدة الفرح ويبكي الناس لبكائه وصار يكثر من الحمد والشكر لله. ودقت البشائر بقلعة الجبل وبسائر مدن الإسلام لما بلغهم ذلك، وارتجت القاهرة وماجت الناس من كثرة السرور الذي هجم عليهم، وقرىء الكتاب الوارد بهذا النصر على الناس بالمدرسة الأشرفية بخط العنبريين بالقاهرة، حتى سمعه كل من قصد سماعه وحضر.

وقالت الشعراء في هذا الفتح عدة قصائد، من ذلك القصيدة العظيمة التي نظمها الشيخ زين الدين عبد الرحمن بن اخراط أحد أعيان موقعي الدست بالديار المصرية، وأنشدها بين يدي السلطان بحضرة أرباب الدولة والقصيدة ثلاثة وسبعون بيتاً أولها:

بُشراك يا ملك المليك الأشرفي ... بفتوح قبرس بالحسام المشرفي

فتحٌ بشهر الصوم تمّ له ... فيا لك أشرف في أشرف في أشرف

فتح تفتحت السموات العلا ... من أجله بالنصر واللطف الخفي

والله حفّ جنوده بملائك ... عاداتها التأييد وهو بها حفيّ

الأشرف السلطان أشرف مالك لولاه أنفس ملكه لم تشرف
حامي حمى الحرمين بيت الله وال قبر الشريف لزائر ومطوف

انتهى.

نصر لا يُفسَّر إلا بتأييد الله المسلمين بملائكته:

قلت: وكل ذلك، والنصارى تكذب هذا الخبر وتستغربه من أسر متملك قبرس وهزيمته على هذا الوجه: لأن أمر هذا النصر في غاية من العجب من وجوه عديدة:

- **أولها:** قلة من قاتل الفرنج من المسلمين، فإنهم كانوا في غاية من القلة، بحيث إن العقل لا يقبل ذلك إلا بعد وقوعه في هذه المرة.
- **وثانيهما:** أنه لم تتعب عساكر الإسلام ولا وقع مصاف.
- **وثالثها:** أنه كان يمكن هزيمة صاحب قبرس من المسلمين بعد أيام كثيرة، من وجوه عديدة يطول الشرح في ذكرها لا تخفى على من له ذوق.
- **ورابعها:** أنه كان يمكن هزيمة الفرنج، ولا يمكن مسك الملك وأسره أيضاً من وجوه عديدة.
- **وخامسها:** أن غالب العسكر، إذا حصل لهم هزيمة يتحابون ويرجعون غير مرة على من هزمهم، لا سيما كثرة عساكر الفرنج، وقلة من حضر الوقعة من عساكر المسلمين في هذه المرة فكان على هذا يمكنهم الكر على المسلمين بعد هزيمتهم غير مرة.
- **وسادسها:** أن الوقعة والقتال والهزيمة والقبض على الملك وتشتت شمل الفرنج والاستيلاء على وما أرى إلا أن الله سبحانه وتعالى أعز الإسلام وأهله وخذل الكفر وأهله بهذا النصر العظيم، الذي لم يسمع بمثله في سالف الأعصار، ولا فرح بمثله ملك من ملوك الترك.

ولقد صار للملك الأشرف برسباي بهذا الفتح ميزة على جميع ملوك الترك إلى يوم القيامة. اللهم لا مانع لما أعطيت.

احتفال تاريخي: ولما بلغ الملك عود الغزاة المذكورين إلى جهة الديار المصرية، رسم فنودي بالقاهرة ومصر بالزينة. ثم ندب السلطان جماعة كبيرة عن المماليك السلطانية بالتوجه إلى الثغور؛ لحفظ مراكب الغزاة بعد خروجهم منها؛ خوفاً من أن يطرقهم طارق من الفرنج مما يأتي صاحب قبرس من نجدات الفرنج. وكان هذا من أكبر المصالح. ثم رسم السلطان لهم أن يأخذوا جميع المراكب من ثغر دمياط ويأتوا بها إلى ثغر الإسكندرية لتحفظ بها؛ وسبب ذلك أن الغزاة المذكورين كان منهم من وصل إلى ثغر الإسكندرية، ومنهم من وصل الى ثغر دمياط. ومنهم من وصل إلى الطينة؛ لكثرة المراكب ولاختلاف الأرياح. وبينما السلطان في انتظار المجهدين، قدم عليه السيد الشريف بركات بن حسن بن عجلان أمير مكة منها، وقد استدير بعد موت أبيه، فأكرمه السلطان وخلع عليه بإمرة مكة، على أنه يقوم بما تأخر على أبيه من الذهب وهو مبلغ خمسة وعشرين ألف دينار، فإن أباه الشريف حسن بن عجلان كان قد حمل من الثلاثين ألف دينار التي التزمها قبل موته خمسة آلاف دينار. ثم التزم بركات أيضاً حمل عشرة آلاف دينار في كل سنة، وأن لا يتعرض السلطان لما يؤخذ من بندر جدة من عشور بضائع التجار الواصلة من الهند وغيره، وأن يكون ذلك جميعه لبركات المذكور. انتهى.

ولما كان يوم عيد الفطر، ابتدأ دخول الغزاة إلى ساحل بولاق أرسالاً كما خرجوا منها. ووافق في هذه الأيام وفاء النيل ستة عشر ذراعاً، فتضاعف مسرات الناس من كل جهة. واستمر دخولهم في كل يوم إلى ساحل بولاق، إلى أن تكامل في يوم الأحد سابع شوال. ونزلوا بالميدان الكبير بالقرب من موردة الجبس.

وأصبحوا من الغد في يوم الإثنين ثامن شوال، وهو يوم فطر السلطان: فإنه كان يصوم الستة أيام من شوال. وطلعوا إلى القلعة على كيفية ما يذكر وهم جميع الأمراء والأعيان من المجاهدين والأسرى والغنائم بين أيديهم ومتملك قبرس الملك جينوس بن جاك أمامهم، وهو منكس الأعلام، وقد اجتمع لرؤيتهم خلائق لا يعلم عدتهم إلا الله تعالى، حتى أتت أهل القرى والبلدان من الأرياف للفرجة.

وركبت الأمراء من الميدان ومعهم غالب الغزاة، وساروا من أرض اللوق حتى خرجوا من المقس، ودخلوا من باب القنطرة، وشقوا القاهرة إلى باب زويلة، وتوجهوا من الصليبة من تحت الخانقاه الشيخونية من سويقة منعم إلى الرميلة، والخلق في طول هذه المواضع تزدحم، بحيث إن الرجل لا يسمع كلام رفيقه من كثرة زغاريد النساء التي صفت على حوانيت القاهرة بالشوارع، من غير أن يندبهم أحد لذلك والإعلان بالتكبير والتهليل ومن عظم التهاني. هذا مع تحليق الزعفران والزينة المخترعة بسائر شوارع القاهرة حتى في الأزقة. وفي الجملة: كان هذا اليوم من الأيام التي لم نرها قبلها ولا سمعنا بمثلها.

وساروا على هذه الصفة إلى أن طلعوا إلى القلعة من باب المدرج. وهم مع ذلك في ترتيب في مشيهم يذهب العقل، وهو أنهم قدموا أولاً الفرسان من الغزاة أمام الجميع، ومن خلف الفرسان طوائف الرجالة من المطوعة وعشران البلاد الشامية وعربان البلاد وزعر القاهرة، ومن خلف هؤلاء الجميع الغنائم محمولة على رؤوس الحمالين وعلى ظهور الجمال والخيول والبغال والحمير، التي كانت على الرؤوس، فيها تاج الملك وأعلامه منكسة وخيله تقاد من وراء الغنائم، ثم من بعدهم الأسرى من رجال الفرنج، ثم من بعدهم السبي من النساء والصغار، وهم أزيد من ألف أسير تقريباً، سوى ما ذهب في البلاد والقرى مع المطوعة وغيرهم من غير إذن مقدم العساكر. وهو أيضاً يشارب ما ذكر.

ومن وراء الأسرى جينوس ملك قبرس، وهو راكب على بغل بقيد حديد، وأركب معه اثنان من خواصه، وعن يمينه الأمير ينال الجكمي أمير مجلس، وأمامه قرا مراد خجا الشعباني أحد مقدمي الألوف أيضاً، وعن يسار الأمير تغري بردي المحمودي رأس نوبة النوب، وأمامه الأمير حسين المدعو تغري برمش المحمودي رأس نوبة ترب، وأمامه الأمير حسين المدعو تغري برمش أحد مقدمي الألوف أيضاً، وأمامهم أمراء الطبلخانات والعشرات على مراتبهم وأمراء البلاد الشامية.

وساروا على هذه الصفة حتى طلعوا إلى القلعة، فأنزل جينوس عن البغل وكشف رأسه عند باب المدرج، وقد حتاطه الحجاب وأمراء جاندار، وقد صفت العساكر الإسلامية من باب المدرج إلى داخل الحوش السلطاني.

فلما دخل جينوس من باب المدرج، قبّل الأرض ثم قام ومشى، ومعه الأمراء من الغزاة والحجاب ورؤوس النوب وهو يرسف في قيوده على مهل لكثرة الزحام.

هذا، وقد جلس الملك الأشرف بالمقعد الذي على باب البحرة المقابل لباب الحوش السلطاني، في موكب عظيم من الأمراء و لخاصكية، وعنده الشريف بركات بن حسن بن عجلان أمير مكة، وهو جالس فوق الأمراء، ورسل خوند كار مراد بن عثمان متملك بلاد الروم، ورسل صاحب تونس من بلاد المغرب، ورسول الأمير عذرا أمير العرب بالبلاد الشامية، وقد طال جلوس الجميع عند السلطان إلى قريب الظهر والسلطان يرسل إلى الغزاة رسولاً بعد رسول باستعجالهم، حتى اجتازوا بتلك الأماكن المذكورة، فإنها مسافة طويلة وأيضاً لا يقدرون على سرعة المشي من كثرة ازدحام الناس بالطرقات.

ثم ساروا من باب المدرج إلى أن دخلوا باب الحوش. فلما رأى متملك قبرس السلطان وهو جالس على المقعد المذكور في موكبه، وأمره من معه بتقبيل الأرض، غُشي عليه وسقط على الأرض، ثم أفاق، وقبّل الأرض وقام على قدميه عند باب الحوش، تجاه السلطان على بعد. وساوت الغنائم بين يدي السلطان، حتى عرضت عليه بتمامها وكمالها، ثم الأسرى بأجمعهم حتى انتهى ذلك كله. فتقدمت الأمراء الغزاة وقبلوا الأرض على مراتبهم إلى أن كان آخرهم الأمير إينال الجكمي مقدم العساكر.

ثم أمر السلطان بإحضار متملك قبرس. فتقدم ومشى وهو بقيوده ورأسه مكشوف، وبعد أن مشى خطوات أمر فقبل الأرض، ثم قام ثم قبل الأرض ثانياً بعد خطوات، وأخذ يعفّر وجهه في التراب ثم قام فلم يتمالك نفسه وقد أدهشه ما رأى من هيبة الملك وعز الإسلام فسقط ثانياً مغشياً عليه. ثم أفاق من غشوته، وقبّل الأرض، وأوقف ساعة بالقرب من السلطان، بحيث إنه يتحقق شكله.

هذا، والجاويشية تصيح، والشبابة السلطانية تزعق، والأزبان يضرب على آلته، وروؤس النوب والحجاب تهوّل الناس بالعصي، من كثرة العساكر والناس بالحوش المذكور هذا مع ما الناس فيه من التهليل والتكبير بزقاقات القلعة وأطباق المماليك السلطانية وغيرها. ثم أمر السلطان بجينوس المذكور أن يتوجه إلى مكان بالحوش السلطاني، فمروا به في الحال إلى المكان المذكور.

ثم طلب السلطان مقدمي عساكر الغزاة من أمراء مصر والشام والخاصكية المقدم كل واحد منهم على مركب، وكانوا كثيراً جداً؛ لأن عدة مراكب الغزاة المصريين والشاميين زادت على مئة قطعة، وقيل: مائتان، وقيل: أكثر أو أقل ما بين أغربة وفراقير وزوارق وغير ذلك.

فأول من بدأ بهم السلطان وخلع عليهم أمراء الألوف بمصر والشام، وخلع على كل واحد منهم أطلسين متمراً، وقيد له فرساً بقماش ذهب، وهم: الأمير إينال الجكمي أمير مجلس، والأمير تغري بردي المحمودي الناصري رأس نوبة النوب، والأمير قرامرادخجا الشعباني الظاهري برقوق أمير جاندار، والأمير حسين بن أحمد المدعو تغري برمش البهسني التركماني، أحد مقدمي الألوف، والأمير طوغان السيفي تغري بردي، أحد مقدمي الألوف بدمشق، ثم أمراء الطبلخانات والعشرات من أمراء مصر والشام، على كل واحد فوقاني كمخا أحمر وأخضر وبنفسجي بطرز زركش على قدر مراتبهم، وكذلك كل مقدم مركب من الخاصكية والأجناد وغيرهم. فكان هذا اليوم يوماً عظيماً جليلاً، لم يقع مثله في سالف الأعصار، أعز الله تعالى فيه دين الإسلام، وأيده وخذل فيه الكفر وبدده. ثم انفض الموكب ونزل كل واحد إلى داره.

وقد كثرت التهاني بحارات القاهرة وظواهرها لقدوم المجاهدين، حتى إن الرجل كان لا يجتاز بدرب ولا حارة إلا وجد فيها التخليق بالزعفران. ثم أصبح السلطان من الغد، وهو يوم الثلاثاء تاسع شوال يجمع التجار لبيع الغنائم من القماش والأواني والأسرى. ثم أرسل السلطان يطلب من متملك قبرس المال، فقال: مالي إلا روحي، وهي بيدكم، وأنا رجل أسير لا أملك الدرهم الفرد، من أين تصل يدي إلى مال أعطيه لكم؟

وتكرر الكلام معه بسبب ذلك، وهو يجيب بمعنى ما أجاب به أولاً، حتى طلبه السلطان بالحوش، وكان به أسارى الفرنج، فلما حضر بين يدي السلطان وقبل الأرض وأوقف وشاهد الأسرى من الفرنج في تلك الحالة، صرخوا بأجمعهم صرخة واحدة، وحثوا التراب على رؤوسهم والسلطان ينظر إليهم من مجلسه بالمقعد الذي كان جلس به من أمسه.

وسبب صراخ الأسرى وعظيم بكائهم، أنه كان فيهم من لا يصدق أن ملكهم قد أسر؛ لكثرتهم وتفرقهم في التراكب والاحتفاظ بهم، وعدم اجتماع بعضهم على بعض، فكان إذا قيل لبعضهم: إن ملككم معنا أسير، يضحك ثم يقول: أين هو؟ فإذا قيل له: بهذه المركب، ويشار إلى مركب الأمير تغري بردي المحمودي يهزأ بذلك ويبتسم.

فلما عاينوه تحققوا أسره وهالهم ذلك. وقيل: إن بعض سبي الفرنج سألت من رجل من المسلمين، لما كسروا الصليب الكبير الذي يعرف به جيل الصليب ببلادهم، وكان هذا الصليب معظماً عندهم جداً وقالت: نحن إذا حلف منا رجل أو امرأة على هذا الصليب باطلاً أوذي في الوقت، وأنتم قد كسرتموه واحرقتموه ولم يصبكم بأس. ما سبب ذلك؟ فقال لها الرجل: أنتم أطعتم الشيطان، فصار يغويكم ويستخف بعقولكم، ونحن قد هدانا الله للإسلام، وأنزل علينا القرآن، فلا سبيل له علينا، فعندما كسرناه بعد أن ذكرنا اسم الله تعالى عليه، فر منه الشيطان وذهب إلى لعنة الله. فقالت المرأة: هو ما قلته وأسلمت هي وجماعة معها. انتهى.

ولما أوقف جينوس المذكور بالحوش بين يدي السلطان، وأوقف معه جماعة من قناصلة الفرنج ممن كان بمصر وأعمالها، وتكلم الترجمان معه فيما يفدي به نفسه من المال وإلا يقتله السلطان، صمم هو على مقالته الأولى، فالتزم القناصلة عنه المال لفدائه، من غير تعيين قدر بعينه، ولكنهم أجابوا السلطان بالسمع والطاعة فيما طلبه وعادوا بجينوس إلى مكانه من الحوش والترسيم عليه، وكان الذي رسم عليه السيفي أزكماس المؤيدي الخاصكي المعروف بأزكماس قرعون.

وأقام جينوس بمكانه إلى يوم الأربعاء فرسم له السلطان ببدلتين من قماشه وأمر له بعشرين رطل لحم في كل يوم وستة أطيار دجاج وخمس مئة درهم فلوساً برسم حوائج الطعام، وفسح له في الاجتماع بمن يختاره من الفرنج وغيرهم، وأدخل إليه جماعة من حواشيه لخدمته. كل ذلك، والسلطان مصمم على طلب خمس مئة ألف دينار منه يفدي بها نفسه وإلا يقتله، والرسل تتردد بينهم من التراجمين والقناصلة إلى أن تقرر الصلح بعد أيام، على أنه يحمل مائتي ألف دينار يقوم منها بمئة ألف دينار عاجلة، وإذا عاد إلى بلاده أرسل بالمئة ألف دينار الأخرى، وضمنه جماعة في ذلك، وأنه يقوم في كل سنة بعشرين ألف دينار جزية.

واشترط جينوس مع السلطان أن يكف عنه طائفة البندقة وطائفة الكيتلان من الفرنج، فضمن له السلطان ذلك، وانعقد الصلح، ثم أطلقه من السجن بعد أيام كما سنذكره في يومه. هذا ما كان من أمر صاحب قبرس وغزوه. انتهى.

وتوفي السلطان الاشرف برسباي فاتح قبرص في ذي الحجة ٨٤١ –مايو ١٤٣٧م. واستمرت جزيرة قبرص منذ ذلك الوقت تبعة لمصر، حتى سنة (٩٢٣هـ–١٥١٧م) التي سقطت فيها دولة المماليك على يد السلطان العثماني "سليم الأول". ومن ثم صار المماليك قواداً ونواباً للعثمانيين في مصر. فاستقل النصارى حينئذ بقبرص لبضعة وسبعين عاماً. ثم أعاد العثمانيون فتح قبرص عام ١٥٧٣م المرة الثالثة في التاريخ الإسلامي. ثم احتلها البريطانيون عام ١٨٧٨م. ثم صبحت مستقلة عام ١٩٤٥م، ومن أيام استقلالها عن البريطانيين وهي مقسومة إلى شطرين شطر مسلم (وهو تركي) وشطر نصراني (وهو اليوناني).

نسأل الله تعالى أن يعيدها وجميع بلاد المسلمين السليبة إلى حوزة الإسلام، وأن ينعم على أهلها بتحكيم الشريعة الغرّاء.

المراجع

١. تفسير القرآن للقرطبي.

٢. تفسير القرآن لابن كثير.

٣. البداية والنهاية لابن كثير.

٤. تاريخ الإسلام للإمام الذهبي، تحت أحداث ووفيات العام المذكور.

٥. **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، لجمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي.

٦. **حسن المحاضرة في اخبار ملوك مصر والقاهرة**، لجلال الدين السيوطي.

٧. **السلطان سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت في عهد المماليك (١٨)** للشيخ الدكتور علي محمد محمد الصّلابيّ. دار المنارة، ٢٠٠٩/٩/١٠ (الشبكة البينية)

٨. **الفاطمية: دولة التقاريح والتباريح**، للدكتور جمال بدوي، دار الشروق، الطبعة الثانية ٢٠٠٨.

٩. **تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقية ومصر وبلاد الشام**، للدكتور محمد سهيل طقوش، دار النفائس، الطبعة الثانية ٢٠٠٧.

10. Geoffrey Hindley: **A brief history of The Crusades** (Islam and Christianity in the struggle for World Supremacy). Robinson London, 2004.

11. Davis W. Tschanz and Hamra Abbas: **Histor's Hinge: Ain Jalut.** *Saudi Aramco World* July/August 2007. pages 24-33.

12. **Wikipedia, the free encyclopedia, Online research according to subject.**